

نقد الحضارة الغربية

أوروبا في العصور الوسطى
(تاريخ . سياسة . اجتماع)



الجزء الثالث عشر

مجموعة باحثين

نقد الحضارة الغربيّة (١٣)

(أوروبا في العصور الوسطى)

(تاريخ - سياسة - اجتماع)



نقد الحضارة الغربية (١٣)

(أوروبا في العصور الوسطى)

(تاريخ - سياسة - اجتماع)

مجموعة باحثين



نقد الحضارة الغربية. الجزء الثالث عشر : اوربا في العصور الوسطى تاريخ-سياسة-اجتماع / تأليف مجموعة باحثين.-الطبعة الأولى.-النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١٤٤٥ هـ. = ٢٠٢٤.
مجلد : ايضاحيات ؛ ٢٤ سم.- (المشروع التأسيسي لعلم الاستغراب)
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
ردمك : ٩٧٨٩٩٢٢٦٢٥٥٦٠
١. الشرق والغرب. ٢. الحضارة الغربية. أ. العنوان.

LCC : CB251 .N37 2024

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة أثناء النشر

- الكتاب: نقد الحضارة الغربية (١٣) - (أوروبا في العصور الوسطى) (تاريخ - سياسة - اجتماع)
- الإشراف العام: السيد هاشم الميلاني - الشيخ حسن الهادي.
- المدير العلمي: الدكتور محمد مرتضى
- تأليف: مجموعة باحثين
- الناشر: العتبة العباسية المقدسة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية.
- الطبعة: الأولى ٢٠٢٤م / ١٤٤٥هـ.

الفهرس

- مقدمة ٧
- مدخل ٩
- إرهابات عصر النهضة الأوروبية ١٢٠٠ - ١٥٠٠م
- محمد السليمان ١٣
- الكشوف الجغرافية وبداية الحركة الاستعمارية
- حسين نكلوي ٤٧
- الجغرافيا السياسية للقارة الأوروبية في القرون الوسطى
- إبراهيم أحمد سعيد ٩٥
- أسباب الحروب الصليبية ودوافعها
- عمار محمد النهار ١٢٣
- نظرة تاريخية نقدية للحملات الصليبية الرئيسة (الآثار والنتائج)
- ناديا محمد زهير الغزولي ١٩٧
- الحروب والصراعات الغربية (صراع الأباطرة)
- عباس مرهج فرج ٢٣٥
- الإمبراطور جستنيان الكبير (قراءة نقدية في تاريخ الاستبداد في عهد أشهر أباطرة بيزنطة)
- أحمد محسن الخضر ٢٦٩

١٨٦٨ - ٨١٤م أسطورة شارلمان

أحمد حسين المشعل ٣١٥

نظريّة الدولة في القرون الوسطى

إياد فرحان بدرية ٣٤١

الحياة الاجتماعيّة في المجتمع الأوروبي خلال العصور الوسطى

رفاه البوشي الدباغ ٣٩٥

المرأة والأسرة في أوروبا العصور الوسطى

هبة شباط ٣١٥

النظام الاقتصادي في أوروبا العصور الوسطى

عبد الله السليمان ٤٥٣

ها نحن اليوم نقدّم للقارئ العزيز المرحلة الخامسة والأخيرة من مشروع نقد الحضارة الغربيّة، والتي ستغطّي الفترة الواقعة بين أواخر القرن الخامس ميلاديّ، أي من سقوط روما، إلى أواخر القرن الخامس عشر ميلاديّ.

وكنا قد قدّمنا سابقاً، في اثني عشر مجلّداً، المراحل الأربع التي سبقتها من ما قبل القرن التاسع قبل الميلاد، حتّى القرن الخامس ميلاديّ.

وستضمّن هذه المرحلة مجموعة من الأبحاث التي تغطّي ما سُمّي بالعصر الوسيط، في مجالات مختلفة من السياسة والاجتماع والتاريخ، والفلسفة واللاهوت.. الخ.

لقد قلنا إنّ هذه المرحلة ستكون الأخيرة، فصحيح أنّ السلسلة قد لاقت رواجاً واستحساناً من القراء بوصفها عملاً نوعياً وجريئاً، إلّا أنّ توقّف السلسلة عند هذا الحدّ لا يعني انتهاءها، بل استمرارها لكن بشكل مختلف.

لقد كان بالإمكان، في المراحل السابقة، متابعة الحضارة الغربيّة عن طريق منهج المراحل التاريخيّة، إلّا أنّنا وجدنا أنّ هذا المنهج لم يعد صالحاً بعد القرن الخامس عشر، نظراً للتشعبات والتداخلات الفكرية والفلسفيّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، بحيث يصعب جمع أشتاتها، وبناء مشتعباتها، فكان لا بدّ من سبيل آخر.

وقد وقع خيار اللجنة العلميّة في المركز الإسلاميّ للدراسات الاستراتيجيةّ على المعالجة التفكيكيّة لهذه الملفّات والعلوم والأفكار التي ستشعب، فتقرّر العمل وفق منهجيّة التفكيك، بحيث ستتمّ متابعة هذا المشروع وفق مشاريع متعدّدة ستلاحق

بعضها النظم والأفكار السياسيّة، فيما يتابع مشروع آخر البنى الفلسفيّة ورجالاتها في مشروع أعلام الغرب، بينما يلاحق مشروع ثالث المناهج الغربيّة، وهكذا.

وبالمحصلة، بعد أن كان مشروع نقد الحضارة الغربيّة مشروعاً واحداً في مراحل الخمس الأولى، سيتحوّل إلى عدّة مشاريع مترابطة تحت مسمّيات مختلفة تبعاً للموضوع، لكنّها في مجملها العام ستكون تحت العنوان الأساس، وهو: نقد الحضارة الغربيّة.

وعلى أيّ حال، ومع انتهاء هذه المرحلة، لا بدّ من شكر كلّ من ساهم معنا في هذا المشروع، في كتابة أو مشورة، أو نقد بناء، أو أفكار نيّة، ساهمت في إنجاز هذه المراحل وتطويرها. ونسأل الله للجميع التوفيق والسداد، والصحة والرشاد، إنّه خير معين، وخير هاد.

المركز الإسلاميّ للدراسات الإستراتيجيّة

١١-٧-٢٠٢٣م الموافق ل ٢٨ ربيع الآخر ١٤٤٥هـ

بعيداً عن التسمية التي أطلقت على القرون الممتدة من القرن الخامس حتى الخامس عشر ميلادي، بالقرون الوسطى أو العصور الظلامية، التي ستحدث عنها لاحقاً، إلا أن المتتبع لحيثيات قيام الإمبراطورية الرومانية، وما رافقها من تطورات عسكرية وسياسية وثقافية، على المستويين الداخلي والخارجي، يستطيع أن يرسم مساراً انحدارياً واضحاً، يستشرف فيه أن هذه الإمبراطورية آيلة للسقوط لا محالة.

فعلى المستوى العسكري، ظهر جلياً أن هذه الإمبراطورية لا يمكن لها أن تستمر بالتوسع مع ازدياد الشخصيات الرومانية الطامعة بالسلطة، كما أن تهور بعض الأباطرة في التوسع شمالاً وغرباً، قد راكم عدد الأعداء، فضلاً عن الطامعين في إسقاط هذه الإمبراطورية ووراثتها. دون أن ننسى حجم الصراعات الداخلية على السلطة، ولئن طال حكم بعض الأباطرة، فإن ذلك يعود لقدرة بعضهم على نسج علاقات، وتوزيع مغام، والدخول في حروب إلهاء وتشيت انتباه، لا إلى تراجع عدد العدوات، وحل مشكلات جذرية لما كان يعانيه النظام القائم أساساً من الاستقواء والمغامرات العسكرية، خاصة أنه كان من المعلوم، أن الوصول إلى السلطة السياسية للشخص، يقوم على حجم الإنجازات العسكرية التي يحققها، فكان سقوط روما أمراً حتمياً، ومع دخول العوامل الدينية لاحقاً، كان تقسيم الإمبراطورية قدراً لا مفر منه.

أمّا سياسياً، فبعد سقوط روما، كانت المسيحية قد بدأت تتغلغل في أنحاء الإمبراطورية، وسلطان رجال الدين آخذاً بالتوسع، ورغم أن التعاليم الكنسية بحسب رجالها، لا سيما بولس، قد فصلت بين الديني والسياسي، إلا أن رجال السياسة الطامحين لإضفاء نوع من الشرعية على أنفسهم، ورجال الكنيسة المتوثبين نحو السلطة الزمنية، خلطت الديني بالسياسي، فتشكّلت في فترات مختلفة نوعاً من

الثنائية المستترة في الحكم، ف وقعت اختلافات كثيرة، أضمرت تارة، وظهرت أخرى، على شكل حروب، أضفت عليها الكنيسة القداسة، وأسبغ عليها الأباطرة العلمنة. فبدا واضحاً أنّ النظام السياسيّ يعاني من مأزق حرج، إلى أن استقرّ نسبياً لصالح الكنيسة.

ولم يكن الوضع الثقافيّ-الدينيّ في الإمبراطورية المنقسمة بأفضل أحواله، فعلى الرغم من أنّ تعاليم بولس التي قامت على محاولة استدراج الوثنيين إلى المسيحية، عبر إدخال الكثير من تلك الاعتقادات الوثنية إلى الدين الجديد الوافد، أدّت إلى حركة تنصير واسعة، ساعده على ذلك قرارات إمبراطورية متتالية؛ بدءاً من منع محاربة المسيحيين، وصولاً إلى جعل المسيحية الدين الرسمي للبلاد، إلّا أنّ هذا المزج ترك أثراً كبيراً على مجمل الحياة الثقافية.

لم تكن الحياة الثقافية الرومانية بأفضل أحوالها حتّى في أوج قوّتها وسلطانها، فقد عانى الرومان من هيمنة الثقافة اليونانية. ورغم العدد الكبير من المحاولات في تظهير فلسفة رومانية، إلّا أنّ الرومان لم يستطيعوا أن يضاهاوا اليونان في فلسفتها، فبقيت الفلسفة الرومانية تدور في فلك الفلسفة السياسية، لا سيّما أنّ فلسفتهم انحصرت بشكل كبير في الفلسفة العملية، ونُسب فلاسفتهم إلى مذاهب أخلاقية كالرواقية وغيرها، فعانت الفلسفة الرومانية من انتاج فلسفة أنطولوجية، أو إبستمولوجية.

ومع دخول المسيحية إلى الإمبراطورية، وجد المسيحيون أنفسهم في المأزق نفسه الذي عانى منه الرومان سابقاً، فتقاذفتهم المذاهب اليونانية، سواء في العصر الذهبيّ أو في العصر الهلنستيّ، فتاهوا بين أفلاطون والأفلاطونية المحدثة، ثمّ دخلوا مدرسة أرسطو، وتأثّروا بابن رشد، حتّى طُبّع عصره بأكمله بطابعه فسُميّ بالرُّشديّة اللاتينية، في محاولات اقتفاء أثر ابن رشد. وربما لا نجازف بالافتراض أنّ من أحد أسباب الحروب الصليبية هو ترسيخ نوع من القطيعة مع الفكر الإسلاميّ الذي اعتلى المشهد الثقافيّ في أوروبا، وتربّع على عرشها.

أمام هذه الوقائع أنبرى مجموعة من رجال الفكر المسيحيين، للكتابة، ومحاولة تفكيك الإشكاليات التي فرضتها هيمنة الفلسفة اليونانية من جهة، وتغلغل الفلسفة الإسلامية مسلّحة بالفلسفة اليونانية نفسها، ومضيفة إليها من جهة أخرى، فتركزت معظم المحاولات

في الفلسفة المسيحية على حلّ مشكلة العلاقة بين العقل والدين، بين العقل والنصّ، بين العقل والإيمان... إلخ

وإذا كان هذا هو حال النخب الثقافية، فلنا أن نتصوّر حال العامة، التي انتشرت فيها الخرافات والشعوذات، وأعمال السحر، وقد زاد من حدّة ذلك، أداء بعض رجال الكنيسة الفاسدين الذين وجدوا في الناس اللاهثة وراء النجاة بأيّ ثمن، فرصة لتجميع الذهب والفضّة وتكديس الثروات، فبدأوا يبيعون الناس صكوك الغفران، وأراضٍ في الجنّة، وبدلاً من قطع دابر هؤلاء لحفظ إيمان الناس بشكل سليم، ومع ظهور ما سمّي بالهرطقات، عمدت الكنيسة إلى اصدار قرارها بتشكيل محاكم تفتيش؛ وبدل أن تفتّش عن الإقطاعيين والمفسدين من رجال الكنيسة، أخذوا يفتّشون في خبايا نفوس الناس، ومدى صدق إيمانهم، وسلامة عقيدتهم، وطُهر قلوبهم، ونقاء سريرتهم.

ولم يكن الوضع الاجتماعي والاقتصادي إلّا انعكاساً للوضع السياسي والثقافي، فتردّت الأوضاع الاجتماعية، وتدهور الاقتصاد، فازداد الفقير فقراً، وزاد الأغنياء من ثرواتهم، وظهرت طبقة جديدة من الأغنياء معظمهم من رجال الإكليروس. ومن جديدة، بدل أن يقوم رجال الكنيسة بإجراءات عميقة وجذريّة في هذا النظام القائم، عمدوا للهرب إلى الأمام، عبر إشعال الحروب الداخلية تارة، والخارجيّة الصليبيّة تارة أخرى، فرسّخوا بذلك سلطانهم، وزادوا في ثرواتهم.

لقد كانت الثورة على هذه الفترة أمراً لا بدّ منه، خاصّة مع قيام الغرب بالسطو على معظم تراب الشرق العلميّ، خصوصاً في فترة تراجع المسلمين وانشغالهم بخصوماتهم السياسيّة الداخليّة. وهكذا حصل.

لقد أطلق الغرب لاحقاً على الفترة الممتدّة من القرن الخامس حتّى الخامس عشر ميلاديّ تسميات مختلفة بألفاظها، لكنّها تشير إلى معنى واحد في مضمونها، وهو أنّ هذه العصر هو عصر التخلف والظلمات، فيما أخذوا يمجّدون قليلاً العصر الرومانيّ، لكنهم توافقوا على أنّ حضارتهم المحدثّة تنتمي إلى اليونان.

من الواضح أنّ هذه التسميات التي أُطلقت على العصر الوسيط لا تعدو كونها موقفًا أيديولوجيًا مغالطًا؛ فعصر الظلمات هو عصر هيمنة الدين (المسيحي)، مقابل عصر الأنوار حيث التحرّر من الميتافيزيقيّ والغيبيّات، هكذا أرادت أوروبا أن تصوّر الأمر.

لكن ما الذي كان مختلفًا بين العصر الوسيط والعصور التي سبقتة؟ هل كان الغرب غربًا لا دينيًا قبل دخول المسيحية، أم كان غارقًا في الدينيّ-الوثنيّ؟ ألم تشكّل آلهة روما عمدة الحياة الثقافيّة في المملكة، ثمّ الجمهوريّة، ثمّ الإمبراطوريّة الرومانيّة؟ ومن كان يجرؤ على التعرّض لجوبيتر أو فينوس، أو مينرفا، أو مارس؟ وحتىّ الأباطرة، فإنّ أعلى مرتبة كانوا يسعون إليها هي ترسيخ فكرة أنّهم من أنساب الآلهة.

أمّا اليونان، فلم تكن حالهم بأفضل من الرومان، فجعلوا جبل الأولمب مركزًا للآلهة يديرون منه العالم، واعتبروا التعرّض لزيوس هرطقة ما بعدها هرطقة!

ويكفي أنّ هذا النظام القائم على عبادة الآلهة المتشكّرة، قد أفضت إلى إعدام سقراط.

لم تكن مشكلة الغرب الحديث مع العصر الوسيط، حقيقة، مشكلة الدين بشكل عامّ، لكن الغرب رأى أنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة ما كانت لتتفكّك لولا المسيحيّة، وأنّ القوّة والسيطرة الرومانيّة إنّما تلاشت بسببها، رغم كلّ الحروب الصليبيّة وما رافقها من جرائم.

وإنّه من الضروريّ التوضيح أنّ الغرب الحديث نسب نفسه بتمجيد إلى عنصريّن: اليونانيّ ثقافيًا، والرومانيّ سياسيًا وعسكريًا.

أمّا اليونانيّ فبصفته مؤسسًا للعنصريّة والفوقيّة والاستعلاء، وأمّا الرومانيّ فبوصفه معتمدًا على القوّة العسكريّة الغاشمة. وهنا تحديدًا مربوط الفرس. فأوروبا صاحبة القوّة الغاشمة امتداد لروما الغاشمة، وأيّ عامل يسبّب في تراجع هذه القوّة هو انحطاط، وتخلّف، وظلمات.

مدير التحرير العلميّ

د. محمد مرتضى

إرهاصات عصر النهضة الأوروبية ١٢٠٠-١٥٠٠م

محمد السليمان^[١]

مقدمة

إنَّ النهضة الأوروبيَّة -إذا جاز استعمال هذا اللفظ- لم تبدأ في القرن الرابع عشر، بل في منتصف القرن الحادي عشر، وقد أتت بصورة رئيسة استجابةً للاحتكاك المتزايد بالعرب المسلمين، سواء بالطرق العسكرية في بلاد الشام عبر الحملات الصليبيَّة، أو بالطرق العلميَّة في الأندلس وصقلية من خلال الدراسة في الجامعات العربيَّة. وكان من الطبيعي أن يكون الجنوب الفرنسي وصقلية المساهم الفعَّال في النهضة الأوروبيَّة؛ بحكم قربه الأكبر من منافذ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة. فالدراسات الإنسانيَّة كانت منتشرة في مدينة شارتر بفرنسا في القرن الثاني عشر، بالقدر الذي انتشرت به في فلورنسا في القرن الخامس عشر، وإنَّ الحركة الإيطاليَّة التي كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كانت مجرد امتدادٍ للنهضة الثقافيَّة التي بدأت في القرن الثاني عشر.

وبما أنَّ هذا البحث يندرج ضمن سلسلة أبحاث نقد الحضارة الغربيَّة، فإنَّنا مدعوون للتعرُّف على عصر النهضة بأسلوب علمي، وردَّ الأسباب إلى مسبباتها، فرغم الأثر العظيم للحضارة العربيَّة الإسلاميَّة في النهضة الأوروبيَّة، إلَّا أنَّ بعض الأوروبيين ينكرون ذلك. ولمَّا كان من المفترض أن يكون عصر النهضة عصرًا مشرقًا، أسهم في نقل أوروبا من العصور الوسطى؛ عصور الظلام، إلى عصر الأنوار والمعرفة -وإنَّ كنا لا ننكر تلك الحقيقة- إلَّا أنَّنا مدعوون للتعرُّف على المظاهر السلبيَّة، التي كرَّسها هذا العصر من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر في مختلف جوانب حياة أوروبا، والتي استمرَّ بعضها حتَّى يومنا هذا.

أولاً: المدخل إلى عصر النهضة

لقد درسنا وتعلَّمنا موروثاً ثقافياً خاطئاً، هو أنَّ هناك كياناً اسمه الغرب، وهو عبارة عن

مجتمع وحضارة مستقلين ومعارضين للمجتمعات والحضارات الأخرى؛ فاليونان القديمة أنجبت روما، التي أنجبت بدورها أوروبا المسيحية، التي أنجبت أوروبا عصر النهضة، وأفضت النهضة إلى التنوير، وتولّد عن التنوير الديمقراطية السياسية والثورة الصناعية، وتداخلت الصناعة مع الديمقراطية لثمرتا بدورهما الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا يصوّر الغرب تاريخه كقصّة نجاح معنوي وسباق على مدى الزمن؛ إذ سلّم كلّ عداءٍ في السباق شعلة الحرية إلى المرحلة التالية، مع التأكيد على دور عصر النهضة بوصفه عصراً مقدّساً ومرحلة انتقال مصيرية في تاريخ الإنسانية، طبعاً مع إنكار تامّ لفضل الآخرين - ولا سيّما العرب المسلمين - في ميلاد هذا العصر^[1].

ورغم هذا الإجحاف في نسب الفضل إلى أهله، وإنكار أنّ العلوم التي قامت عليها أوروبا في عصر النهضة، كانت علوماً عربيةً مترجمةً إلى اللاتينية بعد طمس أسماء مؤلفيها من العلماء العرب، إلّا أنّه ينبغي الاعتراف بالفضل الذي تدين به النهضة العلمية الغربية الحديثة لجهود كوكبة من علماء العرب في مختلف فروع العلم والمعرفة، استطاعت أن تبذل في التأليف والتنظير والابتكار^[2]، في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في غياهب الظلمات والجهل، مغلقة على نفسها تحت سلطة الكنيسة، تعدّ كلّ ما يقوم به العرب المسلمون في حقل المعرفة والبحث العلمي كفراً من عمل الشيطان.

يحتلّ القرن الثاني عشر مكانة بارزة في تطوّر الحضارة الأوروبية والتمهيد لعصر النهضة؛ لأنّه القرن الذي بدأ بازدهار المدارس الكاتدرائية، وانتهى بافتتاح الجامعات الأوروبية، التي ظهرت في سالرنو وبولونا وباريس ومونبلييه وإكسפורد، فضلاً عن الدراسات والمعارف العلمية العربية الإسلامية، ما أدّى إلى مولد آفاق فكرية جديدة في أوروبا الغربية^[3].

وإذا كانت نهضة القرن الرابع عشر متركزة إلى حدّ بعيدٍ في إيطاليا، فإنّ نهضة القرن الثاني عشر قد شملت جميع البلاد الواقعة في الغرب الأوروبي، منها فرنسا وإنكلترا وإسبانيا

١ - مايكل كاريذر، لماذا يفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافات البشرية نشأتها وتنوّعها، ترجمة: شوقي جلال، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد ٢٢٩، يناير ١٩٩٨م، ص ٤٧.

٢ - توبي أ. هف، فجر العلم الحديث (الإسلام، الصين، الغرب)، ترجمة: محمّد عصفور، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد ٢٦٠، أغسطس ٢٠٠٢م، ص ٧.

٣ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط ٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص ٣٠٥.

وإيطاليا وألمانيا والأراضي المنخفضة، وكانت فرنسا بمثابة المركز لهذه الحركة، حيث ظهرت بها جامعة باريس.

لا يمكننا تحديد بداية أو نهاية زمنية دقيقة لعصر النهضة؛ إذ إنه ليس من السهل تحديد تاريخ فاصل بذاته^[1]، فالانتقال بين العصرين الوسيط والحديث، حدث بالتدريج، ولم يسر على وتيرة واحدة، ثم هو في بلد أوربي ما أسرع وأكمل منه في بلد آخر^[2]، ولكن من الممكن القول إنَّ بذوره ظهرت في منتصف القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر، لتبلغ أشدها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر^[3].

إلا أنه يجب عدم المبالغة في أهمية عصر النهضة؛ ففي الواقع، إنَّ التحوّل لم يعمَّ القارة الأوروبية بأسرها، بحيث يجعلها خالية من رواسب العصور الوسطى وأفكارها، فأساليب الحياة والفكر التي تستمدُّ أصولها من العصور الوسطى، كانت ما تزال تفرض سلطانها في عصر النهضة على بعض البلاد في القارة الأوروبية، وعلى عقول كثير من أبنائها؛ ومن ذلك الاعتقاد في السحر ومخاطبة الموتى والتنجيم والشعوذة كانت ما تزال قائمة، ولمَّا تختفٍ تماماً، واستمرَّت بعض الخرافات تحيا في أوساط الفلاحين، بينما امتزج بعضها الآخر بالطقوس الدينية المسيحية^[4].

ثانياً: تعريف عصر النهضة

لقد كان عصر النهضة هو عصر الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وكان هذا الانتقال عمليةً بطيئةً لم تحدث بين ليلة وضحاها، بل تمتَّ بصورةً تدريجيةً، بدأ فكر الإنسان الأوروبي فيها يتخلّص من عقلية القرون الوسطى بفعل عوامل ومؤثرات مختلفة، وهذا الانتقال البطيء من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، اصطلاح المؤرخون الأوروبيون على تسميته بعصر النهضة؛ إذ عدَّ رواد هذا العصر أنَّ الفترة التي سبقتَه فترة

١- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج٢، النظم والحضارة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩م، ص٢٨٥.

٢- هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ط٣، ترجمة: زينب راشد، أحمد مصطفى، مراجعة أحمد عبد الكريم، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦١م، ص٧-٨.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج٢، م.س، ص٢٨٥.

٤- هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص٧-٨.

سكونٍ وجمودٍ، ويجب انتشال الإنسان منها وإحياءه.

كما يمكننا أن نعرّف عصر النهضة بأنه عصر تخليّ أوروبا عن عقلية العصور الوسطى، والانطلاق نحو مساراتٍ جديدة في التفكير، مغايرٍ لأساليب التفكير السائدة في العصور الوسطى تحت تأثير العلم والثقافة التي جعلت أوروبا تنقلب على عاداتها وتقاليدها وقيمها وثقافتها الدينية ووحدها السياسية واللغوية المعروفة حتى ذلك الوقت، لتقيم ثقافةً دنيويةً مستندةً إلى أصولٍ فلسفيةٍ وعقائدٍ وثنيةٍ وآدابٍ كلاسيكيةٍ وأطرٍ وبُنى سياسيةٍ وقوميةٍ متميزةٍ بلغتها وكياناتها ومطامحها وآمالها ونظرتها للحياة، متطاحنة فيما بينها حدّاً سيتسبّب في آلاف المعارك. وقد كان رواد هذا العصر متعصّبين أشدّ التعصّب لأوروبا، حتى إنهم كانوا يؤمنون بأن الحضارة الحقّة قد اندثرت بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦م، ثمّ عادت إلى الوجود مرةً أخرى على أيديهم^[١].

ثالثاً: أثر الحضارة العربية - الإسلامية في قيام النهضة الأوروبية

لقد أدّى الاحتكاك الحربي بين الأوربيين والعرب إلى تفاعل حضاري واسع الأُطر، فتدفّقت المعارف والعلوم العربية إلى أوروبا عن طريق معابر الإشعاع الثقافي الثلاث، وهي الأندلس، وصقلية، وبلاد الشام. وقد أفاد الغرب الأوروبي فائدة كبرى من الحضارة العربية الإسلامية اليبانة، فكان أثرها فيه واضحاً في شتى التخصصات، وبخاصة في ميادين الطب والصيدلة والهندسة والأدب والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافيا والفيزياء والكيمياء^[٢].

ولا شكّ أنّ إسبانيا (الأندلس) التي حكمها العرب ثمانية قرون، كانت أهمّ هذه المعابر؛ إذ كان العرب فيها على تماسٍّ مباشرٍ بالأوروبيين استمرّ طوال قرون العصور الوسطى، شكّلت خلالها الأندلس قلعة علم ومنازة حضارة، حتى أصبحت مقراً للمدارس والمعاهد ودور العلم والجامعات، التي كانت مقصد طلاب العلم في أوروبا بعدما ازدهرت فيها

١ - عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٧.

٢ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٩٧.

مختلف فروع العلم والمعرفة آنفة الذكر^[١].

لقد بدأ الطلاب الأوروبيون بالتوافد على الأندلس للدراسة منذ وقت مبكر، حتى بلغ عدد هؤلاء الطلاب الموفدين إلى الأندلس حوالي ٧٠٠ طالب نحو سنة ٩٢٤م؛ أي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، الذي أسس في قرطبة مدرسة ومكتبة علمية ضمت ما يقارب الأربعمئة ألف مجلد. وكان الكثير من هؤلاء الموفدين قد تعلّم اللغة العربية، ممّا أهّلهم لأن يدرسوا علوم العرب بلغتها الأصلية، وبعد أن عادوا إلى مدنهم في أوروبا، قاموا بترجمة بعض المؤلفات العربية في مجال اختصاص كل واحد منهم بهدف تدريسها لطلابهم في الأديرة^[٢]. وهكذا، أفاقت أوروبا الغربية في أواخر القرن الحادي عشر بعدما شاهد أبنائها ما شاهدوا من إشعاع حضاري في مدن الأندلس وصقلية، الأقرب جغرافياً إليهم، إذ أدركوا حقيقة تخلفهم عن الركب، وأنهم أمام حضارة عربية -إسلامية عملاقة، أسهمت بنصيب موفور في كل ميادين العلم والمعرفة^[٣].

ولمّا كانت الكنيسة الكاثوليكية تنتهج سياسة التجسّس العلمي على العرب، فإنّها اقتنت آلاف الوثائق والمخطوطات العربية بمختلف اختصاصات العلوم، وأخفتها في دهاليزها. ولمّا كان الطلاب الأوروبيون الذين درسوا في جامعات الأندلس، قد تعلّموا العربية، وعادوا ليدرسوها في الأديرة المسيحية، كان من الطبيعي أن تبدأ جهود متضافرة لترجمة هذه المخطوطات، وكانت الانطلاقة من الأديرة الإسبانية؛ كدير سانتا ماريا دي ريبول Ripoll في مقاطعة كتالونيا شمال شرق إسبانيا، ودير البلدة Albelda في برشلونة، وامتدّت هذه الحركة لتشمل الأديرة في إيطاليا وجنوب فرنسا، وكان أشهرها دير كلوني clwneac. وازدادت رحلات الرهبان بين الأديرة الإسبانية والإيطالية للحصول على المؤلفات العربية، ولا سيّما بعد سقوط مدينة طليطلة بيد الإسبان في سنة ١٠٨٥م على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكانت في طليطلة مكتبة تحتوي على ستّة آلاف مجلد من المخطوطات العلمية العربية، انتقلت إليها من المشرق العربي. فضلاً عن ذلك، بقاء الثقافة العربية فيها حتى بعد

١- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص.٨.

٢- عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية، مجلة جسور ثقافية، العدد ٩ خريف ٢٠١٧م، ص.١٣٢.

٣- راغب العلي وطليعة الصباح وعبد الكافي الصطوف، دراسات في تاريخ أوربة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م، ص.١٠.

أن استردّها الإسبان، وعقب أخذها من المسلمين جعلها ألفونسو السادس عاصمة له، وأنشأ فيها مدرسة للترجمة، واستعان بعدد كبير من الرهبان الإسبان المستعربين إلى جانب عدد من المسلمين واليهود، وعُرفت هذه المدرسة في التاريخ بمدرسة المترجمين الطليطليين^[1].

لقد لعبت مدرسة طليطلة دوراً كبيراً في التمهيد للنهضة الأوروبية، فقد ازداد نشاطها في عهد ألفونسو السابع (١١٠٥-١١٥٧م)، عندما لجأ إليه نفرٌ من العلماء المسيحيين واليهود الفارّين من قرطبة نتيجة طردهم من قبل عبد المؤمن بن علي، أول الخلفاء الموحّدين في الأندلس، وكانت الحركة العلميّة قد بلغت ذروتها في قرطبة في ذلك الحين. وقد تولّى تنظيم جهود المترجمين رايمودو Raymond (١١٢٦-١١٥٧م) أسقف مدينة طليطلة، الذي كان يعمل في الوقت نفسه مستشاراً للملك ألفونسو. وقد ضمت هذه المدرسة خيرة المترجمين الأوربيين البارعين، أمثال اليهودي يوحنا بن داوود الأشبيلي Juan de sevilla والمعروف بـ أفنديث (ت: ١١٥٧م)، والذي اعتنق النصرانية، ويُعتقد أن اسمه الحقيقي سليمان بن دافيد، واليهودي أبو إسحاق إبراهيم بن الماجد، المعروف بابن عزرا Ibn Ezral الطليطلي (ت: ١١٦٧م)، والمترجم الإسباني المشهور دومنيكو غونديسالفو Domenico Gundisallvi، الذي كان أسقف شقوبية، والمعروف في المصادر العربيّة باسم (دومنجو غنصالفا)، وقد برز نشاطه بين سنتي (١١٣٠-١١٨٠م)، ويعود الفضل له في تعريف أوروبا بأرسطو عن طريق ترجمته لكتب الفارابي وابن سينا، حتّى قيل إنّه لم يكذّر يعرف في أوروبا فيلسوف باسم أرسطو حتّى زمن غونديسالفو^[2].

لقد وصلت طليطلة إلى ذروة عطائها الإشعاعي الحضاري في أوروبا، فبينما كان نصير الدين الطوسي (١٢٠١-١٢٧٤م) يراقب النجوم في مرصده بمراغة في أقصى المشرق العربي، عاش ألفونسو العاشر الذي أبدى إعجابه بأعدائه العرب^[3]، وقد بلغ شغفه بالعلوم العربيّة حدّاً أسّس معه أول معهد للدراسات الإسلاميّة في مدينة مرسية بعد أن أخذها من العرب، وهو المعهد الأوّل من نوعه في أوروبا، وقد أسّسه بمساعدة فيلسوف مسلم من

١- عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربيّة إلى اللغة اللاتينيّة، م.س، ص ١٣١.

٢- عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربيّة إلى اللغة اللاتينيّة، م.س، ص ١٣٤، ١٣٥.

٣- أحمد عثمان، من اليونانية إلى اللاتينيّة عبر اللغة العربيّة، م.س، ص ٢٨.

الأندلس، فاق علماء عصره نبوغاً في كلّ أنواع المعارف، وهو محمد بن أحمد أبو بكر الراقوطي، فأنشأ له مدرسة خاصّة ضمن معهده، أخذ يدرّس فيها جميع العلوم للمسيحيين والمسلمين واليهود على حدّ سواء، ثمّ نقل المعهد إلى إشبيلية في سنة ١٢٥٤م، حيث قام بتدريس علوم العرب بمساعدة عدد من العلماء المسلمين الذين وظّفهم في مدرسته، كما أمر بترجمة القرآن الكريم وقصّة "كليلة ودمنة" إلى اللغة الإسبانية^[١].

لقد كانت صقلية هي الطريق الثاني للحضارة العربيّة إلى أوروبا، فقد أقام فيها العرب أكثر من قرنين، فتحتّ أحوالها العلميّة، وازدهرت في فترة وجودهم فيها^[٢]، حتّى أصبحت منارة العلم. قصدوها طلاب العلم الأوروبيون، وأعجب بها النورمان، الذين ما لبثوا أن انتزعوا صقلية من أيدي العرب في سنة ١٠٩١م. وبعد أن سقطت صقلية في يد النورمان، لم يحاولوا إزالة الصبغة العربيّة التي صبغ بها العرب هذه الجزيرة، وإنّما حافظوا عليها، وعملوا على تقدّمها حتّى نالوا أغراضهم منها^[٣]. وتبقى الصورة منقوصة عن دور صقلية وإسهامها في النهضة الأوروبيّة، ما لم يتعرّف القارئ على شخصية فريدريك الثاني:

لقد توجّ الملك هنري السادس (الملك الألماني والإمبراطور الروماني) ملكاً على صقلية وجنوب إيطاليا في سنة ١١٩٤م، وفي العام نفسه وضعت زوجته ابنة فريدريك (فريدريك الثاني)، فأراد هنري أن يحتفظ بالتاج لطفله عن طريق دفع البابا للقيام بتتويجه دون مراسم الاختيار الألمانيّة أو الصقلية، غير أنّه جوبه بمعارضة ألمانيّة قادها ضدّه أسقف كولوني، الذي كان من حقّه فقط المشاركة في عمليّة اختيار الملك الألماني وتتويجه، ولم يتسنّ للبابا أن يتوجّ ذلك الرضيع وريثاً إمبراطورياً. وفي بالرمو في أيلول ١١٩٧م، توفي والده، ثمّ توفيت أمه في السنة التالية لوفاة أبيه، وهكذا تركته تحت وصاية البابا الجديد أنوسنت الثالث Innocent III ومجلس وصاية من رجال الكنيسة. ولمّا كانت البابويّة تنغمس في الصراع الأهلي الطاحن في ألمانيا حول العرش، فإنّها لم تلتفت إلى ذلك الصبي، وأصدرت في سنة ١٢٠١م قراراً بأحقية الطفل فريدريك في العرش، لكنّها بيّنت أنّها لا تمتلك الوقت الكافي

١- عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربيّة إلى اللغة اللاتينية، م.س، ص ١٤٢.

٢- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١١.

٣- عبد العزيز نوّار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٨.

لرعايته. وهكذا ترك الصبي فردريك وشأنه، شأن أيّ غلام صقلّي يتخبّط في شوارع بالرمو وأسواقها العامّة، فشَبَّ في حارات صقلّيّة وشوارعها، ليعتمد على نفسه وليفتح عينيه على كلّ ما خلفه العرب في الجزيرة من جوانب حضاريّة^[١].

لقد أتاحَت الظروف السياسيّة فيما بعد لهذا الفتى أن يصل إلى العرش بعد صراع طويل على السلطة^[٢]، وقد توجَّج باسم الإمبراطور فريدريك الثاني (١٢١٥-١٢٥٠م)، واستطاع أن يوحد ألمانيا وإيطاليا في إمبراطوريّة واحدة بعدما كان يتنازع ملكها ثلاثة أباطرة، ونالت عاصمته نابولي نصيباً كبيراً من التأثيرات الحضاريّة العربيّة، حيث كان هو وابنه (منفريد) يجيدان العربيّة أكثر من الألمانّيّة، ولا سيّما أنّه أحاط نفسه بجمهرة من العلماء العرب. وقد بلغت حركة الترجمة ذروتها في عصره، إذ استعان باليهود والمسلمين من رعاياه في ترجمة العلوم العربيّة. وإنَّ حرص فريدريك على صحّته، جعله يولي عناية خاصّة للأطباء والجراحين العرب ولمدرسة ساليرنو الطبيّة، وكان له مترجم يسمّى تيودور (وهو سوري من أنطاكية، درس في بغداد والموصل)، يقوم بترجمة الكتب العربيّة. كما أسّس في سنة ١٢٢٤م جامعة نابولي إيطاليا، وجعل منها أكاديميّة لترجمة العلوم العربيّة، ونقلها إلى العالم الغربي بعد أن أهداها مجموعة كبيرة من المؤلّفات والكتب العربيّة^[٣].

بينما كانت بلاد الشام هي المعبر الثالث لنقل الحضارة العربيّة إلى أوروبا؛ إذ أسهمت الحروب الصليبيّة، التي بلغت ذروتها في معركة حطين سنة ١١٨٧م، في انتقال الكثير من المعارف العلميّة العربيّة إلى الغرب الأوروبي، فبينما كان جيش العرب يستعدّ لمواجهة الصليبيين، كان علماؤهم مستمرّين في تطوير تفوّقهم العلمي، مؤمنين أنّ هذا التفوّق سيساهم في النصر، إذ سخّروا علومهم في صناعة أسلحة لم يكن يعرفها الغرب الأوروبي، منها دبابات دكّ الحصون، والأوعية الحارقة والصواريخ التي كانت تحتوي على مواد مشتعلة. بينما كانت المعارف الطبيّة قد وصلت إلى درجة متقدّمة، ف فيما كان الأطباء الأوروبيون

١- أشرف صالح سيّد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، لبنان ٢٠٠٨م، ص ٧٦.

٢- حول هذا الصراع انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربيّة، بيروت ١٩٧٦م، ص ٢١٨ وما بعدها.

٣- عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربيّة إلى اللغة اللاتينيّة، م.س، ص ١٤٤، ١٤٥.

في العصور الوسطى يعالجون مرضاهم بالسحر والشعوذة، كان الأطباء المسلمون يجرون العمليات الجراحية.

وهكذا أدرك الصليبيون مدى تفوق العرب في باب العلم والحضارة حدًّا أنَّ عددًا من المؤرخين تحدّث أنَّ آخر مركب عاد إلى أوروبا في أعقاب الحروب الصليبية، لم يكن محملاً بالذهب أو المجوهرات، وإنَّما كان محملاً بما هو أثمن، كان محملاً بعشرات المخطوطات العلمية العربية.

رابعاً: الكنيسة والنهضة الأوروبية

لقد نبذ النابهيون الأوروبيون في أواخر العصور الوسطى تعاليم الكنيسة التي سادت طوال قرون، وعادوا إلى ما كتبه قدماء الإغريق والرومان وإلى الكتابات العربية-الإسلامية، سواء الأصلية منها أو المترجمة عن اليونانية، وهذا ما أتاح لهم الاطلاع والتعرّف على الحضارات الكلاسيكية اليونانية والرومانية القديمة، إضافة إلى الحضارة العربية الإسلامية، وقد مكّنهم ذلك من رسم اتجاهات ووضع استنتاجات وتصورٍ للحياة لم يألفه الفكر الأوروبي سابقاً^[١].

وأمام هذا الواقع الجديد، خشيت البابوية على نفسها وعلى حضورها الشعبي، فسعت إلى تجديد مشاعر الإيمان بين الناس وإثارتها، وقد وجدت ضالّتها في إشعال سلسلة من الحروب الصليبية على العرب المسلمين، بدفعها فقراء أوروبا ليموتوا في المشرق العربي مقابل وعدٍ بالجنة، ما أسهم في زيادة نفوذها بين عوام أوروبا في العصور الوسطى، وبالتالي دعم دورها السيادي والسياسي، كما أنَّ موقف البابوية المتعنّت من السلطة الإمبراطورية، جعلها قبلة المعاصرين، فكثر عدد الحجّاج الذين قصدوا روما. كما أدّى احتكاك الأوروبيين الغربيين بالبيزنطيين أثناء الحروب الصليبية إلى انتقال بعض مظاهر الحضارة البيزنطية إليهم، ولا سيّما بعد الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٣ م، التي نهب فيها الصليبيون مدينة القسطنطينية، ودّمروا جانباً منها، وسرقوا كنوزها الحضارية، وعددًا كبيراً من كتبها ومخطوطاتها ومؤلفاتها العلمية^[٢]. كما صاحب فترة ازدياد نفوذ البابوية ازدياد حركة الحجّاج المسيحيين باتجاه المشرق العربي،

١- محمد أحمد وحسام الناي، تاريخ أوربة الحديث من عصر النهضة إلى قيام الثورة الفرنسية، منشورات جامعة دمشق ٢٠١١م، ص ٢٧.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٣٠٦.

ولاسيما إلى بيت المقدس، فكانت أسفارهم مناسبة ثمينة ليشاهدوا ما وصلت إليه الحضارة العلمية خارج قارّتهم المغلقة بالجهل والتخلف، وليتعرفوا على مراكز الثقافة والإشعاع الحضاري المختلفة في المغرب والمشرق، فكان ذلك مناسبة ثمينة لحدوث اللقاءات والروابط الفكرية، وقد انعكس ذلك كثيراً على ملامح تفكير الحجاج وأغاني المآثر^[1].

خامساً: الباباوات والأمراء والملوك والنهضة الأوروبية

لقد أسهم الصراع الذي احتدم بين الكنيسة والدولة حول مسألة التنصيب أو الترسيم، أو منح الرتب الكنسية، في تبدل المشهد السياسي في أوروبا.

لم تكن النهضة الأوروبية التي انطلقت في القرن الثاني عشر في أوروبا ربيبة بلاط معين، ولم تنطلق لأن أحداً من الملوك أراد لها أن تنطلق، وإنما أتت حركة طبيعية تصافرت عوامل عديدة لازدهارها، لذلك كانت أطول عمراً، وأكثر استمراراً، وأوسع أفقاً، وأشدّ أثراً من النهضة الفرنجية^[2]، فالرغبة في التوسّع والسيطرة والاستعمار، أدت إلى الكشف الجغرافية، التي أدت بدورها إلى الرواج الاقتصادي، الذي أدى بدوره إلى دخول أوروبا في عصر النهضة^[3].

كما أسهم التنافس الحاد بين الباباوات والملوك والأمراء في أوروبا الغربية، والادّعاء بالتحضّر والرقى، في اقتناء المخطوطات اليونانية واللاتينية والعربية والعبرية، وإقامة المكتبات الضخمة لها في قصورهم، فانعكس ذلك إيجاباً على الحالة الثقافية العامة في مجتمع كان يلقه الجهل، حيث أصبحت تلك القصور تزدهم بالأدباء والفنانين، وقد اشتهر بهذا المجال في إيطاليا آل مديتشي أمراء فلورنسا، وملوك فرنسا، وأشهرهم فرانسوا الأول (١٤٩٤-١٥٤٧م)، وملوك آل تيدور في إنكلترا، وعلى رأسهم الملك هنري الثامن (١٥٠٩-١٥٤٧م)، والملكة إليزابيث (١٥٥٨-١٦٠٣م) كما رغب الباباوات في منافسة الملوك والأمراء، فقاموا بتقريب الأدباء والفنانين، ومن أشهر هؤلاء البابا جول الثاني (١٥٠٣-

١- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا، م.س، ص ٢١٧.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٣٠٧.

٣- شوقي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ١٥١، يوليو ١٩٩٠م، ص ١٩١.

١٥١٣م) والبابا ليون العاشر (١٥١٣-١٥٢١م)^[١].

سادساً: الورق والطباعة والنهضة الأوروبية

لقد عرف العرب صناعة الورق منذ زمن مبكر في سنة ٧٥٠م، عندما نقلوا جماعاً من أسرى الحرب الصينيين إلى سمرقند. وأدرك العرب قيمة الخبرة العلمية التي يملكها هؤلاء الأسرى؛ أي صناعة الورق الناعم المصقول، فقاموا بفتح أول معمل للورق في العاصمة العباسية بغداد في سنة ٧٩٤م. بينما عرفت أوروبا الغربية أول معمل ورق فيها في سنة ١٣٤٠م، الذي تم تأسيسه بالقرب من نورمبرغ، بعد أن عرفت هذه التقنية بوساطة العرب، فكان ذلك عنصراً مهماً أسهم في ميلاد النهضة الأوروبية^[٢]. ففي أواخر العصور الوسطى، كان الأوروبيون يستخدمون رقائق جلود الحيوانات في الكتابة، وكانت باهظة التكاليف، حتى لجأ الناس إلى محو ما على هذه الرقائق من كتابات قديمة؛ لإعادة استخدامها أكثر من مرة^[٣]. بينما كانت الكتب والمراجع الجامعية مخطوطة كلها، ونادرة ومرتفعة الثمن، وعلى هذا أخذت الجامعات على عاتقها عملية تنظيم تجارة الكتب، فكانت تقوم بعملية نسخ الكتب ثم توجّرها مقابل ثمن محدد، أو تبيعها لمن يستطيع أن يدفع ثمنها^[٤]. لقد بدّل اختراع آلة للطباعة في ألمانيا سنة ١٤٤٥م، الموقف وهون الأمور، فقد صدر أول كتاب مطبوع بالحروف المنفصلة، وهو الكتاب المقدس باللغة اللاتينية في مطبعة يوحنا غوتنبيرغ Gutenberg ١٣٩٧-١٤٦٨م، ومن ثم انتقلت الطباعة إلى إيطاليا في سنة ١٤٦٤م، وبعدها انتشرت في سائر أنحاء أوروبا^[٥]. وهكذا كان اختراع الطباعة أحد أهم عوامل إنجاح حركة أصحاب النزعة الإنسانية التي رافقت النهضة الأوروبية، حيث أن طباعة الكتب أصبحت أسهل من ذي قبل، وهذا أدى إلى غزارة في الإنتاج العلمي المطبوع، وبأسعار أقل من ذي قبل، فانخفض سعر الكتب، وهذا ما سهّل تأليف الكتب وطباعتها وسرعة انتشارها^[٦].

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٤.

٢- أحمد عثمان، من اليونانية إلى اللاتينية، م.س، ص ١٥.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٢٨٨.

٤- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٣٣٣.

٥- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٤.

٦- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٩.

فأقبل الناس على اقتنائها بعد أن كانت حيازتها تنحصر برجال الدين سابقاً. وبهذه الطريقة وصلت مؤلفات الفلاسفة الإغريق والعلماء العرب إلى أيدي معظم فئات الشعب، فتعرفوا من خلالها على أفكار الحضارات الأخرى، وأفاد منها عدد كبير لم يسبق له مثيل^[١].

سابعاً: العوامل التي مهدت لقيام النهضة الأوروبية في إيطاليا

إنَّ النهضة الإيطالية التي كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ما هي إلا مجرد امتداد للنهضة الثقافية التي بدأت في القرن الثاني عشر في أوروبا. لا شك أن بعض الأمور قد تجاوز فيها الإيطاليون منجزات أسلافهم، إلا أنهم قد تخلّوا عنها في أمور أخرى، مثل العمارة. وفضلاً عن ذلك، فإنَّ نهضة القرن الرابع عشر كانت مرتكزة إلى حدٍّ بعيد في إيطاليا، أمّا نهضة القرن الثاني عشر، فقد شملت كلَّ البلاد الواقعة في الغرب الأوروبي (فرنسا، وإنكلترا، وإسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا، والأراضي المنخفضة)، وكانت فرنسا بمثابة المركز لهذه الحركة.

لكن لماذا قامت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر في إيطاليا وليس بلد أوروبي آخر؟ رغم أن إيطاليا كانت مركز البابوية والكنيسة الغربية! التي عرفت طوال العصور الوسطى بالجمود والتزمّت وتقييد حرية الفكر.

في الفقرات التالية، سوف نحاول الإحاطة بالعوامل التي أدّت إلى أن تكون إيطاليا دون غيرها مركزاً لانطلاق النهضة الأوروبية:

تأثير إيطاليا بالحضارتين العربية والبيزنطية

لقد تأثرت إيطاليا بالحضارتين الشرقيتين العربية والبيزنطية بفضل القرب الجغرافي، والصلات التجارية؛ إذ قام التجار الإيطاليون بدور الوسيط بين المشرق العربي والغرب الأوروبي، وتواجد العرب في أجزاء منها، وحكمهم لها ردهاً من الزمن (جزيرة صقلية)، هذه العوامل أسهمت في تقدّم حركة الترجمة في إيطاليا من العربية إلى اللاتينية، ومن اليونانية إلى اللاتينية أيضاً^[2]. لقد كانت البداية مع قسطنطين الأفريقي (١٠٢٠-١٠٨٧م) الذي نجعل

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٤.

٢- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٤.

اسمه الحقيقي، واستطاع أن يكون رائد حركة الترجمة في جنوب إيطاليا، وهو تاجرٌ تونسي، ولد في قرطاجة، زار إيطاليا لأوّل مرّة بصفة تاجرٍ، ونزل في سالرنو، وهناك أصيب بالمرض، فاستدعى طبيباً لمعالجته، وأثناء المعاينة لاحظ قسطنطين أن الطبيب قليل خبرة بالنسبة لأطبّاء القيروان، وأنّه لا توجد في إيطاليا مؤلّفات طبّيّة تعادل المؤلّفات الطبّيّة العربيّة، لذلك عاد إلى تونس، ومنها زار سورية والعراق في رحلة استغرقت ثلاث سنوات، جمع خلالها الكثير من المخطوطات الطبّيّة العربيّة، ثمّ أبحر قاصداً جنوب إيطاليا حاملاً معه شحنته النفيسة من هذه المخطوطات، وهناك سلك الرهينة واعتكف في دير مونتكاسينو في إيطاليا منذ سنة ١٠٧٠م، وأخذ يترجم الكتب العربيّة إلى اللاتينيّة. ورغم أهميّة تراجمه إلّا أنّها اتّسمت بالضعف والاضطراب، ولم تخلُ المصطلحات العربيّة من زيف وتحريف، ومع ذلك كان لترجماتة الفضل في تعريف أوروبا بعلوم العرب واليونان الطبّيّة والعلميّة لأوّل مرّة. وكان يساعد قسطنطين في النقل والترجمة ثلاثة من طلابه، وهم يوحنا الفاسي، وهو عربي مغربي كان يدعى يحيى بن عقله (١٠٤٠-١١٠٠م)، والثاني هو آتو Atto، استعان به قسطنطين ليضبط له الناحية العلميّة في ترجماته، وليصحّح له اللغة اللاتينيّة، والثالث هو بارتلوموس Bartolomaus^[1].

أمّا حركة الترجمة من اللغة اليونانيّة إلى اللغة اللاتينيّة، فلم تنشط إلّا منذ مطلع القرن الثاني عشر، وممّا ساعد على نشاطها وجود مكاتب ضخمة في الأديرة المسيحيّة (الباسيليّة)، وفي العاصمة بالرمو؛ عاصمة ملوك النورماندين في صقلية. وقد شرع الملك النورماندي روجر الثاني وخلفاؤه بدعم حركة الترجمة هذه، فقاد تلك الحركة هنري أرسطوبوس، الذي يرجع له الفضل في ترجمة الكثير من كتب أفلاطون وأرسطو لأوّل مرّة من اليونانيّة إلى اللاتينيّة مباشرة، وهي التراجم التي ظلّت متداولة في أوروبا الغربيّة حتّى عصر النهضة الإيطاليّة.

وتجدد الإشارة إلى أنّ الحملة الصليبيّة الرابعة على القسطنطينيّة سنة ١٢٠٤م ونهب مكاتب بيزنطة، قد فتح الباب على الغرب الأوروبي للتعرف على الكثير من الكتب والدارسات اليونانيّة القديمة، كما أنّ بعض الإيطاليين ممّن تعلّموا اليونانيّة عن طريق أسفارهم إلى القسطنطينيّة، ترجموا، لأغراض تجاريّة وسياسيّة ودينيّة، كتباً متنوّعة، ولمعت أسماء مترجمين محترفين، من

١ - عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربيّة إلى اللغة اللاتينيّة، م.س، ص ١٣٣.

بينهم جيمس البندقي، الذي ترجم منطق أرسطو إلى اللغة اللاتينية^[١].

وفي مقابل حركة الترجمة من اللغة اليونانية في القرن الثاني عشر، عرفت صقلية حركة ترجمة واسعة للعلوم العربية، فبعد سنوات معدودة على تأليف مصنفات الفيلسوف ابن رشد (ت: ١١٩٨م)، تمت ترجمتها إلى اللغتين اللاتينية والعبرية، حيث قام بالترجمات الأولى ميخائيل سكوت، وإليه تعزى أقدم ترجمة لابن رشد، والتي بدأها في إسبانيا ثم استكملها حين انتقل إلى صقلية، وسرعان ما أمسى أكثر المترجمين شهرة في صقلية وأغزرهم إنتاجاً، حيث قاد حركة ترجمة نشطة في باليرمو، أنمرت عن ترجمة جميع كتب أرسطو بشروحه العربية في علمي الأحياء والحيوان، وكان أشهرها كتاب «مختصر علم الحيوان» المزود بشروح ابن سينا، وأهداه للإمبراطور فريديريك الثاني في سنة ١٢٣٢م^[٢].

أما المؤلفات الطبية العربية، فقد شهدت حركة متزايدة في ترجمتها بفضل جهود الطبيب اليهودي فراجوت الجرجيني (المعروف بالمصادر العربية بـ «فرج بن سالم»)، الذي كان يعمل في مدرسة ساليرنو الطبية، إذ ترجم كتاب «الحاوي» في الطب لأبي بكر الرازي في عهد الملك شارل دانجو Charles d'Anjou (١٢٦٦-١٢٨٥م) ملك صقلية، واستعاض عن كلمة الحاوي في النسخة المترجمة بمرادفتها اليونانية continens. ولأهمية كتاب الحاوي، فقد انتشر في جميع أنحاء أوروبا في القرون التالية على شكل مخطوطات لا عدد لها، ثم أخذ يُطبع باستمرار، وظل يحتل في أوروبا مكانة المرجع الطبي الأساسي لا ينافسه منافس. كما ترجم فرج بن سالم كتاب جالينوس في الطب التجريبي، ومؤلفات حنين بن إسحاق، وتقويم الأبدان لابن جزلة إلى اللاتينية. وظهر في عهد الملك شارل دانجو يهودي آخر؛ هو موسى البالرمي (نسبة إلى مدينة باليرمو) لم يُعرف فمن آثاره المترجمة سوى كتاب أمراض الخيل المشكوك بنسبته إلى أبقراط^[٣].

وظهرت في شمال إيطاليا تراجم لا تقل أهمية عما تُرجم في باليرمو؛ حيث تُرجم في بادو سنة ١٢٥٥م كتاب (الكليات الطبي) لابن رشد من قبل اليهودي المتنصر بوناكوزا

١- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٣٢٥.

٢- عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية، م.س، ص ١٤٥.

٣- عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية، م.س، ص ١٤٥.

Bonacosa، باسم الجامع Colliget. وتُرجم في البندقية في سنة ١٢٨٠ م كتاب (اليسير) للطبيب ابن زهر من قبل بارفيشيوس بمساعدة يعقوب اليهودي، كما وجدت العديد من التراجم مجهولة المؤلف؛ كرسائل لموسى بن ميمون وابن سينا والرازي، وتراجم أخرى لا يُعرف أسماء مترجميها^[1].

الموقع الجغرافي لإيطاليا

لقد كان الموقع الجغرافي الذي احتلته شبه الجزيرة الإيطالية، من العوامل التي أدت إلى سبق المدن الإيطالية في ظهور النهضة، فقد قامت على سواحلها حضارات قديمة، وأضحت مدنها مركزاً للتجارة العالمية، وميداناً للاحتكاك الفكري بين الشرق والغرب في القرن الرابع عشر، وقد نقلت إيطاليا نتيجة هذا الاتصال كثيراً من مظاهر الحضارات الشرقية^[2]. كما أن موقعها على مقربة من القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، مكّنها من الاستفادة من الأساتذة الإغريق الزائرين من أمثال كريزولوراس Chrisoloras وبساريون Bessarion (١٤٠٣-١٤٧٢ م)^[3]. هذا ناهيك عن أنها أرسلت البعثات العلمية إلى بيزنطة لدراسة اللغة الإغريقية وفنونها وآدابها، والتعمق في التراث الإغريقي والتخصّص فيه، والذي كان محدود الانتشار من قبل، إذ حدثت محاولات جادة للتقريب بين التراثين الإغريقي والروماني، ونجحت هذه البعثات إلى حدّ ما، ولكن النجاح الأكبر والتأثر الأعظم في هذا المجال، هو اتّجاه عدد من المفكرين البيزنطيين إلى القدوم إلى إيطاليا والتدريس فيها^[4].

الرخاء الاقتصادي

لقد تمتعت المدن الإيطالية بالرخاء الاقتصادي بفضل تعاون تجّارها مع التجّار العرب في البحر المتوسط، الذين أمّنوا لها السيطرة على الأسواق التجارية في حوض البحر المتوسط؛ إذ احتكر تجّار البندقية وجنوة عملية نقل السلع الشرقية (ولا سيّما التوابل) من موانئ بلاد الشام ومصر إلى الموانئ الإيطالية، ومن هناك إلى الأسواق الأوروبية عبر

١- عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية، م.س، ص ١٤٥.

٢- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوريّة، م.س، ص ١٣.

٣- أشرف صالح سيد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٥.

٤- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٤.

ممرات جبال الألب^[1]؛ كونها ملتقى طرق التجارة بين أوروبا الغربية وبلاد المشرق، كما تدفقت الأموال على إيطاليا من العصور وغيرها من القروض، التي كانت ترد إلى روما من ألف مجتمع مسيحي؛ كونها مركز البابوية^[2]، مما أدى إلى نمو الرأسمالية فيها، وازدهار ثروة أهالي المدن الإيطالية بعد تدفق الأموال إليها من أرباح التجارة الدولية، فكان ذلك الرخاء الاقتصادي عاملاً على تشجيع الأدباء والمثقفين في هذه المدن الإيطالية على اقتناء المخطوطات والكتب النادرة واللوحات، كما استفادوا مما اقتبسوا من حضارات أمم كانت أعرق منهم مدنية^[3].

الاستقرار والسلم



بينما كانت إيطاليا تنعم بثروة تجارتها مع العرب، وبالهبات المالية من الملوك والأمراء والرعايا المسيحيين للبابوية، كانت أوروبا تعيش في ذلك الوقت حروبها القومية وصراعاتها الدموية؛ فقد اندلعت في أقصى الغرب الأوروبي حرب المئة عام (١٣٣٧-١٤٥٣م) بين بريطانيا وفرنسا، التي أعاقت التجارة وتقدم الاقتصاد واستنفدت موارد البلدين، كما أدى تحلل نظام الإقطاع الأوروبي إلى حروب أهلية في شتى أرجاء أوروبا تقريباً، وقام الفلاحون بثورات دموية للحصول على الحرية والسيادة، كما قاتل العمال في المدن التجار الأثرياء الذين أبقوهم فقراء بلا حول ولا قوة.

وما زاد من تدهور الأمور في أوروبا وشقاء الناس فيها، أنَّ الطاعون أو ما عُرف بمرض الموت الأسود، أودى بحياة ربع السكان تقريباً (ما بين ١٣٤٧-١٣٥٠م)، كما جلبت سنوات

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٢.

٢- ول. ديورانت، قصة الحضارة، النهضة، ج ٤، ص ٥، ترجمة: محمد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص ٧٧.

٣- أشرف صالح سيد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٥.

القحط القاسية والفيضانات الموت والمرض والمجاعة لأوروبا^[1].

نعمت شبه الجزيرة الإيطالية بالاستقرار والسلم والهدوء النسبي لفترات طويلة دامت حتّى النصف الثاني من القرن الخامس عشر؛ أي حتّى قيام الملك الفرنسي شارل الثامن بغزوها إبان الحروب الإيطالية، الأمر الذي ساعد على نموّ حركة النهضة^[2]، وأغرى -إضافة إلى قرب الموقع الجغرافي- عدداً كبيراً من العلماء الإغريق للانتقال إلى إيطاليا. ومن الأخطاء التاريخية الشائعة عن عصر النهضة، أنّ هجرة العلماء الإغريق إلى إيطاليا، تمّت في أعقاب سقوط القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣م، فهناك كثير من الأدلّة على خطأ هذا الاعتقاد، من ذلك أنّ العالم الإغريقي مانويل كريزلوراس Manuel Chrisoloras الذي حضر من القسطنطينيّة، حاضر في جامعات فلورنسا وميلان بين سنتي (١٣٩٧-١٤٠٠م)، وكذلك العالم بساريون Bessarion الذي نجح في جمع قدر كبير من الوثائق في القسطنطينيّة التي أتى بها إلى إيطاليا، ولزهوه بهذه الوثائق، دخلها دخول المظفر في الحرب^[3].

تحرّر المدن الإيطالية من سيطرة الإقطاع

لقد أضعف انهيار النظام الإقطاعي في القرن الرابع عشر النبلاء الإقطاعيين إلى حدّ بعيد، وتسبّب في ثراء الملوك، وبمساعدة الجيوش المؤجّرة (المرتزقة) فرض الملوك سلطاتهم على النبلاء، وقد أسهم تسليح المشاة في جيوش الملوك بأقواس طويلة ورمح جديدة (بايكس) وبالمدافع في هزيمة جيوش الأمراء الإقطاعيين، وقد زاد الملوك من قوّتهم بتحالفهم مع أفراد الطبقة الوسطى من سكّان المدن، الذين ارتضوا دفع الضرائب للملك مقابل الحصول على حكومة جيّدة توفّر لهم الأمن والأمان^[4].

تجدر الإشارة إلى أنّ المدن الإيطالية قد تحرّرت من سيطرة الإقطاع في فترة مبكّرة نسبياً إذا ما قورنت بنظيراتها من المدن الأوروبيّة الأخرى، ولكنّ هذا لا يعني بأنّ المدن الإيطالية قد تحرّرت بشكل كامل ونهائي من سيطرة الإقطاع، فقد بقي القسم الجنوبي من شبه الجزيرة

١- أشرف صالح سيّد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٢١.

٢- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٣.

٣- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٩.

٤- أشرف صالح سيّد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٢١.

الإيطالية ذا نظام إقطاعي، ولم يتأثر بشكل كبير بظهور المدن^[١].

ولا شك أنَّ الحرب التي رافقت عملية التحرر من سيطرة الإقطاع، كان لها نتائجها السلبية على سلم وأمن المجتمع الإيطالي؛ ذلك أنَّ تطاحن الأحزاب والفرق المتعادية، وكثرة الحروب، وتدقّق مرتزقة الجنود الأجانب، وما حدث بعد ذلك من غزو الجيوش الأجنبية أرض إيطاليا، وهي جيوش لم تكن تُراعي في تلك الأرض أيّ قيد من القيود الخلقية، واضطراب أحوال الزراعة والتجارة بسبب ويلات الحرب، وقضاء الحكّام المستبدّين على الحرية واستبدالهم القوّة الغاشمة بالسلم والقانون، كلّ هذه الظروف أشاعت الاضطراب في حياة إيطاليا، وحطّمت العادات التي كان الأهليون يعتزّون بها ويحافظون عليها. ووجد الناس أنفسهم يضربون على غير هدى في بحر عجاج من العنف والجبروت، بدا لهم فيه أنَّ الدولة والكنيسة كلتاها عاجزتان عن حمايتهن، فتولّوا هم أنفسهن تلك الحماية بأحسن ما يستطيعون، بالسلاح وبالخداع، حتّى أصبح الخروج على القانون، هو السّنة المتّبعة والشرعية المقرّرة. وانغمس الحكّام الطغاة في المملّكات جميعها بعد أن وجدوا أنفسهم فوق القانون يحيون حياة قصيرة، ولكنّها حياة مثيرة، وحذت حذوهم أقلّيّة الأهليين ذات الشراء^[٢].

المكتبات والأكاديميّات والمجامع العلميّة

لقد كان من أبرز مظاهر عصر النهضة إنشاء المكتبات، فمن الطبيعي أن تتّجه الأنظار إلى إنشاء المكتبات بعد أن بذلت الأسر المستبدّة التي حكمت إيطاليا مجهودات كبيرة في جمع الوثائق والمخطوطات القديمة، حتّى يصلوا إلى الحقائق من مصدرها، ثمّ متابعة هذا المجهود بتأليف الكتب في مختلف المجالات. ولقد اهتمّ أمراء المدن وحكامها بإنشاء المكتبات^[٣]، ومن الذين اهتمّوا بإنشاء المكتبات كوزمو دي مديشي Cosme de Medicis، الذي أنشأ في سنة ١٤٢٣م مكتبة سان جورجيو San Giorgio في البندقية، وفي سنة ١٤٤١م أصلح وأكمل مكتبة سان ماركو في فلورنسا، كما اهتمّ البابا نيقولا الخامس (١٣٩٧-١٤٥٥م) بمكتبة الفاتيكان، حيث زوّدها بكتبٍ قديمة ونادرة، فأصبحت على عهده

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٤.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، النهضة، ج ٤، ص ٥٧، ص ٧٨.

٣- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٥.

تضمّ ١٢ ألف مجلّد^[1]. أمّا مكتبة نابولي، التي أنشأها أمير المدينة، فكانت مكتبة تكاد أن تكون من أعظم المكتبات التي أنشئت في تلك الفترة، حيث أنفق عليها أموالاً طائلة.

هذا في الجانب المادّي، أمّا في الجانب الثقافي، فإنّه جمع بها عدداً هائلاً من الوثائق والمخطوطات العربيّة العبريّة واللاتينيّة، بالإضافة إلى كتب الطبّ ومعظم المؤلفات الإيطاليّة حتّى القرن الرابع عشر. وقد اتّبع منشئ هذه المكتبات نظام الكتالوجات لتسهيل جمع الكتب والاستفادة منها إلى أكبر حدّ وفي أقلّ وقت^[2].

ومن المؤكّد أنّ مكتبات الكنائس والأديرة قامت بدور رئيس؛ كالمحافظة على الأعمال الفنيّة في العصور الوسطى، فكانت تضمّ مجموعات من الكتب والأواني والصور المقدّسة تحفظ في الكنائس المسيحيّة البكرة، ويمكن اعتبار القديس بندكت Benedict راعي المكتبات في أوروبا ممّن ساهموا في نشأة المتاحف التاريخيّة، واهتمّ اهتماماً كبيراً بالمجموعات المتحفية إيماناً منه بأهميّتها وقدرتها على التنمية الروحيّة، وقد عمل القديس أوغسطين St. Augustine على محاربة هذه البدعة، وظلّ ينادي بأنّ المعبد المقدّس هو عمل رائع ليس بأعمدته وورخامه وسقوفه ومقتنياته، ولكنّ بالحقّ والعدالة التي يعملها للإنسان ويغرسها في وجدانه^[3].

كما كان البحث عن المخطوطات في إيطاليا والكثير من بقاع أوروبا قائماً على قدم وساق؛ فبوجيو -من كبار الإنسانيين- زار المراكز الدينيّة في سويسرا للبحث عنها، وقد عثر هناك على مخطوطات مهمّة، وفي سنة ١٤٢٥م عثر على الرسائل الخطابيّة لشيرون^[4]. أمّا المخطوطات اليونانيّة، فقد كان البحث عنها أكثر حماساً، فقد اشترك فيها طلاب العلم والهيئات غير المشتغلة بالبحث العلمي، فالببوت الكبيرة مثل بيت ميدتشي، كان ينفق الكثير من المال للحصول على هذه المخطوطات اليونانيّة، وقد اشترك في هذه المنافسة الأمراء والباباوات، وأصبح الحصول عليها البدعة السائدة في أوائل عصر النهضة في إيطاليا^[5].

١- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٥.

٢- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٥.

٣- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٦.

٤- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٧.

٥- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٧.

لقد أسهمت الأكاديميّات والجامعات في النهضة الأوروبيّة، فعندما كان التعليم في فرنسا وإنكلترا وألمانيا مقصوراً على رجال الدين والمدارس والمؤسّسات الدينيّة، فإنّه لم يكن كذلك في إيطاليا، حيث وجد في شمالها الكثير من الأساتذة العلمانيين الذين لا يخضعون للكنيسة وسلطانها ورقابتها، كما أسّسوا أكاديميّات للنحو والبلاغة والقانون، حتّى إنّهم استخدموا المنطق لخدمة الدراسات القانونيّة، فترتّب على ذلك حركة بعث للدراسات القانونيّة الرومانيّة القديمة^[1]، ممّا أدّى إلى دخول إيطاليا في القرن الرابع عصر نهضتها؛ إذ بفضل هذه الأكاديميّات تطوّرت العديد من العلوم، كان منها القانون والرياضيات والاقتصاد، وعلوم الحركة والمسح، والفلك، والفنّ، وعلم رسم الخرائط، والبصريّات^[2].

لقد أسهمت الجامعات الإيطاليّة في نشر الدراسات الإغريقيّة واللاتينيّة، وكانت المركز الذي يلتقي به أساتذة العلم والأدب^[3]. ففي سنة ١٤٣٨م، استطاع جستون بيتون Gemiston Piethon أن يقنع كوزمو ميدتش بإنشاء أكاديميّة خاصّة، وهي أكاديميّة فلورنسا^[4]، أو الأكاديميّة الأفلاطونيّة، والتي كانت موجّهة لدراسة الفلسفة الإغريقيّة بصفة عامّة، والأفلاطونيّة بصفة خاصّة^[5]، ولكنّها اهتمّت أيضاً برجال الفنّ، من مثل ليو ألبرتي ومايكل أنجلو Michel Angelo، وكان مورسيليو فيتشسو Morsilo Ficino من أقطاب هذه الأكاديميّة^[6]. وكان أمد هذه الأكاديميّة طويلاً؛ إذ إنّها استمرّت من القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر^[7]. أمّا النسبة لأكاديميّة روما، فقد أسّست على يد جيوليوس لايتوس Julius Loetus سنة ١٤٦٠م، وكان شديد الحماس للدراسات اللاتينيّة^[8]، وكانت هذه الأكاديميّة من أهمّ الأكاديميّات الإيطاليّة في عصر النهضة، حتّى إنّها تحوّلت إلى

١- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٣١٦.

٢- عبد الله السليمان، الرياضيات الأوروبية في عصر النهضة.

٣- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٣.

٤- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٧.

٥- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٥.

٦- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٧.

٧- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٥.

٨- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٧.

مقرّ للدراسات التاريخية والآثار هناك^[1]، وقد أغلقها البابا بولس الثاني بعد أن رأى في هذه الأكاديمية وفي دراستها الوثنية، خطراً على المسيحية، ثم فتحها سكستوس الرابع Sixtus IV، واستمرت حتى عهد البابا ليون العاشر (١٥١٣-١٥٢١م)، وكان من أقطابها جوفينوس^[2].

أما الأكاديمية الثالثة، فهي أكاديمية نابولي، إذ كانت من أوائل المدن الإيطالية التي نشأت فيها أكاديمية مختصة بدراسة الآداب. ويعود الفضل في تأسيسها سنة ١٤٤٢م إلى حاكم مدينة نابولي ألفونسو الخامس، الذي جمع فيها كل ما وصل إلى سمعه من العلماء، وناقش هؤلاء العلماء التراث القديم بصفة عامة، والأدبي بصفة خاصة^[3]. وقد اختفت هذه الأكاديمية بعد وفاته سنة ١٤٥٨م، ثم ظهرت على يد جوفاني بونتان Jovianus pontanus. أما أكاديمية البندقية، فقد أسسها ألدو مانوتزيو سنة ١٥٠٠م، وأطلق عليها الأكاديمية الجديدة Meacademia، وكانت للدراسات الإغريقية، وجمع المخطوطات، واختيار الكتب الكلاسيكية للطبع، وكان جون لاسكارس John Lascaris من أبرز أعضائها^[4].

مركز الزعامة الدينية

لقد كانت المدن الإيطالية مهد الحضارة الرومانية القديمة؛ حيث ظلت تزخر بقدر كبير من تراث هذه الحضارة من نقوش ومخطوطات ومبانٍ على الرغم من غزوات القبائل الجرمانية^[5]. وإذا كانت روما قد فقدت مركزها السياسي الرفيع كعاصمة للإمبراطورية الرومانية الغربية منذ سنة ٤٧٦م حين سقطت على يد أودواكر Odoacer، فإن هذا السقوط لم يذهب بمكانة شبه الجزيرة الإيطالية، تلك المكانة التي لم تتوافر لغيرها من البلاد الأوروبية، لا بل إن هذا السقوط جعل من البابوية القوة الوحيدة القائمة، التي التفت حولها المسيحيون في الغرب؛ إذ أكسب إيطاليا وجود السلطة البابوية فيها زعامة دينية على سائر أنحاء أوروبا، وأكسب الإيطاليين شعوراً معنوياً بالسيطرة على باقي الشعوب الأوروبية،

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٣.

٢- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٧.

٣- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٥.

٤- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٧.

٥- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوربة، م.س، ص ١٤.

بالإضافة إلى الأرباح الماليّة، التي كان يجنيها الإيطاليّون عن طريق الوظائف الكنسيّة، إذ كانوا يتقاضون بفضلها مرتبات ضخمة^[1].

في الواقع، لقد تبدّل المشهد في نهاية العصور الوسطى، فقد اهتزّت صورة الكنيسة وهيبتها الروحيّة إلى حدّ كبير أثناء فترة الانقسام والصراعات^[2]، حتّى إنّ البابويّة تحوّلت في نهاية العصور الوسطى إلى إمارة علمانيّة ذات أطماع سياسيّة واسعة تعتمد على الغدر والنفاق^[3]. وكان البابا، بالإضافة إلى صفته الدينيّة كرأس للكنيسة المسيحيّة الكاثوليكيّة الغربيّة، حاكماً دنيويّاً لا يختلف عن الملوك والأمراء وغيرهم من الحكّام الدنيويين المعاصرين؛ إذ كان له أقاليم يحكمها بواسطة أجهزة حكوميّة دبّ فيها الفساد، وله بلاطٌ يعجّ بالأتباع والموظّفين، الذين تفوح منه رائحة المجون والفسق، ولم يخلُ من المفاسد والمخازي، التي ليس لها نظير في بلاط بقيّة الملوك والأمراء العلمانيين، في الوقت الذي أخذ فيه المسيحيّون في شمال أوروبا يستقبحون هذا الوضع الذي أُمست عليه البابويّة وبلاطها، ويستنكرون القبائح التي تردّي فيها. كان الإيطاليّون ينظرون إلى هذه المخازي على أنّها شيء عادي، فعلى الرغم من كلّ هذا الانحدار الأخلاقي، كان الإيطاليّون يرونه أمر غير خطير، ما دام هناك مثلها في قصور أمراء إيطاليا، وإنّ كلّ ما كان يهتمهم في الأمر بقاء المقرّ البابوي في روما، وأنّ تظلّ مركز الكنيسة الغربيّة، حتّى يستمرّ تدفق الأموال على بلادهم، وكان الباباوات ينفقون بعض هذه الأموال على النهوض بالعلم، وفي نشر المعرفة، وإنشاء المكتبات، وجمع المخطوطات، واقتناء الكتب، وإقامة الأكاديميّات، بالإضافة إلى جمع الكنوز الفنيّة^[4].

ثامناً: قراءة نقدية لمظاهر عصر النهضة الأوروبيّة

لقد اتّخذت النهضة الأوروبيّة أشكالاً ومظاهر مختلفة باختلاف طبيعة البلاد الأوروبيّة التي ظهرت فيها، وباختلاف بداياتها ومدّتها وقوّتها من بلد أوروبي إلى آخر، ونحن في هذه الفقرة مدعوون لتسليط الضوء على الجانب السلبي لهذه النهضة بصورة أوضح:

١- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٩-٢٠.

٢- هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٣٨.

٣- أشرف صالح سيّد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٩.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٢٩١.

الناحية الاقتصادية

إنَّ من أبرز ملامح عصر النهضة، هو الفروق المعاشية بين أبناء المجتمع الواحد، فبينما كانت الحرف اليدوية القديمة تمتدّ فقراء المدن بالكفاف من العيش، كانت تمتدّ الأغنياء بأسباب الترف، ولم يصل التقدّم بالصناعة إلى مرحلة المصانع ورؤوس الأموال إلّا مصانع النسيج. أمّا في الريف الأوروبي، فرغم انهيار الإقطاع في إيطاليا، إلّا أنَّ المشهد لم يتبدّل كثيراً في أوروبا، فكان الفلاح يحرق فدادينه القليلة أو بعض أملاك سيّد المقاطعة، ويعيش عيشة الكفاف، التي ألفها منذ أجيال^[١]. وقد فشل كتاب عصر النهضة ومفكروها في تبديل حالة الفلاح هذه، التي كانت ضرباً من العبودية، فعلى الرغم من أنَّ العبودية قد ألغيت في إنجلترا، فقد ظلّ الفلاحون في معظم البلاد الأوروبية يتحمّلون أوضاعاً لا تختلف في قسوتها عن نظائرها (الهيلوت) في إسبارطة العصر القديم.

الناحية القانونية

كان الملك عشيّة النهضة القانونية، التي حدثت في القرنين الثاني والثالث عشر، هو منبع العدل، ويفترض فيه تفسير القانون في حال غموضه، وكانت المحاكم ما تزال هي محاكم الملك، وكان الملك يعتبر قاضياً كامل السلطة في مملكته، بينما يحكم القضاة الآخرون، الذين يستمدّون سلطتهم منه بالنيابة عنه، وكان الخبراء القانونيون منذ القانون الروماني حتّى نهاية عصر النهضة على علم تامّ بالعبارة الدارجة: «رضا الملك له قوّة القانون»^[٢]؛ أي إنّ المشهد لم يتبدّل كثيراً على المستوى العلمي للقانون.

الناحية السياسية

لقد كان أمراً طبيعياً تأثّر الحياة السياسية بمظاهر عصر النهضة، إذ إنّ العقول بسبب هذه الحركة تنبّهت إلى ما هو أسمى من النظام المتبقّي من العصور الوسطى، ذلك النظام الذي ساد بكلّ قوّة قروناً عديدة ذاب فيه الفرد في المجتمع، فالفرد في العصور الوسطى وصل إلى أسفل الدرجات؛ إذ كان عبداً للأمير أو الكونت مثلاً. ولكنّ في أواخر العصور الوسطى،

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، النهضة، ج ٢، مج ٥، ص ٥.

٢- توبي أ. هف، فجر العلم الحديث، م. س، ص ١٤٠.

أخذ الفرد يتحرّر من العبوديّة تدريجيّاً بسبب تطوُّرات جذريّة، منها اجتياح الطاعون الأسود لأوروبا، الذي قضى على نسبة عالية جدّاً من السكّان، فأصبح الأمير مثلاً بحاجة إلى اليد العاملة التي تستطيع أن تعمل لديه أو لدى غيره، وأخذت قدرات الأمراء والكونتات تضعف أمام قدرات الملك على التحكّم في الدولة، فقد نمت إثر ما حدث في انكلترا وفرنسا من ظهور أُسر قويّة حاكمة استطاعت أن تفرض سلطتها المركزيّة إلى حدٍّ كبير جدّاً، واستطاعت أن تجعل ولاء الشعب للملكيّة والوطن، وليس لغيرها^[1].

ولمّا كانت الفرديّة من أهمّ ركائز عصر النهضة، انتقل زمام المبادرة في المجال السياسي من الشعب إلى فئة من الأفراد، فقادة المرتزقة والأمراء والملوك والأساقفة، هم الذين يتصرّفون في شؤون العدالة والحروب المأجورة، ويعقدون الأحلاف والمعاهدات، وينظّمون أمور التجارة والإنتاج؛ أي كلّ المهام التي كانت تعهد للروابط والنقابات واتحادات الحرفيين أو مجالس المدن^[2]. وهكذا نجد أنّ النهضة الأوروبيّة قد أسهمت في الجانب الأوّل من الناحية السياسيّة في ميلاد الدولة الحديثة.

ولذا، نجد أنّ النهضة نجحت في إقامة دول قوميّة حديثة، ومنها إنجلترا وفرنسا وإسبانيا، وقد استغلّت هذه الدولة الطبقة الجديدة (البرجوازيّة) التي نشأت معها، وهي تلك الطبقة التي نمت مع التجارة في تدعيم حكومات هذه الأمم، وقد ساعد نشوء هذه الدول على تصدّع الإمبراطوريّة والكنيسة، اللتين استمرّتا طوال العصور الوسطى تتلاعبان بخيوط الحياة في أوروبا حتّى ضعفتا وأفسحتا المجال لظهور الدول القوميّة.

كما أسهمت النهضة الأوروبيّة في ظهور النزعة الفرديّة والتعصّب القومي بين أبناء القارة الأوروبيّة الواحدة على أساس الشعور القومي، الذي يربط بين أبناء الأُمّة الواحدة، فالأمم الحديثة كالأمّة الإسبانيّة أو الإنكليزيّة أو الإيطاليّة، لم يتمّ تكوينها على أساس التماسك بين أبنائها والشعور بالفارق بينهم وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى إلّا في عصر النهضة.

أمّا المفكّرون السياسيّون في العصور الوسطى، فقد ظلّوا متأثّرين بتقاليد الإمبراطوريّة الرومانيّة العالميّة، وبشعار «كلّ الطرق تؤدّي إلى روما»، وفكرة الكنيسة العالميّة أيضاً،

١- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٠.

٢- ماريا لويز برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، م.س، ص ٨٢.

ومن ثمّ اعتبروا العالم المسيحي بأكمله يمثّل دولة واحدة، على رأسها زعيما هما البابا والإمبراطور، ليعبر الأول عن السلطة الدينيّة، ويعبر الثاني عن السلطة الدنيويّة.

إذاً، أسهمت النهضة بإنكار وهدم كلّ هذه المبادئ، فأولاً نادت بالفرديّة، وثانياً نادت بأنّ كلّ دولة كيان سياسي مستقلّ، يعتمد على الشعور القومي الذي يربط بين أبنائها، الذين ينعمون بالفرديّة والحرية والاستقلال، ما جعلهم يتعصّبون بعضهم لبعض، فضلاً عن تعصّبهم لأوطانهم الوليدة التي منحتهم الحرية الشخصية^[1].

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنّ الكثير من المفكرين والكتّاب، قد أدرك كارثيّة هذه النزعة الفرديّة المتطرّقة في هذا العصر، وكان من بينهم السياسيّون والمفكّرون الذين يعتنقون أفكار المدينة الفاضلة، والذين كانوا ينادون بخلق وحدة جديدة بين الأمم والشعوب. ولهذا الغرض ضحّوا بمعظم مكتسبات عصر النهضة، فقدّم توماس مور تصوّراً عن مدينة فاضلة تفتقر للفرديّة بشكل واضح، وذلك من خلال توحيد المنازل والملابس، وطالب بحلول الإنسان النمطي محلّ الإنسان المتفرّد لعصر النهضة، ولم يكن مور المفكّر الوحيد في هذا الاتجاه، حيث ظهر غيره ممّن هم شديّدو البخل في السماح بالحرية الشخصية^[2].

الناحية الاجتماعيّة

من الآثار السيئة التي لا يمكن إغفالها لعصر النهضة، تلك السلبات التي بدأت تظهر كنتيجة طبيعيّة لهذا التبدّل في شكل الحياة، ففي تلك الفترة لم يهتمّ الرجال والنساء على حدّ سواء بشيء إلّا بإرضاء غرائزهم، بغضّ النظر عن نتائج هذا الاتجاه^[3]؛ إذ كانت هناك مغامرات كثيرة من فتيان وفتيات دون الحاجة إلى الزواج، وأخذ الرجال يستمتعون بجميع ميّزات الاختلاط الجنسي، ولا يجدون أيّة صعوبة في هذا الاختلاط. وما يؤكّد ذلك، هو العدد الكبير من الأبناء غير الشرعيين في إيطاليا في عصر النهضة، حتّى إنّ المرء الذي ليس له أبناء غير شرعيين من الرجال والنساء، يعدّ شخصاً ممتازاً، يحقّ له أن يفخر على غيره، وكان الرجل إذا تزوّج، يستطيع في العادة أن يقنع زوجته بأن تقبل انضمام أبنائه غير الشرعيين إلى أسرته لكي

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٢٨٦.

٢ - ماريا لويز برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، م.س، ص ٨٤.

٣ - عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٣.

يربوا مع أبنائها منه، ولم تكن حال الابن غير الشرعي عقبة كأداء في سبيله، ويكاد المجتمع لا يلقي بالاً مطلقاً إلى هذه الوصمة الاجتماعية. وكان في وسع النغل أن يعدّ ابناً شرعياً بهبة يدفعها لرجال الكنيسة، كما كان في وسعه أن يرث أملاك أبويه، وأن يرث العرش نفسه، إذا لم يكن له أخ شرعي يليق بهذه الوراثة، أو لم يكن له أخ شرعي على الإطلاق، وكان التنافس بين الأبناء الشرعيين وغير الشرعيين مصدر كثير من حوادث العنف في عصر النهضة^[1].

وهكذا انهارت القيم، وتراجع دور الأسرة، ليس بمعنى عدم تكوينها، ولكن بمعنى أن الغرض الحقيقي ليس إقامة هذه الأسرة، بل انطلاقاً من أنهم وجدوا أنها عادة اجتماعية اعتادوا عليها، ولا بدّ منها كشكل نظري للحياة الاجتماعية، يخفون وراءها نتائج ملذاتهم^[2].

كما صار الشبان يعرضون عن الزواج، إذ لم يكن يستطيع إغراؤهم بالزواج، إلّا إذا جاءت الزوجة معها ببائنة قيّمة. ومن أجل هذا، وجدت في أيام سفنرولا Savonarola (١٤٩٢ - ١٥٣٤) كثير من الفتيات الصالحات لأن يكنّ زوجات، واللائي عجزن عن أن يجدن أزواجاً لحاجتهن إلى البائئات. ولهذا أنشأت فلورنسا نوعاً من التأمين، الذي يقضي بأن تقوم الدولة بأداء البائئات لمن هنّ في حاجة إليها، وأطلق على هذا النظام اسم «مال العذارى Motne delle faucille». وفي مدينة سيينا Siena الإيطالية، بلغ عدد الشبان العازبين من الكثرة ما اضطرّ المشرّعين إلى فرض عقوبات قانونية عليهم؛ وفي مدينة لوكا Lucca الإيطالية، صدر في سنة ١٤٥٤م مرسوم يقضي بحرمان كلّ العازبين ما بين سنّ العشرين والخمسين من الوظائف العامة. وكتبت ألسندرا استروزي Alessandra Strozzi نحو سنة ١٤٥٥م، تقول: «إنّ تلك الأيام غير ملائمة للزواج». وكانت حفلات الزفاف نفسها تستنفذ مبالغ طائلة من المال؛ وها هو ذا ليوناردو بروني Leonardo Bruni يشكو من أن زواجه قد ذهب بميراثه. وكان الملوك والملكات، والأمراء والأميرات، ينفقون ما يعادل مليون دولار على حفلة الزفاف، بينما كان القحط يقضي على حياة أبناء الشعب الفقير^[3].

وقد تفشّى في المجتمع مرض الشذوذ الجنسي، إذ وجد القديس برنردينو (المولود في

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، النهضة، ج ٤، مج ٥، ص ٩٠.

٢- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٣.

٣- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، النهضة، ج ٤، مج ٥، ص ٩٥.

سنة ١٣٨٠م) هذه العادة منتشرة في نابولي انتشاراً لم يسعه معه إلا أن ينذر هذه المدينة بأنه سيصيبها ما أصاب سدوم وعمورة. ويقول بيترو أريتنيو Aretino Pietro (١٤٩٢-١٥٥٥م) إنَّ هذا الشذوذ الجنسي كان شائعاً واسع الانتشار في روما، وإنَّه هو كان يطلب إلى دوق مانتوا أن يبعث إليه بين كلِّ خلية وأخرى فتى وسيماً. وقد تلقى مجلس مدينة البندقية في سنة ١٤٥٥م مذكرةً رسميةً تصف انتشار رذيلة اللواط انتشاراً واسع النطاق في هذه المدينة، وأراد المجلس أن يتقي غضب الله، فعين رجلين في كلِّ حيٍّ من أحياء البندقية، مهمتهما القضاء على هذه العادة. وأدين رجل من الأشراف وآخر من رجال الدين في سنة ١٤٩٢م بممارسة اللواط، فأعدموا في الميدان العام، وأُحرق رأساهما أمام الجماهير. ولنا أن نفترض أنَّ اللواط كان منتشرًا انتشاراً كبيراً في إيطاليا أثناء عصر النهضة، وأنَّه ظلَّ منتشرًا فيها حتَّى قامت حركة الإصلاح المعارضة، وفي وسعنا أن نقول هذا القول نفسه عن الدعاية^[١].

الناحية الدينية

وإذا كنا نعلم أنَّ البابا كان يعيش في العصور الوسطى في قصر كما لو كان ملكاً متوجَّاً، فإنَّه من السهل علينا أن نعرف الصورة التي أصبح عليها في عصر النهضة هذا، وخاصة بعد أن انحلت القيم على الشكل الذي أوضحناه، فبالإضافة إلى الملذات والمحرمات التي انغمس فيها كبار رجال الدين، نجدهم يبحثون عن الأموال، ومن ثمَّ كانوا يتبعون كلَّ الوسائل، المشروعة وغير المشروعة، لجمع الأموال، فإلى جانب جمع التبرعات والهبات والزكاة، كانوا يبيعون صكوك الغفران ويشترون في أعمال السلب والنهب. والأكثر من ذلك، هو الاعتداء على النساء، كما لو كانوا أمراء في العصور الوسطى، ومن ثمَّ ظهر تبدلٌ طبيعي ومتوقَّع لكلِّ هذه السلبات فيما بعد^[٢].

هذا فيما يخصَّ رأس الهرم والمؤسسة الدينية، أمَّا فيما يخصَّ رعايا الكنيسة، فكان الوضع لا يقلُّ سوءاً، إذ وصف روبرت أسقف أكوينو في أواخر القرن الخامس عشر أخلاق الشبان في أسقفيتِه بأنها فاسدة، وقال إنَّ أولئك الشبان لا يستحون من هذا الفساد، ويروى أنَّهم كانوا يقولون له إنَّ الفسق ليس من الخطايا، وإنَّ العقبة من الأوامر التي عفا عليها الزمان، وإنَّ عادة احتفاظ

١- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، النهضة، ج٤، ص٥، ص٩١.

٢- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص١٤.

البنات بعذرَيْتِهْن آخذة في الزوال، وحتّى مضاجعة المحارم كان لها من يحبّها ويتباهى بها. ولا شكّ أنّ الخوض في هذا يؤكّد أنّ شطراً كبيراً من سكّان إيطاليا قد خسر إيمانه بالمسيحيّة الكاثوليكيّة، سواء في أوساط الطبقات المتعلّمة أو الطبقات غير المتعلّمة، لا بل إنّ نسبة متزايدة من السكّان قد نبذت العقيدة القائلة بأنّ القانون الأخلاقي موحى به من عند الله، وبدا لهم أنّ الوصايا العشر من وضع البشر، وأنّ فكرة النعيم في الجنّة وعذاب النار فقدت ما كان له من رهبة وقوّة، إذ كان الناس يقولون: «إنّ لم تكن ثمة نار ولا جنّة، فإنّ من واجبنا أن نمتّع أنفسنا على ظهر الأرض، ونترك العنان لشهواتنا، دون أن نخشى عقاباً بعد الموت». فلم يعد أحد يعبأ بالمحرّمات، وحلّ محلّ القانون الأخلاقي قانون جرّ المغانم وانتهاب اللذات، وضعف شعور الناس بالخطيئة أو الرهبة من الجريمة، وتحرّر ضمير الناس من القيود أو كاد، وأخذ كلّ إنسان يفعل ما يبدو له ميسراً، ولو لم يكن ما اعتاد الناس أن يروه حقّاً. ولم يعد الناس يرغبون في أن يكونوا صالحين، بل كان ما يريدونه أن يكونوا أقوياء. ومارس كثيرون من الناس قبل نيكولو مكيافيلي Niccolò Machiavelli (١٤٦٩-١٥٢٧ م) بزمّن طويل، امتيازات القوّة والغشّ والخداع؛ أي المبدأ القائل بأنّ الغاية تبرّر الوسيلة- التي يجيئها ذلك السياسي لحكّام الدول^[1].

الناحية الثقافيّة

استمرّت الخرافات والأساطير مسيطرة على عقليّة الغالبية العظمى من أبناء أوروبا في عصر النهضة، وتوضح الكوميديا الإلهيّة لـ دانتي صوراً لهذا الواقع، الذي كان سائداً في أوائل القرن الرابع عشر، مركّزة على بنية تركيب الكون آنذاك، بحيث تمّت صياغة الجوانب الفلكيّة فيه بشعر أسطوري، فكانت جهنّم عند دانتي عبارة عن كهف مخروطي يصل إلى مركز الأرض، وعلى أطرافه شديدة الانحدار توجد أنواع العقاب مرتّبة في دوائر متناقصة الأقطار بالاتجاه نحو مركز الكهف المخروطي، بحيث يسكن في رأسه الشيطان^[2]. والأخطر من ذلك، هو أنّ دانتي كان حاقداً على العرب ونبههم الكريم، رغم أنّ علوم العرب كانت سبب النهضة الأوروبيّة التي نحن في صدد الحديث عنها، حتّى إنّ حسن عثمان في تعقيبه على

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، النهضة، ج ٤، ص ٥، ص ٨٠.

٢- مخلص الرّيس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، ط ١، كتاب الشهر الصادر عن دائرة الأدب العلمي في جامعة دمشق، أيار ٢٠١٥ م، ص ١٠٦.

الأنشودة الثامنة والعشرين من أناشيد دانتي، حذف أبياتاً منها وجدها غير جديرة بالترجمة، وردت عن النبي محمد ﷺ، إذ كان دانتي متأثراً بما كان سائداً في عصره من تعصب وحقد أسود على العرب، فلم يستطع أهل الغرب حينها تقدير رسالة الإسلام وفهم حكمته الإلهية، على الرغم من أنهم قرؤوا نتاج العرب والمسلمين العلمي والأدبي^[1].

لقد انعكست النهضة الفكرية في القرن الثاني عشر على النشاط الأدبي والدراسات الأدبية، إذ تمّ الرجوع إلى الآداب الكلاسيكية القديمة والعمل على إحيائها، ورغم ذلك وجد بعض رجال الدين المتميّزين، الذين نادوا بضرورة محاربة الآداب الكلاسيكية كونها مظهرًا من مظاهر الوثنية، التي جاءت الكنيسة لمحاربتها^[2]. ومهما يكن من آراء الفريقين، فإنّ عصر النهضة لم يسهم بأدب ملتزم يرفع من سوية المجتمع الأخلاقية، بل إنّ الذي حدث كان عكس ذلك؛ إذ إنّ الكتاب الإنسانيين لم يكونوا أقلّ فساداً من رجال الدين، الذين يوجّهون لهم سهام النقد، حتّى إنّ الغالبية العظمى من رجال الأدب، الذين بعثوا التراث والآداب اليونانية والرومانية، كانوا يعيشون كما يعيش الوثنيون، الذين لم يسمعو شيئاً قطّ عن المسيحية. لذلك كان الكتاب الإنسانيون منبوذين في أوساطهم الاجتماعية، حتّى إنّهم كانوا ينتقلون من مدينة إلى مدينة، يطلبون في كلّ منها المجد أو المال، ولا يستقرون في واحدة منها، وكانوا مولعين بالمال، مزهوين بأنفسهم، ومكاسبهم، وملاحمهم، وثيابهم، غلاظاً وقحين في ألفاظهم، غير كريمين، حقيرين في أحاديثهم، غير أوفياء في صداقتهم، متقلّبين في حبّهم، حتّى إنّ الرجل القويم لا يجرؤ على أن يعهد بابنه إلى معلّم من الكتاب الإنسانيين؛ خشية أن تصيبه عدوى المعلّم الخلقية^[3].

أمّا فيما يخصّ الشعر، فقد ظلّت اللغة اللاتينية اللغة المألوفة في نظم الشعر في القرن الثاني عشر، كما ظلّ الشعر اللاتيني يصادف هوى في نفوس كثير من سكّان أوروبا، وكان القرن الثاني عشر، آخر القرون التي ازدهر فيها الشعر اللاتيني؛ لأنّ ظهور اللغات القومية بعد ذلك جعل لكلّ بلد أوروبي لغته التي يعبر فيها شعراً ونثراً. وقد امتاز الشعر اللاتيني في القرن

١- أليسي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢١٥، نوفمبر ١٩٩٦م، ص ٥٨.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٣١٧.

٣- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، النهضة، ج ٤، مج ٥، ص ٨١-٨٢.

الثاني عشر بطابع دنيوي مرح وساخر، كما دعا إلى التمتع بالحياة ومباهجها في شتى صورها ومظاهرها، بينما اتخذ الشعراء من مفاسد الكنيسة (الرشوة، زواج القساوسة، والخروج عن تعاليم الديانة المسيحية) مادة خصبة لأشعارهم الغنائية الساخرة. وكان هذا الشعر يلقي الراج في الغرب الأوروبي؛ لأنه كان يعبر عن الكبت الذي كان يعاني منه سكان أوروبا^[١].

كما لم يكن النثر بأحسن حال، فقد تفلّت أدباء أوروبا وكتّابها من كلّ عقال في عصر النهضة الإيطالية، حتّى إنّ نصف الروايات كانت تدور حول إغواء النساء، وكانت النساء يقرأن في العادة هذه القصص أو يستمعن لمن يقرأ لهن، وكلّ ما يظهره من دلائل الحياء أن يطرقن بأبصارهن لحظات قصاراً. وكان الكتّاب والأدباء يكتبون عن الشذوذ الجنسي بما يشبه الاعتزاز العلمي، ويقول أريستو إنهم كلّهم كانوا منغمسين فيه. وكان بولتيان، وفليو، واستروتسي وسنودو Sanudo متهمين في أخلاقهم بهذه العادة اتّهاماً له ما يبرّره. كذلك اتّهم بها مايكل أنجلو، ويوليوس الثاني، وكليمنت السابع، وإن لم يبلغ هذا الاتّهام من القوّة والإقناع مبلغه في الحال السالفة الذكر^[٢].

ولعلّ أشهر رواد عصر النهضة ليوناردو دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩م) صاحب لوحة الموناليزا الشهيرة (أيقونة عصر النهضة)، كان شخصاً منحرفاً دينياً وأخلاقياً إلى حدّ كبير. ويقصد بالانحراف الديني، أنّ دافنشي كان على ملّة انشقت عن النصرانية، وتشعبت إلى درجة تشبه الوثنيّة، إذ كان يقدّس الطبيعة، وينادي «إنّ على البشرية أن تلاحظ أنّ الطبيعة أنثى»، وكان يرى أنّ «الشخص المكتمل هو الشخص الذي يحمل صفات الرجل والمرأة معاً». وبالنسبة إليه كان «الرجل أقلّ قدراً من المرأة، وأقلّ أهميّة منها»، وكان يرى «أنّ المرأة الجانب الأيسر من الطبيعة، والرجل هو الجانب الأيمن منها». وبعد دراسة لوحة الموناليزا، وجد علماء الفن أنّ وجهها ما هو إلّا مزيج بين وجه دافنشي ووجه فتاة أخرى؛ أي إنّ دافنشي مزج بين الرجل والمرأة ليعبر عن كماليّة الشخصية المرسومة من وجهة نظره^[٣].

الخاتمة

١- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٣١٩-٣٢٠.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، النهضة، ج ٤، مج ٥، ص ٩٠-٩١.

٣- مخلص الرئيس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، م.س، ص ١٢١-١٢٢.

ممّا سبق، يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

أولاً: يسعى الأوروبيون للترويج لعصر النهضة على أنه عصر مقدّس، نقل الإنسانية من حالة متخلّفة إلى حالة متقدّمة، وبعد الدراسة المتأنّية تبين أن عصر النهضة لم يكن إلاّ عصر سرقة العلوم والمعارف العربيّة، ونسبتها لأسماء أوروبية.

ثانياً: لم يكن عصر النهضة، كما صوّره الأوروبيون، جداراً فاصلاً بين التخلّف والتقدّم، فكما أشرنا في البحث، إن أوروبا واجهت في منتصف القرن الرابع عشر الطاعون بالتعاون والطقوس، واستمرّ الاعتقاد طوال عصر النهضة بالقوى الغيبيّة، وإنّ أشكال القمر، وسير الكواكب، والقوى الغامضة وراء ظاهرة التكاثر والنموّ.

ثالثاً: لا تجوز المبالغة في الحديث عن عصر النهضة درجة أنّهم يرفعونه إلى عصور القداسة، فالتحوّل لم يعمّ القارة الأوروبيّة بأسرها بحيث تركها خالية من رواسب العصور الوسطى وأفكارها، فأساليب الحياة والفكر التي تستمدّ أصولها من العصور الوسطى، كانت ما تزال تفرض سلطانها في عصر النهضة على بعض البلاد في القارة الأوروبيّة، وعلى عقول كثير من أبنائها، ومن ذلك أنّ الاعتقاد في السحر ومخاطبة الموتى والتنجيم والشعوذة، كانت ما تزال قائمة، ولم تختفِ تماماً.

رابعاً: لقد انحطّت الأخلاق في أوروبا في عصر النهضة إلى أدنى مستوياتها.

خامساً: فقدت البابويّة في أوروبا عصر النهضة هيبتها الدينيّة، وكان البابا، بالإضافة إلى صفته الدينيّة كرأس للكنيسة المسيحيّة الكاثوليكيّة الغربيّة، حاكماً دنيوياً لا يختلف عن الملوك والأمراء وغيرهم من الحكّام الدنيويين المعاصرين؛ إذ كان له أقاليم يحكمها بوساطة أجهزة حكوميّة دبّ فيها الفساد، وله بلاط يعجّ بالأتباع.

سادساً: لم يقتصر الأمر على البابا، بل تعدّاه إلى رجال الدين، فبالإضافة إلى المملدّات والمحرمّات التي انغمس فيها كبار رجال الدين، نجدهم يبحثون عن الأموال، فكلّ شيء ثمنه في هذا العصر، ومن ثمّ كانوا يتبعون كلّ الوسائل النزيهة وغير الشريفة، المشروعة

وغير المشروعة، لجمع الأموال، فإلى جانب جمع التبرّعات والهبات والزكاة، كانوا يبيعون صكوك الغفران، ويشتركون في أعمال السلب والنهب.

سابعاً: تفشّى في مجتمع أوروبا عصر النهضة مرض الشذوذ الجنسي، وانهارت القيم، وزاد الفجور والزنا، وصار دور الأسرة في تراجع، وإنّ ما يؤكّد ذلك، هو العدد الكبير من الأبناء غير الشرعيين في إيطاليا في عصر النهضة.

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد عثمان، من اليونانية إلى اللاتينية عبر اللغة العربية، دراسة حول تبادل الثقافات بين العرب وأوروبا، القاهرة ١٩٩٢م.
٢. أشرف صالح سيّد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، لبنان ٢٠٠٨م.
٣. أليسكي جورافسكي، الإسلام والمسيحية، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢١٥، نوفمبر ١٩٩٦م.
٤. توبي أ. هف، فجر العلم الحديث (الإسلام، الصين، الغرب)، ترجمة: محمّد عصفور، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٦٠، أغسطس ٢٠٠٢م.
٥. راغب العلي وطليلة الصياح وعبد الكافي الصطوف، دراسات في تاريخ أوربة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م.
٦. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، النظم والحضارة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩م.
٧. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦م.
٨. شوقي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ١٥١، يوليو ١٩٩٠م.
٩. عبد الله السليمان، ترجمة العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية، مجلّة جسور ثقافية، العدد ٩ خريف ٢٠١٧م.
١٠. عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٩م.

١١. ماريا لويز برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيات أبو السعود، مراجعة عبد الغفار مكاي، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٢٥، سبتمبر ١٩٩٧ م.
١٢. مايكل كاريدرس، لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟ الثقافات البشرية نشأتها وتنوعها، ترجمة شوقي جلال، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٢٩، يناير ١٩٩٨ م.
١٣. محمد أحمد وحسام الناي، تاريخ أوربة الحديث من عصر النهضة إلى قيام الثورة الفرنسية، منشورات جامعة دمشق ٢٠١١ م.
١٤. محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٨ م.
١٥. مخلص الرئيس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، ط ١، كتاب الشهر الصادر عن دائرة الأدب العلمي في جامعة دمشق، أيار ٢٠١٥ م.
١٦. نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط ٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥ م.
١٧. هيربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث، من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ط ٣، ترجمة زينب راشد، أحمد مصطفى، مراجعة: أحمد عبد الكريم، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦١ م.
١٨. ول. ديورانت، قصة الحضارة، النهضة، ج ٤، مج ٥، ترجمة: محمد بدران، بيروت ١٩٨٨ م.

الكشوف الجغرافية وبداية الحركة الاستعمارية

حسين نكلوي^[١]

مقدمة

يسعى الغرب دائماً وأبداً إلى تقديم صورة عن العرب خصوصاً، وعن الشرقيين عموماً على أنهم لم يقدموا أيّ إسهام في الحضارة الإنسانية، بما في ذلك علم الجغرافيا والخرائط، الذي اعتمدته الأوروبيون بعد أن اطلعوا عليه في المؤلفات والموسوعات العربية، فكان سبب إعادة اكتشافاتهم الجغرافية الحديثة. نقول إعادة اكتشافات، ولا نقول اكتشافات؛ لأنّ الحديث عن اليابسة في قلب بحر الظلمات المحيط الأطلسي قد ورد في المصادر العربية الإسلامية قبل وصول كولومبوس إليها بقرون. والدوران حول أفريقيا قام به الفينيقيون سكّان الساحل اللبناني في الألف الأوّل قبل الميلاد قبل البرتغال بقرون. هذا من جهة، أمّا من جهة ثانية، فإنّ المطلّع على المعارف والأساطير التي كانت تفسّر فيها الظواهر الفلكيّة والجغرافيّة، يدرك بأنّ سكّان هذه القارّة كانوا غير مؤهلين للقيام بأيّ عمليّة علميّة كشيّة، لولا أنّهم اعتمدوا على علوم ومعارف وخبرات غيرهم، ولا سيّما العرب المسلمين. لكنّ الإشكاليّة الأهمّ في البحث، هي الدوافع الحقيقيّة الكامنة وراء الكشوف الجغرافيّة، هل كانت هذه الكشوف لأغراض علميّة هدفها زيادة المعرفة الجغرافيّة والعلميّة بالبحار والمحيطات التي تطوّق اليابسة، أم إنّ الأمر كلّ كان بعيداً عن الجانب العلمي، وتوزّع خلف دوافع متنوّعة، منها: استعمار الآخر، وتصدير أزمة القارّة الأوروبيّة إلى الخارج في أعقاب عصر النهضة، وما حمله هذا العصر من كوارث مبطنة اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة على القارّة الأوروبيّة، أم إنّ الأمر كان متابعة للحروب الصليبيّة التي توقّفت في الشرق لمتابعتها بزخم أكبر في المغرب العربي، في رغبة معلنة وصريحة لتطويق المسلمين فيه وتنصير القارّة الأفريقيّة؟ هذا ما سنجيب عليه.

أولاً: حقيقة الكشف الجغرافية

إنَّ ما يدَّعيه الغرب؛ أنَّ ما قاموا به هو كشف جغرافيَّة بعد عصر النهضة، لم يكن في واقع الأمر إلاَّ إعادة اكتشاف لأراضٍ وممراتٍ ومضائق مائيَّة كانت معروفة من قبلهم، والكلام هو علمي أكثر ممَّا هو عاطفي. قد يبدو من الخطأ الحديث عن اكتشاف بما تعنيه هذه الكلمة من مدلول؛ فالكشف هو اكتشاف شيء جديد لم يعرفه أحد من قبل، فقد عرفت أراضي أفريقيا والأمريكيتين وآسيا التي ادَّعى الأوروبيون اكتشافهم لها من قبل سكَّان هذه القارَّات الأصليين، وكان لديهم في بعض الأحيان كتب وخرائط تصف وتبيِّن أراضيهم تلك، وأفاد الأوروبيون بالطبع من ذلك^[١]. فالدوران حول أفريقيا تمَّ منذ عصر الفينيقيين نحو القرن السادس قبل الميلاد. أمَّا الحديث عن الأرض التي تقع غرب بحر الظلمات المحيط الأطلسي والمضائق المائيَّة، فكان منتشرًا في المراجع العربيَّة-الإسلاميَّة قبل قرون من وصول فاسكو دي غاما إلى رأس الرجاء الصالح، وقبل قرون من وصول كولومبوس إلى العالم الجديد. فالعالم التركي الشهير فؤاد سزكين المختصَّ في الحضارة العربيَّة-الإسلاميَّة، كان قد قدَّم دراسة وافية عن الموضوع، بعد أن كان قد اطلَّع على المصادر العربيَّة التي تتحدَّث عن ذلك صراحة.

إذ ذكر أنَّ البيروني يذكر أنَّ المعمورة يحيط بها محيط يفصل شرقها عن غربها في أقصى طرفها، وربَّما هناك جزيرة تقع في وسطه. ويذكر المسعودي المتوفى سنة ٩٥٦م في كتابه «مرآة الزمان»، أنَّ بحَّارين من الأندلس قد خاطروا بحياتهم مرارًا وتكرارًا، إذ قاموا برحلات عبر المحيط نحو الغرب، ومن بين هؤلاء رجل من قرطبة، يدعى حيشخس، أبحر في المحيط مع عدد من الشبان على متن بعض السفن التي كان هيأها هو، وبعد فترة طويلة عادوا بغنائم كثيرة، وهناك قوم غيرهم لم يعودوا أبدًا، وكان ذلك أمرًا معروفًا في البلاد. ومعنى الخبر الذي رواه المسعودي يسهل فهمه بفضل ما قدَّمه الإدريسي من البيانات الأكثر وضوحًا. بموجب أخباره، فإنَّ المقصود كان البحث عن الشواطئ البعيدة من المحيط أو الكتل الأرضيَّة الأخرى الواقعة فيه. وروى الإدريسي خبرًا عن محاولة فاشلة ومشهورة في الوقت نفسه، وربَّما على أيامه، عن قيام ثمانية أفراد من أسرة واحدة لعبور المحيط نحو الغرب

١- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيَّة، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندرية ٢٠٠٠م، ص ٩٦.

على متن سفينة صُنعت لهذا الغرض. ولمّا كانت هذه المحاولات متكرّرة، كما يبدو، سمّي شارع قريب من ميناء لشبونة العربيّة «درب المغرورين» أو «المغرّرين». ويبدو أنّ الأخبار المتعلقة بمثل هذه الرحلات الاستكشافية كان لها انتشار ما في غرب العالم الإسلامي. وجرّت محاولات أخرى انطلاقاً من مالي في غرب أفريقيا؛ فقبل سنة ١٣١٢م يزعم أنّ السلطان محمد أبي بكر أمر بإرسال أسطول بهدف الوصول إلى الجانب الآخر من المحيط. وذكر ابن فضل الله العمري أنّ الأسطول قد أقلع بعد الاستعدادات اللازمة، وتوجّه إلى عرض البحر، فغرقه هناك تيّار خطير، فغرقت كلّ السفن سوى سفينة واحدة. بعد هذا ركب السلطان نفسه البحر على رأس أسطول للهدف نفسه، دون أن يتيسّر له الرجوع^[١].

ثانياً: أحوال المعارف الجغرافية في أوروبا العصور الوسطى

أولاً: لقد أدّى اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحيّة وإعلانها ديناً رسمياً للدولة الرومانيّة، إلى ازدهار حركة السفر والتجارة، وكانت لرحلات الحجّاج للأماكن المقدّسة في المشرق العربي أهمّ النتائج، لذلك ترتّب عليها ظهور كتب إرشادية لخدمة الحجّاج. ومع التزايد السريع في أعداد الحجّاج، ظهرت مجموعات دينيّة تخصّصت في توفير وسائل النقل والإقامة، وبدأت المدن تزدهر على طول الطرق في حوض البحر المتوسّط. ثانياً: كان لانزواء بعض الرهبان بمذاهبهم الدينيّة بعيداً عن مناطق اضطهاد الإمبراطوريّة الرومانيّة الوثنيّة في أوروبا الغربيّة، وتركّزهم في صحراء أفريقيا الشماليّة المعروفة في ذلك الوقت بالصحراء الليبيّة؛ دور مهمّ في الكشف الجغرافيّة، بتنظيمها بعثات كشيّة، وتبيّنها لبعض حقائق الجغرافيا النظرية. ثالثاً: تبنّى بعض الجغرافيين مثل بولوس أوريوس ٤١٥م الإسباني بعض الكتابات الوصفية عن الأوضاع الطبوغرافية للأرض، التي نقلها عن بعض الشخصيات الجغرافية اليونانية القديمة. بل إنّ جغرافياً آخر هو ماريتانوس القرطاجي، قد ألّف كتاباً في القرن الخامس، ذكر فيه أنّ الأرض تدور حول الشمس، وهي فكرة جريئة على الكنيسة في تلك الفترة، لذا فإنّ هذا الأخير عرف بأنّه وثنيّ لم يعتنق المسيحيّة^[٢].

١ - فؤاد سزكين، اكتشاف قارة أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، ترجمة فريد بن فغول، معهد تاريخ العلوم العربيّة والإسلاميّة، جامعة فرانكفورت، ألمانيا ٢٠١٤م، ص ٣٢، ٣٤، ٣٥.

٢ - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٥٠.

لكن سرعان ما بدأت أوروبا تنكمش على نفسها، وصار التقدّم العلمي كلّما أوغلنا في العصور الوسطى يكاد أن يكون معدوم الخطأ في ميادين العلم كافّة، ولم تعد هناك رغبة للتعلم في البحوث والكشوف التي تزيد من سيطرة الإنسان على الطبيعة وقوى المجهول، فبقيت أوروبا كما هي في ظلام دامس، وتقطّعت أوصالها بعدما تلاشت شبكة الطرق الرومانيّة، وتخلّفت وسائل النقل، لا بل إنّها لم تستطع طيلة ألف سنة من استبدال الحصان والعربة التي كان يجرّها بوسيلة أسرع أو أفضل، ولم تفلح في استخدام قوّة أخرى غير قوّة الرياح في تسيير السفن الشراعيّة. وعاش معظم الأوروبيين في بيوت حقيرة خائقة، وانغلقت خبراتهم وتجاربهم في حدود ضيقة، وتبدّدت أعمارهم في الأرض بسوء التغذية وكثرة الأمراض والطواعين^[١].

وهكذا سادت فترة خيم فيها الركود على النشاط الكشفي والكتابات الجغرافيّة، بل سادت الخرافات منذ القرن الرابع حتّى السادس الميلادي، وعرفت هذه الفترة بفترة الظلام أو عصر الظلام في القارة الأوروبيّة. إذ توقّفت الحياة ولم يتم فتح أيّ طرق تجاريّة جديدة، بل أغلقت بعض الطرق التي كانت معروفة نتيجة للاضطرابات الداخليّة. وصارت الكنيسة والكتاب المقدّس منبعاً للفكر في القارة الأوروبيّة، وسيطر رجال الدين على الفكر بشكل عام، وعلى الفكر الجغرافي بشكل خاصّ. ولم تعد عندهم أيّة رغبة في التعرّف على حقائق الكون، أو البحث في أسبابه، وفُسّرت الظواهر الفلكيّة والحقائق الجغرافيّة بالقضاء والقدر^[٢].

وقد اعتنقت الكنيسة رأي بطليموس في الفلك ونظريّته القائلة بأنّ الأرض ساكنة في مركز العالم؛ لأنّها من تراب، والمكان الطبيعي للتراب هو الأسفل، فهي ثابتة لا تدور لا حول نفسها ولا حول غيرها. ولقد كان بطليموس الذي جاء في القرن الثاني الميلادي قد وضع كتابه المعروف بـ «المجسطي»، ودوّن فيه فروع علم الفلك، ليبقى المرجع الأساسي حتّى القرن السادس عشر ميلادي، وقرّر سكّون الأرض باعتبارها مركز الكون ودوران الشمس وسائر الكواكب حولها، وقد اعتنقت الكنيسة هذا الرأي، وأهمّلت ما تناهى لها من علوم العرب المسلمين في مجال علم الفلك، فالكنيسة ورجال الدين تمسّكوا برأي

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص ٢٥١.

٢- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيّة، م.س، ص ٤٧.

بطليموس وحتّموا على العلماء أن يقولوا القول نفسه. وهكذا أكّدت الكنيسة على نظرية الثبات، ودلّلت عليها من الكتاب المقدّس، وتصوّرت أنّ الإيمان يحكمه القصد والتدبير في خلق الحياة على الأرض^[١].

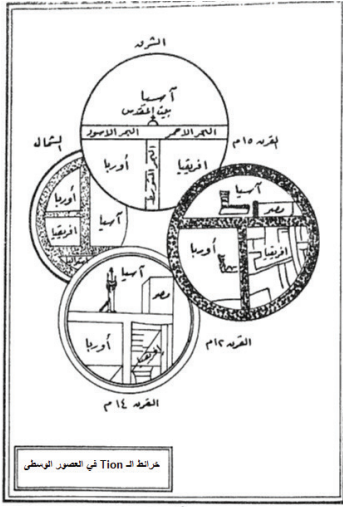
وكان فلاسفة تلك الحقبة مثل كليمنت الإسكندراني ينظر إلى المعبد على أنّه مركز الكون ومحتوياته، إذ تخيل أنّ الشمس هي عبارة عن مصباح موضوع في وسط الكوكب، وتخيل الأشكال الذهبية للنجوم بأنّها مؤلّفة للدّب الأكبر والدّب الأصغر، واعتقد أنّ السفينة الذهبية في السماء هي المنطقة التي توجد فيها الأفكار. بينما كان الفيلسوف لاكتانتيس Lactantius من أشدّ المعارضين لفكرة كروية الأرض أو استدارتها، وكان في كتاباته يسفّه كلّ الفلاسفة الذين يقولون بكروية الأرض؛ لأنّه بحسب رأيه لا يمكن أن تكون السماء أخفض من الأرض. بعضهم لم يكن معتدّاً بكروية السموات، لكنّه قال بوجود ماء فوق القبة السماوية بغية إبقائها باردة ولمنع الكون من الاحتراق بالنار السماوية. وأحدهم افترض أنّ السماء كروية بالنسبة للأرض، وهي مكعبة من خارجها بحيث يتوضّع الماء فوقها كي يحمي الأجزاء العلوية من الاحتراق بالأثير الناري. بينما طالب الكثير من فلاسفة العصور الوسطى الناس عدم معرفة أيّ شيء عن نوعية وموضوع الأرض لعدم نفعه للبشر، وإذا ما كانت السماء مكوّنة من أربعة عناصر أو خمسة؛ لأنّ مثل تلك المعلومات لا تلزم البشر^[٢].

أمّا بعض المتطرفين، فقد اعتبروا أنّ معرفة محيط الأرض أمر خارج عن الدين، والأفضل البحث في الأمور الدينية، حتّى ارتبطت بعض الحقائق الجغرافية في أذهان رجال الدين الأوروبيين بالكفر والوثنية، مثل شكل الأرض وحركتها، وأصبح بعضهم يصف هذه الحقائق باسم الجغرافيا الوثنية. فقد اعتُبرت الأرض قرصاً أو عجلة تقع الشمس في وسطها، ورسمت الخرائط التي تؤكّد هذا الشكل، وعرفت باسم خرائط الـ Tion، ووضع بيت المقدس في وسطها. أمّا في أقصى شرق الأرض، فقد رسم جبل عال تدور حوله الشمس والقمر لتفسير حدوث الليل والنهار. وفي هذه الخريطة أصبحت قارّة آسيا تشغل النصف الأعلى

١ - كمال خرفي، الإصلاح الديني في أوروبا وعلاقاته بالتنوير الفلسفي، مارتن لوثر أنموذجاً، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في العلوم الاجتماعية، جامعة محمد خضير، بسكرة ٢٠١٩ - ٢٠٢٠م، ص ٢٩.

٢ - مخلص الرّيس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، ط ١، كتاب الشهر الصادر عن دائرة الأدب العلمي في جامعة دمشق، آيار ٢٠١٥م، ص ٩٨.

من الخريطة مع وجود الجنة في قمّتها، بينما تحتلّ أوروبا الركن الأدنى الأيسر، وأفريقيا الركن الأدنى الأيمن. رأى بعض الجغرافيين في تلك الفترة أنّ فكرة كروية الأرض تتعارض مع تعاليم الإنجيل، بل إنّ بعضهم قرأ أعمال الجغرافيين الإغريق والرومان، وصرّح أنّها جميعاً أعمال خرافية. كما ظهر في أوروبا ميل شديد نحو الكتابات المتعلقة بالأمور الخارقة عند معالجة بعض الموضوعات الجغرافية، وشاع تزيين الخرائط بصور الطيور والأزهار والحيوانات لتغطية النقص في المعلومات الجغرافية الأساسية^[١]. وبينما كانت أوروبا في هذه العصور في غياهب الجهل تتخبط في ديجوره، وهي إذ ذلك من قبائل وأمم رحالة يغزو بعضها بعضاً، كان العرب بفضل الإسلام قد فتحوها في ٨٠ سنة، من الهند شرقاً إلى الأندلس غرباً؛ ما احتلّه غيرهم في عدّة قرون. ولمّا استتبّ لهم الأمن وخضعت لهم الأمم، أخذوا في تدوين العلوم والمعارف واهتمّوا بكلّ فروعها، وكان للجغرافيا نصيبها من عنايتهم واهتمامهم، حتّى نبغ فيها كثير من العلماء المسلمين^[٢].



أمّا معارف الأوروبيين الجغرافية في العصور الوسطى عن العالم والقارّات والبحار والمحيطات، فقد شابها الكثير من الأخطاء، إذ كان العالم في نظرهم يتألّف من أربع قارّات، هي أوروبا وأفريقيا وآسيا وقارة شاسعة المساحة تقع في مكان ما في نصف الكرة الجنوبي، عرفت باسم القارة المجهولة. وقد حشّدت هذه القارّات على خريطة العالم في تلك الفترة بحيث

بدت المحيطات مزدحمة بكتل اليابس، فتقلّص المحيط الأطلسي إلى ممرّ مائي ضيق، ولم يظهر المحيط الهادي إطلاقاً، على حين جعلت القارة الجنوبيّة المحيط الهندي بحرّاً داخليّاً. وهذه الأخطاء الجغرافية لم تكن وليدة جهل رسّامي الخرائط فحسب، فطبقاً للعقيدة المسيحيّة لا بدّ أن توضع القدس في قلب العالم، لذلك رسمت الخرائط في العصور

١- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٤٨.

٢- محمّد حمدي علي، الاكتشافات الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩١٣م، ص ٥.

الوسطى كدائرة، وعند مركزها وضعوا المدينة المقدسة، وبالتالي شوّها الأشكال الفعلية للقارات الثلاث القائمة ليصلوا إلى هذا الهدف. رغم أنّ هذه الصورة كانت متناقضة مع تلك التي وجدوها في التراث العلمي اليوناني؛ إذ رسم الجغرافيون الإغريق والرومان خريطة العالم بصورة أكثر دقة، ولكنّ معظم خرائطهم فقدت في ظلام العصور الوسطى، وبقي القليل منها قائماً، مثل أعمال الجغرافي بطليموس. غير أنّ الكثيرين من الأوروبيين ظلوا يفضلون الخرائط التقليدية القائمة على الأساس الديني عن الخرائط العلمية^[١].

وتجدر الإشارة إلى أنّ لتهريب دودة القزّ من الصين إلى أوروبا في القرن السادس الميلادي دوراً مهماً لما ترتّب عليه من نتائج اقتصادية كبيرة؛ إذ تأسست صناعة المنسوجات الحريرية في سورية ثمّ في صقلية وبعدها في إيطاليا وإسبانيا، وهكذا أصبحت أوروبا العصور الوسطى محرومة من دافع مهمّ لحملها على سلسلة من المغامرات والكشوف الجغرافية في سبيل الوصول إلى الشرق الأقصى. أمّا التوابل، فلم تنقطع عن أوروبا في يوم من الأيام، غير أنّها ظلّت باهظة الأثمان، والسبب في ذلك أنّ الهنود ثمّ العرب الذين سيطروا على طريق البحر الأحمر منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وفرضوا الضرائب على البضائع المارة فيه، قد استمرت سيطرتهم عليه في عهود الدول العربية الإسلامية المتعاقبة، بما فيها دولة المماليك في مصر، التي فرضت مكوساً كبيرة على مختلف أصناف التوابل، قبل أن تصل إلى يد التجار الإيطاليين^[٢].

وعلى الرغم من أنّ معرفة الأوروبيين بقارتي آسيا وأفريقيا خلال العصور الوسطى، كان يشوبها الغموض، إلّا أنّهم كانوا مهتمّين فيها كثيراً، لما تواتر لهم من قصص وأساطير حولها، أو لما ذكره الكتاب المقدس عن أفريقيا أرض العاج والرقيق وسنّ الفيل والأبنوس، وآسيا الأرض التي تضمّ الأماكن المقدسة والحريّر والتوابل والشاي. فعلى سبيل المثال، كان الاعتقاد السائد أنّه في مكان ما في أفريقيا يجري نهر من الذهب يصبّ في بحر استوائي. وقد ساعد انتشار هذه الأفكار والأساطير غياب إمكانية التأكّد من صحتها، فالأوروبيون كانوا جهلة تقريباً بآسيا وأفريقيا، فعدد التجار الذين بلغوا الهند قليل، وكلّ محاولات

١- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٣٧.

٢- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٣.

الأوروبيين للتوغل في قلب آسيا، وقفت بهم عند سورية وفلسطين، نتيجة لوقوف الفرس في وجههم بادئ الأمر، ثم الخلفاء العرب المسلمين^[١]. وقد ساعد انتشار الجهل بقارتي آسيا وأفريقيا وشيوع الأساطير عنهم، إلى إجحام الكثير من المغامرين عن فكرة تحدي هذه الأوهام والخرافات؛ ولعل أشهر هذه الأساطير تلك التي كانت شائعة آنذاك من أنه ما من إنسان عبر رأس بيجادور جنوب شرق جزر كناريا إلا وقد هلك. وقد ضيعت هذه الأساطير والمخاوف على البحارة البرتغاليين زمناً طويلاً في إعادة اكتشاف رأس الرجاء الصالح^[٢]. كما شاع اعتقاد خرافي كرّسه رجال الدين؛ أن المنطقة الواقعة في النصف الثاني من الكرة الأرضية، لا يمكن أن يعيش فيها إلا القديسون فقط؛ لأنه ما دام كل الناس أولاد آدم ولا يمكن تعدي المدارين من البشر، فإن القديسين فقط هم الذين يعيشون في القارة المجهولة القارة الجنوبية. وآخر هذه العقبات التي كانت سبباً لتأخر كشف أفريقيا، هو يقين البحارة الأوروبيين أن القارة السمراء تتصل بالقارة الجنوبية، وبالتالي لا يمكن الدوران حولها^[٣]. ورغم أن الأمير البرتغالي هنري الملاح أرسل في خلال ١٢ سنة عدة سفن إلى هناك، إلا أن بحارته لم يغامروا بعبور رأس بيجادور. حتى أرسل في سنة ١٤٣٣م سفناً بقيادة القبطان «جيل إيانيش» بهدف تخطي رأس بيجادور واستكشاف الساحل الأفريقي، إلا أن عدة مصاعب أعادت الرحلة فاشلة إلى البرتغال. وحسب المصادر التاريخية، فإنه في السنة التالية كرّر هنري الملاح أمره للقبطان جيل إيانيش، الذي نجح هذه المرة في عبور رأس بيجادور، واكتشف كذب الأساطير حول الساحل الأفريقي^[٤].

ثالثاً: الدوافع المبكرة لحركة الكشف الجغرافية

١. الفايكنغ

تضمّ مناطق الفايكنغ إسكندنافيا؛ وتشمل كلاً من الدانمارك والنرويج والسويد، وأطلق عليهم اسم رجال الشمال. وكان النشاط الاقتصادي للشعوب الإسكندنافية متعدّداً متنوعاً

١- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٣٨.

٢- بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، ترجمه عن الروسية: عاطف معتمد، نشرت الترجمة بمجلة الترجمان، الصادرة عن مركز اللغات والترجمة، جامعة القاهرة، العدد ٢، يوليو ٢٠١٢م، ص ٢٢.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٤٠.

٤- بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ٢٢.

نذكر منه الصيد وتربية الحيوانات وزراعة الحبوب كالقمح والشعير. ومنذ القرن الثالث الميلادي، اتّجه الميل إلى تعرية الغابات وجعلها صالحة للزراعة، وامتدّت هذه الحركة من الساحل إلى الداخل^[١]. وقد أقام السكّان مستعمرات سكنيّة ضخمة اعتمدت على الرعي والزراعة خلال فصول الصيف القصيرة وصيد البرّ والبحر في هذا الجزء القاسي من القارّة الأوروبيّة. غير أنّه وبغضّ النظر عن هذه الجهود، فإنّ أرض إسكندنافيا لم تكن كلّها صالحة لتوسّع هذه النشاطات؛ ولا سيّما مع تزايد أعداد السكّان، الذي ترافق مع إدراكهم لقوتهم، فبدأوا يقتتلون فيما بينهم على الأرض والكلأ^[٢]. وهكذا بحكم قلة الموارد في إسكندنافيا، اتّجه سكّانها بقوة نحو البحر للاعتماد على مصائد الأسماك، بينما امتنّ بعضهم الآخر السطو والقرصنة البحريّة، وعرفوا منذ ذلك الحين باسم الفايكنغ Viking^[٣].

لقد كانت الملاحة والتجارة تؤلّفان في القرن التاسع نشاطاً اقتصادياً أساسياً ومهماً عندهم، وقد تفوّقت القرصنة عندهم على التجارة اعتباراً من الربع الثاني من القرن التاسع. وقد طوّروا صناعة سفنهم، عاونهم في ذلك توافر الأخشاب الجيدة في بيئتهم بلادهم، وكان الملاحون يركبون سفناً نحيلة متطاولة، ذات جوجو مزين برأس غول، تسير بالشراع والتجديف، وجوانبها محميّة بأتراس مستديرة من الخشب، وكانت هذه السفن سريعة جداً^[٤]. وقد تميّزت رحلات الفايكنغ بعدم الالتزام بخطّ الساحل كما فعل قدامى الملاحين، بينما كان هؤلاء المغامرون هم أوّل من قام برحلات طويلة في البحر واكتشفوا بلاداً جديدة في رحلاتهم بالسفن. وقد تركّز نشاط الفايكنغ ما بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر ٧٥٠ - ١٠٠٠ م، بمهاجمة أوروبا من خلال البحار^[٥]، إذ تعرّضت أوروبا لتهديدات أتت عبر البحار الشماليّة؛ وقد وصف السجل التاريخي الفرنسي الدمار الذي لحق بفرنسا بشيء من الأسى، إذ وصف أعداد السفن التي كانت تهاجمها عبر البحر، وتزداد في تعدادها باستمرار، والتدفّق غير المنقطع للفايكنغ والنتائج الكارثيّة لغزوهم؛ الذي خلف آلاف القتلى من السكّان؛ جرّاء

١- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج ١ من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر، دار الفكر، دمشق ١٩٨٢م، ص ٣٨٥.

٢- بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ١٣.

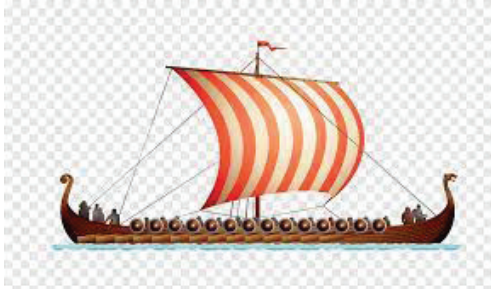
٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيّة، م.س، ص ٥٢.

٤- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، م.س، ص ٣٨٦.

٥- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيّة، م.س، ص ٥٢.

المذابح التي كانت تُرتكب بحقهم من قبل الفايكنغ، إلى جانب عمليات الإحراق والنهب والسرقة، وكتب المؤرخون الفرنسيون: «بأن تلك المذابح والهجمات ستظل وصمة عار في جبين التاريخ، ما بقي العالم والناس»^[١]. وخلال هذه الفترة لم يترك الفايكنغ بصماتهم على غرب أوروبا فقط، بل امتد هذا التأثير إلى البحر المتوسط من جبل طارق حتى آسيا الصغرى، وربطت أنشطة إسكندنافيا التجارية بين بيزنطة والسويد من ناحية أخرى، وحكم الدانماركيون والنرويجيون أجزاء كبيرة من إنجلترا وفرنسا وإيرلندا، وكون السويديون طبقة حاكمة في غرب أوروبا والمناطق المجاورة؛ وهم الفرنجة في فرنسا، وبيزنطة التي ركزت اهتمامها على شواطئ البحر الأسود وسهول أوكرانيا، والخلافة العباسية التي سيطرت على بلاد فارس واتجهت شمالاً نحو جنوب غرب سيبيريا^[٢].

وأثناء مغامراتهم في البحار المجهولة شمالاً وغرباً، فإنَّ الفايكنغ استولوا على آيسلندا في



القرن التاسع، وبعدها بقليل على جرينلاند، بل إنَّهم وصلوا إلى أمريكا قبل كريستوف كولومبوس بقرون^[٣]. وإنَّ هذا ما يهْمنا في هذا الباب؛ أي عمليات الكشف الجغرافية التي قاموا بها، أكثر بكثير من عمليات القرصنة الوحشية، تماهياً مع عنوان البحث،

لكننا كنّا مدفوعين للحديث عن القرصنة؛ لأنَّها كانت الباب الحقيقي الذي عبَّر منه الفايكنغ باب الكشوفات الجغرافية؛ إذ عانت الجزر البريطانية من قسوة هجماتهم الهمجية، فاضطرَّ بعض الرهبان الإيرلنديين سعيًا وراء حياة آمنة مسالمة إلى الهروب إلى جزر جديدة لا يسكنها أحد. وهكذا بدأ الحديث عن الجزيرة الحلم التي لا يسكنها أحد، والتي ستكون ملاذًا من الاضطهاد، إلى أن قام أحد ملاك الإقطاعيات في آيسلندا، ويدعى إيريك خلال مشاجرة

١ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلامية بغزة ٢٠١١م، ص ١٦١.

٢ - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٥٣.

٣ - موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٣٧.

مع جيرانه بقتل اثنين منهم، فحكم عليه بالنفي لمدة ثلاث سنوات خارج أيسلندا. فخرج إيريك مع أهله وعشيرته في سنة ٩٨١م على مركب لم تحدّد وجهتها، ولمّا كانت النرويج في الشرق والتي طرد منها والد إيريك من قبل لجريمة قتل مشابهة، ولمّا كان الجنوب عصيّاً عليه ولن يرحّب به في بريطانيا وإيرلندا. قرّر إيريك وعشيرته البحث عن جزيرة لا يسكنها أحد في البحر الغربي الذي يقول البحّارة عنه أنّ به أراضي غير معلومة. اتّجه مركبهم جهة الغرب فوصلوا في الصيف إلى جزيرة غطّت الخضرة سواحلها، فساروا بمحاذاة شاطئها الشرقي نحو ٦٠٠ كم حتّى وصلوا إلى النهاية الجنوبيّة لها، فضربوا خيامهم، وأطلقوا عليها اسم الأرض الخضراء جرينلاند طمعاً في أن يغري اسمها آخرين فيأتوا لتعميرها. وبعد أن انقضى الشتاء الأوّل لعشيرة إيريك، شرعوا في استكشاف الساحل الغربي للجزيرة بمسافة تبلغ نحو ٦٠٠ كم أخرى. وأدرك الجميع أنّ الأرض قاسية بمكان لدرجة أنّه من الصعب إغراء الناس بالاختصار الصيفي الذي يطوّق سواحلها فقط. عاد إيريك بعد انقضاء سنوات النفي إلى أيسلندا وحدثّ الناس، فاتّبعت جماعات كبيرة أغراها الاسم كما أغراها حقيقة وقوع السواحل الجنوبيّة لجرينلاند في عروض جغرافيّة أكثر جنوبيّة من تلك التي يعيشون فيها في أيسلندا. وهكذا نجح إيريك في أن يصبح معه في سنة ٩٨٥م أسطولاً قوامه ٢٥ سفينة كبرى حملت الناس وأمتعتهم. غير أنّ الرياح أتت بما لا تشتهي السفن؛ فهبّت عاصفة حطّمت وأغرقت بعض السفن، فاضطرّ البعض للعودة ونجح (٤٠٠-٥٠٠) فرد في الوصول إلى جرينلاند، في مكان اختاره إيريك على الطرف الجنوبي للجزيرة. وسرعان ما بدأت الحياة تستقيم على الجزيرة، فنمت أعداد الأسر في القرن الثامن الميلادي إلى عدّة مئات وأقاموا خطّاً للاتصال مع أيسلندا يجلبون منها الغلال، والمصنوعات الحديديّة، والمصنوعات الخشبيّة للبناء، وفي المقابل كانوا يقدّمون لأيسلندا الحيوانات البحريّة النادرة كالبطّ البحري والحيتان وجلود الحيوانات البحريّة. ومضت الحياة هنيئة حتّى القرن الرابع عشر حينما تعرّضت جرينلاند لموجات من الصقيع والبرودة المتتالية أهلك الإنسان والماشية^[١].

وإذا ما ألقينا نظرة على خريطة شمال المحيط الأطلسي، لن يكون من الصعب علينا

١ - بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ١٤.

إدراك مدى قرب موقع جنوب غرب جرينلاند من شمال شرق أمريكا الشماليّة؛ بما لا يزيد عن ٥٠٠ كم على الطريق القطبي أو ٩٠٠ كم على الطريق البحري من يابس جرينلاند الجنوبي. فهل تمكّن الفايكينج من الوصول إلى أمريكا الشماليّة فعلاً؟. في الواقع تحكي إحدى أساطير الفايكينج التي انتقلت من جيل إلى جيل عبر القرون الماضية عن بطلهم بيارني ما يلي: «دعا بيارني الناس في أيسلندا إلى رفقته لاستعمار جرينلاند، حيث الأمل في أرض أفضل وأكثر اتساعاً وخصوبة، فاتّبعه كثيرون. مرّت سفنهم ثلاث ليال في طريقها إلى جرينلاند، فعاكستهم الرياح وهيمنت على البحر الغيوم. لم يعد في وسعهم معرفة موقعهم، وهاموا في البحر عدّة أيام قبل أن تشرق الشمس من جديد. فتحوّأ أشرعتهم وأبحروا من جديد، وبعد يوم وليلة أبصروا اليابسة، فاستبعد بيارني أن تكون هذه الأرض جرينلاند؛ فهنا الغابات تغطّي كلّ مكان وليس الجبال والجليد. عاود بيارني ورفاقه الإبحار في البحر المفتوح لثلاث ليال أخرى مستفيدين من الرياح الجنوبيّة الغربيّة فوصلوا إلى الأرض التي تاهوا عنها؛ أي جرينلاند». في القصّة السابقة، والتي حكيت لأول مرة في القرن الثامن يمكن تقدير حرفيّة الفايكينغ البحريّة بتحديد المواقع والاتجاهات بما قد يدعم ما يطرحه بعض الباحثين من أنّه كانت لديهم بوصلات أوليّة ساعدتهم في رحلاتهم، واستخدام بلّور شفاف عرف تاريخياً باسم الفلسبار الأيسلندي الذي يمكن من خلاله رؤية الشمس وتحديد موقعها في الأجواء الغائمة. وهكذا لقد وصل بيارني وزملاؤه إلى جزر في الأطراف الشماليّة الشرقيّة لأمريكا في سنة ٩٨٥م؛ أي قبل أن يصل كولومبوس إلى أمريكا بنحو خمسة قرون! وقد اكتشف علماء الآثار مؤخراً آثار الفايكينغ النرويجيين في جرينلاند وجزر شمال شرق أمريكا الشماليّة، وخاصّة جزيرة نيو فوندلاند، غير أنّ كلّ ما عُثر عليه لم يزد عن كونه «آثاراً»، إذ لم ينجح الفايكينغ في ترك مستعمرات استمرّت في الحياة حتّى العصر الحديث. ولكنّ الثابت أنّ كثيراً من حكايات وأساطير الفايكينغ وصلت إلى إسبانيا والبرتغال وشجّعت البحارة والقادة والأمراء والملوك على رحلات باتّجاه الغرب^[١].

١ - بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ١٥-١٦.

٢. العلوم والمعارف العربية

لقد تقدّم فنّ إدارة الشراع إلى الريح، الذي كان معروفاً في القرن السادس، تقدّماً بطيئاً حتّى القرن الثاني عشر، حين أضيفت إلى الشراع المربع القديم أشعة أمامية وخلفية، ولكنّ القوة المحركة الرئيسة ظلّت هي المجاذيف كما كانت قبل^[١]. وتحسّنت نوعيّات السفن منذ القرن الثالث عشر، لكنّ هذه السفن لم تخاطر أبداً في الإبحار في رياح الشتاء، وحتّى بداية القرن الرابع عشر حدث هناك استثناء وحيد، وهو أنّ عبرت السفن الإيطالية مضيق جبل طارق^[٢]. وتجدر الإشارة إلى أنّ ما أعاق حركة الملاحة البحرية، وبالتالي حركة الكشف الجغرافية، هو عدم وجود البوصلة، أو غيرها من الأدوات التي يمكن الاعتماد عليها في الابتعاد عن الشاطئ خوفاً من أنّ يضلّ البحارة الطريق. وما إنّ وصلت البوصلة سفن المسيحيين عن طريق العرب المسلمين نحو سنة ١٢٠٠م حتّى أبحرت السفن وابتعدت عن السواحل، إذ كان لاكتشاف قوّة الجاذبيّة القطبيّة لأحد طرفي الإبرة الممغنطة تأثير عظيم، وهذا الابتكار نقله العرب عن الصينيين، منذ أنّ خالطوهم في العديد من جزر الهند الشرقية، وقد نقل ذلك الابتكار عن العرب أحد الملاحين الإيطالي فلافيو جيوبا Flavio Gioja. وكانت إبرة البوصلة في بادئها توضع على عود من القشّ في الماء، واستمرّ استعمالها على هذه الحال حتّى جعل الملاحون الصقليّون استعمالها مستطاعاً في المياه الهائجة بثبتت الإبرة الممغنطة فوق قطب متحرّك، وينسب الأمر عادة للملاح جيوبا، إذ تمكّن من تثبيت هذه الإبرة الممغنطة على محور -كما هو شكلها الحالي- فكان هذا من أقوى الأسباب الداعية لرسم الخرائط وتقدّم فنّ الملاحة^[٣]. ومع هذا، فقد مرّت مائة سنة بعد هذا الاختراع قبل أنّ يجرؤ الملاحون الأوروبيّون -عدا أهل الشمال- على الابتعاد عن اليابسة وتسيير السفن وسط البحار الواسعة^[٤].

كما تعرّف الملاحون الأوروبيّون من خلال اتصاليهم بالشرق العربي الإسلامي إلى الإسطربالاب العربي، وعلى علم الفلك والأرقام العربية وعلم الجبر^[٥]. وقد ساهمت كلّ

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص ٧٣.

٢- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٩٢.

٣- محمّد حمدي علي، الاكتشافات الجغرافية، م.س، ص ٨، ٩.

٤- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، ص ٧٣.

٥- أيوب أبو دية، علماء النهضة الأوروبية، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٠م، ص ٤٠.

من حركة ترجمة علوم البحار والخرائط والمعارف الجغرافية من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية، وانتشار الوعي الفكري في أوروبا، في تقدّم فنّ الملاحة وتطوّر تقنيّات الاتجاه والخرائط والكرات المصنوعة، على انطلاق السفن في المحيطات^[١]. وكان للعرب دور كبير في تعليم الأوروبيين رسم الخرائط الجغرافية، وبالتالي لم تكن سفن الكشف الجغرافية الأوروبية تمخر على غير هدى؛ فخريطة كانكنيدو -على سبيل المثال- تمثّل سواحل شرق أفريقيا على مستوى عالٍ من الدقّة، بحيث ليس هناك أدنى شكّ في أنّ من رسمها شخص قد مرّ برأس الرجاء الصالح، وأنّ الأوروبيين لم يصلوا إلى جنوب أفريقيا إلّا بعد ستين سنة. لقد تتبّع المؤرّخون أصل هذه الخريطة إلى حوالي سنة ١٣٠٠م، علماً أنّ الشكل المثلث لجنوب أفريقيا والتمثيل الدقيق جدّاً للبحر المتوسط؛ لا بدّ وأنهما يدهشان مؤرّخي الخرائط مع الأسماء العربية المثبتة عليها لنحو مائة مدينة وبلد في أوروبا، وخمس وثلاثين اسماً في أفريقيا. إنّ هذه الدقّة العالية لا يمكن تعليلها إلّا بالمعارف الجغرافية السائدة في الأوساط العلميّة العربيّة وفي مصنّفات ومؤلّفات وكتب الجغرافيين العرب. ويبدو أنّ هذه المعرفة الجغرافية قد انتقلت من العرب إلى الصينيين؛ في الوقت الذي وصلت فيه كذلك الكرة الأرضيّة التي كانت قد أرسلت في سنة ١٢٦٧م من مراغة، والتي كانت في حينها مقراً للإمبراطوريّة المغوليّة الغربيّة، إلى بلاط قوبلاي خان، مع ستّة أدوات فلكيّة، وأنّ المبعوث المكلف بتسليم هذه الآلات هو المدعو جمال الدين، والذي كان هو أيضاً مؤلّف جغرافيّة الإمبراطوريّة المغوليّة الكاملة^[٢]. وهكذا أسهمت العلوم العربيّة من تمكين تلك القارة التي تحيا في عالم السحر والشعوذة والهرطقة والجهل والتخلّف أنّ تلحق بركب الحضارة.

٣. الحروب الصليبيّة

استغرقت الحروب الصليبيّة في جملتها أقلّ قليلاً من مائتي سنة، وقد تركت آثاراً إثنولوجيّة مهمّة في شرق البحر المتوسط. وأفاد المسيحيّون من التبادل الثقافي والتجاري الذي نشط خلال هذه الفترة، وأصبح للأوروبيين ثقافة خاصّة حول مناطق الشرق، وتأثّرت العلوم

١- راغب العلي وطليلة الصباح وعبد الكافي الصطوف، دراسات في تاريخ أوروبا في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م، ص ٦٣.

٢- فؤاد سزكين، اكتشاف قارة أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، م.س، ص ١٤، ١٦، ١٧.

والفنون بالامتزاج الثقافي الذي حدث، ونشطت وازدهرت كل المدن الواقعة على الطرق التي تحركت عبرها الجيوش^[١]. كما أدى احتكاك الأوروبيين الغربيين بالبيزنطيين أثناء الحروب الصليبية إلى انتقال بعض مظاهر الحضارة البيزنطية إليهم، ولا سيما بعد الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٣م، التي نهب فيها الصليبيون مدينة القسطنطينية، ودمروا جانباً منها، وسرقوا كنوزها الحضارية، وعددًا كبيراً من كتبها ومخطوطاتها ومؤلفاتها العلمية^[٢].

وكانت آخر المراكب الصليبية التي غادرت الشرق تحمل على متنها الكتب والمصنّفات العربية وما حوته من كنوز العلم والمعرفة. وأخذت فكرة كروية الأرض تجد قبولاً متزايداً في أوروبا، وذلك بفضل العلوم العربية التي كانت تُدرس مراجعها، وترجمت أعمال العرب عن خطوط الطول ودوائر العرض وحسابات طول البحر المتوسط، وما كتب عن الإسطرلاب كآلة عربية. ويعتبر روجر بيكون (١٢١٤-١٢٩٤م) أهم من دعا الجغرافيين الأوروبيين للتفكير الحرّ، واهتمّ بحسابات خطوط الطول ودوائر العرض ومحيط الأرض، ومن نظرياته أنّ اليابس والماء موزَّعان توزيعاً متوازياً على سطح الكرة الأرضية^[٣]. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا العالم الأوروبي كان عربيّ الثقافة واللغة، بعد أن تعلّم العربية واطّلع على نتاجها الثقافي بشغف كبير، حتّى إنّه قرأ مؤلّفات الكندي وابن سينا وابن الهيثم والجزاري ومؤلّفات عربية أخرى لعلماء كبار من رواد الحضارة العربية الإسلامية^[٤].

٤. رحلات ماركو بولو

في الواقع لم يعد سرّ الوصول إلى الصين خافياً على أحد من الأوروبيين المعنيين بمعرفته، فالقصة التي تمّ نشرها في سنة ١٢٩٩م، والتي روى فيها ماركو بولو أخبار أسفاره في آسيا، وأخبار تنقلاته في بلاد الصين سبعة عشر عاماً، أحدثت في أوروبا صدمة فكرية، وهيّجت أطماعها^[٥]، فما قصة هذه الرحلة؟

١- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٤٨.

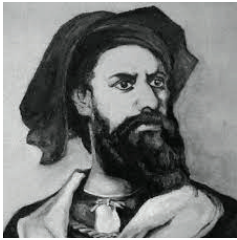
٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٣٠٦.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٤٨.

٤- أيوب أبو دية، علماء النهضة الأوروبية، م.س، ص ٤٥.

٥- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٤.

لقد لعبت التجارة دوراً مهماً في علاقات الأوروبيين بقارة آسيا خلال العصور الوسطى، وكانت تجارة الحرير والتوابل دافعاً قوياً لهم للبحث عن الطرق المؤدية للشرق برّاً وبحراً. واكتسبت البندقية أهمية تجارية خاصة بين المدن الإيطالية في القرن الثالث عشر؛ إذ كانت تستقبل سفناً من كلِّ موانئ العالم المعروف، كما حمل التجّار الأوروبيون سلعهم إلى هذه المدينة أيضاً، وكانت أهمّ هذه السلع الأصواف والمعادن والأخشاب والأقمشة والفراء. ولعلّ أشهر تجّار البندقية الذين ظلّت أسماؤهم تتردّد حتّى الآن، هما الأخوان نيكولو بولو ومافيو بولو اللذان قاما برحلة إلى الصين يرافقهما طفل الأوّل المدعو ماركو بولو Marco Polo (١٢٥٤-١٣٢٤م)، وكانوا جميعاً يتاجرون بالمجوهرات، واضطروا في إحدى رحلاتهم للاتّجاه شرقاً بسبب الاضطرابات بين القبائل المغولية لقيموا ثلاث سنوات في مدينة بخارى، وعادوا منها إلى روما. فكّرت أسرة بولو في العودة شرقاً إلى الصين، وكان ماركو قد صار رجلاً، فقرّروا اصطحابه، وبدأوا جميعاً من البندقية بمباركة البابا ومحمّلين بهدايا إلى الخان الأعظم للصين. وسلكت البعثة طريق الحرير المعروف عبر وسط آسيا عبر بلاد الرافدين وفارس وبلخ حتّى وصلوا الصين بعد ثلاث سنوات. وقد حظي ماركو بولو بإعجاب إمبراطور الصين واختاره للمهام الرسمية في بلاده والبلاد المجاورة، وكان ذلك فرصة مناسبة ليقوم بعملية جمع معلومات واسعة عن الصين، وليقدّم وصفاً دقيقاً للمدن الصينية ومنتجاتها وسكّانها، ودعم ذلك بإحصاءات عن أعداد المحلات والحرف والنقابات والأفراد، ولاحظ استخدام الصينيين لأوراق النقد، ووصف شبكة الطرق والقنوات المنتشرة في البلاد^[١].



ماركو بولو

مكثت أسرة بولو سبعة عشر عاماً في خدمة إمبراطور الصين إلى أن بدأت تفكّر في العودة بحراً عن طريق جزيرة جاوة ثم سيلان وسواحل الهند وميناء هرمز، ثمّ برّاً إلى طربزون في تركيا، ومنها إلى البندقية. وترجع أهمية رحلات بولو في أنّ صاحبها وصف مناطق مختلفة في آسيا، بعد أن جمع ملاحظاته في كتاب، ضمّ معلومات عن سكّان شرق آسيا، والمدن والطرق المائية

١ - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٥٥.

والطرق المعبّدة وخدمات البريد في الصين والنقود الورقية المتداولة بالإضافة إلى وصف للأسواق والموانئ والجسور. ورغم كلّ هذه المعلومات، لم يأت كتاب ماركو إلاً بخرائط بدائية للعالم لم تحو أية تفاصيل، وقد ظلّ الكارتوجرافيون لعدة قرون بعد رحيل ماركو يستمدّون معلوماتهم الجغرافية من مذكراته^[١]. وقد أوضحت رحلات ماركو بولو للعقل الأوروبي في العصور الوسطى أنّ الأرض كروية، وهي تقدّم تصوّرًا مختلف كلّ الاختلاف عمّا تصوّره السابقون. والخلاصة أنّ كتاب رحلات ماركو بولو فتح سلسلة لا نهاية لها من الافتراضات والاحتمالات، والأهمّ أنّه في سنة ١٤٢٨م اشترى المدعو دون بدور البرتغالي من مدينة البندقية نسخة هذا الكتاب، وأهداها إلى أخيه هنري الملاح (١٤١٥ - ١٤٦١م)، وهو الأمير الذي استطاعت البرتغال معه أن تصبح زعيمة السبق في حركة الكشوفات الجغرافية البحرية^[٢].

٥. الطواف حول أفريقيا

لقد أخذت فكرة الطواف بحرًا حول أفريقيا تجتذب إليها الكثير من الاهتمام؛ ولم يكن مشروع الطواف حول أفريقيا جديدًا؛ إذ قام به الفينيقيون من قبل؛ نحو القرن السادس قبل الميلاد، لكنّ الفينيقيين لم يرسموا الخرائط رغبة منهم في الاحتفاظ بأسرار الطرق التجارية والمعارف الجغرافية؛ حرصًا على مصادر بضائعهم ومنابع ثروتهم ورخائهم، حتّى تظلّ التجارة في أيديهم دون منازع^[٣]. لكنّ منذ القرن الثالث عشر أحسّت جنوة بحاجة ماسّة للدوران حول أفريقيا، وسبب ذلك أنّ مضيق جبل طارق الذي يتحكّم في عنق البحر المتوسط، ويتحكّم في خروج السفن منه إلى المحيط الأطلسي، كان بيد العرب المسلمين، فكان يحيل هذا البحر إلى بحيرة عربية، ويجبر الأوروبيين على التقهقر إلى الشمال. ولم يكبح جماح انتشار الإسلام سوى الغزو المغولي وسلسلة الحملات الصليبية، التي أفنعت الشعوب الأوروبية بضرورة نجدة المسيحيين في بيت المقدس وحماية «تابوت الرب»، ولا يمنع هذا أن نتذكّر أنّه كثيرًا ما تقف أهداف السلب والنهب خلف شعارات دينية براقة^[٤].

١ - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٥٧.

٢ - نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٤.

٣ - علي عبد الله الدفاع، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، الظهران ١٤١٠هـ، ص ٢٤.

٤ - بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ٢١.

وبغض النظر عن الأيديولوجية الصليبية، كان على مَنْ يرغب في تجارة البحر المتوسط أن ينال رضا العرب المسلمين، ولما كانت البندقية قد سبقت غيرها من المدن الإيطالية في هذا الباب، فإنَّ جنوة أحسَّت بالضيّق، فمنافستها للبندقية في ميدان التجارة الشرقية باءت بالفشل بعد أنْ حالت سلاطين المماليك في مصر، فاستطاعت بصدقتها تلك أنْ تحتكر من المتاجر الشرقية معظم السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر. ولم يكن ثمة سبيل إلى فكِّ هذا الاحتكار عن البندقية إلاّ بوسيلة من وسيلتين اثنتين، إمّا هدم قوتها بحرب تشنها عليها جنوة في إيطاليا، وإمّا هدم ثروتها بسدّ منابع الثروة أنْ تصل إليها. وجرت وسيلتها الأولى وأخفقت إخفاقاً ذريعاً في موقعة تشيوجيا، فلم يبق أمامها سوى وسيلتها الثانية، فعكفت على دراسة الطرق والمسالك الكفيلة، وقدّرت أنْ في استطاعة السفن أنْ تطوف حول قارة أفريقيا وتأتي بالتوابل من وراء البحار من دون الحاجة إلى استئذان المسلمين أو التعرّض لمكوسهم الباهظة^[١]. وكانت كثير من الخرائط القديمة ترسم الساحل الجنوبي لأفريقيا منحنيّاً، من خليج غانا إلى الشرق، وقد أشار بطليموس إلى ذلك في كتابه، فقد قال: إنّ جنوب أفريقيا على شكل نصف دائرة من رأس جاردافوي إلى المحيط الأطلسي^[٢]. لقد حمّست هذه المعلومة الجنوبيّون فكانوا أوّل مَنْ قام بتنفيذ هذه الفكرة، ففي شهر مايو من سنة ١٢٩١م أبحر أوجولينو دي فيفالديو Ugolino di Vivaldo -وهو من أهل جنوة- في سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق البحري إلى الهند، غير أنّ السفينتين تحطّمتا قبالة الشاطئ الأفريقي، وغرق هذا البحار وصحبه، ولقد مرّ القرن الرابع عشر دون أنْ يجازف أحد بمثل هذه المغامرة مرّة ثانية^[٣].



رابعاً: دوافع إعادة الكشف الجغرافية الأوروبية الحديثة
بعد أنْ تعرّفنا على الدوافع الباكّة لإعادة الكشف

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٤-٢٥٥.

٢- محمّد حمدي علي، الاكتشافات الجغرافية، م.س، ص ٨-٩.

٣- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٥.

الجغرافية، صار بوسعنا فهم الدوافع المباشرة لهذا العمل في أعقاب النهضة الأوروبية، وإن تنوّعت دوافع الكشوف الجغرافية، لكنّ يمكن تلخيصها بكلمة واحدة وهي الاستعمار؛ فالمطامع الاستعمارية وجدت عند الأوروبيين منذ العصور القديمة؛ وإنّه لمن المعروف أنّ دويلات المدن اليونانية كانت تحتلّ بعض سهول آسيا الصغرى كسهل طروادة؛ وذلك لضمان الغذاء. بينما كان للإمبراطورية الرومانية القديمة أملاك واسعة في أوروبا وآسيا وأفريقيا. وفي العصور الوسطى تجددت موجة الاستعمار، ولكنّ مع تطوّر بسيط يتناسب معها، وفيما يختصّ بأوروبا كانت ذات صفة دينية، وهذا ما ظهر في الحملات الصليبية الموجهة إلى الشرق. أمّا في عصر النهضة، فقد كانت حركة إعادة الكشوف الجغرافية عملاً استعماريّاً توسّعياً، الهدف منه تدعيم الطبقة البرجوازية التي ظهرت في بداية هذا العصر، والتي استطاعت إقامة حكومات موحّدة مركزية، ولهذا فقد رغبت هذه الطبقة في السيطرة على المراكز التجارية المهمة وإقامة مستعمرات تعمل لمصلحتها أساساً. وهذا ما سيتأكّد فيما بعد إذ سيّضح ممّا سبق أنّ الادّعاءات القائلة بأنّ سبب استعمار الأوروبيين للبلاد العربية وغيرها من العالم الجديد؛ إنّما يرجع إلى تخلف أهالي هذه البلاد وترديهم في عالم الجهل، إنّما هو أمر ليس له أساس من الصحة. وبالتالي، انطلقت حملات الكشوف الجغرافية تخفي في باطنها رغبة استعمارية لدى كلّ من البرتغال وإسبانيا للإمساك بمفاتيح ومخازن الشرق والغرب لجني الثمار المادية للتوسّع الإمبريالي^[١].

وقد كان للبرتغال قصب السبق في مجال كشف القارة الأفريقية واستعمارها، وأسباب ذلك كثيرة ومتنوعة، أهمّها: استكمال البرتغال لوحدها واستقلالها منذ القرن الثالث عشر، سيادة الروح الصليبية فيها، والتي شكّلت محرك السياسة البرتغالية الخارجية، تزعمها للعالم الغربي المسيحي في حربه ضدّ المسلمين، وقوع البرتغال على الشاطئ الأطلسي على مقربة من شواطئ القارة الأفريقية^[٢]. وكان من الطبيعي أن تبدأ الكشوفات الجغرافية على يد البرتغاليين الأشدّ حقدًا على العرب، الذين مكثوا في بلادهم ثمانية قرون، وكان من الطبيعي أن يتفانى الجنويون في تعليم البرتغاليين فنون الملاحة وبناء السفن الكبيرة، وأنّ

١- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٥٣.

٢- صباح كعدان، دراسات تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص ٦٠.

يحتوهم على حرب العرب، واكتشاف طرق جديدة إلى الهند، بعد أن أبعد العرب المسلمون الجنوبيين من موانئ مصر، وفضلوا تجار البندقية عليهم^[١]. وهكذا اجتمع الحقد الصليبي مع الخبرة البحرية.

ولمّا كان للعرب المسلمين نشاط ملاحى ملحوظ في المحيط الهندي وبحر الصين، والبحر المتوسط، والبحر الأحمر وأجاء من بحر الظلمات الأطلسي، حاول البرتغاليون الحصول على خبرات العرب الملاحية، فاستعانوا بالتجار اليهود في الأندلس، الذين قاموا بدور الجواسيس في الحصول على معلومات العرب الملاحية وتقديمها إلى أسيادهم البرتغاليين. وقد ساعد اليهود على القيام بهذه المهمة معرفتهم باللغة العربية؛ إذ قاموا برحلات بين الشرق والغرب، براً وبحراً، وتظاهروا أنّهم مسلمون^[٢]، وتقرّبوا من الحكّام المسلمين مستفيدين من أوضاعهم المادية الحسنة، فاستطاعوا أن يعرفوا أحوال جيش المماليك أقوى الدول الإسلامية حينها، والتي تسيطر على شرق أفريقيا وتساعد المسلمين في حروبهم ضدّ الأقباش والنصارى، كما تعرّفوا على أوضاع البلاد الداخلية، وسرقوا خرائط البحار، والمعلومات عن الملاحة، وكيفية التخلص من منطقة الهدوء الاستوائي التي بقيت لغزاً يصعب حلّه لدى الأوروبيين حتّى تلك الساعة، حيث تهدأ الرياح في المنطقة الاستوائية ولا تتحرّك السفن التي تسير على الشراع، وهي المعروفة فقط آنذاك، ولا يمكن التنقل إلّا في الربيع، شمالاً مع حركة الشمس الظاهرية، وفي الخريف جنوباً مع تلك الحركة^[٣].

وفي سنة ١٤٨٨م أي قبل رحلة فاسكو دي غاما بعشر سنوات، قام مجموعة من اليهود بالسفر إلى مصر، حيث كانوا متخفين في زي تجار برتغاليين، وكان على رأس هؤلاء الجواسيس ألفونسو دي بايفا Alfonso de Paiva، وبيرو دي كوفيلهام Pero de Covilham، وقد حصل الجواسيس على معلومات مهمّة؛ عن كلّ ما يتّصل بتجارة التوابل وغيرها، ثمّ أبحروا من السويس إلى عدن على سفينة عربية متخفين بستار الإسلام وسافروا إلى الهند، وهناك قاموا بجمع المعلومات ثمّ رجعوا إلى البرتغال عن طريق مصر. وفي أثناء

١ - نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٥.

٢ - راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٦.

٣ - محمود شاكر، الكشف الجغرافية دوافعها حقيقتها، ط ٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨م، ص ٢٥.

مرورهم في القاهرة التقوا ببعثة يهودية أخرى، فاندمجت البعثتان في بعثة واحدة سافرت إلى هرمز ثم زيلع ومنها إلى الحبشة ثم عادت إلى مصر فالبرتغال، وخلال هذه الرحلة استطاعت البعثة الحصول على معلومات وخرائط عربية ومعلومات عن التيارات البحرية والرياح الموسمية، وبيانات عن التجارة الشرقية، وقدمت المعلومات إلى لشبونة عن تجارة التوابل وجزيرة مدغشقر، إضافة إلى خريطة تبين إمكانية الإبحار إلى الهند عن طريق طرف أفريقيا الجنوبية^[١]. وعندما أخذ اليهود كل ما يريدون، انسَلَوْا من مصر عائدين إلى البرتغال، وقدموا ما لديهم للحكومة، وبهذا حصلت البرتغال على ما تريد^[٢].

١. الدافع الاقتصادي

لقد تمثل الدافع الاقتصادي في التخلص من دفع المكوس الطائلة التي ملأت جيوب الوسطاء العرب المسلمين؛ كهدف اقتصادي لا بد من تحقيقه، عاجلاً أم آجلاً، بفتح طريق من طرق الاتصال المباشر ببلاد المشرق. ولم يكن تحقيق ذلك الهدف الاقتصادي عسيراً على الأوروبيين أواسط العصور الوسطى، فإن الطريق البري عبر آسيا وطوله سبعة آلاف وخمسمائة ميل، ومعظمه صعب ووعر ومحظور كان مفتوحاً للمسافرين الأوروبيين أكثر من أي قرن من الزمن، بفضل تحالف الأوروبيين مع خانات المغول، طيلة سنوات (١٢٦٤ - ١٣٦٨ م)، ثم أرخي الستار بين الشرق والغرب فجأةً بانهار الدولة المغولية، فأُست الصين منطوية عن الأوروبيين في غمرة من ظلام دامس وعزلة صارمة وجامدة^[٣].

وقد ترتب على النهضة الأوروبية ازدياد الحاجة إلى المعادن النفيسة كالذهب والحديد من الشرق الأقصى، وقد ارتبط ذلك بزيادة معدلات النمو السكاني، وازدياد الطلب على هذه المنتجات، وربما كانت الحاجة إلى سك النقود بمعدلات أكبر؛ نتيجة لزيادة التجارة من ناحية، وتناقص احتياطي الدول الأوروبية من الذهب والفضة من ناحية أخرى، أحد أسباب خروج الأوروبيين من قارتهم^[٤]. كما اشتد طلب الطبقة البرجوازية في أوروبا على بضاعة

١ - راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٦.

٢ - محمود شاكر، الكشوف الجغرافية، م.س، ص ٢٦.

٣ - نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٣.

٤ - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٩٦.

الشرق الاستهلاكية منذ القرن الرابع عشر؛ التوابل القرفة، والزنجبيل، والفلفل، وجوز الطيب لاستخدامها في الطعام، والعقاقير الطبية كالأفيون والكافور؛ من أجل تركيب أنواع عديدة من الأدوية، وكذلك العطور كالمسك والعنبر وماء الورد. بالإضافة إلى القطن، ومواد الصباغة، والأقمشة الحريرية والبنّ والعاج والأحجار الكريمة^[١]. في الوقت الذي ارتفعت فيه أسعارها ارتفاعاً فاحشاً بسبب احتكار الممالك لتجارتها، وفرض المكوس العالية عليها^[٢].

ولمّا كانت هذه السلع لا يمكن إنتاجها في أوروبا، ولمّا كانت هذه النباتات الزراعية لا يمكن أن تزرع في الجو الأوروبي، ولمّا وجدت الطبقة البرجوازية الأوروبية أن تجارة هذه المواد يحتكرها العرب من خلال نقلها عبر موانئهم إلى موانئ عدد من الدول الأوروبية البندقية، التي هي بدورها تحتكر هذه المواد في القارة الأوروبية^[٣]. وبالتالي، تمثّلت الدوافع الاقتصادية لحركة الكشف الجغرافية في محاولة خلاص الأوروبيين من الرسوم الجمركية الفادحة التي كانت تفرضها السلطات المملوكية الحاكمة في مصر والشام على السلع الشرقية، والرغبة في ضرب احتكار تجار البندقية، الذين كانوا يقومون بنقل التوابل الشرقية من موانئ مصر وبلاد الشام إلى أوروبا^[٤]. ولمّا كانت الأساطير قد حيكت في أوروبا حول بضائع الشرق خلال العصور الوسطى؛ فمن قائل إنّها تأتي من الجنة، وقول آخر يذكر أنّ منبتها في بلاد تحرسها الأفاعي، صار الشغف بمعرفة مكانها والسيطرة عليه أمراً ملحاً^[٥].

ولمّا كان العرب يسيطرون على هذه التجارة الدولية، فقد سعى الأوروبيون، ولا سيّما المدن الإيطالية جنوة، والبرتغاليون والإسبان للوصول مباشرة إلى الدول المنتجة للتوابل؛ وذلك عن طريق الالتفاف حول أفريقيا أو عن طريق الاتجاه غرباً في المحيط الأطلسي^[٦]. وفي الوقت عينه أخذت فيه أوروبا تشكو من ندرة المعادن الثمينة -كما أسلفنا- ومن ثمّ قلّة النقد المتداول، ما أعاق حركة التجارة فيها، وأدّى إلى اضطراب الأمور النقدية، عندئذ

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبية، م.س، ص ٦١.

٢- صباح كعدان، دراسات تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، م.س، ص ٤٦.

٣- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي، م.س، ص ٥٥.

٤- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبية، م.س، ص ٦١.

٥- شوقي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ١٥١، يوليو ١٩٩٠م، ص ٧.

٦- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبية، م.س، ص ٦٢.

رأت أوروبا أن تبحث بنفسها عن تلك المعادن في أفريقيا وآسيا، التي ذكرت الأخبار الشائعة أنها تحتوي الكثير منها، وأن تصل إلى البلاد المنتجة للتوابل، وتحصل مباشرة على حاجاتها منها، فتخفف بذلك من خسارتها لنقدها الذهبي، وتوجه في الوقت ذاته ضربة قاصمة للدول العربية الإسلامية وللبنادقة بانتزاع هذا الاحتكار التجاري من أيديهم^[١]. ولهذا فقد بدأت الطبقة البرجوازية الأوروبية تعمل في جنوة والبرتغال وإسبانيا لأن يكون دخل هذه التجارة كاملاً من نصيب الطبقة البرجوازية الأوروبية، ورفعت شعارات القضاء على قدرات المسلمين عن طريق تجفيف منابع ثرائهم وقوتهم بانتزاع طريق التجارة الدولية من أيديهم^[٢]. وهكذا تداخل العامل الاقتصادي مع التعصب الديني في دفع البرتغاليين -الذين تزعموا حرب المسلمين في أوروبا الغربية- نحو السياسة التوسعية التي اتبعوها في شمال أفريقيا منذ احتلالهم لمدينة سبتة في سنة ١٤١٥م^[٣].

وقد ترسخت حاجة أوروبا لطريق تجاري يربطها بالشرق الأقصى عبر الغرب أو بالدوران حول أفريقيا، بعد أن فتح الأتراك العثمانيون مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية البيزنطية سنة ١٤٥٣م، وبسطوا سيطرتهم تدريجياً على شرقي البحر المتوسط^[٤]، حيث عد سقوط القسطنطينية ضربة اقتصادية موجعة لأوروبا على الصعيد الاقتصادي؛ لأن سيطرة العثمانيين على شرق المتوسط، أدت إلى إغلاق الطرق التجارية إلى شرق الأقصى وخيراته في وجه التجار الأوروبيين^[٥]. كما أن العثمانيين بتوسّعهم في شرق أوروبا، أصبحوا يشكلون خطراً على الكيانات السياسية الجديدة التي قامت فيها نتيجة نمو مفهوم الدولة القومية فيها. وبناء على ذلك يمكن القول إن اندفاع أوروبا نحو المغامرات الاستكشافية، كان له مجموعة من الأهداف، منها: تطويق القوة الإسلامية الجديدة الناهضة ممثلة بالدولة العثمانية وضربها من الخلف والقضاء عليها، وتثبيت الوجود القومي للكيانات السياسية الناشئة، ودعم اقتصادها، وتحقيق نفوذها السياسي على أكبر رقعة من الممتلكات في أوروبا

١- صباح كعدان، دراسات تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، م.س، ص ٤٦-٤٧.

٢- عبد العزيز نوّار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي، م.س، ص ٥٥.

٣- فرغلي هريدي، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر (الكشوف، الاستعمار، الاستقلال)، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الإسكندرية ٢٠٠٨م، ص ٤٦.

٤- صباح كعدان، دراسات تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، م.س، ص ٤٨.

٥- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٢.

وخارجها^[١]. ولا يخفى بالطبع أنَّ الهيمنة على طرق التجارة البرية والبحرية، كانت دافعاً مهماً في سبيل الكشف الجغرافية، وقد ظلَّ الأوروبيون يبحثون عن طريق الشرق الذي لا يمرُّ بالأراضي الإسلامية عدَّة قرون^[٢].

بدأ هنري الملاح بتسيير سفنٍ خفيفةٍ مزوَّدة بالأشعة والمجاديف، ويقوم عليها من ثلاثين إلى ستين رجلاً، إلى البحار المحفوفة بالمخاطر، وكان أحد قباطنة هنري قد أعاد كشف جزر ماديرا سنة ١٤١٨م، التي سبق أن رآها البحارة الجنوبيون قبل ذلك بسبعين سنة ثم عفا عليها النسيان. ولقد طوَّر وقتذاك المستعمرون البرتغاليون مواردها، وسرعان ما عوّضت غلَّة من السكر وغيره من المنتجات نفقات الاستعمار، وشجَّعت الحكومة البرتغالية الاستجابة لمطالب هنري للمال، ولاحظ جزر الآسور على خريطة إيطالية رسمت سنة ١٣٥١م، فأرسل جنزالو كابرا للبحث عنها، وتحقَّق مراده؛ إذ احتلَّ هذه الجزر بين سنتي (١٤١٨-١٤٣٣م)، ضمَّها الواحدة تلو الأخرى إلى التاج البرتغالي. بيد أنَّ أفريقيا هي التي استهوت أكثر من غيرها. ولقد أبحر البحارة الكتلونيون والبرتغاليون ما يقرب من تسعمائة ميل على طول الساحل الغربي، إذ وصلوا إلى رأس بوجادورا ١٤٣٥م، ومع ذلك فإنَّ التواء الكبير للقارة العظيمة الممتدَّ غرباً في المحيط الأطلسي، قد ثبَّط همم البحارة في الكشف عن الجنوب، فانسحبوا إلى أوروبا متعلِّلين بحكايات عن المواطنين المفزعين، وعن بحر تشدَّد كثافة الملح فيه إلى حدٍّ لا تستطيع معه أن تشقَّ أيَّ سفينة، وعن دلائل تؤكِّد أنَّ كلَّ مسيحي يجاوز بوجادورا ينقلب إلى زنجي. وكان القبطان جيليان قد رجع إلى سامبرس من قبل بأعذار مشابهة سنة ١٤٣٣م، فأمره هنري أن يعيد الكرة، وطالبه أن يعود ببيان واضح عن الأراضي والبحار جنوبي الرأس المحرَّم. وأدَّى هذا التحريض بجيليان إلى أن يصل إلى مسافة تبعد مائة وخمسين ميلاً عن بوجادورا، وقد أذهله ما رآه من وفرة النبات في المناطق الاستوائية، مناقضاً ما قاله أرسطو وبطليموس من أنَّ الصحارى هي التي توجد فقط تحت الشمس المحرقة، وبعد ذلك بسنَّ سنوات أبحر نونو ترستاو إلى رأس بلانكو التي سمَّيت كذاكَ للرمال الصفراء فيها، وعاد إلى موطنه ومعه بعض الزنوج الأشداء،

١- صباح كعدان، دراسات تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، م.س، ص ٤٨.

٢- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٩٧.

الذين سرعان ما عمّدوا واستعبدوا، وشغلهم الأمراء الإقطاعيون في المزارع البرتغالية^[١]. وسمحت للبرتغال بجلب الخيرات من الساحل الأفريقي، كما جلبت معها العبيد ومن ثمّ فقد طغت سلبيات من نتائج حركة الكشوف الجغرافية على سلبيات أخرى، فرغم المثالب الدينيّة والسياسيّة لحركة الكشوف إلّا أنّ أسوأها كان فتح باب واسع لاستبعاد الإنسان وجره إلى أسواق جديدة للنخاسة؛ إذ أحضرت السفن البرتغالية العبيد السود والذهب، وحصلت رحلات هنري الملاح على دعم كامل من خزانة الدولة البرتغالية. ولمّا كانت تجارة الذهب لم تنم بالشكل الذي يعوّض الإنفاق على الرحلات البحريّة، فقد تركّزت الجهود البرتغالية على إنعاش تجارة الرقيق والتكسّب منها^[٢].

لم تقتصر دافع الأوروبيين الاقتصادي على مجرد الحصول على ثروات القارة السمراء، وإنّما شمل ذلك فيما بعد تصريف المنتجات الأوروبيّة في الأسواق الأفريقيّة، حقيقة إنّ هذه السلع كانت في بادئ الأمر محدودة وقليلة الشان، والغرض منها اكتساب رضا سكّان أفريقيا وصدّقتهم وشملت عقود الخرز والمرايا وبعض الأقمشة، ولكنّها تجوّلت فيما بعد إلى تجارة أكبر من ذلك بمرور الوقت. يضاف إلى ذلك أنّ رؤوس الأموال وجدت مجالاً للاستثمار في القارة^[٣]. وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنّ حركة الكشوف الجغرافية عادت بفوائد ماديّة كبيرة على لشبونة، التي أصبحت زاخرة بثنّى أنواع الرفاهية والتقدّم، إلّا أنّ البرتغال ليست لشبونة. إذ استمرّت المدن الأخرى في الاعتماد على الزراعة؛ فأدّت هذه الحملات إلى أن يترك الفلاحون أراضيهم وينضمّوا إلى الحملات الكشفية الجغرافية الصليبيّة التي تخرج للاستعمار، وبدأت البقيّة الباقية منهم تلجأ إلى استخدام الرقيق، وكان هذا هو بداية النهاية وبداية البرتغال، والتي أضحت في النهاية دولة متدهورة، وبمعنى آخر أصبحت هذه الإمبراطوريّة ذات مظهر عظيم ودخل قليل^[٤].

١- ول. ديوران، قصّة الحضارة، ج ٢٣، ص ٥٣.

٢- بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ٢٣.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٣٠.

٤- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي، م.س، ص ٦٤.

٢. الدافع الديني

يتمثل الدافع الديني في رغبة الأوروبيين في إرضاء السماء عنهم؛ إذ كان الشعور الديني ما زال قوياً لديهم امتداداً للعصور الوسطى التي شهدت الحروب الصليبية ضد المسلمين من ناحية، والرغبة في نشر الديانة المسيحية عن طريق البعثات التبشيرية بين الوثنيين من سكان تلك البلاد من ناحية أخرى^[١]. وكان هدف بعثات التبشير العمل على نشر النصرانية في البلاد التي يدخلونها، وحثّ النصارى على محاربة الإسلام حرباً لا هوادة فيها؛ الاتصال بنصارى الشرق وحثهم على العمل معهم لاجتثاث جذور الإسلام^[٢]. وقد كانت أولى البعثات التبشيرية المسيحية موجهة إلى بلاد التتار، بسبب وصول الجماعات المتبررة من وسط آسيا وشرقها إلى أوروبا، وقد كان لهذه البعثات التبشيرية أثر ملموس في نشر الديانة المسيحية بين هذه الجماعات، كما كان لهذه البعثات التبشيرية، ولهذه الرحلات دور مهم في وصول بعض المعلومات الجغرافية الجديدة إلى أوروبا تباينت في أهميتها وقيمتها العلمية عن آسيا. ومن فيض المرتحلين من الحجاج والتجار والمبعوثين للتبشير؛ اتخذ التبشير بالمسيحية عدة اتجاهات، كان من بينها الصين؛ والرحلات التي قام بها بولو-التي سبقت الإشارة إليها- لعبت دوراً مهماً في الكشف الجغرافية فيما بعد^[٣]. بينما تمكنت البندقية وجنوة بفضل علاقاتها المميزة مع العرب من إرسال بعض البعثات التبشيرية إلى الهند خلال الفترة ما بين سنتي (١٣١٦-١٣٢٠م)^[٤].

بينما تمثل العنصر الثاني في الدافع الديني في نموّ الروح الصليبية، فسرعان ما أدركت الطبقة البرجوازية في الدول الأوروبية والكيانات السياسية فيها حقيقة شعور شعوبهم، وأنّ العامل الديني المتمثل في الرغبة بالقضاء على المسلمين وتطويقهم واستخلاص الأماكن المقدسة منهم، أهمّ لديهم من احتكار التجارة الدولة والتحكّم فيها، لذلك عملت الدول الأوروبية على استغلال هذه الجو المحتقن، وعملت على إحياء المشاعر الصليبية^[٥].

١- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٩٧.

٢- محمود شاكر، الكشوف الجغرافية، م.س، ص ٢٥.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٥١، ٥٠.

٤- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٤٨.

٥- عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي، م.س، ص ٥٥.

وبالتالي، تمثّل الدافع الديني في رغبة أوروبا، شعوبًا وحكومات، في متابعة حروبها الصليبية ضدّ المسلمين، فإذا كانت حرب الاسترداد في إسبانيا، والحملات الصليبية على المشرق العربي، قد شارفت على نهايتها في الظاهر، إلّا أنّ روحًا تعصبية انتقامية متزمتة قد تولّدت عند بعض الملوك الأوروبيين، لذلك أرادوا متابعة حربهم ضدّ المسلمين، بل ومطاردتهم في عقر دارهم واخضاعهم ونهب ثرواتهم الاقتصادية^[١].

فأوروبا التي طالما ادّعت أنّ الحافز في الكشوف الجغرافية هو تجارة التوابل والحصول على المال، لم يكن ادّعاؤها دقيقًا تمامًا، فربّما كان حقيقيًا، لكنّه بصورة نسبية، وربّما في أحيان كثيرة لم يستند إلى كامل الحقيقة العلمية، ولا يقبله تحليل منطقي صحيح، فقد كانت الدول التي تدّعي هذه الاكتشافات -إسبانيا والبرتغال- ما تزال أهمّ أجزائها الجنوبية تحت سلطة الحكم العربي الإسلامي، وكان شغل الإسبان والبرتغاليين الشاغل هو إخراج العرب المسلمين من الأندلس، ومع هذا فقد وصل البرتغاليون إلى رأس الرجاء الصالح في أقصى جنوب إفريقيا، وهم في غمرة حروبهم مع العرب المسلمين، إذ كان وصولهم لتنفيذ خطة حربية، حتّى إنّهم وصلوا قبل سقوط الأندلس بستّ سنوات، ما يؤكّد ذلك أنّ الإسبان والبرتغاليين كانوا يلقون الدعم الأوروبي، بل كانت أوروبا كلّها من ورائهم^[٢].

كما ظلّت أفريقيا تحتلّ مكانة مهمّة في تفكير دعاة الحروب الصليبية، ومنهم بروكادر الذي أشار في تقريره الذي أعدّه في سنة ١٣٣٢م للملك فيليب السادس ملك فرنسا، الذي كان ينوي القيام بحملة صليبية ضدّ المسلمين عن طريق أفريقيا، إلى صعوبة هذا الطريق ومشقّته. أمّا فيليب دي ميزيير، فقد طلب في تقريره الذي دوّنه سنة ١٣٨٩م بأنّ يتبع كلّ فريق من الفرنجة طريقًا معيّنًا للوصول إلى الشرق، بحيث يجب أن يكون الطريق الذي يسلكه صليبيو إسبانيا وأرغونة ونافار هو طريق شمال أفريقيا. وهكذا يتّضح أنّ الأحقاد الصليبية كانت بأمرّ الحاجة إلى المعلومات الجغرافية عن بلاد المسلمين وما يقع خلفها من أرضين، ولا سيّما أفريقيا^[٣]. والجدير بالذكر أنّ هنري الملاح كان رئيسًا لهيئة اليسوعيين

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٠.

٢- محمود شاكر، الكشوف الجغرافية، م.س، ص ١١.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٢٤٠.

الجزويت التي ورثت الداورية في أملاكها، وبالتالي كان يهّمه العمل على كسب أراضي وميادين جديدة للمسيحية، لذلك أمضى نحو أربعين عامًا في إعداد الحملات الاستكشافية وإرسالها إلى شواطئ إفريقيا الغربية، حتى تمّ كشف بعض الجزر المهمة^[١]. إذ لا بدّ أن نعترف ونقرّ أنّ هنري الملاح على سبيل المثال، كان يتابع رحلاته البحرية بإيمان ديني عميق في «رسالة» ما يقوم به. فبالإضافة إلى الأهداف الاقتصادية والسياسية لرحلات هنري الملاح، كان هذا الأمير البرتغالي يسعى لاستئصال المحمّدين المسلمين والوثنيين، ونشر المسيحية^[٢].

وقد احتقنت المشاعر الصليبية في أوروبا أكثر بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، الأمر الذي شكّل ضربة دينية قاسية للعالم المسيحي، حيث سقطت عاصمة الديانة المسيحية الشرقية بيد المسلمين^[٣]، هذا ناهيك عما ترتّب عليه من إغلاق المنفذ الرئيس لأوروبا باتجاه الشرق. ولا شكّ أنّ أوروبيًا مسيحيًا لم يملك أن يتأمّل فتح المسلمين لعاصمة مسيحية عظيمة دون أن تهتزّ مشاعره^[٤]. وإنّ ما يؤكّد ذلك أنّ حركة الكشوف الجغرافية كانت نتاج روح صليبية متعصّبة؛ إنّها قد ظفرت باهتمام كبير ودعم من قبل البابوية، حيث أصدر بعض البابوات مراسيم شجّعوها فيها الإسلام بالطاعون، وطالبوا ببذل الجهد الكبير لتنصير سكّان المناطق التي كشفت والتي سيتمّ اكتشافها. كما بذل البابوات قصارى جهدهم في إغراء البحّارة بوعدهم بالعمو عنهم يوم القيامة^[٥]. وقد حصل هنري الملاح على المساعدة والدعم الروحي من الكنيسة البابوية في روما، بل سمح البابا للبرتغال بأن تستخدم الأموال المودعة في خزانة الكنيسة لدعم رحلاتها. وهكذا أطلقت يد البرتغال في البحر بغطاء ديني صليبي^[٦]. وبالتالي كانت البابوية في العصور الوسطى حريصة كلّ الحرص على مباركة جهود أهمّ دولتين قادتا حركة الكشوف الجغرافية؛ وهما البرتغال وإسبانيا، كما حرصت على تسوية الخلافات التي نشبت بينهما، حتى إنّ البابا الإسكندر السادس أصدر سنة ١٤٩٣م مرسومًا

١- فرغلي هريدي، تاريخ أفريقيا، م.س، ص ٤٦.

٢- بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ٢٣.

٣- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٢.

٤- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٦.

٥- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٠.

٦- بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ٢٣.

يقضي بأنّ الأراضي التي وصلت إليها مراكب أوروبية، ولا يحكمها ملوك أو أمراء أوروبيون، تؤول ملكيتها للبرتغاليين والإسبان. ووضع خط يمرّ غرب جزر الآسور كحدّ فاصل بين ممتلكات الدولتين. وفي السنة التالية أبرمت إسبانيا والبرتغال معاهدة تورديسيلاس الشهيرة التي تمّ بموجبها تعديل هذا الخطّ، الذي أصبح يمرّ بالجزء الغربي من المحيط الأطلسي. فكانت تلك المعاهدة إيذاناً ببداية اقتسام العالم بين الأوروبيين. ويمكن بالمناسبة اعتبارها إيذاناً ببداية الأزمنة الحديثة^[١].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الدافع الديني كان عملاً مؤثراً، وربما كان العامل الأبرز؛ إذ ظهر بصورة جلية، لا سيّما فيما يتعلّق بتلك البعثات التي خرجت صوب الشرق من إسبانيا والبرتغال في الفترات الأولى، والتي تأثرت بالاتجاهات الصليبية لتعقّب المسلمين فيما وراء البحار، والتحالف مع مملكة الحبشة ضدّهم^[٢]. ولمّا كان البحارة الإسبان بحارة أراغون الأكثر شهرة في أوروبا، حتّى إنّ جلّهم كانوا قراصنة في البحر المتوسط -ولا سيّما أنّ رجال الدين المسيحيين يبيحون القرصنة، إذا كانت ضدّ سفن المسلمين، لذا نشط قراصنة أراغون منذ بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر، الذي واكب فترة فوضى واضطراب في المغرب العربي سمحت لهؤلاء القراصنة بالتطاول على السفن والموانئ الإسلامية في المغرب العربي - رأت أوروبا ضرورة الاستفادة من هؤلاء البحارة في مشروع أكبر تحارب فيه الإسلام في عقر داره^[٣].

ونستطيع أن نحكم على الروح الصليبية التي سادت تلك الاكتشافات بل كانت الدافع الأساسي لها من مشروعات البوكيرك وأقواله، وهو الذي خلّف فاسكو دي غاما، والذي يعود إليه الفضل في توطيد دعائم الإمبراطورية البرتغالية، فقد كان يقول: إنّّه يريد إنجاز مشروعات من مشروعاته قبل موته وهما: تحويل مياه نهر النيل إلى البحر الأحمر ليحرم مصر من ري أراضيها، ويخرّب شبكة الري التي كانت قائمة فيها حينها. ومن المعلوم أنّ مصر كانت أهمّ دولة إسلامية وقتذاك من حيث موقعها وعدد سكّانها وامتلاكها رقعة كبيرة من

١ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم: محمّد حناوي، ويوسف نكادي، ط ١، مطبعة مفكّر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م، ص ٢١٢.

٢ - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ٩٩.

٣ - ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري، دار عمّار، عمّان ١٩٩٨م، ص ٤٨٥.

الأرض، إذ كانت تتبعها بلاد الشام والحجاز. أمّا المشروع الثاني فهو تهديم المدينة المنورة ونش قبر الرسول العربي الكريم ﷺ وأخذ كنوزه، إذ كان يتصور أنّ ضريحه مليء بالآلئ والمجوهرات شأن الفاتيكان، وسرق رفاة الرسول ﷺ وجعله رهينة حتّى يتخلّى المسلمون عن الأماكن المقدّسة في فلسطين^[١].

لا بل إنّ بداية الكشف الجغرافيّة كانت نتاجاً مباشراً لدوافع العامل الديني؛ فقد أدّى الصراع بين العرب المسلمين والإمارات المسيحيّة في شبه جزيرة إيبيريا، وخروج العرب منها نهائياً سنة ١٤٩٢ م، عملاً محرّضاً بصورة مباشرة، إذ اتّجهت أنظار البرتغاليين والإسبان إلى الساحل الأفريقي المقابل لهم^[٢]. لقد رأى البرتغاليون ضرورة تطويق المسلمين لإمكانيّة إحراز النصر، فقام ملك البرتغال حنّا الأوّل بحملة على المسلمين في مراکش، واحتلّ سبتة، وجعل ابنه هنري حاكماً عليها، لكنّهم وجدوا أنّ التطويق يجب أن يكون عن طريق الوصول إلى بلاد لا يسكنها مسلمون؛ حتّى لا يساعدوا سكّان الأندلس بثورات يقومون بها، فكان الانتقال على السواحل الأفريقيّة الغربيّة، فكلّما وصلوا مكاناً وجدوا فيه مسلمين تركوه واتّجهوا نحو الجنوب، بعد أن يؤسّسوا فيه قاعدة، وأخيراً وصلوا إلى الرأس الأخضر، ولمّا وجدوا فيه مسلمين كانت خطواتهم أوسع، فوصلوا الكونغو وتجاوزوا خطّ الاستواء، ثمّ دفعت العواصف بارتملي دياز نحو الجنوب حتّى وصل أقصى الجنوب من القارة الأفريقيّة، وتجاوز حتّى وصل إلى السواحل المطلّة على المحيط الهندي، ولمّا عاد سمّى الطرف الجنوبي من القارة برأس العواصف، ولكنّ ملك البرتغال أطلق عليه اسم رأس الرجاء الصالح، إذ شعر بأمل في إمكانيّة تطويق المسلمين، كان هذا والمسلمون لا يزالون مرابطين في الأندلس^[٣].

وهكذا لعبت العوامل الدينيّة دوراً كبيراً في حركة الشوف الجغرافيّة، كما لعبت دوراً كبيراً في رسم سياسة البرتغال إبّان عصر الكشوفات الجغرافيّة، حيث تملّكتهم رغبة كبيرة في مطاردة المسلمين في غرب أفريقيا وتحويلها إلى المسيحيّة^[٤]، وصل الأمر لدرجة محاولة

١- محمود شاكر، الكشف الجغرافيّة، م.س، ص ٢٨.

٢- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيّة، م.س، ص ١٢٧.

٣- محمود شاكر، الكشف الجغرافيّة، م.س، ص ٢٣.

٤- فرغلي هريدي، تاريخ أفريقيا، م.س، ص ٤٦.

التحالف مع ملك الحبشة المسيحي لتطويق القوى الإسلامية والسيطرة على تجارة الشرق وأرباحها. وقد باركت البابوية مثل هذه الجهود الدينية - كما أسلفنا - ولعبت دوراً في فضّ النزاعات بين القوى المسيحية في بعض الأحيان^[١].

وقد رافق رجال الرحلات الاستكشافية؛ دعاة الديانة المسيحية، من أجل القيام بتسهيل مهمة نشر الديانة المسيحية^[٢]. ولا شك أن الرغبة في التبشير الديني كانت واحدة من أهم الدوافع التي أخرجت كثيراً من الأوروبيين من بلادهم لارتداد هذه البيئة القاسية المحفوفة بالأخطار، ويكفي أن نعرف أن رحلات ليفنجستون في نصف القارة الجنوبي كان ذلك حافزها الأساسي. وقد تسابقت الجمعيات التبشيرية المختلفة على إرسال رجالها بدعوى التبشير الأفريقي، ونشر الحضارة بين سكان القارة السوداء، ورأت هذا واجباً مفروضاً على شعوب القارة الأوروبية، وقد أدت هذه الجمعيات إلى زيادة معرفتنا بالقارة جغرافياً بالإضافة إلى جهودها في مجالي التعليم والعلاج، رغم أنها كانت محدودة لا تتناسب مع ما كان يجب أن يبذل في هذا المجال^[٣].

وما إن خرج المسلمون من الأندلس، حتى كانت البرتغال قد أرسلت بعثة مؤلفة من ثلاثة مراكب برئاسة فاسكو دي غاما، وكانت قد توافرت لديها كل المعلومات الجغرافية الكافية عن المنطقة، فوصل رأس الرجاء الصالح سنة (٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) والتفّ حول أفريقيا، وسارت سفنه مع تيار موزامبيق شمالاً، وطلع على المراكز الإسلامية في شرق القارة الأفريقية، فدخل زنجبار سنة ١٥٠٣م واستولى على مدينة كيلوا سنة ١٥٠٥م، والتقى مالندي بالرحالة المسلم ابن ماجد الذي دلّه على طريق الهند. وهكذا يتأكد لنا أن البرتغاليين يريدون الوصول إلى نهاية بلاد الإسلام ليستطيعوا تطويقهم، فإن فاسكو دي غاما لم يقترب من سواحل بلاد العرب أو إيران أو سجستان، وإنما اتّجه مباشرة إلى الهند، وتمكّن من الوصول إلى كالوتا، ولكنه وجد فيها مسلمين، واستقبل من قبل حاكمها استقبالا سيئاً،

١ - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٢٧.

٢ - راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٠.

٣ - عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٢٧.

فأضمر الحقد وعاد إلى البرتغال، ولكنه عاد بعد مدّة على رأس حملة جديدة، فاتّجه مباشرة نحو كالكوّتا وضربها بالقنابل انتقاماً لزيارته الأولى^[١].



وتجدر الإشارة إلى أنّ الأمر لم يقتصر على الإسلام وبلادهم، بل تجلّى في ثوبه الاستعماري الواقعي، إذ ادّعت بعض الدول الأوروبية أنّها كانت تسعى للاستعمار تحقيقاً لغاية أسمى، وهي نشر الحضارة في بلاد لا حضارة لها، ودلّوا على ذلك من تاريخها

الاستعماري حيث إنّه وصفوا إسبانيا -التي ظلّت تعمل قروناً وسنوات طوال على طرد العرب من إسبانيا، ونجحت في ذلك في عهد فرديناند الكاثوليكي- أنّها كانت تعمل على نشر المسيحية بعقيدتها الصحيحة في البلاد المفتوحة، وأنّ الملكة إيزابيلا إنّما ساعدت كريستوفر كولومبس من أجل هذا الهدف^[٢]. ورغب البرتغاليون في تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي، وفصلها عن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر^[٣].

٣. نمو المعلومات الجغرافية في أواخر العصور الوسطى

يرجع الفضل للعرب المسلمين في حفظ آثار اليونان والرومان وغيرهم من الأمم من الزوال، إذ حافظوا على تلك العلوم زاهية مزدهرة إلى أن أفاقت أوروبا من سباتها الطويل، فمدّت يدها إلى الأمة العربية فأخذت عنها كثيراً من العلوم والمعارف، وكان من بينها علم الجغرافيا^[٤]. وتجدر الإشارة إلى تطوّر علم الجغرافيا عند الأوروبيين لم ينشأ من الرغبة في الزيادة بالمعرفة الجغرافية وحبّ الاطلاع، أو روح المغامرة، بل كان منشؤه مغريات الثروة؛ وذلك أنّ الشرق قد امتلأ وقتذاك بمتاجر لم يكذب يتذوّق الغرب طعمها حتّى استمرّها وألحف في طلبها، فمن الشرق جاء الحرير وجاءت التوابل. والحرير هو ممّا خفّ وزنه

١ - محمود شاكر، الكشف الجغرافية، م.س، ص ٢٧.

٢ - عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي، م.س، ص ٥٨.

٣ - فرغلي هريدي، تاريخ أفريقيا، م.س، ص ٤٦.

٤ - محمد حمدي علي، الاكتشافات الجغرافية، م.س، ص ٥.

وغلا ثمنه، بالإضافة إلى روح صليبية متزمتة^[١]. وكنا قد استفضنا في الحديث عن هذين الأمرين.

لكنّ الذي كان يعيق حربهم هو نقص معلوماتهم الجغرافية، إذ كانوا يعتقدون، على سبيل المثال، أنّ الأراضي الواقعة وراء رأس بيجادور جنوب شرق جزر كناريا هي أراضي الراهب خوان، الرجل المدهش مالك عالم الغرائب، ولا يمكن لأحد أن يعيش فيها إلاّ القديسون، كما كانوا يعتقدون بأنّ الصين تقع ما وراء المحيط الأطلسي. ولم تكن هذه التصوّرات الخاطئة حكراً على عامّة المسيحيين، بل حتّى المتعلّمين، وكثير من علماء العصر كانت معرفتهم عن العالم قاصرة^[٢]. وكان الأوروبيون قد خطوا أوّل خطواتهم في دروب المعرفة الجغرافية مع الحروب الصليبية، وكانت خطوات واسعة، حيث غدوا على معرفة أدقّ بأحوال البر والبحر، وأضحى من المعروف أنّ الأرض كروية، وأنّ السفر إلى أقصى شرق آسيا ينتهي إلى الصين واليابان وجزر البهار^[٣].

وهكذا بدأت أوروبا منذ القرن الثالث عشر تتحرّر وبالتدريج من المعتقدات الوهميّة والخرافيّة، وبخاصّة في مجال المعرفة الفكرية، وقد جاء ذلك نتيجة احتكاك أوروبا بما قدّمه العرب من نتاج فكري علمي، ولا سيّما في ميدان الفلك والجغرافيا، إذ قدّم العرب إنتاجاً وافراً كمؤلّفات المقدسي، وابن رسته، وياقوت الحموي، والإدريسي في الجغرافيا. وكذلك قام العرب بترجمة المؤلّفات اليونانية القديمة إلى اللغة العربيّة وحفظوها من الضياع، كمؤلّفات بطليموس في الجغرافيا. وقد عاد الأوروبيون إلى الأفكار الجغرافية القديمة عند اليونان، والقائلة بكروية الأرض، تلك الأقوال التي دعمتها المؤلّفات العلميّة الجغرافية العربيّة - الإسلاميّة، وهكذا ظهرت ملامح نهضة جغرافية^[٤].

لقد تكلّلت تلك النهضة الجغرافية بعملين علميين، الأوّل ترجمة هنري الملاح لكتاب الجغرافيا إلى اللغة اللاتينية في سنة ١٤٠٩م، ثانيهما حصول هنري الملاح هذا على خريطة

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٢.

٢- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٢١٢.

٣- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي، م.س، ص ٢٥٢.

٤- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٣.

مابا مودي Mappa Mudi الجغرافية للعالم، إذ كان وليّ العهد البرتغالي المدعو دوم بيدور Dom Pedro، وأكبر أولاد الملك، شقيق هنري الملاح، كثير الأسفار، زار بريطانيا وفرنسا وألمانيا وزار في المشرق الأراضي المقدسة وعاد منها عبر إيطاليا، وأحضر من البندقية في سنة ١٤٢٨م تلك الخريطة الجغرافية، ورغم أنها غير دقيقة إلا أنه قد ثبت عليها مضيق ماجلان باسم «ذنب الثعلب» قبل اكتشاف ماجلان له بنحو قرن، ورأس الرجاء الصالح باسم «جبهة أفريقيا»، وقد كانت هذه الخريطة عاملاً مهماً في اكتشافات هنري الملاح البحرية. وإنّ ما يؤكّد تلك الحقيقة، أنّ فرناندو Fernando ابن الملك وولي العهد قد أرى فرانسيس دي سوسا توراس في سنة ١٥٢٨م خريطة تمّ تصميمها قبل نحو ١٢٠ سنة؛ أي إلى سنة ١٤٠٨م، يظهر عليها طرق الملاحة في المحيط الهندي مع رأس الرجاء الصالح. وهذا يدلّ على أنّ الاكتشافات الجغرافية الحقيقية تمّت في الماضي^[١]. من المستحيل أن يكون البرتغاليون قد رسموا هذه الخرائط؛ لأنّهم تنقصهم المهارة العلمية المطلوبة لتحديد خطوط الطول والعرض، كما أنّ رسم هذه الخريطة يحتاج إلى وقت طويل في الخبرة والمعرفة الجغرافية بالمحيط الهندي وساحل أفريقيا الشرقي، الذي لم يره البرتغاليون في حياتهم قطّ، بل إنّ هذا المحيط كان بحيرة مغلقة للثقافة العربية الإسلامية، إذ وضع البحارة العرب أساليب متطورة للغاية لقياس المسافات المقطوعة في البحر في اتجاه الجنوب، وبالانحراف عن خطوط الطول وبموازاة لخطّ الاستواء. وإنّ البيانات المسجّلة في كتب الملاحة المحفوظة باللغة العربية والتركية للقرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، تؤكّد أنّ قياسات كافية كمّاً ونوعاً، كانت متوفّرة عن المحيط الهندي بحيث تسمح برسم خرائط قريبة جداً من الواقع^[٢].

وإنّ ما يؤكّد أنّ الأوروبيين لم يكونوا من رسم تلك الخرائط، أنّ رواد حركة الكشوفات الجغرافية لم يكونوا بدورهم يعرفون جيّداً مواقع المناطق التي كانوا يتجهون إليها. فهذا كريستوف كولومبوس، أبرزهم كان يعتقد أنّ المسافة الفاصلة بين نهاية اليباس الإسباني واليباس الهندي قصيرة جداً، يمكن قطعها في بضعة أيام إذا كانت الرياح مساعدة. كما كان

١ - فؤاد سزكين، اكتشاف قارة أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، م.س، ص ١٨.

٢ - فؤاد سزكين، اكتشاف قارة أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، م.س، ص ٢٣.

يعتقد أنَّ المسافة الفاصلة بين جزر الكناري والصين لا تتجاوز خمسة آلاف ميل بحري، والواقع أنَّها تبلغ ١١٧٦٦ ميل بحري. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ كريستوف كولومبوس يمثل نموذجًا صارخًا لتلك العقليَّات التي ظلَّت تنخرها تمثُّلات وتهيؤات العصر الوسيط؛ وهذه الأخيرة هي التي وجَّهت إلى حد بعيد حركة الكشوفات. وبناء عليه، فإنَّ أوروبا التي غامرت في مياه المحيط الأطلسي، هي أوروبا قروسطويَّة بكلِّ تأكيد^[١].

٤. عوامل سياسية

لقد كان من بين العوامل التي شجَّعت على الكشوف الجغرافيَّة عوامل تتعلَّق بسياسة الدول الأوروبيَّة مع شعوبها، تمثَّلت في رغبتها في تصدير مشكلاتها الداخليَّة إلى الخارج؛ ذلك أنَّ الأوضاع الاجتماعيَّة والاضطرابات السياسيَّة والثورات الداخليَّة، جعلت الدول تحوِّل أنظار شعوبها صوب الاهتمام بالمناطق الجديدة المكتشفة، إلى جانب الرغبة في امتلاك مستعمرات تابعة لها، واقتناء أشياء جديدة، والتنافس فيما بينها في هذا المضمار. وكان للنهضة الأوروبيَّة والإنجازات العلميَّة التي تحقَّقت في القارة دورًا في المساعدة على ارتياد المناطق الجديدة، سواء تمثَّل ذلك في زيادة الحاجة إلى المواد الخام أو تصريف المنتجات، أو ما قدَّمت هذه الثورة من ابتكارات جديدة في مجالات الطبِّ أو الوقاية من الأمراض أو أجهزة تتعلَّق بمعرفة الطرق وتحديد الأماكن ورسم الخرائط، وقد أدَّى هذا التقدُّم إلى ما عرف باسم الثورة التجاريَّة، حيث ازدادت أعداد سفن الأساطيل التابعة للدول المختلفة التي تنقل المنتجات بين كلِّ أنحاء العالم، وقد كان ذلك نتاجًا للمصانع التي أنشئت في قارة أوروبا بأعداد كبيرة، واعتمدت على الفحم كوقود لها في بادئ الأمر^[٢].

كما دفع نمو مفهوم الدولة القوميَّة في القرن الخامس عشر الدول الأوروبيَّة للقيام بعمليات استكشافيَّة لتثبيت وجودها، ولتحقيق نفوذها السياسي، بالإضافة للقضاء على القوى السياسيَّة التقليديَّة في عالم البحر المتوسط الإسلام، والبندقيَّة، ولا سيَّما بعد أن سقطت القسطنطينيَّة في يد السلطان العثماني محمد الفاتح في سنة ١٤٥٣م، فقد هزَّ هذا السقوط مشاعر الأوروبيين الدينيَّة والاقتصاديَّة والسياسيَّة على السواء، ولم تكن أوروبا بعد

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٢١٢.

٢- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيَّة، م.س، ص ١٣١، ١٣٢.

قد أفلحت بدرء خطر الإسلام بشكل نهائي من إسبانيا وشمال أفريقيا، حتّى شعرت الدول الأوروبية بخطر الإسلام على كياناتها السياسيّة الجديدة من البوابة الشرقيّة، وهو الخطر الذي ناضلت لقرون حتّى تمكّنت من صدّه على بوابتها الغربيّة^[١]. وكان البرتغاليّون يطمعون من كشفهم الجغرافيّة الوصول إلى آخر ديار الإسلام، ولكنّهم يئسوا من ذلك، فما وصلوا إلى منطقة إلّا وجدوا فيها مسلمين؛ إذ كان المحيط الهندي حينها بحرًا إسلاميًا خالصًا، لذلك فكّروا في الانتقام من المسلمين وغزوهم في عقر دارهم في أرض العرب. ويمكن أن نستشعر الروح الصليبيّة عند البرتغاليين في كلّ الأعمال التي قاموا بها. بالإضافة إلى ما قام به فاسكو دي غاما من ضرب مدينة كالكوتا بالقنابل، فقد أغرق سفينة في خليج عُمان كانت تنقل الحجاج من الهند إلى مكّة المكرمة، وعلى ظهرها مائة حاج حيث أعدمهم جميعًا بعد أن فعل فيهم الأفاعيل، ثمّ عاد إلى كالكوتا فأحرق مجموعة من المراكب التي كانت محمّلة بالأرز، وقطع أيدي وأذان وأنوف بحارّتها، وكان في مدينة كيلوا في شرق أفريقيا ثلاثمائة مسجد دمّرها معظمها بمجرد دخوله المدينة، وأعلن البرتغاليّون بعد انتصارهم على المماليك في معركة ديو البحريّة، أنّهم سيهدمون الأماكن المقدّسة في مكّة المكرمة والمدينة المنورة، وأنّهم سيزيلون معها آخر آثار الإسلام^[٢].

كما تولّدت عند الأوروبيين رغبة عميقة تمثّلت في طموحاتهم لتكوين إمبراطوريات استعماريّة فيما وراء البحار، وتنافست في سبيل ذلك الدول الأوروبيّة ابتداء بإسبانيا ثمّ البرتغال، تلتها هولندا وإنجلترا وفرنسا، ثمّ دخلت القوى البحريّة المجال ممثّلة في ألمانيا وروسيا، وأخيرًا حاولت إيطاليا وبلجيكا والدنمارك وضع يدها على بعض المناطق، والمهم أنّ الاستعمار في هذه الحالات أدّى للمنازعات أحيانًا، وتعيين حدود لممتلكات كلّ إمبراطوريّة، وبعض هذه الدول اكتفت باستغلال الثروات، وبعضها الآخر على الاستيطان في المناطق الجديدة. ولذا يلاحظ أنّ الكشف قد توقّف فترة من الزمن عقب الدوران حول أفريقيا واكتشاف الأمريكيتين لشيّبت أقدام الدول الأوروبيّة في الأرض الجديدة^[٣].

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٢.

٢- محمود شاكر، الكشف الجغرافيّة، م.س، ص ٢٧.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشف الجغرافيّة، م.س، ص ٩٩.

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنّه من الصعب الفصل بين الدوافع السياسيّة والدوافع الدينيّة والاقتصاديّة سالفه الذكر؛ وذلك لأنّ جميع هذه الدوافع امتزجت مزجاً غداً من الصعب معه تمييز الواحد عن الآخر تمييزاً كاملاً، ففتح العثمانيين لمدينة القسطنطينيّة مثلاً هزّ أوروبا سياسياً ودينياً واقتصادياً: دينياً لسقوط القسطنطينيّة عاصمة المسيحيّة الشرقيّة أخيراً بيد المسلمين بعد ما يقارب المانية قرون من الصمود، وسياسياً لنفاذ «الخطر» الإسلامي إلى أوروبا من جديد من الشرق، بعد أن كانت قد أبعدته عنها بالكاد من الغرب على يد الإسبان والبرتغاليين. واقتصادياً لأنّه أدّى إلى إغلاق الطرق الموصلة إلى الشرق الأقصى وخيراته في وجه أوروبا^[١]. يتّضح ممّا سبق أنّ الكشوف الجغرافيّة البرتغاليّة لم تكن وراء المعرفة؛ فمن سار وراء المعرفة كان يمتاز بالصفات الإنسانيّة، وهذا لم نمسّه أبداً خلال دراستنا، ما لم تكن وراء التجارة والحصول على التوابل، فمن كان تاجراً أو غريباً - اتّصف بالتودّد إلى أهل البلاد وحسن الصلة بهم، وهذا لم نشعر به أبداً من خلال ما تقدّم، كما لم تكن وراء الحصول على الذهب والمال؛ لأنّ هذا لا يبحث عنه في مكان مجهول. إنّ كلّ ما قامت به البرتغال، لم يكن يدفعها إليه إلا الحقد الصليبي الأعمى في محاولة لتطويق العرب المسلمين والقضاء عليهم قضاء تاماً^[٢].

٥. تجارة الرقيق

أخيراً لا بدّ من الإشارة إلى سبب كانت نتيجة لحركة الكشوف الجغرافيّة، لكنّه صار من أهمّ أسبابها، وربّما كان من أشنع تلك الأسباب وأسوأها صيّتاً، فاستعباد الإنسان لأخيه الإنسان صار العنوان العريض لحركة الكشوف الجغرافيّة، فعندما بدأت الكشوف في مراحلها الأولى أقيمت النقاط التجاريّة على السواحل لمبادلة المنتجات ثمّ ما لبثت أنّ تحوّلت هذه المنافسة إلى تنافس عنيف لاستغلال ثروات الأرض الجديدة حتّى انتشرت حمّى البحث عن الذهب والفضّة والرقيق^[٣]، وبدأ البحارة البرتغاليون يقتنصون العبيد من سواحل إفريقيا ويقومون بنقلهم إلى أسواق أوروبا، وجنوا من هذه التجارة أرباحاً كبيرة،

١- صباح كعدان، دراسات تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، م.س، ص ٤٨.

٢- محمود شاكر، الكشوف الجغرافيّة، م.س، ص ٣٢.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيّة، م.س، ص ٩٦.

أغرت الكثير من التجار بالمغامرة والقيام برحلات متوالية إلى جهات أفريقيا الغربية، ساعدت على توسع حركة الكشف، وكانت موضع تشجيع هنري الملاح^[١]، لا بل كانت أول نتيجة مهمة لجهوده هي افتتاح تجارة الرقيق، إذ أبحرت سفنه لتستكشف وتنصّر الأهلين في الظاهر، ولتحصل على الذهب والعاج والعبيد في الواقع، وقد عاد القبطان لانزاروت سنة ١٤٤٤ م ومعه مائة وخمسة وستون زنجياً، وقد شرعوا في فلاحه أراضي فرقة يسوع المسيح الرهبانية العسكرية^[٢].

وبعد أن أنشأت البرتغال بضعة مراكز على سواحل القارة الغربية وجزرها لتموين لسفن المتجهة لجلب البضائع من الرق، خصوصاً التوابل، بدأت التجارة تتحوّل إلى العاج الأسود أو الرقيق بالإضافة إلى البضائع الأفريقية الأخرى كالذهب والصمغ والعاج. ويحاول الكتاب الأوروبيون تبرير بداية البرتغال لتجارة الرقيق بأنّ دوافعها في بادئ الأمر كان إنسانياً؛ أي لنشر الديانة المسيحية وتعليم الزوج الديانة والحضارة حتّى يعودوا إلى بلادهم ويكونوا رسلاً للتبشير، لكنّ المسألة ما لبثت أن تحوّلت إلى نوع من المهانة الآدمية لهؤلاء البؤساء الذين جمعوا قسراً من الأجزاء الداخلية ليكونوا في زرائب خاصة أعدت لهذا الغرض وشحنوا بعد ذلك إلى أسواق النخاسة في أوروبا. ولم تستطع جهود البرتغاليين وحدهم سدّ الطلب المتزايد على الرقيق، ومن ثمّ بدأ استخدام الأسلحة النارية لقنص سكّان القارة، فقد كان الرقيق أغلى سلعة اكتشفها الأوروبيون في القارة السمراء، وتسابقت الدول في سبيل الفوز بنصيب الأسد منها^[٣].

ولقد وصف معاصر برتغالي اقتناص هؤلاء الزوج بقوله: «كان رجالنا يهتفون القدّيسة ياجو، القدّيس جورج، البرتغال. ويسقون عليهم، فيقتلون أو يخطفون كلّ من تقع عليه أيديهم. وقد تشاهد هناك أمهات يهربن بأطفالهن، وأزواجاً يفرون بزوجاتهم، وكلّ منهم يبذل قصارى للنجاة. يقفز بعضهم في البحر، ويرى بعضهم أن يختبئ في أركان أخصاصهم، وخبأ البعض أطفالهم تحت الشجيرات ... حيث كان رجالنا يعثرون عليهم. والله الذي

١- فرغلي هريدي، تاريخ أفريقيا، م.س، ص ٤٧.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، ج ٢٣، ص ٥٤.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٢٧.

يمنح كلّ إنسان ما يستحقّ من جزاء وهب رجالنا آخر الأمر في اليوم النصر على أعدائهم، وتعويضاً لهم على ما بذلوه من عناء في خدمته أخذوا مائة وخمسة وستين بين رجال ونساء وأطفال، ولم يحسب القتلى في هذا العدد». ولم يأت سنة ١٤٤٨ م حتّى كان قد أحضر إلى البرتغال نيف وتسعمائة عبد، وكان الإنسان سلعة للوحوش الآدمية المفترسة^[١].

ولا شك أنّ الطلب على العمالة الزنجية في المستعمرات في العالم الجديد، كان له دوره في نشاط هذه التجارة، ولعلّ مثل هذه التجارة الشهيرة في المحيط الأطلسي ما يقدّم دليلاً على ذلك؛ فقد كانت السفن تقوم بنقل هذه السلعة الآدمية من القارة إلى الشاطئ الغربي من المحيط الأطلسي وتعود منه محمّلة بمنتجات الأمريكيتين إلى أوروبا، وقد قيل إنّ لشبونة وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودمايته. ويقدر البعض الخسائر البشرية لقارة أفريقيا بنحو ٨٠ مليون نسمة ليصل منها سوى ٤٠ مليون نسمة إلى العالم الجديد ومات الباقي في الطريق. وكان نتيجة هذه التجارة، أنّ مراكز الاستيطان الأوروبي على سواحل القارة تزايد عددها، لكنّ لم يجرؤ الأوروبيون من تجار الرقيق على التوغّل إلى الداخل، وإنّما اعتمدوا على الوسطاء الأفارقة. وقد ارتبطت صورة الرجل الأوروبي خصوصاً في غرب القارة في ذهن الزنوج بعمليات القنص وتجارة الرقيق، وكانت نتيجة ذلك كراهيتهم الشديدة له وعدائه وزاد هذا من صعوبة مهمة المكتشفين، ولذلك وجدنا أنّ عدداً كبيراً من المكتشفين الأوائل قد لقوا حتفهم لهذا العداء^[٢].

رابعاً: رحلات هنري الملاح (١٣٩٤-١٤٦٠م) وبداية الكشوف البحرية

نظراً لأهمية دور هنري الملاح في الكشوف الجغرافية لأوروبا في العصور الوسطى، فقد ارتأيت أن أفرد له عنواناً خاصاً به حتّى تكتمل أطر البحث وتتضح الصورة أكثر للقارئ العربي. فلمّا كان قد عفّ أمر المسلمين في الأندلس كثيراً، واستطاع الإسبان والبرتغال أخيراً أن يخرجوهم منها نهائياً، لم يكتف هؤلاء بهذا الإخراج بل أرادوا ملاحقة العرب المسلمين في بلاد المغرب العربي وإخراجهم منها، وقد تمكّنوا من السيطرة على بعض شواطئ البحر المتوسط، شمال المغرب، مثل سبتة ومليلة ووهران، كما استولوا على شواطئ المحيط

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، ج ٢٣، ص ٥٤.

٢- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٢٨.

الأطلسي في غرب بلاد المغرب العربي. وبعد أن استقرّوا في هذه المراكز، شعروا بعدم إمكانية التوغّل نحو الداخل لتمكّن المسلمين فيها، وبعد أن ذهبت نشوة النصر المؤقت ببعض حقدّهم، رأوا أن الاندفاع في الحروب، والمغامرات في القتال، لا يجدي شيئاً بلا تخطيط^[١].



الأمير هنري الملاح

لذلك بدأوا التخطيط بصورة جدية لغزو العرب في عقر دارهم، ولا بأس من التذكير بأنّ تحرّكات البرتغاليين كان وراءها هنري، وهو الابن الثالث للملك جواو الأوّل João I، أحد أقطاب الاكتشافات الجغرافية، وعمليات التوسّع البرتغالي فيما وراء البحار^[٢]. رغم أنّ هذا الأمير البرتغالي لم يكن قد أبحر بالقدر الذي يعطيه لقب الملاح، لا بل ركب البحر مرة واحدة طيلة حياته، فقد لُقّب جزافاً واعتباطاً بالملاح،

وذلك عندما اشترك في حملة صليبية برتغالية كان قد أرسلها والده لاحتلال مدينة سبتة المغربية من أهلها المسلمين، وكانت هذه المدينة معقلاً للمجاهدين المغاربة، وبعدئذ قام والده بتعيينه حاكماً عليها^[٣]. ومع ذلك، فإنّ اسمه قد حفر في تاريخ الاكتشافات البحرية بسبب جهوده في تشجيع الملاحة والاستكشاف^[٤]. ويتّضح هذا في الكتاب الذي أرسله إلى البابا نيقولا الخامس سنة ١٤٥٤: «إنّ سروري العظيم أنّ نعلم أنّ ولدنا العزيز هنري أمير البرتغال قد سار في خطى أبيه الملك جواو بوصفه جندياً قادراً من جنود المسيح ليقضي على أعداء الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة»^[٥]. وكمكافأة له على نجاحه في اغتصاب سبتة من أهلها المسلمين، عينه والده رئيساً لفرسان المسيح، وجاشت في

١ - محمود شاكر، الاكتشاف الجغرافية، م.س، ص ٢٤.

٢ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٢١٠.

٣ - راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٤.

٤ - بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ٢١.

٥ - عبد العزيز نوار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث م.س، ص ٥٩.

نفسه رغبة قويّة لطرد المسلمين من مراكش المطلّة على المحيط الأطلسي^[١]، لا سيّما بعدما فتنته روايات المسلمين عن تمبكتو والسنغال، والذهب والعاج والعبود التي يمكن الحصول عليها على طول الساحل الغربي لأفريقيا^[٢].

وكان في رأيه أنّ من الصعب على بلد صغير مثل البرتغال أن يهزم مراكش بجبالها وصحاريها، ولكن من السهل عليها استخدام قوتها البحرية لتجفيف مصادر قوّة هذه الدولة من مصادرها بالاستيلاء على خليج غينيا؛ الذي اعتقد أنّه مركز الحركة التجارية، وعندئذ وضع في اعتباره هدفين، هما معرفة مصدر تجارة الذهب والعاج والرقيق والتوابل^[٣]. فعزم الشاب المتعصّب على أن يكتشف تلك الربوع ويضمّها إلى البرتغال، فربما قاده نهر السنغال، الذي تحدّث عنه من أخبروه، صوب الشرق إلى منابع نهر النيل وإلى بلاد الحبشة المسيحية^[٤]، وأن يعرف مكان القسّ بريسترجون ويتحالف معه ليشنّ حرباً صليبيّة على المسلمين ويطردهم بها من شمال أفريقيا والأراضي المقدّسة نهائياً^[٥]. وبذلك يفتتح طريق مائي عبر أفريقيا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، ومن ثمّ إلى الهند، ويتحطّم الاحتكار العربي للتجارة مع الشرق، وتصبح البرتغال دولة كبرى. وقد يدخل سكّان الإقليم بعد احتلاله في المسيحية، ويحصر الإسلام في أفريقيا من الشمال ومن الجنوب بدول مسيحية، ويصير البحر الأبيض المتوسط آمناً للملاحة المسيحية^[٦]. وربما لم يفكر هنري في طريق يدور حول أفريقيا، وإن كان بعض المؤرّخين يرى عكس ذلك، إذ يجزمون أنّه كان بحوزته بعض الدلائل على نجاح طريق الدوران حول أفريقيا، ومنها أشعار دانتي عن العالم الجديد^[٧]، وخريطة مابا مودي التي سبق وأن تحدّثنا عنها في هذا البحث- وما ساعده على إطلاق رحلاته بنجاح أن جلّ بحارته، كانوا شرذمة من المغامرين الجهلاء يسعون وراء الثروة والشهرة^[٨].

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٤.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، ج ٢٣، ص ٥٢.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٣٩.

٤- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، ج ٢٣، ص ٥٢.

٥- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، م.س، ص ١٤٠.

٦- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، ج ٢٣، ص ٥٢.

٧- بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ٢٢.

٨- شوقي عثمان، تجارة المحيط الهندي، م.س، ص ٢٥١.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ لهنري عدَّة أسباب للقيام بحركة الكشف الجغرافي، أولها شنَّ حملة صليبيَّة جديدة ضدَّ الإسلام، والرغبة في العثور على حليف مسيحي في أفريقيا، والطموح في التبشير ونشر الديانة المسيحيَّة، والرغبة الجامحة في السيطرة على تجارة التوابل. ومن هذه الدوافع استعدَّ هنري الملاح لتنفيذ مشاريعه البحريَّة استعداداً كبيراً، فأسس لأوَّل مرَّة أكاديميَّة للملاحة في ساجرس Sagres سنة ١٤٢٠م في الريف الجنوبي الشرقي للبرتغال، داراً لاستخلاص الأخبار المتعلِّقة بالمعرفة والمغامرة البحريَّة، والتي استقطبت أعظم المتخصِّصين في الرياضيات والجغرافيا والملاحين وراسمي الخرائط، وصانعي الأدوات البحريَّة وبناء السفن من جميع أصقاع العالم المعروف في تلك الفترة. كما أغنى الأكاديميَّة بمجموعة ضخمة من المراجع العلميَّة المتاحة والخرائط وكتب الرحلات، وبنى لهم سفناً قويَّة، تراوحت حمولتها ما بين ثمانين ومائة طن^[١].

لقد بلغ دينيس دياز سنة ١٤٤٤ الجبل الخصب الداخل في البحر المعروف بـ الرأس الأخضر، وهو موقع مكان دكاك الحالية، واكتشف لانزاروت سنة ١٤٤٦م مصبَّ نهر السنغال^[٢]. وعند ذلك، وجد دينيس دياز انحناء الشاطئ صوب الشرق. إلَّا أنَّ اكتشاف الدوران حول القارَّة الأفريقيَّة، لم يكتشف بعد، لكنَّ الطمع في الأرباح والذهب جعل البعثات الأفريقيَّة، الواحدة تلو الأخرى تتشجَّع بالتقدُّم جنوباً، سواء كانت مموَّلة من الدولة أم من قبل هيئات وأفراد. غير أنَّ تفاصيل تلك الرحلات لم يصلنا منها إلَّا القليل؛ نظراً للسريَّة التي أحاطت بها الحكومة البرتغاليَّة كشوفها^[٣].

مات هنري الملاح في سنة ١٤٦٠م بعد أن أرسى الأسطول البرتغالي للملاحة، وأقام مدرسة رائعة لعلوم البحار، وحين وفاته كانت أموالاً طائلة تدخل إلى خزينة الدولة من تجارة الرقيق. وتركت الرحلات التي رعاها هنري معلومات جمَّة من الدراسات الميدانيَّة؛ عن عادات ولغات الشعوب الأفريقيَّة على الساحل الغربي للقارَّة بطول ٣٥٠٠ كم. كما كان الطريق إلى جنوب أفريقيا، ومنها إلى الهند ينتظر من يكمله. ففي أحد الأديرة القريبة من

١- راغب العلي وآخرون، دراسات في تاريخ أوروبا، م.س، ص ٦٥.

٢- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، ج ٢٢، ص ٥٤.

٣- عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيَّة، م.س، ص ١٤١.

مدرسة علوم البحار، توجد خريطة بحجم إنسان تعرف بخريطة فراو ماوررو ترجع إلى أواخر عهد هنري الملاح، وتظهر عليها مواقع أوروبا وآسيا وأفريقيا، ويحيط بأفريقيا المحيط الذي يمكن عن طريقه الإبحار من جنوب غرب أوروبا إلى الهند في آسيا. وفي سنة ١٤٦٢م؛ أي بعد موت هنري الملاح بستين، بدأت الرحلات تكمل طريقها في خليج غينيا - ومنها إلى جنوب خط الاستواء. وفي سنة ١٤٨٢م، قاد ديجو كان أسطولاً عَبَرَ به خط الاستواء بعشرين درجة ليكون أول أوروبي في التاريخ يصل إلى هذا المكان قاطعاً ١٥٠٠ ميل على طول السواحل الأفريقية حتى صحراء ناميبيا. أما النقلة النوعية في مسارات الرحلة البرتغالية في جنوبي أفريقيا، فقام بها بارثولومي دياز، إذ تمكّن بثلاث سفن مجهزة أن يصل إلى مصب نهر الكونغو زتثير. وحينما حلّ الشتاء الجنوبي، توغل جنوباً فيما وراء الدائرة المدارية الجنوبية، وهناك عاكسته التيارات البحرية المتجهة من الجنوب إلى الشمال على طول الساحل الأفريقي جنوب خط الاستواء، واضطرت سفنه إلى الانحراف بعيداً عن الساحل نحو الغرب في البحر المفتوح الذي كان أكثر برودة. تضافرت البرودة مع التيارات العكسية في عرقلة رحلة الدوران حول أفريقيا. تمكّن دياز من إعادة المسار إلى الشرق، فوصل ثانية إلى الساحل الأفريقي جنوب مدار السرطان بعدة درجات. وعلى الساحل وجد قبائل أفريقية نائرة لقدومه خشية استعبادها، فأطلق عليهم النار وقتل بعضهم، ثم استمر في السير على طول خط الساحل جنوباً. أثر الملاحون العودة مع تزايد الإرهاق والمشاق، لكن دياز رفض وأمر بإكمال المسير. كان دياز يؤمن بأهمية رحلته لخدمة المسيحية، فعند آخر أرض سيصلها في الهند، لا بدّ وأن يضع صليب مبنى من الحجارة ليباركه الرب، ولكن يبدو أن الرب لم يكن ليساعده في ذلك. كاد دياز وسفنه أن تعبر القارة الأفريقية بعد أن وصلت إلى رأس جنوبية كبرى، لكنّ العواصف أبت أن تمنحهم هذا النجاح، فأرغمهم توالي المشاق على العودة إلى لشبونة بعد أن أطلقوا على تلك الرأس اسم رأس العواصف، ولكنّ ملك البرتغال خوان الثاني قرّر أن يغيّر الاسم الذي أطلقه دياز تشجيعاً للرحلات المقبلة، فبدّل الاسم إلى رأس العواصف الأمل الطيب أو رأس الرجاء الصالح. لم يعد ملك البرتغال في عجلة من أمره؛ إذ بدا الأمر له مسألة وقت. غير أن الأحداث توالى سريعاً، فها هي سفن كريستوفر كولومبوس الإسبانية تعود بعد أن اكتشفت أرضاً جديدة وراء المحيط الأطلسي

سمّيت وقتها بالجزر الآسيوية جزر البحر الكاريبي حاليًا. بدا أنّ الأمر لا يحتمل التريث والانتظار، فلا بدّ إذاً للبرتغال من أن يصلوا إلى الهند في أقرب فرصة. أدرك البابا ألكسندر السادس، الذي وصفه مؤرّخون بأنّه شخصيّة شديدة المكر والدهاء، بتقسيم البحر المحيط إلى قسمين: شمال خطّ الاستواء لإسبانيا، وجنوبه للبرتغال^[١].

أمّا إسبانيا، وهي الدولة الأقوى والأكثر سكّانًا من البرتغال، فقد كانت تتلقّى مساعدات كبيرة من أوروبا حتّى أنّنا نجد معظم ملاحها ليسوا من الإسبانيا، وإنّما من باقي دول أوروبا، التي كانت ترفد هذه المنطقة بكامل إمكاناتها، بحكم أنّ هذه المنطقة كانت منطقة تماس مباشر مع المسلمين، وفي حرب دائمة معهم، وإلاّ لماذا لم تتلق بقية الدول مثل هذه المساعدات؟ ولماذا لم تقم بمثل هذه الكشوف؟ وكانت أقوى من إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا من دول الدرجة الثانية أو حتّى الثالثة في أوروبا. لقد كانت مهمة إسبانيا الالتفاف على المسلمين من ناحية الشرق، بينما تكفّلت البرتغال بالتحرك من الجنوب لإتمام عملية التطويق، وكانت قد وصلت إلى مسماع الإسبانيا فكرة كروية الأرض، وإمكانية الوصول إلى الشرق عن طريق الاتجاه نحو الغرب. لقد أعطت إسبانيا المعلومات اللازمة لبحارتها القادمين إليها من بقية الدول الأوروبية، والمدربين على القتال في مدارس خاصّة، وقد شحنوا حقدًا ضدّ المسلمين، وملئوا غيظًا من خلال معلومات التاريخ التي أُلقيت عليهم مشوّهة مغلوطة. غادر كولومبوس الجنوبي الأصل إسبانيا، ومعه ثلاث سفن في ٣ آب ١٤٩٢م، ووصل إلى جزر كناريا ومنها تابع رحلته نحو الغرب، وقد أظهر البحارة قلقهم من طول الرحلة، وثاروا على كولومبوس وطلبوا إليه الرجوع، ولكنّه تمكّن بما أثاره في نفوسهم من حماسة ضدّ المسلمين أن يحثّهم على المضيّ، حتّى تمكّن من الوصول إلى جزر الأنّтил في أمريكا الوسطى في ١٠ أكتوبر من العام نفسه. وتكرّرت رحلات كولومبوس حتّى بلغت أربعًا، ولكنّه لم يستطع خلالها من الوصول إلى الغاية المطلوبة؛ وهي تطويق المسلمين، لذا ألقى القبض عليه، وأرسل إلى إسبانيا، واتّهم بالتواطؤ، وأخيرًا أعفي عنه^[٢].

١- بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، م.س، ص ٢٣-٢٤.

٢- محمود شاكر، الكشوف الجغرافية، م.س، ص ٣٢-٣٣.



رسم تخيلي للمراكب البحرية
الأوروبية التي قامت بالكشوف
الجغرافية



كولومبوس

الخاتمة

من المؤسف جدًا أنَّ
الكثير منّا، نحن العرب
خصوصًا والشرقيين عمومًا،
مبهورون بنتاج حركة الكشوف
الجغرافية، ويعود هذا الانبهار
لآلة الدعاية الغربية التي

تصوّر أنّ هذه الكشوف كما لو أنّها كانت بجهود أوروبية خارقة للعادة والمألوف. لكن بعد هذا البحث، تبين أنّ الواقع كان مختلفًا كلّ الاختلاف عن هذا؛ فأولًا كان الأوروبيون قد انتهجوا سياسة التجسّس العلمي على العرب فسرّقوا معظم معارفهم العلمية، بما فيها الجغرافية وكلّ ما يتعلّق بأمر الملاحاة والإسّطراب والبوصلة والخرائط، وقد ساعدتهم اليهود كثيرًا في هذا المضمّار، وبالتالي شكّلت الأرضيّة المتينة للأوروبيين لركوب البحار. أمّا النتيجة الثانية، وهي أنّ ما قام به الأوروبيون من كشوف جغرافية، لم تكن كشوفًا بالمعنى العلمي للكلمة، وإنّما إعادة اكتشاف؛ لأنّ هناك كثيرًا ممّن سبقوا الأوروبيين إلى اكتشافها، سواء في العصور القديمة الفينيقيّون أم في العصور الوسطى العرب المسلمون. كانت أهمّ دوافع حركات الكشوف الجغرافية إمّا اقتصادية هدفها نهب ثروات الشعوب الأخرى وسرقة خيراتها، وإمّا دينيّة تمثلت في محاولات تطويق الإسلام وحرّبه في عقر داره. ومهما يكن من أهميّة الأسباب السياسيّة وما عانتها الدول الأوروبيّة في أعقاب عصر النهضة من مشكلات داخلية كانت ترغب في تصديرها إلى الخارج، تبقى الأسباب الدينيّة والاقتصاديّة هي الأهم من وجهة نظرنا.

لائحة المصادر والمراجع

١. أيّوب أبو دية، علم النهضة الأوروبيّة، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٠م.
٢. بلاندين وماركين، أسرار الكشف الجغرافي عن البحر المحيط، ترجمه عن الروسية: عاطف معتمد، نشرت الترجمة بمجلة الترجمان الصادرة عن مركز اللغات والترجمة، جامعة القاهرة، العدد ٢، يوليو ٢٠١٢م.
٣. جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم: محمّد حناوي، ويوسف نكادي، ط ١، مطبعة مفكر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م.
٤. راغب العلي وطليلة الصباح وعبد الكافي الصطوف، دراسات في تاريخ أوروبا في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م.
٥. سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة، ج ٢، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ١٩٩٩م.
٦. شوقي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلاميّة، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ١٥١، يوليو ١٩٩٠م.
٧. صباح كعدان، دراسات تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.
٨. عبد العزيز نوّار ومحمود جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتّى نهاية الحرب العالميّة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٩م.
٩. علي عبد الله الدفاع، رواد علم الجغرافيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، مكتبة التوبة، الظهران ١٤١٠هـ.
١٠. عيسى علي إبراهيم، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافيّة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ٢٠٠٠م.

١١. فؤاد سزكين، اكتشاف قارة أمريكا قبل كريستوف كولومبوس، ترجمة: فريد بن فغول، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، ألمانيا ٢٠١٤م.
١٢. فرغلي هريدي، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر الكشوف، الاستعمار، الاستقلال، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الإسكندرية ٢٠٠٨م.
١٣. كمال خرفي، الإصلاح الديني في أوروبا وعلاقاته بالتنوير الفلسفي، مارتن لوثر أنموذجًا، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في العلوم الاجتماعية، جامعة محمد خضير، بسكرة ٢٠١٩ - ٢٠٢٠م.
١٤. محمد حمدي علي، الاكتشافات الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩١٣م.
١٥. محمود شاكر، الكشوف الجغرافية دوافعها حقيقتها، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨م.
١٦. مخلص الرئيس، موسوعة أعلام الفلك والفيزياء، ط١، كتاب الشهر الصادر عن دائرة الأدب العلمي في جامعة دمشق، أيار ٢٠١٥م.
١٧. ممدوح حسين، الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري، دار عمّار، عمّان ١٩٩٨م.
١٨. موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة علي السيد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.
١٩. نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.
٢٠. ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٤، مج٤، ترجمة: محمد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

الجغرافيا السياسية للقارة الأوروبية في القرون الوسطى

إبراهيم أحمد سعيد^[1]

مقدمة

تشكّل القرون الوسطى مرحلة مهمّة في تاريخ أوروبا؛ لأنّها جاءت بعد تراث حضاري أساسي أرسّت دعائمه الحضارة الإغريقيّة وأضافت إليه الحضارة الرومانيّة، على الرغم من محافظتها في القواعد المنهجية والعلمية إلى حدّ ما، على ما سبقتها إليه الحضارة الإغريقيّة، وكذلك ما امتزجت به حضارة الشعوب البربرية في الشمال. وأهميّة القرون الوسطى تأتي من طبيعة التغيّرات التي حصلت داخل القارة ذاتها، وكذلك المؤثرات التي تلقتّها من المشرق العربي إبّان الحروب الصليبيّة وعبر معابر التأثير المباشرة عن طريق جزيرة صقلية والجنوب الإيطالي وعن طريق الأندلس، حيث ترافق وجود العرب هناك مع امتداد القرون الوسطى. وكان خروجهم منها أحد أشكال انتهاء تلك العصور.

إنّ التغيّرات الداخليّة في القارة خلال العصور الوسطى كانت نتيجة لعوامل كثيرة متداخلة بدءاً من نتائج سيطرة البرابرة الجرمان على العاصمة المركزيّة (روما) كونها أنهت وجود إمبراطوريّة كبيرة مهيمنة على أوروبا كلّها كما كان في السابق، وانتهاءً بتراجع سيطرة الكنيسة وهيمنتها وقدرتها على التداخل في الممالك الأوروبيّة. بل نستطيع القول إنّ الممالك والحكّام والأغنياء (الإقطاع والنبل) استطاعوا التدخل في الكنيسة، كتغيير بعض البابوات وفرض بعضهم الآخر أو وجود أكثر من بابا في الوقت نفسه وانتقال مركز البابويّة إلى خارج روما، إضافة لنشوء الكنائس القوميّة التي أدّت بالفعل لربط الكنيسة بالسياسة، وبالتالي تراجع شعبية السلطة الدينيّة بين العامة والخاصّة على حدّ سواء.

١ - أستاذ في جامعة دمشق، قسم الجغرافيا.

ومن المتغيرات المهمة أيضاً تراجع العلاقات الاجتماعية-الاقتصادية بين طبقات المجتمع وظهور طبقة الصناع والتجار وإصابة النظام الإقطاعي في صميم مرتكزاته التي اعتمد عليها بوجوده لقرون كثيرة. وقد أسهمت حروب الفرنجة في المشرق، التي استمرت لنحو مئتي سنة، في توجيه ضربة للنظام الإقطاعي ولوجود الأقدان والعبيد على حدّ سواء، من خلال حصولهم على حريّاتهم؛ إذ انخرطوا في تلك الحروب. ولكن لا ننسى الظلم الشديد من الإقطاعيين على تلك الطبقة، ممّا دفع بهؤلاء مع وجود بوادر الفرص المناسبة لهروبهم والتخلّص من تلك السلطات القاسية.

ومن المتغيرات المهمة في القارة التي جاءت، كانت نتيجة للحروب التدميرية البيئية بين العائلات الحاكمة والرغبة في التوسّع على حساب بعضهم البعض، أو نتيجة لتوزيع الملك (الأقاليم والمقاطعات) بين أفراد العائلة ذاتها، وهذا حصل في معظم ممالك القارة ضمن القرون كلّها. ومن التحوّلات الإيجابية التي كان لها دور تراكمي في التغيرات داخل القارة، هي حركة استصلاح الأراضي وزيادة إنتاجيتها وإنتاجها وظهور حركة النقد والبنوك والتحويل، ممّا سهّل النمو الاقتصادي والتجارة داخل القارة وخارجها وإقامة السفارات، وحتى نشأة بعض الدول وإقامة الأسواق التجارية الكبيرة ثمّ تحوّلها إلى مدن اقتصادية خارج مفهوم المدن التاريخية. وبعض الإصلاحات التي قام بها الحكّام أدّت إلى التغيّر في مفاهيم السلطة، كما حصل في إنكلترا بتشكّل البرلمان وتحديد سلطات الملك وكذلك في فرنسا، بالإضافة لنشوء تجربة الإحصاء وحصر الملكيّات والسكّان والثروات.

وقد كان لتشكيل الكومونات في المدن (١١٠٠-١٤٠٠) دور مهمّ في التصديّ لسلطة رجال الدين (الإكليروس) ولطبقة النبلاء والدفع بتشكّل طبقات جديدة في المجتمع على أساس مدني، ليس دينياً ولا وراثياً، عماده الحرف الأولى والتجارة، فتشكّلت فرق لحماية المدن وتحصينها ورعاية أفرادها اجتماعياً ومادياً ضدّ الفقر والأمية وعمليات النهب والاعتداء والتخفيف من آثار الجوائح المرضية، وقد كوّنت اتّحادات تجارية بين المدن، تحوّلت لعسكرية وأمنية وتنظيمية.

هكذا نجد أنّ القرون الوسطى بدأت بحال وانتهت بحال أخرى، ممّا جعل نهايتها مقدّمة

لعصر التنوير والعلم والمعرفة واكتشاف القوانين الطبيعية والاجتماعية، التي أدخلت أوروبا في الاكتشافات الجغرافية وما تبعها من إعمار لقارات جديدة، ولظهور الاستعمار، والإنتاج الاقتصادي الكبير، ولحركة التجارة العالمية، وظهور العلاقات الدولية على أسس جديدة قائمة على المصالح من جهة وعلى الهيمنة الاستعمارية من جهة أخرى، حيث الشمال والجنوب وحيث المركز والأطراف.

أولاً - إشكالية التغير الجيوسياسي للقارة الأوروبية خلال القرون الوسطى

تُشكل القارة الأوروبية إحدى قارات العالم القديم (آسيا، أفريقيا وأوروبا) ممتدة من المحيط المتجمد الشمالي في الشمال إلى البحر المتوسط والبحر الأسود وجبال القوقاز في الجنوب، ومن جبال الأورال وبحر قزوين في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، بمساحة تُقدَّر بنحو ١٠,٢٨٨ مليون كيلو متر مربع^[١]، وهي تعادل نحو ٧٪ من مساحة اليابس، ويبلغ عدد سكانها نحو ٧٥٠ مليون نسمة (٢٠٢٢م)، وهذا يعادل نحو ٩,٤٪ من سكان العالم. يبلغ طول شواطئها البحرية نحو ٦١ ألف كم، وقد أُضيف إليها معظم جزر البحر المتوسط (البليار، صقلية، سردينيا، كورسيكا، مالطا، قبرص وكريت) وأطول أنهارها نهر الفولغا، بينما يُعدّ نهر الدانوب أكثرها حيوية؛ لأنّه يمرّ في ستّ دول (النمسا، سلوفاكيا، هنغاريا، صربيا، بلغاريا ورومانيا)، وأكبر بحيرة فيها بحيرة لادوغا الروسية.

يوجد في أوروبا نحو ٥٠ دولة ذات سيادة، وهناك أقاليم عدّة ضمن دول مهيأة للاستقلال وهي تسعى لذلك (الباسك، برشلونة، بريتاني، الإلزاس، اللورين، اسكوتلند، ويلز...). وتوجد بالفعل جملة من العوامل أو الأسباب التي تدفع باتجاه التغير الجيوسياسي في القارة الأوروبية منذ القرون الوسطى وحتى الآن، ولأنّها كانت أكثر شدة وحركة في القرون الوسطى.

١- في مراجع أخرى يتأرجح الرقم بين ١٨٠, ١٠ إلى ٤٥٨, ١٠ مليون كم^٢، وهذا يعود لاختلاف عدد الجزر ومساحاتها وتبعيتها السياسية.



انظر الخريطة رقم (١)

المطلب الأول: أسباب التغيرات الجيوسياسية في القرون الوسطى

كانت أوروبا مسرحًا للتغيرات الجيوسياسية السريعة في القرون الأولى من العصور الوسطى، وذلك لأسباب متعددة يأتي في مقدمتها:

١. التناقض العقدي لدى المجتمعات الأوروبية منذ أن أصبحت المسيحية ديانة الدولة الرومانية في القرن الرابع (مرسوم ميلان)، بالمقابل كانت الوثنية عقيدة مهيمنة على وسط وشمال أوروبا ومعادية سياسيًا للإمبراطورية الرومانية.

٢. انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: شرقي وعاصمته القسطنطينية، وغربي وعاصمته روما. وقد ارتكب الإمبراطور تيودوسيوس الأول خطأ كبيرًا عندما قام بتقسيم الإمبراطورية بين ولديه أركاديوس على القسم الشرقي وأنوريوس على القسم الغربي^[١]، مما دفع بظهور التناقض الجيوسياسي بين إمبراطورية الشرق (القسطنطينية) وإمبراطورية الغرب

١- نعمة، غطّاس، نوفل، وضّاح. تاريخ أوروبا وحضارتها في القرون الوسطى، جامعة دمشق، ٢٠١٧م، ص ٣٤.

(روما)، لذلك لم تهدأ محاولات التوسّع عند كلّ جزء على حساب الجزء الآخر، وباستخدام كلّ الوسائل السياسيّة والعقدية والعسكرية.

٣. اكتساب الوثنية قدرة عسكرية قويّة من أقوام وشعوب الشمال الطامحة للمياه الدافئة والمناخ المتوسطي (الجرمان، الوندال، الفايكونغ، السلاف...)، وقد استطاعت بالفعل تدمير السلطة السياسيّة في روما، ولكنّها تبنت العقيدة المسيحيّة، وأصبحت جزءاً من السلطة المدعومة بموافقة وتبريكات الكنيسة.

٤. التحوّل الملموس في قوّة الإنتاج في المجتمعات الأوروبية، في القرون الأولى من العصور الوسطى، من العبيد إلى الأقنان الزراعيين أو الفلاحين، حيث تراجعت الحروب وقلّت أهميّة العبيد كمحاربين، ولذلك قام السادة (أغنياء المجتمع) بتقسيم الأراضي واستصلاحها وتوزيعها على العبيد ليتحوّلوا إلى فلاّحين منتجين بحصص محدّدة، ممّا أوجد علاقات اجتماعيّة جديدة قائمة على التمسك بالأرض وإيجاد التشريعات الضابطة لها، فشكّلوا فيما بعد طبقة منتجة أساسيّة في أوروبا العصور الوسطى^[١].

٥. تشكّل ملامح الحضارة الأوروبيّة بتلاقح بين الثقافة اليونانيّة والرومانيّة والجرمانيّة، ولكنّها في القرون الخمسة الأولى سمّيت بالعصور المظلمة؛ لتراجع الحضارة الرومانيّة وترديّها في مجالات المعرفة وسيادة ظلام التخلف في الحياة الفكرية^[٢].

٦. سيطرة الكنيسة، ممثلة برجال الدين الموزّعين في أرجاء أوروبا، دنيوياً وأخروياً، من خلال التدخل في تعيين الأباطرة (الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة) وإعطائهم الغطاء السماوي بالتعميد والمباركة، وهذه كانت ضروريّة للحكّام، في الوقت ذاته كان رجال الدين يمتلكون الخطوة الكبرى في البلدات والمدن الأوروبيّة لإقامة الشعائر الدينيّة في الولادة والموت والإرث وغير ذلك من المناسبات (عيد الميلاد، الفصح...) في الكنائس والحصون، وأصبحت سلطة الكنيسة قويّة بعد سقوط روما. فالتغيّرات الجيوسياسية كانت متوافقة مع القدرات الداخليّة ضمن أقاليم الإمبراطوريّة الرومانيّة وعلى هوامشها في الشرق والشمال، حيث قبائل السلاف والجرمان والهون والكلت، ممّا دفع بتلك القدرات للتحرك جغرافياً

١- فرح، نعيم، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، جامعة دمشق، ٢٠١٠م، ص ١١.

٢- حاطوم، نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢م، ص ١٢.

على حساب الجوار، حسب قوّة كلّ قدرة من حيث ثرواتها ومقاتليها ومدى استمراريتها بالدعم المادّي والروحي من رجال الدين المحليين ومن البابا أيضًا.

٧. تفكيك الإمبراطورية الرومانية، وذلك نتيجة لأسباب عدّة أهمّها:

أ. خسارتها لإنكلترا وانسحابها منها.

ب. خسارتها لإسبانيا، حيث تمّ احتلالها من القوط الغربيين ومن البرجنديين.

ت. استقرار الألمان في الإلزاس بعد عبورهم نهر الراين.

ث. احتلال الفاندال شمال أفريقيا.

ج. الآثار المدمّرة للزواج السياسي من أجل عقد تحالفات ومحاور ضمن الممالك الأوروبية^[١]، فأصبحت قوى نبذ وتضادّ مع السلطة المركزية.

٨. إنّ تشكّل الممالك المتطاحنة مع بعضها والمتوسّعة على حساب بعضها البعض، أدّى إلى عدم الاستقرار السياسي وإلى سرعة التغيّرات في حدود تلك الممالك؛ كمملكة اللومبارديين وممالك الأنغلوساكسون ومملكة الفرنجة التي كانت تعاني من صراعات قويّة بين مقاطعاتها الثلاث المكوّنة لها (برجنديا، أوسترازا ونيستريا). كان الصراع شديداً بين الملوك والإقطاع، وعندما تكون العائلة المالكة ضعيفة، يصبح الصراع داخلياً على مستوى سيطرة الحجاب على القصور الملكية، وكذلك صراع الحجاب مع الوزراء، فتعمّ الفوضى لدرجة أصبحت الوزارة والحجابه بالوراثة ولعائلات محدّدة، وأصبحت وظيفة الملك شكلية لاستقبال السفراء وتوقيع القرارات. من هؤلاء على سبيل المثال: شارل مارتل، الذي أصبح بطل المسيحية ضدّ العرب لانتصاره على عبد الرحمن الغافقي في معركة بواتيه (بلاط الشهداء) في عام ٧٣٢م، فقد حكم مملكة الفرنجة كحاجب، وليس كملك حتّى عام ٧٤١م^[٢]، وأصبح ابنه بيبان القصير ملكاً، وأسّس عائلة ملكيّة وحظي بموافقة البابا، وغدا أقوى ملوك أوروبا بتحالفه مع البابا، فتوسّع في كلّ الاتجاهات على حساب العرب

١- لقد اتّبع تيودريك ملك القوط الشرقيين، كمثال على الزواج السياسي، هذه الطريق فقد تزوّج بشقيقة ملك الفرنجة وزوّج ابنه أخيه لملك الثورنجيين، وزوّج إحدى بناته لملك القوط الغربيين والثانية لملك البرجنديين، فأصبح كأنّه زعيم للبرابرة. عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٩٩-١٠٠.

٢- فرح، نعيم، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط ٧، جامعة دمشق، ٢٠٠٧، ص ٤٥.

في الأندلس، وأخضع البافار والساكسون وأكيتانيا، ثم تعاون مع الإقطاع وحسّن التنظيم الداخلي للدولة، وضمن لمملكته الاستقرار الاجتماعي بشكل نسبي^[١].

٩. كان لا بدّ من القضاء على الوثنية الأوروبية الممثلة بالساكسون لثلاثة أسباب مهمة:

أ. الضغط الشديد من الكنيسة للقضاء على الوثنية؛ لأنها مناهضة لها ومغايرة في العقيدة، إضافة للخسارة الكبيرة التي أصابت الكنيسة بعدم دخول الوثنيين للمسيحية، ودفع ما يترتب عليهم من الشعائر الدينية المتعددة والمدرة للأرباح.

ب. الخطر الكبير الذي يشكّله الوثنيون الهمج على الممالك المتحضرة وكثرة هجومهم عليها لأنهم قساة أشداء، لذلك حاربهم شارلمان (أقوى ملوك أوروبا كوالده بيبان القصير) ثلاثاً وثلاثين سنة (٧٧٢-٨٠٤م).

ت. لأنّ الساكسون الوثنيين يحتلون منطقة جغرافية مهمة في موقعها كوسط وشمال أوروبا وواسعة تمتدّ من بحر البلطيق إلى بحر الشمال في الغرب وإلى جبال الألب في الجنوب، وهي أراض زراعية خصبة، وفيها مراعى مهمة اقتصادياً.

لقد اتّبع شارلمان مع الساكسون الوثنيين وسائل متعددة للقضاء على الوثنية. ولفرض سيطرته عليهم، فقد أرسل البعثات التبشيرية لإدخالهم في المسيحية، وقام بشراء أكثرية أمرائهم بالمال، وقام بإحداث الفتن بين مجموعاتهم ليقاتلوا بعضهم بعضاً، واعتمد على المزج وإدخال شعوب أخرى داخلهم للتقليل من هيمنة الساكسون وإضعاف عقيدتهم، واعتمد القسوة الشديدة في القتل والإعدام، ففي يوم واحد قتل ٤٥٠٠ وثني. وأدى اختلاط شعوب أوروبا الغربية مع الوسطى والشرقية لتفاعل العناصر اللاتينية والجرمانية بعقائدها المتنوعة مشكلة مزيجاً حضارياً جديداً لأوروبا في العصور الوسطى^[٢]. لقد جرى عقد قوي بين شارلمان والبابا، أساسه توطيد سلطة شارلمان بتأييد الكنيسة، مقابل أن ينشر المسيحية في كلّ المناطق التي احتلّها وضمّها لمملكته^[٣]، مع محاربة العرب في الأندلس والقضاء على المذهب الآريوسي. وكان بالنتيجة أن أصبح شارلمان أول إمبراطور تتوجّه الكنيسة في روما

١- حاطوم، نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج ١، المرجع السابق، ص ٩٨-١٠٠.

٢- فرح، نعيم، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٥٥.

٣- عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ١٧٦.

معمداً بالزيت المقدس، وبلقب القيصر والإمبراطور أوغسطس من خارج الأصل الروماني أو اليوناني، فهو من أصل جرمانى بربرى^[١]. بالنتيجة انقسمت أوروبا إلى إمبراطوريتين: البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية وعاصمتها مدينة آخن في الغرب، ولم تعد روما عاصمة.

من المفيد قبل نهاية هذا المطلب إظهار دور الملك الحاكم (الإمبراطور) شارلمان في وضع أسس جديدة في القارة الأوروبية شكّلت نقلة نوعية نحو تغيير مهم في المجتمعات الأوروبية، فقد حكم سبعة وأربعين عاماً مملكة الفرنجة وأجزاء واسعة من أوروبا، وكان له علاقة قوية مع هارون الرشيد لحماية المؤسسات المسيحية والحجاج المسيحيين في الأراضي المقدسة، وقد وافق هارون الرشيد على إرسال مفاتيح بيت المقدس لشارلمان. ولعل أهمية شارلمان في التغيرات اللاحقة عموماً، وفي وضع الأسس السليمة للنهضة الأوروبية (الكارولنجية) خصوصاً، تأتي في بناء المدن والحركة العمرانية الكبيرة ببناء المدارس والكنائس والجسور وشق الطرق وحمايتها. وقرب إليه العلماء والشعراء والمؤرخين، واهتم باللغة اللاتينية وبالتشريع والقضاء والإدارة، وقام بتدوين كل القوانين والأعراف عند القبائل الجرمانية، والأغاني التي تمجد أعمال ملوكهم القدماى لكي يتم نقلها للأجيال الجديدة^[٢]. على الرغم من أنه حاربهم وقتل شبابهم وثوارهم (الساكسون)، إلا أنه قام بتوحيد الموازين والمكاييل، وحدد أسعار القمح، وحوى التجارة، وأنزل العقوبات بالمخالفين، وشدد الحراسة على الطرق الداخلية لحماية المسافرين والتجار من اللصوص وقطاع الطرق^[٣].

لقد اهتم شارلمان بالزراعة وشجع الإقطاع وكبار الملاك على تحسين الزراعة والعناية بالجسور، وشجع الصناعة والصناعات واستخراج المعادن، واهتم بالصناعات الخشبية والجلدية، وعمل على حمايتها من المنافسة الخارجية. كان شارلمان مثالاً للحاكم القوي صاحب النظرة الإستراتيجية، عامل خصومه بقسوة وبحنكة وأغدق على المتعاونين معه،

١- طرخان، إبراهيم علي، دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٣٠٦.

٢- إينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، دار حسان، دمشق ١٩٨٩م، ص ١٤٦-١٤٧.

٣- عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ أوروبا، مرجع سابق، ص ١٨٠.

ولكنّه اعتمد سياسة عدم ثباتهم في وظائفهم وأماكنهم الجغرافية حتّى لا تقوى شوكتهم. وتعامل مع الكنيسة بوضوح: تدعمون سلطتي، وأدعم سلطتكم وأعمل على رعاية حركة التنصير في الأماكن الوثنيّة.

١. أدّت معاهدة فردان (٨٤٣م) بين أحفاد شارلمان من ابنه لويس التقيّ إلى نشأة ثلاث دول لأوّل مرّة في أوروبا بالأسماء التي بقيت بعدها مستمرة، فرنسا، ألمانيا وإيطاليا. إنّ تقسيم الممالك كان بين الأخوة الذكور، وإذا مات أحدهم زحف أخوه على مملكته أو مملكة ابن أخيه وأخذها، كما حصل مع أحفاد شارلمان. وعندما تمّ تأسيس الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة في عهد الأسرة الساكسونيّة، التي أسّسها أوتو الكبير (٩١٩-١٠٢٤م)، والتي تحاربت مع الهنغار والنورمانديين، قام رئيس الأساقفة ماينز بتتويج أوتو، وسلّمه سيف شارلمان قائلاً له: «خذ هذا السيف وحارب به كلّ أعداء المسيحيّة والوثنيين والمسيحيين المرتدّين؛ لأنّه وبإرادة الله قد حصلت على كلّ سلطات مملكة الفرنجة للحفاظ على سلام كلّ المسيحيين»، ثمّ قدّسه بالزيت المقدّس وأعطاه الصولجان والعصا الملكيين.

١١. ومن أسباب التغيّر الجيوسياسي في أوروبا في نهاية المرحلة الأولى من القرون الوسطى، ما قام به الإمبراطور كونراد الثاني (١٠٢٤-١٠٣٩م)، حيث رأى بأنّ احترام الحاكم لا يأتي من الكنيسة بل من الحرب والشجاعة والقوّة، وعلى الرغم من أنّ هنغاريا بزعامة الملك ستيفان، وبولندا بزعامة بوليسلاف وكذلك بوهيميا، قد ثارت ضده، ولكنّه هزمها جميعاً، فقام بإلغاء المناصب الوراثيّة لكبار الإقطاعيين والأدواق، وحرّضهم ضدّ بعضهم البعض حتّى لا يتحدوا ويشكّلوا خطراً، بل ليكونوا تحت إمّرتهم بالعموم، وقام بإعادة توزيع الأراضي في ألمانيا وأعطاهما لصغار الإقطاع، فضمّن ولاءهم له.

١٢. عدم التوافق والانسجام بين الكنيسة والسلطة الدنيويّة (الملوك والأباطرة) لفترات طويلة، ممّا عجلّ في التغيّرات الاجتماعيّة والسياسيّة، كما حصل مع هنري الخامس (١١٠٦-١١٢٦م)، الذي جاءت به الكنيسة، ولكنّها سرعان ما ثارت ضده؛ لأنّه عاد إلى سيرة أبيه العلمانيّة، الذي حرّمته الكنيسة من الرعاية، وتمّ عزله من المنصب الإمبراطوري، ولكنّه عاد وعزل البابا ذاته، فتدخل في الكنيسة وقام بتعيين رجال دين مؤيدين له، وزحف

باتّجاه البابا (باسكال الثاني) في روما، فهرب منها إلى النورماندين في جنوب إيطاليا، ممّا دفع بهنري الخامس لتعيين بابا جديد (كالكستس الثاني)، وتمّ توقيع اتفاق بينه وبين الكنيسة عُرف باتفاق هورمز (١١٢٢/٩/٢٣) يتضمّن: انتخاب الأساقفة في ألمانيا يتمّ دون تدخل البابا ذاته، وانتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة خارج ألمانيا دون تدخل الإمبراطور، ويحقّ للإمبراطور تكليف الأسقف بمهمّات دنيويّة بعد موافقة البابا، ويحقّ للإمبراطور تقليد الأسقف المنتخب قبل تقليده من الكنيسة. كذلك يحقّ للإمبراطور حضور الانتخابات الكنسيّة داخل ألمانيا فقط. وبذلك أوجد هذا الاتفاق صيغة توافق وسطية بين سلطة الإمبراطور الدنيويّة وسلطة الكنيسة الأخرويّة. في الوقت ذاته، أوجد هذا الاتفاق بيئة مناسبة لنشاط الأمراء والأثرياء والنبلاء في مجالات بناء الحصون واستصلاح الأراضي والتجارة، فأسسوا لتنظيم سياسي شبه مستقلّ عُرف لأوّل مرّة في وسط وجنوب أوروبا. وعلى العكس من ذلك، فقد عاد الخلاف مرّة ثانية بين السلطة الأخرويّة (البابا أنوتست الثالث) وبين السلطة الدنيويّة ممثّلة بالإمبراطور فريديريك الثاني (١٢١٢-١٢٥٠م)، الذي كان سياسياً محنّكاً ومثقّقاً ومحارباً شجاعاً، وكان يعرف العربيّة، وكان شاعراً وفيلسوفاً وعالمًا في الطبّ والهندسة، وقد وصفه المؤرّخون بأنّه أعجوبة العالم^[١]. وسبب هذا الخلاف أنّ الإمبراطور لم يفِ بوعدّه للبابا بتجهيز حملة إلى فلسطين، ولم يكتفِ بصقلية بل أراد شمال إيطاليا، وقام بتتويج ابنه هنري ملكًا على صقلية وعلى الإمبراطوريّة أيضًا، ممّا دفع بالبابا الجديد (غريغوري التاسع) بإصدار فرمان بحرمان فريديريك من رحمة الكنيسة. ولكنّه في عام ١٢٢٨م قاد حملة إلى فلسطين، وعقد اتفاقية مع السلطان كامل الأيوبي مدّتها عشر سنوات، وقد سمّى نفسه على إثرها بالإمبراطور الروماني وملك صقلية والقدس، ولكنّ عادت الخلافات مع الكنيسة، ثمّ انتهت بصلح سان جرمان ١٢٣٠م.

١٣. ومن أسباب التغيّر الجيوسياسي في نهاية الفترة الأولى من القرون الوسطى، خروج الدانماركيين من بيئتهم الجغرافيّة، فسيطروا على النرويج في الشمال بقيادة سفيند، وكذلك فرضوا الضرائب على الإنكليز، ولكنّ الإنكليز حشدوا طاقاتهم بزعامة أثلرد وبتأييد نورمانديا (بالزواج السياسي)، فقتلوا الدانماركيين الموجودين في إنكلترا بوحشيّة، ومن بينهم أخت

ملك الدانمرك وزوجها، فغزاها سفيند وانتقم من الإنكليز (١٠٠٩-١٠١٢م) وسلب وقتل وبطش ودمّر، وفرض سيطرته المطلقة على إنكلترا، وأصبح ملكاً عليها في عام ١٠١٣م. وجاء ابنه من بعده كنوت الملقّب بالعظيم ملكاً على إنكلترا والنرويج، وعندما انتقم أثلرد مرّة ثانية من الدانمركيين، تعاون الأخوان (كنوت وهارولد) ملكا الدانمارك والنرويج للسيطرة على إنكلترا من جديد. وقد تمّ تقسيم إنكلترا إلى مملكتين، واحدة لكنوت والثانية لابن أثلرد، آدموند، وكان الاتفاق إذا مات أحدهما يرثه الآخر، فمات آدموند بعد سنة، فأصبح كنوت ملكاً على إنكلترا كلّها دون قتال. وبعد وفاة هارولد ملك الدانمارك، أصبح كنوت إمبراطوراً على إنكلترا والدانمارك والنرويج، ولُقّب بالكبير، وتمّ ضمّ إيرلندا وأركاد وإيكوسيا إلى الإمبراطورية في عام ١٠٣٠م. حافظ كنوت الكبير على الأنظمة الداخلية لممالك إمبراطوريته، فقد بقي لكلّ منها نظمها وقوانينها ومجالسها الخاصّة بها، دون وجود نظام واحد مطبّق على الممالك الثلاث^[١].

لقد مثّلت العلاقة بين كنوت الكبير والكنيسة مثلاً للتعاون المتبادل، حيث دعمت الكنيسة سلطة كنوت سياسياً وروحياً، بالمقابل قام كنوت بنشر الدين المسيحي في الدانمارك والنرويج. ويأتي دور كنوت في إنكلترا مختلّفاً وممنهجاً؛ حيث قام بالقضاء على كلّ مَنْ يتوقّع أنّه سيكون معارضاً (الحرب الاستباقية على المعارضة). وقام بتوزيع الملكيات الواسعة على الأمراء المؤيدين، وعمل على تشجيع الاندماج بين الأنغلوساكسون والدانمركيين، وقام بتنشيط التجارة مع البلاد المجاورة، وضمّن سلامة الطرق التجارية وحركة التجار والمسافرين.

١٤. أسهم تعاون الكنيسة مع القوة الناهضة في غرب أوروبا ممثلة بالدوق غليوم النورماندي، مضافاً إليها دور المرتزقة والطامحين للمغامرة وجمع الثروة؛ إلى السيطرة على إنكلترا. فالكنيسة المركزية (البابا) لم تكن راضية عن كنيسة إنكلترا، فدفعت بالسلطة الإقطاعية المركزية الحامية للكنيسة لغزو إنكلترا، وقد تحقّق لها ذلك في عام ١٠٦٦م، واستسلمت لندن، وتوجّ غليوم ملكاً في عيد الميلاد باسم غليوم الأوّل، ولُقّب بغليوم الفاتح^[٢]. يُعدّ غليوم

١- فرح، نعيم. تاريخ أوروبا السياسي، مرجع سابق، ص ١٥٧.

٢- كانتور، نورمان ف، التاريخ الوسيط، قصّة حضارة البداية والنهاية، ج ٢، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٣٨٩-٣٩١.

الفتاح من أكثر الحكّام الذين أثّروا بإنكلترا؛ وذلك لما قام به من إجراءات جديدة ضمنت له الدخل الكافي لشنّ الحروب، فالحروب تحتاج لأموال كبيرة، وأهمّ تلك الإجراءات: تجريد الإقطاعيين من ملكيّاتهم الواسعة وتسليمها لموظفين نورماندين، وتحويل إنكلترا كلّها إلى دولة إقطاعيّة؛ حيث تحوّل الفلاحون إلى أقنان، وجعل الإقطاعات متداخلة مع بعضها حتّى لا تتكوّن النزعات الانفصاليّة والتمرد. ولكنّ كان لهذه الإجراءات دور إيجابي في بناء الحصون والقصور، ولعلّ من أهمّ الإجراءات المميّزة والجديدة، هو القيام بوضع كتاب إحصائي سُمّي بكتاب الحساب الأخير لتقدير الضرائب وحجم الخدمات الإقطاعيّة والعسكريّة المفروضة على الآخرين أمام الملك، وهي تُعدّ التجربة الأوروبيّة الأولى. في الوقت ذاته، زاد من ملكيّات التاج الملكي لتصبح نحو سبع الأراضي الصالحة للزراعة في إنكلترا، ممّا زاد في ترسيخ سلطة الملك^[١]. ومن الإجراءات التي اتخذها كان استبدال رجال الكنيسة الإنكليز برجال الكنيسة النورمانديّة، لكنّ بالاتّفاق مع البابا نفسه. وقام بإجراء غريب، حيث جمع كبار الملاك والأغنياء، وأقسمهم اليمين على طاعته، فبلغ عددهم ستين ألفاً في مدينة سالزبوري. عمل غليوم الفاتح على تقسيم إنكلترا إلى مقاطعات يحكم كلّ منها حاكم مدني نورماندي يُدعى الشريف، مهمّته جمع الضرائب وأرباح ملكيّات الملك، وكذلك من مهمّاته المحافظة على النظام ومراقبة المحاكم في المقاطعة. وحتّى يضمن وجود قوّة قادرة على تلبية احتياجاته الأمنيّة والقتاليّة، قام بإنشاء جيش إقطاعي ومليشيا شعبيّة داعمة له، وختم إجراءاته المميّزة بتشكيل مجلس مستشارين يضمّ شخصيّات دينيّة ومدنيّة وعسكريّة لبحث الأمور المهمّة والمستجدة.

وشكّل حفيد غليوم الفاتح هنري الأوّل (١١٠٠-١١٣٥) محطة مميّزة أيضاً في إنكلترا، حيث أنشأ مجلس مستشارين ليكون خبيراً في القضاء والسياسة وعمل الخزينة ومجلس الشؤون الماليّة، بحيث يتوجّب على الشريف الحاكم أن يُقدّم مرتين في العام من دخله وأرباحه، وسمح للسكّان بالتقاضي أمام محاكم واحدة، فاستطاع الحدّ من سلطة البارونات وتعزّز بذلك صغار الملاك. واهتمّ هنري الأوّل بمدينة لندن العاصمة، حيث منحها الإدارة المحليّة الذاتيّة، وأعطى سكّانها حقّ التقاضي في المدينة، وأعطى منتجاتها وبضائعها من

الرسوم الجمركية، فتطوّرت المدينة بسرعة بصناعاتها وتجارتها، وخاصة صناعة وتصدير الأقمشة. (انظر الخريطة رقم (٢)).



المطلب الثاني: أسباب التغيرات الجيوسياسية في القرون الأخيرة من العصور الوسطى

لقد اكتسبت المجتمعات الأوروبية خبرات معرفية وسياسية من التغيرات المتلاحقة في أرجاء القارة الأوروبية، ولكن مع ذلك نجد ملامح عامة مشتركة سيطرت على القارة مثل:

١. السيطرة الواسعة للكنيسة ثقافياً وروحياً مع وجود قاعدة مادية كبيرة، كانت تتحصّل عليها من مصادر متعددة مثل: إقامة الشعائر الدينية وتحويل أموال وأملاك وممتلكات المترهبين للكنيسة، بالإضافة لاستيلائها على أملاك الفارين والمنتحرين والمقتولين والهرطقة والمطرودين، وكان للكنيسة أيضاً أملاك خاصة بها في روما وفي أرجاء أوروبا كلّها. وتأتيها أرباح كبيرة من بيع الوظائف الدينية والسياسية حسب أهمية كلّ وظيفة،

بالإضافة للضرائب السنوية على الأساقفة أنفسهم، ولا تقل أهمية عنها صكوك الغفران التي يحتاجها الناس وفقاً لجهلهم على الأحياء والأموات على حد سواء عن خطاياهم المرتكبة. وكانت الكنائس تتلقى تبرعات كثيرة لتجهيز الحملات الصليبية من الناس والأمراء والأغنياء مع كثير من الهدايا والمنح من الملوك ومن الإقطاع والأغنياء لقاء التقرب من الكنيسة لأهداف متباينة.

٢. سيطرة الجهل وتراجع دور العقل والعقلانية والمحاكمات العقلية، حيث سادت الغيبات بأشكالها المختلفة؛ كالخرافات والسحر والهرطقة، مع انتشار الأمية والفقر واستخدام اللغة اللاتينية في الشعائر الدينية وفي المدارس، وعامة الناس لا تفهم هذه اللغة، مما دفعهم للابتعاد أكثر عن مصادر المعرفة والتربية والتعلم.

٣. لقد أدت الحروب الصليبية، التي امتدت من عام ١٠٩٥ إلى عام ١٢٩١م بحملاتها الثمانية، إلى نتائج أصبحت مقدمة لتغيرات جذرية في القارة حيث: تحسّن الإنتاج الصناعي في أوروبا، وتحسّن وتنوّع الإنتاج الزراعي بإدخال أنواع كثيرة من المحاصيل والأشجار المثمرة، ونشأت صناعات عسكرية تابعة للجيش غيرت فيما بعد بعض المفاهيم العسكرية في الحروب وفي التسليح وفي بنية الجيوش. ومن نتائج هذه الحروب خسارة المسلمين للبحر المتوسط وتحولته لسيطرة المدن التجارية الكبيرة كالبندقية وجنوا ومرسيليا وبرشلونة. وقد قويت سلطة البابا وأصبحت مقدّسة أكثر؛ لأنّه قام بحروب مقدّسة في نظر الأوروبيين، فحصد ثمارها في صكوك الغفران أو قرارات الحرمان من بركة السماء. ولكن في الوقت ذاته قويت سلطات الملوك، وخاصة الذين شاركوا في الحروب الصليبية، وعلى الأخص ملوك فرنسا. ونستطيع القول إنّ الحروب الصليبية في الغالب كانت حروب فرنسا على الشرق فالبابا أوربان الثاني، الذي بدأ بالحروب، كان فرنسيّاً، والمملكة التي أنشئت في الشرق كانت فرنسيّة. وقد أدت الحروب الصليبية إلى زيادة الانقسام بين الدول (الشعوب) التي شاركت في هذه الحروب، وخصوصاً الكبيرة منها؛ كفرنسا وإنكلترا وألمانيا، بحيث جرى الفرز القومي في الميدان أثناء الحروب وتقسيم الغنائم وإقامة المقاطعات وبناء الحصون والتجارة، وقد ترسّخ الانقسام بين الغرب اللاتيني الكاثوليكي والشرق البيزنطي الأرثوذكسي والوصول إلى حالة التصادم في المستويات كافة، الثقافية والاقتصادية والسياسية. وشكّلت

عودة المقاتلين من المشرق إلى أوروبا عمومًا نقلة نوعية في البناء الاجتماعي الاقتصادي. فقسّم من هؤلاء تمّ تحريره بقرار من البابا وضمن حقوقهم وأملأهم حتى يعودوا بالإضافة لإعفاء عموم المشاركين من الضرائب ومن الديون المستحقة عليهم، فكان للعائدين دور مهم في إضعاف النظام الإقطاعي والحد من سلطاته، وشكّل مقدّمة لعلاقات اجتماعية جديدة في المدن الكبيرة أسهمت بالانتقال فيما بعد لدول المدن وسلطاتها وللنظام البرجوازي كقطيعة مهمّة مع النظام الإقطاعي.

وكان من نتائج الحروب الصليبية أيضًا، انقسام المجتمعات الأوروبية إلى طبقات مترابطة مع بعضها، في مقدّمتها الطبقة البرجوازية التي تبوّأت قيادة تلك المجتمعات للتغيير والتنوير والدفع بها إلى الأمام، وظهور طبقة عمّال المدن والمانيفكتورات (الورش والمعامل الصغيرة) التي تُشكّل أغلبية سكّان تلك المدن، بالإضافة للفقراء والمشرّدين. بالمقابل ظهرت عادات اجتماعية مستوردة قائمة على الترف والإسراف في كلّ مجالات السلوك عند الأغنياء (الخدمة البيتيّة في الطعام والشراب واللباس والعطور وبناء القصور وتزيين الجدران وامتلاك الخناجر المطعّمة بالعاج والمرصّعة بالأحجار الكريمة، ومعظمها تمّ استقدامه من المشرق).

٤. الآثار القويّة التي تركتها حرب المائة عام (الحرب الإدواردية) بين فرنسا وإنكلترا ما بين (١٣٣٧-١٤٥٣م) بهدف الحصول على امتيازات أو أراضي داخل فرنسا (بورديو، مقاطعة جاكسوني) استنادًا إلى الإرث الملكي والزواج السياسي، إدوارد الثالث ملك إنكلترا طالب بعرش فرنسا عندما توفي ملكها شارل الرابع (١٣٢٨م) ولم يكن يوجد وريث إلا هو عن طريق والدته إيزابيلا أخت الملك شارل الرابع، وهذه كانت سابقة حيث لا تورث النساء بالحكم، وتمّ تعيين فيليب السادس ابن عم شارل الرابع ملكًا على فرنسا. وقد أدّت العوامل الاقتصادية دورها في هذه الحرب كمحاولة لمنع الإنكليز من خيرات غرب فرنسا المرتبطة بالإنكليز (الزراعة والصيد والتجارة). وقد تعاقب على هذه الحرب الطويلة عشرة ملوك، خمسة فرنسيّون وخمسة إنكليز. وكذلك كان من أسبابها الكساد الاقتصادي الذي أصاب القارة، وسيطرة إنكلترا على القنال الإنكليزي الذي يُشكّل خطورة على البرّ والسواحل الفرنسيّة.

وقد كان لجان دارك (عذراء أورليان) دور مهم في انتصار فرنسا عندما انتصرت على إنكلترا في معركة باتي ١٤٢٩م، ولكنها أُسرت في معركة كومبيين شمال مدينة باريس في عام ١٤٣١م، فاتَّهَمَت بالسحر، وأُرسلت إلى إنكلترا، حيث أُعدمت حرقاً عام ١٤٣٧م. وانتصر الفرنسيون أخيراً في عام ١٤٥٧م (معركة كاستيلون) وانتهت الحرب رسمياً بتوقيع معاهدة بيكوغني ١٤٧٥م، وبقي للإنكليز مقاطعة كاليه على الساحل الفرنسي. هنا يمكن القول بأنَّ الشعور القومي الفرنسي والإنكليزي شكَّل أهمَّ تلك النتائج، وكذلك التأثير الاقتصادي الكبير على إنكلترا، حيث تراجعت الحياة الاقتصادية، وكانت مقدّمة لحرب الوردتين في إنكلترا. ومن نتائجها أيضاً تراجع صلاحيات ملك إنكلترا وتقوية سلطة البرلمان، وتراجع صلاحيات طبقة النبلاء.

ومن نتائجها في فرنسا نهاية مطالبة الإنكليز بالعرش الفرنسي، وبالتالي قويت سلطة العرش وأصبح أكثر استقراراً، فتشكَّلت حكومة فرنسيّة قويّة تتقن الإدارة في عهد شارل السابع، وتمَّ تشكيل جيش نظامي بقيادة ضباط متمرّين، ولم يُسمح للإقطاعيين بدخوله ولا بتشكيل جيوش، ولم يُسمح لهم بدخول فئة الفرسان أيضاً. ومن النتائج المهمة تخصيص ضريبة وطنية لصالح الجيش، وتمَّ في الوقت ذاته دعم الجيش بالمدفعية واستخدام البارود كسلاح جديد إستراتيجي، ولكن حصل التضخّم في الأسعار، وتمَّ تخفيض قيمة العملة عن طريق الغشّ في المعادن التي تُصنع منها.

في إنكلترا كانت النتائج سريعة ومتغيّرة جداً، فبعد الأزمة الاقتصادية بدأت تتطوّر صناعة الصوف وتنمو تجارتها. وفي الجانب الثقافي حلّت اللغة الإنكليزيّة مكان الفرنسية في المحاكم والمراسلات والأعمال الأدبيّة وفي البرلمان نظراً لنمو الإحساس القومي. أمّا على الصعيد السياسي والإداري، فقد ازدادت صلاحيات البرلمان وتقلّصت سلطات الملك، والأهم من هذا كلّهُ، هو تراجع المجتمع الإقطاعي وظهور المجتمع البرجوازي في المدن، حيث الحرّية للأفراد في الحركة والعمل والتعبير.

٥. ومن الأسباب التي أسهمت في التغيّرات الجيوسياسية في أوروبا في النصف الثاني من القرون الوسطى، الشعور القومي عند الشعوب الأوروبيّة مع ما رافقه من انعكاس ذلك

على الكنيسة ذاتها، حيث بدأت بالظهور ما يُعرف بالكنيسة الوطنية، وهي وإن لم تفقد صلاتها وروابطها مع الكنيسة الأم في روما أو القسطنطينية، فإن تلك الروابط بدأت بالضعف، وكذلك دخول الملوك على الخط ذاته لما فيه مصلحة لها بتشجيع الشعور القومي الديني والديوي؛ لأنه يقوي من سلطات الملوك الوطنيين، ويدفع باتجاه تراجع سلطة الكنيسة والإمبراطورية الأوروبية (الرومانية المقدسة)؛ لأن كثيراً ما كان المتحمسون للسيطرة على الكنيسة الأم توجههم أطماع كبرى للسيطرة على أوروبا أو معظمها.

٦. بعد فشل الحروب الصليبية وعودة الجيوش إلى أوروبا، بدأ أمراء الحروب بإقامة إماراتهم وملكيّاتهم داخل القارة على حساب بعضهم البعض، وقد رافق ذلك حروب تبشيرية، ليس ضد الوثنية فقط، بل وضد المذهبية أيضاً.

٧. هجرة أعداد كبيرة من سكان الأرياف إلى المدن والاستقرار فيها، مما أدى إلى ظهور حركة عمرانية كبيرة لاستيعاب تلك الأعداد القادمة، ولنشاط اقتصادي، صناعي وتجاري، مهم في المدن القديمة، أو في إنشاء مدن جديدة على طرق المواصلات البرية والنهرية والبحرية. كل هذا الحراك الكبير أسهم مباشرة، أو مع الزمن، بتراكم المشكلات والقضايا الاجتماعية والاقتصادية، وبالتالي السياسية، وبالدفع نحو الانتقال إلى التغير في علاقات الطبقات الاجتماعية الاقتصادية بما يخدم سلطات المدن.

٨. تشكيل كومونات داخل المدن التي تحررت بقوة السلاح، معتمدة على قوة محلية مكونة من الصناع والتجار وبعض النبلاء، الذين تأذوا من قوى الإقطاع والكنيسة لدرجة أن بعض الملوك والأمراء أيدوا هذه القوى ووطّدوا العلاقات معها، بل وسيطروا عليها، كما حصل في فرنسا. وقد انطلقت هذه الكومونات من إيطاليا إلى باقي المدن الأوروبية. وشكلت هذه الكومونات نقلة اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية داخل المجتمعات الأوروبية. ففي إنكلترا اندمجت كومونات المدن مع بعضها ونتاج عنها تكوين البرلمان الإنكليزي، الذي يُعدّ أهم مكون مدني مقابل السلطة الملكية، والذي جعل من إنكلترا دولة ملكية برلمانية. وفي ألمانيا وإيطاليا كان لتلك الكومونات دور أكبر في المجتمع بسبب غياب سلطات مركزية، لذلك طوّرت بنيتها وشكلت اتّحادات حربية وصناعية وتجارية

ووضعت مجالس قيادية مركزية لها وانتخبت رؤساء لها. والسؤال كيف استطاعت أن توجد لها تأثيراً قوياً داخل مجتمعاتها، والجواب من خلال الخطوات الأربع الآتية:

أ. إنشاء قوات عسكرية تدافع عن المدن ضد أي خطر خارجي.

ب. الإشراف المباشر على الأنشطة الاقتصادية المتنوعة والمتكاملة في المدن، في الصناعة والتجارة والنشاط المالي.

ت. فتح المدارس والاهتمام بالتعليم، الذي يُعدّ أهم عامل في تغيير المجتمع، وخاصة إذا عرفنا أن هذه الكومونات امتدت نحو ثلاث مائة سنة (١١٠٠-١٤٠٠م)، وهذا بالفعل فتح المجال لبناء أجيال تحمل العقلية العلمية والتنوير، الذي أسهم في التقدم الأوروبي وفي تراجع هيمنة الكنيسة.

ث. تنظيم فرض الضرائب على مستوى الدخل وتوجيهها لتأمين احتياجات المدن من الغذاء، وبناء الجسور، وشق الطرق والساحات، وبناء الأحياء الجديدة لاستيعاب الأعداد المتزايدة، وبناء السدود لتأمين المياه للزراعة، وتربية الحيوان والأسماك.

ولكن هذه الكومونات، كأية حركة اجتماعية اقتصادية سياسية، حملت في أحشائها أسباب تفجرها من الداخل، وأهم تلك الأسباب الآتي: تنافس تلك المدن على الأراضي الزراعية البنية لتأمين الاحتياجات الغذائية، إلى درجة الاقتتال فيما بينها. نشوء خلافات قوية على الحدود الإدارية للمدن. التنافس التجاري الحاد ضمن أسواق المدن ومحاولات الهيمنة على الأسواق حسب القوة المادية (المالية) لكل سوق. وجود خلافات حول وضع الضرائب المستحقة على الجسور والطرق، بالإضافة للخلافات العائلية المتوارثة بين المدن. الصراع بين السلطات الدينية (الكنيسة) والدنيوية (الحكام) ملوكاً أو أمراء^[١]. وقد تحولت مجالس بعض المدن إلى إدارات متسلطة ديكتاتورية لتدخلها في تفاصيل الأنشطة الاقتصادية؛ كتحديد الأسواق وأوقاتها وأنواعها والمكايل والمقاييس والعقود والأسعار والنوعية (الجودة) والضرائب، ودخول المحسوبيات والوساطات فيها، مما أدى إلى زيادة البطالة وإعاقة الأنشطة الإبداعية وعمليات الابتكار والمنافسة الحرة.

١- زيتون، عادل، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، مرجع سابق، ص ٤٣١.

٩. تأسيس اتحاد مدني تجاري في عام ١٢٣٠م في ألمانيا بين مدينتي هامبورغ وليوبك، وهو اتحاد تجاري مالي، وتبعته مدن أخرى في شمال غرب ألمانيا، فكانت داخلية أول الأمر ثم أصبحت خارجية لها فروع في لندن وبلجيكا وغيرها من البلدان، وقد سماها الإنكليز بشركة التجار الألمان الشرقيين إيسترلنغ، ومنها اشتق الجنيه الاسترليني، وقد سُمي هذا الاتحاد بالعصبة الهانزية، التي بقيت حتى عام ١٤٥٠م. وكان لهذه العصبة الدور الكبير في نشأة سلطات جديدة لم تكن تعرفها القارة الأوروبية، فاستطاع رأس المال التجاري أن يُشكّل جيوشاً وأساطيل تجارية وعسكرية لحماية خطوط التجارة من القراصنة ومن التدخلات الخارجية ومن تدخلات الملوك والكنيسة، واستطاعت أن تهزم ملك الدانمارك؛ لأنه حاول فرض ضرائب عليها (١٣٤٠-١٣٧٥م). وبذلك أصبحت قوة مميزة قادرة على تغيير حكام وتضع آخرين، خاصة في الدول الاسكندنافية، ولكن كان مصير هذه العصبة التفكك لأسباب تشبه أسباب تفكك الكومونات، ومنها: الصراع بين العصب وسلطات المدن الأخرى، وكذلك الصراع بينها وبين الأمراء الألمان الإقطاعيين؛ لأنّ مصالح هؤلاء متناقضة كلياً مع مصالح العصبة الهانزية. فأعضاء العصبة تجار محاربون يملكون ثروات هائلة وأسواقاً كبيرة، داخلية وخارجية، وهذا يتعارض حتماً مع مصالح الأمراء الإقطاع الذين يعتمدون على الزراعة والتسويق الداخلي والهيمنة على الأرياف.

وكان لظهور الشعور القومي داخل مؤسسات العصبة تأثيره على الوظائف والأرباح والأسواق، بالإضافة للتنافس بين مدن العصبة وفق المصالح الذاتية لكل مدينة وانعكاس ذلك على الأنشطة التجارية الخارجية. وكذلك ظهور دول جديدة مهيمنة تجارياً في معظم أوروبا، كالبرتغال وإسبانيا وفرنسا وإنكلترا وهولندا^(١).

ثانياً- خصائص المجتمعات الأوروبية التي ولدت التناقضات المصيرية لتغيّر الجغرافيا السياسية في القرون الوسطى

إنّ الحديث عن خصائص المجتمعات الأوروبية التي ولدت التناقضات الأساسية في أوروبا ودفعت للتغيير في الجغرافيا السياسية فيها، يضع جملة من الخصائص المتكاملة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً وقياس تبدّلها خلال تسعة قرون من الزمن، لذلك تمّ

١- حاطوم، نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، مرجع سابق، ص ٣٩٧-٤٠٢.

التركيز على أهم تلك الخصائص وعلى دورها الفعّال:

١. انصهار المجتمع الجرمانى الوثني مع المجتمع الرومانى اللاتينى المسيحى وإخراج مجتمع جديد يحمل صفات جديدة أوروبية، وفي الوقت نفسه يحمل تناقضات أساسية استمرّت في القرون اللاحقة، وظهرت آثارها في السلطة وفي نمو الشعور القومى ضمن مكونات هذا المجتمع.

٢. استمرار الصراع السياسى والعقدى وحتى الاقتصادى بين القسم الشرقى من الإمبراطورية وبين القسم الغربى منها لدرجة جعل بعضها يتحالف مع قوى من خارج القارة أو من خارج العقيدة المسيحية.

٣. تبدّل سلطة الكنيسة ودرجة هيمنتها على المجتمع الأوروبى، فقد تراجعت هذه الهيمنة روحياً وسياسياً بعد القضاء على الإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية في عام ٤٧٦م، ثم تطوّرت ونمت بما يتوافق مع مصالح الحكّام وتأسيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة وقدرتها على الهيمنة وفرض سيادتها من جهة، ومع خصائص وقدرات البابوات الذين استلموا الكرسي الرسولى في روما، وقد وصلت إلى عزّها أيام البابا أوربان الثانى، الذى استطاع توحيد قدرات أوروبا وتوجيهها في حروب مدمرة إلى الشرق (الحروب الصليبية أو حروب الفرنجة). ولكنّ العامل الكبير الذى أثر في السلطة البابوية، هو الانشقاق الكبير (١٣٧٨-١٤١٨م) عندما انتخب الفرنسيون البابا كليمنت السابع (١٣٧٨-١٣٩٤م) في مدينة أفينون بتدخل شارل الخامس الملك الفرنسى. ولأوّل مرة يظهر دور العامل القومى في انتخاب البابا، وفي الوقت ذاته انتخب الإيطاليون البابا أوربان السادس (١٣٧٨-١٣٨٩م) في روما.

لقد أدّى هذا الانشقاق إلى نتائج خطيرة على الكرسي البابوى، وإلى تراجع وانحطاط مكانة البابوية ذاتها بل والكنيسة كلّها، وأثر كذلك على الكنائس التى ترعى مصالح الناس في المجتمع الأوروبى، وعمّت الفوضى فيها من خلال تأثير وتلاعب كلّ كنيسة بالأساقفة التابعين لها على أساس شرعية هذه دون تلك، أو أدّى بالنهاية إلى انقسام أوروبا إلى مركزى ثق واضحين فرنس وإيطاليا وتبعات ذلك دينياً وسياسياً. وتمّ أيضاً تشكيل مجمع دينى كنسى ثالث في بيزا

عام ١٤٠٩م، فقام بخلع البابوين في أفينون وروما وتعيين بابا ثالث، ولم تُحل هذه القضية إلا بتدخل ملك هنغاريا سيجموند، الذي كان حاكماً للإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤١١-١٤٣٧م)، فشكّل مجمعاً دينياً جديداً استمرّ أربع سنوات. وبأمر الملك تمّ خلع البابوات الثلاثة وانتخاب بابا جديد مارتن الخامس (١٤١٧-١٤٣١م) من أسرة أرستقراطية معروفة في أوروبا (أسرة كولونا)، وهي الأسرة ذاتها التي كانت سبباً بالأزمة البابوية.

٤. انقسام المجتمع الأوروبي إلى طبقات اجتماعية متباينة، ولكنها متعاركة في الوقت ذاته، فطبقة رجال الدين (الإكليروس) النازمة للقضايا الروحية أولاً، والتي كانت تستقرّ في الأديرة منعقة من مشكلات حياة الناس واهتماماتهم المادية، والقسم الآخر منها ماديّ دنيوي بشدة، وهم الذين يهتمون بقضايا الناس اليومية والأخروية على حدّ سواء في الصلاة والولادة والموت والزواج وغيرها، ويتمثلون بالبابا ورئيس الأساقفة (الكاردينال) والأساقفة والقسّيسين والشمامسة.

وتأتي طبقة النبلاء والفرسان حيث يسيطرون على المجتمع وعلى موارده وأنشطته الاقتصادية وحتى الاجتماعية، ويرأسهم (... يوجد نقص) ثمّ الدوق فالكونت فالمالك الكبير فالإقطاعي، وأخيراً الفارس المحارب.

أما الطبقة الثالثة المهمة في المجتمع، التي تُشكّل الأساس المادي للمجتمع الأوروبي، فهي طبقة الفلاحين المنتجين للغذاء، أساس الاستقرار الاجتماعي، وهذه الطبقة على ثلاثة مستويات وهي: الفلاحون الأحرار والأقنان أو رقيق الأرض والعييد، وهم رقيق البيوت ويعملون في الزراعة عندما يتطلّب الأمر ذلك، وعندما يزداد عددهم وتقلّ أهميّة وجودهم في خدمة المنازل، يُحوّلون إلى الأرض للعمل بها دون مقابل.

لقد شكّل قانون شارلمان بتحديد العلاقة بين السيّد المالك والتابع الذي يعمل عنده أساساً لسيطرة وقوة السلطة الإقطاعية، حيث لا يحقّ للتابع المالك أن يتخلّى عن سيّده إلا في حالة الاعتداء عليه أو على أفراد أسرته أو تحويله إلى قنّ تابع، فأصبحت سلطة الإقطاعي أقوى من بقية السلطات؛ لأنّها مباشرة، فقويت سلطة الطبقة الأرستقراطية على حساب السلطة المركزية ذاتها.

ولعلّ من أهمّ تراجع سلطة الكنيسة هو في ابتعادها عن أهدافها الأساسية الأخروية والاهتمام بأمور الدنيا والسياسة، وعدم قدرتها على مواكبة التغيرات التي حصلت في المجتمعات الأوروبية. في الوقت ذاته فقد تمكّنت بعض العائلات الأرستقراطية والإقطاعية من السيطرة على الكنيسة عموماً، وعلى البابوية خصوصاً، فالبابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٨م) قام بإعطاء أموال البابوية لأقربائه فسارعت عائلة كولونا الأرستقراطية بالسيطرة على أملاك البابا كلّها، فبادلها البابا العمل ذاته وقام بتوزيع أملاك وثروات العائلة على أقربائه.

لقد دبّ الفساد في السلطة البابوية، فاتهمت بالرفاهية والملذات وبيع المناصب، وقد سيطرت عليها فرنسا، فمن ٢٨ كاردينالاً في مجلس الكرادلة، كان ٢٥ منهم فرنسيين، فقرارات البابوية أصبحت في غالبيتها لخدمة السياسة عموماً، والفرنسيين خصوصاً.

٥. لقد أسهمت الحروب الصليبية في تغيير البنى الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات الأوروبية، فمن شارك في تلك الحملات تمّ إلغاء القنانة (عبودية الأرض) عنه. في الوقت ذاته، وبالنظر لقلّة العمّال الزراعيين، فقد قام الإقطاعيون بتحرير العبيد وتحويلهم إلى أجراء يعملون في الأرض لقاء أجر محدّد، ممّا زاد من الإنتاج وحسّن من إنتاجيّة الأرض ومستوى الدخل عموماً^[١]. وأدّت نتائج الحروب الصليبية إلى زيادة الهجرة من الأرياف إلى المدن، وبالتالي الانتقال إلى حالة اجتماعية اقتصادية جديدة.

٦. تعرّض طبقة الفلاحين في أوروبا لتغيرات جذرية دفعت ببعضهم إلى المدن هرباً من ظلم الإقطاع أو لغياب الأمن والاستقرار وتسجيل أراضيهم باسم الإقطاعي لحماية أنفسهم من المخاطر أو من الضرائب، فأصبحوا شبه أقنان يتحكّم بهم الإقطاعي، أو بسبب الجفاف وتدنّي الإنتاج وعدم كفايته لحياة مقبولة، بل إنّ بعضهم وهب أملاكه للكنيسة وانضمّ إلى الأديرة إمّا لغايات عقديّة وإمّا هرباً من مخاطر الحياة والديون.

ثالثاً - ديناميك التغير والحركة في الجغرافيا السياسية للقارة الأوروبية في القرون الوسطى

يُعدّ الحراك الاجتماعي الصاعد وتوجيه هذا الحراك نحو أهداف اجتماعية كبيرة أحد أهمّ المتغيّرات التي أسهمت في تغيير الخريطة السياسية للقارة، فتبدّل حدود الدول والممالك من جهة وقدرة وكوامن القوة في السلطة المركزية، وهنا تمثلها الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ من جهة أخرى، عكس جملة المتغيّرات في القارة بإقامة التحالفات بين الممالك لحماية نفسها أو للتوسّع على حساب ممالك أخرى ضمن مصالح سريعة التغير. وبالتالي كثرة التحالفات، فاتّسمت بعدم متانتها واستمراريتها أو ديمومتها. لذلك كانت السمة السياسية للقارة، هي سرعة التغير وقوة التطاحن ونشوء ممالك وإمارات وزوالها إمّا لأسباب خارجية، ولكنها من القارة ذاتها، وإمّا لأسباب داخلية ضمن أفراد العائلة الحاكمة، فالأخوة تتصارع على السلطة وكذلك الأبناء وحتى الأحفاد مع أعمامهم. مع ذلك كان للعوامل المادية الإنتاجية والتجارية دور مهمّ في تغيّرات الجغرافيا السياسية الأوروبية، ومن أهمّ تلك العوامل الطرق التجارية، وهي على ثلاثة أنواع:

أ. الطرق البرية داخل القارة: وقد كانت في القرون الأولى على درجة جيّدة من المتانة، بالرصف وإقامة الجسور ونقاط المراقبة والأمن، ولكنها أُهملت بعد سيطرة البرابرة على روما، وتعرّضت للتدمير والتراجع من كثرة اللصوص وقطّاع الطرق. ولكن بعد القرن العاشر، عادت تلك الطرق للازدهار وسيادة الأمن فيها، وتكوين فرق للحراسة والمرافقة، وقد توطّدت حالات الأمن مع تكوين سلطات المدن والكومونات وإقامة الأحلاف؛ كحلف الراين والعصبة الهانزية، وبناء الفنادق على الطرق للتجار والمسافرين والخانات للحيوانات وإقامة الكنائس والأديرة، وتحوّل بعضها فيما بعد إلى مدن صغيرة، وظيفتها الأساسية خدمة التجار والمسافرين وعربات الجرّ لنقل الركاب والبضائع.

ب. الطرق النهرية: للطرق النهرية دور كبير في التواصل بين المراكز العمرانية الأوروبية بسبب كثرة الأنهار وصلاحياتها للملاحة وحركة السفن؛ كالدانوب والراين والسين والروور والأوب وغيرها، بالإضافة لشقّ القنوات بين الإقطاعات واستخدام الترع في نقل الركاب والبضائع. ولكن هذا النوع من الطرق يحتاج للعناية الدائمة من التنظيف أو التجمّد وإقامة الموانئ النهرية، بالإضافة

للضرائب التي كان يفرضها الإقطاعيون على التجّار، ولكن شكل التجّار اتّحدات خاصّة بهم لحماية وسائل النقل وصيانة الأنهار والمراسي وبنائها بالشكل المناسب، فالطرق النهرية كانت بالفعل مهمّة جدًّا، وما زالت على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، بل لقد استخدمتها بعض الممالك في وسط أوروبا لتحريك ونقل قوّاتها العسكرية.

ت. الطرق البحرية: هي طرق ذات أفضليّة في النقل والحركة لعدم وجود ضرائب عليها، وهي رخيصة قياسًا للوسائل البريّة والنهرية؛ لأنّها تحمل كمّيات أكبر من البضائع والمواد الأولية وتنقل مسافرين أكثر. وقد ساعد النظام العبودي والإقطاعي بتأمين القوّة البشريّة المحركة لها من العبيد بالإضافة لقوّة الرياح، وقد تمّ تأمين الحماية لها بسفن حربيّة خاصّة أحيانًا من هجمات القراصنة. وقد ظهرت مدن كثيرة بقوّتها البحرية التجاريّة؛ كالبندقية وميلانو وجنوا ومرسيليا وبرشلونة ولندن ولشبونة وهامبورغ وغيرها. وأسهم هذا بظهور أسواق كبيرة في أوروبا كأسواق منطقة الشامانيا في شمال فرنسا ضمن نظام تحدّده البلديات والسلطات في التقسيم والضرائب والأوقات.

ومن العوامل التي أسهمت في التغيّر الاقتصادي وبالتالي السياسي، نشأة المصارف والبنوك، التي بدأت في إيطاليا في مدينتي جنوا (بنك القديس جورج) وفلورنسا ثم انتقلت إلى المدن الأوروبيّة الكبيرة، وجاءت فكرة نشأتها تلبية للاحتياجات التي تكوّنت لأسباب متعدّدة: وجود حقّ لكلّ أمير بصكّ نقود خاصّة به تستخدم في إمارته (مقاطعته) ولا يمكن استخدامها في مقاطعات أخرى، وكذلك نموّ حركة التجارة بين المدن وعدم القدرة على حمل النقود إلى أماكن المبادلات التجاريّة لزيادة وزنها وعمليات الغشّ في المعادن المصكوكة منها، ممّا دفع باتجاه إقامة مراكز ماليّة وابتكار الحوالات والشيكات والكمبيالات كطريقة سهلة تناسب هذا التغيّر في نمط المعاملات التجاريّة. ولكن في الوقت ذاته ظهرت العمليات الربويّة الكبيرة والفوائد التي بدأ باستخدامها اليهود ثم أصبحت عامّة.

ومن العوامل المهمّة أيضًا استصلاح مساحات واسعة جدًّا من الغابات والمروج وتحويلها إلى أراضٍ زراعيّة، فأدّت إلى زيادة الإنتاج والإنتاجيّة الزراعيّة، وهذا مهمّ في الأمن الغذائي للقارة. ولكن مع ذلك، فقد أسهمت عمليّات الاستصلاح في التغيّر الاجتماعي الاقتصادي،

فزادت الحاجة لقوة العمل الزراعية، ولم يكن يوجد بديل لسدّ النقص إلا بتحويل العبيد إلى الأرض، فكانت الضربة القاضية للنظام العبودي والانفتاح نحو النظام الإقطاعي. ولعبت أدوات الإنتاج الزراعيّ الجديدة في الحراثة والحصاد وفي شقّ القنوات النهرية وإقامة السدود واستخدام الأسمدة العضوية في تطوّر الزراعة وزيادة الإنتاج. وقد أدّى ذلك إلى ظهور التخصّص الاقتصادي الاجتماعي، فأصبح للمدن الدور الكبير في خدمة الأرياف من خلال صناعة الأدوات والمعدّات الضرورية الإنتاجية والاستهلاكية على حدّ سواء، ثمّ الانتقال من أسلوب المقايضة إلى تقدير الأثمان بالنقد، وبالتالي نشأة البنوك والحوالات.

إنّ ظهور التخصّص الإنتاجي والخدمي كضرورة اقتصادية واجتماعية، جعل من المدن الكبيرة مراكز تطوّر وإشعاع في المجتمعات الأوروبية. فهي تقوم بصناعة الأدوات الزراعية والمعدّات المرتبطة بها ووسائل البناء والنقل ومراكز العبادة والتعليم والخدمات الاجتماعية الأخرى، وكذلك هي تمثّل أسواقاً لتصريف المنتجات الريفية الزراعية (النباتية والحيوانية)، بالإضافة لتحوّل كثير من المدن إلى موانئ بحرية أو نهريّة أو لعقد مواصلات برية ذات قيمة إستراتيجية تحوّلت فيما بعد إلى أقاليم صناعية كما في شمال فرنسا وفي إنكلترا وألمانيا وهولندا وجنوب البلطيق، فتشكّلت الطبقة البرجوازية الجديدة التي أُنيطت بها فيما بعد عمليات التغيّر الاجتماعي والسياسي في المجتمعات الأوروبية، وبجوارها بالطبع كانت طبقة العمّال المنتجة التي شكّلت ديناميك هذا التغيّر.

وقد كان لتبدّل مسار الصراع الداخلي ضمن المجتمعات الأوروبية دوره في ديناميك التغيّر في الجغرافيا السياسية الأوروبية، فمع تبلور دور المدن الصناعية التجارية عصفّت في تلك المدن قوى ذات فعالية كبيرة، حيث تشكّلت النقابات العمالية ونقابات المدن لتدافع عن مصالح السكّان، خاصّة ضدّ الإقطاع في البداية، واستطاعت أن تُحدث تغييراً عميقاً، ولكنّ الصراع انتقل ليُصبح ضدّ أغنياء المدن والتجار والسيّارة وضدّ زعماء النقابات ذاتها، وقد استمرّ هذا الصراع في القرون الأخيرة من العصور الوسطى ما بين القرن الثالث عشر وحتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية الاكتشافات الجغرافية التي أدّت إلى حالة الانتقال إلى العالم الجديد وتخفيف الاحتقان داخل القارة الأوروبية والتحوّل إلى مراكز جذب بعيدة عن القارة جغرافياً وحضارياً.

الخاتمة

لقد قام هذا البحث برصد عناوين التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في القارة الأوروبية خلال القرون الوسطى لفهم طبيعة التحوّلات والتبدّلات في الجغرافيا السياسية الأوروبية. فبعد القضاء على سلطة روما (الإمبراطورية الرومانية) في عام ٤٧٦م من قبل البرابرة، نشأ الصراع بين الوثنية الجرمانية والمسيحية العقديّة، الممزوجة باليونانية والرومانية، كان النصر فيها للأخيرة، فتشكّل المجتمع الأوروبي باختلاط الثقافتين، وقد كان للكنيسة الدور المهمّ في ذلك التغيّر، ولكنّه كان مدعوماً من ملوك وأباطرة مميّزين حملوا راية التبشير من جهة، والهيمنة والسيطرة على المراكز الكبرى في أوروبا من جهة ثانية، كما حصل مع شارلمان (٧٧٢-٨٠٤م). وقد رافق هذا التبدّل التحوّل الملموس في قوّة الإنتاج من حالة العبيد إلى حالة الأقنان الزراعيين والفلاحين، ولكنّ التبدّل في مكانة الكنيسة ما بين القوّة، التي وحدت أوروبا للدخول في الحروب الصليبيّة، إلى الضعف الذي انتابها في مكانتها وهيبتها بل وقدسيّتها عندما انقسمت بداية بين الشرق والغرب، إلى تأثير الملوك في تعيين البابوات ومجامع الكرادلة، إلى وجود أكثر من بابا، وحتىّ ظهور العامل القومي المؤثّر على الكنيسة (شارل الخامس). وكان للحروب الصليبيّة دور بارز في تغيّر خصائص المجتمعات الأوروبية، فأنهت النظام العبودي وظهر النظام الإقطاعي بقوّة وبسرعة، ولكنّه في الوقت ذاته حمل براثن تبدّله وانهزاه أمام نشوء المدن الكبيرة التجاريّة وظهور الكومونات فيها واكتسابها خبرة ومعارف جديدة في التنظيم والإدارة والاهتمام بالتعليم وبتأسيس الجيوش للحماية الذاتية وفي بناء السدود والجسور وشقّ الطرقات وغيرها، وتطوّرت هذه الحالة إلى إقامة الاتّحادات التجاريّة الكبرى كالعصبة الهانزيّة، التي رافقها بناء الموانئ والأساطيل التجاريّة وما يرافقها من قوّات بحريّة منظمّة لحماية التّجار وأساطيلهم من القراصنة، وقد شابه ذلك على البرّ (اليابس) إقامة الحصون ومراكز المراقبة على الطرق البريّة وحماية التجارة الداخليّة، ثمّ نشأة المصارف والبنوك ومفاهيم الحوالات والشيكات وغيرها من الأمور الماليّة التي رافقتها عمليّات التخصّص الإنتاجي والخدمي وتنظيم العلاقة بين المدن

وأريافها مادياً في الأسواق والصناعة، وثقافياً في التعليم والخدمات الروحية؛ ممّا ساعد في توجيه الحراك الاجتماعي الاقتصادي نحو تغييرات ملموساً في نهاية القرون الوسطى، وأصبح مقدّمة لعصر التنوير الأوروبي والنهضة الأوروبيّة والاكتشافات الجغرافيّة العظيمة، وما أحدثته من تغيير على المستوى العالمي في مجالات المعرفة والتقانة والاستعمار.

لائحة المصادر والمراجع

- ١ - إينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، دار حسان، دمشق ١٩٨٩ م.
- ٢ - حاطوم، نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٢ م.
- ٣ - زيتون، عادل، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، جامعة دمشق، ١٩٨٢ م.
- ٤ - طرخان، إبراهيم علي، دراسات في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٨ م.
- ٥ - عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦ م.
- ٦ - فرح، نعيم، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط ٧، جامعة دمشق، ٢٠٠٧ م.
- ٧ - فرح، نعيم، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، جامعة دمشق، ٢٠١٠ م.
- ٨ - كانتور، نورمان ف، التاريخ الوسيط، قصّة حضارة البداية والنهاية، ج ١، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط ٥، عين الهرم، ١٩٩٧ م.
- ٩ - كانتور، نورمان ف. التاريخ الوسيط، قصّة حضارة البداية والنهاية، ج ٢، ترجمة: قاسم عبده قاسم، القاهرة، ١٩٩٧ م.
- ١٠ - نعمة، غطّاس، نوفل، وضّاح، تاريخ أوروبا وحضارتها في القرون الوسطى، جامعة دمشق، ٢٠١٧ م.

أسباب الحروب الصليبية ودوافعها

٤٩٠-٦٩١ هـ / ١٠٩٦-١٢٩١ م

عمّار محمّد النهار^[١]

مقدّمة

تتجلّى أهميّة دراسة الحروب الصليبيّة (التي دارت بين الغرب والشرق في المدّة بين ٤٩٠-٦٩١ هـ / ١٠٩٦-١٢٩١ م) في تمثّلها في الذاكرة الشعبيّة بشكل كبير؛ إذ ما زالت تُبعث كفكرة يُسمع صداها إلى اليوم، وفي أنّها من أكبر مظاهر العلاقات بين الشرق والغرب، وواحدة من أكثر الأحداث الحاسمة في تلك العصور في كلّ من أوروبا والشرق العربي الإسلامي، لذلك نالت اهتمام كثير من الكُتّاب والباحثين.

ومصطلح (الحروب الصليبيّة) مصطلح حديث، ملأ كتب التاريخ والفكر العربي الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، بل يكاد يكون المصطلح الوحيد الذي يُجمع على استعماله معظم الباحثين في الدراسات الصليبيّة وعلاقات الشرق بالغرب، بينما يندر استعمال المصطلحات الأخرى التي شاعت قديماً^[٢].

وعلى الباحث في تاريخ الحروب الصليبيّة أن يكون حذراً وعميقاً حين يبحث في أسباب هذه الحروب التي شكّلت سلسلة معقّدة وطويلة من الحملات العسكريّة؛ ذلك لأنّ من أسبابها ما كان معلناً، ومنها ما لم يكن معلناً، ومنها ما كان مباشراً، ومنها ما لم يكن بشكل مباشر، كما نظرت إليها أطرافها الفاعلة من مناظير مختلفة، وتخلّلت ذلك تبريرات وتحليلات ووقائع شابتها الإشاعات والتضليلات والغموض.

وزاد الأمور تعقيداً أنّ من اشترك في هذه الحروب هم من كلّ فئات المجتمع الأوروبي المسيحي: من الفرسان الذين ينتمون إلى عائلات نبيلة، ومن الفلاحين والخدم، ومن العامّة،

١- أستاذ في قسم التاريخ، كليّة الآداب، جامعة دمشق، مدير ورئيس تحرير مجلة تاريخ دمشق المحكّمة.

٢- انظر: سمير صالح حسن العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، جامعة الكوفة، كليّة الآداب، ص ١٠٩.

مما أدى إلى تشعُّب أسباب هذه الحروب، وبالتالي ساقنا ذلك إلى إجابات معقّدة أيضاً تبقى موضع جدل ونقاش.

وهذا يعني أنّه ليس ثمة سبب واحد أو عدّة أسباب موحّدة للحروب الصليبيّة؛ إذ إنّ عدداً من الأسباب يكمن وراء كلّ حملةٍ من الحملات الصليبيّة العديدة.

لكنّ أوضح ذرائع انطلاق هذه الحروب كانت قضيّة مدينة القدس، وهي المدينة التي تترسّخ في الذاكرة الدينيّة للكثيرين؛ فاليهود يدّعون أنّ الملك سليمان قد بنى الهيكل فيها، ويقول المسيحيّون إنّ فيها مهد المسيح ﷺ وفيها صُلب، وهي تشكّل بالنسبة للمسلمين محلّ صعود سيّدنا محمّد ﷺ إلى السماء في رحلة الإسراء والمعراج.

ويمكن القول إنّ أصول هذه الحروب نتجت من الأوضاع الدينيّة والاجتماعيّة والفكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة التي سادت في غرب أوروبا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ورجّح كثير من المؤرّخين الشرقيين والغربيين أنّها اتخذت من الدين ستاراً لها لتحقيق أهدافها وأطماعها في بلاد المسلمين.

لذلك يرى جوزيف نسيم يوسف، وهو أحد أبرز من أرّخ للحروب الصليبيّة، أنّ الحروب الصليبيّة كانت تهدف منذ البداية إلى التوسّع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينيّة، وأنّ غرضها الحقيقي هو الاستيلاء على الشرق، وخاصّة فلسطين، بالقوّة المسلّحة، وتأسيس مستعمرات لاثنيّة لها، ثمّ العمل على تعزيز هذه المستعمرات، وتوسيع حدودها، والمحافظة عليها بشتّى الطرق والوسائل، حتّى تكون رأس جسر لأهل الغرب الأوروبي، يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربي الإسلامي وكسر شوكتهم؛ ضماناً لبقاء نفوذهم في المنطقة^[١].

ومع ذلك، فإنّ الحروب الصليبيّة، منذ بدايتها، هي نتاج لمجموعة عوامل متشابكة ومعقّدة إلى أقصى الحدود، وهي ظاهرة بالغة التعقيد، ومن ثمّ فإنّ أيّ محاولة لتفسيرها في ضوء عامل واحد أو مجموعة عوامل محدّدة، مثل التديّن العاطفي والحماسة الدينيّة، أو جوع زعماء الصليبيين إلى الأرض، أو الأحوال والظروف الاجتماعيّة التعيسة التي عاش في

١- انظر: جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات البقطة العربيّة إبّان العدوان الصليبي، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، ١٩٨٨م، ص ٨.

ظَلَّهَا الفلَّاحون وفقراء أوروبا، أو أطماع تجَّار المدن الإيطاليَّة في الحصول على الامتيازات التجاريَّة، أو المآرب السياسيَّة للبابويَّة، أو الطموح الشخصي، وما إلى ذلك، هذه المحاولة سيكون مصيرها الفشل كما رأى قاسم عبده قاسم، وهو أحد أهمَّ مَنْ أرَّخ وترجم للحروب الصليبيَّة، على الرغم من أنَّ هذه العوامل جميعًا كانت بالفعل من بين العوامل والأسباب التي أدَّت إلى انطلاق الحروب الصليبيَّة.

فالحروب الصليبيَّة عبارة ذات مدلول غامض بالنسبة للكثيرين، فالصورة التي تتمثَّلها أذهان عامَّة المثقَّفين في الغرب الأوروبي عن الحملات الصليبيَّة، وهي صورة ليست صحيحة جملة وتفصيلاً، عبارة عن صورة فرسان بواصل، ألُهبَتهم الحماسة الدينيَّة والشوق لتحرير قبر المسيح والأماكن التي شهدت قصَّته على الأرض من أيدي المسلمين، ويتصوَّر الكثيرون أنَّ هؤلاء الفرسان فارقوا الأهل والوطن، وانطلقوا فوق جيادهم يشنون حرباً مقدَّسة ضدَّ العرب ذوي البشرة الداكنة الذين يفرَّون أمامهم في جبن وتخاذل.

ولم ينشأ المفهوم الشعبي في الغرب عن الحروب الصليبيَّة من فراغ، وإنَّما نشأ من الدعاية التي روَّجتها البابويَّة ورجال الكنيسة الكاثوليكيَّة ضدَّ المسلمين من ناحية، والشعر الشعبي الذي تناول الحروب الصليبيَّة من ناحية ثانية، ثمَّ كتابات مؤرِّخي الحروب الصليبيَّة اللاتين من ناحية ثالثة^[١].

لكلِّ ما ذكرنا، تبيَّن صعوبة الخوض في استكشاف أسباب الحروب الصليبيَّة الحقيقيَّة ودوافعها، فمَنْ ينظر لها من حيث الظاهر تظهر له الأسباب الدينيَّة، ومَنْ يدخل إلى تحليل أوضاعها تتوضَّح له أسباب أخرى تتعلَّق بقضايا سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة، ومَنْ ينظر إلى واقع تفصيلي آخر، فستظهر له أسباب أخرى تتعلَّق بالواقع الإقطاعي والاستيطاني وموضوع الهجرة، ومَنْ يبحث في التآثرات فسيقف على أسباب حضاريَّة، وهذا ما جعل هذه الإشكاليَّة بالغة التعقيد.

وقد حاولت في هذا البحث أن أخوض في المصادر والمراجع والروايات وتفاصيل الأحداث ورؤى المؤرِّخين؛ لأشكِّل منها بحثاً مقبولاً قدر الإمكان، ولأخرج بأقرب صورة

١ - انظر: قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبيَّة الأولى، نصوص ووثائق تاريخيَّة، عين للدراسات والبحوث الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، ٢٠٠١م، ص ٥-١٣.

ممكنة عن أسباب هذه الحروب ودوافعها، منتهجاً التوسّع بحسب الحاجة، وضاماً جهدي إلى جهود مَنْ سبقني، وواضعاً هذا البحث مع الأبحاث التي تناولت الموضوع نفسه، ليكون بين أيدي الباحثين والمهتمين. والله من وراء القصد.

أولاً: الأسباب الدينية

لعلّ أوضح أسباب للحروب الصليبية هي الأسباب الدينية؛ إذ جاءت بخطابات واضحة وبأعمال عملية جلية قام بها الصليبيون وقادتهم، وأخذت هذه الأسباب أشكالاً مختلفة وصوراً متنوّعة، فمنها ما كان بصورة مباشرة، ومنها ما كان بصورة غير مباشرة.

١. الأسباب الدينية المباشرة

يمكن الحديث عن هذه الأسباب من عدّة جوانب، ومن هذه الجوانب ما يتعلّق بعملية الإحياء الديني التي قامت في أوروبا في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وبلغت ذروتها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فكانت الحرب الصليبية انتفاضة كبرى نتجت عن ذلك، وخاصة أنّ الحركة الكلوينية^[١] في حقيقة أمرها حركة إحياء ديني بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، ترتّب عليها عودة البابوية الى سطوتها القديمة، وإثارة نوع من الحماسة الدينية في الغرب بوجه عام، الأمر الذي ترتّب عليه ظاهرة الحجّ الجماعي للأراضي المقدسة.

وبالتالي، ومن هذا الجانب، يمكن القول إنّ الحروب الصليبية ليست إلّا استمراراً لظاهرة الحجّ الجماعي لبيت المقدس، مع حدوث تطوّر في الأسلوب، وهو أنّ الحجّ أصبح حريّاً بعد أن كان سلمياً^[٢].

لذلك نرى أنّ كثيراً من المؤرّخين الذين كتبوا عن الحروب الصليبية، أوردوا تفاصيل مهمّة عن ادّعاء البابوية بأنّ دوافع وأسباب الحروب الصليبية هي الدوافع الدينية^[٣].

وهنا علينا ألاّ ننسى أنّ الحروب الصليبية هي وجه من وجوه السياسة الخارجية للبابوية،

١ - جماعة كلوني من الحركات التي بدأت حركة الإصلاح الديني، نسبة إلى دير كلوني، إذ أسّست أديرة جديدة كان الهدف منها إعادة الرهبة إلى أصولها وإحياء المثل العليا للرهبنة.

٢ - محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م، ص ١٣.

٣ - انظر عن ذلك: سعيد عبد الفتّاح عاشور: الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط ٢، ١٩٧١م، ج ١، ص ٢٧-٣٤.

لما تقوم به من توجيه رعاياها المخلصين إلى الحرب الكبرى التي تخوضها المسيحيّة ضد أعدائها.

وقد أدّت هذه الحركة الدينيّة إلى تقوية مركز البابويّة وإثارة الحماسة الدينيّة في نفوس الناس، الأمر الذي جعل البابويّة تطمح في السيطرة على العالم النصراني عن طريق الكنيسة، وعن طريق ضمّ الكنيسة الشرقيّة واحتلال الأماكن المقدّسة في فلسطين^[١].

ومن جانب ثانٍ؛ تُعدّ الحروب الصليبيّة فصلاً من أهمّ الفصول في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، وعدّها المعاصرون لها في مظهرها الأوّل حروباً مقدّسة، وطريق الحاج إلى كنيسة القيامة قبر المسيح، على أنّ العين الفاحصة للمؤرّخ لا بدّ أن تعدّها في مظهرها الثاني صورة عن العلاقات بين الشرق والغرب، ولم تكن أقلّ أهميّة عن المظهر الأوّل.

فإذا جرى عدّ الحروب الصليبيّة حرباً مقدّسة، فلا بدّ من تفسيرها بمقتضى أفكار العصر الذي تغلب عليه الروح الدينيّة، والتعلّق بالحياة الآخرة.

ويصحّ عدّ الحروب الصليبيّة مرحلة من مراحل الإصلاح الديني للمقاتلين من العلمانيين، فإذا وجّهت الفروسيّة الرجل العلماني للدفاع عمّا هو حقّ، فإنّ التّبشير بالحروب الصليبيّة إنّما وجّهه أيضاً لمهاجمة ما يعدّه شرّاً، وهو امتلاك المسلمين لقبر المسيح، لذلك قامت الحروب الصليبيّة بحماية أوروبا من الإسلام الذي نهض على يد الأتراك السلاجقة خاصّة^[٢].

ورأى بعض المؤرّخين أنّ السبب الديني هو الذي حرّك البابا جريجوري السابع (٤٦٦-٤٧٨هـ/١٠٧٣-١٠٨٥م) ثمّ البابا أوربان الثاني (٤٨١-٤٩٣هـ/١٠٨٨-١٠٩٩م) لإنهاء الدين الإسلامي؛ لأنّ ما يحمله من مبادئ الحريّة الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة لا تتناسب وأفكار الكنيسة^[٣].

وذهب مؤرّخون آخرون إلى أنّ الحروب الصليبيّة كان المقصود بها بالدرجة الأولى مسيحيي المشرق وليس مسلميه؛ لأنّ هؤلاء المسيحيين رفضوا الانصياع إلى بابويّة روما؛

١- عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبيّة، الرياض، ١٩٩٤م، ص ٢٣.

٢- أرנסت باركر: الحروب الصليبيّة، ترجمة: السيّد الباز العريني، بيروت، دار النهضة العربيّة، ط ٢، ١٩٦٧م، ص ٩-١٣.

٣- تيسير بن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبيّة حتّى وفاة نور الدين، الدار العربيّة للكتاب، ١٩٨٣، ص ٤٥-٤٦.

لأنهم -برأيهم- أكثر حضارة وعلمًا من جهلاء روما وغيرها من مدن أوروبا الغربية^[١].

وهنا يقول المؤرخ الفرنسي شاتوبويان: «إنَّ الحروب الصليبية كانت فاتحة النهاية للدين المسيحي في أوروبا»، ولكن إذا توقّفنا عند هذا القول بدقّة، فسرى أنَّ الحروب الصليبية لم تكن نهاية الدين المسيحي، بل كانت بداية النهاية لسيطرة البابوية والكنيسة عمومًا على مقدّرات أشياخ الدين المسيحي سياسيًا واجتماعيًا، فقد تمخّضت هذه الحروب عن شقّ الأوروبيين عصا الطاعة على رجال الكهنوت البابوي والكنسي عمومًا^[٢].

وكانت الحروب الصليبية انعطافًا خطيرًا في تاريخ الغرب الأوروبي، لذا كانت تلك الحملات الصليبية التي دارت على نطاق واسع، سواء من حيث إطارها الزمني، أو من حيث مجالها الجغرافي، أو من حيث أعداد المشاركين فيها؛ أوّل حرب يخوضها الغرب تحت راية أيديولوجية، إذ كانت الحملة الصليبية الأولى مشروعًا كنسيًا سعت البابوية من خلاله إلى تحقيق الأهداف الكنسية المتمثلة في فرض سيطرتها على المسيحيين في الشرق، وإنهاء الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، وتوحيدهم تحت سيادة البابا^[٣].

ومن جانب مشابه؛ كثرت في ذلك الوقت الأقوال والرؤى والتنبؤات والادّعاءات والخرافات، وأصبح من الطبيعي أن يدّعي أيّ شخص رؤية المسيح يأمره بتحرير قبره في بيت المقدس، فيصدّقه الناس؛ لأنّ نفوسهم كانت مهتأة لقبول مثل هذه الادّعاءات والخرافات^[٤].

وكان رجل العصور الوسطى يعتقد في قرب القيامة وضرورة الاستغفار، وانتاب الأوروبيين شعور عام بالندم والذنب، نتيجة لما مارسوه من حياة بعيدة عن أجواء الأديرة والكنائس، وأقبلوا على أمكنة العبادة ينشدون التكفير عمّا اقترفوه من آثام^[٥].

ولكن كيف لأحد أن يعدّ الحروب الصليبية في المشرق العربي الإسلامي حملات حجّ،

١- ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص ٥١.

٢- ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص ٤٥.

٣- رواية روبر الراهب عن مجمع كليرمونت، رواية جيويرت النوجتي عن مجمع كليرمونت، ترجمة: قاسم عبده قاسم، نصوص ووثائق، ص ١٤-١٥.

٤- عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٢٢.

٥- ستيفن رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م، ج ١، ص ١٨٠-١٨٢.

كما قال أصحاب هذا الرأي، فالصليبيّون جاؤوا بجيوش جرّارة تحت قيادات سياسيّة ودينيّة، حملت معها من السلاح ما حملت، ومن المعروف أنّ حملات الحجّ تكون حملات سلميّة لا يحمل فيها الحجاج معهم غير ما يدفع عنهم مخاطر الطريق. وهنا جاءت تفاصيل هذه الحروب لتدلّ أنّ هذه الحملات ذات الأعداد الكبيرة، وذات الدوافع الدينيّة الواضحة، هي التي دعّتنا إلى القول بأنّ الحروب الصليبيّة كانت استمراراً لحملات الحجّ الكبرى المألوفة لا يفرّقها عن غيرها سوى كثرة العدد والعتاد^[١].

ومن جانب آخر؛ أرادت الكنيسة استغلال الأعداد الكبيرة المتزايدة في أوروبا بدفعها خارج البلاد، وتهيجها عن طريق تضخيم أخبار المسلمين (عبدة الشيطان) على حدّ زعمهم، وادّعاء الاضطهاد للحجّاج المسيحيين، وفرض الهدنات المقدّسة بين المسيحيين الأوروبيين في معظم أيّام السنة من قبل المسلمين، وفرض سيطرة البابويّة فوق الملوك في أوروبا^[٢].

وإذا انتقلنا إلى أدلّة التحليلات السابقة، فسنجد أنّه وبحلول القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كان الغرب الأوروبي يتّجه نحو إرسال حملات كبرى لاسترداد بيت المقدس من المسلمين، فلم ينقطع أباطرة الدولة الرومانيّة الشرقيّة عن طلب النجدة العاجلة من البابويّة ضدّ السلاجقة المسلمين^[٣].

وانتهز الإمبراطور البيزنطي فرصة عقد مجمع ديني يرأسه البابا في بياكنزا بشمال إيطاليا سنة (٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م)، فأرسل بعثة من القسطنطينيّة لحضور المجمع، فطلبوا مساعدة البابا، وأبلغوه أنّ السلاجقة لا يهدّدون الدولة البيزنطيّة وحدها، بل يهدّدون المسيحيّة جمعاء، وفي هذا المجمع أعلن البابا فكرة الحروب الصليبيّة^[٤].

ثمّ انعقد المجمع الديني في كليرمونت في تشرين الثاني سنة (٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م)،

١- انظر الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبيّة، ص ٢٧-٢٩. عاشور: الحركة الصليبيّة، ج ١، ص ٢٢.

٢- شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٣ م، ص ٦٩٠ وما بعد.

٣- عاشور: الحركة الصليبيّة، ج ١، ص ١٢٩-١٣٠.

٤- عاشور: الحركة الصليبيّة، ج ١، ص ١٣١-١٣٢. عمران: تاريخ الحروب الصليبيّة، ص ٢١.

وانقضت الأيام التسعة الأولى في مناقشة المسائل الكنسية المتعددة^[١].

وعندما سمع البابا أوربان الثاني أنَّ السلاجقة سيطروا على المناطق الداخلية من أراضي بيزنطة، وأنَّ المسيحيين خضعوا «لشعب متوحش هدام، هزته مشاعر التقي والورع، واجتاز مدفوعاً لمحبة الله الجبال هابطاً إلى أراضي فرنسا»؛ دعا إلى مجلس يُعقد في مدينة كليرمونت، فتقاطرت على المؤتمر جموع من الأمراء ورؤساء الكنائس ووفود الملوك^[٢].

واجتمعوا في الجلسة العاشرة من هذا المؤتمر في قصر المدينة، وكان بطرس السائح جالساً بجانب البابا، وهو الذي فتح الخطاب معدداً المصاعب التي يعاني منها أهالي بيت المقدس قائلاً: إِنَّه شاهد هناك المسيحيين مقيدين بالسلاسل الحديدية، ورأى قبر المسيح محتقراً مهاناً، وإنَّ زوّاره يتكبّدون الدُّل^[٣].

ثم ألقى البابا أوربان الثاني خطاباً أثار فيه حماس الجماهير، وأشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المهدق بأوروبا من جهة القسطنطينية، وأعلن أنَّ النصارى في الشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأنَّ الكنائس والأديرة أصابها الدمار، وحثَّ الحاضرين والأوروبيين عامة على الانتقام من المسلمين^[٤].

وكان من أكبر المحرّضين على سير الحملة الصليبية الأولى: بطرس الناسك، وكان قد عكف على التّعبد في جوار القبر المقدّس، ثم قرّر أن يُشرّ في جميع البلدان اللاتينية، ويعلن بأنَّ هاتفاً سماوياً جاء يأمره أن يعلن إلى جميع أمراء فرنسا أنَّ عليهم مغادرة أوطانهم والسفر والتّعبد في كنيسة القيامة، وأنَّ يبذلوا نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من «أبناء هاجر»^[٥].

١- عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٣٢.

٢- انظر ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م، ص ٤٣. فوشيه الشارترى (ت ١١٢٧هـ/ ١١٢٧م): تاريخ الحملة على القدس (١٠٩٥-١١٢٧م)، ترجمة: زياد العسلي، عمّان، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٣١. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٣١-١٣٢.

٣- سعيد الحريري: الأخبار السنّة في الحروب الصليبية، القاهرة، الإعلام العربي، ط ٣، ١٩٨٥م، ص ٢٠.

٤- الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، ص ٢٥-٢٦.

٥- آنا كومنينا (ت ١١٥٤هـ/ ١١٥٣م): الأليكسياد، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م، ص ١٠-١١.

وقد وعد البابا «المناضلين في سبيل الإيمان» باسم الربّ العليّ بغفران الخطايا، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون في المعارك ضدّ الكفّار بالشواب الأبدية، ووعدهم بالثروات في الشرق فإنّها تسيل عسلاً ولبناً، وقال إنّ الحملة الصليبية تتساوى مع الحجّ في طلب الغفران والتكفير عن الذنوب^[١].

وكانت الاستجابة التي لاقاها البابا وبطرس الناسك كبيرة جدّاً، إذ تجمّع الفرنجة من جميع الأطراف، ومعهم أسلحتهم وخيولهم، وتقاطرت الحشود على الطرقات واندفعت بكلّ حماس، وانضمّ إليها عدد كبير من أهالي المدن حتّى فاقت أعدادهم الخيال^[٢].

ثمّ استقرّ الرأي أنّ يحيك كلّ محارب صليباً من القماش الأحمر على رداءه الخارجي من ناحية الكتف؛ رمزاً للحركة التي اشترك فيها^[٣].

ومن ناحية ثانية تُعبّر عن السبب الديني، ذكر المؤرّخون أنّ جودفري الرابع هو البطل الرئيس في الحرب الصليبية، وقد نسبوا إليه غير دينيّة خاصّة، وشجاعة شخصيّة مدهشة، وكفاءات بارزة كقائد عسكري يتمتّع باحترام جميع العساكر، وشبّهوه -من حيث القوّة والضراوة في القتال والإلهام- بالبطل هكتور في ملحمة هوميروس^[٤].

وقد تكلم ابن القلانسي على إعلان الغرب للجهاد ضدّ المسلمين، فقال: «تواصلت الأخبار من ناحية القسطنطينيّة وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملك الفرنج من بلادهم ... في العدد الذي لا يحصر والعدد التي لا تحزر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلمهم بالنفير إليها، والإسراع نحوها ... واستصحبوا من أموالهم وذخائرهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يُحصى»^[٥].

١- يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠١م، ص ٣٤-٣٥. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٤٥.

٢- آنا كومنينا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١.

٣- آنا كومنينا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٣٤-١٣٦. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٨-٤٠. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦.

٤- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٦٠. تكوّنت حول جودفري أسطورة بعد نجاح الحملة الصليبية، وكان وليم الصوري هو الذي نقل لدينا الصورة الكاملة لهذه الأسطورة.

٥- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥هـ): ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط ١، ١٩٠٨م، ص ٢٩٧.

على أنَّ الصورة الأوضح للوجه الديني تجلَّى في الدعاية الصليبيَّة التي أدَّت دوراً بارزاً في استشارة وتحريض الغرب الأوروبي لإرسال هذا الدعم العسكري الكبير للصليبيين في الشرق عقب الاستيلاء على بيت المقدس، وهي دعاية دينيَّة تُشكِّل «أصل دينهم» كما عبَّر ابن شدَّاد^[١]، ونقل لنا هذه الدعاية الدينيَّة المؤرَّخ ابن الأثير بقوله: «ثمَّ إنَّ الرهبان والقسس وخلقاً كثيراً من مشهورهم وفرسانهم، لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً، ويستجدون أهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثأر بيت المقدس، وصوَّروا المسيح عليه السلام، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمَّد نبيَّ المسلمين، وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشروا وحشدوا حتَّى النساء»^[٢].

وإذا أردنا أن نكون دقيقين وواقعيين (كما يقول شاكر مصطفى)، فيجب أن نشير إلى أنَّ الحروب الصليبيَّة لم تكن لأسباب دينيَّة خالصة، بل دليل أنَّ الحملة الصليبيَّة الرابعة توجَّهت إلى القسطنطينيَّة المسيحيَّة، كما أنَّ أحد أسبابها الرئيسيَّة، وهو تخليص القبر المقدَّس في فلسطين من أيدي المسلمين، لم يكن لوحده سبباً رئيساً، بل دليل أنَّ أربعاً من الحملات الثماني، قد اتَّجهت وجهات أخرى: اثنتان إلى مصر، وواحدة إلى القسطنطينيَّة، والأخيرة إلى تونس.

ولم يكن أيضاً أحد أولويَّات أسبابها نشر الديانة المسيحيَّة في أراضي الإسلام فقط، بل دليل أنَّها بقيت مئتي سنة مطوَّقة معزولة في المواقع الأولى التي احتلتها^[٣].

٢. حرب صليبيَّة (الصليب)

تُعَدَّ تعابير (الحروب الصليبيَّة والحملة الصليبيَّة The Crusades) ومشتقاتها، الأكثر شيوعاً منذ القرن التاسع عشر، بل يكاد يكون المعبَّر الوحيد عن أهداف ومعنى الحروب التي

١- ابن شدَّاد، بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ): النوادر السلطانيَّة والمحاسبة اليوسفيَّة، دار المنار، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ٩٩.

٢- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٧م، ج ١٠، ص ٦٩. وانظر: ابن شدَّاد: النوادر السلطانيَّة، ص ٩٨-٩٩. ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ): مقدِّمة ابن خلدون مع التاريخ، ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠١م، ج ٥، ص ٣٧٩.

٣- مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ص ٦٩٠ وما بعد.

شَّهَّا الغرب المسيحي على المشرق العربي الإسلامي، حتَّى لو استعملت عناوين أخرى، فلا يمكن لأحد إلَّا أن يستخدم كلمة الحروب الصليبية-الصليبي في الكتابات والترجمات.

وارتبط المفهوم بالصلب -الذي يتمتّع بقدسيّة في الفكر المسيحي- منذ القرون الأولى لظهور وانتشار المسيحيّة، بعدما كان له دور في تنصير الإمبراطور قسطنطين واعترافه بالمسيحيّة كديانة رسميّة في الإمبراطوريّة الرومانيّة، ثمّ ما قامت به أمّه هيلانة بإيجاد الصلب المقدّس وبناء كنيسة القيامة، فتحوّل الى رمز للمسيحيين، فكان لا يغيب عن المراسيم والاحتفالات الملكيّة، وكانت إهانة هذا الرمز هو إهانة للمسيحيين جميعاً.

ثمّ كان الصلب حاضراً في الصراع الإسلامي البيزنطي، وهو أمر طبيعي للدلالات المعنويّة لمثل هذه الأمور على نفوس الجند، وحافظ الصلب على قدسيّته ورمزيّته حتّى بعد أن سيطر المسلمون على الأماكن المقدّسة المسيحيّة، كبيت المقدس وأنطاكية والإسكندريّة^[١].

لذلك فإنّ إشارة البابا أوربان الثاني في خطاب مؤتمر كليرمونت (١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ) إلى التّوسم بالصلب، هو لإعطاء الجيش حامل الصلب قوّة معنويّة واندفاعاً حماسياً للتّوجّه إلى بيت المقدس.

ولم تظهر عمليّة التّوسم بالصلب (Crusade) إلّا بعد مؤتمر كليرمونت، إذ تحوّلت إلى ظاهرة لها معناها، وهي التّوجّه لقتال المسلمين، ثمّ تطوّرت ظاهرة (التّصلّب)، ممّا جعل مشتقّات كلمة الصلب تستعمل مع الحجّ والحجّاج، فصارت: «الحجّ الصليبي» و«حملة الحجّاج الصليبيّة»^[٢].

أمّا عن ظهور مصطلح الحروب الصليبيّة - Crusades، فيُعدّ ظهور هذا المصطلح في أواخر القرن السابع عشر في فرنسا نقطة تحوّل مهمّة في الدراسات (الصليبيّة)، وهو ليس

١- الباز العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٦٨، ص ٧٣-٧٦. حبيب زيات: الصلب في الإسلام، الكنيسة البولسيّة، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥، ص ١٠. سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٢٩. ٢- سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٢٩-١٣٠. مؤلف مجهول: أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس، (كتب الكتاب حوالي ٤٨٩-٤٩٣هـ/ ١٠٩٥-١٠٩٩م)، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٧. زيات: الصلب في الإسلام، ص ٣٤. جوفنيل، القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٣١١-٣١٢.

من قبيل المصادفة، بل هو استمرار تأثير الحروب في الذاكرة الفرنسية، فالحروب بدأت الدعوة إليها في كليرمونت (فرنسا)، والبابا الذي دعا إليها فرنسي (أوربان الثاني)، ومعظم المشاركين في الحروب طوال قرنين من ملوك ونبلاء وعامة كانوا فرنسيين.

على كل حال، فإنَّ مبتدع هذا المصطلح (الحروب الصليبية) هو لويس ممبرور، وكان فرنسيًا أيضًا، فأعطى المصطلح عام (١٠٨٦هـ / ١٦٧٥م) مغزى دلاليًا أثر في نفوس الأوروبيين لارتباطه بالصليب.

وقد ظهر هذا المصطلح بلغة تقبلها الفرنسيون أولاً ثم الأوروبيون ثانيًا، وجاء بتأثير الحركة الأدبية الفرنسية، وقيام (حركة الصالونات الأدبية) التي من ميزات استعمال لغة اصطلاحية في نقاشاتها تسود فيها العبارات المزخرفة والرموز الأخلاقية.

وانتقل المصطلح Croisade الفرنسي بسبب التأثر بنموذجه إلى اللغات الأوروبية في القرن الثامن عشر، مثل الإنكليزية والألمانية، ففي إنكلترا تُرجم ممبرور إلى الإنكليزية سنة (١٠٩٨هـ / ١٦٨٦م)، ومنه دخل المصطلح إليها^[١].

وقد أثر الصراع الإسلامي المسيحي الأوروبي بتعزيز مكانة المصطلح في نفوس الأوروبيين، وذلك من خلال الدور الذي قامت به الدول الأوروبية (البرتغال - إسبانيا - هولندا - بريطانيا - فرنسا) ضد المسلمين، سواء في المغرب العربي والجنوب حتى الهند، إذ حاولت هذه الدول نشر المسيحية (الصليبية) بحسب مذاهبها، مع نشر نفوذها العسكري والسياسي، وكان النموذج البرتغالي هو الذي أخذت به الدول الأوروبية التي تلتها في أفريقيا، وسميت سياستهم وعملتهم (crusado) لوجود علامة الصليب عليها^[٢].

وعمليًا، نأتي إلى البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت وقضية الصراع مع الآخر

١ - سميح العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٣٠-١٣٢. فرديناند شيفل: الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت، ١٩٥٢، ص ٥٤-٥٦. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٤. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٣، ص ١٢. بول هازار: الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من منتسكيو إلى لسينج، ترجمة: محمد غلاب، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٩٨-١٩٩.

٢ - سميح العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٣٢-١٣٣. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٤.

والصليب، وخطابه في هذا المجمع الذي كان أقوى الخطب شهرة في تاريخ العصور الوسطى، وفيه أثار حماس الجماهير، وأشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المهدد بأوروبة، وبعد أن نجح بإلهاب حماس المحتشدين من آلاف العامة والنبلاء والرهبان والنسك، استقرّ الرأي على أن يحيك كلّ محارب صليبيًا من القماش الأحمر على رداءه الخارجي من ناحية الكتف رمزًا للحركة التي اشترك فيها، «وإنّ كلّ من يضع هذا الصليب بغية المشاركة في الحرب المقدسة، عليه أن يتّجه فوراً إلى الشرق، فإنّ تردّد وعاد دون أن يؤدّي واجبه أو أظهر تقاعساً عن تأدية ذلك الواجب، فإنّه يتعرّض لعقوبة الحرمان»^[١].

يقول فوشيه الشارترى: «كم كان مناسباً ومفرحاً لنا جميعاً أن نرى كلّ هذه الصلبان المصنوعة من الحرير والقماش المذهب أو غيره من الأقمشة الجميلة التي قام بها الحجاج، سواء من الفرسان أو غيرهم من العلمانيين والكنسيين، بخياطتها على أكتاف ستراتهم، وقد فعلوا هذا بأمر من البابا أوربان الثاني عندما أقسموا على الرحيل»^[٢].

٣. حرب مقدّسة

الحرب المقدّسة هي إحدى مسمّيات الحرب التي أطلقها الغرب الأوروبي على الإسلام، وذلك منذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تقريباً.

ويرتبط مفهوم الحرب المقدّسة بالحجّ^[٣]؛ لأنّ البابويّة لم تجعل الحجّ مسلّحاً إلّاّ لتحريضها الناس على التوجّه الى فلسطين لتخليصه من (الكفّار)؛ أي المسلمين، وفي خطاب كليرمونت برواية روبرت الراهب (الذي قيل إنّه اشترك في الحملة الصليبيّة الأولى، وشهد الاستيلاء على بيت المقدس) بين البابا أوربان الثاني ما تعرّض له المسيحيّون في الشرق من قتل وإذلال، ثمّ قال: «فعلى من إذن تقع مهمّة الانتقام من هذا، ومهمّة الخلاص

١ - المؤرّخ المجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ج٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م، ج٦، ص٧٨. أنا كومنين: الألكسياد، ج٦، ص١١. الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص٣١-٣٥. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٣٨-٤٠. الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبيّة، ص٢٠.

٢ - الشارترى، تاريخ الحملة على القدس، ص٣٧-٣٨. وانظر: سميث، جونانان رايلي: الحملة الصليبيّة الأولى وفكرة الحروب الصليبيّة، ترجمة: محمّد فتحي الشاعر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩، ص٤٩.

٣ - سنتحدّث عن الحجّ في فقرة مستقلّة.

من هذا الموقف، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا مَنْ اختاركم الربّ دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد في السلاح، وجسارة في القلب، وقوّة الجسد»، ثمّ ذكّرهم بأمجاد شارلمان وغيره من ملوك الفرنجة، الذين دافعوا عن الكنيسة ونشروا المسيحية، فدعاهم لتخليص الضريح المقدّس من أسره في أيدي المسلمين، وبينّ لهم أنّ حبّ الأبناء والبنات والزوجات والوالدين لا يمكن مقارنته بحبّ المسيح الذي يفوقها مئة مرة، ويُنال به الحياة الدائمة، ومن أقواله الحرفيّة في ذلك: «انطلقوا على طريق الضريح المقدّس، أنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب واحكموها بأنفسكم؛ لأنّ هذه الأرض التي تفيض باللبن والعسل - كما يقول الكتاب المقدّس - أعطاه الربّ لبني إسرائيل»^[١].

فجاء الخطاب البابوي، المعدّ بذكاء لإقناع الناس بمختلف طبقاتهم، مركزاً على نقاط حسّاسة جدّاً بالنسبة للمسيحي، وهي: القبر المقدّس - أخبار الربّ - الحياة الدائمة - خطا المسيح - أعداء المسيح، فكان مقنّعاً (بعدالة الحرب) ومطمعاً في آن واحد ليشعل حقّاً وهوّساً عارماً تجاه المسلمين الذين تمّ تصويرهم بأبشع صورة، ويظهر الخطاب وكأنه حصيلة تجربة البابويّة الناجحة في مساندة الإسبان ومعهم الفرسان الأوروبيين بحرب الاسترداد على المسلمين في الأندلس^[٢].

ولأنّ القدس مثّلت للبابويّة أهمّ أهدافها الدنيويّة والداخليّة والخارجيّة، فأوهمت الناس بجعل أمر التوجّه إليها أمراً إلهيّاً مقدّساً، كما جاء بخطاب البابا أوربان الثاني إلى المسيحيين الذي نقله فوشيه دي شاتر قائلاً: «لست أنا ولكنّ الربّ هو الذي يحثّكم بكونكم قساوسة المسيح أن تحضّوا الناس من شتّى الطبقات ... إنني أخاطب الحاضرين وأعلن لأولئك الغائبين فضلاً عن المسيح يأمر بهذا أنّه ستغفر ذنوب كلّ أولئك الذاهبين هناك».

١- انظر سميّر العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٢-١١٣. السيّد الباز العريني: مؤرّخو الحروب الصليبيّة، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢٨-٥١. قاسم عبده قاسم: الخلفيّة الأيدولوجيّة للحروب الصليبيّة، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ط ٢، ١٩٨٨، ص ٤٢. والمقصود هنا ببني إسرائيل من كلام البابا: المسيحيّون لا اليهود؛ لأنّ المسيحية نزلت لهداية اليهود، قال تعالى في حقّ سيّدنا عيسى: {وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}. سورة آل عمران، الآية ٤٩.

٢- انظر سميّر العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٣-١١٤. محمّد نور الدين أفاية: الغرب المتخيّل (صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١٤٢-١٤٣. قاسم: الخلفيّة الأيدولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص ١٦. جوزيف نسيم يوسف: في تاريخ الحركة الصليبيّة، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ٤٦.

أمّا روبرت الراهب، فينَّ أنَّ البابا خاطب الفرنجة: «يا مَنْ اختاركم الربَّ وأحبَّكم كما تجلَّى واضحاً مِنْ خلال أعمالكم الكثيرة»، ودعاهم للعمل على تخليص القدس الأسيرة «لذا فهي تسأل وتصلِّي مِنْ أجل تحريرها، وتناديكم روما لتَهَبُّوا لنجدتها، والحقيقة تسألُكم أنتم بصفة أساسية لمساعدتها؛ لأنَّ الربَّ كما ذكرنا مِنْ قبل، قد أسبغ عليكم دون سائر الأمم مجداً فائقاً في السلاح، لذا سيروا على هذا الطريق للتطهَّر مِنْ خطاياكم، وكونوا على ثقة في المجد الخالد لمملكة السماء»^[١].

كانت لغة البابا متناغمة مع شعور الحاضرين ومعبرة عن غاياته لضرب الأعداء، لذا كانت استجابتهم فوريةً بهتافهم «هكذا أراد الله»، وبسرعة حُمل الصليب على الأكتاف، ممَّا جعل بعض الباحثين المحدثين يعتقد أنَّها مدبرة بسبب هذه الاستجابة السريعة.

ولأنَّ التوجَّه نحو القدس أمر إلهي، فقد صُبغ المنفذون للأوامر بقدسية المسيح أو الربِّ، وهو أمر نجحت فيه البابوية، فكانت الحماسة الدينية على أوجها، لذا نجد المصنَّفات في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تصف المتوجَّهين نحو القدس بـ«جنود المسيح - جيش المسيح - شعب المسيح - المؤمنون - جيش المؤمنين - حملة الصليب - جيش الربِّ - قادة الربِّ». فضلاً عن ذلك، كانت القدس غاية كلِّ مسيحي غربي؛ لأنَّها رمز الخلاص، لذلك أولى المؤرِّخون المعاصرون لها جلَّ اهتمامهم، وإنَّ هذه الحرب تختلف في أسبابها كلياً عن كلِّ الحروب السابقة في أوروبا؛ لأنَّها إلهية في كلِّ شيء، وكان مفهوم الحرب المقدَّسة مرتبطاً بمفهوم الحجِّ الذي كان غايةً مهيمنة على الفكر الأوروبي أواخر العصور الوسطى^[٢].

١ - انظر: سمير العمر، الحروب الصليبية تطوَّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٤. قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق تاريخية، ص ٧٩-٧٥.

٢ - انظر سمير العمر: الحروب الصليبية تطوَّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٤-١١٥. يوشع بروار: عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق: قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٣٥-٣٧. ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج على غزوات الإفرنج، ص ٥١.

ويظهر أنَّ النظرة المقدَّسة للحروب توازت مع سيطرة الكنيسة والفكر الديني على الحياة الأوروبية، وصارت تشكّل أعمالاً بطوليّة للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى^[١].

وتدلّ قصّة الحربة المقدَّسة على إحدى صور الحرب المقدَّسة عند الصليبيين، بغضّ النظر عن مدى صحّتها، وقد رواها فوشيه الشارترى، وملخصها أنَّ فلّاخاً يدعى بطرس بارثولوميو، وجد حربة في حفرة في الأرض تحت كنيسة القديس بطرس (في ١٤ حزيران ١٠٩٨ م/ ٤٩٢ هـ بعد سقوط أنطاكية بأحد عشر يوماً)، وادّعى أنَّها كانت ذات الحربة التي أطلقها لونجينس، كما ورد في الإنجيل، فطعنت الجنب الأيمن من يسوع المسيح^[٢].

وقد أبدى الأمير بوهيموند، ومعه معظم القادة الصليبيين، فرحهم بقصّة الحربة، على الرغم من أنَّ بوهيموند عرف أنَّها لعبة من اختراع الأمير ريموند الذي اختار ذلك الفلاح المغمور لتمثيلها^[٣].

وقد أتى المؤرّخ ابن الأثير على ذكر هذه الحربة في كتابه الكامل، يقول: «كان معهم راهب مطاع فيهم، كان داهية من الرجال، فقال: إنَّ المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإنَّ وجدتموها فإنَّكم تظفرون، وإنَّ لم تجدوها فالهلاك متحقّق، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه، وعفى أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلمّا كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم، ومعهم عامّتهم، والصنّاع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر»^[٤].

والجدير بالذكر أنَّ الصليبيين أنفسهم، شكّكوا في قصّة الحربة المقدَّسة، وشاع بينهم أنَّ القصة من اختراع ريمون السان جيلي^[٥].

٤. الحجّ إلى القدس

أولى مشكلات البحث في تاريخ الحركة الصليبيّة تتمثّل في المصطلح ومدلولاته

١- انظر سميح العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٥.

٢- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٥٨-٥٩. كما وردت عند المؤرّخ المجهول، ص ١٤٠-١٤٢.

٣- ابن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج، ص ٧٦.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤١٩.

٥- قاسم: الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص ١٦٧. باركر: الحروب الصليبيّة، ص ٣٥.

المختلفة التي تؤدي إلى الفوضى، لا سيما إذا كان المصطلح ذاته يحمل تناقضاً بين دلالاته اللغوية وحقيقته التاريخية، فلقد ارتبط اسم هذه الحركة بالصليب بعد حوالي قرن ونصف قرن من دوران عجلة أحداثها، فالناظر في مجرياتها يجد مزيجاً من القسوة والوحشية الذي يتناقض مع الصليب رمز الفداء والتضحية بالنفس في سبيل الآخرين^[١].

فإنَّ وضع تعريف بسيط لظاهرة تاريخية معقدة وممتدة في رحاب الزمان والمكان مثل الحروب الصليبية، أمر قد يجردها من الكثير من دلالاتها التاريخية ومضامينها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، فالكُتَّاب اللاتين ظلُّوا حتَّى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر يستخدمون كلمة *per-egrinus* (معناها الحاج)، للدلالة على الصليبي وعلى الحاج المسلَّح معاً، وطوال المدَّة السابقة استخدمت مصطلحات وكلمات عديدة للدلالة على الحملة الصليبية، مثل الحرب المقدَّسة أو الرحلة العامَّة وحملة الصليبيين^[٢].

وكان عنوان (الحجَّ إلى القدس) ومرادفاته هو النسبة الغالبة على المصنَّفات التاريخية للأوروبيين في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ممَّن شاركوا في الحروب أو مدوَّنو روايات المشاركين، لا سيما مؤرِّخي الحملة الأولى كما يسمِّيها الكُتَّاب في العصر الحديث.

وقد كتب عنها اثنان وثلاثون مؤرِّخاً، منهم أحد عشر مؤرِّخاً كتبوا بعنوان (تاريخ القدس) مثل توديود Tudebod، وبلدريك أسقف دول Baldric bishop of Do، وثلاثة كُتَّاب كتبوا بعنوان (حملة بيت المقدس) مثل باثولف نانجيغو Batholf de Nangiejo، وألبرت أوف أكس Albert of Aix، وذكر الحجَّاج أو أعمال الحجَّاج منهم مؤلِّف كتاب (أعمال الفرنجة وحجَّاج بيت المقدس)، وريموند أوف أجيل Raymond of Agile، وفولشردي شارتر Fulcher de Chartres، وتغلب مصطلحات تعبر عن دور ظاهرة الحجَّ في الفكر الأوروبي الوسيط على العناوين مثل: الحجَّ، والرحلة، والرحلة العامَّة، وحملة الصليب، ولأهمِّية الحجَّ وارتباطه بمدينة بيت المقدس كونها (الجنَّة الأرضية)، توجَّب دراسة وإظهار

١ - قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٣.

٢ - قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ٨.

أهميتها في عقيدة الكاثوليك آنذاك^[١].

وقد تطوّرت أهميّة القدس مع ظهور أفكار جديدة، منها أنّ الأماكن التي شهدت حياة المسيح واستشهاده أو حتّى استشهاد أحد القديسين تتمتع بقوة روحية تساعد على محو الذنوب، ويمكن تقسيم مراحل تطوّر ظاهرة الحجّ الأوروبي حتّى بداية الحروب الصليبية لأربع مراحل^[٢]:

المرحلة الأولى: كان الحجّ في القرون المسيحية الأولى حتّى مرسوم ميلان ٣١٣م نادراً، لأنّه لم يكن فرضاً دينياً، فضلاً عن الظروف التي يعانيها المسيحيون عموماً من اضطهاد أثناء الحكم الروماني.

المرحلة الثانية: بعد الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية في الدولة الرومانية في عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٧-٣٣٧م)، دعم هذا الإمبراطور الديانة الجديدة في مركز الدولة روما وفي موطن الديانة بيت المقدس، إذ عملت والدته القديسة هيلانة على بناء كنيسة القيامة سنة ٣٢٨م، وكشفت عن مقدّسات أخرى، ممّا أدّى إلى ازدياد رحلات الحجّ إلى فلسطين.

المرحلة الثالثة: تبدأ من الفتح العربي الإسلامي (القرن الأوّل الهجري / السابع الميلادي) بدءاً من معركة اليرموك (١٣هـ / ٦٣٤م) وتحرير بيت المقدس (١٤هـ / ٦٣٥م)، إذ فرض العرب المسلمون سيطرتهم على بلاد الشام، ثمّ بعد ذلك سيطروا على مصر وشمال أفريقيا وبعض جزر البحر المتوسط، ممّا جعل المسلمين مهيمنين على البحر المتوسط، وهذه التطوّرات أثّرت في الحجّ، لكنّها لم تقطعه، إذ ذكرت بعض الرحلات التي تعود إلى هذه المدة.

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة عصر الحجّ الأكبر (القرنين الرابع - السادس الهجري/

١ - سمير العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٠٩-١١٠. الحريري: الأخبار السنّة في الحروب الصليبية، ص ١٤. العربي: مؤرّخو الحروب الصليبية، ص ٢٢-٤٥. قاسم: الخلفيّة الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ٤٣.

2- Wright, John kirt land: the geographical Lore of the time of the crusade - American Geographical society, (New York - 1925), pp. 261 - 62.

العاشر - الثاني عشر الميلادي)، إذ حدثت تطوّرات مهمّة في أوروبا والبحر المتوسط في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، منها تطوّر التجارة وظهور المدن التجارية، وقد ساعدها على هذا التطوّر انحسار دور المسلمين في البحر المتوسط. فكان لهذه التطوّرات آثار إيجابية على تنقّل الحجاج بيسر نوعاً ما إلى الأراضي المقدّسة في فلسطين، وكانوا غالباً يفضلون الطريق البري عبر القسطنطينيّة.

وارتبط التطوّر الآخر بتبلور ارتباط الحجّ بالتكفير والتوبة عند الكنيسة الكاثوليكيّة، وكانت القدس واحدة من أربعة مواقع كان يؤمّها المسيحيّون الكاثوليك، وتعرّزت عمليّة الحجّ بالمكانة الدينيّة والتاريخيّة لهذه المدينة في الفكر المسيحي والتطوّر الداخلي للكنيسة الكاثوليكيّة، وسعت البابويّة لتتبوّاً منصب السيادة الدينيّة والدنيويّة (نظريّة السموّ البابوي) والصراع مع الكنيسة الشرقيّة للسيطرة على العالم المسيحي، وهذا كلّ جعل القدس تحتلّ مكانةً متفوّقة على روما نفسها.

جعلت هذه الأفكار الحجّ ظاهرة مميّزة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، واسعة النطاق تشمل الملوك والأمراء والرهبان وعامّة الناس من بقاع متعدّدة في أوروبا.

إنّ البابوية أدركت واستغلّت مثل هذه المشاعر بحكم طموحها الكبير، لتظهر مدى نفوذها على المجتمع الأوروبي الغربي، فكانت خطبة البابا أوربان الثاني في المجمع الكنسي بكليرمونت خير تعبير عن هذا الإدراك، فوجّه الناس لتخليص القبر المقدّس، فأثار ذلك حماس المجتمع الأوروبي بمختلف طبقاته؛ لما تمثّله هذه الدعوة من السير على خطا المسيح والتكفير عن الذنوب، والحصول على الخلود الأبدي بالوصول إلى القدس.

وبما أنّ كلّ زيارة لبيت المقدس هي حجّ، والقائمين بها حجاجاً، لذا عند قراءة أيّ كتاب عاصر الأحداث منذ كليرمونت وما بعدها (مثل كتاب: أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس) تُعدّ فيه كلمة حاج هي المعبر عن كلّ مسيحي متّجه لزيارة بيت المقدس، حتّى المحاربين منهم، بل وُصف الحجاج المسلّحين بأنّهم (شعب المسيح).

وانعكس تأثير ظاهرة الحجّ في المجتمع الغربي القروسطي، والنزعة الدينيّة الغالبة على

الفكر الأوروبي القروسطي ومنه الفكر التاريخي، فجاءت الكثير من العناوين (الحجّ - أعمال الحجاج - القدس) التي تعبر عن فلسفة العصر ونظرتها إلى التاريخ، على أنّ له بداية هي مولد المسيح، وله نهاية هي نزوله لتحقيق مملكة الله في الأرض (القدس)، وهو أمر يفسّر الاندفاع الشعبي العارم لتلبية دعوة البابا أوربان الثاني؛ إذ اعتقد الناس أنّ في التوجّه إلى بيت المقدس (الحجّ) السعادة الأبدية ليكونوا سكّان مدينة الله بتأثير أفكار سان أوغسطين، والأفكار الأخروية الألفية التي تقول: إنّ نهاية العالم ستحلّ بعد الألفية الأولى لميلاد المسيح، وذلك بنزول السيّد المسيح إلى الأرض لتأسيس مملكة الله^[١].

وبين يدي مخطوط كتاب: الحجّ إلى بيت المقدس، قدّمه لي مترجمه: الدكتور أحمد غسان سبانو، ونجد فيه أنّ حركة الحج بدأت في العالم المسيحي خلال القرن الثاني الميلادي، ولكنّ ليس لدينا من أخبار مترابطة حول هذه الحركة حتّى عام ٣٣٣م، وعندما كتب أحد الرواد من بوردو يوميات رحلته، ذكر عدداً من الأماكن المقدسة التي لم تزل من أهداف الحجّ بالنسبة لحجاج المملكة اللاتينية بعد ثمانية قرون من كتابتها.

وهكذا فإنّ كتاب: الحجّ إلى بيت المقدس بعد عام (٤٩٣هـ / ١٠٩٩م)، يخدمنا بصفته عيّنة تمثّل مرحلة في عملية طويلة مستمرة، وهي عيّنة واضحة المعالم نظراً لأنّ لدينا نصوصاً واسعة المدى يرجع تاريخها إلى سنوات طويلة ما بين (٤٩٣-٥٨٣هـ / ١٠٩٩-١١٨٧م)، وهي تفوق في أهميّتها جميع النصوص التي كتبت في المدّة السابقة.

ولقد افترض أصحاب النصوص السابقة أنّ الأماكن المقدسة هي نفسها الأماكن التي زارها الحجاج منذ زمن طويل، وكانت هذه الفرضية صحيحة. ولكنّ حركة الحروب الصليبية مع ما صاحبها من الجيوش التي احتلّت بيت المقدس وحياة المملكة اللاتينية التي لم تكن لتفترق عن الاحتلال اللاتيني للأرض المقدسة، كلّ هذه العوامل سبّبت بعض التغيّرات^[٢].

١- عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦، ص ٨٣ وما بعد. سميت: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ص ٥٠-٦١. سميّ العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٠-١١٢. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٦٣-٧٩. العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٤١-٥١. قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ٢٣ وما بعدها. محمّد صالح منصور: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٦، ص ١٨٥.

٢- أحمد غسان سبانو: الحجّ إلى بيت المقدس، نصوص تاريخية من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، مخطوط غير منشور، ص ٦، ٨.

وتُظهر نصوص كتاب: الحجّ إلى بيت المقدس، أنّه عندما غزا الجنود الصليبيّون بيت المقدس عام (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م)، واستولوا على المسجد الأقصى، كان لديهم كثير من الأعمال التي كانت مبنية أصلاً على القصص التوراتيّة التي لها علاقة بالمعبد، وهي كثيرة، لذلك سنلخص أبرزها ممّا ورد في العهد الجديد وما حضر من التوراة:

– دخول يواقيم وحنّة إلى المعبد خصوصاً لتقديم مريم العذراء المقدّسة.

– إعلان الملاك جبريل لزكريّا أنّه سوف يُنجب ولداً وهو يوحنا المعمدان.

– تقديم المسيح في المعبد ونبوءة سيمون.

– جلوس المسيح بين الفلاسفة.

– طرد المسيح للمرابين من المعبد.

– عفو المسيح عن المرأة الزانية.

– شفاء بطرس ويوحنا للرجل الأعرج في البوابة الجميلة.

وتُصوّر نصوص الكتابات التفصيلات المتشعّبة التي تتعلّق بكلّ شيء عن الحجّاج في أيام بدايات الحروب الصليبيّة وخلالها، وتقدم وصفاً شاملاً للمداخل والمخارج في بيت المقدس، والجسور والبوابات التي كان يستخدمها الحجّاج، والطرق وخزانات المياه والبرك في الحرم الشريف، والصخرة وقبة الصخرة ووصفهما، وكيف كان يظنّ الصليبيّون أنّ الذي بناها هو إمبراطور روماني بيزنطي، وابتداءً من عام (٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) فصاعداً أصبح اللاتين واليونان يعتقدون أنّ الذين بنوها هم الوثنيّون والمسلمون، وكان هناك تشويش في التعبير حول الوثنيين والمسلمين، فقد ظنّ بعض الكتاب في المملكة اللاتينيّة أنّه وقبل عام (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) كان المسلمون في قبة الصخرة يعبدون صنماً يمثل النبي محمّد ﷺ^[١].

ونأتي إلى خطاب البابا وقضيّة الحج، فليس لدينا تفاصيل خطبة البابا أوربان الأصليّة التي تفوّه بها في مجمع كليرمونت، ولكن نعلم أنّه قد أشار في بعض مقاطعها إلى قضيّة الحجّ إلى بيت المقدس، وهو يستشهد بماثيو (١٦-٢٤) الذي يقول: «إذا كان هناك رجل

١ - سبانو: الحج إلى بيت المقدس، نصوص تاريخيّة من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، ص ٥٦-٦٠.

يرغب في اتباع خطواتي فعليه أن ينكر ذاته ويحمل الصليب ويتبعني»، ومن المحتمل أن هذه الأقوال قد سببت ارتداء كل الحجاج الصليب بشكل منتظم، وكان بعضهم يحمل الصليبان الخشبية من بلاده إلى بيت المقدس، وكانوا يضعون هذه الصليبان على جبل الجمجمة وذلك تشبهاً بالمسيح.

ولقد تشوّشت أفكار الحجاج في هذه المدة عندما ذكروا لهم أنه قد حدثت محاكمتان للمسيح خلّدت ذكرهما على جبل صهيون، الأولى عندما مثل المسيح أمام أناس Annas وكيافاس Caiphas، والثانية عندما مثل أمام بيلاطوس.

أما الفرسان الهيكليّون، فإنّ لديهم وجهة نظر مختلفة حول مكان المحاکمتين، فالدليل الثاني يذكر بركة الخراف بالشكل الآتي:

إنّ هذه البركة هي المكان الذي يخبر فيه الحجاج والزوّار أنّ خشبة الصليب بقيت وقتاً طويلاً، ولكنّ فرسان المعبد يظهرون لك بركة أخرى ويقولون إنّها بركة الخراف.

هذا وإنّ بركة الخراف الموجودة حالياً، وهي الخزّان المثلث الواقع أسفل القسم الشمالي من كنيسة القديسة حنة، هذه البركة ليست بذات شأن، بل هناك بركة أكبر إلى الشمال من سور المعبد، وهي تدعى بركة إسرائيل، وهذه البركة أفضل من تلك^[١].

إنّ ثمانية نصوص من النصوص التسعة عشر التي ذكرها كتاب الحجّ إلى بيت المقدس، ما هي إلّا دلائل مرشده أو أوصاف لزيارة الأراضي المقدسة، وهناك أربع نصوص تذكر الشكل الذي ثبتت بموجبه جميع الأماكن المقدسة في بيت المقدس، أمّا النصوص الخمسة الباقية فتقول إنّ الحجاج يشكرون الله الذي أعطاهم القدرة والأمان في رحلتهم بحرّاً أو برّاً، ولكنّ السفر هو أحد العناصر الرئيسة في مواسم الحجّ.

وفي النصوص تأكيد على أنّ بيت المقدس هي أقدس مكان، ويذكر ثيودريك ذلك بطريقته الخاصة: «إنّها أقدس مكان؛ لأنّه قد أضاءها ونورّها وجود إلّها وسيدنا يسوع المسيح وأمّه الطيّبة، وإنّ جمع البطارقة والأنبياء والرسل قد عاشوا هناك وعلموا وبشّروا

واستشهدوا هناك»^[١].

٥. إبادة المسلمين

كانت الحروب الصليبيّة حركة استعماريّة استيطانيّة تهدف إلى احتلال المشرق العربي الإسلامي، وخاصّة فلسطين، واستيطانه، وتهجير سكّانه ليحلّ محلّهم العنصر الفرنجي الصليبي؛ فالحروب الصليبيّة كانت حرب إبادة، وإنّ الدعوة لإبادة المسلمين قد قال بها البابوات، كما قال بها القدّيس برنارد -راعي دير كليرفو، أحد أكبر الدعاة للحروب الصليبيّة- عندما عدّ «أنّ قتل الكافر ليس قتلاً لإنسان، بل هو إبادة للشرّ، وأنّ قتل الوثني هو مجد مسيحي، ففي هذا القتل يجري تمجيد المسيح»، وقد اتّضحت رؤيته لاستيطان تلك الأراضي بضرورة استحواذ المسيحيين الكاثوليك عليها، فالأرض المقدّسة لا تكون مأهولة إذا كانت غير مأهولة بشعب الربّ، فهو الشعب الوحيد الجدير بالاهتمام، وعلى ذلك فقد دعا برنارد إلى طرد المسلمين من فلسطين وتفريغ الأرض المقدّسة من سكّانها^[٢].

لقد جرى تصوير الحروب الصليبيّة على أنّها عمليّة تطهير كبرى، فقد حثّ البابا أوربان الثاني المسيحيين على السعي بأقصى الجهود إلى «تطهير المدينة المقدّسة ومجد القبر المقدّس»، وإحلال العنصر المسيحي في الأرض المقدّسة بدلاً من المسلمين، إذ أشار جيوربرت إلى أنّ البابا قال: «لا يمكن أن يحدث هذا (التطهير) ما لم تحلّ المسيحيّة محلّ الوثنيّة»^[٣].

ولم يكن هدف الصليبيين كما يسمّون أنفسهم، أو الفرنجة كما سمّاهم العرب، تحقيق مكاسب اقتصاديّة أو ماديّة أو الطمع في خيرات الشرق بالدرجة الأولى؛ لأنّ بلادهم بجميع المقاييس أغنى من بلاد المشرق، وإنّما كان الهدف الرئيس المعلن توجيه ضربة قاضية

١ - سبانو: الحج إلى بيت المقدّس، نصوص تاريخيّة من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، ص ٩٦-٩٧.

٢ - وليم الصوري (ت ٥٨٢هـ / ١١٨٦م): تاريخ الحروب الصليبيّة، ترجمة: سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٧٥٨-٧٥٩. أودو أوف دويل، رحلة لويس السابع إلى الشرق، ج ٧، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبيّة، ترجمة: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٣م، ج ٧، ص ١٣-١٤. زابوروف: الصليبيّون في الشرق، ص ١٧٢-١٧٣. توماس ماستناك: السلام الصليبي، ترجمة: بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٧٦. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، الجامعة الإسلاميّة، غزة، فلسطين، ٢٠٠٧، ص ٦-٥.

٣ - رواية جيوربرت عن مجمع كليرمونت، ترجمة: قاسم عبده، نصوص ووثائق، ص ٨٣. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٦.

للإسلام وإبادة السكّان بالكامل أو تحويلهم إلى النصرانيّة، وتصفية أيّ أثر للإسلام في مصر والشام حيث القوّة الحقيقيّة له، تمامًا مثلما حصل في الأندلس فيما بعد، حيث لم يُبق الصليبيّون أثرًا لمسلم واحد في كلّ الأندلس، وما كان لأوروبا أنّ تهاجم الشرق الإسلامي على مدى مئة عام طمعًا في قمحة أو زيتونة، وإنّ الصليب الذي اتّخذوه شعارًا لهم يغني عن أيّ تفسير^[١].

وقد وفّر البابا أوربان الثاني -المحرّض الأوّل للحروب الصليبيّة- على الباحثين عناء تبرير هذه الحروب عندما قال في خطابه في المجمع الكنسي في مدينة كليرمونت: «إنّ مهّد عقيدتنا وموطن ربّنا وأمّ الخلاص يستولي عليه الآن شعب من غير ربّ، إنّ ابن لجارية مصريّة، وهو يفرض شروطًا قاسية على أبناء المرأة الحرّة، وبذلك تكون الأمور قد انعكست، إنّ ما كتب هو: اطرّد الجارية وابنها، لقد دَنَس عرق السراسنة -المسلمون العرب- الشرير الذي يدين بمعتقدات خرافيّة نجسة، الأماكن المقدّسة حيث ارتكزت أقدام ربّنا، لقد دخل الكلاب إلى الأراضي المقدّسة وجرى تدنيس المقدّسات»^[٢]، لقد كانت تعاليم البابا هذه ومعه بطرس الناسك نبراسًا للصليبيين، ساروا على هديه فيما ارتكبه من مجازر بحقّ الشرق، إرضاء للربّ ولممثّله الرسمي على الأرض.

وعندما سقطت القدس وأُبعد سكّانها من المسلمين واليهود في المجزرة الجماعيّة الرهيبة المشهورة، قال رئيس أساقفة صور رجل الدين والمحبة والسلام: «إنّ هذا يوم مقدّس، وسيكون اليوم الذي يجب أن يروى فيه كلّ ما قد تنبأ به الرسول، وذلك في سبيل مجد المسيحيّة وعظمتها»^[٣].

وذكر ابن العديم أنّ الصليبيين عندما حاصروا حلب سنة (٥١٨هـ / ١٢٤م)، بقيادة ملك القدس بلدوين، نبشوا قبور المسلمين خارج الأسوار، وأخذوا توابيتهم، وأحرقوا الموتى، وربطوا بعضهم بالحبال وسحبوهم أمام المسلمين وهم يقولون:

١- عبد المعين الشوّاف: دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ٢٠٠٨، ص ٣٧٨.

٢- سهيل زكّار: تاريخ الحروب الصليبيّة، دار الفكر، دمشق ١٩٩٠م، ١م، ص ١٧٠.

٣- زكّار: تاريخ الحروب الصليبيّة، ١م، ص ١٧١.

_ هذا نبيكم محمّد.

_ وآخر يقول: هذا عليّ.

وأخذ بعضهم مصحفًا شريفًا من بعض المشاهد وقال: «يا مسلمين، أبصروا كتابكم، ثمّ ثقبه وشدّه بخيط وجعله في مؤخّرة البرذون (غير العربي من الخيل والبغال) يُروّث عليه، وكلّما أبصر الروث على المصحف صقّ بيديه وضحك زهوًا وسرورًا»^[١].

ويقدّم فوشيه الشارترى مثالاً عن الكيفيّة التي يجري بها هذا التطهير، فقد أشار إلى سعي البابا لطرده المسلمين من فلسطين، وكتب أنّ البابا أوربان الثاني حتّ في كليرمونت الفرسان والمشاة المسيحيين إلى «أنّ يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضيّن»^[٢].

وهكذا وبحلول أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كانت الحروب الصليبيّة قد كفّت عن أن تكون حركة من أجل تحرير الأرض المقدّسة، وأصبحت بدلاً من ذلك «حركة لإبادة المسلمين»^[٣]، ولتحقيق ذلك اتّبع الفرنج خلال احتلالهم سياسة تهدف إلى تفرّغ الأرض من سكّانها الأصليين، سواء كان ذلك بالقتل أو التهجير أو الطرد، وتوطين المستوطنين القادمين من الغرب الأوروبي مكانهم^[٤].

فالباحث المتأمّل لواقع الحركة الصليبيّة يدرك من فوره أنّها ذات طابع عنصريّ تعصّبي ضدّ من هو غير مسيحي كاثوليكي، لذلك فلا عجب أن ارتبط بها طابع دمويّ لا يُنكر أثره، وقد ظهر هذا الطابع في المذابح والمجازر الجماعيّة التي ارتكبتها الصليبيّون ضدّ أعدائهم المسلمين، وخلال ذلك تمّ قتل عشرات الآلاف من السكّان، وجاء ذلك وسط موجة عارمة من الكراهية والعداء والرغبة في القتل بكلّ من لا يدين بالمسيحيّة الكاثوليكيّة^[٥].

ومن أمثلة هذه المذابح ما حدث على مدى الطريق من أنطاكية إلى بيت المقدس مروراً

١- ابن العديم، عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٦م، ص ٢٢٤.

٢- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٣٦.

٣- ماستناك: السلام الصليبي، ص ١٧٢-١٧٣.

٤- رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٧.

٥- رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٦-٧.

بالبارة ومعرة النعمان، ووصلت إلى ذروتها في المذبحة المروعة التي اقترفها الصليبيون في بيت المقدس (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)، ففي أعقاب استيلاء الفرنجة الصليبيين على بيت المقدس قتلوا عشرات الآلاف من المسلمين^[١].

وقام الصليبيون بتحويل مسجد قبة الصخرة إلى دير أطلقوا عليه اسم: دير معبد السيد، كما أضافوا إلى المبنى مذابح وأماكن للتعديد، فضلاً عن النقوش اللاتينية البارزة على جدار المبنى.

كما أحدث الصليبيون العديد من التغييرات العمرانية في مدينة القدس، سواء عن طريق بناء الكنائس والأديرة والأبراج والأسوار أو عن طريق تغيير استخدامات بعض الأبنية الدينية الإسلامية.

لم يقتصر هذا الإجراء الصليبي على مدينة بيت المقدس، بل شهدته معظم مدن فلسطين، مثل سبسطية حيث حوّل فيها مشهد زكريّا إلى كنيسة، والخليل التي حوّل فيها المسجد الإبراهيمي إلى كنيسة عرفت باسم: سانت إبراهيم، وعكا التي حوّلت «مساجدها كنائس»^[٢].

ثانياً: الأسباب السياسية

من الممكن تجزئة الأسباب السياسية إلى النقاط الآتية:

١. دور البابوية والكنيسة السياسي

لقد أسهمت التطورات الداخلية في أوروبا في شرعنة الحرب، ومنها الدور الذي قامت به الكنيسة الغربية بعد سقوط روما سنة ٤٧٦م، ومحاولة فرض هيمنتها أو استمالة القوى الفعالة إلى جانبها للدفاع عنها، فصوّرت للناس أنّ الحرب المشروعة هي حرب لا تتنافى

١- ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٤-١٣٦. ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمّد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٩٠م، ص ١٢٠. الشارترى: تاريخ الحملة، ص ٥٨-٦٨. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٦-٧.

٢- سايلوف: رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأرض المقدسة (١١٠٢-١١٠٣م)، ترجمة: سعيد البشاوي، دار الشروق، عمان، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٣٠-٤٢. يوحنا فورزبورغ (ت ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م): وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م، ص ٥١. محمّد عبد الحافظ النقر: التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس في فترة الصراع الإسلامي الإفرنجي (أعمال مؤتمر بلاد الشام)، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٨-١٥. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٤-١٥.

مع المبادئ المسيحيّة، ثمّ شعرت البابويّة بخطر التقدّم الإسلامي في أوروبة في شبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) وفي جنوب إيطاليا ووسط فرنسا.

وإزاء هذه المخاطر الخارجيّة، نادى البابا ليو الرابع (٢٣٣-٢٤٠هـ / ٨٤٧-٨٥٥م) والبابا يوحنا الثامن (٢٥٨-٢٦٨هـ / ٨٧٢-٨٨٢م) للدفاع عن المسيحيّة، وأنّ كلّ مَنْ يموت في سبيل الكنيسة سوف ينال ثواباً من السماء وتغفر ذنوبهم، وهو أمر أتى بنتائج كبيرة جداً لصالح البابويّة من جهة وأوروبة من جهة أخرى، إذ لم يوقف التهديد الإسلامي على ممتلكات البابويّة في إيطاليا وعلى المملكة الكارولنجيّة، بل تراجع المسلمون من أراضٍ كانوا يعدّونها إسلاميّة، مثل الأندلس وصقلية وجزر البحر المتوسط الغربيّة، ممّا فصح المجال لتقوية وهيمنة المدن الإيطاليّة التجاريّة والبحريّة في البحر المتوسط^[١].

وازدادت طموحات البابويّة السياسيّة قوّة في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بمجيء بابوات مصلحين، أسهموا بقيام إصلاحات داخلية مهمّة، أدّت إلى تقوية الكنيسة، فنافست الإمبراطوريّة في الهيمنة على شؤون غرب أوروبة، فضلاً عن اهتمامهم بالحروب على المسلمين، ممّا مهّد الطريق أمام البابا أوربان الثاني ليوحّه جهود البابويّة المؤثّرة نحو فلسطين^[٢].

وهناك مؤرّخون عدّوا النداءات البيزنطيّة سبباً للحركة الصليبيّة، إذ كان وضع الإمبراطوريّة حرجاً من جرّاء توسّع السلاجقة في آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد التي انتصر فيها السلاجقة على الجيش البيزنطي، ممّا دفع بالإمبراطور ميخائيل السابع أن يستنجد بالبابا جريجوري السابع، وعندما تولّى ألكسيوس حاول أن يوقف المدّ السلجوقي وطلب أكثر من مرّة مساعدة أوروبة^[٣].

١- انظر: سمير العمر، الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٣-١١٤. أفاية: الغرب المتخيل (صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط)، ص ١٤٢-١٤٣. قاسم: الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص ١٦. يوسف: في تاريخ الحركة الصليبيّة، ص ٤٦.

٢- انظر سمير العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١١٤. قاسم: الحملة الصليبيّة الأولى، ص ٧٥-٧٩.

٣- الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبيّة، ص ٣١-٣٢. عاشور: الحركة الصليبيّة، ج ١، ص ١٢٩-١٣٠. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، القاهرة، مكتبة النهضة المصريّة، ط ١٤، ١٩٩٦م، ج ٤، ص ٢٣٢. وقد توفي جريجوري السابع سنة ١٠٨٥م، وخلفه فكتور الثالث الذي حكم بين ١٠٨٦-١٠٨٧م، وبعدها انتُخب الراهب الكلوني أودو دي لاجني كردينال أوسينا عام ١٠٨٨م، واتّخذ اسم أوربان الثاني.

ولا نعتقد مطلقاً أنَّ إعلان أوربان الحرب المقدَّسة، كما زعم المؤرِّخون الأوروبيون إثر فورة دينية عاطفية فقط، فالقرار اتخذهُ أوربان بعد دراسة مطوَّلة عميقة وضع فيها حسابات الربح والخسارة، حتَّى اختياره مدينة كليرمونت (جنوب شرق فرنسا) كان مقصوداً، إنَّ البابا أراد أن يسير بمخطَّط جريجوري إلى نهايته، فيمدَّ سلطانه البابوي على سائر أوروبا والمشرق، وليست إشارته لبيت المقدس وتصوير عذاب واضطهاد المسيحيين في المشرق الإسلامي إلا ورقة عرف أنَّها رابحة في لعبته الذكيَّة مع دهماء أوروبا، بل إنَّ عدداً من المؤرِّخين يرون أنَّ الحروب الصليبيَّة كان المقصود بها بالدرجة الأولى مسيحيي المشرق وليس مسلميه؛ لأنَّ هؤلاء المسيحيين رفضوا بكلِّ قوَّة الانصياع إلى بابويَّة روما عدا عن كونهم أكثر حضارة وعلماً من جهلاء روما وغيرها من مدن أوروبا الغربيَّة^[١].

٢. مدلولات الفرنجة والصليبيين

يرتبط بالسبب السياسي ما يتعلَّق بمصطلحي: الفرنجة والصليبيين، إذ استعمل العرب والمسلمون مصطلح الفرنجة بمعنيين: عام يشمل كلَّ سكَّان أوروبا خارج الدولة البيزنطية، ومعنى خاصَّ على أغلب منطقة شمال الأندلس تحديداً.

ويظهر أنَّ الكتَّاب المسلمين كانوا على دراية بموطن الفرنجة (جزء من فرنسا حالياً) الذي أقاموا به أولاً في عهد كلوفس (حوالي ٤٦٦-٥١١م)، بعد ذلك اتَّسع نفوذهم مع اتساع الإمبراطوريتين اللتين أقامهما الفرنجة (الميروفنجية والكارولنجية) واستمرارهما زهاء خمسة قرون (٤٨١-٩٨٣م / ٣٧٣هـ)، لكن بقي موطنهم ومركزهم (فرنسا حالياً).

وعرف المسلمون في الشرق الفرنجة أكبر قوَّة سياسية مهيمنة على وسط وجنوب أوروبا، لذا تمَّ تعميم هذا المصطلح على كلِّ الأوروبيين عدا (البيزنطيين)، وهو تصوير واقعي كان يقرُّ به حتَّى الأوروبيون أنفسهم، لذا عندما غزا الفرنجة بلاد الشام (٤٩٠هـ / ١٠٩٩م) لم يكن من الصعب تمييزهم من الأقوام الأوروبية المعروفة مثل الروم أو الصقالبة والبلغار، فتمَّ تحديدهم وتمييزهم بوضوح؛ لأنَّ عملية التمايز بين الأقوام جغرافياً ظاهرة موجودة في المصادر العربيَّة والإسلامية، فيقال: رومي - حبشي - فارسي - تركي - صقلبي - فرنجي.

١ - عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٣١. ابن موسى: نظرة عربيَّة على غزوات الإفرنج، ص ٥١.

وأخذ المصطلح يتعزّز في الفكر العربي الإسلامي، وخاصةً أنّ (بلاد الفرنجة) قبيل الحروب (الصليبية) وما بعدها، بدأت تؤدّي دوراً مهماً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً في منطقة البحر المتوسط وسواحله الإسلامية، ولم يدرك المسلمون التغيّرات التي أصابت أوروبا التي جعلت الفرنجة يأخذون المبادرة من (الروم)، وكذلك التغيّرات الداخلية الكبرى على مختلف الصعد؛ لأنّ مصادر معلوماتهم كانت تعتمد على ما كتبه أسلافهم عن هذه الأقوام بعد نمو القومية في أوروبا وتماسّهم مع المسلمين في القرن التاسع الهجري/ القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده، فبدأت تظهر تعابير مزدوجة تجمع بين الإفرنج كصفة عامّة لأوروبا مع صفة الدولة التي يسمّونها (طائفة من الفرنج يقال لهم الفرنسيين) (طائفة من الإنكليز من الفرنج) (فرنج إفرنسة).

واستمرّ مصطلح الفرنجة أو الإفرنج حتّى بداية القرن العشرين، وفي نهاية القرن العشرين عادت بعض الدراسات إلى استعمال مصطلح الفرنج كمحاولة للردّ على الحملات الصليبية؛ كونها ظاهرة متعدّدة الأبعاد، أحدها البعد الديني الذي أكّد عليه الأوروبيون.

كانت هذه نظرة كُتّاب الشرق الإسلامي، فكانت بيزنطة (الروم) كقوة رئيسة، ثمّ نafسها الفرنج في منطقة البحر المتوسط التي هي منطقة اهتمام عربية إسلامية، لذلك كان هناك تمايز قومي ثقافي بين القوتين، وزاد من نظرة التمايز الغزو الفرنجي (الصليبي) للأراضي الإسلامية؛ لأنّ الصلة صارت مباشرة ومتواصلة بين القوى الثلاث، فضلاً عن إدراك المسلمين ضعف بيزنطة المستمرّ وقوّة الفرنج المتصاعدة^[١].

ويمكن أن نلخّص أنّ الخطّ البياني للمعلومات العربية الإسلامية الجغرافية والتاريخية كانت تسير في تصاعد عن أوروبا والفرنجة، وحصل التطوّر الكبير فيها في كتب الموسوعات، فمثلاً كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي، يضمّ في معلوماته لمحة جغرافية عن أهمّ المدن في أوروبا وأقوامها، ومنهم الفرنجة، وصلتهم بالبلاد الإسلامية، كذلك أهمّ السلع التجارية التي تصدرها وأهمّ النباتات التي تزرعها، حتّى المخاطبات السياسية

١- السمعاني، عبد الكريم بن محمّد (ت ٥٧١هـ): الأنساب، وضع حواشيه محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ج ٣، ١١٤. سمر العمر: الحروب الصليبية تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٢٥-١٢٦. ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج على غزوات الإفرنج، ص ٥١.

بين حكامهم والحكام المسلمين كانت متعدّدة، وهذا يمثل إدراكًا للتغيّرات السياسيّة التي حدثت في أوروبا.

وإنّ الاهتمام بالمعلومات المعاصرة لم يجعل المسلمين غافلين عن دراسة تاريخ الفرنجة، وهو أمر انفرد به المسعودي قبل الحروب الصليبيّة. أمّا بعد الحروب، فبينّ الهمداني أصولهم وعلاقتهم بالمسيحيّة وبيت المقدس وسيطرتهم على بعض مدن الشام، ثمّ ابن خلدون الذي ذكر تفاصيل أكثر من غيره عنهم، سواء أصولهم، والقليل من أحوالهم الداخليّة، وعلاقتهم مع المسلمين^[١].

٢. ميزان القوى قبيل الحروب الصليبيّة، وتطوّرات الأحداث وظروفها

يوضّح الأسباب السياسيّة للحروب الصليبيّة بشكل أكبر: ميزان القوى وحال العالم والقوى الفاعلة قبيل هذه الحروب.

فلقد تعدّدت الآراء حول تعريف الحركة الصليبيّة، ويرجع ذلك إلى الزاوية التي نظر منها المؤرّخون إليها، فرأت مجموعة من المؤرّخين أنّ الحروب الصليبيّة تمثّل حلقة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وهو الصراع التقليدي الذي ظهر بجلاء في الصراع بين الفرس واليونانيين، ثمّ بين الفرس والإمبراطوريّة الرومانيّة والبيزنطيّة^[٢].

وبتحليل تفاصيل الأوضاع العامّة قبيل الحروب الفرنجيّة الصليبيّة، سنجد أنّ أهمّ سبب من أسبابها هو السبب المتعلّق بميزان القوى قبيل هذه الحروب (أو تطوّرات الأحداث وظروفها)، وهو ميزان متعلّق بالقوى الناشطة آنذاك على مسرح الأحداث، وهي: الخلافة العباسيّة (١٣٢-٦٥٦هـ / ٧٤٩-١٢٥٨م)، والقوى الموجودة في بلاد الشام، والخلافة الفاطميّة (٢٩٧-٥٦٧هـ / ٩٠٩-١١٧١م)، والسلاجقة (٤٢٩-٥٩٠هـ / ١٠٣٨-١١٩٤م).

ونشطت من الطرف الآخر القوّة البيزنطيّة، فلقد سيطرت الإمبراطوريّة البيزنطيّة خلال القرن الأوّل الهجري/ السادس الميلادي على معظم الأراضي المجاورة للبحر المتوسّط، بما

١- انظر القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج ٥، ص ١٣٧، ٤٨٥. سميّر العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، ص ١٢٢-١٢٤. كلود دلماس: تاريخ الحضارة الأوروبيّة، ترجمة: توفيق وهبة، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٥.

٢- عمران: تاريخ الحروب الصليبيّة، ص ١٣.

فيها جنوب شرقي أوروبا وآسيا الصغرى (تركيا حالياً) وفلسطين وسوريا وإيطاليا وأجزاء من إسبانيا وشمال أفريقيا، ثم فتح العرب المسلمون فلسطين في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، ثم فتح السلاجقة الأتراك آسيا الصغرى وفلسطين وسوريا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهزموا البيزنطيين في معركة ملاذكرد في آسيا الصغرى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م، وأسروا إمبراطورهم رومانوس^[١].

لذلك فإنّ مَنْ يتأمّل أحوال المسلمين السياسيّة في المشرق العربي الإسلاميّ عشية وصول الحملة الصليبيّة الأولى إلى بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، سيلاحظ ما كان عليه المسلمون من ضعف وانقسام وتمزق، ممّا أطمع الغرب الأوروبي ببلادهم^[٢].

ونظرة إلى العالمين الشرقي والغربي آنذاك، تبينّ لنا أهمّ القوى السياسيّة والحربيّة التي أدّت دوراً فعّالاً في أحداث المنطقة قبيل الغزو الصليبي لها، هي كما يأتي:

أ. الغرب الأوروبي قبيل الحروب الصليبيّة

حتّى قبيل بداية الحملات الصليبيّة، لم تكن أوروبا -كما نعرفها اليوم- دولاً مستقرّة أو شعوباً متميّزة، بل كانت مجرد مناطق إقطاعيّة متخلّقة بالقياس إلى ما وصلت إليه حضارة العالم البيزنطي وحضارة العالم العربي الإسلامي من قوّة وازدهار^[٣].

فشكّل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بالنسبة للغرب الأوروبي بداية مدّة امتدّت ثلاثة قرون، تمثّل مرحلة الإبداع في تاريخ العصور الوسطى، إذ أخذت -خلال تلك المدّة- المؤسّسات السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة والاجتماعيّة تتشكّل، حتّى صارت الأساس الذي قامت عليه النهضة الأوروبيّة^[٤].

وكان الغالب على مجتمعات أوروبا الطابع الريفي أو المظهر الإقطاعي، وكان الأوروبيون

١ - انظر: محمود محمّد الحويري: بناء الجبهة الإسلاميّة المتّحدة وأثرها في التصديّ للصليبيين، القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٩٢م، ص ١٠ وما بعد.

٢ - الحويري: بناء الجبهة الإسلاميّة المتّحدة وأثرها في التصديّ للصليبيين، ص ١٠.

٣ - مصطفى وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبيّة، المنصورة، مكتبة الإيمان، ط١، ١٩٩٧م، ص ٩.

٤ - قاسم: ماهية الحروب الصليبيّة، ص ٥٧.

يعيشون تحت رحمة الطبيعة، فالأرض المزروعة ما تزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البراري والغابات، وعاش الفلاح الأوروبي في كوخ صغير حياة أدنى من حياة الحيوان، حياة فقر وبساطة، معتمداً على إنتاج حقله، وعلى ملابس كان يصنعها من جلود حيواناته.

وكانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة (١٠٩٥م/ ٤٩٦هـ) سنوات قاسية على سكان أوروبا، خصوصاً شمال فرنسا وغرب ألمانيا، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة^[١].

ب. الإمبراطورية البيزنطية

أسست الإمبراطورية البيزنطية سنة ٣٩٥م في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور أركاديوس (٣٧٧-٤٠٨م)، وعجزت تلك الإمبراطورية عن صد الفاتحين العرب المسلمين التي انتزعوا منها سورية ومصر وشمال أفريقيا، كما بلغوا حدود عاصمتها القسطنطينية عدة مرات.

وقد بلغت هذه الدولة أوج قوتها وازدهارها في عهد السلالة المقدونية في المدة من (٢٥٣هـ / ٨٦٧م) إلى (٤٤٩هـ / ١٠٥٧م)، وكان بينها وبين الدولة الحمدانية في حلب صراع مستمر، ثم دخلت في صراع شديد كبير (في القرنين الخامس والسادس الهجريين = الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) مع دولة السلاجقة التي كانت تشكل آنذاك الجناح العسكري لدولة الخلفاء العباسيين^[٢].

ت. دولة السلاجقة

تنازعت خلافتان على العالم الإسلامي هما: الخلافة الفاطمية في مصر، والخلافة العباسية في بغداد، وظهرت خلال ذلك على مسرح الأحداث قوة الأتراك السلاجقة، وذلك خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ أي قبيل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام.

١- وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٠.

٢- م.ن، ص ١٤.

وبغض النظر عن تفاصيل الأحداث والصراعات؛ كانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى لدولة السلاجقة، إذ نفَّذ السلاجقة غزوات ناجحة ضدَّ الأراضي البيزنطية وانتصروا على البيزنطيين في إقليم إبيريا (الإبخار) وطرابيزون (شمال شرق تركيا الحالية) وأرضروم (أكبر مدن تركية في الأناضول).

وفي العام (٤٤٦هـ / ١٠٥٤م) قاد السلطان طغرل بك (٤٢٩-٤٥٥هـ / ١٠٣٨-١٠٦٣م) السلاجقة بنفسه إلى الأراضي البيزنطية، فغزا أرمينية، ودمَّر ما صادفه من قرى ومزارع فيما بين بحيرة فان وأرضروم، وفرض الحصار على ملاذكرد، ولكنَّ الجيوش البيزنطية لم تمكَّنه من الاستيلاء عليها، فانسحب إلى مدينة الري.

ولمَّا تولَّى حكم السلاجقة ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢م) بعد وفاة طغرل بك، نهج السلاجقة نهجاً جديداً تجاه الإمبراطورية البيزنطية؛ إذ استهدفوا الاستيلاء على أراضيها بدلاً من مجرد القيام بغارات للسلب والنهب، وبالفعل وفي سنة (٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) استولى ألب أرسلان على إقليم أرمينية ذي الموقع الإستراتيجي المهم.

ثمَّ كانت المعركة الكبيرة الشهيرة ملاذكرد (٤٦٤هـ / ١٠٧٠م)، وفيها ألحق الأتراك السلاجقة هزيمة منكرة بالجيش البيزنطي بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع (٤٦١-٤٦٤هـ / ١٠٦٨-١٠٧١م)^[١].

وفي عام (٤٦٤هـ / ١٠٧١م)، استولى السلاجقة على معظم آسيا الصغرى، وواصلوا زحفهم حتَّى أصبحوا على مقربة من بوابات القسطنطينية، ووقعت القدس تحت حكمهم عام (٤٧٠هـ / ١٠٧٧م)، لذلك كان أحد الأسباب التي أدَّت إلى الحروب الصليبية نداءات الأباطرة البيزنطيين طلباً للمساعدة نتيجة لهذه الأحداث والتطورات، وخوفاً من إزعاج الحجاج المسيحيين، فتشجَّعت البابوية، وقَدَّمت العروض للمساعدة.

ثمَّ بلغت الدولة السلجوقية أوج عظمتها واتَّساعها في عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) الذي خلف أباه ألب أرسلان، وصارت تمتدُّ من بحيرة خوارزم شمالاً إلى حدود اليمن جنوباً، ومن حدود الصين شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً،

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجمل الجزء ٨. وانظر: الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ٢١.

ثم بدأت هذه الدولة تسير في طريق التداعي والانهيار بعد وفاة ملكشاه (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)؛ أي قبيل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام بسنوات معدودة^[١].

لذلك كَلَّه طلب الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنينوس (٤٧٤-٥١٢هـ/ ١٠٨١-١١١٨م) عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م) المساعدة من بابا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أوربان الثاني في قتاله ضد الأتراك السلاجقة، فوافق البابا على طلبه^[٢].

ث. المشرق العربي

في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كان العرب المسلمون موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة، فبالإضافة إلى الصراع المستمر بين الخلافتين، فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذي جعل من بلاد الشام مجالاً واسعاً لهذا الصراع، وأدى بالنتيجة إلى انقسام بلاد الشام إلى عدة إمارات صغيرة متصارعة، على رأس كل إمارة حاكم مستقل، وكانت مشاعر الحقد بين هذه الإمارات السياسية الصغيرة سبباً في العداء السياسي والعسكري الذي كان حائلاً دون توحيدها في مواجهة الغزو الصليبي^[٣].

ج. الخلافة العباسية

فقدت الدولة العباسية هيبتها منذ أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ودب فيها الضعف والانحلال، وصار الخلفاء العباسيون مغلوبين على أمرهم في بغداد، وأشبه بالعبوة في أيدي العناصر التركية التي غدت صاحبة السلطة الفعلية.

وظهرت في عصر العباسيين فرق كثيرة: كالإسماعيلية والمعتزلة والزنادقة، مما أدى إلى انقسام المسلمين، وظهرت عدد من الدول المستقلة، ثم سقطت، وقامت دويلات على

١- انظر البنداري، الفتح بن علي الأصفهاني (ت ٦٤٣ هـ): تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠، ص ٢١-٤٦. الحسيني، صدر الدين بن علي (ت ٦٢٢ هـ): أخبار الدولة السلجوقية، اعتناء عباس إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٤، ص ١٨-٢١. وانظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجمل الجزء ٨. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون مع التاريخ، مجمل جزء ٥. عمّار النهار، فوزي مصطفى: تاريخ العصر العباسي والأندلسي، مطبعة جامعة دمشق، ٢٠١١-٢٠١٢م، ص ٦٥-٨٠. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٢. الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ٢٥.

٢- وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٢.

٣- وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٢. الحويري، بناء الجبهة الإسلامية، ص ٢٦.

أنقاضها، وأهم هذه الدويلات: البويهيون (٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م)، ثم إن نفوذ البيت البويهي أصيب بضعف شديد بعد وفاة عضد الدولة البويهي (٣٢٤-٣٧٢هـ / ٩٣٦-٩٨٣م) بسبب القتال الذي نشب بين أبنائه حول ممتلكات أبيهم، وبذلك سقطت دولة بني بويه سنة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م)^[١].

ح. الخلافة الفاطمية

كان قيام الدولة الفاطمية في حد ذاته حدثاً فريداً في التاريخ العربي الإسلامي، إذ إن نجاح الحركة الفاطمية في إقامة خلافة لها في بلاد المغرب عام (٢٩٦هـ / ٩٠٨م) جاء بعد محاولات فاشلة وطويلة قاموا بها منذ قيام الدولة الأموية للظفر بالخلافة. وتقدم الفاطميون سنة (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) بقيادة جوهر الصقلي (٣١٢-٣٨١هـ / ٩٢٤-٩٩١م) نحو الفسطاط، فاستعد الإخشيديون (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٤-٩٦٩م) لقتاله، والتقى الجيشان بالقرب من مصر. ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، طرأت أحداث على الدولة الفاطمية تسببت في إضعافها، إذ اضمحل سلطانها وعظم نفوذ الوزراء، وأصبح في أيديهم أمر تعيين الخلفاء، وكان لتنافس رجال الدولة الفاطمية على منصب الوزارة واستعانة بعض الطامعين في هذا المنصب بحكام الدول المجاورة أثر سيئ في حالة مصر الداخلية، الأمر الذي مهد السبيل للقضاء عليها^[٢].

خ. بلاد الشام

كانت بلاد الشام هي الأخرى تعاني الاضطراب والفوضى، ذلك أن الحمدانيين (٣١٧-٣٩٤هـ / ٩٢٩-١٠٠٣م) في عهد سيف الدولة (٣٣٣-٣٥٦هـ / ٩٤٤-٩٦٧م) دخلوا في

١- عمار النهار، فوزي مصطفى: تاريخ العصر العباسي والأندلسي، ص ١١٣-١١٥. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢، ص ١٦٣. عزيز سوريال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب صابر سيف، القاهرة، دار الثقافة، ط ٢، ص ٣٩. الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ١٠.

٢- انظر: ابن ميسر، محمد بن علي: أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٦١. ابن الطوير، أبو محمد المرتضى عبد السلام (ت ٦١٧هـ): نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، نشرات الإسلامية، شتوتغارت، ١٩٩٢، ص ٥. الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ١٤-١٥.

صراع مع كلٍّ من الإخشديين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال، وزاد من الفوضى التي تعرّضت لها بلاد الشام سيطرة القبائل اليمنية على جنوب بلاد الشام ووسطها، أمّا القبائل القيسية فقد سيطرت على شمال الشام والجزيرة.

وعندما ضعفت الخلافة العباسية شهدت الإمبراطورية البيزنطية ظهور أسرة قوية هي الأسرة المقدونية (٢٥٣-٤٤٨هـ / ٨٦٧-١٠٥٦م) (خلالها وصلت الإمبراطورية البيزنطية أقصى اتساع لها منذ الفتوحات الإسلامية) والتي حققت انتصارات كبيرة على حساب المسلمين والبلغار والروس، إذ استولى نقفور على المصيصة (من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم) وطرطوس وأنطاكية، ولكنّ الفاطميين تمكنوا من استرجاع دمشق.

ويرى بعض المؤرخين أنّ جهود الأباطرة البيزنطيين لاسترجاع الشام، بما فيها من أماكن مقدسة، كانت حلقة متقدمة من حلقات الحروب الصليبية التي قامت بها أوروبا ضدّ العرب المسلمين لاسترجاع الأراضي المقدسة في أواخر القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي.

ومهما يكن، فقد ظهر الانقسام والتفتت في أوصال الجبهة الإسلامية في منطقة الشرق الأدنى، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في نجاح الحملة الصليبية الأولى، واستقرار الصليبيين أمداً طويلاً في بلاد الشام^[١].

فالحروب الصليبية تمثل إفرازاً من الغرب الأوروبي، وهي نتاج طبيعي ومنطقي تماماً للأوضاع التي كانت سائدة هناك، غير أنّ ذلك ينبغي ألا يوقعنا في تناقض أساسه النظر إلى الطرف الإسلامي وكأنّه ملتقى ساذج لصدمة الغزو الصليبي، أو تصوير الأمر وكأنّ المبادرة التاريخية في الصدام كانت لدى الصليبيين من الغرب الأوروبي، وأنّ المسلمين كانوا مجرد ساكني النطاق الجغرافي الذي حلّ به الغزاة، على أنّ الأحداث التي وقعت على الجانب الإسلامي كانت بمثابة البداية الحقيقية لاستنفار الغرب الأوروبي^[٢].

١- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية، ص ١١-٢٦. عمّار النهار، فوزي مصطفى: تاريخ العصر العباسي والأندلسي، ص ٩٠-٩٥.

٢- محمد مؤنس عوض: الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ٣٥.

ثالثاً: السيطرة على القدس

إنَّ هدف السيطرة على بيت المقدس ظهر واضحاً في تصريحات كلِّ من آثار الحروب الصليبية، فمثلاً كان من أكبر المحرِّضين على سير الحملة الصليبية الأولى بطرس الناسك، وكان قد عكف على التَّعبُّد في جوار القبر المقدَّس، وبعدها عانى كثيراً من سوء المعاملة على أيدي التركمان والمشاركة بزعمه، عاد لموطنه ولم يستسلم للهزيمة، فقد قرَّر أن يُبشِّر في جميع البلدان اللاتينية، ويعلن بأنَّ هاتفاً سماوياً جاءه يأمره أن يعلن إلى جميع أمراء فرنسا أنَّ عليهم مغادرة أوطانهم والسفر والتَّعبُّد في كنيسة القيامة، وأنَّ يبذلوا نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من أبناء (هاجر)^[١].

ومن أجل أن يشجَّع البابا الجموع على الاشتراك في الحرب، وعد المشتركين بالحرب الصليبية (المناضلين في سبيل الإيمان) باسم الربِّ العليِّ بغفران الخطايا، فضلاً عن أنَّ ممتلكات الصليبيين ستوضع تحت حماية الكنيسة ورعايتها طوال مدَّة غيابهم، كما وعد المقاتلين الذين يستشهدون في المعارك ضدَّ الكفَّار بالثواب الأبدي في الجنَّة السماوية فـ «القدس إنَّما هي محور الكون، منطقة فائقة الخصب بالمقارنة مع المناطق الأخرى جنَّة ثانية»^[٢].

كما قال البابا: «إنَّني أخطب الحاضرين، وأعلن للغائبين، وعلاوة على ذلك فإنَّ يسوع المسيح يأمر بما يأتي: كلُّ مَنْ يذهب إلى هناك سوف تغفر له خطاياه إذا ما واجه حتفه زاحفاً في البرِّ أو عابراً البحر أو مقاتلاً الكفَّار، إنَّني أمنح ذلك لكلِّ مَنْ يذهب مستمداً القوَّة من السلطة التي وضعها الله في»^[٣]. كما قال لهم: «إنَّ مَنْ لهم الحزن والفقر هنا في الأرض سيكون لهم الفرح والغنى هناك في السماء»^[٤].

وقد عدَّ البابا أنَّ الحملة الصليبية تتساوى مع الحجِّ في طلب الغفران والتكفير عن الذنوب. وهكذا صار الاشتراك بالحملة الصليبية بمثابة رحلة حجِّ تكفيرية واستشهادية في

١- آنا كومينا: الأليكسياد، ج٦، ص ١٠، ١١.

٢- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٤٤.

٣- المؤرِّخ المجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ج٦، ص ٣٦.

٤- زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٤٥.

آن، وقد صار مقصدها بيت المقدس كأكبر دافع ديني وراء الحركة الصليبية^[١].

لقد أثارت دعوة البابا أوربان الثاني حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك، فالمصادر التاريخية التي عاصرت الأحداث التي جرت منذ كليرمونت (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) حتى سقوط بيت المقدس (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) لم تذكر شيئاً من حجّ بطرس إلى أورشليم، باستثناء أنا كومينا التي تقول: إنّ بطرس فشل في رحلة قام بها للتعبّد في الضريح المقدّس، فأعدّ خطة ماهرة لكي يعود إلى القدس بصحبة جيش كبير، ونجح في هذا^[٢].

فقد كان زعيم الحملة الشعبية يُعدّ بمثابة التجسيد الحيّ للروحانيّة الشعبيّة، بل إنّه كان يُعدّ بمثابة نبيّ هذه الحركة ومبشّرها الأوّل، وكان ألبرت الأيكسي^[٣] الذي عاش في هذه الأرجاء هو صاحب أقدم نصّ مكتوب عن هذه الأسطورة، وتقبّلها وليم الصوري وزاد عليها، وأوضح في نصّه كيف تضخّمت أسطورة بطرس الناسك بعد حوالي مئة سنة من أحداث الحملة الصليبية الأولى^[٤].

كما أنّ هناك رواية لجبويرت النوختي التي تكشف مراحل تطوّر هذه الأسطورة^[٥]. بكلّ الأحوال، قرّر بطرس الناسك أن يبشّر في جميع البلدان اللاتينية، ويعلن بأنّ هاتفاً سماوياً جاءه يأمره أن يعلن إلى جميع أمراء فرنسا أنّ عليهم مغادرة أوطانهم والسفر للتعبّد في كنيسة القيامة وتحرير بيت المقدس، فلاقى نجاحاً كبيراً، وتجمّع الفرنجة من كلّ الأطراف ومعهم أسلحتهم وخيولهم وتدفّق الجميع من كافّة الجهات تدفّق السيول والروافد على النهر العظيم^[٦].

وعملياً؛ في السادس من يونيو سارت القوّات الصليبية من الرملة فوصلت أمام القدس

١- انظر: براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٤-٣٥.

٢- أنا كومينا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١.

٣- جمع مدوّنته التاريخية عن الحملة الصليبية ومملكة بيت المقدس اللاتينية حتّى سنة ١١٢٠م من شهود العيان. انظر: قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ١٠٠.

٤- للاطلاع على هذه الرواية انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية (١٠٩٤-١١٨٤م)، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر، ١٩٩١م، ج ١، ص ٩٠-٩٤.

٥- للاطلاع على هذه الرواية انظر نصّ الرواية والترجمة العربية كاملة عند قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ٩٨-٩٩.

٦- أنا كومينا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦.

في السابع من حزيران (٤٩٣هـ / ١٠٩٩م).

كان الفصل الأخير من قصّة الحملة الصليبيّة الأولى هو الحصار الذي فرضه الصليبيّون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع من ٧ حزيران حتّى ١٥ تمّوز، حيث اقتحموا المدينة، فسقطت في أيديهم، واندفعوا كالسيل الجارف يقتلون ويذبحون، ووضعوا السيف في المسلمين على اختلاف أعمارهم وجنسهم^[١].

وفي هذا الجوّ الموحش الذي بلغه الصمت الرهيب وتغلّغت إليه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة، اجتمع الصليبيّون في كنيسة القيامة، وتردّدت عبارة: نحمدك يا الله^[٢].

وقد عقد الصليبيّون اجتماعاً لديوان المشورة العسكريّة، ثمّ أصدروا حكماً بقتل كلّ مسلم باق داخل المدينة، فارتكبوا فظائع مهولة استمرّت أسبوعاً كاملاً، جعلت المؤرّخ الغربي مكسيموس مونروند يصفها بالإبادة السكانيّة، إذ لم يوفّروا قتل أيّ مقدسيّ أيّا كانت ديانته، ولم يميّزوا بين رجال ونساء ولا شباب ولا شيوخ، بل تعمّدوا قتل كثير من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهادهم^[٣].

وعبر مؤرّخو الحروب الصليبيّة الغربيين والشرقيين عن الفظائع التي ارتكبتها الصليبيّون في بيت المقدس، أمثال ريموند دي سان جيل، وابن الجوزي، وابن كثير^[٤].

واختلف الرواة في تحديد عدد القتلى؛ فقدّرهم البعض بمئة ألف نسمة، وآخرون قدّروهم

١- براور: عالم الصليبيين، ص ٤٦-٤٧. الحويري: بناء الجبهة الإسلاميّة، ص ٥٥-٥٦. الحريري: الأخبار السنية، ص ٤٨.

٢- براور: عالم الصليبيين، ص ٤٧.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٢٥. مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدّسة في المشرق المدعوّة حرب الصليب، ترجمة: مكسيموس مظلوم، طبع أورشليم في دير الرهبان الفرنسيّسكانيين، ١٨٦٥م، ص ١٧٢. نقولا شحادة الخوري: تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسيّة، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥م، ص ٧٠.

٤- ريمون دي سان جيل (ت ٤٩٩هـ / ١١٠٥م): تاريخ الفرنجة، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م، ص ٢٩٥. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط ١، ١٩٩٢م، ج ١٧، ص ٤٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، تحقيق، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط ١، ١٩٩٨م، ج ١٦، ص ١٦٦.

بعشرين ألف نسمة، ولكن الأغلبية قدّروهم بسبعين ألف نسمة^[١].

فكانت النتيجة «أن انقلبت المدينة في أيام قليلة من ديانة إلى أخرى، ومن شرائع إلى غيرها، ومن مراسيم وعوائد إلى أخرى، ومن سكّان إلى غيرهم»^[٢].

وحسب الأرقام التي أوردتها المصادر الصليبيّة والعربيّة القديمة يمكن القول: إنَّ عدد المسلمين الذين دُبحوا بيد الصليبيين منذ خروجهم من القسطنطينيّة وحتى احتلال بيت المقدس تجاوز نصف مليون إنسان، فيهم الكثير من النساء والأطفال والرُّضع، ووصف عدد من المؤرّخين بإسهاب الطرق الوحشيّة التي اتّبعها الصليبيّون في إزهاق أرواح تلك الأنفس البريئة بشكل تقشعر له الأبدان، ويُروى أنَّ جماجم المسلمين وأذرعهم التي امتلئت بها شوارع وأزقة مدينة القدس، بقيت عدّة أيام دون أن يتمكّن الصليبيّون من إزالتها لكثرتها، وكادت تهدّد بانتشار الوباء في المدينة بعد تفسّخها، كلّ ذلك يدعو المرء ليتساءل عن نوع القلوب التي كان يحملها هؤلاء القوم^[٣].

بعد هذا انعقد مجلس لانتخاب أحدهم ليكون ملكاً على بيت المقدس، وبعد مجادلات ومعارضات تمّ انتخاب أربعة وهم: غودافرو ورايموند ودوق نورمانديا وتنكريد. وأخيراً عيّنوا لجنة من الكهنة وغيرهم عددها عشرة لأجل أن ينتخبوا واحداً من الأربعة المذكورين، فانعقدت اللجنة وقرّرت انتخاب القائد غودافرو، ولما أرادوا تتويجه ليكون ملكاً على بيت المقدس، أبى أن يلبس التاج قائلاً: لا يمكنه أن يضع على رأسه تاجاً من ذهب مرصّعاً بحجارة كريمة في بلد تُوجّ فيها السيّد المسيح بإكليل من شوك، وأبى أن يُلقّب بملك القدس بل بحامي قبر المسيح^[٤].

ومن جانب آخر يتعلّق ببيت المقدس، نجد قضية التشجيع على الهجرة الغربيّة إلى

١- قدّر سبط ابن الجوزي وغيره عدد القتلى بـ ١٠٠٠٠٠، بينما قدّروهم ابن الأثير ومونروند وغيرهما بـ ٧٠٠٠٠. انظر سبط ابن الجوزي، يوسف (ت ٦٥٤ هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: مسفر الغامدي، السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٨٧م، ج ١، ص ٣٢٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٢٥. مونروند: تاريخ الحروب المقدّسة، ص ١٧٥.

٢- مونروند: تاريخ الحروب المقدّسة، ص ١٧٥-١٧٦.

٣- ابن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج، ص ٧٨-٧٩.

٤- الحريري: الأخبار السنيّة، ص ٤٨.

القدس، وكان لأخبار النجاح الذي حقّقه الحملة الصليبية الأولى أثره في تشجيع عناصر أوروبية جديدة للقدوم رغبة منهم في تدعيم الوجود الصليبي في المملكة الصليبية من ناحية، وفي الحصول على المكاسب المادية من ناحية ثانية، لذلك بدأت جماعات الصليبيين تشقّ طريقها صوب الشرق من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وغيرها من دول غرب أوروبا^[١].

وقد اتّبع ملوك المملكة الصليبية سياسة تهدف إلى تشجيع الهجرة الأوروبية إلى فلسطين، وذلك بطرق عدّة، أبرزها عن طريق إصدار مراسيم تشجيع وتسهيل هجرة المسيحيين الأوروبيين إلى فلسطين والاستيطان فيها^[٢].

لذلك هاجر كثيرون إلى القدس، وقد منحهم الملك بلدوين جزءاً كبيراً من مدينة بيت المقدس، حيث أقاموا في شمال شرق المدينة، فيما كان يعرف باسم الحي اليهودي سابقاً^[٣]. وكي يشجّع الهجرة بشكل أكبر، قام بلدوين الثاني بالطلب من البطريك بتزويد المدينة بشكل أوفر بالمواد التموينية، كما أصدر في أوائل سنة (٥١٤هـ / ١١٢٠م) قراراً بإعفاء سكّان المدينة من الضرائب المفروضة على السلع التي كانوا يتاجرون فيها، وألغى ضرائب أخرى عديدة، فحقّق من وراء هذه السياسة تشجيع الهجرة وزيادة سكّان المدينة^[٤].

ولقد استمرّت عمليّات الهجرة الجماعية من الجنسيّات الأوروبية كافّة، والتي تقدّر بعشرات الآلاف، تضمّ مقاتلين وتجاراً وحجّاجاً وأصحاب مهن؛ ففي سنة (٥٢١هـ / ١١٢٧م) أرسل الملك بلدوين الثاني هيو دي بانيز إلى الغرب الأوروبي لحثّ الأوروبيين على التوجّه إلى المملكة الصليبية للمشاركة في محاربة المسلمين والاستيطان في المملكة، وقام القديس برنارد رئيس دير كليرفور بمساعدة هيو من أجل تحقيق غرضه بتشجيع العناصر الأوروبية بالهجرة إلى القدس، إذ أخذ يدعو أهل الغرب للانضمام إلى جماعة فرسان الداوية، حيث انتقل هيو من فرنسا إلى إنجلترا، وجمع الهبات، وحشد الفرسان، واستمرّ

١- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١١١. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٢٧. قاسم: أثر الحروب الصليبية على العالم العربي، ص ٢٣٣.

٢- الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٤٧٢.

٣- الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٥٦٠-٥٦١. الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١٠٩-١١٠. النقر: التغيّرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس في فترة الصراع الإسلامي الإفرنجي، ص ١٦.

٤- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١٨٩. الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٥٨٨.

هيو دي بانيز في جولته الأوروبية حتى سنة (٥٢٤هـ / ١١٢٩م)، واستطاع أن يضم عدداً كبيراً من الفرسان إلى جماعته^[١].

وكان من نتائج تلك الهجرات أن فرضت آثارها السلبية على سكّان المناطق المحتلة، إذ جرى تفرّيع سكّاني لبعض المناطق؛ نتيجة النزوح القسري للسكّان إلى مناطق أكثر أمناً يسيطر عليها المسلمون، وهو الأمر الذي أدّى إلى تغيير في البناء الديموغرافي في كثير من المناطق التي يسيطر عليها الفرنج، بحيث تحوّلت الأقلية إلى أكثرية، وبعد أن كانت فلسطين إسلامية الطابع تحوّلت إلى مملكة لاتينية الطابع^[٢].

وقد عمل الصليبيون على تثبيت أنفسهم في القدس بعد احتلال الأراضي المقدسة عبر ثلاث طرق:

الأولى: بنائهم لعدد من الأديرة والكنائس.

الثانية: حاولوا اكتشاف جثث القديسين، إذ كانت الأرض المقدسة مليئة بهذه الآثار، وقد وجدوا بقايا بعض الجثث في بعض الأماكن، مثلاً اكتشفوا عظام البطارقة في الخليل ووجدت مسامير الصليب بزعمهم.

الثالثة: بدّلوا طبوغرافية بيت المقدس بشكل بسيط أولاً، باستيلائهم على الحرم الشريف، بينما كان هذا التبدّل والتغيير أعظم أثر في بعض النواحي، إذ أحدثوا بعض التغييرات في كنيسة القيامة مثلاً^[٣].

رابعاً: الإقطاع - الاستيطان - الهجرة والتهجير

كان لهذه الأهداف الثلاثة (الإقطاع - الاستيطان - الهجرة والتهجير) أثرها البارز لأن تكون من أهم أسباب الحروب الصليبية، والأسطر الآتية تبين ذلك.

١ - الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ٥٧٦-٥٧٧. الشارثري: تاريخ الحملة على القدس، ص ١٩٤. قاسم عبده قاسم: أثر الحروب الصليبية على العالم العربي، سكانياً، اجتماعياً، سياسياً، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج ٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٢٢٨-٢٣٣.

٢ - قاسم: أثر الحروب الصليبية على العالم العربي، ص ٢٢٥-٢٣٥.

٣ - سبانو: الحجّ إلى بيت المقدس، نصوص تاريخية من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، ص ٩٤-٩٥.

١. الإقطاع

إنَّ الروح الإقطاعية بدت واضحة في حملة الفرسان، وهم الحملة النظامية من الحرب الصليبية الأولى، وكان قد تمَّ الاتفاق على تحديد يوم الخامس عشر من شهر أغسطس (١٠٩٦هـ / ١٠٩٦م) موعدًا لخروج هذه الحملة، وبعد أن أتمَّ الفرسان استعدادهم خرجوا في عدَّة جيوش قسَّمت على أساس التقسيمات الجغرافية واللغوية، وتمَّ الاتفاق بينهم على تحديد مكان اللقاء في الشرق، كما اتَّفَقوا على أن يقود كلَّ منهم جيشًا بمفرده، وألاَّ يسير على نفس الطريق الذي سار عليه الآخرون حتَّى لا تواجههم مشكلة التموين^[١].

ومن قادة هذه الجيوش: هيوغ العظيم أخ الملك فيليب ملك فرنسا أوَّل الذين عبروا البحر، وبعده بوهموند أمير أبوليا، ثمَّ جودفري دوق اللورين، ثمَّ ريمون كونت البروفنس، وكذلك أديمار أسقف بوى. وكانت القسطنطينية نقطة التجمُّع حيث التقت الجيوش الصليبية معًا في ربيع سنة (١٠٩٧هـ / ١٠٩٧م)^[٢].

وقد جرى تنظيم حملة الفرسان، وهو الشطر المعروف بحملة الأمراء، وإعداداته إعدادًا رتيبًا، والواقع بأنَّ الشطر الخاصَّ بالأمراء في الحملة الصليبية الأولى تتألَّف من عدَّة حملات، لكلَّ منها طابعها المميَّز الذي لازمها وميَّز نشاطها في الشرق، وبعبارة أخرى: إنَّ الروح الإقطاعية بدت واضحة في حملتهم هذه، إذ تولَّى زعامتها عدَّة أمراء، لكلَّ منهم اتِّجاهاته وجنده وسياسته الخاصة، ممَّا جعل تلك الحملة في حقيقة أمرها عبارة عن حملات، وربما عملت أحيانًا في جهات متعارضة^[٣].

وقد واجهت حملة الفرسان، ومنذ البداية، مشكلة التموين، إذ لم يكن بوسعهم أن يغامروا بالخروج دونما تنظيم أو استعداد، مثلما فعلت جماهير الحملات الشعبية، وقد اعتمدوا على الصدقات والتبرَّعات، ولجأ بعضهم إلى رهن أملاكه لدى الأديرة والكنائس، على حين لجأ البعض الآخر إلى ابتزاز اليهود^[٤].

١ - قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ١٣٨-١٣٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٤٥.

٢ - الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٤٠. براور: عالم الصليبيين، ص ٤٢.

٣ - عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٤٥.

٤ - قاسم: الحملة الصليبية الأولى، ص ١٣٩.

فمثلاً لجأ جودفري إلى ابتزاز اليهود، وصرّح بأنّه سيتقمّ لدمّ المسيح منهم قبل أن يذهب إلى الحملة الصليبيّة، فسارع كالوتيموس رئيس جماعة ماينز اليهوديّة بالكتابة إلى هنري الرابع الألماني، والذي كان هو السيّد القطاعي لجودفري، يطلب منه منع جودفري من اضطهاد اليهود، وفي الوقت نفسه لجأ اليهود إلى خطّ دفاعهم التقليدي، فقدّم يهود ماينز وكونلون خمسمئة قطعة ذهبية إلى جودفري على سبيل الرشوة، وعندما كتب هنري الرابع ملك ألمانيا (٤٤٦-٥٠٠هـ / ١٠٥٤-١١٠٦م) إلى كبار الإقطاعيين من العلمانيين والكهنسيين يطلب منهم ضمان سلامة اليهود في أراضيهم، أجابه جودفري -الذي كان قد نجح في ابتزاز اليهود وضمان التمويل لحملة- بأنّه لم يفكر قطّ باضطهاد اليهود، وهكذا كشفت الحملة منذ بدايتها عن موقف مشابه لموقف الحملة الشعبيّة^[١].

وقد أدّى نظام الإقطاع الصليبي الفرنجي إلى نجاح تجربة الفرنجة في توفير الأمن للمستوطنين، وتقليص حدّة المقاومة الإسلاميّة، وتقديم الامتيازات، سواء فيما يتعلّق بتوزيع الأراضي إلى المستوطنين بعد مصادرتها من أصحابها الشرعيين، أو فيما يتعلّق بالإعفاءات الضريبية، وقد علّق الصوري على ذلك بقوله: «كانت النتيجة أنّ بدأ الذين يقيمون في المنطقة المجاورة يضعون ثقة كبيرة في هذه القلعة إضافة إلى القلعتين الأخريين، كما وقامت حولها ضواح كبيرة وكثيرة، وسكنت أعداد كبيرة من الأسر هناك، إضافة إلى مزارعي الحقول أيضاً، وأصبحت المنطقة أكثر أمناً»^[٢].

هكذا أسهم نظام الإقطاع الفرنجي في زيادة الرقعة الاستيطانيّة في فلسطين، وتعاونت المملكة مع الكنيسة في زيادة الحركة الاستيطانيّة؛ إذ استغلّ رجال الدين المنح والهبات التي قدّمت لهم لإقامة القرى الزراعيّة الفرنجيّة، وقد حصل كلّ مستوطن على ٢٤٠ فدّاناً من الأرض يبني على جزء منها ويزرع الباقي، وبالمقابل توجّب عليه دفع ضريبة سنويّة، وكان المستوطنون أحراراً في مغادرة المستوطنة عندما يشاءون؛ لأنّهم لم يحصلوا على الأرض وفقاً للشروط الإقطاعيّة في تملك الأرض، بل بكونها ممتلكات وراثيّة يحقّ لهم بيعها أو رهنها أو التصرف فيها حسب إرادتهم، إذ كانوا يدفعون الإيجار عنها.

١ - قاسم: الخلفية الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص ١٤٩.

٢ - جلال حسني سلامة: الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدّسة (١٠٩٩-١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كليّة البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٧٣٠.

فالمتمل في كتابات يعقوب الفيتري التاريخية في شتى الاتجاهات بصفة عامة، والاتجاه الاقتصادي والاجتماعي بصفة خاصة، يقف على حقيقة ما طرأ على الحركة الصليبية من تغيرات عند مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ويكشف القناع عن حقيقة الدوافع الإقطاعية الصليبية من أجل السيطرة على الأرض، واستعمارها وتفرغها من أهلها الأصليين، واستغلال مواردها الطبيعية بإقامة المستوطنات والقلاع.

ويرتبط بما نقول، القانون الذي تمّ تشريعه لورثة الإقطاع، إذ إنّ إقطاعات المملكة الصليبية كانت تُبدل للمقطع وسلالته من الورثة المباشرين وغير المباشرين، وكان هذا التشريع يهدف إلى استغلال الأرض وتوظيف الموارد المالية للمملكة، كما شجّع هذا التشريع عملية هجرة الأوروبيين إلى المناطق الصليبية والاستيطان فيها، خاصة وأنّ أوروبا شهدت في القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ازدياداً سكانياً تسبّب في حدوث اضطرابات اجتماعية، سواء في الريف أو في المدن، إذ أسهمت الزيادة السكانية في المناطق الريفية بإمداد المدن بعدد كبير من السكّان، واستمرت هذه الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن طيلة مدة الوجود الصليبي في فلسطين، والتي دامت ما يقرب من قرنين، ولقد كانت الحروب الصليبية والهجرة الأوروبية صوب المملكة الصليبية وغيرها من الإمارات الصليبية في الشرق منفذاً لتصريف الفائض والزيادة السكانية في أوروبا^[١].

وكنتيجة، وفي الناحيتين الاجتماعية والسياسية، أحدثت الحروب الفرنجية الصليبية هزة عنيفة في الغرب الأوروبي، فمن ناحية بناء المجتمع ساعدت هذه الحروب على إضعاف النظام الإقطاعي وحلّه، وهو النظام الذي قامت على أساسه الحياتين الاجتماعية والسياسية بل والاقتصادية في ذلك العصر في الغرب الأوروبي.

والمعروف أنّ النظام الإقطاعي في الغرب اعتمد على قاعدة ضخمة من الأقنان والرقائق الذين قاموا بفلاحة الأرض لسادتهم من الفرسان والأمراء، ولكنّ الحروب الفرنجية الصليبية فتحت الباب على مصراعيه لهؤلاء الأقنان ورقائق الأرض لكي يتخلّصوا من أوضاعهم، ويتركوا الأرض التي ارتبط بها آبائهم وأجدادهم بحجّة المشاركة في النشاط العسكري. وكان السيّد الإقطاعي لا يستطيع أن يمنع الفلاحين من الخروج لخدمة الدين والكنيسة،

١ - قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ٧٤-٧٥. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٩٣-١٠٠.

فوجد مُلَّاك الأرض أنفسهم فجأة أمام عجز خطير في الأيدي العاملة، بعد أن استوعبت الحملة الفرنجية الصليبية الأولى وحدها أكثر من عشرة آلاف قن، تركوا الأرض التي يقومون بفلاحتها واتجهوا إلى الشرق بحثًا عن حياة جديدة. وهكذا اضطرّ كبار الأمراء والسادة الإقطاعيين إلى البحث عن رجال أحرار يقومون بفلاحة أرضهم، ممّا أدّى إلى تصدّع الجهاز الإقطاعي وانقراض طبقة الأفتان والرقيق تدريجيًا من المجتمع الأوروبي الغربي^[١].

٢. الاستيطان والتغيير الديموغرافي

إنّ من أوضح أسباب الحروب الصليبية: القضايا التي تتعلّق بالاستيطان الصليبي والتغيير الديموغرافي، إذ تعتمد عملية الاستيطان على مجموعة من الركائز التي تسهم في نجاحها، وتجعلها حقيقة واقعة على الأرض، وتتمثّل هذه الركائز في مجموعة من القوى؛ هي القوى العسكرية والقوى الاقتصادية والمالية، وتوفّر عنصر السكّان والأرض التي يستوطن عليها المستعمرون، ولا شك أنّ هذه الركائز تحتاج إلى الدعم والمساندة من الظهير الأوروبي.

ولقد احتلّت الأرض حيّزًا كبيرًا في الصراع الإسلامي الفرنجي، وتعود أصول هذا الصراع إلى نشوء الحركة الصليبية؛ ثم أخذ يتبلور مع شدّة التضارب بين الحضارتين واقتناع كلّ من طرفي الصراع الإسلامي والفرنجي بأنّه وحده صاحب الحقّ التاريخي في أرض فلسطين.

ومن هذا المنطلق، كانت الحروب الصليبية في نشأتها وأهدافها مرتبطة بالأرض المقدّسة والمنطقة العربية وبالأهداف الاستعمارية الاستيطانية^[٢].

ولقد كان تحوّل فلسطين إلى كيان صليبي هدفًا يراود الحركة الصليبية، وقد جرى التلميح إلى المخطّطات الصليبية في كليرمونت، ويمكن أن نتبيّن من قراءة نصوص الروايات التي أوردتها المؤرّخون حول خطبة البابا في كليرمونت أنّه كان يدعو إلى حملة مقدّسة هدفها فلسطين اعتمادًا على نصوص في الأناجيل المسيحية، وذلك بهدف تحرير الكنيسة الشرقية من ربقة المسلمين، وتخليص الأرض المقدّسة من سيطرتهم، هذه الأرض التي وصفها أوروبان الثاني بأنها ميراث المسيح لمّا قال: «لذا ... فإنّني، بل إنّ الله وليس أنا، يحثّكم يا

١- الحركة الصليبية: سعيد عاشور، ج ٢، ص ١٠٦-١٠١٠.

٢- الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٣٦. قاسم: نصوص، ص ١١.

جنود المسيح أن تحضُّوا الرجال ... أن يسارعوا لسحق هذا الجنس الخسيس من أراضينا، ويمدِّد العون للسكان المسيحيين»^[١].

وبالتالي شكَّلت الأرض على الدوام أحد أهم أهداف الغزو الصليبي بشكل عام وغزو فلسطين بشكل خاص؛ بصفته مشروعاً إقطاعياً استيطانياً قوامه استقدام المهاجرين الأوروبيين وإحلالهم في الأراضي العربية والفلسطينية محل أصحابها الأصليين؛ فقد جاء على لسان البابا في كليرمونت ما نصّه: «أنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب، واحكموها بأنفسكم؛ لأنَّ هذه الأرض التي تفيض باللبن والعسل كما يقول الكتاب المقدس أعطاهها الرب ملكاً لبني إسرائيل».

وكان الفرنج يهدفون إلى غزو الأراضي الإسلامية في الشرق؛ لأنَّ الأرض ضرورية كأساس مادي للحكم، وقد تطلَّب الاستيطان الفرنجي الدائم في فلسطين الحصول على المزيد من الأراضي، ولضمان الاتصال مع الظهير الأوروبي كان على الفرنج أن يوطدوا سيطرتهم ونفوذهم على الساحل الفلسطيني والسوري.

لقد كان الاستيلاء على الأرض في بلاد الشام عامّة، وفلسطين خاصّة، الشرط الضروري المسبق لاستيطان الأنحاء المختلفة من بلاد الشام؛ لذلك أحاطت الأيديولوجيا الصليبية الأرض بهالة من القداسة؛ كما رفعت هذه الأيديولوجيا مهمة تخليص الأرض المقدسة إلى مستوى الفريضة الدينية، فالبابا في كليرمونت دعا إلى حملة مقدسة هدفها الأول فلسطين اعتماداً على نصوص وردت في الإنجيل، لتخليص الأرض المقدسة من سيطرة المسلمين، هذه الأراضي التي وصفها الكتاب المقدس بأنّها الأرض التي تفيض باللبن والعسل، كما وصفها أوربان الثاني بأنّها ميراث المسيح، لذا طالب الجموع المحتشدة بقوله: «يجب أن تدافعوا بالسلاح عن حرية أرض الآباء حقاً وعدلاً»^[٢].

وهذا كله يدلّ على وجود خطة صليبية ممنهجة ومدروسة لتغيير ديموغرافية المدينة المقدسة، ويؤيّد ذلك أن هذه الحالة استمرّ عليها الصليبيون قرابة تسعين عاماً، ولم يُسمح

١ - الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٣٦.

٢ - رواية روبر الراهب عن مجمع كليرمونت، رواية جيويرت النوجتي عن مجمع كليرمونت، ص ٧٩، ٨١. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤.

للمسلمين بالعودة إلى بيت المقدس أو دخولها إلا لتقديم بعض الخدمات التجارية^[١].

وعلى ذلك يمكن القول بأنَّ الحركة الصليبية كانت في جوهرها حركة استيطانية قام بها الغرب الأوروبي ضدَّ الشرق الإسلامي، وقد أيدَّ هذا القول بعض المؤرِّخين الغربيين أمثال جروسيه، الذي عدَّها حركة استيطانية استعمارية قدَّمت من الغرب إلى الشرق بقوله: «إنَّ الحروب الصليبية أدَّت إلى أوَّل توسُّع استعماري للغرب المسيحي في الشرق العربي».

وعدَّها المؤرِّخ برنارد لويس «حركة استعمارية هدفها التوسُّع الاستعماري الغربي في الشرق»، في حين حكم عليها تريفليان في كتابه (مختصر تاريخ إنجلترا) بأنَّها «حركة اتِّساع خارجي قامت بها أوروبة المسيحية ضدَّ العرب».

وتحدَّث المؤرِّخ هنري وليم كارلز ديفز في كتابه (أوروبة في العصور الوسطى) عن الحروب الصليبية تحت عنوان: الاستعمار الأوروبي، قائلاً: «إنَّ الشغل الشاغل للحكَّام اللاتين في الثمانين سنة التي أعقبت تأسيس المستعمرات الأوروبية في الأرض المقدسة هو توسيع حدود تلك المستعمرات وتدعيمها تحت تاج بيت المقدس»^[٢].

ويرى جوزيف نسيم أنَّ الحركة الصليبية كانت تهدف منذ البداية إلى التوسُّع والاستعمار تحت قناع من الدعاية الدينية، وأنَّ غرضها الحقيقي هو الاستيلاء على فلسطين بالقوَّة المسلَّحة، وتأسيس مستعمرات لاتينية لها ثمَّ العمل على تعزيز هذه المستعمرات، وتوسيع حدودها، والمحافظة عليها بشتَّى الطرق والوسائل حتَّى تكون رأس جسر لأهل الغرب الأوروبي يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربي وكسر شوكته ضمناً لبقاء نفوذهم في المنطقة^[٣].

وقد عنون يوشع براور كتاباً كاملاً باسم (الاستيطان الصليبي في فلسطين)، وذكر أنَّ

1- Prawer, Jusha: The Sattlement Of the Latins In Jerusalem, Speculum (1952. Vol 27) P.494.

أنس المحمَّد: الحياة الاجتماعية في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور عمَّار النهار، جامعة دمشق، ٢٠١٠م، ص ٣٠.

٢- رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤-٥. جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ١٠٣-١٠٤.

٣- رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤-٥. جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية إبَّان العدوان الصليبي، ص ٨.

استيطان الفرنجة في منطقة الشرق العربي كان «بمثابة أولى المحاولات التي تهدف إلى تأسيس مملكة استيطانيّة في هذه المنطقة». ويرى بلدوين مارشال أنّ السنوات التي أعقبت تأسيس الدويلات الثلاث في أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس «كانت سنوات رخاء، واكتمل نضج تطوّرها كمستعمرات أوروبيّة غربيّة»^[١].

وكما قال بعضهم: «إنّه كأنّ أوروبة اقتلعت وجاءت إلى الشرق، فقد جاء الصليبيّون ليقيموا، وجاءوا معهم بالخدم والعبيد والأتباع والرّحالة والأدباء والشعراء ورجال الكنيسة والنساء والأولاد»^[٢].

وممّا يدلّ على أنّ الفرنج الصليبيين غيّروا ديموغرافيّة القدس؛ ما قام به صلاح الدين الأيوبي من إجراءات مضادّة بعد تحرير القدس، ولننظر ماذا فعل:

– حرّر صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ٢ تشرين الأول ١١٨٧م، ولم يعامل الصليبيين بالمثل، وإنمّا أظهر معهم تسامحاً يُضرب المثل به^[٣].

وبعد ذلك انتقل إلى معالجة كارثة التغيّر الديموغرافي التي قام بها الصليبيّون، فقام بما يأتي:

– اتّفق مع الصليبيين على دفع فدية محدّدة تختلف بين الرجل والمرأة والطفل، وقبل صلاح الدين أن تدفع السلطات الصليبيّة مئة ألف دينار عن جميع الفقراء العاجزين عن دفع الفدية، ثمّ تمّ افتداء سبعة آلاف نسمة بثلاثين ألف دينار.

– بدأ بترحيل الصليبيين عن بيت المقدس بطرق سلميّة، وضمن لهم سلامة الرحيل إلى صور وطرابلس وأنطاكية وبقية قلاعهم التي لم تسقط بعد.

– ضمن صلاح الدين أنّ المدينة أصبحت شبه خالية من السكان.

١- رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤-٥. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٨٣.
٢- زكي النقاش: العلاقات الاجتماعيّة والثقافيّة بين العرب والفرنّج خلال الحروب الصليبيّة، بيروت، ١٩٥٨م، ص ١٤٦-١٥٣.
٣- ابن شدّاد، بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ): النوادر السلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة، تصحيح: محمّد الرخاوي، مطبعة محمّد صبيح، القاهرة، مصر، ١٣٤٦هـ، ص ٦٦.

— أطلق عدداً من المشاريع العمرانية والاجتماعية لإعادة بيت المقدس إلى حالته الطبيعية الحقيقية السابقة، وصفته العربية الإسلامية.

— بدأ بعملية الإسكان من خلال عشرة آلاف كانوا قد جاؤوا معه^[١].

— تدفّق الناس إلى المدينة وسط فرحتهم الكبيرة بالنصر، فأتوها «رجالاً وركباناً من كلّ جهة»^[٢].

— جلب صلاح الدين عدداً من القبائل العربية وأسكنهم المدينة وما حولها، فأسكن بني سعد في الحي الذي عرف فيما بعد باسمهم (حارة السعدية)، وكلّفهم بحراسة باب الخليل، وسكن بنو الحارث عند القلعة خارج المدينة في خان الزيت، وأسكن بني زيد عند عقبة الشيوخ من جهة الشمال قرب باب الساهرة في مكان عُرف بحارة بني زيد، وأسكن قبائل بني مرة من جهة الغرب الشمالي في سوق الفخر^[٣].

— شجّع صلاح الدين عدداً من الذين جاهدوا معه على السكن في المدينة، مثال ذلك المغاربة، الذين زادت أعدادهم في بيت المقدس عقب الفتح الصلاحي للمدينة، إذ أعطاهم صلاح الدين الأيوبي ميزات عديدة، فجعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم.

ونظراً لأهمية هؤلاء المغاربة وكثرتهم أوقف عليهم الملك الأفضل نور الدين علي الابن الأكبر لصلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م البقعة التي اعتادوا على الإقامة فيها، وعُرف المكان فيما بعد بحيّ أو حارة أو محلّة المغاربة^[٤].

— ثمّ سمح صلاح الدين للمسيحيين الساكنين ببيت المقدس بالبقاء فيه، بل أعاد للأقباط الأماكن التي اغتصبها منهم الصليبيون^[٥].

١- ابن شدّاد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٦٧. المقرئزي، أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمّد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٧٣م، ج ١، ق ١، ص ١٢٢. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، ط ١، ١٩٥١م، ج ٨، ق ١، ص ٣٩٩.

٢- المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ١، ص ٩٧.

٣- عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٥م، ص ٢٨٥.

٤- عبد الهادي التازي: أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ١٩٨١م، ص ٦.

٥- العارف: المفصل في تاريخ القدس، ص ٧٦٠.

– وسمح لليهود أيضاً بالإقامة ببيت المقدس، وذلك ضمن مخطّطه لإعادة إسكان المدينة، فلم يكن اليهود في ذلك الوقت يشكّلون خطراً على الطابع الإسلامي للمدينة، بسبب أعدادهم القليلة جداً، إذ ذكر الرّحالة اليهودي بنيامين التطيلي حوالي عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م)، أنّ عددهم بلغ حوالي ٢٠٠ يهودي يقيمون في حيّ مجاور لبرج داود، أما الرّحالة اليهودي الآخر بتاحيا الراتسبوني الذي زار بيت المقدس قبيل الفتح الصلاحي للمدينة، فذكر أنّه لا يوجد في المدينة إلّا يهودي واحد، هو إبراهيم هلتسيفغ^[١].

– بادر صلاح الدين نحو تحقيق الاستقرار السياسي والاقتصادي.

– بعد كلّ ذلك انطلق نحو برنامج عمراني شامل تضمّن تشييد المساجد، والمدارس، والخانقوات، والزوايا، ودور الحديث، ودور القرآن، ومكاتب الأيتام، والبيمارستانات، والسبل، والمطاهر، والربط^[٢].

وبالنتيجة، وللمرّة الأولى منذ الفتح الإسلامي لبلاد الشام، أصبح للصليبيين إمارات أوروبية خالصة في بلاد الشام بإدارتها ونظامها وعقائدها، بحيث يمكن القول إنّ مدناً أوروبية أقيمت في المشرق واستوطنها الصليبيّون.

٣. الهجرة والتهجير

يرى فريق من المؤرّخين، وعلى رأسهم المؤرّخ كنج، أنّ الحركة الصليبيّة ليست في حقيقة أمرها سوى الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي صاحبت انهيار الإمبراطوريّة الرومانيّة في الغرب عام ٤٧٦م، وذلك أنّ سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، أعقبته موجات من الهجرات تفاوتت في مداها واتّجاهها وأثرها.

يضاف الى ذلك أنّ تدفّق الهجرات داخل الإمبراطوريّة ترتّب عليه قيام مجتمع جديد

1- Greatz , Heinrich: History of the jews , London, 1982, vol III , P. 475.

بنيامين التطيلي: الرحلة، ترجمة: عزار حداد، بغداد، ١٩٤٩م، ص ٩٩.

٢- انظر كامل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس، مطبعة جمعيّة عمال المطابع التعاونيّة، عمّان، ١٩٨١م. عبد الجليل عبد المهدي: المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأفضى، عمّان، ١٩٨١م.

دعمه الجرمان بدماء جديدة وحيوية دافقة، ظهر أثرها في معظم الهجرات التي اتجهت إلى إنجلترا وصقلية وجنوب إيطالية وشمال أفريقية^[١].

والتاريخ مليء بحركات الهجرة وانتقال الشعوب من مكان إلى آخر، ومن هذه الحركات العديدة ما اتخذ طابعاً سلمياً معتدلاً، ومنها ما اتخذ طابع الغزو العنيف الذي يستهدف تشريد أهل البلاد وحرمانهم من حقوقهم وأراضيهم، ومهما تعددت الأسباب الظاهرية لتلك الهجرات، فإنَّ الاتجاه الحديث يحاول دائماً أن يفسرها في ضوء العامل الاقتصادي، ومن المبالغة نسب جميع الهجرات الكبرى في التاريخ إلى العامل الاقتصادي، فهناك أمثلة لحركات ضخمة شاركت في بعثها وتوجيهها عوامل أخرى دينية وفكرية واجتماعية وسياسية، فضلاً عن العوامل الاقتصادية، ومن هذه الحركات الحركة الصليبية، والواقع أنَّه لا توجد حركة في تاريخ العصور الوسطى أحق بالدراسة لكشف حقيقتها وإبراز معالمها من الحركة الصليبية^[٢].

وكدليل واضح، فإنَّه مع سقوط القدس، بدأت جماعات الصليبيين تشق طريقها صوب الشرق من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وغيرها من دول غرب أوروبا، وتؤكد المصادر أنَّ عدداً كبيراً من هؤلاء القادمين الجدد كانوا من النساء والأطفال وغير المقاتلين، ممَّا يجعل هذه الحركة هجرة أكثر من كونها حملة عسكرية^[٣].

وكتطبيق عملي، نجد أنَّ الحملة الصليبية الأولى رافقها عمليات تهجير وهجرة لعدد كبير من السكَّان؛ كما حدث تفريغ سكَّاني لبعض المناطق والمدن، وهرب سكَّان المناطق التي تعرَّضت للعدوان إلى مناطق أخرى أكثر أمناً؛ فتؤكد معظم المصادر التاريخية المتوفرة بشكل واضح أنَّ موجات كبيرة من اللاجئين طُردوا وهُجِّروا من مدنهم وقراهم أثناء العمليات العسكرية للقوات الصليبية لاحتلال الأراضي المقدسة، كما عبَّر ابن القلانسي، حتَّى كادت

١ - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٣.

٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبية، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤م، ص ٧-٨.

٣ - الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ١١١. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٢٧. قاسم: أثر الحروب الصليبية على العالم العربي، ص ٢٣٣.

فلسطين تخلو من سكّانها الأصليين الذين تفرّقوا في البلاد، كما عبّر الرَّحّالة ابن جبير^[١]. ونقف على اعتراف واضح من أحد الصليبيين، هو المؤرّخ فوشيه الشارترى، وذلك بقوله: «كان المواطنون الشرقيّون قد ولّوا الأدبار لما سمعوا الشائعات بمقدمنا، ولم يبق إلاّ أولئك الذين فاقوا الهباب سواداً فتركناهم، وعاملناهم باحتقار»^[٢].

وكانت النتيجة أنّ أدّت العمليّات العسكريّة الصليبيّة الهادفة لاحتلال فلسطين إلى ارتكاب المذابح والمجازر الجماعيّة، وإلى هجرات متتالية لما أحدثته من هول وفرع للكثيرين من سكّان القرى والمدن، ممّا أدّى إلى ضياع الأرض، فضلاً عن ظهور مشكلة اللاجئين التي اكتظّت بهم بعض المدن الإسلاميّة^[٣].

ويضاف إلى ذلك أنّ القوات الصليبيّة اتّبعَت سياسة تهدف إلى مصادرة عقارات وممتلكات السكّان المنقولة وغير المنقولة، وفقاً لـ (قانون الغزو The Law of Conquest) الذي أصبح منذ مدّة باكرة جزءاً من تشريع المملكة الصليبيّة. ووفقاً لقانون الغزو، فإنّ القائد الصليبي الذي يرفع رايته فوق أيّ موضع أو قرية أو منزل أو فرن، يصبح هذا الموضع ملكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد^[٤].

ووصف الشارترى هذا القانون -عند حديثه عن المذبحة التي ارتكبتها الفرنج في بيت المقدس- بقوله: «وبعد هذه المذبحة العظيمة دخلوا بيوت المواطنين يمتلكون ما وجدوا فيها، وقد ربّوا ذلك بحيث أنّ أوّل من يدخل بيتاً، سواء كان بيت غني أو فقير، فلن يعارض بذلك أيّ إفرنجي، وله أن يسكن ويمتلك ذلك البيت أو القصر وكلّ ما فيه كما لو كان بيته حقاً، وهكذا تبادلوا القرار بحق الاستملاك، وبهذه الطريقة أصبح كثير من فقراء الفرنجة أغنياء»^[٥].

١ - ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦. ابن جبير، محمّد بن أحمد الكتاني (ت ٦١٤هـ): تذكّرة بالأخبار في اتفاقيّات الأسفار، علق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٢٣٨. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٧.

٢ - الشارترى: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٠٩.

٣ - رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٩.

٤ - ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاه بيت المقدس، ترجمة: حسين محمّد عطية، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٢٣٥. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٣.

٥ - الشارترى: تاريخ الحملة على القدس، ص ٧٦.

ليس هذا فحسب، بل الأخطر من ذلك هو قيام الصليبيين بإنشاء مستعمرات استيطانية، وذلك عن طريق إحلال مستوطنين جدد من شتى أنحاء الغرب الأوروبي، إذ قاموا في هذه المستوطنات بتأسيس مجتمعات زراعية أوروبية في الشرق، ولقد ساعدت هذه المستوطنات على جذب المهاجرين الأوروبيين للقدوم إلى فلسطين والاستيطان فيها، وعمل هؤلاء المستوطنون الجدد على تعمير بعض القرى التي كان قد هجرها أهلها، أو أجبروا على إخلائها.

وبالتالي بدأت سياسة استيلاء الصليبيين على بعض المدن والأرياف الفلسطينية بمدّة وجيزة، وجرى تنفيذها على مختلف المستوطنات، سواء من قبل ملوك المملكة الصليبية والأمراء الإقطاعيين، أو من قبل رجال الدين اللاتين وجماعات الفرسان الدينية أو الجاليات التجارية الإيطالية^[١].

وحين زار ثيودريش فلسطين، ذكر أنّ الصليبيين قد أنشؤوا عددًا من المدن والقرى الجديدة في أنحاء الأرض المقدسة، وقد أورد بنفينستي قائمة بالمستوطنات البشرية التي أقامها الفرنجة بعد الاحتلال الفرنجي للصليبي لفلسطين، ذاكراً مساحتها وأعداد السكّان فيها؛ إذ ذكر أنّ مجموعها قد بلغ حوالي ثمانين مستوطنة، في حين ذكر براور أنّ عدد المستوطنات الصليبية قد وصل إلى حوالي مئة مستوطنة، وشملت هذه المستوطنات الصليبية مدنًا، وقرى، وقلاعًا وحصونًا صغيرة^[٢].

خامسًا: الأسباب الاقتصادية

يتراءى لنا أنّ السبب الاقتصادي هو سبب أساسي من أسباب الحروب الصليبية، ومن الممكن التدليل على ذلك بعدة أمور، منها:

ـ حالة التكاثر البشري التي سادت أوروبا، وما نتج عنها من تردّي الأحوال الاقتصادية، والتراجع في الموارد والإنتاج.

١- براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٠٧. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ١٤.
٢- ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البشاوي، رياض شاهين، دار الشروق، عمّان، الأردن، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٢٢٥-١٢٢. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤٩٩. رياض شاهين، حسام الأغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٤٠-٤٢، (وانظر تفاصيل قيام هذه المستوطنات وأعدادها وظروفها في المرجع نفسه، ص ٤٢-٥١).

- ١- تزايد القوى الحربيّة، وكثرة عدد الفرسان دون عمل أو إقطاع^[١].
- ٢- خطاب البابا أمام الجموع، وتعبيره عن الأوضاع الاقتصاديّة المتردّية التي كانت تعيشها أوروبا آنذاك، ثمّ إنّّه حاول إثارة الرغبة والإغراءات لمّا قال إنّ أورشليم (القدس) «هي فردوس المباهج، وهي الأرض التي تدرّ لبنًا وعسلًا»^[٢].
- ٣- ظهور حركة اقتصاديّة في أوروبا تبحث عن الموارد، قادتها مجموعة من المدن في جنوب أوروبا، وخاصّة في سواحل إيطاليا، كالبنديّة وجنوا وناپولي، فأخذت هذه المدن تتاجر مع الشرق بالخشب والحريّر والتوابل والحبوب والذهب. وقد حرّضت هذه المدن التجاريّة على الحملات الصليبيّة، واستغلت في الوقت نفسه هذه الحملات والهجرة الغربيّة معها، إلى حرب بحريّة اقتصاديّة ضمن البحر المتوسّط، إلى جانب الحروب البريّة في الشام وصقلية والأندلس^[٣].
- ٤- وكان للباعث الاقتصادي أثره الأكبر في تحريك القوى البحريّة الإيطاليّة -وبخاصّة الثلاثة الكبار جنوا والبنديّة وبيزا- نحو المشاركة في الحروب الصليبيّة، وتقديم مساعداتها البحريّة بالشام، مقابل ما حصلت عليه من امتيازات واسعة في موانئ الشام ومدنه. ولم يلبث التجّار الأوروبيّون -من إيطاليا ومرسليا وإسبانية- أن قاموا بنشاط تجاري واسع بين الشرق والغرب، فأسسوا لأنفسهم مراكز وأحياء ثابتة في عكا وصور وصيدا والسويديّة واللاذقيّة وغيرها، ومن هذه المراكز احتكروا تصدير حاصلات الشرق إلى الغرب الأوروبي.
- ٥- وقد أدّت سيطرة الأوروبيين على معظم شواطئ الشام في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى تدفق تلك البضائع بواسطة القوافل -عن طريق بلاد العرب والعراق- على دمشق، ومنها إلى موانئ الشام الساحليّة حيث كانت تشحنها السفن إلى الغرب^[٤].
- ٦- ونرى سببًا آخر يتعلّق بالجانب الاقتصادي، وهو ما يسمّيه الغرب بنهضة القرن الثاني عشر، وهو ليس سوى محاولة من القوى البشريّة الأوروبيّة لإيجاد مخرج لها من الضائقة

١- مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ص ٦٩٠ وما بعد.

٢- الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي، ص ٣٤. عاشور: الحركة الصليبيّة، ج ١، ص ٣٤-٣٧.

٣- مصطفى: موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها، ص ٦٩٠ وما بعد.

٤- عاشور: الحركة الصليبيّة، ج ٢، ص ٩٩٩.

الاقتصادية العامة، فكان نتيجة ذلك ظهور حركة الاصلاح الديني التي تحاول أن ترضي الله^[١].
 _ ثم إنَّ أحد التفسيرات الاجتماعية الاقتصادية لأحد أسباب الحروب الصليبية؛ أنَّ البابوية كانت ترغب في التخلص من المجرمين الأوروبيين^[٢] وإرسالهم إلى الشرق، بحجة تكفير الذنوب، فانخرط الآلاف منهم في الحركة الصليبية على امتدادها الزماني والمكاني، فصارت بلاد الشام وسواحلها مرتعاً خصباً لأعمالهم الإجرامية، وأدت أعمالهم إلى توتير الأمن العام في معظم الأوقات، حتّى في أوقات السلم بين المسلمين والصليبيين^[٣].

وإنَّ أعمال السلب والنهب التي حدثت من هؤلاء تشير إلى دلالات كثيرة، اقتصادية ودينية واجتماعية، فأسر الفلاحين التي تفوق الحصر في آلاف الضياع، حملت ممتلكاتها، ومنهم النساء والأطفال، على عربات ثقيلة تجرّها الثيران والخيول، وشقّوا طريقهم صوب الشرق، منهم من عدّها أمراً إلهياً، ومنهم من رآها فرصة لتحرير أنفسهم من الفقر والعبودية ورق الأرض^[٤].

وقد تحرّكت هذه الجموع في ربيع سنة (٤٩٠هـ / ١٠٩٦م)؛ أي بعد نصف عام فقط من خطبة كليرمونت، صانعة تاريخ طلائع الفلاحين التي سبقت حملة الفرسان الصليبية الكبرى، فانضمت أسر الفلاحين إلى بعضها البعض، وتزايدت أعداد الجماعات المتّجهة صوب حوض الراين بحيث صارت فرقاً وجيوشاً، وتحركّ البعض دونما قيادة^[٥].

لكن سرعان ما تعرّضت مسيرة الكنيسة المقاتلة، التي تصاحبها التراتيل المقدّسة، والتي بدأت كتعبير عن شعور ديني، إلى أحداث شوّهت صورتها، إذ ارتكبت واحدة من أكبر فظائع النهب والسلب والقتل في التاريخ تلك المذابح الدموية التي أجهزت على الجماعات اليهودية في حوض الراين، وهي جماعات يعود تاريخ بعضها إلى عصر الإمبراطورية الرومانية، فكانت النتيجة أن تلاشت جماعات يهودية بأسرها، كما لاقى آلاف اليهود حتفهم؛ لأنّهم رفضوا التعميد المسيحي.

١- مصطفى: موسوعة دول العالم الاسلامي ورجالها، ص ٦٩٠ وما بعد.

٢- تراكم هؤلاء الأفراد على هامش المجتمع كبؤر للسلب والنهب.

٣- انظر: المجلة الجزائرية للدراسات والأبحاث، العدد ١، مج ٥، ٢٠٢٢م، بحث: العناصر الهامشية المنحرفة خلال عصر الحروب الصليبية، اللصوص نموذجاً: أشرف صالح محمد سيّد، ص ٦٥٥-٦٦٨، وقد دار مدار البحث حول هذه القضية.

٤- براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٦.

٥- انظر أنا كومينا: الأليكسياد، ج ٦، ص ١١. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص ٣٨. رنسيما: تاريخ الحملات الصليبية، ج ١، ص ١٨٠-١٨١.

وهنا تجب الإشارة إلى حقيقة أنَّ اليهود يتحمّلون جزءاً من مسؤوليّة ما حدث لهم، إذ كانت الجماعات اليهوديّة تسيطر على شؤون المال والتجّار في أوروبا الوسطى، وكانوا يقرضون المال لأبناء الطبقة الإقطاعيّة، وكانت للديون الثقيلة الأثر الكبير في إذكاء العداوة الكامنة في نفوس المسيحيين.

ثمّ استمرّت هذه الجموع ترتكب أعمال السلب والنهب والإجرام في كلّ مكان مرّوا به^[١]. وما يهمننا من إيراد بعض تفاصيل مسير الصليبيين، أنّ بطرس الناسك أطلق عليهم اسم: لصوص، وهذا يعطي وجهاً اقتصادياً معيّناً للحملة، فلو نظرنا إلى مشهد آخر من الحملة الأولى (الشعبية)، فسرى أنّه بسبب الطمع والفوضى وقع الصليبيّون في شباك كمين أعدّه الأتراك السلاجقة وأجهزوا على الحملة الشعبيّة، وقُتل والتر المفلس، وتمكّن بطرس الناسك من النجاة والهرب إلى القسطنطينيّة، وأخذ يشكو بمرارة من الصليبيين لعدم إطاعتهم أوامره، وصار يسمّيهم لصوصاً^[٢].

سادساً: الأسباب الحضاريّة

يمكن تفسير أحد أسباب الحروب الصليبيّة بربطه بالعامل الحضاري؛ كونه صراعاً بين حضارتين مختلفتين، وليس إلى عوامل دينيّة فقط.

ويرى أنصار هذا الرأي أنّ النزاع بين الشرق والغرب كالبركان، يهدأ حيناً ويثور حيناً آخر، حتّى اشتدّت ثورته في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ووجد منفساً له في الحروب الصليبيّة، وزاد من حدّة هذا الصراع الخلاف الديني بين الإسلام

١- انظر عمّا سبق: المؤرّخ المجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ج٦، ص٧٩. براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، ص٣٨-٤٠. قاسم: الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص١٢٨. عاشور: الحركة الصليبيّة، ج١، ص١٣٨. قاسم: ماهية الحروب الصليبيّة، ص١١٤.

٢- آنا كومنينا: الأليكسياد، ج٦، ص١٦. قاسم: ماهية الحروب الصليبيّة، ص١١٥-١١٦. وقد ظهر زعيم آخر من زعماء العامّة اسمه والتر الملقّب بالمفلس، وهو أوّل من انطلق برحلة الحجّ ١٠٩٦م، وسار على خطاه قسّ ألماني يدعى جوتشولك، وآخر اسمه فولكمار، وقد ارتكب جيشاهما من الأهوال والفظائع والنهب والسلب ما جعلت جيش المجر يمزّق عصابات فولكمار، وبعدها بأقلّ من يومين، فتك بعصابات جوتشولك. وقد أورد وليم الصوري رواية عن هذه العصابات، منها عصابة الكونت أميخو، وانضمّ إليهم وليم النجّار وعدد من النبلاء المتعطّشين للدماء في فرنسا وألمانيا، وقد ارتكبوا أبشع الجرائم. انظر الصوري: الحروب الصليبيّة، ج١، ص١١٢-١٣٤. ألبرت الآيكسي من خلال الترجمة العربيّة الكاملة عند قاسم: الحملة الصليبيّة الأولى، ص١٠٥-١٢٢. عاشور: الحركة الصليبيّة، ج١، ص١٣٧. قاسم: الخلفيّة الأيديولوجيّة للحروب الصليبيّة، ص١٣٣-١٣٥.

والمسيحية^[١].

وعُدَّ عدد من المؤرخين إشعاع المبادئ الإسلامية والتحضر العربي الإسلامي من العوامل التي حركت البابا جريجوري السابع ثم البابا أوربان الثاني للتفكير ثم للإعداد للحروب الصليبية، إذ أرادوا إنهاء الدين الإسلامي بكل ما يحمله من تعاليم سماوية منطقية؛ لأنَّ هذه الحضارة كانت العدو الحقيقي للبابوية، وبالتالي فالدين الإسلامي وما يحمله من مبادئ الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية يُعدُّ من الأسباب المهمة التي أشعلت نار الحروب المقدسة^[٢].

في حين، وعلى النقيض من مفهوم الكنيسة، نرى كثيرًا من المؤرخين يؤكدون على أهمية الشرق كمعبر من معابر الحضارة العربية الإسلامية، وإنَّ هذه الحروب كانت العامل الوحيد الذي من الممكن أن يؤدي إلى تقدُّم أوروبا^[٣].

لذلك كان القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي هو الأهم في نقل مظاهر وعناصر الحركة العلمية من «دار الإسلام» إلى أوروبا؛ لأنَّ هذا القرن شهد مرحلة الحروب الصليبية، فخلال هذه الحروب حصلت عملية تماس إجباري، على مستوى واسع، بين المجتمع العربي الإسلامي من جهة، وحشود من الأوروبيين الغزاة من جهة ثانية، وقد حصل هذا التماس في بلاد الشام بالذات حيث أنشأ الصليبيون إمارات أوروبية مستقلة في كلِّ من الرها، وأنطاكية، وطرابلس الشام، ومملكة مسيحية في القدس، وبالرغم من حالة العداء التي كانت تفرض العديد من المعارك والمناوشات الحربية، فقد قامت علاقات واقعية بين الطرفين، وخاصة في أوقات المهادنة، على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعلمي.

يقول مؤرِّخ الطب المعروف الدكتور لوسيان لوكليك في رصد هذه الظاهرة: «هناك تفكيران عصفا بأوروبا في القرن الثاني عشر: الأوَّل ديني متعصَّب دفع الأوروبيين للقيام بالحروب الصليبية، والثاني متعطِّش للعلم دفعهم للتفتيش عن منابعه لدى العرب المسلمين،

١ - عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٣.

٢ - ابن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج، ص ٤٥-٤٦.

٣ - الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي، ص ٤٠-٤١.

وهذان التياران سارا بالتوازي إلى أقاصي العالم الإسلامي).

ونحن، من جهتنا، إذا كنّا نحترم هذا القول وصحّته وحسن نيّة قائله، فإنّنا نرى أنّ هذين التيارين لم يسيرا بالتوازي - كما يقول لوكليرك - وإنّما تبع أحدهما الآخر، أو بالأحرى خلق أحدهما الآخر، إذ إنّ الحملات الصليبيّة الأولى فتحت عيون العالم الأوروبي على كنوز الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وخلقت لديه نهماً علمياً للحصول على مثل لها أو تقليدها.

وهكذا يمكننا القول: إذا كان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي قد شهد انتقال بعض مظاهر الحركة العلميّة العربيّة إلى أوروبا عبر بوابتي الأندلس وجنوبي إيطاليا، فإنّ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، الذي حصلت فيه الحملات الصليبيّة الأولى وإنشاء الممالك والإمارات الصليبيّة، شهد عمليّة انتقال مشابهة عن طريق ثغور بلاد الشام المحتلّة (أنطاكية، طرابلس، بيروت، صور، عكا، عسقلان...^[١]).

لكن ينبغي أن نشير إلى أنّ الصليبيين وإن كانت استفادتهم من علوم العرب والمسلمين أقلّ ممّا يجب؛ لأنّ الجيوش الصليبيّة جاهلة ولم تكن تبالي بالمعارف، كما يقول غوستاف لوبون، فإنّهم اقتبسوا من الحضارة العربيّة الإسلاميّة في ميدان العمران والصناعة والنظم الاجتماعيّة والسياسيّة أكثر منها في ميداني الفكر والفن، واقتبسوا الشورى وتحرير العبيد وحقوق المرأة والعلاقات الدوليّة وأمثالها^[٢].

وبالتالي كانت الحروب الصليبيّة أكبر لقاء جماعي في التاريخ بين الشرق والغرب، فقبل تلك الحروب، كان اللقاء والاتّصال بالغرب مقصوراً على حجّاج بيت المقدس والتجار والطلبة والرحّالة، ومنّ إليهم، ولكن عندما جاء الفرنج إلى المشرق، كانوا كأنّ أوروبا اقتلعت وجاءت إلى الشرق^[٣].

وفي هذا المجال يذكر المستشرق جيون أنّ عصر العلم العربي يتوافق مع أكلح عصر من

١- أمجد الهندي: دور العرب في تقدّم علوم الطب، دار سعاد الصباح، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص ١٧٠-١٧١.

٢- أبو عبيد: الحضارة الإسلاميّة (دراسة في تاريخ العلوم الإسلاميّة)، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط١، ٢٠٠٤م، مج ٢، ص ٩٥٤، ٩٥٥. وانظر هاني مبارك وشوقي أبو خليل: دور الحضارة العربيّة الإسلاميّة في النهضة الأوروبيّة، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٦م، ص ٥٤-٥٦.

٣- انظر: زكي النقاش: العلاقات الاجتماعيّة والثقافيّة بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبيّة، ص ١٤٦-١٥٣. عبد المعين الشواف: دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين، ص ٣٧٨.

حوليات أوروبا وأكثرها جهلاً، وأنَّ انتعاش العلم الغربي كان بسبب تأثير المعرفة العلميّة العربيّة على أمم غربي أوروبا، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات العرب العلميّة، ونقلها من اللغة العربيّة إلى اللغة اللاتينيّة.

ودائماً ما يثبت الباحثون أنَّ تأثر الثقافة والعلوم الغربيّة بالثقافة والعلوم العربيّة، حدث عبر الأندلس وجنوبي فرنسة صقليّة وجنوبي إيطاليا، وأنَّ هذا الاتصال تمَّ في عصور مختلفة، لا سيّما في القرون الثلاثة: الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر للميلاد/ السادس والسابع والثامن للهجرة^[١].

ولكنّهم لم يعطوا أثر الحروب الفرنجيّة الصليبيّة في نقل الحضارة حقّها من البحث كما ينبغي.

فمن الثّابت علمياً أنَّ الغرب الأوروبي ظلَّ طيلة الشطر الأوّل من العصور الوسطى حتّى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد غارقاً في غمرة من التأخّر الحضاري، في الوقت الذي كان العرب في المشرق والمغرب منذ القرن الأوّل الهجري/ السابع الميلادي ينعمون بمستوى حضاري رفيع.

كذلك أثبتت الأبحاث الحديثة أنَّ ثمة حركة إفاقة شاملة دخل فيها المجتمع الأوروبي في عصر الحروب الصليبيّة، وأنَّ هذه الحركة شملت جميع نواحي الحياة في الغرب، حتّى أطلق عليها (هاسكنز) اسم «النهضة الأوروبيّة في القرن الثاني عشر».

وعندما بحث المؤرّخون عن أسباب هذه النهضة وبواعثها، لم يستطيعوا مطلقاً إغفال أثر الحروب الصليبيّة، بحكم ما تمَّ خلالها من اتصال قويّ بين الأوروبيين من ناحية والعرب من ناحية أخرى، ممّا ساعد على انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربيّة الإسلاميّة إلى الغرب الأوروبي.

فلقد أثر العرب بالصليبيين في نواح عديدة، وذلك لم يتمّ بسرعة، وإنّما بدأ ينتشر ويؤثّر بعد انقضاء السنوات الأولى من الغزو الصليبي، ومن المؤكّد أنَّ السنوات الأولى من هذا

١- قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربيّة العصر المملوكي والعثماني، بيروت، دار البحار، ٢٠٠٤م، ص ٢٠٣.

الغزو كانت مرعبة سوداء بسبب سيطرة رجال الدين الأوروبيين على مجريات الحرب^[١].
ويخبرنا المؤرخ الفرنجي فوشيه الشارترى، الذي أرّخ للحملة الأولى، عن مدى تأثر
الصليبيين بالحياة الجديدة، إذ قال: «الآن صرنا نحن الذين كنّا غربيين: شرقيين، ومَن كان
منّا إيطاليًا فرنسيًا أصبح في هذه البلاد: جليلاً أو فلسطينيًا، والذي كان من مواطني مدينة
رمس (تقع شمال شرق فرنسا) أو الشارترى أصبح الآن: صوريًا أو أنطاكيًا، لقد نسينا الأماكن
التي وُلدنا فيها»^[٢].

١ - سعيد عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة، المكتبة الأنجلومصرية، ط٤، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٩٩٩.

٢ - الربيعي: أثر الشرق، ص ٤٤-٤٥.

الخاتمة

ظهرت لنا أهميّة دراسة الحروب الصليبيّة لتركّزها في الذاكرة الشعبيّة إلى اليوم، ولأنّها تاريخيّاً من أبرز مظاهر العلاقات بين الشرق والغرب، لذلك لم يكن من اليسر البحث في تفاصيل أسبابها ودوافعها، بسبب تشعّب العلاقات والقوى والأحداث، وتداخل الأسباب مع بعضها البعض، وربما تكاملها في أحوال عديدة.

ولقد جاءت الأسباب الدينيّة لهذه الحروب واضحة ظاهريّاً، وتجلّى ذلك من خلال عمليّة الإحياء الديني التي قامت في أوروبا، وإثارة البابويّة للحركة والحماسة الدينيّة من أجل أن تحقّق أهدافها المتنوّعة، وظهور رجالات أظهروا غيرة دينيّة حادّة، وترتّب على كلّ ذلك ظاهرة الحجّ الجماعي للأراضي المقدّسة.

وكان الصليب حاضراً في هذا الصراع الصليبي الإسلامي، لما له من دلالات عند المسيحيين، إذ استقرّ رأي المحرّضين على هذه الحروب، وعلى رأسهم البابا أوربان الثاني، على أن يحيك كلّ محارب صليبيّاً من القماش الأحمر على رداءه الخارجي من ناحية الكتف رمزاً للحركة التي اشترك فيها.

وبالتالي جُعِلت هذه الحروب مقدّسة، وهذا مسمّى من مسمّيات الحرب التي أطلقها الغرب الأوروبي على الإسلام، وذلك منذ القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي تقريباً، وارتبط مفهوم هذه الحرب المقدّسة بالحجّ، لذلك أوهمت البابويّة الناس بجعل أمر التوجّه إلى القدس أمراً إلهيّاً مقدّساً، وتوازت هذه النظرة المقدّسة للحروب مع سيطرة الكنيسة والفكر الديني على الحياة الأوروبيّة، وصارت تشكّل أعمالاً بطوليّة للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى.

وكانت ظاهرة الحجّ بادية في أسباب هذه الحروب، فكان عنوان (الحجّ إلى القدس) ومرادفاته هو النسبة الغالبة على المصنّفات التاريخيّة للأوروبيين في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ممّن شاركوا في الحروب أو مدوّنو روايات المشاركين، لا سيّما مؤرّخي الحملة الأولى، وارتبط الحجّ بالتكفير والتوبة عند الكنيسة الكاثوليكيّة، لذلك شجّعت عليه البابويّة بهذا المعنى، وصارت كلمة (حاج)

هي المعبر عن كلّ مسيحي متّجه لزيارة بيت المقدس، حتّى المحاربين منهم، بل وُصف الحجاج المسلّحين بأنّهم (شعب المسيح).

وجرى تصوير الحروب الصليبيّة على أنّها عمليّة تطهير كبرى ضدّ المسلمين وإبادتهم، فقد حثّ البابا أوربان الثاني المسيحيين على السعي بأقصى الجهود إلى تطهير المدينة المقدّسة وإحلال العنصر المسيحي فيها بدلاً من المسلمين، فتّمت الدعاوات إلى طرد المسلمين من فلسطين وتفرّغ الأرض المقدّسة من سكّانها، لذلك ارتبط بهذه الحروب الطابع الدموي الذي ظهر منذ بداية المشروع الصليبي، فتكرّرت المذابح والمجازر الجماعيّة، وقتل الصليبيّون عشرات الآلاف من السكّان، أوضحها ما حدث خلال احتلالهم لمدينة القدس.

وظهرت الأسباب السياسيّة للحروب الصليبيّة من خلال طموحات البابويّة السياسيّة، ومحاولة تقوية الكنيسة لمنافسة الإمبراطوريّة في الهيمنة على شؤون غرب أوروبا، وللتهيئة لمحاربة المسلمين.

وقد ساعدت التطوّرات الداخليّة في أوروبا في شرعنة الحرب، فبعد سقوط روما سنة ٤٧٦م، حاولت الكنيسة الغربيّة فرض هيمنتها وتصور الحرب أنّها مشروعة.

وارتبط بالسبب السياسي مفهوم مصطلحي: الفرنجة والصليبيين، ومدى معلومات العرب المسلمين بموطن الفرنجة وقوّتهم السياسيّة، وتمييزهم لمختلف الأقوام الروميّة والحبشيّة والفارسيّة والتركيّة والصقالبيّة والفرنجيّة، ثمّ دور الفرنجة المهمّ سياسياً وعسكرياً واقتصادياً قبيل الحروب (الصليبيّة) القريب من المناطق الإسلاميّة، وكيف بدأت أوروبا تشهد تقدّماً على حساب العرب والمسلمين، سواء في الأندلس على الجانب العسكري والسيطرة على تجارة البحر المتوسّط على الجانب الاقتصادي.

ثمّ كان من الأسباب السياسيّة النداءات البيزنطيّة للبابويّة جرّاء توسّع السلاجقة في آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد التي انتصر فيها السلاجقة على الجيش البيزنطي.

وثبت أنّ من أهمّ أسباب الحروب الصليبيّة ميزان القوى قبيلها المتعلّق بالقوى الناشطة آنذاك على مسرح الأحداث، وهي: الخلافة العباسيّة، والقوى الموجودة في بلاد الشام،

والخلافة الفاطمية، والسلاجقة، والبيزنطيين، وقد أدت هذه القوى في العالمين الشرقي والغربي دوراً فعالاً في أحداث المنطقة قبيل الغزو الصليبي، كان له أبرز الأثر في حدوث الحروب الصليبية.

وكان هدف السيطرة على بيت المقدس بادياً بأسباب الحروب الصليبية، وظهر واضحاً في تصريحات كل من أثار هذه الحروب، وخاصة البابا وبطرس الناسك، وعُلم ذلك بغلاف عاطفي ديني مقدس، وقد ارتبط بذلك قضية التشجيع وبطرق شتى على الهجرة الغربية إلى القدس، خاصة بعد النجاح الذي حققته الحملة الصليبية الأولى، وقد عمل الصليبيون على تثبيت أنفسهم في القدس بعد احتلال الأراضي المقدسة بطرق مختلفة.

وظهر من أسباب الحروب الصليبية قضايا (الإقطاع - الاستيطان - الهجرة والتهجير)، فالروح الإقطاعية بدت واضحة في حملة الفرسان، ولم يوفر الصليبيون جهداً في تعزيز ذلك وبطرق وقوانين متنوعة عديدة.

وكانت الحروب الصليبية، في نشأتها وأهدافها، مرتبطة بالأرض المقدسة والمنطقة العربية، وبالأهداف الاستعمارية الاستيطانية والتغيير الديموغرافي، وبالتالي شكّلت الأرض على الدوام أحد أهم أهداف الغزو الصليبي بشكل عام، وغزو فلسطين بشكل خاص؛ بصفته مشروعاً إقطاعياً استيطانياً، قوامه استقدام المهاجرين الأوروبيين وإحلالهم في الأراضي العربية والفلسطينية محل أصحابها الأصليين؛ وقد جاء التصريح بذلك على لسان البابا في مجمع كليرمونت، وأيد بروز هذا السبب عدد من المؤرخين الغربيين، أمثال جروسيه، وبرنارد لويس، وهنري وليم، كارلز ديفز، ويوشع براور.

وقد رأى عدد من المؤرخين أنّ الحروب الصليبية ليست سوى الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي صاحبت انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٧٦م، وارتبط بالهجرة عمليات التهجير للسكان منذ الحملة الصليبية الأولى، وارتكاب المجازر بحقهم، ومصادرة عقاراتهم، وإحلال المهاجرين الغازين مكانهم؛ حتى كادت فلسطين تخلو من سكانها الأصليين الذين تفرّقوا في البلاد.

وظهرت الأسباب الاقتصادية للحروب الصليبية من وجوه عدّة، منها حالة التكاثر البشري

التي سادت أوروبا، وتزايد القوى الحربيّة، وكثرة عدد الفرسان دون عمل أو إقطاع، وخطاب البابا أمام الجموع عن الأوضاع الاقتصاديّة المتردّية التي كانت تعيشها أوروبا.

ومن الأسباب ظهور حركة اقتصاديّة في أوروبا تبحث عن الموارد، قادتها مجموعة من المدن التي صارت تحرّض على الحروب الصليبيّة، وقد حرّك الباعث الاقتصادي القوى البحريّة الإيطاليّة نحو المشاركة في هذه الحروب.

وقد أدّت نهضة القرن الثاني عشر في أوروبا إلى محاولة القوى البشريّة الأوروبيّة إيجاد مخرج لها من الضائقة الاقتصاديّة العامّة.

ولعلّ السبب الحضاري كان حاضرًا في الحروب الصليبيّة، كوجه من وجوه الصراع بين حضارتين أو ثقافتين مختلفتين، وزاد من حدّة هذا الصراع الخلاف الديني بين الإسلام والمسيحيّة، وظهر لدى بعض الرّؤى أنّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة كانت العدو الحقيقي للبابويّة، في حين ظهرت آثار اللقاء الغربي بالشرق العربي الإسلامي واضحة في جوانب علميّة وفنيّة كثيرة.

وفي ختام الكلمات، نوّكد على أنّ أسباب الحروب الصليبيّة جاءت نتاجًا لمجموعة عوامل متشابكة ومعقّدة، وأنّه لا يمكن تفسيرها في ضوء عامل واحد أو مجموعة عوامل محدّدة، وهذا يعطي صعوبة في الوصول إلى رؤية كاملة ودقيقة عن هذه الأسباب، ممّا يعطيها أبعادًا كثيرة ومتشعّبة لا يجوز إهمالها أو التغاضي عنها.

لائحة المصادر والمراجع

المصادر

١. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٩٧م.
٢. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٢م.
٣. ابن العديم، عمر بن أحمد (٦٦٠هـ): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٦م.
٤. ابن جبير، محمد بن أحمد الكتاني (ت ٦١٤هـ): تذكرة بالأخبار في اتفاقيات الأسفار، علّق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.
٥. ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ): مقدّمة ابن خلدون مع التاريخ، ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، بيروت، دار الفكر، ٢٠٠١م.
٦. ابن شداد، بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ): النوادر السلطانية والمحاسبة اليوسفيّة، دار المنار، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠م. مطبعة محمد صبيح، القاهرة، مصر، ١٣٤٦هـ، تصحيح: محمد الرخاوي.
٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط ١، ١٩٩٨م.
٨. أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد (ت ٦٥٥هـ): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، (والذيل)، قدّم له وعلّق عليه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
٩. أبو يعلى حمزة، ابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ): ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط ١، ١٩٠٨م.

١٠. أنا كومينا (ت ٥٤٦هـ / ١١٥٣م): الأليكسياد، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكّار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م.
١١. أودو أوف دويل: رحلة لويس السابع إلى الشرق، ج ٧، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبيّة، ترجمة: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٣م.
١٢. البنداري، الفتح بن علي الأصفهاني (ت ٦٤٣ هـ): تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠.
١٣. الحسيني، صدر الدين بن علي (ت ٦٢٢ هـ): أخبار الدولة السلجوقيّة، اعتناء: عبّاس إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٤.
١٤. ريمون دي سان جيل (ت ٤٩٩هـ / ١١٠٥م): تاريخ الفرنجة، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبيّة، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكّار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥م.
١٥. سايولف، رحلة الحاج سايولف لبيت المقدس والأرض المقدّسة (١١٠٢-١١٠٣م)، ترجمة: سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمّان، ط ١، ١٩٩٧م.
١٦. سبط ابن الجوزي، يوسف (ت ٦٥٤ هـ): مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق: مسفر الغامدي، السعودية، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلميّة وإحياء التراث الإسلامي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكّة المكرمة، ١٩٨٧م. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد الدكن، الهند، ط ١، ١٩٥١م.
١٧. السمعاني، عبد الكريم بن محمّد (ت ٥٧١ هـ): الأنساب، وضع حواشيه محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٨.
١٨. ابن الطوير، أبو محمّد المرتضى عبد السلام (ت ٦١٧ هـ): نزهة المقلّتين في أخبار الدولتين، تحقيق: أيمن فؤاد السيّد، النشرات الإسلاميّة، شتوتغارت، ١٩٩٢.
١٩. فوشيه الشارترى (ت ٥٢١هـ / ١١٢٧م): تاريخ الحملة على القدس (١٠٩٥-١١٢٧م)، ترجمة: زياد العسلي، عمّان، دار الشروق، ط ١، ١٩٩٠م.

٢٠. القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
٢١. المقرئزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٤-١٩٧٣ م.
٢٢. المؤرخ المجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ج ٦، من خلال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تأليف وتحقيق وترجمة: سهيل زكار، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٥ م.
٢٣. مؤلف مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس (كتب الكتاب حوالي ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٥-١٠٩٩ م)، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨.
٢٤. ابن ميسر، محمد بن علي (ت ٦٧٧هـ): أخبار مصر، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١ م.
٢٥. وليم الصوري (ت ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م): الحروب الصليبية (١٠٩٤-١١٨٤ م)، ترجمة: حسن حبشي، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر، ١٩٩١ م.
٢٦. وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣ م.
٢٧. يوحنا فورزبورغ (ت ٥٢٥ هـ/ ١١٣٠ م): وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧ م.

المراجع

٢٨. أحمد غسان سبانو: الحجّ الى بيت المقدس، نصوص تاريخية من العصور الوسطى، جمع وترجمة وتحليل، مخطوط غير منشور.
٢٩. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢.

٣٠. أرنست باركر: الحروب الصليبيّة، ترجمة: السيّد الباز العريني، بيروت، دار النهضة العربيّة، ط٢، ١٩٦٧م.
٣١. أنس المحمّد: الحياة الاجتماعيّة في القدس في عصر المماليك على ضوء وثائق الحرم القدسي الشريف، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور عمّار النهار، جامعة دمشق، ٢٠١٠م.
٣٢. السيّد الباز العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨.
٣٣. السيّد الباز العريني: مؤرّخو الحروب الصليبيّة، دار النهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٦٢.
٣٤. أمجد الهندي: دور العرب في تقدّم علوم الطبّ، دار سعاد الصباح، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٣٥. بنيامين التطيلي: الرحلة، ترجمة: عزار حداد، بغداد، ١٩٤٩م.
٣٦. بول هازار: الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر من متسكيو إلى لسينج، ترجمة: محمّد غلاب، لجنة التّأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩.
٣٧. توماس ماستناك: السلام الصليبي، ترجمة: بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
٣٨. تيسير بن موسى: نظرة عربيّة على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبيّة حتّى وفاة نور الدين، الدار العربيّة للكتاب، ١٩٨٣.
٣٩. ثيودريش: وصف الأماكن المقدّسة في فلسطين، ترجمة: سعيد البيشاوي، رياض شاهين، دار الشروق، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م.
٤٠. جلال حسني سلامة: الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدّسة (١٠٩٩-١١٨٧م/ ٤٩٢-٥٨٣هـ) أطروحة دكتوراه غير منشورة، كليّة البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ٢٠٠٤م.
٤١. جوانفيل، القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.

٤٢. جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
٤٣. جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٨م.
٤٤. جوزيف نسيم يوسف: في تاريخ الحركة الصليبية، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٩.
٤٥. جوناثان رايلي سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٩.
٤٦. حبيب زيات: الصليب في الإسلام، الكنيسة البولسية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٥.
٤٧. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٤، ١٩٩٦م.
٤٨. رواية روبر الراهب عن مجمع كليرمونت، رواية جيويرت النوجتي عن مجمع كليرمونت، ترجمة: قاسم عبده قاسم، نصوص ووثائق.
٤٩. رياض شاهين، حسام الآغا: الاستيطان الصليبي في فلسطين، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٧.
٥٠. ريموند أجيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة: حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٩٠م.
٥١. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، بيروت، ١٩٥٨م.
٥٢. ستيفن رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م.
٥٣. سعيد الحريري: الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، القاهرة، الإعلام العربي، ط ٣، ١٩٨٥م.

٥٤. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبيّة، القاهرة، المكتبة الأنجلو مصريّة، ط ٤، ١٩٩٧ م.
٥٥. سعيد عاشور: أضواء جديدة على الحروب الصليبيّة، القاهرة، دار القلم، ١٩٦٤ م.
٥٦. سعيد عاشور: الحركة الصليبيّة صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط ٢، ١٩٧١ م.
٥٧. سمير صالح حسن العمر: الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، جامعة الكوفة، كليّة الآداب.
٥٨. سهيل زكّار: تاريخ الحروب الصليبيّة، دار الفكر، دمشق ١٩٩٠ م.
٥٩. شاكر مصطفى: موسوعة دول العالم الاسلامي ورجالها، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٣ م.
٦٠. طه أبو عيبة: الحضارة الإسلاميّة (دراسة في تاريخ العلوم الإسلاميّة)، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط ١، ٢٠٠٤ م.
٦١. عارف العارف: المفصل في تاريخ القدس، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط ٢، ٢٠٠٥ م.
٦٢. عبد الجليل عبد المهدي: المدارس في العصرين الأيوبي والمملوكي، مكتبة الأقبسى، عمّان، ١٩٨١ م.
٦٣. عبد الهادي التازي: أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة، المحمديّة، المغرب، ١٩٨١ م.
٦٤. عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبيّة، الرياض، ١٩٩٤ م.
٦٥. عبد المعين الشوّاف: دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، ٢٠٠٨.
٦٦. عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربيّة، بيروت، ١٩٦٦.

٦٧. عزيز سوريال عطية: الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فيليب صابر سيف، القاهرة، دار الثقافة، ط ٢.
٦٨. عمّار النهار، فوزي مصطفى: تاريخ العصر العباسي والأندلسي، مطبعة جامعة دمشق، ٢٠١١، ٢٠١٢ م.
٦٩. فرديناند شيفل: الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت، ١٩٥٢.
٧٠. قاسم عبده قاسم: أثر الحروب الصليبية على العلم العربي، سكانياً، اجتماعياً، سياسياً، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م.
٧١. قاسم عبده قاسم: الحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق تاريخية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١ م.
٧٢. قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ذات السلاسل للطباعة والنشر، الكويت، ط ٢، ١٩٨٨.
٧٣. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٣.
٧٤. قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية، العصر المملوكي والعثماني، بيروت، دار البحار، ٢٠٠٤ م.
٧٥. كامل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، عمّان، ١٩٨١ م.
٧٦. كلود دلماس: تاريخ الحضارة الأوروبية، ترجمة: توفيق وهبة، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٠.
٧٧. المجلة الجزائرية للدراسات والأبحاث، العدد ١، مج ٥، ٢٠٢٢ م، بحث: العناصر الهامشية المنحرفة خلال عصر الحروب الصليبية، اللصوص نموذجاً: أشرف صالح محمد سيد.

٧٨. محمّد عبد الحافظ النقر: التغيّرات الإداريّة والعمرانيّة والسكائيّة في مدينة القدس في فترة الصراع الإسلاميّ الإفرنجي (أعمال مؤتمر بلاد الشام)، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ط١، ١٩٩٩م.
٧٩. محمّد صالح منصور: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبيّة، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٦.
٨٠. محمّد مؤنس عوض: الحروب الصليبيّة، السياسيّة، المياه، العقيدة، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
٨١. محمّد مؤنس عوض: الحروب الصليبيّة، العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط١، ٢٠٠٠م.
٨٢. محمّد نور الدين أفاية: الغرب المتخيّل (صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠.
٨٣. محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبيّة، دار المعرفة الجامعيّة، ٢٠٠٠م.
٨٤. محمود محمّد الحويري: بناء الجبهة الإسلاميّة المتّحدة وأثرها في التصديّ للصليبيين، القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٩٢م.
٨٥. مصطفى وهبة: موجز تاريخ الحروب الصليبيّة، المنصورة، مكتبة الإيمان، ط١، ١٩٩٧م.
٨٦. مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدّسة في المشرق المدعوّة حرب الصليب، ترجمة: مكسيموس مظلوم، طبع أورشليم في دير الرهبان الفرنسيّسكانيين، ١٨٦٥م.
٨٧. ميخائيل زابوروف: الصليبيّون في الشرق، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦م.
٨٨. نقولا شحادة الخوري: تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسيّة، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥م.
٨٩. هاني مبارك وشوقي أبو خليل: دور الحضارة العربيّة الإسلاميّة في النهضة الأوروبيّة، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٦م.

٩٠. يوشع براور: الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس، ترجمة: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

٩١. يوشع براور: عالم الصليبيين، ترجمة وتعليق: قاسم عبدة قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩.

92. Prawer, Jusha: The Sattlement Of the Latins In Jerusalem, Speculum (1952. Vol 27).

93. British School of Archaeology, (the Architectare of Islamic Jresalam) An Exhibition Prepared on the Occasion of the World of Islam Festival, London, 1976. Jerusalem, 1976.

94. Geddie, Williom, Chambers twelve century Dictionary (London – 1959).

95. Greatz , Heinrich: History of the jews , London, 1982.

96. rant, A, J. A hisroty of Europe, (The Middle age) vol:II, (London – 1927).

97. Wright, John kirt land. the geographical Lore of the time of the crusade - American Geographical society, (New York - 1925).

نظرة تاريخية نقدية للحملات الصليبية الرئيسية

الآثار والنتائج

ناديا محمّد زهير الغزولي^[1]

مقدمة

رغم اتفاق الحرب الصليبية مع غيرها من الحروب إلا أنها تختلف في طبيعتها وخصائصها، فلها مقوماتها والأسس التي تركز عليها، ويمكن تحديد المقصود بالحركة الصليبية^[2] وفقاً لوجهة النظر التي انطلقت لدراستها.

فعدّ بعض المؤرخين هذه المصادمات العسكرية أنها الصراع التقليديّ القديم بين الشرق والغرب رُبط بالعامل الحضاريّ، فهو صراع بين حضارتين مختلفتين وعقليّتين متباينتين، بدأت من خلاله أوروبا مزاحمة السيطرة العربية المتفوّقة في البحر المتوسط، أو أنّها انطلاقة كبرى نتجت عن عمليّة الإحياء الديني، وحركة الإصلاح الكلوّنيّة التي ترتّب عليها عودة البابويّة إلى سطوتها القديمة السابقة، وتحقيق نوع من الإشراف المركزيّ على الكنائس كافة، فكانت الدعوة للحجّ عام ١٠٩٥ م استمراراً لحركة الحجّ الجماعيّ إلى بيت المقدس مع تطوّر في الأسلوب؛ إذ أصبح الحجّ حربياً بعد أن كان سلمياً، فهي بهذا التصرّو حدّدت طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب في تلك العصور وفقاً للسياسة الخارجيّة للبابويّة^[3]، على

١- دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، مديرة المركز الوطني لتطوير المناهج التربويّة في الجمهورية العربيّة السوريّة.

٢- الحروب الصليبيّة: أتت هذه التسمية من معنيين: الأوّل إشارة إلى صليب صغير أحمر مصنوع من القماش كان يلصق على الكتف الأيمن للفارس المزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب. والثاني ترجمة لكلمة مستعملة في اللغة الإنكليزيّة من أصل لاتيني Crusades تعني الحروب أو الحملات التي شنها مسيحيّو أوروبا في سبيل استرداد الأرض المقدّسة. المؤرّخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس، تر: حسن حبشي، المملكة العربيّة السعوديّة، ١٩٥٨ م، ص ١٨. محمّد ماهر حمّادة، وثائق الحروب الصليبيّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي (٤٨٩-١٢٠٦ هـ/ ١٠٩٦-١٤٠٤ م) «دراسة ونصوص»، سلسلة وثائق الإسلام (٥)، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢ م، ص ١٩. حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلاميّة في مواجهة المخطّطات الصليبيّة جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام، ٢٠٠٧ م، ص ٨٣. سهيل زكار، الحروب الصليبيّة الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان كُتبت أصلاً بالإغريقيّة والسريانيّة والعربيّة واللاتينيّة، دمشق، ط ١، ١٩٨٤ م، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، ص ١٩٢.

٣- أرنسّت باركر، الحروب الصليبيّة، تر: السيّد الباز العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٦٧ م، ص ٣.

اعتبار الدور البارز الذي قامت به من الإعلان عنها والإشراف عليها. إذًا هي جدال العالم^[1]، فهي تمثل حربًا عالميّة في تلك المرحلة، تمهيدًا لتطوّر فكرة الاحتلال الأوروبي في العصر الحديث^[2].

وجعل فريق من المؤرّخين الحركة الصليبيّة وسيلة تحايل بها الغرب للخروج من أوضاع العصور الوسطى، وللانطلاق إلى حياة أوسع، فقد حقّقت هذه الحروب أمنيات الناس في الوصول إلى حياة أفضل حتّى كانت تؤيّدّها الكنيسة والبابويّة^[3]، فقد كانت ترى فيها وسيلة ناجحة من أجل توجيه الغرب الأوروبي من خلال هيمنتها على المقدّرات السياسيّة^[4]. ورغم تبدّل الفكرة الصليبيّة على مدار قرنين من الزمان، وظهور هذا التبدّل والتطوّر فيها عبر الحملات الصليبيّة الرئيسيّة، إلّا أنّ الممارسات واحدة، فكان العنف صفة مميّزة للمرحلة، تحوّل فيها سفك الدماء إلى ما يشبه الجنون العام والصفة الغالبة، وهذا إن دلّ على شيء فهو دليل العجز وليس القوّة^[5]، فنجد في كلّ حملة أنّ السبيل الوحيد الذي اتّبعته لاستمرار تواجد الصليبيين في المدن هي ارتكاب المجازر الجماعيّة بحق أهلها الأصليين، وإضرار النيران في المدن للحصول على الأسلاب، ثمّ القيام بسلسلة من الغارات السريعة على الأراضي المجاورة لهذه المدن بهدف الحصول على المؤن ومن ثمّ تخريبها. لذلك أخذ البحث بعين الاعتبار تبدّل طابع الفكرة الصليبيّة واتّساع رقعة حروبها، وممارساتها غير الإنسانيّة التي أعطتها طابع التعصّب والعنف.

١ - ستيفن رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبيّة، تر: السيّد الباز العريني، لبنان، ١٩٩٧م، ج ١.

٢ - يوشع براور، عالم الصليبيين، تر: قاسم عبده قاسم، محمّد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط ١، ١٩٩٩م. ص ١٠. محمّد مؤنس عوض، الحروب الصليبيّة، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين (١٢-١٣م/٦-٧هـ)، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١٢-١٣.

٣ - سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج ١، القاهرة، ط ٢، ١٩٧١م، ص ٢١-٢٤.

٤ - محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢١.

٥ - وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبيّة الأعمال المنجزة فيما ما وراء البحار، نقله للمربيّة: سهيل زكّار، دار الفكر، ط ١، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٢٨٢-٣١٤-٣٢٩، ج ١، ص ٤٣٦. متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي الإفرنج (الصليبيّون)، المسلمون، الأرمن، تر: محمود الرويض، عبد الرحيم مصطفى، الأردن، ٢٠٠٩م، ص ٤٥. ابن الأثير (عزّ الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام)، الكامل في التاريخ، حقّقه: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠١٢م، ج ٨، حوادث سنة ٤٩٢هـ. ابن القلانسي (حمزة بن أسد بن علي بن محمّد التميمي)، تاريخ دمشق (٣٦٠-٥٥٥هـ)، تحقيق: سهيل زكّار، دار حسان، ط ١، ١٩٨٣م، ص ١٣٧. سعيد عبد الفتّاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٩١م، ص ١٩٦.

أولاً: الحملة الأولى

الفكرة

ظهرت في الحروب الصليبية رؤية كل فريق «للآخر» وتبلورت نتيجة التلاحم العسكري والاحتكاك الحضاري بشتى جوانبه، وتعدّ الحملة الصليبية الأولى الفصل الأساس في تاريخ هذه الحركة، ففيها تبلورت الفكرة الصليبية نفسها، وحققت نجاحاً منقطع النظير، وترتب عليها الكثير من الآثار الخطيرة^[1]، تتعلق بالأسس والممارسات التي اتبعتها الصليبيون في هذه الحملة وجعلتها الحملات اللاحقة قواعد وقوانين سارت عليها ظناً منها أنها الأسلوب الواجب تنفيذه لتحقيق نتائج الحملة الأولى نفسها، سواء لديهم أكانت هذه الممارسات منطقية أو لاإنسانية.

وإذا عدّ عام ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م عامّاً لبداية الحروب الصليبية، فإنه لا يمكن الأخذ بهذا التحديد الزمني الجاف؛ لأنّ روح هذه الحركة وصفاتها كانت موجودة في الغرب قبل ذلك بعشرات السنوات، ولم يكن ينقصها سوى أن تصطبغ بالصبغة الرسمية، وأن يوجد مَنْ يعلن مولدها، وهذا ما فعله البابا أوربان الثاني (٤٨١-٤٩٣هـ / ١٠٨٨-١٠٩٩م) عندما بشر بتلك الحركة في مجمع كليرمونت، الذي دعا فيه إلى حمل الصليب للاستيلاء على فلسطين وتأسيس ممالك لاتينية فيها^[3]، وتلبيةً لنجدة الأباطرة البيزنطيين بعد خسارة معركة ملازكرد عام ١٠٧١م^[4]، فكان كتاب الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس إلى البابا أوربان مفتاح العمل الذي أدّى إلى الحملة الأولى^[5].

اللافت للنظر هو ما طرأ من تطوّر على الفكرة الصليبية نفسها، فإذا كانت انطلقت من

١- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ١-٢.

٢- جعل ابن القلائس عام ٤٩٠هـ هو بداية الحملات الصليبية فقال: «وفي هذه السنة كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الأفرنج من بحر القسطنطينية...». ابن القلائس، المصدر السابق، ص ٢١٨.

٣- وصف أوربان في خطبته بيت المقدس بقوله: «إنّ أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباحج...». محمّد ماهر حمادة، وثيقة خطاب البابا أوربان الثاني، المرجع السابق، ص ٩٩-١٠٠.

٤- ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، حوادث سنة ٤٦٣هـ. وثيقة رسالة ألكسيس كومنين الأول إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة عام ١٠٨٨م. من كتاب محمّد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص ٩٧.

٥- هـ.ل. فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، تر: محمّد مصطفى زيادة، السيّد الباز العريني، مصر، ط ٣، ١٩٥٧م، ص ١٧٤.

البابوية وتحت رعايتها في الحملة الأولى، فإنَّها في الحملة الثالثة أصبحت من اختصاص السلطة المدنيَّة، حيث بدأت الحكومة تتولَّى تنظيمها على أساس نظام الضرائب، وعلى أساس المفاوضات^[١]. وهنا بدأت البابوية تفق موقف المناوئ للحملة الصليبيَّة، حيث تحوَّلت قيادتها من يد الأمراء إلى يد الملوك، باستثناء الحملة السابعة؛ لأنَّ قائدها كان الملك لويس الذي يُعدّ قديسًا^[٢].

ونتيجة هذا التغير ظهرت بوضوح المطامع الدينيَّة للحملة، إذ تحكَّمت البواعث الاقتصاديَّة والسياسيَّة والشخصيَّة بالحملة المنحرفة^[٣]، حيث آمن غرب أوروبا بأنَّ مصر يجب أن تكون الهدف الأوَّل للحملة الكبرى التي تخرج إلى الشرق؛ لأنَّها مخزن الإمدادات وحجر الزاوية بالنسبة للمشروعات الصليبيَّة^[٤]، وهذا ما حدث في الحملة الخامسة.

وقد أثر تغيُّب الدافع الدينيِّ في تراجع الحركة الصليبيَّة، يؤكِّد ذلك تشكيك المفكرين الأوروبيين في جدوى هذه الحرب، فيقول متى الباريزي أنَّ بابا روما لم يكن يعنيه التبشير بحملة صليبيَّة إلاَّ بالقدر الذي يخدم أطماعه ويحقِّق مصالحه العلمانيَّة، ويسخر الشاعر (رتيف) الفرنسي من رجال الدين الذين جعلوا من الحرب الصليبيَّة وسيلةً لابتزاز الأموال وتحقيق أطماعهم في الشرق، ومما ساهم في نبذ فكرة الحرب المقدَّسة تأقلم الفرنجة المقيمين في الشرق مع الحياة الشرقيَّة وخلافهم مع القادمين الجدد الراغبين في امتلاك الأراضي والإقطاعات^[٥].

والتطوُّر الآخر والأكثر عمقًا لفكرة الحركة الصليبيَّة تمثَّل في إضفاء المظهر الدينيِّ والدبلوماسيِّ للحملة، وقد ظهر ذلك جليًّا في الحملة السادسة؛ إذ تصرَّف الملك

١- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٩٣. نعمان الطيّب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، ط ١، ١٩٩١م، ص ٣٢٩.

٢- رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبيَّة، ط ١، ١٩٩٨م، ص ١١.

٣- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأوَّل، ص ٩.

٤- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبيَّة، الدار المصريَّة للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م، ص ٣٧.

٥- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٤-٩٩.

فريدريك بروح ملك صقلية لا بروح ملك بيت المقدس^[1]؛ إذ عبر فريدريك عن موقف الرجال الأحرار، فكان أقلّ خضوعاً للكنيسة التي كانت تتعد شيئاً فشيئاً عن التعاليم المسيحية^[2].

لتؤكد الحملة الثامنة التطور الاقتصادي والفكري للفكرة الصليبية، فكانت أصدق تعبير عن الدوافع الاقتصادية والسياسية والتنصيرية، فاختارت أن تكون وجهتها تونس.

أثرت هذه التغييرات على جوهر فكرة الحروب الصليبية؛ إذ لم ير أنصار البابوية من داع للقيام برحلة شاقة إلى الشرق بعد الحملة الثامنة^[3]، ترافق ذلك بولادة أفكار جديدة لدى الأطراف الأوروبية والطرف المملوكي أدت إلى نوع جديد من العلاقات الدولية الدبلوماسية التجارية، فوظف الممالك سلسلة من التحالفات والمعاهدات مع مصدري التحدي، المغول والقوى المسيحية، وفي مواجهتها في الوقت نفسه؛ وذلك من أجل إصابة هدفين: تحجيم الأثر السلبي لـ (مغول فارس)، وتصفية بقايا الوجود (الصليبي)^[4]. إلا أن الصراع السياسي والعقدي بين الطرفين لم ينته، لكنه أفرز أدوات جديدة لإدارته^[5]، لكنه أدى في النهاية إلى انتهاء الصورة التقليدية للحروب الصليبية.

الدوافع

مهما كان أصل فكرة الحركة الصليبية فهناك عوامل متعددة ومتشابكة ساهمت في قيامها، ويُعدّ الدافع الشخصي من أبرز هذه العوامل^[6]، فالثابت تاريخياً أن المسؤول الأول

١- أرنتس باركر، المرجع السابق، ص ١١٥.

٢- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٠.

٣- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٥٨٠.

٤- نادية محمود لطفي، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٢٣. محمد سهيل طقوش، تاريخ الممالك في مصر وبلاد الشام، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م، ص ١٨٠.

٥- نادية لطفي، المرجع السابق، ص ٣٨.

٦- ظهرت عدة نظريات نسبت قيام الحركة الصليبية لشخص دون آخر، من هذه النظريات أنشودة رولان وقصيدة حج شارلمان، وهما أسطورتان بعيدتان عن الحقيقة، بينما يُعدّ خطاب الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين إلى روبرت أمير الأراضي الواطئة أسطورة أو وثيقة مزورة، وهناك أساطير قامت حول زعماء الحملة الأولى مثل بطرس الناسك، ذاعت هذه الأساطير في الغرب طيلة الحروب الصليبية بقصد التسلية وإثارة الهمم. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٧. جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٥٠.

وصاحب الدور الرئيس في تحقيق الفكرة هو البابا أوربان الثاني^[1]، حيث كان على علم بالأوضاع السائدة في العالم العربي ودولة الروم، فبذل جهده في سبيل الدعوة لعقد مؤتمر كليرمونت، وتوجّ عمله بإعلان هذه الحركة عام ١٠٩٥ م، وحمل الجميع شارة الصليب^[2]، وتولّى قيادة الحملة أحد رجال الكنيسة (لي بويه)، وهو دليل على خضوع الحملة لإشراف الكنيسة مباشرة. من هنا، وعلى هذه الأسس، نظر إليها المؤرّخون الغربيون على أنّها حروب دينية^[3]، إضافة إلى أنّ مخاطبة البابا الفرسان دون الملوك أثناء خطبته تعني صراحة إعلان الحرب على السلطة الزمنية في أوروبا^[4]، وأنّه هو المسؤول عن هذه الحملات، وليس معنى هذا أنّ التيار الديني هو المسؤول الوحيد عن إثارة هذه الحركة؛ لأنّه بالنظر لتطور الفكرة الصليبية، نجد أنّ الباعث الديني كثيراً ما ذاب وسط التيارات السياسية والاقتصادية^[5].

تواءمت دعوة أوربان الثاني مع طموحات رجال الدين والعلمانيين، ويرجع ذلك لظاهرة العنف التي شهدتها فرنسا في القرن العاشر الميلاديّ، فقد قامت فرنسا في الحروب الصليبية مقام الروح من الجسد، وغدا فرسانها نموذجاً لغيرهم من الفرسان الأوروبيين^[6]، فالمجتمع الفرنسي كان ميالاً للعنف الذي أدّى إلى سيطرة مبدأ (الرغبة في الحرب)، فعندما توقّفت الإمبراطورية الكارولنجية عن التوسّع، تحوّل محاربوها للدفاع عن فرنسا، لكنّ الجماعات المسلّحة المحليّة لم تتفكّك بل وجّهت نشاطها نحو مهاجمة المزارعين العاديين في المناطق المجاورة.

ويميل (جوناثان ريلي - سميث) إلى الاعتقاد بأنّ رسالة أوربان التاريخية كانت تقليدية،

١- فوشيه الشارترى، الاستيطان الصليبي في فلسطين تاريخ الحملة إلى بيت المقدس (١٠٩٥-١١٢٧ م)، تر: قاسم عبده قاسم، طبعة الشروق الأولى، ٢٠٠١ م، ص ٨١.

٢- المؤرّخ المجهول، خطبة أوربان، من كتاب قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١ م، ص ٧٧.

٣- فوشيه دي شارتر، المصدر السابق، ص ٨٠. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت القدس، تر: حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠ م، ص ٥٤. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٨-١٧٣. أرنسث باركر، المرجع السابق، ص ٩-٢٢. ستيفن رنسيما، المرجع السابق، ج ١، ص ١٦٤.

٤- رأفت عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٦.

٥- سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبية، ص ٢٨.

٦- فشر، المرجع السابق، ص ١٧٩.

فهي لم تكن تختلف عن كثير من الرسائل التي قدّمها مصلحو الكنيسة في ذلك الحين^[1]، لكنّها طرحت أمام المجتمع الأوروبي هدفاً عاماً يمكن لكلّ قوّة من القوى الفاعلة في هذا المجتمع أنّ تعبّر عن نفسها من خلاله^[2]، فكانت بيت المقدس الهدف الذي يسعى المؤمنون للوصول إليه، لذلك كانت استجابة العلمانيين إيجابيّة^[3]. وقد رأى ملوك وأباطرة الطبقة الحاكمة في المشروع الصليبيّ دعماً لنفوذهم السياسيّ داخلياً، ودعماً لبلادهم خارجياً، ومجالاً خصباً للتنافس الدولي وتحقيق المكاسب^[4].

بينما كانت حماسة المدن التجاريّة الإيطاليّة لفكرة الحروب الصليبيّة من منطلق اقتصادي، لذلك لم يعرضوا مساعدتهم لهذه الحملات إلّا بعد نجاح الحملة الأولى وإقامة إمارات في بلاد الشام^[5]، إذ رأت في ذلك فرصة ذهبيّة لتدعيم وجودها التجاريّ في عالم البحر المتوسط، بتحويل مدنه الساحليّة أسواقاً تجاريّة حرّة^[6]، والسيطرة على الطرق التجارة للسلع الشرقيّة، فامتلاك طريق مصر وبلاد الشام والشمال الإفريقيّ هو حجر الزاوية في هذه السياسة الاقتصاديّة، ولم يتمثّل دور هؤلاء التجار في قيام الدويلات اللاتينيّة في الأرض المقدّسة بل امتدّ للحفاظ عليها أطول مدّة ممكنة، لذلك تضمّنت الامتيازات التي حصلوا عليها من حكّام مملكة بيت المقدس مزايا إقليميّة وماليّة وقضائيّة مقابل مدّ هذه الدويلات بالإمدادات والمؤن والحجّاج^[7].

بينما كانت حماسة النورمان في إيطاليا بدافع من كراهيتهم العميقة للإمبراطوريّة

١- جوناثان ريلي - سميث، المرجع السابق، ص ١١.

٢- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبيّة الأولى، ص ١١.

٣- جوناثان ريلي - سميث، المرجع السابق، ص ١٢.

٤- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٢.

٥- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣/ القسم الثاني، ص ٥٩٩. ناديا محمّد زهير الغزولي، مدينة صور في حقبة الحروب الصليبيّة (٤٩٨-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م)، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٣م، ص ٥٨.

Gino Lazzatto, An economic History of Italy, London, 1961, p73.

٦- شارل ديل، البندقيّة إمبراطوريّة أرسقراطية، تر: أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر، دار المعارف، ١٩٤٨م، ص ٢-٣٠. حافظ أحمد حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١١٣.

٧- وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠٢. يعقوب الفيتري (بطريك عكا)، تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البشايوي، الأردن، ١٩٩٨م، ص ١٠٨. شارل ديل، المرجع السابق، ص ٣١. فشر، المرجع السابق، ص ١٨٢-١٨٣. ناديا الغزولي، المرجع السابق، ص ٥٩-٦٠. Gino Lazzatto, p72.

البيزنطية، فقد كانوا يرون بالحروب الصليبية أنها موجهة ضد البيزنطيين أكثر منها حرباً ضد المسلمين، وبتشجيع من البابوية^[1].

وفسر (ستيفن رنسيمن) النجاح الغريب الذي حظيت به الدعوة إلى الحروب الصليبية في ضوء الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة نتيجة الغزوات الجرمانية وما تلاها من مشكلات^[2]، التي تمثلت بازدياد معدل النمو، حيث ازدادت الحاجة إلى التوسع خارج أوروبا، فلم تكن مواردها تكفي حاجات السكان، ما ساعد على تصاعد حدة العداء ضد العرب الذين كانوا يفرضون وجودهم في كل الاتجاهات، يدعم ذلك المستوى الثقافي، ففي مجتمع يسوده الجهل وتفشي الأمية تختلط المفاهيم الدينية بالخرافات، لا بد أن تكون الاستجابة لهذه الحرب قوية بل هستيرية، وهو ما حدث بالفعل، فيكتسب المشعوذون والمبشرون مكانة هائلة في نفوس البسطاء، أمثال بطرس الناسك^[3]، فقد كان بطرس وأمثاله تجسيداً لحالة الهلع التي حكمت المجتمع الغربي آنذاك، وقد أثمرت جهود هؤلاء المبشرين الجوالين في تكريس العداء ضد العرب، فكان أبناء الغرب يتحرقون شوقاً للقضاء عليهم.

ساهم في دعم هذه الجهود العدائية مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، فتكشف الأوصاف التي أسبغوها على المسلمين عن مدى التعصب الذي حكم أوروبا أثناء التحضير للحملة. واللافت للنظر أن الشخصية الإسلامية التي صورتها كتابات هؤلاء المؤرخين، ونصوص الخطبة التي أوردتها أوروبان، شخصية مثقلة بكل الشرور والخطايا والآثام، هذا التصور كتبه مؤرخو الحملة قبل أن يروا فعلاً مسلماً واحداً، فاستخدموا كل صياغاتهم الكريهة لتحريض الكاثوليك^[4]، وكان ذلك دافعاً قوياً للممارسات اللاإنسانية التي قام بها منقذو الحملة الأولى.

يضاف إلى ذلك كله أسباب لم تكن واضحة بين الناس في ذلك الوقت؛ لأن من الخصائص العامة في الخلافات التاريخية أن أقوى الأسباب لا تكون أكثر ذيوغاً، وتتمثل

١- فشر، المرجع السابق، ١٧٦.

٢- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧١-٣، القسم الثاني، ص ٦٠.

٣- بطرس الناسك: كان يُعد بمثابة التجسيد الحي للروحانية الشعبية، وقد كشفت دراسة هنريخ فون سايليل عام ١٨٤١م زيف هذه الأسطورة التي أحاطت ببطرس الناسك. رواية جيورجس النوجنتي عن بطرس الناسك، وردت في كتاب قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص ٩٨-٩٩. يوشع براور، المرجع السابق، ص ٢٠. كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تر: أحمد الشيخ، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٥٥.

٤- فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ٦.

في الخلاف المذهبي بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية^[1]. وقد أضاف المؤرخون العرب إلى ذلك الباعث التنصيري، فقد أرادت البابوية توحيد الكنيستين من جهة، وتحويل مسلمي الشرق إلى أن يكونوا مسيحيين تابعين للكنيسة الكاثوليكية في روما من جهة ثانية^[2]. اللاإنسانية والهمجية خطأ الحملة الأولى:

قدّمت الحملة الأولى نموذجاً لمدى ما يمكن أن ينتج من استجابات في مجتمع جعل العنف شريعته وألبس الحرب ثوب الدين، فكانت خطة الصليبيين في سيرهم نحو الشرق تقتضي الاستيلاء على الغنائم وحرق كل ما لم يستطع الجيش حمله، ويوحى مشهد الحملة الشعبية بتطوراتها المختلفة بأنّ روحاً من الجنون كانت تحلق في سماء الغرب الأوروبي، ويؤكد سلوك الصليبيين القادمين إلى الشرق وما قاموا به من غارات وحشية بربرية وأعمال إرهابية ضدّ حتّى الشعوب المسيحية التي مرّوا بها^[3]، أنّ هؤلاء تحركوا بوحى بطونهم لا قلوبهم وعقولهم^[4]. فيذكر ريمونداجيل تصرفات القادمين من الغرب أثناء عبورهم بلاد اليونان بقوله: «جيش ريموند أثناء تدميره -كعاداته- للقرى والمدن المحصنة وصلنا إلى (روسا Roussa) وهي مدينة نتج عن الاحتقار السافر الذي أبداه سكّانها تجاهنا، أنّ فقدنا صبرنا الذي عرفنا به، فحملنا السلاح، وهدمنا الأسوار الخارجية، وغنمنا غنائم كثيرة (وعندما) هاجمتنا القوّات التابعة لألكسيوس ذهبنا بعضهم ...»^[5].

فقد اعتبروا أنفسهم أصفياء الربّ؛ لأنّهم الفقراء، ولكنّ هذا لم يكن ليمنعهم من انتهاك الفكرة الدينية التي تحركوا في إطارها، وارتكاب أخطّ ضروب الجرائم، والكشف عن أبشع الشرور المادية والدينيّة. كانت الحركة الصليبيّة متنفساً لجماهير الفلاحين وعامة سكّان المدن ليطلقوا العنان لعواطفهم الهادرة العنيفة، وكانوا يرون في التصرفات العنيفة وسيلة فعّالة للتنفيس عن القلق^[6].

١- فشر، المرجع السابق، ص ١٧٤.

٢- أسامة بن منقذ، الاعتبار، حرره: فيليب حتّي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت، ص ١٣٤-١٣٥. ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد)، رحلة ابن جبير، دار صادر، ب.ت، ص ٢٨١. محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٨.

٣- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٢٨.

٤- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة، ص ١١.

٥- ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٧١.

٦- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٩٧.

المجد والشهرة والمال هذا ما كانت تردده القصص التاريخية عن الحملة الصليبية الأولى عقب صياغة قرار مجمع كليرمونت^[1]. وللحصول على المال، فقد سيطرت على الصليبيين فكرة جمع الغنائم، فلاستيلاء عليها كان منتهى آمالهم وتوقعاتهم، حيث مارسوا عمليات السلب والنهب في كل منطقة حلّوا بها، وجردوا كل مَنْ يقع في قبضتهم ما يملك، سواء أكان جيشاً منهزماً أم مدينة أم قلعة، وشاعت مقولة «اليوم سنصبح كلنا أغنياء بمشيئة الله»^[2]، فيذكر متى الرهاوي ذلك بقوله: «كان النصر حليف الصليبيين، حيث أجبروا الأعداء على التقهقر حتّى أغرقوا البلاد ببحرٍ من الدماء، وسيطروا على نيقية بقوة السلاح وذبحوا كل الكفار سحقوهم من غير رحمة حتّى امتلأ السهل بالجثث»^[3].

هكذا كانت سياسة الصليبيين بعد الاستيلاء على أيّ مدينة واحدة، فعندما دخلوا أنطاكية في (٣ حزيران ١٠٩٨م) نهبوا بيوتها من المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء، وحطموا كلّ ما صادفوه من النفائس والأسلحة، فما من أحد يستطيع أن يرتاد الشوارع دون أن تتعرّ قدماه بالجثث التي لم تلبث أن تعفّت بتأثر حرارة الصيف^[4].

رسّخت الحملة الصليبية الأولى مجموعة معاملات شكّلت بمجموعها نظاماً أخلاقية اتخذها الصليبيون في الحملات اللاحقة، قاعدة طبّقوها خلال خطّ سيرهم إلى الشرق، فرسّخت الحملة الأولى فكرة أنّ للحصول على المؤن لا بدّ من الغارات على الأراضي العربية، فبعد الاستيلاء على أنطاكية هاجموا عزاز الواقعة على الطريق الرئيس المؤدّي من الرها وتلّ باشر إلى أنطاكية^[5].

أمّا القاعدة الثانية: الغارات على المناطق الريفية للحصول على الأملاك، فبعد استقرار الجيش الصليبي في أنطاكية واحتلالها، انطلق الطمع والجشع المكبوتان، فأخذ القادة والرؤساء يغيرون على المناطق الريفية المجاورة لأنطاكية، ولمّا كانت المقاومة المحلية

١- جوناثان ريلي - سميث، المرجع السابق، ص ٨٠.

٢- المرجع نفسه، ص ١١٨.

٣- متى الرهاوي، المصدر السابق، ص ٦٧-٦٨-٦٩-٧١. رواية آنا كومنينّا عن الحملة الصليبية الأولى من كتابها الأليكسياد (Alexiad)، وردت في كتاب قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٤. ووردت في كتاب سهيل زكار، الحروب الصليبية الحملتان الأولى والثانية، المصدر السابق، ص ١٢١-١٣٦.

٤- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٤.

٥- المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٦٥.

ضعيفة، فإنَّ القرى والمدن والقلاع لم تلبث أنْ خضعت للصليبيين^[١].

بينما يمثِّل اللجوء إلى الخدعة وإعطاء الوعود الكاذبة لأهل المدن كي يتمكنوا من دخولها والسيطرة عليها القاعدة الثالثة التي طبَّقها الصليبيون في حملاتهم كافة، فعندما استسلم سكَّان البارة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية، تعرَّض سكَّانها للموت قتلاً وجرى بيع الباقي رقيقاً في أنطاكية، وكما فعل بوهمند مع مدينة معرة النعمان، فأعلن مناد أنَّه إذا استسلمت المدينة فسوف يبقى على حياة كلِّ المدافعين عنها، لكنْ عند استأنف القتال في اليوم التالي لم يبقَ منهم أحد على قيد الحياة، فقد اقتحم الصليبيون الدور ونهبوها وأحرقوها، ولقي الرجال مصرعهم بينما بيع الأطفال والنساء رقيقاً^[٢].

وما يجعل الحملة الصليبية الأولى في مصاف الثار والانتقام، وهي القاعدة الرابعة لجني نتائجها، ما قامت به الحملة بعد أن وصلت للقدس، حيث استمرَّ حصار القدس خمسة أسابيع، وأعقب سقوطها مذبحة فظيعة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة وسكَّانها، فيذكر ريمونداجيل مذبحة بيت المقدس بقوله: «سفك تانكرد وجودفري كمية لا تصدَّق من الدماء، ... بينما عُدِّب آخرون لوقت طويل، وأحرقوا حتَّى الموت في اللهب المتأجج، وتكدَّست في الطرقات والبيوت الرؤوس، والأيدي، والأقدام، وفعلًا فقد كان الفرسان والرجال يجرون جيئةً وذهابًا فوق الجثث»^[٣]، وأبيحت المدينة لأعمال السلب والنهب على مدى ثلاثة أيام متوالية، وفاض الدم في الشوارع، وظلت أكوام الجثث مصدر إزعاج في الشوارع أيامًا طويلة. وفي هذا الجوِّ الموحش الذي تغلَّفه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة، اجتمع الصليبيون في كنيسة القيامة، وتردَّدت عبارة «Te Deum laudamus» أي «نحمدك يا الله» في الكنيسة القديمة، ويرر ريمونداجيل مذبحة القدس بأنَّها عدالة إلهية: «فيكفي أنْ أحكي أنَّه في معبد سليمان وفي الرواق خاض الصليبيون بخيولهم في الدم الذي وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم، وفي رأيي هذا عدالة إلهية تتمثَّل في أنْ يتلقَّى معبد سليمان دم المسلمين الذين سبَّوا الربَّ هناك لسنوات كثيرة،

١- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٥٦.

٢- ستيفن رنسيومان، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٦٦-٣٦٩.

٣- ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٧.

وامتألت بيت المقدس الآن بالجثث، وتلطّخت بالدماء»^[1]. كانت عبارة «Dieu Le Vent» «إنّها إرادة الربّ» هي صيحة القتال لدى الصليبيين، فكانوا يؤمنون بأنّ الربّ قد أظهر رغبته في تطهير معقله، وأنّ القديسين ساهموا في المعركة وجلبوا النصر لجيوش المؤمنين الحقيقيين^[2]، ولا يمكن وصف ما قام به الفرنجة في القدس وغيرها من مدن الشرق سوى بأنّهم همج جاؤوا للعبث بحضارة الشرق.

ثانياً: رعاية ملكيّة للحملة الثانية

عكست حروب الحملة الصليبيّة الأولى تنافس الأسر الحاكمة في الغرب الأوروبي من أجل احتلال شرق البحر المتوسط. لقد كان الصليبيّون بشراً وكانوا مقبلين على دنياهم بجشع غير مسبوق، فعلى صخرة المصالح السياسيّة سقطت مسوح الرهبان التي حرص مؤرّخو الحوليّات الصليبيّة أن يلبسوها لأبطالهم^[3]. وانتهت الحملة الأولى وثبتت أقدام الصليبيين بقيام ثلاث إمارات صليبيّة كبرى (الرها وأنطاكية^[4] وطرابلس)، وتأسست المملكة الصليبيّة^[5]، ومنع المسلمون من الإقامة في المدينة المقدّسة؛ إذ إنّ الغزاة المنتصرين عدّوا سكنى المسلمين تدنيساً للمدينة المقدّسة وانتهاكاً لحرمتها^[6]، ما يدلّ على تعصّبهم وهدفهم من هذه الحملات، فيذكر فوشيه الشارترى أنّها كانت حرباً مقدّسة، وكان يبدي سروره في عبارات بليغة لما يرتكبه الصليبيّون من أعمال وحشيّة ضدّ المسلمين، ولم يخطر بباله أبداً أن يكون لهؤلاء الناس الحقّ في أوطانهم، فقد كان يرى فيهم مجموعة من الوثنيين القساة الغلاظ الذين يستحقّون القتل والفناء^[7].

وفي بطاء عنيد تحوّلت حياة الصليبيين الحذرة على بعض المدن القليلة إلى سيادة على

١- ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٤٨.

٢- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٦١.

٣- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٢.

٤- ابن الأثير، المصدر السابق، حوادث سنة ٤٩١ هـ، ص ٤١٦-٤١٧-٤١٨. ابن تغري بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصريّة، ج ٥، ص ١٩١. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٢-٣١٤. سهيل زكار، يوميات صاحب أعمال الفرنجة، المصدر السابق، ص ٢٣٣. المؤرّخ المجهول، المصدر السابق، ص ٦٥.

٥- متى الرهاوي، المصدر السابق، ص ٩٩. سعيد عبد الفتّاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٢٥.

٦- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٩٥-١٠٠.

٧- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ٣٠.

أقاليم متصلة، أخذت في التوسع والامتداد دون أية مقاومة. لقد تلقى العالم الإسلامي ضربة مفاجئة أثارت الذعر في جنباته، وتسببت في شلل إماراته في حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق، وامتنع العمل المشترك بين إمارات الشمال وإمارات الجنوب، وظل الحال على ما هو عليه قرابة جيلين تمكن الصليبيون خلالها من تدعيم وجودهم في الشرق^[1]. ومما ساعدهم على ذلك هو الواقع السياسي لبلاد الشام التي كانت تفتقد إلى التاريخ المركزي الموحد، فلم تستطع أن تواجه زحف تلك الظاهرة التاريخية^[2].

لقد أقام الإمارات الصليبية مغامرون حريصون على الربح والكسب، ولم تفقد الغريزة الفطرية حدتها كلما مضى الزمن، فأنزل أمراء الفرنجة أنواع الظلم والاستبداد بأهل المناطق المحيطة بإماراتهم، وقد أدى ذلك إلى انهيار الزراعة وتدمير اقتصاد بيت المقدس^[3].

لكن ما يدعو إلى الدهشة أولئك الرهبان المحاربين الذين اشتركوا مع الفرنجة في شتى مراحل الحركة، فرقة الإسبتارية^[4] والداوية^[5]، فقد استحالوا إلى جمعيات نفعية، وأصبحوا يتمتعون داخل قلاعهم وحصونهم في الشام، ولهم جيوشهم ومواردهم المالية وسياستهم الخارجية التي تتفق ومصالحهم الخاصة، فقد أصبحوا يمتلكون المتاجر والحوانيت، فقد انحرفت تلك الجماعات عن مبادئها الأصلية وأصبح رجالها رجال دين ودنيا رجال يلبسون مسوح الرهبان ويقاتلون من فوق ظهور الخيل، يتاجرون ويفرضون الضرائب والأتاوات على القوافل المارة بمعاقلهم في الشام^[6]. انتقل فرسان المشفى من ترميض الحجّاج إلى الهجوم على حصون المسلمين^[7]، هذا التحول في المهام من خدمة خيرية إنسانية إلى

١- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٦١.

٢- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٤٨. كلود كاهن، المرجع السابق، ص ٢٨.

٣- ابن جبير، المصدر السابق، ص ٣٠١-٣٠٢. أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٧١.

٤- حصل تجار أمالفي من المسلمين على إذن ببناء مشفى في بيت المقدس عام ١٠٤٨م لإيواء الفقراء والمرضى من الحجّاج، ثم نظم ريموند أوف لبوي رجال هذه الجماعة فجعلهم هيئة دينية تركز حياتها للعفة والفقير والطاعة وحماية المسيحيين في فلسطين والدفاع عنهم دفاعاً عسكرياً، ومن ثم أصبح الفرسان فرسان القديس يوحنا أو الإسبتارية Hospitallers من أقوى الهيئات في بلاد الشام. محمود عمران، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م، ص ٥٦.

٥- وفي عام ١١١٩م نذر هيو أف باينز وثمانية آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة وخدمة القوات الصليبية، وحصلوا من بلدوين الثاني على مبنى لهم بالقرب من الموضوع الذي كان فيه هيكل النبي سليمان، وقد أطلق عليهم فرسان المعبد. محمود عمران، تاريخ الحروب، ص ٥٧.

٦- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٩١.

٧- محمود عمران، تاريخ الحروب، ص ٦٨.

تقديم خدمات حربية مأجورة وممارسة أعمال لا إنسانية ضد الطرف الآخر، يؤكّد بُعد هذه الجمعيات عن الدافع الديني لدعم الحملات الصليبية.

مع ذلك أصبحت الحملات الصليبية عملية مستمرة، فكان تندقق على الشرق باستمرار قوات قادمة من الغرب^[1]، وذلك بهدف حماية ما حققه الصليبيون من مكاسب، وللغزو بنصيب من الغنائم، بالإضافة إلى الحاجة الماسة للصليبيين في الشرق إلى العنصر البشري^[2]. لكنّ البلاد العربية لم تتمكّن من التعايش مع الوجود الصليبي على أرضها بشكل سلمي، خصوصاً أنّ الإمارات الصليبية اتّبعَت سياسة عدائية توسعية تجاه جيرانها، فتواصلت الغارات على المناطق الريفية غير المحصّنة للاستيلاء على المواشي ومناطق الرعي وتدمير المحاصيل لهروب السكّان، وهي سياسة اتّبعها الصليبيون مع المناطق الداخلية، فكان أهالي المدن، وخاصة دمشق، يشاهدون التدمير المنظم لمزارعهم ومراعيهم دون أن يتمكّنوا من منعه أو حتّى مقاومته على نحو فعّال، إذ كان من المستحيل عملياً بناء الحصون نظراً لقرب قواعد الصليبيين^[3].

فكانت إمارة الرها^[4] تتولّى تهديد خطوط مواصلات ما بين إمارة الموصل وحلب وبين بغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وذلك بسبب وقوعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات^[5]، فكانت بمثابة قلعة حمت الممتلكات الصليبية من هجمات الجبهة العربية الشرقية، ما جعل منها عقبة في قيام أيّ وحدة عربية، وحاجزاً وخطّ دفاع يحمي البناء

١- كان قادة هذه الحملات أمراء أمثال سيجورد ملك النرويج، إضافة لأقوام مثل الإنكليز والدانيين، والفرسان الذين جاؤوا للالتحاق بالإستراتيجية أو الداوية. ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج٢، القسم الأول، ص ٤٠٠-٤٠١.

٢- سالم محمّد الحميدة، الحروب الصليبية عهد الجهاد المبكر، بغداد، ١٩٩٠م، ج٢، ص ٢٠.

٣- يوشع براور، المرجع السابق، ص ٦٤.

٤- الرها: منطقة طبيعية معقّدة من ناحية التركيب البشري (أرمن وسريان وأتراك وتركمان وعرب فضلاً عن الوافدين الجدد الصليبيين)، تقع على الطريق الرئيس بين الموصل وحلب، كانت إحدى كراسي المطرانية، لكن إمارة الرها كانت بالدرجة الأولى إمارة حرب، حرب بينها وبين المسلمين من أجل البقاء، وبينها وبين الممتلكات الأرمنية خارجها من أجل التوسع، وبينها وبين إمارة أنطاكية من أجل الأطماع الشخصية، وحرب شنتها إلى جانب مملكة بيت المقدس بحكم تبعيتها الإقطاعية لها. ابن الأثير (علي بن أبي الكرام)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٦٦-٦٧. وليم الصوري، المصدر السابق، ج٢، ص ٧٣٩. يعقوب الفيتري، المصدر السابق، ص ٣٦-٣٧-٣٨. عليّة عبد السميع الجززوري، إمارة الرها الصليبية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠١م، ص ٢٩-٣٤٨. ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج١، ص ٣٠٠.

٥- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج١، ص ٢٩٣. علي السيّد علي محمود، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص ١٤-١٥.

الصليبي في الجنوب، إضافة لمكانتها الدينية^[1]. لكنَّ القوات العربيَّة تحتاج إلى استثمار الوقت المناسب والقائد المحنك لتتمكَّن من القيام بعمل نوعي، وهذا ما فعله عماد الدين الزنكي^[2] أمير الموصل^[3] في خريف عام (٥٣٩هـ / ١١٤٤م)^[4]، ففي هذا العام أصبح النزاع بين إمارة الرها وبين إمارة أنطاكية واضحاً^[5]، بينما تمكَّنت بيزنطة من طرد الصليبيين من كيليكيا، فأصبح التعاون بينها وبينهم مستحيلاً مع تزايد مشاكلها الداخلية^[6]. أمَّا مملكة بيت المقدس، فهي غير مستعدة للقيام بمغامرة حربيَّة في ظلِّ ملك ضعيف بعد وفاة الملك (فولك Fulk) عام ١١٤٣م^[7].

دعم تحرير الرها موقف حلب من الدفاع إلى الهجوم، وأزال خطورة وجود قاعدة أماميَّة للصليبيين، فعُدَّ تحريرها بداية النهاية لوجودهم في بلاد الشام^[8]، إذ غيرَ هذا الحدث موازين القوى في الشرق لصالح العرب، وشكَّل صدمة عنيفة للصليبيين في الشرق والغرب، وكأنَّ أوروبا كانت بحاجة إلى ما حلَّ بالرَّها من كارثة كي تنهض من جديد في دعم الإمارات الصليبيَّة الشرقيَّة، فتحريرها بعد أقلِّ من خمسين عاماً على تأسيسها كان نذير شؤم عليهم^[9]، فدقَّ ناقوس الخطر لباقي الإمارات الصليبيَّة التي لم تقدِّم أيَّ مساعدة إيجابيَّة للرَّها، وبدأت أنظار صليبي الشرق تتَّجه نحو الغرب الأوروبي لطلب النجدة، فكانت البعثة الأرمنيَّة إلى

١- عادل حمزة، العلاقات السياسيَّة بين الدولة الأيوبيَّة والإمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدَّسة زمن الحروب الصليبيَّة، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٨، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، ٢٠٠١م، ص ٥٤. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ٨٩. عصام محمَّد شبارو، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري (السلاجقة- الأيوبيون)، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٢٢.

٢- عماد الدين زنكي (٤٧٧-٥٤١هـ): والده قسيم الدولة أفسنقر، تمكَّن عماد الدين من تكوين جبهة موحَّدة لمقاومة الصليبيين واضعاً أوَّل حجر في هذا البناء، تمكَّن كسياسي بارز وعسكري بارع من توحيد جبهة الموصل وحلب. ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيَّة، ص ٧٤-٨٤. محمَّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، (٥٢١-٦٣٠هـ / ١١٢٧-١٢٣٣م)، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١٦١-١٦٣.

٣- عندما دبَّ الضعف في مركز الدولة العباسيَّة أخذت المدن تنفصل وتحصل على استقلالها في سياستها وإدارتها، وكانت الموصل إحدى هذه المدن. عماد الدين خليل، المقاومة الإسلاميَّة للغزو الصليبي عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ / ١٠٩٥-١١٢٧م)، دمشق، ٢٠٠٥م، ص ١٢-١٥.

٤- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ٤٣٦. محمَّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص ١٥٠.

٥- عليَّة الجنزوري، المرجع السابق، ص ٢٩٨.

٦- سالم محمَّد الحميدة، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٢-٢٠٣-٢٠٤.

٧- ستيفن رنسيما، المرجع السابق، ج ٢، القسم الأوَّل، ص ٣٧٥-٣٧٩.

٨- ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ٦٩-٧٠. سالم محمَّد الحميدة، المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٠٩.

٩- عليَّة الجنزوري، المرجع السابق، ص ٣١٤. قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٣٨. محمَّد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص ١٥٦.

روما يرافقها أسقف جبلة في إمارة أنطاكية (هيو)^[1]. وكانت الحملة الصليبية الثانية (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، وقد حظيت بعناية خاصّة؛ إذ حلّ الملوك مكان الفرسان في قيادتها، فكانت بقيادة ملك فرنسا لويس السابع (٥٣٢-٥٧٦هـ/ ١١٣٧-١١٨٠م)، وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث (٥٣٣-٥٤٧هـ/ ١١٣٨-١١٥٢م)^[2].

اتّخذت الحملة من ممارسات الحملة الأولى قدوة لها، فعندما وصل ملك ألمانيا كونراد إلى هنغاريا عبرها، بدأ يمارس السلب والنهب والتدمير محارباً وليس كحاجّ يريد الوصول إلى القبر المقدّس، وهذا يؤكّد صدق مقولة: «جاءت الحروب الصليبية لتروي ظمأ وتعطّش الأمراء إلى الحرب والمغامرة»^[3].

وعلى الرغم من اختلاف ظروف هذه الحملة عن الأولى في أنّ الصليبيين القادمين سوف يجدون في بلاد الشام قاعدة حربية في متناول أيديهم^[4]، إلّا أنّها باءت بالفشل نتيجة فقدان الصليبيين لوحدة الهدف التي كانت تؤلّف بين قوآت الحملة الأولى، وتظهرها بمظهر القوآت المتجانسة، حيث سار كلّ من الملكين مستقلاً عن الآخر^[5]. ونتيجة سوء التخطيط والتخبّط الذي عاشه قادة الحملة في الوجهة التي يجب عليهم اتّخاذها لاستعادة الرها، اختاروا محاصرة دمشق، لكنّه كان تقديرًا خاطئًا اتّسم بالحماقة المطلقة^[6]، ممّا دفعهم للانسحاب تفاديًا لمعركة دموية لم تكن في حساباتهم^[7]. فالحملة نسيت هدفها الذي جاءت من أجله إلى الشرق وسط دوامة المصالح المتضاربة للأمراء الصليبيين.

ومن أهمّ أسباب توجّه الحملة نحو دمشق الجشع في إخضاعها وهي عاصمة الشام

١ - ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٢، القسم الأوّل، ص ٣٩٧. HANS, OP, Cit, p93.

٢ - ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص ٨٨. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٨-٧٥٩. أودو أوف دويل، الحملة الصليبية الثانية كتاب رحلة لويس السابع إلى الشرق، تر: سهيل زكار، ج ١، ص ٢٩٥-٣١٤. فشر، المرجع السابق، ص ١٨٤. أرنسنت باركر، المرجع السابق، ص ٩٣.٧٤. HANS, OP, Cit, p93.

٣ - أودو أوف دويل، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٥ هامش (٢).

٤ - أرنسنت باركر، المرجع السابق، ص ٧٤. مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص ٣٢.

٥ - وليم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٥٩. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ١٨٣. عصام شبارو، المرجع السابق، ص ١٢٤.

٦ - ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٢، القسم الأوّل، ص ٤٥٢.

٧ - ابن القلائسي، المصدر السابق، ص ٤٦٥-٤٦٦. وليم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٨٧. ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، المصدر السابق، ص ٨٩.

التاريخية، ولتأمين حدود المملكة من جهة الجليل، وللحصول على المكاسب الاقتصادية والسياسية والإستراتيجية^[1]. فهي نقطة تمويل كبيرة وغنية، فامتلاكها يقطع صلة بلاد الشام بمصر وأفريقيا، ساعدهم على ذلك الظن بسهولة الاستيلاء عليها^[2].

جاء فشل الحملة نقطة تحول في تاريخ الإمارات الصليبية، فتحرير الرها أنهى المرحلة الأولى في الإفاقة العربية الإسلامية^[3]، وأجج العداء الغربي الأوروبي تجاه الإمبراطورية البيزنطية، وسيتراكم هذا العداء على مدار القرن الثاني عشر حتى يصل إلى ذروته مطلع القرن الثالث عشر، واتضح للصليبيين في الشرق أن اعتمادهم على الدعم الأوروبي الخارجي لم يغنهم شيئاً، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة^[4].

ثالثاً: الحملة الثالثة نقطة تحول في الفكرة الصليبية

اتخذت الحملات الصليبية شكل الهجرة وانتقال الشعوب من خلال طابع الغزو العنيف الذي يستهدف تشريد أهل البلد وأصحابها الشرعيين وحرمانهم من حقوقهم وأراضيهم^[5]. وبإلقاء نظرة على سلوك الصليبيين في الشرق، سواء فيما يتعلق بالمعاملات فيما بينهم وبين بعض أم فيما يتعلق بتصرفاتهم تجاه أهل البلد الأصليين، توضح أن أولئك لم يكن لهم من المسيحية إلا اسمها، وتؤكد العامل الاقتصادي في دفعه أهالي غرب أوروبا إلى المشاركة في الحركة الصليبية.

فطباع الفرنجة لم تكن إلا طباعاً قامت على الجشع المفرط الذي لا يقره القانون، إذ كانوا يهبطون من قلاعهم لينقضوا على المسلمين وليقبضوا عليهم، ولا يفرجون عنهم إلا بعد دفع فدية أو ليهاجموا قافلة من قوافل المسلمين. وفي هذه المرحلة جددت الغارات الصليبية على موانئ البحر الأحمر، فاستولوا على السلع التجارية في ميناء عيذاب، وأشعلوا النيران في مينائي الحوراء وينبع، وفي منطقة غابر أغرقوا سفينة حجاج كانت في طريقها إلى جدة^[6].

١ - محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ١٨٣.

٢ - عادل حمزة، المرجع السابق، ص ٥٩.

٣ - ستيفن رنسيومان، المرجع السابق، ج ٢، القسم الثاني، ص ٤٦٧.

٤ - محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ١٨٤.

٥ - سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة، ص ٧.

٦ - محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب، ص ١٢٥.

فالحرص للحصول على الكسب غير المشروع أفسد دماء الفرنجة، وإذا صبر المسلمون على قيام دولة للصليبيين، فإنهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص^[1]، ميزتها الغدر ونقض العهود، وهذا ما بيّنه صلاح الدين الأيوبي^[2] عام (٥٧٢هـ / ١١٧٧م) في رسالته إلى بغداد يخبر بقدوم نجدة إلى فرنج الشام، وكيف أنهم نقضوا الهدنة التي كانت معقودة بينه وبينهم، وهي من إنشاء القاضي الفاضل: «فاسخين لعقد كان محكمًا غادرين غدرًا صريحًا»^[3]. وهي قاعدة رسختها الحملة الأولى وسار على خطاها باقي الحملات والصليبيين، فما أقدم عليه حاكم الكرك (رينو أوف شاتيون) في شن الغارات المخربة في البحر الأحمر عام (٥٧٧هـ / ١١٨٢م)، يصح تفسير سياسته على أنها نوع من المغامرة والنهب، ثم تحول إلى قطع الطريق واللصوصية، فتعرض للقوافل التي تجتاز الطريق من دمشق إلى مصر، ونهب ما معهم من مال ومتاع^[4]. وكانت هذه سببًا جعل صلاح الدين الأيوبي يعدّ العدة لتحرير بيت المقدس، فكانت معركة حطين عام (٥٨٢هـ / ١١٨٧م).

جاء الرد رسميًا من قبل أوروبا على هذه الانتصارات^[5]، فكانت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م) التي تميّزت بأنها لم تنبع من البابوية التي كانت وقتذاك تجتاز مرحلة من مراحل الانهيار، إنما نبعت من السلطة الزمنية التي تمثلها الملكيات الثلاث في ألمانيا وإنكلترا وفرنسا، التي صار لها السيادة والسلطان في أوروبا، وما اتخذته كل من ملكي فرنسا وإنكلترا (فيليب أغسطس وهنري الثاني) من وسائل للقيام بالحملة يدل على أنها تحمل

١- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٧١.

٢- أنهى صلاح الدين من تأمين حدود دولته المترامية الأطراف، وأتم تدريب جيشه فنظمه وسلّحه، فبدأ بالدخول في المرحلة الثانية هي الجهاد ضد الصليبيين. جوفري دي فانسوف، الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد)، تر: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٢٨. محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة (٥٦٩-٦٦١هـ / ١١٧٤-١٢٦٣م)، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، ص ١٥٣-١٦٤. شاعر مصطفى، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفتري عليه، دمشق، ط ١، ١٩٩٨م، ص ١٦٧. المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، ط ١، ١٩٦٩م، ص ٦٨.

STANLEY LANE-POOLE, M.A, SLADIN AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM, LONDON, 1985, P197.

٣- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٢٠. كتاب الروضتين لأبي شامة، ج ١، ص ٧٠٦.

٤- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٢. أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٨٢.

٥- شاعر مصطفى، المرجع السابق، ص ٢٩٥. جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٧٧. حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ٣٠٣.

مظهرًا علمانيًا، وهو الأساس الذي جعلها أكبر الحملات الصليبية^[1]، وإن كان ريتشارد، الذي تسلّم حكم إنكلترا بعد والده هنري، يأمل من وراء هذا الحجّ الحربي أن يجعل الطريق لنفسه ممهدًا فيبلغ القدس ويدخلها غازيًا على جثث أعدائه كما دخلها سلفه جودفري^[2].

واللافت للانتباه أن هذه الحملة تُعدّ أقلّ شأنًا من الحملة الأولى على الصعيد الروحي؛ إذ نقل كلّ من ملكي فرنسا وإنكلترا ما بينهما من منازعات سياسية إلى الحركة الصليبية^[3]، إضافة لهدفها الأساسي في كسر شوكة العرب وتفتيت وحدتهم بعد معركة حطين وتحرير القدس، ليتمكّنوا من حماية مصالحهم في احتلال الأرض العربية. كان سير الحملة، سواء في البرّ أو البحر، يتّجه نحو مركز واحد هو عكا، فهي النقطة الجوهريّة التي إذا أمكن السيطرة عليها، أصبح الطريق مفتوحًا إلى بيت المقدس^[4].

استهوت الحياة الجديدة في الشرق الصليبيين، فقد اختلطوا بالشرقيين وأخذوا من طباعهم وعاداتهم، وأعدّوا أنفسهم للإقامة الدائمة في الشرق^[5]. فقد كانت الحركة الصليبية دعوة إلى الاستيطان والعمل على تهجير الغربيين إلى الشرق وتوطينهم فيه بصفة دائمة، دون التفكير في العودة إلى ديارهم، ونجد ذلك في أسلوب قتال الصليبيين أثناء المعارك التي حصلت لتحرير المدن بعد حطين؛ فحين استولى كونراد دي مونفترات على مدينة صور (٥ جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١٤ تموز ١١٨٧م)؛ أي بعد عشرة أيام من حطين، حصّن المدينة وألقى بقوّة المسلمين من على الأسوار إلى الخنادق، ولم يتورّع عن إطلاق السهام على والده المركيز بونيفيس الذي جاء ليطلب منه تسليم صور لقوّة صلاح الدين^[6]، فقد كانت القوات الصليبية تستخدم كلّ الأساليب في سبيل التمسك بالمدن والأماكن وعدم مغادرة

١- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٨٦. ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأول، ص ٧.

٢- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج ١، ص ١٤.

٣- المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٦، ج ٢، ص ٤١. ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأول، ص ٩٩. نعمان الطيب سليمان، المرجع السابق، ص ٣٢٨.

KENNETH M. SETTON, A HISTORY OF THE CRUSADES, LONDON, 1969, P45.

٤- جوفري دي فانسوف، المصدر السابق، ج ١، ص ٨٤-٨٦. نعمان الطيب سليمان، المرجع السابق، ص ٢٩٣.

٥- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٤.

٦- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٢. أرتول، ذيل تاريخ وليم الصوري (١١٨٤-١١٩٧م)، تر: سهيل زكّار، دمشق، ١٩٩٣م، ص ٣١١، ناديا الغزولي، المرجع السابق، ص ٨٢.

الشرق.

رغم اتحاد أوروبا كلها في الحملة الثالثة، فإنَّ ما حصلت عليه من نتائج كان ضئيلاً، وكلَّ ما أسهم به الصليبيون لإعادة بناء مملكة الفرنجة لم يتعدَّ الحفاظ على إمارتي أنطاكية وطرابلس والمدن الساحلية حتى يافا والاستيلاء على عكا^[1] التي نقل إليها مركز المملكة الصليبية السياسي والمالي، ممَّا يعني التحوُّل من المصالح الدينية إلى المصالح الاقتصادية والتجارية، والتي ستصبح ميزة القرن الثالث عشر^[2]، وقد أظهر توقيع صلح الرملة عام (٥٨٨هـ/١١٩٢م)^[3] عجز أوروبا عن توحيد المسيحية الغربية وتوجيهها نحو هدف عام^[4].

رابعاً: غلبة المصالح الاقتصادية في الحملة الرابعة

استجابت أوروبا في الحملة الأولى لنداء بيزنطة ضدَّ الشرق العربي، لكن لم تتصوّر بيزنطة يوماً أنَّ تدفق هذه القوَّات سيهدّد كيائها ويكون سبباً في انتهاء سلطانها، فمشروع قيام حملة صليبية جديدة ومهاجمة القسطنطينية، تمَّ ربطهما معاً في الحملة الرابعة (٥٩٩-٦٠١هـ/ ١٢٠٢-١٢٠٤م)، التي تُعدّ تاريخاً لتسلُّط النزعة العلمانية، ومحاولة البابوية التخلّص من تلك السيطرة، ومواصلة ما اشتهرت به من قبل في توجيه الحروب الصليبية^[5].

كان الوارث الحقيقي لهنري السادس هو الباب أنوسنت الثالث (١١٨٩-١٢١٦م)^[6] الذي جعل الحروب الصليبية هدفه الأساسي، فبعد موت هنري في صقلية عام ١١٩٧م وفشل الحملة التي أعدّها لها، تمكّن البابا أنوسنت من الإعداد لحملة جديدة عام ١٢٠٠م، فقام (فولك نيللي) بدور بطرس الناسك نفسه في الحملة الأولى^[7]. وتُعدّ الحملة الرابعة

١- يعقوب الفيتري، المصدر السابق، ص ١٦٨-١٦٩. روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، تحقيق: سهيل زكّار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٠٠٠م، ج ٣٩، ص ٣٧٢. KENNETH M. SETTON, P46. ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأول، ص ١٤٥.

2- KENNETH M. SETTON, P522.

٣- نعمان الطيّب سليمان، المرجع السابق، ص ٣٢١. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ الأيوبيين، ص ٢٠١.

STANLEY LANE-POOLE, P.281- 343.

٤- فشر، المرجع السابق، ص ١٨٨.

٥- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٩٤-٩٥.

٦- إسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضدَّ القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢م، ص ٥٦.

٧- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأول، ص ١٩٩-٢٠٠.

فرنسية في تأليفها لا في توجيهها، وقد تطلّع قادتها إلى مصر هدفًا لهم دون استشارة البابا أنوسنت الثالث^[1]، لذلك كانت الحملة الرابعة علمانية منذ بدايتها على الرغم من تحضيرات البابا أنوسنت لها^[2]، فهي مثال حيّ على انعدام الباعث الديني وثبوت الاتجاه التوسعي للحركة الصليبية^[3]، مع الانتباه للبعد الاقتصادي التجاري^[4]؛ فقد تحولت الحملة الرابعة إلى معترك لأغراض سياسية متنازعة، فتغيّر اتجاهها عن مصر كان بمثابة (فكّ عقدة) للصراع القديم بين الغرب الأوروبي وبيزنطة^[5]، وإثبات أنّ الصليبيين استقروا حيث كانت هناك الوفرة المادية والثراء، وتوسّعوا حيث الإغراء بالتوسّع، ورفعوا شارة الصليب كمبرّر ديني في عصر كانت تلك طبيعته^[6]. فأَيّ وازع ديني كان عند ألوف الصليبيين الذين اتّجهوا نحو القسطنطينية -وهو البلد المسيحي الكبير- لينهبوا كنائسها ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب، وهم إخوانهم في الدين؟؟ ممّا فاقم من حدة الانشقاق بين الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية^[7].

كانت خطأ الحملة الأولى اللانسانية والهمجية طبّقت ضدّ المدن العربية الشرقية بهدف الحصول على المؤن والأموال والغنائم، والغريب أنّ الخطأ ذاتها استخدمت بعد دخول الصليبيين إلى العاصمة البيزنطية، الذين اقتحموها كالجراد المنتشر وأشعلوا النيران في منازلها. وقدّر المؤرّخ فيلهاردوين عدد المنازل التي احترقت بأنّها تماثل عدد المنازل التي تحتويها ثلاث مدن كبيرة من مملكة فرنسا، ثمّ انطلقوا يقتلون كلّ مَنْ صادفهم من البيزنطيين حتّى أصبح من العسير حصر عدد القتلى، ثمّ جاء دور النهب الذي لم يقف عند أيّ حدّ، حتّى الكنائس والأديرة لم تسلم. ويصوّر المؤرّخون ما فعله الصليبيّون بعد دخولهم كنيسة آيا

١- محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دي برين على مصر (١٢١٨-١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ)، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٨١.

٢- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٩٧ هامش (١).

٣- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٧٧.

٤- شارل ديل، المرجع السابق، ص ٤٢. محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٥.

٥- إسمنت غنيم، المرجع السابق، ص ١٨.

٦- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٦.

٧- عبّر البابا يوحنا بولس الثاني عام ٢٠٠١م عن حزنه لأحداث الحملة الصليبية الرابعة، وقال: «إنّه لأمر مأساوي أنّ المهاجمين انقلبوا ضدّ إخوانهم في الإيمان»، وأعرب عن اعتذاره عام ٢٠٠٤م عن مذابح هذه الحملة أثناء زيارة بطريرك القسطنطينية «بارثولوميو الأوّل» الفاتيكان. سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٣.

صوفيا، وكأنَّهم يسردون ما فعلته الحملة الأولى بعد دخولها مسجد بيت المقدس، فعبارة «إنَّها إرادة الربِّ» وإنَّ لم يردِّدها الصليبيُّون في القسطنطينية، إلَّا أنَّهم طبَّقوها فعلاً، فقد اقتحموا الكنيسة فمزَّقوا الستائر والبسط والمفروشات، وداسوا الكتب المقدَّسة بأقدامهم وحطَّموا الأيقونات، وبيعت التحف والنفائس في أسواق دمشق والقاهرة وحلب والأسواق الأوروبية، حتَّى إنَّ الجياد البرونزية الأربعة التي كانت تزيِّن ميدان السباق في العاصمة البيزنطية، قام داندلو بحملها إلى البندقية، وحتَّى اليوم تزيِّن واجهة كاتدرائية القديس مارك في فينيسيا^[1].

وأصدر البابا أمراً بأنَّه ينبغي ألاَّ يجري الاعتداء على مسيحيين آخرين^[2]، وكأنَّه يقول يمكن الاعتداء على غير المسيحيين، وأرسل إلى الماركيز (بونيفيس أوف مونفترات) رسالة يؤنِّبهم على فعلتهم في اقتحام القسطنطينية، فقال: «لقد أصبحتم أمام العالم كلَّه أهلاً للبغي والفسوق، لقد اتَّبعتُم غرائزكم الآثمة، ... استوليتُم على ثروة الكنيسة وكلَّ ما يخصُّها، ... حطَّمتم غرف المقدَّسات وسرقتُم الصلبان، ... ولأنَّ الكنيسة اليونانية أخضعت بالقوَّة، فإنَّها رفضت سيادة الكرسي البابوي...»^[3].

مع ذلك كان يفترض أن تدعم هذه الحملة موقف الإمارات الصليبية في بلاد الشام، لكنَّ نتائجها كانت فاجعة في جملتها، فأدَّت إلى إضعاف موقف الصليبيين في الشرق بشكلٍ مباشر وغير مباشر، إذ بدأت تجذب إليها الفرسان الصليبيين لينعموا بالراحة بعيداً عن الحروب. ونتيجة تأسيس العائلات الأرستقراطية للممالك في أيبروس ونيقية ودخولهم لصراعات مع المملكة اللاتينية في القسطنطينية، أن أصبح الطريق البري إلى بلاد الشام أشدَّ خطورة على الصليبيين^[4].

١- إسمت غنيم، المرجع السابق، ص ٩٧-٢٦٨.

٢- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأوَّل، ص ٢١٢.

٣- إسمت غنيم، المرجع السابق، ص ١١٤.

٤- ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الأوَّل، ص ٢٣٤. إسمت غنيم، المرجع السابق، ص ١١١.

خامساً: ضياع هيبة البابوية في الحملة الخامسة

كانت الإمارات الصليبية تدرك أهمية الاستيلاء على دلتا نهر النيل فيما إذا أرادت هذه الإمارات أن تنعم بحياة آمنة مستقرة في الأراضي المقدسة^[1]، وهذا يؤكد السياسة التوسعية للفكرة الصليبية، لكن لم توضع فكرة السيطرة على مصر موضع التنفيذ، بسبب عدم توفر الإمكانيات العسكرية للإمارات الصليبية، لكنها ظلت هدفاً تستغل ظروفه كلما كانت الفرصة مناسبة والإمكانيات متوفرة، مع الاكتفاء ببعض الهجمات على الحدود الشمالية الشرقية لمصر المتاخمة لحدود المملكة الصليبية، أو على الموانئ، وقد أدت قناعة الصليبيين بتلك المحاولات طالما بقيت في مصر حكومة ضعيفة^[2].

وهنا لا بد من القول إن أوريان الثاني بدأ المشروع الصليبي بتصوّرات معينة، أمّا الآن بعد الحملة الرابعة، فإن الفكرة الصليبية أصابها التطور الذاتي من خلال قوتها المتنامية وضعف جيرانها، لذلك سيُمدّد التوسّع الصليبي إلى مناطق جديدة، لذلك كانت حملة عام (١١٢٥هـ/ ١١١٨م) استكشاف ليتلوها الغزو الفعلي في الحملة الخامسة^[3]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى الإيديولوجيا التي انطلقت منها الفكرة الصليبية أخذت تفسد ويظهر زيفها مع مرور الزمن، وبدأت تظهر الأهداف والدوافع الحقيقية التي كانت متوارية خلف الضجة الإعلامية للحرب^[4].

وإذا انحرفت الحملة الرابعة عن هدفها الأساسي واتّجهت إلى القسطنطينية، فإن الحملة الخامسة (٦١٥-٦١٨هـ/ ١٢١٨-١٢٢١م) استهدفت مصر بشكل مباشر^[5]، إذ تمّ توجيهها في بابوية أنوسنت الثالث الذي رغب في رفع شأن البابوية ليكون لها السلطة العليا الدنيوية من خلال القيام بعمل صليبي ضخم يجني من ورائه نصراً يعوّض به فشل الحملة الرابعة،

١- محمود عمران، المرجع السابق، ص ٥٢. محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، ص ٣٢١.

٢- ريمونداجيل، المصدر السابق، ص ٢٢٥-٢٢٦. Fulcher of chartres، p.221 ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج ٢/ القسم الأول، ص ٢١.

٣- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ١٠٦-١٠٧.

٤- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص ١٤.

٥- أولفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، تحقيق: سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، ١٩٩٨م، ج ٣٣، ص ٣٨.

وليؤيد نصر الغرب في معركة العقاب عام ١٢١٢م بانتصار آخر في الشرق^[1].

وأكثر ما يوضح التغيير الذي طرأ على الإستراتيجية العسكرية في الفكر الأوروبي في ذلك الوقت، أن أصبحت مصر هدفاً لتحقيق أطماعهم ليس في الشرق فقط، وإنما في كل العالم الإسلامي، فقد أرادوا في هذه الحملة توجيه ضربة لدولة العادل الأيوبي قبل أن يتمكن من القضاء على بقية الإمارات الصليبية المتفككة في بلاد الشام، لذلك دعمها البنادقة بهدف السيطرة الكاملة على الموانئ التي لهم فيها امتيازات تجارية^[2]. كانت الحملة بقيادة (جان دي برين)، وقد اتسمت بالعدوانية وطابع التعصب^[3]؛ فبعد استيلاء الصليبيين على دمياط أنزلوا بأهلها القتل والأسر والنهب، بينما احتفظ جاك دي فري بأربعمئة طفل تم تعميدهم، ما يؤكد ارتباط الناحية التبشيرية عند الصليبيين بالفكرة الصليبية نفسها، ووزعوا أحياء المدينة وأبراجها على الفرق الصليبية الموجودة في الحملة^[4].

لكن الغريب في الأمر، أن البابوية كان لها دور في فشل الحملة؛ إذ سمحت للصراع بين المندوب البابوي الكاردينال (بيلاجيوس) والملك (جان دي برين) أن يتحول إلى صراع بين السلطة الدينية والسلطة والزمنية^[5]. وفي محاولة من البابا هونوريوس الثالث الهيمنة على الحملة حتى لا تتعرض لما تعرضت له الحملة الرابعة، منح مندوبه صلاحيات مطلقة تعلق على صلاحيات القادة الزمنيين. ومما ساهم في فشل الحملة، أخطاء رجال الدين في إدارتها، فانتاب المندوب البابوي الغرور والعجرفة وعدم الحيلة^[6]، فكانت هذه الحملة آخر محاولات البابوية في توجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة، لذلك كان فشلها ضربة موجّهة لهيبتها^[7].

سادساً: ضعف الممالك الصليبية يؤدي إلى الحملة السادسة:

- ١- محمد سهيل طقّوش، المرجع السابق، ص ٢٨-١٤١-١٤٢. KENNETH M. SETTON, p381.
- ٢- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج ٣٣، ص ٥٧. أرنتس باركر، الحروب الصليبية، ص ١٠٩-١١٠.
- ٣- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٨٠.
- ٤- محمود عمران، المرجع السابق، ص ٢٨٣.
- ٥- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج ٣٣، ص ٧٩-٨٣. محمود عمران، المرجع السابق، ص ٣٢٥.
- ٦- محمد سهيل طقّوش، تاريخ الأيوبيين، ص ٣٢١-٣٢٢.
- ٧- أولفر أوف بادربورن، المصدر السابق، ج ٣٣، ص ١٠٩. مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص ٤٥.

أحرزت الحملة السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩م) من نجاح بقدر ما أحرزت الحملة الخامسة من فشل، لكن ظروف الحملة ووسائل سيرها جعلت نجاحها يفوق في نكته فشل الحملة الخامسة، فهي حملة فريدة في ذاتها، علمانية خاصة، وجرى توجيهها دون أن تقوم بأي عمل عدائي ضد المسلمين^[1]، ولم تباركها البابوية بل صبت عليها لعنتها، وحرصت على فشلها حتى لا يقال إنَّ الرجل الخارج على طاعة بابا روما قد حقق نجاحاً لم يسبقه إليه أحد. وقد حاربت هذه الحملة؛ لأنها أفقدتها الدور الدبلوماسي الذي كانت تقوم به في سبيل الدعوة والاتصال بين القوى السياسية المختلفة للمشاركة في هذا المشروع^[2].

لم تتخذ هذه الحملة صفة الحرب المقدسة، فقد ساد أوساط الحملة روح التسامح والشعور بالودّ والمجاملة، فبدت وكأنَّها زيارة ودية لملك شرقي صديق^[3] من قبل ملك صقلية فريديريك الثاني (٦٢٢-٦٤٨هـ / ١٢٢٥-١٢٥٠م) المشهور بحريته الفكرية وميله نحو الشرق، فما حدث هو نوع من المساومة بينه وبين سلطان مصر الكامل الأيوبي، فالإمبراطور فريديريك لم يكن في مركز يسمح له أن يصل إلى هدفه باستعادة القدس عن طريق القوة، فالكثير من زعماء الصليبيين في الشرق لم يتعاونوا معه، ولم تتحمس الداوية والإسبانية له بسبب حرمانه من الكنيسة، ولم تأت معه قوة كبيرة يستطيع بها أن يوجه ضربة حاسمة للقوات العربية، ولم يكن السلطان الملك الكامل في موقف يسمح له بتحدي الإمبراطور^[4]، فالتقت وجهتا نظر الزعيمين على ضرورة الوصول إلى حلّ عن طريق المفاوضات^[5]، فوَقَّعت هدنة لمدة عشر سنوات عادت فيها القدس للصليبيين (اتفاق يافا عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)، وغادر فريديريك بلاد الشام بعد زيارته لبيت المقدس لتنتهي بمغادرته الحملة الصليبية السادسة.

١- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ١١١.

٢- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢١.

٣- محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، ص ٣٤٤.

٤- حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ٣٦٢.

٥- المقرئزي (تقي الدين أحمد بن علي)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: زيادة، القاهرة، ١٩٤١م، ج ١، ص ٢٢٨. عادل حمزة، المرجع السابق، ص ٢٩٩.

سابعًا: الحملة السابعة جولة عسكرية فاشلة

قامت هذه الحملة نتيجة عودة القدس للمسلمين عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م على يد القوات الخوارزمية التي استعان بها الملك الصالح أيوب، ونتيجة معركة غزة التي تُعدّ أعظم كارثة حلّت بالصلبيين بعد معركة حطين؛ إذ كادت أن تستأصل شأفة الإمبراطورية والداوية^[1]. سحب الحملة قيام مجمع ليون عام ١٢٤٥م، ودعوة البابا أنوسنت الرابع للحملة التي ستؤدي إلى تدمير الحروب الصليبية بمعناها الأصلي (الديني)، فقد أثر استخدام أغراضه السياسية لاستعادة بيت المقدس، بينما كان موقف العلمانيين معاكسًا لموقف البابا؛ إذ نهضوا في هذه الحملة لنصرة المعنى الروحي للحروب الصليبية، وإن كان هذا الموقف ضدّ البابوية نفسها^[2].

وقد تنبّه البابا أنوسنت الرابع للقوّة الجديدة التي ظهرت على مسرح الأحداث في الشرق متمثلة بالمغول، فما قاموا به من أعمال حربية وتدمير وقتل، يشابه ما قام به الصليبيون في القدس، فكانت لديه الرغبة في استغلال هذه القوّة في محاربة العرب ومحاصرتهم من الشرق والغرب بين قوتين، فأرسل البعثات للقيام بحرب صليبية عامّة لانتزاع الأراضي المقدسة من الحكم الإسلامي، وهذا ما فعله الملك لويس التاسع لتحقيق هذه السياسة قبل مغادرته أوروبا، وحتى بعد وصوله جزيرة قبرص عام ١٢٤٩م^[3].

اتّجه الملك لويس التاسع بهذه الحملة لمهاجمة مصر عام ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، دون أن تسفر اتصالاته مع التتار إلى أيّ نتائج ولعلّ ما اشتهرت به مصر من الثروة والمناعة، مع ضعف الدولة الأيوبية، ساهم في اختيارها هدفًا لهذه الحملة^[4].

فشلت الحملة الصليبية بعد معركة المنصورة^[5]، وأُجبر الملك لويس على المغادرة إلى

١ - حامد أبو سعيد، المرجع السابق، ص ٣٨٥. عصام شبارو، المرجع السابق، ص ١٩٠. KENNETH M. SETTON, p489.

٢ - ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣، القسم الثاني، ص ٤٤١. أرنت باركر، المرجع السابق، ص ١٢٠.

٣ - جوزيف يوسف، المرجع السابق، ص ٢٥٥-٢٧٢. فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضدّ الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، لبنان، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٨٩-٨٩.

٤ - ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٣٠. فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص ٦١-٦٢. المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٣٣٦. ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج ٣/ القسم الثاني، ص ٤٤٥.

٥ - المقرئزي، السلوك، ج ١، ص ٣٥٦. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٦٦. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك، ص ٣٧.

عكاً بقي فيها أربع سنوات (١٢٥٠-١٢٥٤م) يحاول أن يوطد مملكة بيت المقدس وتصفية الخلافات بين الأمراء الصليبيين^[1]، وجمع جيشاً صليبياً تحضيراً لحملة جديدة، لكن عدم وجود الإمكانيات واستمرار النزاعات بين البابوية والإمبراطورية، أصاب أوروبا بالشلل، فغادر الشرق عام ١٢٥٤م^[2].

ثامناً: آخر الحملات الرئيسية الحملة الثامنة

بعد مغادرة لويس التاسع عكاً زادت المنازعات بين الأمراء الصليبيين والتجار الإيطاليين^[3] والمنظّمات العسكرية (الدأوية والإسبتارية). بالمقابل على الجبهة العربية، ثبتت أركان الدولة المملوكية بعد انتصار المماليك في عين جالوت عام ١٢٦٠م، فرتّب الظاهر بيبرس الجبهة الداخلية للدولة، ورتّب علاقاته الخارجية، وبدأ بتحرير البلاد من الوجود الصليبي بحرب شاملة^[4]، فقصّت انتصاراته على آمال الصليبيين في البقاء طويلاً في بلاد الشام، ونشط دعاة الحركة الصليبية في محاولة لإنقاذ الوجود الصليبي. وبعد تدهور قوة مملكة أرمينيا، توجه الصليبيون نحو قبرص، فتمّ توحيد التاجين تحت حكم الملك (هيو الثالث)، الذي بدأ يعمل في عدّة اتجاهات لتقوية الجبهة الداخلية للمملكة، فتارةً يفكر بقدوم حملة جديدة، وتارةً يشجع المغول على غزو بلاد الشام^[5].

وفعلاً كانت حملة الملك لويس التاسع، وهي ثالث الحملات بالنسبة له، لكن وجهتها هذه المرة كانت نحو تونس عام ١٢٧٠م، فالهدف منها استمالة حاكمها المستنصر إلى المسيحية على المذهب الكاثوليكي، مع إضافة إقليم جديد يقع في بقعة بالغة الأهمية

١- ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٦، ص٣٦٩. فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص١٢٩-١٣٠.

٢- مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص٥٣.

٣- شارل ديل، المرجع السابق، ص٥١. RICHARD, Op, Cit, V11 B, p361.

٤- فتمّ تحرير قيسارية وأرسوف عام ١٢٦٣هـ/١٢٦٥م، وتحرير صفد وهونين وتبنين ومدينة الرملة وبلاد سيس عام ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، وتحرير يافا وأنطاكية عام ٦٦٦هـ/١٢٦٨م. المقرئزي السلوك، المصدر السابق، ج١، ص٥٢٦-٥٣٤-٥٥٢-٥٦٥-٥٦٨-٥٧٠. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٧، ص١٤٠-١٤٣. فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص١٤٥-١٤٦-١٤٩-١٥٠. وفاء محمد علي، جهود المماليك الحربية ضدّ الصليبيين، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩١م. ص١١-٢٤. عزمي عبد محمد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضدّ الصليبيين في عهد المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، الأردن، ط١، ١٩٩٥م، ص٣٣-٤٣-٥٠.

٥- فايد حماد محمد عاشور، المرجع السابق، ص١٥٨-١٦٠. عزمي أبو عليان، المرجع السابق، ص٦٣.

الإستراتيجية^[1]، ومن ثم مواصلة الزحف إلى مصر التي أصبحت خطّ الدفاع الأوّل عن العالم العربيّ، ومركز إمداده بالجند والميرة والسلاح، فالفضاء عليها يؤدّي إلى امتلاك الأراضي المقدّسة وتحقيق الأطماع الصليبيّة^[2].

لكنّ موت الملك لويس التاسع بمجرّد وصوله سواحل تونس، أصاب الحملة بالفشل^[3]، وكانت النهاية الفعلية للحمالات الصليبيّة، فلم يعد يخرج من أوروبا جيش لإنقاذ الإمارات الفرنجيّة في الشرق^[4]. ترافق ذلك مع تكثيف سلاطين المماليك^[5] جهودهم للقضاء على بقايا الإمارات الصليبيّة في بلاد الشام، إضافة لذلك تغيير سياسة المدن التجاريّة (البندقيّة وجنوا) باعتماد التعامل المكشوف والمباشر مع المماليك^[6]؛ إذ تمكّن قطز ثم بيبرس ثم قلاوون من توظيف سلسلة من التحالفات والمعاهدات مع المغول والصليبيين، مع متابعتهم تحرير الأرض العربيّة، فكانت عكّا آخر مدينة يتمّ تحريرها في عام (٦٩٠هـ / ١٢٩١م)^[7]، فذهبت عبثاً صيحات هنري الثاني ملك قبرص الذي أرسل يستنجد بالغرب، موضعاً أنّ يوم عكّا قريب^[8]، ولم يعد يتمكّن البابا جريجوري العاشر من الإعداد لحملة صليبيّة جديدة، فرغم لباقة التقارير التي جمعها عن سبب عداء الرأي العام لهذا الموضوع، إلّا أنّها لم تتعرّض للمشكلة الجوهرية، وهي أنّه لم يعد للحرب الصليبيّة التقليديّة ذاتها قيمة بعد هذا التاريخ.

١ - ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص ٥٠١.

٢ - جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج١، ص ٨٠-٨١.

٣ - المقرئزي، المصدر السابق، ج١، ص ٥٩٠. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ المماليك، ص ١٢٧.

٤ - ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص ٥٠٣.

٥ - وفقاً لمعايير عناصر القوّة ومعايير ممارسة النفوذ، كانت دولة المماليك ولمدّة ثلاثة قرون الفاعل المركزي في العلاقات الإسلاميّة الدوليّة. نادية لطفي، المرجع السابق، ج١٠، ص ٧.

٦ - ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ج٣، القسم الثاني، ص ٥٧٥.

٧ - المقرئزي، المصدر السابق، ج١، ص ٧٦٤. وفاء محمّد علي، المرجع السابق، ص ٣٤.

٨ - أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي)، المختصر في أخبار البشر، دار الطباعة الشهبانية، ١٢٨١هـ، ج٤، ص ٢٥-٢٦. عزمي أبو عليان، المرجع السابق، ص ٨٤-٨٥.

خاتمة

الحركة الصليبية مرحلة من مراحل الكفاح الطويل بين الشرق والغرب، جاءت نتيجة عمليات تطوّر بطيئة مستمرة لفترات متباعدة، وقد تركت آثارها لأحقاب أخرى بعد نهايتها. فهذه الظاهرة التاريخية تمثل روح العالم الغربي الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلاً صادقاً في ناحيتي الدين والحرب، الأولى مثلتها قوة الكنيسة المسيطرة في تلك القرون^[1]، والثانية مثلها النظام الإقطاعي، فكانت الحرب صناعة الفرسان^[2]. كما أنّ النزاع بين البابوية والإمبراطورية جاء وسيلة لاستنفاد الطاقة التي تزوّد بها المجتمع الغربي خلال نهضة القرن الحادي عشر، وكان من المتعذر أن تستنفد هذه الطاقة في صراع داخلي، فلا بدّ من البحث عن منفس خارجي لتوجيه هذه الطاقة إليه^[3]. ومما شكّل الفكرة الصليبية وساهم في تكوينها، ثلاثة روافد أساسية، الحرب المقدسة والحجّ المسيحي، الحروب الإقطاعية وحركة السلام التي كانت نتيجة مباشرة لها كتيّار جرمانى، ثمّ المؤثرات الإسلامية نتيجة غير مباشرة كتيّار خارجي^[4].

تمتدّ الحملات الصليبية الرئيسة المتوجّهة إلى بلاد الشام ما بين عامي (١٠٩٥-١٢٩١م). هذه المرحلة التاريخية تمثل الدور الحاسم التقليدي لتلك الحركة، لكنّ هذه الحركة بمعناها الواسع لها جذور ومقدمات، والتيّار الصليبي استمرّ بعد تحرير عكا عام ١٢٩١م طيلة القرن الرابع عشر الميلادي^[5]. والسبب في اتّخاذ الحروب الصليبية أرقاماً معيّنة، ترجع إلى أنّها حدثت بعد وقوع كارثة مثل عودة الرها عام ١١٤٤م، فكانت الحملة الصليبية الثانية، أو تحرير القدس عام ١١٨٧م، أو قادهها ملوك وأباطرة مثل الحملة الصليبية الثالثة، أو لما أحرزته من نجاح أو فشل مثلما جرى للحملتين الرابعة والخامسة، إذ قلّما مضى عام دون أن يقدم أثناءه جماعات جديدة إلى الأرض المقدسة^[6]. فالحملات الصليبية

١- محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٠.

٢- جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، ص ٤١-٤٢.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ص ٢١.

٤- قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص ١٣.

٥- محمّد ماهر حمادة، المرجع السابق، ص ١٩.

٦- أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٧٣.

مشروع واحد لا يتجزأ، وإن كان الهدف من التجزئة سهولة الدراسة^[1].

إنَّ النظرة التقليديَّة لأسباب قيام الحرب الصليبيَّة جعلت السبب الديني هو الأساس في قيامها، فهو حجٌّ مسلَّح، هدفه تحرير القبر المقدَّس في كنيسة القيامة^[2]. علماً أنَّ مصطلح الحملة الصليبيَّة لم يظهر إلَّا في منتصف القرن الثالث عشر، ليحلَّ محلَّ التعبيرات السابقة مثل (الطريق، رحلة القدس، الرحلة الاستكشافيَّة، العبور إلى ما وراء البحر).

لا يمكن إنكار العامل الديني، لكنَّه كان نابعاً من تديّن عاطفيٍّ يقوم على التعصّب المقيت، ولم يكن نابعاً من تديّن عقلائيٍّ حقيقيٍّ^[3]. ففكرة الحملة الأولى تعبر عن كيف كان الأوروبي في ذلك الزمان لا يسمح أن يعترف بوجود «الآخر»، فهذا «الآخر» لم يكن نتاجاً لمعرفة واقعيَّة، إنّما كانت صورته نتاج دعاية نزقة غدّتها الكنيسة وغلّقتها روح التديّن العاطفي الذي يشوبه التعصّب المقيت^[4]، وهناك أدلّة ملموسة تكشف عن استغلال عامل الدين، مثل الخطاب المنسوب إلى ألكسيس كومنين^[5].

لو كانت الحروب الصليبيَّة مجرد حركة لاسترداد الأراضي المقدَّسة وحماية الحجاج الغربيين، لاقتصر ميدانها على بلاد الشام، لكنَّها كانت وسيلة للتعبير عن رفض الأوروبي لأوضاعه السيئة، ولعلَّ الصفقات التجاريَّة المعقودة بين التجار الإيطاليين ومملكة بيت المقدس فيما بعد، تعطي دليلاً على المصالح الاقتصاديَّة للحركة الصليبيَّة؛ لأنَّها تفتح طريق التجارة إلى بلاد الشرق، سواءً بلاد الشام والعراق وصولاً إلى الهند والصين. ويؤكد وضوح هذا الاتجاه الاستغلالي في الاحتلال والسيطرة، تطوّر العلاقات بين الجاليات التجاريَّة والممالك الفرنجيَّة إلى قتال وحروب دامية على المكاسب والأموال^[6]، لذلك كان شعار التجار البنادقة «لنكن أولاً بنادقة، ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين» (Sismo Venezini).

١ - محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ٨٦-٨٧.

٢ - وليم الصوري، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٨-١٧٣. أرنست باركر، المرجع السابق، ص ٢٢.

٣ - يوشع براور، عالم الصليبيين، ص ١٨.

٤ - فوشيه الشارترى، المصدر السابق، ص ٤. محمّد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٣٢.

٥ - جوزيف يوسف، المرجع السابق، ج ١، الملحق الأوّل، ص ٣٠٧.

٦ - المرجع السابق، ج ١، ص ٨٩. سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيَّة، ص ٣٧.

الأيديولوجيا (poi Christiani)^[1]. فالعامل الاقتصادي له من القوة والأهمية ما يجعله سبباً في تحريك الأحداث^[2].

أمّا سياسياً، فقد وجدت البابوية فيها وسيلة ناجحة لتوجيه الغرب نحو وجهة واحدة، حيث تمكنت من خلالها من تحقيق سياسة واحدة مهيمنة على مقدرات القوى السياسية، فحجم المكاسب كان ضخماً، وقد تهيأ لكل الدوافع السابقة القائد الفرد الذي امتلك القدرة على تحريك أحداث التاريخ وتحريك الحشود الضخمة من البشر من أجل المشاركة في تحويل الفكرة القائمة إلى واقع معاش تشترك الجماهير في صنعه، وهو ما حدث البواعث مع القائد التاريخي والجماهير ككتل شعبية صنعت الأحداث، فكانت الحروب الصليبية^[3].

ولكن ما هي الأذهان والعقول لانفجار الأحداث وجعل لكلمات أوربان أثراً فعلياً معاشاً، هو انتشار ظاهرة العنف في المجتمع الأوروبي، فعرض أوربان الفكرة على شكل حرب تحرير وكفارة قاسية تستحق المديح لتحقيق هدفين: الأول تخليص الكنائس الشرقية، وخاصة بيت المقدس؛ أي (تحرير الشعب)، والثاني تخليص بيت المقدس من حالة العبودية التي يعيشها؛ أي (تحرير المكان). وهذا ما جعل الحملة الأولى رحلة للحج إلى الأرض المقدسة^[4].

كانت هذه الحملة نتاجاً لخبرات الذين شاركوا فيها، فأصبحت المثال الذي جرت أوروبا على مدى قرنين تقريباً منذ عام ١٠٩٦ وحتى ١٢٩١ م على الاهتداء به، وعلى درب هذه الحملة المظفرة توالى على شاطئ المتوسط الشرقي موجات عديدة جاءت بعشرات الألوف من الحجاج المسلّحين^[5] الذين سعوا إلى تحقيق المجد والشهرة والمال من خلال أعمال السلب والنهب والعنف، فكانت الحملات الصليبية هي حركة الاستخرا ب الأوروبي في العصور الوسطى لسلب ثروات المنطقة العربية البالغة الحيوية في حركة الاقتصاد العالمي حينذاك^[6].

١- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢٤.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ص ٣٤. شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ١٠.

٣- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ٢١-٣٠.

٤- جوناثان ريلي -سميث، المرجع السابق، ص ٢٦-٣٩-٤٠-٤٨-٥٧-٥٨.

٥- قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى، ص ١٢. يوشع براور، المرجع السابق، ص ٢١.

٦- محمد مؤنس عوض، المرجع السابق، ص ١٣.

هيأت الحروب الصليبية للناس أن يوقنوا بأنهم لم يبلغوا العالم الآخر إلا بما يقومون به من قتال عنيف على ظهر الأرض^[١]. هيأ هذا المبدأ مشاركة أوروبيين في الحملات الصليبية كافة، وقد أتى بنتائج جيدة ساهمت باستمرار الصليبيين في بلاد الشام على مدار قرنين من الزمان، خصوصاً أن الإمارات الصليبية التي أقيمت، كانت حريصة على تحقيق الربح والكسب المالي، فكانت الغارات متواصلة على المناطق الريفية غير المحصنة والاستيلاء على المواشي ومناطق الرعي وتدمير المحاصيل لهروب السكّان؛ سياسة اتبعتها الصليبيون مع المناطق الداخلية لطرد السكّان الأصليين، وما يوضح رغبات الصليبيين معاملتهم مع مسيحيي بيت المقدس بعد المذبحة الرهيبة التي حصلت لسكّانها؛ فقد استولوا على أديرتهم وطردهم من الكنائس والبيوت، وغادرها البطريك إلى القاهرة^[٢].

والواقع أن الحرب هي الغرض الأساسي الذي قامت لأجله الحملات الصليبية، فالحرب كانت أساس الحياة في الإمارات التي أقيمت في الشرق العربي. وما يؤكّد هذه القاعدة عدم تمكن قادة الحملات الصليبية من تنفيذ وعودهم بل وضعفهم على فرض معاهداتهم على الأطراف الذين يقدمون لهم المساعدة، فإذا استطاع بلدوين الالتزام بوعوده لحاكم طرابلس، فلم يتعرض للنهب والتخريب ما كان تحت يديه من المناطق؛ فإنه لم يستطع فرض ذلك على الجنوبيين، الذين شقّوا طريقهم إلى داخل طرابلس فأخذوا ينهبون ويحرقون الدور ويقتلون كلّ من صادفهم. وفي غمرة هذه الفوضى أتى الحريق على مكتبة بني عمار التي كانت تعدّ أروع مكتبات العالم، فحلّ الدمار بكل ما تحتويه^[٣]. ومن أجل هذه الحرب ارتكب الصليبيون العديد من الجرائم الدموية. إنهم همج أتوا لتدمير حضارة الشرق التي احتاجت لقرنين من الزمان لتتمكّن من التأثير على طباع هؤلاء المحاربين فتهذبها إنسانياً وأخلاقياً.

١ - أرنسٲ باركر، المرجع السابق، ص ١٣.

٢ - مصطفى وهبة، المرجع السابق، ص ٢٧.

٣ - رنسيماٲ، ج ٢، القسم الأول ص ١١٣-١١٤.

لائحة المصادر والمراجع

١. ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م.
٢. ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرام)، الكامل في التاريخ، حققه: عمر عبد السلام تدمري، ج٨، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠١٢م.
٣. أرنست باركر، الحروب الصليبية، تر: السيّد الباز العريني، بيروت، ط٤، ١٩٦٧م.
٤. أرنول، ذيل تاريخ وليم الصوري (١١٨٤-١١٩٧م)، تر: سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٣م.
٥. أسامة بن منقذ، الاعتبار، حرره: فيليب حّتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ب.ت.
٦. إسمت غنيم، الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضدّ القسطنطينية، دار المعارف، ١٩٨٢م.
٧. أودو أوف دويل، الحملة الصليبية الثانية كتاب رحلة لويس السابع إلى الشرق، تر: سهيل زكار.
٨. أولفر أوف بادربورن، الاستيلاء على دمياط، تحقيق: سهيل زكار، الجزء ٣٣ من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق، ١٩٩٨م.
٩. ابن تغري بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ١٦ جزء.
١٠. ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد)، رحلة ابن جبير، دار صادر، ب.ت.
١١. جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، مكتبة الحروب الصليبية، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.
١٢. جوفري دي فانسوف، الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد) تر: حسن حبشي، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ١٨١-١٨٢، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ٢٠٠٠م.

١٣. جوناثان ريلي - سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، تر: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٩م.

١٤. حافظ أحمد حمدي، الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، ط١، ٢٠٠٠م.

١٥. حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية جبهة الشام وفلسطين ومصر، دار السلام، ٢٠٠٧م.

١٦. رأفت عبد الحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، ط١، ١٩٩٨م.

١٧. روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، تحقيق: سهيل زكار، ج٣٩ من الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٠٠٠م.

١٨. ريمونداجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت القدس، تر: حسين عطية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

١٩. سالم محمد الحميدة، الحروب الصليبية عهد الجهاد المبكر، ج٢، بغداد، ١٩٩٠م.

٢٠. ستيفن رنسيمن، تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، ج١، لبنان، ١٩٩٧م.

٢١. سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م.

٢٢. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٩١م.

٢٣. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج١، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.

٢٤. سهيل زكار، الحروب الصليبية الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان

- كُتبت أصلاً بالإغريقية والسريانية والعربية واللاتينية، دمشق، ط١، ١٩٨٤م.
٢٥. شارل ديل، البندقية إمبراطورية أرستقراطية، تر: أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر، دار المعارف، ١٩٤٨م.
٢٦. شاكر مصطفى، صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
٢٧. عادل حمزة، العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
٢٨. عزمي عبد محمد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)، الأردن، ط١، ١٩٩٥م.
٢٩. عصام محمد شبارو، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري (السلاجقة- الأيوبيون)، بيروت، ١٩٩٤م.
٣٠. علي السيد علي محمود، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
٣١. علي محمد الصلابي، الأيوبيون بعد صلاح الدين، دار المعرفة، ط١، ب، ت.
٣٢. علي عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ٢٠٠١م.
٣٣. عماد الدين خليل، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٤٨٩-٥٢١هـ / ١٠٩٥-١١٢٧م)، دمشق، ٢٠٠٥م.
٣٤. فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.
٣٥. أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي)، المختصر في أخبار البشر، دار الطباعة

الشهانية، ١٢٨١هـ.

٣٦. فوشيه الشارترى، الاستيطان الصليبي في فلسطين تاريخ الحملة إلى بيت المقدس (١٠٩٥-١١٢٧م)، تر: قاسم عبده قاسم، طبعة الشروق الأولى، ٢٠٠١م.

٣٧. قاسم عبده قاسم، الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م.

٣٨. ابن القلانسي (حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي)، تاريخ دمشق (٣٦٠-٥٥٥هـ)، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان، ط١، ١٩٨٣م.

٣٩. كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، تر: أحمد الشيخ، ط١، ١٩٩٥م.

٤٠. متى الرهاوي، تاريخ متى الرهاوي الإفرنج (الصليبيون)، المسلمون، الأرمن، تر: محمود الرويض، عبد الرحيم مصطفى، الأردن، ٢٠٠٩م.

٤١. محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي (٤٨٩-١٢٠٦هـ/١٠٩٦-١٤٠٤م) «دراسة ونصوص»، سلسلة وثائق الإسلام (٥)، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

٤٢. المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، بيروت، ط١، ١٩٦٩م.

٤٣. محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة (٥٦٩-٦٦١هـ/١١٧٤-١٢٦٣م)، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٤٤. محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، (٥٢١-٦٣٠هـ/١١٢٧-١٢٣٣م)، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٤٥. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

٤٦. محمد مؤنس عوض، الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين (١٢-١٣م / ٦-٧هـ)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ٢٠٠٠م.
٤٧. محمود عمران، الحملة الصليبية الخامسة حملة جان دي برين على مصر (١٢١٨-١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ)، جامعة الاسكندرية، ١٩٨٥م.
٤٨. محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م.
٤٩. مصطفى وهبة، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ط١، ١٩٩٧م.
٥٠. المقرئزي (تقي الدين أحمد بن علي)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: زيادة، القاهرة، ١٩٤١م.
٥١. المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، تر: حسن حبشي، المملكة العربية السعودية، ١٩٥٨م.
٥٢. ناديا محمد زهير الغزولي، مدينة صور في حقبة الحروب الصليبية (٤٩٨-٦٩٠هـ / ١٠٩٦-١٢٩١م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ٢٠٠٣م.
٥٣. نادية محمود لطفي، العصر المملوكي من تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية، الجزء العاشر من العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
٥٤. نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين في الحكم والقيادة، ط١، ١٩٩١م.
٥٥. ل.ا.ل. فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، تر: محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني، مصر، ط٣، ١٩٥٧.
٥٦. وفاء محمد علي، جهود المماليك الحربية ضد الصليبيين، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩١م.

٥٧. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، نقله للعربية: سهيل زگار، دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م.

٥٨. يعقوب الفيتري (يطيريك عكا)، تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البيشاوي، الأردن، ١٩٩٨م.

٥٩. يوشع براور، عالم الصليبيين، تر: قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط١، ١٩٩٩م.

60. Gino Lazzatto, An economic History of Italy, London, 1961.

61. HANS EBERHARD MAYER, THE CRUSADES, tr: JOHN GILLINGHAM, OXFORD, ED 2, 1988.

62. KENNETH M. SETTON, A HISTORY OF THE CRUSADES, LONDON, 1969.

63. MARGARET RUTH MORGAN, DOCUMENTS SELATIFS A L'HISTOIRE DES CROISADES PUBLIES PAR L'ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES - LETTRES, XIV, LA CONTINUATION DE GUILLAUME DE TYR (1184 -1197), PARIS, 1982.

64. RICHARD VAUGHAN, Europe in the Middle Ages Selected Studies, oxford, 1979.

65. STANLEY LANE-POOLE, M.A, SLADIN AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM, LONDON, 1985.

الحروب والصّراعات الغربيّة (صراع الأباطرة)

عبّاس مرهج فرج^[١]

مقدّمة

شهدت أوروبا في العصور الوسطى، التي امتدّت من القرن الخامس حتّى القرن الخامس عشر الميلادي، تطوّرات عدّة في المجالات كافّة، فمن الطبيعي خلال هذه المدّة الطويلة التي فصلت بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث أن تجري تحولات تاريخيّة أدّت إلى تغيير الكثير من المبادئ والمفاهيم السياسيّة، وإلى تبدّل في العلاقات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة، ومن جملة ذلك ما حدث من صراعات وحروب دامية بين ملوك أوروبا وحكّامها، جعلت أرض أوروبا ساحة لتنافس الممالك وللصراع الإيديولوجي والإقطاعي، وقد أسفر ذلك عن تحرّك القبائل من أقصى الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، فأُسّست دول، وسقطت أخرى، وحافظت أخرى على نفسها، وكذلك تغيّر النظام الاقتصادي نتيجة ظهور الإقطاعيين وكبار الملاكين.

شهدت، إذًا، أوروبا خلال العشرة قرون هذه تحولات جذريّة وتقلّبات سياسيّة واقتصاديّة، وكذلك اجتماعيّة ودينيّة، وعاشت عصرًا مظلمًا؛ إذ كان مستوى الثقافة والتعليم في غاية الانحطاط، وكانت كثير من المعتقدات تعتمد على الأساطير والروايات الخالية والخرافات، لذلك نبغي في هذا البحث أن نلقي الضوء عن كُتب على الآثار التي خلّفتها الحروب التي شهدت أوروبا في هذه المدّة، والتغيّرات التي طالت مختلف جوانب الحياة على إثرها.

عقب سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة بأيدي البرابرة الجرمانيين سنة ٤٧٦م، تكوّنت ممالك بربريّة جديدة، مثل مملكة الفرنجة في فرنسا، ومملكة القوط الغربيين في إسبانيا، ومملكة القوط الشرقيين في إيطاليا، ومملكة الوندال في شمال أفريقيا، لكن لم تشهد أوروبا قيام

إمبراطورية كبرى ذات صفة عالمية، فإمبراطورية شارلمان الكارولنجية، وإن كانت ذات سيادة، إلا أنها لم تمثل دولة اقتصادية، ولم تستطع أن تمثل التطور الإقطاعي وتسايهه، وسرعان ما تجزأت إلى ممالك صغيرة تتناحر وتتصارع فيما بينها، وهذه حال أوروبا عامة في عصورها الوسطى.

من المعروف أن تاريخ أوروبا في هذه الحقبة قد اشتهر بسيادة مكوّنين اثنين هما: الدين والحرب، بل نكاد لا نجد شيئاً ذا بال في مرحلة القرون الوسطى إلا سيطرة هذين الجانبين، فالكنيسة هي صاحبة السيادة من دون منازع، وفكرة الحروب لا يمكن فصلها عن أية حركة من حركات العصور الوسطى الأوروبية، فهي هي حروب الجرمان، وتلك المرتبطة بالفروسيّة والإقطاع الذي كانت ركيزته الأساسية الأرض، وعلى إثره انقسم المجتمع إلى طبقات وفئات، ومن هنا كان الأسياد وكبار الملاك هم من الملوك والأباطرة، في مقابل طبقة الفلاحين والأقنان والعييد، وأصبحت طبقة الفقراء تشمل الذين يعملون في أراضي الإقطاعيين وممتلكاتهم، وهي الطبقة الرئيسة المنتجة في أوروبا في عصورها الوسطى.

أولاً: الممالك التي تشكّلت في أوروبا

قبل الحديث عن الحروب والصراعات التي شهدتها أوروبا بين ملوكها وحكامها، لا بدّ من التعريف بالممالك التي تشكّلت على أراضيها، والتي سُفِكَ فيها الكثير من الدماء، وأزهقت أُنثاءها الكثير من الأرواح، وكان نتيجتها تشكّل هذه الممالك على دماء الكثير من الأبرياء في أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية وعلى أنقاضها، والبداية بـ:

١. مملكة القوط الغربيين^[١]

تألّفت هذه المملكة من مجموعة من القبائل البربرية التي استقرت في جنوب غاليا، وقد ظهرت هذه القبائل على مسرح الأحداث حين استخدمهم الإمبراطور البيزنطي فالانس كقوة تحمي حدود إمبراطوريته من خطر قبائل الهون، فسمح لهم بالإقامة جنوب نهر الدانوب الأدنى مقابل خدمة بلاده بحماية حدود أرضه والدفاع عنها ضد أعدائه، ثم أساء البيزنطيون معاملتهم وفرضوا عليهم الضرائب الباهظة، واضطروهم إلى بيع أولادهم

١ - طرخان إبراهيم علي، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٢ وما بعد.

ونسائهم عبيداً من أجل تسديد الضرائب. كل ذلك يعكس دناءة أخلاق البيزنطيين باستغلال القبائل الضعيفة واللاجئة لهم، وتسخيرها لخدمة مصالحهم وتأمين احتياجاتهم؛ لأنهم ينظرون إليهم بوصفهم عبيداً فحسب، والتصدي لأعدائهم بدروع بشرية لا تتسبب إليهم. هذا الوضع الاجتماعي المضطرب وغير المتوازن الذي لم يحفظ للبرابرة حقوقهم وأمانهم، جعل الأمر يزداد سوءاً، ودفعهم إلى الثورة على السلطات الرومانية (البيزنطية)، وانضم إلى ثورتهم عدد كبير من العبيد المضطهدين، وبعض أفراد الجيش البيزنطي الذين هم من أصل بربري، ونتيجة ذلك استطاع القوط الغربيون أن يوقعوا الهزيمة بالجيش البيزنطي، وأن يقتلوا الإمبراطور فلانس في معركة جرت بين الطرفين عند مدينة أديانوبل سنة ٣٧٨ م.

وقد اقترب القوط الغربيون من حدود العاصمة البيزنطية، وهددوا باحتلالها، فاضطر الإمبراطور البيزنطي إلى أن يسمح لهم بالإقامة في منطقة تراكيا، لكنهم استمروا في تهديد البيزنطيين، وزحفوا بقيادة زعيمهم ألاك من تراكيا إلى مكدونيا واليونان، وهم يدمرون وينهبون ما يجدونه في طريقهم. ولم يستطع البيزنطيون التصدي لهم إلا بعد الاستعانة بقوات عسكرية جاءت من روما بقيادة ستيليكو، فاضطر القوط الغربيون للانسحاب من اليونان، وتجمعوا في شبه جزيرة المورة.

بعد احتلال روما زحف القوط الغربيون إلى جنوب إيطاليا، وأزمعوا على احتلال صقلية وشمال أفريقيا، لكن سفنهم تعرضت لعواصف بحرية، فاضطروا إلى التراجع، كما مات زعيمهم ألاك في أثناء هذه الحملة الفاشلة، ونصب زعيم جديد اسمه أوتولف، ففاوض هذا الزعيم الإمبراطور البيزنطي أوغوريوس على السماح لشعبه القوطي بالاستيطان في جنوب غرب غاليا، فوافق الإمبراطور الروماني على طلب أوتولف. وهكذا أسس القوط الغربيون مملكة لهم في جنوب غرب غاليا وشمال إسبانيا، واتخذوا مدينة تولوز عاصمة لهذه المملكة. وقد ظل القوط الغربيون يحكمون إسبانيا (بعد أن استقروا في جنوب غرب غاليا، توسعوا جنوباً فسيطروا على معظم إسبانيا) حتى فتحها العرب المسلمون أوائل القرن الثامن الميلادي.

تدل الحروب التي نشأت بين البيزنطيين وشعوب القوط على الهوة الكبيرة التي كانت

قائمة بين بيزنطة والشعوب التي كانت تحت سلطتها وافتقارها لمبادئ التسامح والمثل والقيم الإنسانية، وما استخدام القوة إلا وسيلة لإخضاع الشعوب واستعبادها ونهب ثرواتها.

٢. مملكة البرجنديين^[1]

قامت هذه المملكة في الجنوب الشرقي من غاليا وشمال إسبانيا. والبرجنديون قبائل جرمانية كانوا يقطنون في القسم الشرقي من ألمانيا، وكانوا يعملون في القرن الرابع الميلادي بوصفهم جنوداً مرتزقة في الجيش الروماني، ثم تركوا موطنهم ورحلوا نحو الغرب تجنّباً للصدام مع قبائل الهون، فوصلوا إلى جنوب غاليا التي كانت تخضع للسيادة الرومانية. وقد خاضوا سنة ٤٥١م معركة السهول الكاتالونية ضدّ الهون، فسمح لهم الرومان بالإقامة في جنوب شرق غاليا، بعدها توسّع البرجنديون في شمال إسبانيا، وأسّسوا مملكتهم في هذه المنطقة.

٣. مملكة الألان والوندال في شمال أفريقيا^[2]

اصطدم القوط الغربيون في أثناء سيطرتهم على إسبانيا بأقوام الألان والوندال، ممّا أجبرهم على الرحيل إلى شمال أفريقيا، وعندما وصلوا إلى شمال أفريقيا اصطدموا بثورة شعبية دعت لتطبيق المبادئ المسيحية الأساسية وتحقيق المساواة الاجتماعية بين جميع المسيحيين، لكنّ القوّات الرومانية استطاعت بمساندة الكنيسة البابوية والطبقة الأرستقراطية في شمال أفريقيا أن تُخمد هذه الثورة بالقوّة. على إثر ذلك، صفّ الفقراء المتمردون في شمال أفريقيا إلى جانب الألان والوندال، وعدّوهم بمنزلة المنقذين لهم من تعسف الرومان واستغلال الأرستقراطيين. وهكذا سقطت قرطاجة بأيدي الألان والوندال سنة ٤٣٩، ولم تُقبل سنة ٤٥٥ إلاّ وكانوا قد سيطروا على شمال أفريقيا وتمكّنوا من طرد آخر جندي روماني. لقد كان استخدام القوّة المفرطة من قبل الرومان، وابتعادهم عن تحقيق قيم العدالة والمساواة، سبباً في سقوط إمبراطوريّتهم واندثارها.

١- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤، ص ٢٩.

٢- نفسه، ص ٣٠.

٤. مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا^[1]

تألّفت هذه المملكة من مجموعة قبائل بربرية جرمانية قطنت بداية في شمال البحر الأسود، ثم رحلت نحو الغرب إلى ضفاف الدانوب، وهاجمت إيطاليا سنة ٤٨٩ وخاضت معارك عسكرية طاحنة مع قوات آواكر العسكرية، وانتصرت عليه عند أيسونزو Isonzo، واستولت على فيرونا، وسيطرت على معظم إيطاليا، ثم حاصرت هذه القبائل آواكر في مدينة رافنا، واستدرجته إلى مفاوضات، وتمكّنت من قتله غدراً. بعد ذلك أسّس القوط الشرقيون مملكة لهم في إيطاليا، وحاولوا مدّ نفوذهم إلى الممالك البربرية المجاورة. وقد دخلت هذه المملكة في صراع مع البيزنطيين الذين خشوا من أن يؤسّس القوط الشرقيون إمبراطورية من تلك الممالك البربرية في غرب أوروبا، فأخذوا يعدّون العدة لإحباط هذا المشروع الذي يمثّل خطراً كبيراً على بيزنطة.

زحفت سنة ٥٣٦ الجيوش البيزنطية إلى إيطاليا، وخاضت مع القوط الشرقيين عدّة معارك في البر والبحر على مدار عشرين عاماً، تمكّن على إثرها البيزنطيون من القضاء على مملكة القوط الشرقيين بعد أن عاشت ما يقارب نصف قرن^[٢].

٥. مملكة اللومبارديين في إيطاليا^[3]

اللومبارديون هم مجموعة قبائل بربرية جرمانية، قطنوا عند وادي نهر الأودر والجزء الأدنى شمال مصب نهر الألب في القرن الأوّل الميلادي، وقد دخلوا في القرن السادس الميلادي في صراع مع جيرانهم من الشعوب الجرمانية، مثل الجبيدي، وانتصروا في ختام هذا الصراع سنة ٨٦٧ نتيجة تحالفهم مع عنصر الآفار الذي خلف الهون في الأجزاء الشرقية والوسطى من أوروبا^[٤]. بعد ذلك سمح لهم الإمبراطور البيزنطي جستنيانوس الأوّل بالإقامة جنوب نهر الدانوب من أجل استثمارهم بوصفهم جنوداً مرتزقة في جيش الإمبراطورية البيزنطية؛ كي يراقبوا تحركات قبائل الجبيدي الذين أسّسوا مملكة شمال نهر الدانوب

١ - فرح نعيم، المرجع السابق، ص ٣٢.

٢ - عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦، ص ٨٦-٨٩.

٣ - الحريري، محمود محمّد، اللومبارديون في التاريخ والحضارة، ٥٦٨-٧٧٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٤ وما بعد.

4- Wallacr-Hadrill, the Barbarian Weal 400- 1000, 1996, p.45.

الأوسط، كما انضمت بعض الفرق اللومباردية إلى الجيوش البيزنطية التي حاربت القوط الشرقيين في إيطاليا.

٦. مملكة الأنغلو-ساكسون في بريطانيا^[١]

بدأت القبائل الأنغلو-ساكسونية الجرمانية تغزو بريطانيا منذ منتصف القرن الخامس، وعلى الرغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها الكلت، تمكن الأنغلو-ساكسون من احتلال بريطانيا، فانسحب الكلت إلى بعض المناطق الشمالية والغربية، في حين خضع الآخرون لسلطة الغزاة وانصهروا في مجتمعهم. في البداية لم يستطع الغزاة الأنغلو-ساكسون توفير وحدة سياسية في بريطانيا، بل أقاموا فيها سبع ممالك كانت تتناحر فيما بينها، لكن فيما بعد تمكن ملك مقاطعة كنت من أن يوحد هذه الممالك السبعة في مملكة واحدة تحت سلطته.

٧. مملكة الفرنجة^[٢] في غاليا

الفرنجة هم مجموعة قبائل بربرية جرمانية أشهرها قبائل السالين، والريبوير، والشامات. بدأوا يغيرون من وراء نهر الراين على غاليا منذ القرن الثالث الميلادي، ثم استوطنوا في القسم الشرقي من غاليا في القرن الرابع ومطلع القرن الخامس، كانت غاليا آنذاك ولاية رومانية، لذلك حاول الرومان أن يمنعوا الفرنجة من الاستيلاء عليها، لكن الرومان عجزوا عن صدّ غزوات الفرنجة، فاضطروا فيما بعد إلى أن يسمحوا لهم بالاستيطان في القسم الشرقي من غاليا، شريطة أن يكونوا حلفاء للرومان يدافعون عن حدودهم في المناطق المجاورة لهم.

وبعد سقوط عرش روما بأيدي الجنود المرتزقة الجرمان، أخذ الفرنجة غاليا كلها من الرومان، وأسسوا فيها مملكة فرنجية تطوّرت إلى إمبراطورية في عهد شارلمان، ثم انقسمت إلى عدّة ممالك وإمارات في القرن التاسع.

يُعدُّ الملك كلوفس (٤٨٦-٥١١ م) المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة، فبعد أن تمكن من القضاء على فلول الرومان، أخذ يعمل على مدّ نفوذه للسيطرة على المناطق الشمالية من غاليا،

١- فرح نعيم، المرجع السابق، ص ٣٤.

٢- حاطوم نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، الجزء الأول، دار الفكر، ١٩٨٢، دمشق، ص ١٥٠ وما بعد.

واستطاع أن يجبر البرجنديين سنة ٥٠٠م على دفع الجزية والاعتراف بالتبعية لمملكته^[١].

كما خاض كلوفس حرباً في عام ٥٠٧م ضدّ القوط الغربيين، وقتل ملكهم أرك الثاني بعد أن هزمه في فوجليه vogle، كما استولى في عام ٥٠٨ على تولوز، ممّا أجبره على الاصطدام بالقوط الشرقيين الذين تدخل ملكهم ثيودريك لنجدة أقربائه^[٢]. وتمّ إنهاء الخلاف بين الفرنجة والقوط بالاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين، يمتدّ حتّى نهر الجارون -بما فيه مدينة تولوز- في حين احتفظ ثيودريك بإقليم بروفانس وناربونيس^[٣].

قبل وفاة كلوفس عام ٥١١، قسّم مملكته الواسعة بين أبنائه الأربعة، وعلى الرغم من هذا التقسيم، إلّا أنّ توسّع الفرنجة لم يتوقّف؛ ففي سنة ٥٣٠ استولى الفرنجة على ثورنجيا، كما استولوا على أقاليم ناربونيس (سبتمانيا) سنة ٥٣١، وأفرون سنة ٥٣٢، وبرجنديا سنة ٥٣٤، وبافاريا سنة (٥٥٤-٥٥٥)، وجاسكوني سنة ٥٦٧، وممّا ساعد على تحقيق النصر في هذه الفتوحات وازدياد نفوذ الفرنجة، أنّ لوثر الأوّل استطاع توحيد مملكة الفرنجة سنة ٥٨٨ بعد وفاة أخوته الثلاثة؛ أيّ أنّه حكم جميع أقسام مملكة كلوفس فضلاً عن برجنديا وثورنجيا وبروفانس وبافاريا^[٤].

بعد هذا الاستعراض السريع للممالك المختلفة التي غزت أوروبا وسيطرت على أجزاء مختلفة منها، زاهقة الكثير من الأرواح، لا بدّ لنا الآن من أن نتقل للحديث عن نتائج هذا الغزو والاحتلال، وما خلف من آثار وتحولات طالت مختلف مناحي الحياة في أوروبا.

٨. نتائج غزوات القبائل والشعوب لأوروبا

لقد تمخّض عن سيطرة القبائل الجرمانية على أوروبا وتأسيس ممالك لها هناك عدّة نتائج مهمّة، نذكر منها:

1- Dill, Roman Society in Gaul in the Merovingian age, london, 1926 p.91

2- Cam.Med.History. vol:1, p.48

3- Lot: the End of The Ancient World and the beginnings of the middle ages, London, 1931, pp.318- 319.

٤- عاشور، سعيد عبد الفتّاح، أوروبا العصور الوسطى، ص٨٦.

أ. تغيير معالم أوروبا سياسياً وحضارياً، ولا سيما القضاء على الإمبراطورية الرومانية الواحدة، وقيام دويلات جرمانية متناحرة، تلك الدويلات التي انضوت تحت لواء النظام الروماني شكلياً، إلا أنها افتقرت للانسجام والاتفاق من حيث المستوى الحضاري والثقافي، فكانت مجرد قبائل همجية بربرية تتصارع فيما بينها، مما خلق فوضى وخلافات حرمت الإمبراطورية نعمة الاستقرار ومقومات الاستمرار.

ب. تردّي الأوضاع الاقتصادية، ولا سيما أنّ هذه القبائل والشعوب قد اتخذت السلب والنهب في أثناء غزواتها مصدر رزق لها ووسيلة للعيش، فقد كانت العلاقة بين تلك القبائل قائمة على تهديد بعضها بعضاً، مما حرم المجتمع الغربي من تكوين نظام اقتصادي موحد يركز على أسس متينة ومنطقية.

ت. نشأ ما يُعرف بنظام الإقطاع، الذي ارتبط بالحياة الأوروبية في العصور الوسطى من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وقد مهد لظهور ملكيات كبيرة بأيدي كبار القادة والحكّام مقابل ظهور طبقة فقيرة عبّدت الطريق لنشوء نظام العبودية في أوروبا.

ث. انقسم المجتمع الأوروبي إلى طبقات: رجال الدين، وملّاكي الأراضي، وطبقة الفلاحين والعمال، ومارس ملاك الأراضي أسوأ أشكال الظلم والتسلّط على الفلاحين والعمال، حتّى أصبحوا عبيداً لهم، مما ساعد على تمزيق أوروبا إلى مناطق متناحرة، لتظهر فيما بعد طبقة الفرسان التي أقامها الإقطاعيون لحماية مصالحهم وتحصيل أموالهم. ومع بروز مساوئ النظام الإقطاعي، أخذ الناس يلجؤون للكنيسة لتخلّصهم من ظلم أصحاب الأراضي، وأصبحت الكنيسة تتحكّم بالحياة العامة وفرضت قوانينها. لكنّ ما لبث أن انتشر الفساد في الكنائس والأديرة، مما مهد لحالات تمرد على سلطتها.

ثانياً: الصراع والحروب بين ملوك الممالك الجرمانية وحكّامها

سنستعرض في هذا المقام تلك الحروب التي نشبت بين الممالك الجرمانية، وأحداثها، وكذلك الأسباب والدوافع التي قادت إليها، برؤية نقدية تحليلية تلقي الضوء على آثار تلك الحروب في المجمع الأوروبي والبداية بـ:

١. حروب اللومبارديين مع البيزنطيين والفرنجة والبابوية

يمثل الصراع اللومباردي مع البيزنطيين والفرنجة والبابوية أحد أهم أوجه الصراع الذي شهدته أوروبا في بداية العصور الوسطى، وسوف نقوم بدراسة صراعاتهم مع كل قوة على حدة.

أ. الصراع اللومباردي البيزنطي

شكل اللومبارديون قوة خطيرة تهدد الإمبراطورية البيزنطية، ولا سيما بعد أن اتحدت قبائلهم تحت سلطة ملك واحد، وكان ذلك عندما اضطروا تحت ضغط الآفار إلى الجلاء عن بانونيا، فما وجدوا بلاداً أصحح لهم وأقرب من إيطاليا، فزحفوا إليها بقيادة زعيمهم ألبوين. أما الإمبراطورية البيزنطية، فكانت تحت حكم جستنيان الثاني، وكانت في حالة لا تسمح لها بإرسال جيوش لمواجهة هذا الخطر الداهم والتصدي له، لذلك اقتصر الدفاع عن إيطاليا ضد الخطر اللومباردي على المدن المحصنة بالأسوار المنيعة فقط، لكن حتى هذه المدن لم تستطع الصمود، وهكذا استطاع اللومبارديون أن يستولوا على وسط إيطاليا وشمالها، ولا سيما مدن فيرنا وميلان، وأن ينتشروا على سهول نهر البو، واستطاعوا إخضاع بافيا بعد حصار دام ثلاث سنوات، ثم اتخذوها عاصمة لمملكتهم الجديدة، التي أخذت في ذلك الوقت تتسع وتتوطد أركانها سريعاً، ولا ننسى أن نذكر أن زعيمهم ألبوين قد قُتل أثناء توسعهم، ولكن ذلك لم يؤثر سلباً في موقفهم أو يضعف قوتهم، بل استمر الصراع في إيطاليا نحو قرنين من الزمن بين اللومبارديين والبيزنطيين، وأخيراً وجد البيزنطيون أن مقاومة الغزو اللومباردي بالمواجهة العسكرية غير مجدٍ، فلجأوا إلى وسيلة أكثر نفعاً من الناحية العملية، وهي إعادة تنظيم الإدارة الإمبراطورية في إيطاليا على أساس إقامة نظام الدوقيات في روما وبيروجيا ونابلي وكاليريا وليجوريا، بحيث تخضع كلها للنائب الإمبراطوري في رافنا، حتى يتمكن الجميع من مواجهة تهديد اللومبارديين^[1]. لكن في الحقيقة تمكن الملك اللومباردي من توسيع مملكته على حساب الإمبراطورية البيزنطية، وانتزع بادوا سنة ٦٠٢، ثم مانتو، وأجبر البيزنطيين على دفع جزية سنوية ضخمة مقابل إيقاف توسعه مستغلاً الصراع

1- Thomposn J.W, The Middle Ages, Vol: 1, London, 1931, P.178.

الدائر بين البيزنطيين والفرس.

وفي عهد الملك اللومباردي روثاري Rothari (٦٣٦-٦٥٢) تحققت السيطرة على كامل شمال إيطاليا، وانتزعت من البيزنطيين منطقتا ليغوريا والمنطقة المحيطة بمدينة أودرزو على شاطئ البندقية.

واستمر اللومبارديون في حروبهم مع البيزنطيين، وخاضوا العديد من المعارك ضد الحاميات البيزنطية، وانتهت بانتصار اللومبارديين، الذين استولوا أيضاً على تسكانيا والأجزاء الوسطى من إيطاليا، فضلاً عن السهول الشمالية التي ارتبط بها اسم اللومبارديين حتى اليوم^[١].

ب. الصراع اللومباردي الفرنجي

سعى الملك اللومباردي أوثاري Authari إلى توحيد القوى وتوجيهها بهدف مواجهة الفرنجة وصدّ خطرهم. وفي عهد خلفه أجيلولف Agilulf بعد موت بيبان القصير، اقتسم ولده كارلومان وشارلمان مملكة الفرنجة فيما بينهما، وفي سنة ٧٧١ مات كارلومان، فصار شارلمان ملكاً على المملكة الفرنجية بقسميها الاثنين. لكن حين التجأت جيربريجا أرملة كارلومان مع طفلها إلى الملك اللومباردي ديزيديريوس، وجدها الأخير فرصة كي يستغل لجوء أرملة كارلومان وطفلها إليه من أجل تحقيق أطماعه وفرض سلطته على إيطاليا كلّها، فطلب من البابا ستيفان الثالث (٧٦٨-٧٧٢) تنويع الطفلين الصغيرين وريثين لعرش والدهما في مملكة الفرنجة.

ولا ننسى أن نذكر أن المشكلة بين شارلمان وديزيديريوس تفاقمت أكثر حين وصلت إلى النطاق العائلي؛ ذلك أن شارلمان سبق أن تزوّج ابنة ديزيديريوس، ثم سرعان ما طلقها، ممّا زاد الضغينة بينهما والرغبة في الانتقام، وصادف ذلك مع تعهد ديزيديريوس بمساعدة أرملة كارلومان^[٢]. لكن البابا رفض الاستجابة لطلب ديزيديريوس خشية غضب شارلمان واستيائه، ممّا دفع ديزيديريوس إلى مهاجمة الأراضي والأملاك البابوية، فطلب البابا ستيفان

1- Oman.C, The Dark Ages 476 - 918 A.D, London, 1908, p.187.

2- Mos, H.C, The Birth of the Middle Age, Oxford, 1947, P. 218.

الثالث المساعدة من شارلمان ملك الفرنجة، وقد حاول شارلمان مفاوضة ديزيديريوس أول الأمر، حيث أرسل إليه يطلب تسليم جميع المدن التي استولى عليها من البابوية من دون وجه حق، لكن ديزيديريوس غضب لتدخل شارلمان بينه وبين البابوية، وأصر على موقفه بعدم التنازل عن المدن للبابوية، فغزا شارلمان إيطاليا سنة ٧٧٣، وقامت قواته بمحاصرة ديزيديريوس في بافيا. في أثناء ذلك قام ابن ديزيديريوس بجمع قوات اللومباردين قرب فيرونا، مما اضطر شارلمان لأن يترك جزءاً من قواته لمحاصرة بافيا، ويتجه مسرعاً بالجزء الآخر المتبقي معه لمطاردة هذا الابن الذي فر إلى القسطنطينية تاركاً الملك شارلمان يستولي على فيرونا وبرجامو وغيرها من المدن المهمة^[١].

استمر حصار بافيا عشرة أشهر حتى سقطت بيد شارلمان، ونفي على إثرها ديزيديريوس إلى دير كوربي في نستريا، حيث قضى بقية حياته هناك بعد أن قُسمت ثروته بين جنود الفرنجة. أما شارلمان، فقد اتخذ لنفسه لقب ملك اللومباردين، وتركهم يعيشون في ظلّ نظمهم الخاصة، لكنهم فيما بعد ثاروا من جديد، ودبروا مؤامرة لاستدعاء ابن ديزيديريوس الهارب إلى القسطنطينية، وتنصيبه ملكاً عليهم، وقد عاد إليهم، ونجح في إخضاعهم سنة ٧٧٦، وأرغم اللومباردين على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم^[٢].

ت. الصراع اللومباردي البابوي

لقد نتج عن استقرار اللومباردين في إيطاليا مواجهتهم لصراع كبير مع السلطة البابوية التي ازداد نفوذها وسلطانها السياسي حتى غدت تمثل إحدى القوى الحاكمة في إيطاليا إلى جانب اللومباردين والدولة البيزنطية، وقد استغلت السلطة البابوية فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية التي سادت في إيطاليا في ذلك العصر، فبدأ الأساقفة يمتلكون الأراضي ويتخذون لأنفسهم صفة الحاكم، فزادت ثروتهم وجمعوا الضرائب، وقد ساعدهم على تحقيق مطامعهم وأغراضهم أن صغار الملاك في إيطاليا بحثوا عن سلطة قوية ينضوون تحت حمايتها، فلم يجدوا وسط الفوضى الناجمة عن النزاع بين البيزنطيين واللومباردين

1- Oman.C, OP.Cit, p.347.

٢- عاشور، سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١٥٨.

سوى الكنيسة، فسَلَّموها أراضِيهم، وأصبحوا شبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان^[١].

تعرَّضت البابويَّة في عهد البابا غريغوري العظيم (٥٩٠-٦٠٤) لخطر اللومبارديين الذين استولوا على الأملاك البابويَّة في شمال إيطاليا، كما أدَّى توسُّعهم في وسط إيطاليا إلى تهديد الأراضي البابويَّة في تلك الجهات، وربَّما كان الخطر اللومباردي هو الذي جعل البابويَّة تحافظ على علاقاتها الوديَّة مع الدولة البيزنطيَّة في ذلك الوقت، لكنَّ ضعفهم وعدم قدرتهم على التصدِّي للخطر اللومباردي دفع البابا غريغوري العظيم للاستعانة بالفرنجة وقائدهم شارل مارتل رئيس البلاط الفرنجي وصاحب النفوذ الفعلي فيها، فأرسل إليه طالبًا المساعدة ضدَّ اللومبارديين^[٢]، لكنَّ مارتل اعتذر بحجَّة انشغاله بحربه مع المسلمين في غاليا.

بعد تنصيب بيان القصير ملكًا على الفرنجة، ذهب البابا ستيفان الثاني إلى غاليا بعد أن فقد الأمل في تقديم البيزنطيين له أيَّة مساعدة للوقوف في وجه اللومبارديين، الذين كانوا يسعون لاحتلال الأراضي التابعة للبابويَّة، ممَّا دفعه لطلب المساعدة من الملك الفرنجي الجديد، وقد وعد الملك الفرنجي البابا بمساعدته، ومقابل هذا الوعد توجَّ البابا ستيفان الثاني بيده بيان القصير ملكًا على الفرنجة، لإضفاء صفة الشرعيَّة على حكمه، بسبب أنَّه اغتصب العرش من الأسرة الميروفنجيَّة، التي كانت تحكم غالبا من قبل. أمَّا أيسٿولف الملك اللومباردي، فقد أفرغه نبأ التحالف بين البابويَّة والفرنجة.

في سنة ٧٥٤ اجتاز بيان القصير بقوَّاته جبال الألب، وحاصر الملك اللومباردي في بافيا، فأجبره أن يعيد للبابا مدينة رافنا وغيرها من المناطق التي احتلَّها، كما أجبر أيسٿولف على قبول الصلح في هذه المرحلة على أساس تقديم فروض التبعية الشخصية لملك الفرنجة، لكنَّ الملك اللومباردي أيسٿولف ما لبث أن احتلَّ فيما بعد المناطق التي أعادها للبابا^[٣]، فحاصره بيان القصير مرَّة ثانية في رافنا (في سنة ٧٥٧) وأجبره أن يعيد للبابا تلك المناطق، وأنَّ يجدد خضوعه من جديد للفرنجة، ويدفع لهم غرامة ماليَّة، ففي هذه المرَّة

1- Moss: Op.Cit, p. 132.

2- Orton. C.W.P, Out Lines Of Medieval History, Cambridge, 1924, p. 137.

٣- عاشور، سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١٢٥.

فُرضت شروط أكثر قسوة على أيستولف، حيث أُلزم بتقديم ثلث دخله الملكي بمنزلة جزية سنوية فضلاً عن مدينة رافنا وعدد من المدن الأخرى التي أخلاها اللومبارديين.

في سنة ٧٧٢ احتلّ الملك اللومباردي ديزيديريوس الأراضي التابعة للبابوية في إيطاليا، فاستنجد البابا ستيفان الثالث (٧٦٨-٧٧٢) بملك الفرنجة شارلمان^(١)، الذي خلف والده بيان القصير على العرش، ولمّا رفض الملك اللومباردي طلب شارلمان بالتخلي عن الأراضي التابعة للبابوية، اتّجه شارلمان بجيشه نحو إيطاليا سنة ٧٧٣، فحدر القوات اللومباردية، وأعلن نفسه ملكاً على اللومبارديين، بعد أن أسر الملك اللومباردي، ونفاه إلى دير في غاليا ليقضي فيه بقية حياته. أمّا البابا هديان الأول (٧٧٢-٧٩٥) الذي كان يأمل بالحصول على الأراضي الإيطالية التي كانت تحت سلطة اللومبارديين، فقد أصيب بخيبة أمل؛ لأنّ شارلمان لم يمنحه سوى المناطق التي كان قد منحها والده بيان القصير للبابا ستيفان الثاني في سنة ٧٥٤.

فيما بعد تمرّد اللومبارديّون على سلطة شارلمان، فدعمت بيزنطة ذلك التمرد، حيث لم ترق لها سيطرة الفرنجة على إيطاليا، لكنّ شارلمان جاء بقواته مرة ثانية إلى إيطاليا (سنة ٧٨٠)، فأخضع اللومبارديين لسلطته، وفرض عليهم قوانين الفرنجة ونظمهم، لتنتهي بذلك المملكة اللومباردية على يديه إلى الأبد.

نتائج الغزو اللومباردي لإيطاليا

- انتزع اللومبارديّون كلّ الأراضي من أصحابها الأصليين، ووضعوا أيديهم عليها، وأنزلوا مملّأها الأصليين إلى مرتبة التبعية، كما أذاقوا الفلاحين كثيراً من الظلم والجور.

- كان اللومبارديّون متعصّبين لنظمهم وتقاليدهم الجرمانية ومتمسّكين بها، وربّما يعود السبب في ذلك إلى أنّهم دخلوا إيطاليا بصفتهم غزاة، إذ لم تكن هناك روابط تجمعهم بالرومان وبالحضارة الرومانية.

- كان هؤلاء اللومبارديّون على المذهب الآريوسي، ممّا جعل عددهم قليلاً بالنسبة للشعب الروماني، وكان تعصّبهم واضحاً لأصلهم الجرمني ونظمهم الجرمانية، ومن أمثلة

١- إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دار الإحسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩، ص ٦٠-٦٤.

هذا التعصّب أنّ الملكية اللومبارديّة ظلت انتخابيّة، في حين أصبحت وراثيّة في جميع ماعداها من الممالك الجرمانيّة^[١].

٢. الصراع البيزنطي البابوي

بدأ الخلاف بين البيزنطيين والبابويّة قبل ظهور مشكلة تقديس الأيقونات في عهد الأسرة الأيسوريّة، فقد خشيت الدولة البيزنطيّة من ازدياد النفوذ البابوي في إيطاليا، ممّا أدّى إلى ظهور التنافس فيما بينهم نتيجة اعتزاز كلّ من الطرفين بسموّ مركزه، وقد بدا هذا التنافس جليّاً أكثر من مرّة في العصور الوسطى، إذ بدأ الاحتكاك أوّل مرّة بين الإمبراطور قسطنطين الثالث (٦٤١-٦٦٨) والبابا مارتن الأوّل (٦٤٩-٦٥٥)، بعد أن عقد البابا مجمّعاً في روما سنة ٦٤٩ أعلن فيه بطلان المرسوم الذي أصدره الإمبراطور بخصوص تحريم أي نقاش حول المونوفيزيّة^[٢]، في الوقت الذي كانت تطمح فيه البابويّة إلى تحريم المونوفيزيّة نفسها واضطهاد أتباعها، ولم يستطع الإمبراطور أن يغفر للبابا هذه اللطمة، فأمر نائبه في إيطاليا بانتهاز هذه الفرصة للقبض على البابا، وتمّ ذلك؛ إذ قبض على البابا مارتن الأوّل، وتمّت محاكمته، ونُفي على إثرها إلى القرم حتّى مات سنة ٦٥٥^[٣].

وقد أدّى تصرف البيزنطيين هذا إلى تحريض الإيطاليين ضدّهم، إذ اعتبروا البابا مارتن الأوّل شهيداً.

وكان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني (٦١٠-٦٤١) قد قاد حملة إلى إيطاليا سنة ٦٣٣ نهب فيها البيزنطيّون الكثير من التحف والآثار الثمينة التي وجودها في روما، ممّا أضرّ بمكانة الكرسي الإمبراطوري وسمعته.

ثمّ ساءت العلاقات إلى حدّ كبير بين روما والقسطنطينيّة في عهد البابا غريغوري الثاني (٧١٥-٧٣١)، عندما قرّر الأخير حذف اسم الإمبراطور من الصلوات وإسقاط اسمه من

١- Wallace-Hadrill: Op.Cit, p.45.

٢- هي عقيدة مسيحيّة بأنّ يسوع طبيعة واحدة إلهيّة، وأنّ طبيعته البشريّة اتّحدت بهذه الطبيعة. ويمكن اختصار هذه الطبيعة في: يسوع المسيح، الابن، هو شخص واحد بطبيعة واحدة: الإنسان الإله.

٣- عاشور، سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١١٩.

الوثائق والقوانين، كما رفض أن تُنقش صورة الإمبراطور على النقود في إيطاليا^[١].

لكنّ النزاع غداً أكثر شدّة حين وصل إلى قضيّة تقديس الأيقونات، إذ فُتحت صفحة جديدة في تاريخ الصراع العقائدي بين كنيسة القسطنطينيّة والكنيسة البابويّة، حيث أصدر الإمبراطور البيزنطي ليون الثالث (مؤسس الأسرة الأيسوريّة) قراراً يقضي بتحطيم جميع الصور والأيقونات، ممّا فجّر المعارضة في إيطاليا ضدّ السيادة البيزنطيّة، ولا سيّما أنّ البابا غريغوري الثاني لم يوافق على قرار الإمبراطور في موضوع تحريم تقديس الأيقونات وصور القديسين، ولكنّه في الوقت نفسه تجنّب الشقاق مع الإمبراطور؛ لأنّه كان في أشدّ الحاجة إليه من أجل حمايته من الخطر اللومباردي.

كما كان البابا غريغوري الثاني يتفق مع اللومبارديين أحياناً ضدّ الإمبراطور البيزنطي، بغية التخلّص من السيطرة البيزنطيّة، ولا سيّما أنّ مصلحة اللومبارديين تلتقي مع مصالح البابا في فصل إيطاليا كلياً عن بيزنطة، وتارةً أخرى يتفق مع الإمبراطور البيزنطي ضدّ اللومبارديين كيلا تقع إيطاليا كلّها في قبضة هؤلاء البرابرة.

كذلك خشي الإمبراطور البيزنطي أن يتمّ التحالف بين اللومبارديين والبابا، فحاول التقرب من الشعب الإيطالي، واتّخذ في سبيل ذلك العديد من الإجراءات، فألغى قراره الخاصّ بجمع الضرائب من روما.

ثمّ أعلن أنصار البابويّة في رافنا تمرّدهم ورجبتهم بقتل الحاكم البيزنطي فيها، فاستغلّ الملك اللومباردي هذا الوضع المضطرب واحتلّ رافنا، وكي يرضى البابا عن هذا الاحتلال أعطاه الملك اللومباردي مدينة سوتري هدية لكنيسة القديس بطرس.

لكنّ البابا غريغوري الثاني لم يرضَ باحتلال اللومبارديين لمدينة رافنا، بل جهّز سكّان فينيسيا والأسطول البيزنطي الموجود في إيطاليا بالسلاح، وأمرهم بتحرير رافنا من أيدي اللومبارديين، فحقّقوا له ذلك.

بعد وفاة البابا غريغوري الثاني تسلّم السُدّة الرسوليّة البابا غريغوري الثالث، وسرعان ما طلب من الإمبراطور البيزنطي ليون الثالث الكفّ عن سياسة معارضة تقديس الأيقونات،

١- فرح نعيم، تاريخ بيزنطة السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥، ص ١٩١.

فرفض الإمبراطور طلب البابا، فعقد البابا غريغوري الثالث مجمعا دينيا في روما سنة ٧٣٢، واتخذ قرارا يعدُّ الإمبراطور وأنصاره خارجين عن الكنيسة، فأمر الإمبراطور البيزنطي ردًّا على ذلك بإلحاق كنائس صقلية وكالابريا وإيليرا بكنيسة القسطنطينية بعد أن كانت تابعة لكنيسة روما البابوية سابقا، وترتب على ذلك أن الأموال والضرائب التي كان يحصل عليها البابا من أملاكه البابوية في صقلية وجنوب إيطاليا، قد تحولت إلى الخزينة البيزنطية^[١].

أما في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥)، فقد تعرضت المصالح البيزنطية في إيطاليا لضربة قاصمة، حيث تدهورت العلاقات بين بيزنطة والبابوية أكثر فأكثر، بسبب استمرار سياسة الإمبراطور البيزنطي في معارضة تقديس الأيقونات، وظلت البابوية تداري السياسة البيزنطية على الرغم من معارضة الأخيرة تقديس الأيقونات، طالما شعرت أنها بحاجة لحمايته لها من الخطر اللومباردي الذي كان يهددها. لكن بعد سقوط مدينة رافنا البيزنطية بيد اللومبارديين (سنة ٧٥١)، وتقاعس الإمبراطور البيزنطي عن إنقاذها، شعر البابا أن لا داعي للتساهل مع الإمبراطور؛ لأنه لا فائدة تُرجى منه بعد اليوم، إلى جانب ذلك ظهر حليف جديد لدى السياسة البابوية، ألا وهو ظهور الفرنجة التي كوّنت دولة قوية في أوروبا الغربية، مما جعل البابا يعلّق آمالا عليها فيما يخصّ تقديم الحماية له، أكثر من آماله التي لم تتحقّق على يد إمبراطور القسطنطينية.

٣. الصراع البيزنطي الفرنجي

تحدّثنا فيما سبق كيف استنجد بابوات روما بالملك الفرنجي شارلمان لحسم أطماع اللومبارديين في الأراضي التابعة للبابوية في إيطاليا، ونجاحه في القضاء على المملكة اللومباردية وإخضاع اللومبارديين لسلطته، وكذلك تمكّنه من أن يخضع بافاريا (التي تقع في شرق مملكة الفرنجة) لسلطته، وكذلك ساكسونيا (التي تقع في شمال غاليا)، وفريزيا (التي تقع شمال غرب غاليا)، والمناطق التي يقطنها الآفار، إضافة إلى ذلك شنّ شارلمان عدّة حملات عسكرية ضدّ العرب المسلمين في إسبانيا، واحتلّ بعض المدن الإسبانية مثل: برشلونة وطركونة، كما استولى على جزيرتي كورسيكا وسردينيا وجزر البليار. كلّ هذه

١ - فرح نعيم، تاريخ بيزنطة السياسي، ص ١٩٣.

الحروب التوسعية التي خاضها شارلمان، أدّت إلى ازدياد مساحة مملكة الفرنجة، حتّى أصبحت مساحتها تقارب مساحة الإمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة القديمة.

لقد حقّق شارلمان لنفسه العظمة والمجد، فغدا في أعين المعاصرين صاحب أكبر قوّة سياسيّة في عصره، ولا سيّما أنّه لم يعد يرضى باللقب الملكي، بل بات ينتظر لقب الإمبراطور، وقد أُتيحت له الفرصة عندما اعتلى البابا ليون الثالث (٧٩٥-٨١٦) السُدّة الرسوليّة خلفاً للبابا هديان الأوّل؛ إذ كان البابا ليون الثالث ضعيف الشخصية، فتجرّأ عليه بعض الأرستقراطيين من الرومان، الذين كانوا يتمتّعون بالحظوة في عهد البابا الراحل وفقدوا امتيازاتهم في عهد البابا الجديد، فتمرّدوا عليه واتّهموه بالكفر والزنا وشهادة الزور، وحاولوا قتله، ممّا دفعه إلى التوجّه لغاليا وطلب المساعدة والحماية من الملك شارلمان، فما كان من شارلمان إلّا أن أعاد ليون الثالث إلى روما بصحبة عدد من رجال الدين، ثمّ لحق به سنة ٨٠٠، وعقد محكمة علنيّة في روما تمّت فيها تبرئة البابا من التهم الموجهة إليه، وعُوقب خصومه بالنفي إلى غاليا. وردّاً على هذه المساعدة الكبيرة التي قدّمها ملك الفرنجة (الحليف المخلص للبابويّة)، قام البابا بتتويجه إمبراطوراً على الرومان في كنيسة القديس بطرس في روما. بتتويج شارلمان إمبراطوراً على الرومان، كانت البابويّة قد قطعت بذلك الرباط الواهن الذي كان يربطها بالإمبراطوريّة البيزنطيّة. في سنة ٨٠٠ أصبحت أوروبا مقسّمة بين إمبراطوريتين: ١- الإمبراطوريّة الفرنجيّة الكارولنجيّة في الغرب، والإمبراطوريّة البيزنطيّة في الشرق، وهذا كان بداية النزاع والخلاف بين القوتين، ولا سيّما أنّ البيزنطيين لن يسمحوا بوجود تاج إمبراطوري جديد ينافسهم على زعامة العالم الأوروبي، فقد كان العرف السائد قبل تتويج شارلمان إمبراطوراً هو أن تكون إمبراطوريّة واحدة وكنيسة واحدة، والبيزنطيّون يعدّون أنفسهم الورثة الوحيديين للإمبراطوريّة الرومانيّة القديمة، أو بالأحرى استمراراً لها، وبذلك عدّوا قيام الإمبراطوريّة الفرنجيّة اغتصاباً لحقوق بيزنطة، وضربة لنفوذها في الغرب تحرمها من كلّ سلطة تدّعيها على البابويّة والعالم الروماني الغربي، كما أنّ تتويج شارلمان بيد بابا روما، لم يجعل منه إمبراطوراً فحسب، بل جعل منه الإمبراطور الأوّل ذا السلطة الراجحة في العالم الروماني؛ لأنّه الإمبراطور التي توجّهته كنيسة روما البابويّة، التي تدّعي لنفسها الزعامة على كنائس العالم جميعاً، بما في ذلك الكنيسة البيزنطيّة-. أمّا روما، فكانت تؤمن

بفكرة الإمبراطورية الواحدة، ومعنى ذلك أنَّ تنويج شارلمان إمبراطورًا، إنَّما هو استبدال إمبراطورية فرنجية بالإمبراطورية البيزنطية، كما كانت تعدُّ عرش القسطنطينية شاغرًا؛ لأنَّ امرأة تعتليه هي الإمبراطورة إيرين، التي خلعت ابنها قسطنطين السادس وتسلمت وحدها مقاليد الحكم.

كان تنويج شارلمان إمبراطورًا بمنزلة صدمة كبيرة للأباطرة البيزنطيين، الذين لم يعترفوا بإمبراطوريته مباشرة، بل بقوا رافضين ساخطين مدَّة اثني عشر عامًا، حتَّى اضطروا أن يعترفوا بالأمر الواقع، كذلك كان شارلمان يعلِّق أهمية كبرى على اعتراف بيزنطة بلبقه الإمبراطوري، فهو من دون هذا الاعتراف يظلُّ لقبه ناقصًا من الناحية الشرعية، وفي سبيل ذلك أغدق على نفسه لقب حاكم الإمبراطورية الرومانية، وسعى إلى اتِّخاذ المواقف الودية تجاه الإمبراطورية البيزنطية، كي يحصل على اعترافها به إمبراطورًا على الغرب، ولم يحمل الألقاب التي لُقِّب بها أباطرة بيزنطة، مثل لقب إمبراطور الرومان، وقد دفعه ذلك إلى طلب الزواج من إمبراطورة بيزنطة إيرين، وأرسل إليها مندوبين عنه وعن البابا ليون الثالث ليعرضوا عليها هذا الأمر، لكنَّ هذا الزواج لم يتم بسبب ثورة نشبت ضدها أزاحتها عن العرش^[١].

٤. الصراع الفرنجي السكسوني

تعدُّ الحروب الفرنجية السكسونية من أعنف الحروب التي شهدتها أوروبا في عصورها الوسطى، إذ تقع ساكسونيا شمال غاليا، وتمتدُّ من جنوب بحر الشمال إلى بحر البaltic شرقًا. سكنت فيها عدَّة قبائل ساكسونية جرمانية مختلفة فيما بينها من حيث العادات والتقاليد ونمط المعيشة، وقد حارب شارل مارتل وبيبان القصير هذه القبائل الساكسونية، لكنَّهما لم يستطيعا إخضاعها لسلطة الفرنجة. أمَّا شارلمان، فقد خاض مع الساكسون حروبًا طويلة الأمد (بدأت سنة ٧٧٢، وانتهت سنة ٨٠٤)، شَنَّ خلال هذه السنوات عليهم ثماني عشرة حملة عسكرية حتَّى استطاع أخيرًا إخضاعهم لسلطته، وكان غرضه الأوَّل من وراء ذلك حماية حدود بلاده من خطرهم، ثمَّ ما لبث أن أصبح غرضه انضواءهم تحت لواء المسيحية وإخضاعهم بالقوة^[٢].

١- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤، ص ٦٢-٦٤.

علمًا أنَّ شارلمان واجه متاعب كبيرة في حروبه ضدَّ الساكسون، منها صعوبة طبيعة بلادهم ذات الغابات والأحراش^[١]، وعدم وجود مدن أو معاقل محصَّنة للساكسون يمكنه أن يحاصرها ويقضي على قوَّة أعدائه بالاستيلاء عليها، فضلًا عن عدم وجود طرق ومسالك يمكن أن تسلكها الجيوش الغازية. وعلى الرغم من أنَّ القوات الفرنجية كانت تحقِّق نصرًا على الساكسون في المعارك المكشوفة، ويتظاهرون بالخضوع للفرنجة، إلَّا أنَّهم لا يلبثون أن ينقلبوا على السلطات الفرنجية عندما تنسحب القوات العسكرية إلى غاليا، وقد ساعدت الظروف الساكسون من جانب آخر، إذ أظهروا عنادًا شديدًا وتمسَّكًا قويًا بعقائدهم وتقاليدهم ونظمهم، على الرغم من أنَّه في كلِّ مرَّة كان يخضعهم فيها، يأخذ عددًا ضخمًا من الأسرى والرهائن علاوة على غرامة ماليَّة باهظة، فيضطَّرون عندئذ أن يتظاهروا بالخضوع واعتناق المسيحية بأعداد كبيرة، لكنَّهم ما يلبثون أن يرتدُّوا إلى دينهم وأسلوب حياتهم الأساسي بعد انسحاب الجيوش الفرنجية.

أمَّا بالنسبة إلى ما فرضه شارلمان من قوانين صارمة على الساكسون، فقد قضى بالموت على كلِّ من يتمرَّد على سلطة الفرنجة، أو يرتدَّ عن الديانة المسيحية؛ ففي سنة ٨٧٣ أعدم أربعة آلاف وخمسمئة أسير من الساكسون في يوم واحد، ولم يترك شارلمان وسيلة من وسائل القسوة والقمع والإرهاب إلَّا واستعملها مع الساكسون، فمن ذلك أنَّه كان ينقل بعض القبائل الساكسونية المتمرِّدة إلى غاليا، ويحلُّ محلَّها بعض الفرنجة أو غيرهم من الشعوب الموالية لها، وعلى الرغم من هذه الإجراءات التي اتخذها الفرنجة، إلَّا أنَّ المعارك لم تهدأ بينهم وبين الساكسون الذين استمروا بالمقاومة، فاتَّبع شارلمان سياسة جديدة معهم تقوم على شراء أمرائهم بمنحهم الأموال والهدايا والأراضي، فشرع الأمراء الساكسون يساندون الفرنجة المحتلِّين، ويتعاونون معهم على إخضاع القبائل الساكسونية، وبفضل هذه التدابير العسكرية والدبلوماسية، سيطر شارلمان على ساكسونيا سيطرة تامَّة، وتقاسم أمراء الفرنجة مع أمراء الساكسون وكبار رجال الدين أراضي الفلاحين الساكسون، وجعلوهم يشتغلون لحسابهم^[٢]، وهذا يمثل الدوافع الاقتصادية التي كانت وراء سيطرة الفرنجة على ساكسونيا إلى جانب الأسباب السياسية والدينية الأخرى.

١- إينهارد، المرجع السابق، ص ٦٧.

٢- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ٥٥.

٥. الصراع بين أفراد البيت الكارولنجي

قُسِّمَت الإمبراطورية الكارولنجية بعد وفاة الملك شارلمان بين أبنائه الثلاثة، فحصل ابنه لويس الملقَّب بالتقي على جنوب غاليا وشمال إسبانيا، وحصل ابنه شارل على شمال غاليا وشمال ألمانيا، بينما حصل ابنه بيبان على جنوب ألمانيا وشمال إيطاليا، لكنَّ وفاة شارل وبيبان في حياة والدهما وبقاء لويس التقي وحده، أخرَّ إلى حدٍّ ما تقسيم الإمبراطورية، فتوجَّه شارلمان إمبراطورًا على الفرنجة في سنة ٨١٣، لكنَّ لويس لم يكن يتمتَّع بصفات القيادة الحربية، أو الزعامة السياسية، أو الكفاءة الإدارية، أو حتَّى قوَّة الشخصية التي تضمن له سيطرة كافية على الجيش والإدارة، في الوقت الذي ازداد فيه الخطر الخارجي بعد وفاة شارلمان، سواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الإمبراطورية الشرقية، أم من ناحية الفكينج على الحدود الشمالية الغربية. وممَّا زاد الأمر سوءًا، أنَّ الإمبراطور الفرنجي قبل وفاته قسَّم الإمبراطورية سنة ٨١٧ بين أبنائه الثلاثة، ممَّا أفضى إلى نشوب فتنة وصراع بين الأخوة فيما بعد.

وفي سنة ٨٣٣ أعاد لويس التقي تقسيم الإمبراطورية الفرنجية بين أبنائه بعد أن رزق ابنًا جديدًا (من زوجته الثانية)، وهو شارل الملقَّب بالأصلع، فأعاد توزيع المملكة توزيعًا جديدًا يضمن لهذا الابن الرابع حقوقه أسوة بأخوته. يبدو أنَّ هذا التصرف لم يُرضِ الأخوة الثلاثة، فثاروا على والدهم، ونتج عن ذلك حروب أهلية بين الأخوة من جهة، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى^[١]، قد استمرَّت حتَّى سنة ٨٤٣، وكان أن تُوِّفِيَ بيبان، ثمَّ لحق به أبوه، فانحصر الخلاف بين الأخوة الثلاث، وانتهى بالاتِّفاق فيما بينهم على تقسيم الإمبراطورية تقسيمًا يرضيهم جميعًا^[٢]، حيث اجتمع أبناء لويس التقي في مدينة فردان، وعقدوا معاهدة بينهم سُمِّيت معاهدة فردان، ونصَّت على تقسيم الإمبراطورية الفرنجية على نحو يرضي الجميع؛ إذ نال شارل الأصلع معظم الأراضي الواقعة غرب نهر الراين، التي تشمل معظم غاليا وشمال إسبانيا، كما نال أخوه لويس الملقَّب بالألماني الراضي الواقعة شرق نهر الراين، وتشمل معظم ما يُسمَّى بألمانيا، في حين نال أخوهما الأكبر لوثر شمال إيطاليا وشرقيًا

١ - عاشور، سعيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ١٧٠.

من الأرض يتوسّط مملكتي أخويه، ويمتدّ من البحر المتوسط إلى بحر الشمال، إضافة إلى حصوله على اللقب الإمبراطوري^[١].

٦. حروب الفيكنج

تعني كلمة فيكنج سكّان الخلجان، حيث سكن الفيكنج في شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك، وقد أغاروا على أوروبا في القرن التاسع الميلادي، واتّخذت غاراتهم طابعاً خطيراً، وكانت نقلة نوعيّة في تاريخ الشعوب البربريّة الجرمانيّة، فقد كانت غاراتهم غارات بحريّة أقرب إلى القرصنة منها إلى الزحف البرّي، وقد اتّصفوا بمهارتهم في القتال وقوّة تسليحهم، وكان كلّ محارب منهم مزوداً ببِلطة وحرّبة طويلة زيادة على درع واقٍ وخوذة من الحديد^[٢].

أمّا الأسباب التي دفعتهم للقيام بهذه الحروب التوسعيّة الهائلة، فيمكن تفسيرها بأسباب سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة ونفسيّة، يمكننا أن نفصّل الحديث في كلّ منها على حدة:

أ- الأسباب السياسيّة: قام نظام الحكم عند الفيكنج على الملكيّة المطلقة، فالملك يجمع بيده جميع السلطات، وهو الأمر والنهي، وقد سعى ملوك الفيكنج إلى توسيع سطوتهم، وزيادة مساحة مملكتهم، وخاضوا الكثير من الحروب، ولا سيّما في عهد ملكهم هارولد الأشقر. وقد دفعت هذه السياسة الصارمة سكّان المناطق التي حكمها الفيكنج إلى الهجرة والبحث عن موطن جديد.

ب- الأسباب الاقتصاديّة: عمل الفيكنج بوصفهم عملاء تجاريين للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا وساكسونيا، وقد نتج عن هذا الغزو شلّ النشاط التجاري، ومن ثمّ البحث عن عملاء وأسواق جديدة، وكذلك استخدام القوّة العسكريّة في سبيل تحقيق الاكتفاء الاقتصادي.

ج- الأسباب الاجتماعيّة: أدّت زيادة عدد سكّان الفيكنج في القرن التاسع إلى التعرّض لضائقة اقتصاديّة، ولا سيّما أنّ طبيعة بلادهم فقيرة، فلم تعد تتّسع لهم الأشرطة الساحليّة

١- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ٦٦.

٢- عاشور سعيد، المرجع نفسه، ص ١٧٥.

الضيقة الممتدة على شواطئ سكندناوة والدانمارك، مما دفعهم إلى الإغارة على البلاد القريبة؛ بغية الحصول على ما يسدون به رمقهم، ويلبّي حاجاتهم.

د- السبب النفسي: أثبتت الدراسات الحديثة أنّ الشعوب المتأخرة غالباً ما تقع تحت وطأة مشاعر الحسد والطمع تجاه البلاد المتحضرة القريبة منها، وهذا ما يدفعها إلى الإغارة عليها بهدف نهب ثرواتها ومشاركتها حضارتها والتمتع بخيراتها، وهذا مثل عاملاً مهماً من العوامل التي حرّكت الشعوب البربرية الجرمانية نحو الإمبراطورية الرومانية^[١].

بدأت غارات الفيكنج على الإمبراطورية الكارولنجية منذ عهد شارلمان، حيث أغاروا على شواطئ الإمبراطورية القريبة، وهاجموا القرى والمراكز الساحلية، مما دفع شارلمان إلى إنشاء أسطول قوي في موانئ نستريا لحماية شواطئ الإمبراطورية من هجمات الفيكنج. كما حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم على مدى خمسة أعوام من عام ٨٠٤ حتى ٨٠٩ من أجل تفادي الاصطدام معهم، إلّا أنّهم استغلّوا الصراعات الداخلية والخلافات والحروب التي شهدتها الإمبراطورية بين أبناء شارلمان، فأنزلوا قوّاتهم على شواطئ فريزيا، ونهبوا أترخت مركز رئيس أساقفة فريزيا، ودورشتد أكبر موانئ الإقليم، وفي العام اللاحق أغاروا على فلاندرز، وأحرقوا مدينة أنتورب، ثم عادوا سنة ٨٣٧ إلى مهاجمة والشرن عند مصبّ نهر الراين، وأوغلوا حتى وصلوا إلى نموجن، ولكنهم ما لبثوا أن لاذوا بالفرار عندما توجه إليهم لويس التقي على رأس جيوشه^[٢].

حاول لويس التقي تحقيق السلام والصلح معهم عن طريق تقديم الهدايا والمال، وكذلك منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها من أجل أن يحول ذلك دون وقوع معارك جديدة معهم، لكن ذلك أدّى، على عكس المتوقع، إلى زيادة أطماعهم في أراضي الإمبراطورية^[٣].

وهكذا واصل الفيكنج هجومهم على الإمبراطورية الكارولنجية، فتوغّلوا في نهر اللور حتى تور، ونهبوا كاتدرائيتها، ودخلوا في الجارون حتى تولوز، وقد ساعدهم في التوغّل النزاعات والحروب الأهلية الدائرة بين الأمراء والحكّام، التي شهدتها الإمبراطورية في القرن التاسع^[٤].

1- Eyre. E, European Civilization, (vol 3, the middle ages) London, 1935, p.106.

2- Oman. Op.Cit, p.400.

3- Mawer. A, Vikings, Cambridge, 1930, p.189- 190.

[4]- Thomposn, Op.Cit, Vol: 1, p.312.

ثمَّ اشتدت غارات الفيكنج على فرنسا على نحو خطير بعد وفاة شارل التقي سنة ٨٤٠، فتوغّلوا في نهر السين سنة ٨٤١، واستولوا على روان، وتوغّلوا في اللور قبل عقد اتفاقية فردون، وأحرقوا ميناء نانت، ولم تلبث أن زادت غارات الفيكنج شدة بعد تقسيم الإمبراطورية بين الأخوة الثلاثة سنة ٨٤٣، حتّى أصبح هذا الخطر بمنزلة الشغل الشاغل للأخوة الثلاثة الذين اقتسموا الإمبراطورية، وكان لويس الألماني أوفر أخوته حظًا؛ لأنَّ قبائل السكسون الموجودة على حدود دولته هيأت له درعًا قويًا يحمي هذه الدولة من خطر الفيكنج، وعلى الرغم من ذلك تعرّضت بلاد لويس الألماني لإحراق مدينة هامبرج سنة ٨٤٥، وفرَّ أسقفها منها إلى برمن^[١]. وكذلك تمكّن الفيكنج من التوغّل في نهر الألب سنة ٨٥١، وهزموا أمراء السكسون، ثمَّ عادوا ظافرين إلى الدانمارك بعد أن نهبوا جزءًا كبيرًا من ساكسونيا.

وصل الفيكنج في غاراتهم إلى جنوب فرنسا، وأغاروا على بوردو كبرى مدن الجنوب ونهبوها سنة ٨٤٧، ثمَّ استولوا عليها تمامًا، وقد كسب الفيكنج من وراء السيطرة على هذه المدن مكاسب كبيرة تمثّلت بالأرباح الضخمة والغنائم الوفيرة، وزادت من عزيمتهم في مواصلة غاراتهم التدميرية التي طالت الكثير من المدن الكارولنجية^[٢].

وقد أدّى عجز أفراد البيت الكارولنجي المالك عن مواجهة غزوات الفيكنج إلى محاولتهم شراء الصلح معهم بالمال، من ذلك ما فعله شارل الأصلع سنة ٦٨٠ حين عقد معاهدة مع ولاند أحد زعماء الفيكنج، تعهّد فيها الملك الكارولنجي بدفع مبلغ كبير من المال مقابل قيام ولاند بإخلاء نستريا من الغزاة، وكي يحصل الملك الكارولنجي على هذا المبلغ الذي تعهّد بدفعه للفيكنج، فرض على رعاياه ضريبة كبيرة وجائرة حتّى الكنائس والأديرة والنبلاء والتجار وكذلك فقراء الفلاحين لم يُعفوا منها^[٣].

فكانت هذه الضريبة حملاً جديداً أضيف إلى الأثقال التي كان يحملها أهالي دولة الفرنجة، في الوقت الذي اتّضح فيه عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم.

لقد أثبتت الحوادث فيما بعد أنّ الاتفاقات التي عقدها ملوك الغرب مع الفيكنج لا

1- Mawer, Ibid, p.20.

2-Oman. The Dark Ages, p.422.

3- Mawer, Op. Cit, p.45.

قيمة لها، مادام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التي يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم، لذلك ما لبث أن عاد الفيكنج إلى تهديد ألمانيا وفرنسا، حتى اشتدت غاراتهم في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع، واستولوا على عدد كبير من المدن، وهددوا باريس وحاصروها، ونهبوا الكنائس والأديرة غير محترمين ولا مراعين حرمتها الدينية، بل كل ما عندهم هو غناها بالكنوز والأدوات الثمينة.

في المجمل كانت غزوات الفيكنج أحد أهم الأسباب التي أضعفت الإمبراطورية الكارولنجية وأدت إلى سقوطها.

٧. الصراع بين أباطرة الأسرة الكارولنجية وملوك الأسرة الكابيتية على الحكم

زاد نفوذ المُلَّاك وكبار الإقطاعيين في أواخر العهد الكارولنجي، ولا سيما أنهم لعبوا دوراً كبيراً في دعم السلطة الملكية المركزية، التي كانت قد ساعدتهم في فرض سلطتهم على فلاحهم، وفي الحصول على أراضٍ جديدة وفلاحين جدد، فأصبح هؤلاء الإقطاعيون في القرن التاسع يحملون ألقاب الكونت أو الدوق، وقد دفعهم ذلك إلى الرغبة في الاستقلال عن السلطة المركزية، وتشكيل جيش خاص بهم، والاستقلال بخزانتهم ومحاكمهم وجهازهم الإداري، كما صار صغار الإقطاعيين، والمتوسّطون منهم، تابعين لكبار الإقطاعيين ومرتبطين بهم أكثر من ارتباطهم بالملك أو الإمبراطور نفسه، كذلك أصبح الإقطاعيون يستطيعون بوساطة قواتهم الخاصة إخماد تمرّد الفلاحين عليهم دون الحاجة لمساعدة السلطة الملكية المركزية البعيدة، ولا سيما أن تمرّدات الفلاحين كانت ذات طابع محلي في تلك الحقبة التاريخية. وعلى هذا كان رسوخ أسس النظام الإقطاعي، وتوطّد أركانه كنظام اقتصادي واجتماعي من أهم العوامل التي أدت إلى تفتّت الإمبراطورية الفرنجية إلى ممالك وأمارات صغيرة.

بعد فشل الكارولنجيين في حماية البلاد من خطر النورمانديين، اجتمع الأمراء الفرنسيون من إقطاعيين وكبار مُلَّاك، واتّفقوا على انتخاب رجل قوي من خارج الأسرة الكارولنجية، وتم اختيار أودو بن روبير كونت باريس، الذي عُرف بشجاعته نتيجة شهرته الكبيرة التي نالها حين تصدّى لغزو النورمانديين في أثناء حصارهم مدينة باريس سنة ٦٨٨، فتبوأ أودو

العرش الفرنسي سنة ٨٨٨، وأيدّه أكثر الأمراء الفرنسيين، كما اعترف به الملك الألماني أرنولف، وتمكّن أودو في بداية حكمه من تحقيق نصر على النورمانديين، فازداد جاهه وقويت سلطته، لكنّه ما لبث أن ضعفت مكانته وزادت قوّة خصومه بعد قيامه بدفع مبلغ كبير من المال لخصومه النورمانديين مقابل انسحابهم من باريس بعد غزوهم لها سنة ٨٩٠، فشجّع هذا التصرف خصومه على التحرك ضده، والعمل على إعادة العرش الفرنسي إلى الأسرة الكارولنجيّة، فتمّ تنويع شارل البسيط ملكاً على فرنسا، لكنّ هذا التنويع أفضى إلى نشوب نزاع مسلّح على السلطة بين أودو وشارل، كما تدخلت في هذا الصراع فئات عدّة، فاستغلّ النورمانديون هذا الظرف وأغاروا على فرنسا من جديد سنة ٨٩٧، فاضطرّ الملكان المتصارعان عندئذٍ للتفاوض وإنهاء الصراع بينهما بغية توحيد الجهود ضدّ الغزاة النورمانديين، ونتيجة التفاوض تنازل أودو عن قسم من المملكة الفرنسيّة لشارل البسيط، وحين توفّي أودو سنة ٨٩٨ صار شارل البسيط الملك الوحيد على فرنسا، وبذلك استعادت الأسرة الكارولنجيّة العرش الملكي^[١].

لكنّ الظروف لم تستقر طويلاً، حيث نشبت الحرب الأهليّة من جديد في فرنسا في السنوات الأخيرة من حكم شارل البسيط، وذلك حين تمردّ روبير أخو أودو على السلطة الملكيّة في فرنسا وأعلن نفسه ملكاً على فرنسا، لكنّ شارل البسيط هاجم روبير فقتله في معركة دارت رحاها سنة ٩٢٣، إلّا أنّ بعض الإقطاعيين الموالين للأسرة الكابيّة انتخبوا روبير صهر روبير ملكاً على فرنسا، بينما تمّ أسر شارل البسيط من قبل أحد الإقطاعيين، الذي أراد من وراء ذلك تحقيق أطماعه وزيادة ثروته، وبقي شارل البسيط في الأسر حتّى توفّي سنة ٩٢٩.

أمّا لويس الرابع بن شارل البسيط، فقد فرّ بعد وفاة والده إلى إنكلترا، والتجأ لجده -والد أمه- الملك الإنكليزي إدوارد الأوّل، وبذلك لم يبق أحد من الأسرة الكارولنجيّة في فرنسا يحقّ له استلام العرش الملكي، ولذلك آل الحكم إلى رؤول صهر روبير (من الأسرة الكابيّة)، الذي أصبح ملكاً على فرنسا كلها، وحكمها حتّى مات سنة ٩٣٦.

مات رؤول وليس له ولد يخلفه، فأجمع كبار الإقطاعيين الفرنسيين على تنويع هوغو

الملقب بالأكبر ملكاً على فرنسا، لكن هوغو الأكبر لم يرغب في أن يكون ملكاً رسمياً على فرنسا، بل فضل أن يمارس نفوذه من وراء السلطة الملكية، لذلك أقنع كبار الإقطاعيين بضرورة عودة لويس الرابع من إنكلترا وتنصيبه ملكاً على العرش الفرنسي، وبذلك عاد لويس الرابع إلى فرنسا، وتبوأ العرش الملكي من عام ٩٣٦ حتى ٩٥٤، وبذلك استعادت الأسرة الكارولنجية السلطة الملكية من جديد.

بعد وفاة لويس الرابع خلفه على عرش فرنسا ابنه لوثر وحكم حتى ٩٨٦، وخلف لوثر ابنه لويس الخامس، الذي حكم سنة واحدة ومات بعدها، دون أن يكون له ولد يخلفه على العرش الفرنسي. وبذلك لم يبق أحد من الأسرة الكارولنجية يحق له أن يكون ملكاً على فرنسا، لذلك تسلّم الحكم الابن الأكبر لهوغو المعروف بهوغ كاييه، الذي يُعدّ المؤسس الحقيقي للأسرة الكاييه التي حكمت فرنسا بعد الأسرة الكارولنجية^[١]

٨. الصراع الإنكليزي الفرنسي

أ- أسباب الصراع

يعود الخلاف الفرنسي الإنكليزي في العصور الوسطى لعدة أسباب أهمّها:

- ١- احتلال غليوم الفاتح دوق نورمانديا الفرنسية إنكلترا سنة ١٠٦٦.
- ٢- احتفاظ ملوك إنكلترا النورمانديين بأملاك غرب فرني، في الوقت الذي عدّ ملوك فرنسا تلك الممتلكات الإنكليزية على حدود بلادهم الغربية خطراً يهدّد الكيان الفرنسي ويحول دون وصول الفرنسيين إلى المحيط الأطلسي.
- ٣- التنافس الاقتصادي بين الدولتين، وتعارض مصالحهما السياسية في القارة الأوروبية.

ب- بداية الصراع

يُعدّ الصراع الفرنسي الإنكليزي أعظم خطر هدد الملكية الفرنسية بعد وصول آل كاييه إلى الحكم في فرنسا وتأسيسهم النظام الملكي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكان

١- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ٨٣.

هذا الصراع مع ملوك إنكلترا الذين جمعوا بين العرش الإنكليزي ودوقية نورمنديا؛ وذلك أن حرب الحدود استمرت بين ملوك فرنسا من جهة والنورمان من جهة أخرى، حيث جرح غليوم الفاتح سنة ١٠٨٧ جرحاً خطيراً في أثناء مهاجمته ضواحي باريس، ثم لجأ هنري الأول ملك إنكلترا (١١٠٠-١١٣٥) إلى تأليف حلف قويّ ضدّ لويس السادس ملك فرنسا، ضمّ هذا الحلف أعداء الملكيّة وأهالي المدن الذين لم يكونوا على وفاق مع أمرائهم، وعلى الرغم من أن الهزيمة حلت أكثر من مرة بلويس السادس، إلا أنه ظلّ محتفظاً بشأنه ومركزه^[١].

كذلك تزوّج هنري الأنجوي الذي اعتلى عرش إنكلترا سنة ١١٥٤ تحت اسم هنري الثاني من زوجة الملك الفرنسي لويس السابع، بعد أن طلقها لعدم إنجابها ولذا ذكرًا يحفظ الحكم من بيت كاييه، وهكذا أصبحت ممتلكات ملك إنكلترا في قلب القارة تمتدّ من المانش حتّى البرانس، ممّا جعل الصدام بين ملوك فرنسا وإنكلترا لا مفرّ منه^[٢].

واجه لويس السابع محاولة الملك هنري الثاني محاولته السيطرة على مدينة تولوز، ممّا استدعى الصدام بين الطرفين، وقد اتّبع الملك لويس السابع سياسة حكيمة في الداخل والخارج، ففي الداخل ربط الملكيّة في فرنسا بالطبقة البرجوازيّة التي أقام لها المدن لتتخذها مسرحاً لنشاطها، وتكون عوناً على كبار الأمراء الإقطاعيين. أمّا في الخارج، فقد أقام علاقات مع الألمان، وهو تحالف ظلّ قائماً ما يقارب ثلاثمئة عام. أمّا ملك إنكلترا، فقد ارتكب خطأ فادحاً حين قتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربوري، ممّا أثار غضب الشعب ضده، وجعل الكثير من النبلاء يساندون ملك فرنسا، أضف إلى ذلك معاناة مملكته من صراعات أبنائه على ما يشرفون عليه من أملاك التاج البريطاني في صلب القارة، ممّا أضعف موقف أبيهم^[٣].

ثمّ تولى الحكم في فرنسا بعد لويس السابع فيليب أوغسطس، الذي بدأ عهده باسترضاء هنري الثاني ملك إنكلترا، ليضمن عدم تدخّله في الحركة التي أزمع القيام بها لإخضاع أمراء فلاندرز وبرجنديا^[٤].

1- Tout, The Empire and The Papacy, P.280.

2- Ibid, p.268.

3- Adamas, The history of England from Norman Conquest to the Death of Jhon (1066- 1216), London, 1905, p.304.

4- Ibid, p.338.

وقد دخل في حرب مع هؤلاء الأمراء (١١٨١-١١٨٥) حتّى تمكّن من إخضاعهم، لكنّ الملك الفرنسي أدرك أنّ تحقيق سيطرته على الإقطاعات الكبرى في فرنسا، ما دامت ممتلكات التاج الإنكليزي في شمالها وغربها تحدّ من نفوذ الملكية الفرنسيّة، وتشكّل خطراً جاثماً عليها^[١].

لذا لجأ إلى كلّ الوسائل الممكنة، السياسيّة والحربيّة لإضعاف قوّة ملك إنكلترا في القارة، فعقد تحالفاً سنة ١١٨٧ مع فريديريك بربروسا إمبراطور ألمانيا (١١٥٢-١١٩٠) للوقوف في وجه خصومه من كبار الإقطاعيين، ولا سيّما الأنجويين في فرنسا، والجلفيين في ألمانيا^[٢].

وقد استغلّ الملك الفرنسي الخلاف والشقاق بين الملك هنري الثاني وأبنائه، فصنّف في صفّ الأبناء، وأخذ يساعدهم ضدّ أبيهم ليضعف نفوذ الملكية الإنكليزيّة عن طريق بثّ الشقاق بين الملك وأبنائه.

بعد تسلّم ريتشارد الحكم في إنكلترا دخل في صراع مع فيليب أوغسطس، وانتصر الملك الإنكليزي على الفرنسي، وأجبره على الانسحاب من نورمنديا، وعقد هدنة معه.

وقد استمرّ الصراع بين الملكين الفرنسي والإنكليزي على مقاطعة نورمنديا، حتّى قام الملك الإنكليزي ببناء حصن جيلارد فوق ربوة تطلّ على نهر السين شمال روان، من أجل حراسة عاصمة نورمنديا من أيّ اعتداء فرنسي، ممّا أثار العداوة بين الطرفين من جديد، فشنّ الملك الفرنسي فيليب أوغسطس هجوماً سنة ١١٩٨ على نورمنديا، وحاول استعادتها، لكنّه فشل ونجا من الأسر بصعوبة^[٣].

لكنّ ما لبث أن تدخل البابا، ونجح سنة ١١٩٩ في عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس سنوات، لكنّ الخلاف عاد وتجدّد نتيجة استمرار محاولات الملك الفرنسي فيليب أوغسطس بتفتيت أملاك التاج الإنكليزي في القارة من خلال تجهيز الأموال لخوض الحرب، وتآليب حكام المقاطعات على الملك الإنكليزي، وحشد القوآت والتحالف مع ألمانيا ودفع الأموال

1- Cam.Med. Hist. Vol.6, pp.291- 302.

2- Adamas , Op.Cit, p.304.

3- Tout, Op.Cit, p.268.

لها، حيث بدأ بالاستيلاء على نورمانديا عن طريق رشوة حاميتها، ولم تنتهِ سنة ١٢٠٥ إلا وكان فيليب أوغسطس قد استولى على نورمانديا وانجو ومين وتورين، ودان له بالطاعة معظم أمراء بواتو، وبذلك تضاعفت أملاك التاج الفرنسي، وأمدّت الأملاك الجديدة ملك فرنسا بقوة عظيمة وثروة طائلة^[١].

ج- حرب المئة عام بين إنكلترا وفرنسا

يطلق اسم حرب المئة عام على المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين إنكلترا وفرنسا في العصور الوسطى، تلك التي امتدّت بين سنتي (١٣٣٧-١٤٥٣)، غير أنّ تلك الحرب لم تستمر مئة عام تمامًا، ولم تتخذ شكل قتال مستمرّ ودائم بين الإنكليز والفرنسيين، وإنّما اتخذت شكل هجمات متباعدة زمنيًا تخلّلتها الهدنة والصلح مرات عدّة.

وقد قسّم المؤرّخون حرب المئة عام إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: امتدّت بين سنتي (١٣٣٧-١٣٨٠)، وأهمّ حوادثها انتصار الإنكليز على كريسي، واستيلاؤهم على غالية، ثمّ انتصارهم عند بواتيه.

المرحلة الثانية: امتدّت بين سنتي (١٣٨٠-١٤١٥)، واتّسمت بالهدوء والسلام بين الطرفين.

المرحلة الثالثة: امتدّت بين سنتي (١٤١٥-١٤٥٣)، وفيها تجددت الحرب على يد هنري الخامس ملك إنكلترا وحليفه دوق برجنديا، فانتصر الإنكليز عند أجينكورت وغزوا شمال فرنسا، ثمّ عادت برجنديا إلى محالفة فرنسا، وانتهت الحرب بطرد الإنكليز نهائيًا من الأراضي الفرنسيّة سنة ١٤٥٣.

د- نتائج الصراع الفرنسي الإنكليزي

لن نخوض في تفاصيل حرب المئة عام، لكنّنا سوف نركّز على النتائج التي تمخّضت عن هذه الحرب، والتي يمكن أن نجملها بالآتي:

١- عاشور، سعيد عبد الفتّاح، المرجع السابق، ص ٢٢١.

على الصعيد الفرنسي

١- جعلت هذه الحرب فرنسا دولة قويّة، فقد استطاع الملك الفرنسي شارل السابع أن يبني لفرنسا حكومة رشيدة، وأن يؤسس لها جيشاً نظامياً يقوده ضباط يعيّنهم الملك، لا مجرد فرسان من الإقطاعيين كما كان الوضع سابقاً، كما منع الإقطاعيين من تشكيل الجيوش الخاصة، وأجبرهم على دفع الضرائب.

٢- تطوّر سلاح الجيش الفرنسي من الناحية العسكرية؛ إذ استُخدمت المدفعية والبارود على نطاق واسع.

٣- تضخّمت العملة الفرنسيّة؛ إذ دفعت الحرب التي خاضتها فرنسا مع إنكلترا ملوكها لتزييف العملة من أجل تغطية نفقات الحرب، ممّا أدّى إلى ارتفاع الأسعار، وفرض ضرائب على السكّان؛ كضريبة احتكار الملح^[١]، وارتباكات مالية أخرى أدّت إلى التضخم المالي.

على الصعيد الإنكليزي

١- خسر الإنكليز الحرب، وأضاعوا ممتلكاتهم في فرنسا.

٢- حقّق الإنكليز تطوُّراً في مجال الصناعة، ولا سيّما صناعة الصوف، ذلك أنّ الخوف من أخطار النقل البحري أثناء الحرب دفع الإنكليز إلى صنع الأقمشة من أصواف أغنامهم في إنكلترا.

٣- تقدّم الإنكليز من الناحية العسكرية، حيث برعوا في فنون الحرب البرية والبحرية نتيجة الاحتكاك الحربي الطويل مع الفرنسيين.

٤- أخذت اللغة الإنكليزية تحلّ محلّ اللغة الفرنسيّة في المؤلّفات الأدبيّة، والمحاكم والبرلمان والكنيسة ومراسلات الملوك والمثقفين.

٥- تطوّرت إنكلترا من الناحية الدستورية، فقد صار البرلمان الإنكليزي يتمتّع بسلطات واسعة؛ ذلك أنّ حاجة الملوك للمال دفعتهم إلى اللجوء إلى البرلمان لفرض الضرائب على الشعب، وهذا ما جعل البرلمان صاحب حقّ في تقرير أمور البلاد.

في المجمل أدّت النزاعات والصراعات بين الأمراء والحكّام إلى انتشار الفوضى التي

١- فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، ص ١٧٢.

عمّت أوروبا عامّة، وغرب أوروبا خاصّة، وقد دفعت هذه الفوضى صغار المُلّاك للبحث عن قوّة تحميهم وتذود عنهم، فلم يجدوا أثراً لقوّة الملك أو لنفوذ السلطة المركزيّة، ممّا اضطرّهم إلى الارتباط بالكونت أو الأمير المحليّ لحمايتهم، وهكذا أخذ عامّة الناس وصغار المُلّاك يرتبطون بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار المُلّاك في ظلّ نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة كوسيلة وحيدة لحماية أرزاقهم وأرواحهم من الأخطار التي هدّدت مجتمعاتهم.

في ختام بحثنا لا يسعنا سوى التأكيد على أنّ انهيار الإمبراطوريّة الرومانيّة القديمة وسقوطها، كان بداية حقبة جديدة من الصراعات التي شهدتها أوروبا سادت لفترات طويلة على امتداد العصور الوسطى زهق خلالها الكثير من الأرواح. لم تشكّل أوروبا دولة إقليمية قوميّة موحّدة، ولا ملكيّة ذات طابع إقطاعي، ولا هي دكتاتوريّة شعبيّة، لكنّها جمعت مزيجاً من الحواضر والجماعات المحليّة التي انصهرت في جزء كبير منها مع شبكة العلاقات الاجتماعيّة التي انسكبت في قالب المجتمع لتؤلّف كلّ واحدة منها مجتمعات ضروريّة تراتبيّة ومتشابكة ثقافيّاً، ولم تشكّل بنية متجانسة متناغمة متألّفة، بل على العكس تماماً، مزجت شعوباً وقبائل مختلفة ثقافيّاً وفكريّاً واجتماعيّاً وطبقيّاً، ممّا أسهم في توسيع هوة الاختلاف الذي أودى إلى حدّ الصراع والتناحر والتنازع، ولا سيّما بين طبقة الفقراء والعمّال والعيبد وبين طبقة الإقطاعيين والفرسان والعسكر والطبقة الحاكمة، نتيجة استغلال الطبقة الغنيّة والحاكمة للطبقة الفقيرة العاملة وتجريدها من أبسط حقوقها الإنسانيّة في العيش حياة كريمة، واستعبادها وتسخيرها لمجرّد الدفاع عنها وخدمتها والحفاظ على أمنها وأمانها وتأمين احتياجاتها.

إنّ كثرة الحروب ومظاهر العنف وسفك الدماء التي شهدتها أوروبا في العصور الوسطى قد أفسدت بنية المجتمع، ولم تسهم في نشوء أيّ وجه حضاري لها، فسمّيت هذه الفترة بالعصر المظلم، كما كانت سبباً رئيساً لتخلّل أو تفكّك أو تنافر مكوّنات المجتمع.

خاتمة

يمكن أن نجمل النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة بالآتي:

١. شهدت أوروبا خلال عشرة قرون (من القرن الخامس حتى القرن الخامس عشر) تحولات جذرية وتقلبات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية عاشت خلالها عصرًا مظلمًا.
٢. لعب الكنيسة دورًا مهمًا في قيادة المجتمع وأصبحت صاحبة السيادة دون منازع.
٣. تغير النظام الاقتصادي وظهرت الملكيات الكبيرة لتمهّد لظهور نظام الإقطاع.
٤. أسست ممالك ودول دخلت في حروب وصراعات فيما بينها من جهة، وبينها وبين الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى.
٥. اتخذ الصراع في كثير من الأحيان طابعًا دينيًا؛ كالصراع بين أباطرة بيزنطة من جهة، والكرسي البابوي من جهة أخرى، وقد وصل الصراع إلى ذروته بعد محاولة أباطرة بيزنطة اعتقال بابا روما ومحاكمته ونفيه.
٦. شكّل قيام الإمبراطورية الفرنجية الكارولنجية بدعم من الكرسي البابوي وتبويج شارلمان إمبراطورًا عليها ضربة مؤلمة لأباطرة بيزنطة، الذين كانوا يعدّون أنفسهم الورثة الوحيدين للإمبراطورية الرومانية القديمة.
٧. شهدت أوروبا حروبًا أهلية بين الأخوة للاستئثار بالحكم؛ كما حصل مع أبناء لويس الثاني الذين ثاروا على والدهم، وشهدت الإمبراطورية الفرنجية حربًا أهلية انتهت بتقسيم الإمبراطورية فيما بينهم، ممّا ساهم بزيادة التفكك وسفك الدماء بين أبناء الجبلدة الواحدة.
٨. سعى العديد من الملوك للتوسّع على حساب جيرانهم بهدف زيادة مساحة ممالكهم، ممّا أدخلهم في حروب ونزاعات فيما بينهم.
٩. أدّى زيادة نفوذ كبار الملاك والإقطاعيين إلى تشكيل قوّات وإدارات خاصّة بهم، وتمردهم على سلطات بلادهم، ممّا أدخلهم في صراعات مع هذه السلطات من جهة، ومع الفلاحين الذين قاموا بثورات وتمردات ضدّهم للتخلّص من ظلمهم من جهة أخرى، وهذا أدّى إلى نشوب حروب أزهدت فيها الكثير من الأرواح.
١٠. نتج عن الحروب تضرّع اقتصادي أدّى إلى ارتفاع الأسعار وفرض الضرائب على السكّان من أجل تغطية نفقاتها.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع العربيّة

١. إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دار الإحسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩.
٢. حاطوم نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، الجزء الأوّل، دار الفكر، ١٩٨٢، دمشق.
٣. الحريري، محمود محمّد، اللومبارديّون في التاريخ والحضارة، ٥٦٨-٧٧٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦.
٤. طرخان إبراهيم علي، دولة القوط الغربيين، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٥٨.
٥. فرح نعيم، تاريخ أوروبا السياسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٤.
٦. فرح نعيم، تاريخ بيزنطة الساسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥.
٧. عاشور، سعيد عبد الفتّاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦.

المراجع الأجنبية

1. Adamas, The history of England from Norman Conquest to the Death of Jhon (1066- 1216), London, 1905.
2. Cam.M. History of Europe, Vol. 6, London, 1955.
3. Dill, Roman Society in Gaul in the Merovingian age, london, 1926.
4. Eyre. E, European Civilization, (vol 3, the middle ages) London, 1935.
5. Orton. C.W.P, Out Lines Of Medieval History, Cambridge, 1924.
6. Oman.C, The Dark Ages 476- 918 A.D, London, 1908.

7. Mawer. A, Vikings Cambridge, 1930.
8. Mos, H.C, The Birth of the Middle Age, Oxford, 1947.
9. Thomposn J.W, The Middle Ages, Vol: 1, London, 1931.
10. Lot: the End of The Ancient World and the beginnings of the middle ages, London, 1931.
11. Wallacr-Hadrill, the Barbarian Weal 400- 1000, 1996.

الإمبراطور جستنيان الكبير

قراءة نقدية في تاريخ الاستبداد في عهد أشهر أباطرة بيزنطة

أحمد محسن الخضر^[١]

مقدمة

بما أنَّ كثيراً من المؤرخين يعتبرون عصر جستنيان هو العصر الذهبي للإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) في الشرق، كما كان عصر شارلمان العصر الذهبي للإمبراطورية الفرنجية في الغرب، وبالتالي كان من المفيد دراسة عصر هذا الإمبراطور، فكما اشتملت سيرة شارلمان في الغرب على كثير من المبالغات والأساطير وتضخيم متعمد للأحداث، كذلك كان الحال مع جستنيان في الشرق، وبالتالي يقع على عاتقنا وضع النقاط على الحروف فيما يخص هذا الإمبراطور الذي كان عصره كارثياً لا على الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل إلى إيطاليا وشمال أفريقيا أيضاً، وكان سبباً في تخلف تلك المناطق وافتقارها السياسية، حدّاً أنَّ إيطاليا فقدت مكانتها الحيوية ولم تعرف الوحدة السياسية حتى أواخر القرن التاسع عشر، وفي الوقت الذي كان فيه جستنيان مشغولاً بالحرب في إيطاليا يسعى لتحقيق مجد أشبه ما يكون بسراب ماضٍ لن يعود، ترك الجبهة الشرقية دون حلٍّ جذري، فراح يشتري السلام من الفرس بأرطال الذهب بصورة مهينة للدولة البيزنطية ولتاريخ الإمبراطورية الرومانية التي كان يعتبر نفسه امتداداً لها. وعندما كان يجمع الفرق العسكرية لبيعها إلى الغرب، كانت الأمور في داخل الإمبراطورية في أسوأ حالاتها، حيث تفشى الجوع والعوز، وانتشر الفقر، وعمت المجاعات، وتعسّف الجباة وقاموا بابتزاز الناس ونهب أموالهم دون رحمة أو شفقة، وساقوا أبناءهم إلى الجندية ليقتلوا في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، حروب إمبراطور مهووس بأمجاده، تحقيقها على أرض الواقع بات محالاً، وأمام هذا التعسّف في معاملة الناس، وتعنت الإمبراطور في رأيه في مختلف مسائل الدولة والدين، واضطهاده للفرق والملل والنحل وأتباع الديانات الأخرى؛ انفجرت الأمور غير مرة في عهده، فكان يعالجها بالحديد والنار،

١ - رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق، سابقاً.

حدّاً أنّه قتل ٤٠ ألف إنسان في مذبحه واحدة فقط. وهكذا ظلّ محتفظاً بعرشه حتّى بلغ الـ ٨٣ من عمره، قضى منها ٣٨ سنة في الحكم. لقد كان عهده بداية تقلّص بيزنطة على الساحة السياسيّة من قوّة دوليّة من الدرجة الأولى إلى قوّة إقليميّة من الدرجة الثانية.

أولاً: الوضع العام في الإمبراطوريّة البيزنطيّة من الخامس إلى السابع الميلادي

لقد تألّفت الإمبراطوريّة البيزنطيّة من مقاطعات مختلفة كلّ الاختلاف عن بعضها، فشبه جزيرة البلقان، باستثناء بلاد اليونان، هي أقرب شبهاً بالغرب الأوروبي منه إلى آسيا، كما أنّ مصر تميّزت هي الأخرى عن باقي أجزاء الإمبراطوريّة الرومانيّة في آسيا. وإذا كان كثير من المؤرّخين يحاول أن يطبّق على الإمبراطوريّة البيزنطيّة الصورة البرّاقة التي ترسمها لها الوثائق التاريخيّة، ولا سيّما البرديّات؛ فتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأقاليم نعمت بنظام بيروقرطي على المستوى التنظيمي والإداري والمالي، افتقر له الغرب الأوروبي، لكنّ هذا النظام البيروقرطي والإداري والمالي لم يكن سبباً في سعادة سكّان الإمبراطوريّة البيزنطيّة، بل ربّما كان سبباً لكره كثير من السكّان لشكل الدولة^[١]؛ إذ كانت الحياة داخل الإمبراطوريّة البيزنطيّة مع مطلع القرن السادس الميلادي تعاني من بعض الاضطرابات التي ترجع إلى عدّة عوامل، أهمّها تردّي الأوضاع وانتشار الفقر والفاقة والمجاعات، ولا سيّما في الأقاليم، وعدم انتظام عمليّة جباية الضرائب وابتزاز الموظّفين الحكوميين للأموال المترافق بازدياد نفوذ كبار الملاك في الأقاليم^[٢].

عموماً لقد قام في الشرق والغرب على السواء نظام إقطاعي، على المستوى الاقتصادي- الاجتماعي، عرف بأملاكه وأقطاعه الواسعة، بينما زالت طبقة الفلاحين الأحرار من الوجود أو كادت، إذ استحال قسم منها عبيداً أو شبه عبيد ارتبطوا بالأرض التي يفلحونها، ونجا القسم الآخر بنفسه هرباً من فداحة الضرائب أو من قسوة أسيادهم إلى حيث استطاعوا سبيلاً. أمّا في المدن والبلدات، فقد راحت الدولة تفرض سلطتها الاستبداديّة على الحياة

١- إدوار بروي، موسوعة تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ج ٣، ط ٢، نقله إلى العربيّة: يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٦م، ص ٤٣.

٢- وسام عبد العزيز فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ج ١، جامعة المنصورة ١٩٨٢م، ص ٦٥.

الاجتماعية عن طريق إلزام الناس البقاء في المهنة التي ورثوها عن آبائهم، والتمرس في المسؤوليات العامة التي عهدت إليهم، فأحصيت عليهم الأنفاس في كل صناعة احترفوها أو متجر فتحوه، فاحتكرت الدولة صناعة الأسلحة والمنسوجات الغالية الثمن، كما تسلّمت أمور تموين المدن الكبيرة وتزويدها بوسائل العيش بما فيها العاصمة القسطنطينية، وذلك عن طريق المصادرة أو الشراء بأبخس الأسعار. أمّا الجيش، فكان في الشرق كما هو في الغرب، يتألّف من برابرة محترفين، لم يلبث قادتهم أن استأثروا بالسلطة، كما استأثّر زملاؤهم بها في غاليا وإسبانيا وأفريقيا، بينما استقرّ رجالهم في أراضي الإمبراطورية بشكل يشبه من وجوه كثيرة حقّ الضيافة المعمول به في الغرب، وضرورة محاربة الغزاة الطارئین، وفقاً لأساليبهم المتبعة^[١].

لقد كان نظام الحكم السياسي في الإمبراطورية البيزنطية نظاماً دكتاتورياً مركزياً شديداً، يتمحور حول شخص الإمبراطور الذي أتى في الغالب من صفوف الفرق العسكرية؛ فهو الحاكم العام الفرد، والسيد الأعلى المطلق للدولة، من أي أصل نشأ، وأياً تكن السلطة التي افترعته، والسلطان الذي آل إليه على الأكثر غالباً واقتداراً؛ يعزله عن عامة الشعب وحتى عن رجال حاشيته ما يشهد له من غنى لا يتصوره عقل، والمراسيم التي يجب التقيد بها والعمل بموجبها في القصر، أشبه ما تكون بمدينة مقفلة على نفسها تشبّهاً من بعض الوجوه بالتقاليد التي سارت عليها جميع الأسر الملكية في الشرق. وقد خشي البعض في مطلع القرن الخامس الميلادي أن يحلّ في الإمبراطورية البيزنطية الداء ذاته الذي حلّ بالأسرة الميروفنجية التي كانت تحكم الإمبراطورية الفرنجية في الغرب الأوروبي، فلم يسلم الإمبراطور البيزنطي سلطاته لحجّاب القصر، ولم يتنازل عن صلاحياته، بل ظلّ القائد الأعلى الذي يرأس الجيش، ورئيساً يدير كلّ شيء ويشرف على كلّ شيء، وقد احتشد في معيته رهط كبير من المساعدين عمّرت بهم مكاتب الحكومة المركزية ودواوينها، أو تولّوا قيادة الجيوش في الولايات، وأشرف على المصالح العامة موظفون كبار لهم مكانتهم الشخصية، ومع ذلك ليس هناك من إدارة واعية مننّمة تؤمّن التعاون بين الكثير من الدوائر والدواوين غير إدارة الإمبراطور، والكلّ مصيره إليه وحده في نظام مسلسل من الألقاب

والرتب، بعضها شرفي محض يشير إلى وضع خاص في المجتمع، والبعض الآخر يتبلور في وظائف وصلاحيات فعلية واقعية. وكل هؤلاء الموظّفين علمانيّون، سيصبحون تدريجيّاً مع الزمن موظّفين في الدولة يتقاضون منها المرتبات والأجور بعد أن استبدلوا بهم الحكّام المحليّون الذين يحاولون دوماً التهرّب من الأعمال الشاقة^[1]. إنّ من يطلّع على هذا الوضع العام المزري، الذي كانت تعيشه أوروبا من القرن الخامس إلى القرن السابع الميلاديين على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والإداري، وعلى نظام الحكم السياسي في الدولة البيزنطية، سيسهل عليه فهم عهد الإمبراطور جستنيان، كنموذج لاستبداد الدولة الشيوقراطية -الإقطاعية -الاستبدادية -الرجعية، على مختلف تفاصيل الحياة العلمية والعملية.

ثانياً: أسرة جستنيان ووصوله للعرش

يحتلّ الإمبراطور جستنيان مكانة خاصة في تاريخ الدولة البيزنطية؛ فهو الإمبراطور الشرقي البيزنطي ذو الأصول الغربية اللاتينية والطموحات الغربية^[2]. وقد حكمت أسرته الإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي، ورث هو العرش عن خاله جستينوس الأول (٥١٨ - ٥٢٧م)، وتعاقد على العرش أبناء هذه الأسرة، وكانوا من الأقرباء المقربين؛ إذ لا نجد في هذه الحقبة التاريخية إمبراطوراً واحداً ورث الحكم عن أبيه. فبعد وفاة الإمبراطور أنسطاسيوس Anastasius في سنة ٥١٨م بدون عقب، تولّى جستينوس الأول الحكم بمحض المصادفة بحكم أنّه كان قائداً لإحدى فرق الجيش البيزنطي^[3]. ويعود أصل جستينوس إلى أسرة فلاحيّة بسيطة من قرية فيديرانا Vederiana في غرب البلقان، بالقرب من مدينة أسكوب الحالية بإقليم إيليريا، وقد قدّم إلى العاصمة القسطنطينية والتحق بالخدمة العسكرية في الجيش كجندي، وسرعان ما أظهر كفاءة عالية جعلته يترقّى في المناصب العسكرية حتّى تولّى قيادة إحدى فرق الجيش، رغم أنّه كان ينقصه الكثير في مجال السياسة والدبلوماسية^[4].

١- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٨.

٢- إسمنت غنيم، إمبراطورية جستنيان، منشورات دار المجمع العلمي بجدّة، جدّة ١٩٧٧م، ص ٧.

٣- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، ط ٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص ٨١.

٤- مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا في أثناء حكم الإمبراطور جستنيان، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة المرقب، ليبيا ٢٠٠٧م، ص ٤٧.

لا بل كانت تنقص هذا الفلاح الإيليري - الطاعن في السنّ - أبسط مبادئ التعليم، إذ كان أمياً لا يجيد القراءة ولا الكتابة، متطفلاً على عالم السياسة وأهلها، جاهلاً بالفلسفة وعلم اللاهوت. لقد وقع عليه الاختيار بتدبير ما يزال غامضاً، ليتولّى العرش بعد وفاة الإمبراطور أنسطاسيوس^[1]. ولم يعقب جستينوس ولد يخلفه على العرش البيزنطي، فبنى ابن اخته فلافيوس جستنيان F. Justinianus (٥٢٧-٥٦٥م)، واسمه الحقيقي بطرس سباتيوس، والذي استقدمه إلى العاصمة وعني بثقافته منذ أن كان قائداً لإحدى فرق الجيش البيزنطي^[2]. لقد كان جستنيان من أصول لاتينية، وعندما استقدمه خاله إلى العاصمة القسطنطينية، لم يكن يجيد التحدث بغير اللغة اللاتينية؛ فهي لغته الأم. وفي العاصمة، كان من الواجب عليه أن يتعلّم اللغة اليونانية، التي كانت اللغة المحكية والرسمية فيها، ورغم تعلّمه لها إلا أنه لم يتقنها بشكل صحيح، وظلّ يتحدث بها بأسلوب رديء^[3]، لذلك عدّه كثير من المؤرخين بأنه آخر الأباطرة اللاتين، إذ إنّه صاغ سياسته وفق المصالح الغربية اللاتينية لا وفق المصالح الشرقية اليونانية^[4].

منذ أن تبناه خاله الإمبراطور جستينوس وأشركه في الحكم، كان واضحاً أن جستنيان سيرث العرش الإمبراطوري، ولا سيّما أن جستنيان بدأ يعاون الإمبراطور في إدارة أمور الدولة، ويتصرّف كما لو أنّه الإمبراطور، لقد كان جستنيان ولياً لعهد خاله جستينوس، بينما كان في واقع الأمر الحاكم الفعلي للإمبراطورية - على الأقلّ - في الفترة الأخيرة من حكم جستينوس، وما إن توفي الخال العجوز حتّى أصبح جستنيان الإمبراطور المتوجّ بصفة رسمية على عرش الإمبراطورية في سنة ٥٢٧م، ولا شك أن الفترة التي شارك خاله فيها الحكم قد أكسبته بعض الخبرة في شؤون الحكم والاطّلاع على أمور إدارة الدولة^[5].

١- إسمنت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ١٥.

٢- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨١.

٣- مفتاح محمد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٤٨.

٤- محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٤م، ص ٤٠.

٥- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي، دار المعرفة الجامعية، بيروت ٢٠٠٠م، ص ٤٦.

ثالثاً: شخصية جستنيان

لم يكن جستنيان رجلاً مقدماً أو شجاعاً، لم ينزل إلى الميدان قط في حروبه الكثيرة التي خاضتها الإمبراطورية البيزنطية في عهده، إلا أنه كان محباً للسلطة، شديد الإعجاب بنفسه، فكان أول إمبراطور دلّ بأقواله وأفعاله -دون جمع أباطرة الدولة الرومانية- على أنه إمبراطور؛ غير أنه إمبراطور طفحت سريرته بالغيرة، وامتلاً رأسه بالغرور، واتّصفت إرادته بالتردد^[1]، ولعلّ أخطر عيوبه كانت ناشئة من رقة طبعه، وبالرغم من تظاهره بالحزم، إلا أنه كان في قرارة نفسه متردداً ذا وسواس، إمعة يتأثر بآراء غيره^[2]، ضعيف الشخصية؛ من السهل على أصدقائه وحاشيته أن يؤثروا فيه، صلماً يزهو عندما يسمع مديحه بأذنه ويحب ذلك، ومن أجل هذا كان كثيراً ما يتقلب في سياسته^[3]، يبدو للرأي عبر القرون كأنماً كانت تنقصه الموهبة العالية في شؤون السياسة والحكم، وافتقرت عزمته إلى شيء من المضاء والعزيمة، كما كان بحاجة إلى الكثير من حسن التقدير، وأعوزته المقدرة على المضي في أمر لم يرق له^[4].

لم يكن جستنيان على المستوى الشخصي إنساناً طبعياً، فتارةً تراه رحيماً يتظاهر بالبساطة والتودد للناس، وأحياناً تراه طائشاً متهوراً يعاقب على التهمة لا يعرف الشفقة ولا الرحمة. ومن هذه التصرفات المتناقضة يتضح أن جستنيان كان ذا وجهين، وتميّز بالوسواس والتخوين وإخفاء نوايا صدره الحقيقية؛ حتى إنه كان يشك في إخلاص كل من حوله، وينظر إلى الجميع كأنهم متآمرون على حياته، ولذا أكثر من الجواسيس ورجال المخابرات وبثهم بين الناس. كما كان يقضي معظم النهار والليل في تدقيق ومراقبة كل شيء، حتى لقبه أحد رجال القصر بـ«الإمبراطور الساهر»^[5]. وقد خص بروكبيوس -أحد أشهر المؤرخين المعاصرين لجستنيان- بمجلد كامل من تاريخه، يصفه فيه بأنه شخص: «عديم الإخلاص، مُخادع، مُنافق، يخفي عن الناس غضبه، يظهر غير ما يبطن، حاذق، قادر كل المقدرة على

١- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ط٦، ترجمة: السيد الباز العربي ومحمد مصطفى زيادة، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٦م، ص٥٨.

٢- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص٨٥.

٣- ول. ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح، الدولة البيزنطية في أوج مجدها ج٣، مج٣، ترجمة: محمد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص٢١٠.

٤- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص٥٨.

٥- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص٨٥.

التظاهر بالرأي الذي يدّعي أنّه يعتنقه، بل إنّهُ يستطيع في كثير من الأحيان أن يذرف الدمع من عينه... إذا اقتضت الظروف ذلك». ويواصل بروكبيوس وصفه فيقول: «وكان صديقاً متقلّباً في صداقته، عدوّاً إذا عقد هدنة لا يحافظ على عهده، حريصاً كلّ الحرص على الاغتيال والنهب»^[1].

لقد اعتمدت أسطورة «الإمبراطور جستنيان العظيم» على شخصيتين رئيسيتين، فجميع المنجزات التي تمت في عهده تعود لهما، وهما: الخصي الأرمني نارسيس Narses، والقائد العسكري بليزاريوس Belisarius. بعكس هذين الرجلين، كان جستنيان من طينة مخالفة، سيء السلوك، مفرط السخاء، مجبول على الظلم والتعسف، مولع بالبناء والترميم والتجديد، متقلّب المزاج يقود حكومة امتزجت فيها القسوة بالضعف. لقد نشأ نارسيس داخل القصر فحظي أكثر من غيره بثقة الإمبراطور^[2]. كلّفه الإمبراطور بحكم إيطاليا فحكمها بكثير من العنت والظلم، وأرهق الأهالي بكثرة الضرائب والأتاوات^[3]. لقد كان هذا العبد الأرمني لا يعرف الرحمة ولا الأخلاق النبيلة، فعندما ينتشر الرق في مجتمع ما، غالباً ما تقل أو تنعدم فيه الأخلاق السامية بالمرّة^[4]. لكن طغيان جستنيان الذي عجز عن خنق همّة بليزاريوس أو طمس عبقريته، كان سبباً في نكبة هذا القائد؛ إذ ساءت العلاقات بينه وبين الإمبراطور بعدما وصلت الإمبراطور وشاية تقول بأنّ القوط الشرقيين في إيطاليا يرغبون في تولية بليزاريوس إمبراطوراً عليهم، ونظراً لشجاعة بليزاريوس في القتال وسيطرته التامة على الجنود لدرجة كبيرة أثارت مخاوف جستنيان، ممّا جعله لا يطمئن إليه ولا يثق به، ومن ثمّ فقد اتّهمه بالتآمر ضده، وتمّ القبض عليه وسجنه في سنة ٥٦٢م، بعدها استدعاه جستنيان إلى القسطنطينية بحجة قتال الفرس، الذين هاجموا الحدود الشرقية للإمبراطورية، ويقال إنّ بليزاريوس قضى الفترة الأخيرة من حياته في فقر وبؤس، حتّى اضطر للتسوّل بعد أن فقد بصره^[5].

- ١- ول. ديورانت، الدولة البيزنطية في أوج مجدها، ج ٣، مج ٣، م.س، ص ٢١٠.
- ٢- مونسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠١١م، ص ١٨٩.
- ٣- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ١٩.
- ٤- مونسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٨٩.
- ٥- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ١٩-٢٠.

رابعاً: ثيودورا زوجة جستنيان

لقد ألقى به العتب قبل اعتلائه العرش الإمبراطوري إلى مختلف الأحياء والبيوت، وأدّى به المجون في أزقة تلك الأحياء وأوساخها إلى التعرف على ثيودورا Theodora؛ راقصة في أحد المسارح، تعاطت فيه مهنة البغاء طويلاً، وقد حيكّت حولها آلاف المخازي والقصص التي يندى لها الجبين، كما عرفت بعنف النزوة وحبّ الانتقام^[1]. هام بحبّها ثم تزوّجها؛ فتحكّمت في مشاعره بكيفية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً. أقحمت في سياسة الدولة الأهواء والنزوات المعهودة في تصرف النساء. بسبب هذا التأثير، فسد كلّ نصر، وفي كلّ حادث انقلب السعد إلى شؤم. في بلاد الشرق ومنذ أقدم العصور، يتزوّج الرجل عدّة نساء؛ وذلك للحدّ من تلك الدالة العجيبة التي تملكها الأنثى على الذكر في ذلك الصقع. لكنّ دستور القسطنطينية الذي يستند إلى الديانة المسيحية يمنع هذا النهج، فتكتسب الزوجة الواحدة هيمنة مطلقة على زوجها، الأمر الذي يوهن الحكومة أحياناً، فإذا كان هذا الزوج رجلاً في الحكومة^[2]، فما بالنا إذا كان الزوج إمبراطوراً؟!.

لقد ولدت ثيودورا في العاصمة القسطنطينية سنة ٥٠٠م^[3]، وكان والدها أكايوس Acacius وأصله من قبرص، يعمل سائساً للحيوانات المتوحشة في مراتعها الخاصة لترويضها في القسطنطينية، وكان يحمل لقب حارس الدبة، وعندما توفيّ أكايوس اضطرت زوجته بسبب العوز والفاقة أن ترسل بناتها الثلاث كوميتو وأنستاسيا وثيودورا ليعملن على المسرح راقصات ومغنيات. وكانت ثيودورا فائقة الجمال، حادة الذكاء، رشيقة القوام، سريعة الخاطر في اللقاء، لا تمنع يد لأمس، لذا أصابت نجاحاً لا نظير له، وفتنت سكّان العاصمة وشغلّتهم عن سواها^[4].

وقيل إنّها امتهنت مهنة البغاء بفجور وانتقام شديد من كلّ رجل يقع تحت يديها؛ إذ تميّزت بجمال أخاذ وجاذبية طاغية ورغبة شديدة في الانتقام من معجبيها، ويقال إنّها حملت لقب (حتالة الجيش)؛ إذ تعاملت مع هذه المهنة بتدنٍ شديد شمل إرضاء شهوات

١- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٤٧.

٢- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٠.

٣- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ١٦.

٤- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٥.

حتّى الخدم ورجال الطبقات الوضيعة من المجتمع، ولم يفلت منها كثيرٌ من الشخصيات السياسيّة المشهورة في المجتمع البيزنطي آنذاك^[1]. وتحدّث المؤرّخون أنّها نجحت أكثر من مرّة في إجهاض نفسها، ولكنّها ولدت ابناً غير شرعي، ثمّ صارت عشيقّة رجل سوري يدعى هيكوبوليوس Hecobolius. وبعد فترة من العمل على المسرح، غادت ثيودورا العاصمة وسافرت مع هيكوبوليوس إلى شمال أفريقيا بصفتها عشيقّة له، إلّا أنّ هذا العشيق هجرها، فارتحلت إلى الإسكندريّة لتكسب العيش بمفاتن جسدها. وأخيراً عادت إلى القسطنطينيّة، وتعاشرت مع جستنيان فترة من الزمن قبل أن يصبح إمبراطوراً. وفي البداية لم يستطع جستنيان الزواج من هذه المرأة ذات الماضي المخزي؛ خوفاً من الإمبراطورة يوفيميا Euphemia؛ زوجة خاله العجوز^[2]، كما رفضت والدّة جستنيان السيّدّة فيجيلانتيا Vigilantia هذا الزواج، وأمام إصرار جستنيان وموت الإمبراطورة العجوز وضعف خاله جستينوس، تمكّن جستنيان من إقناع الإمبراطور بإصدار مرسوم يُعدّ القانون الذي يحظر على أعضاء مجلس الشيوخ الزواج من الداعرات ملغيّاً، ففعل ذلك^[3].

وهكذا أصبحت ثيودورا زوجة جستنيان شرعاً وقانوناً، فقام بتتويجها إمبراطورة في



كنيسة آيا صوفيا Hagia Sophia في ٩ آب ٥٢٧ م. والغريب في الأمر أنّه لم يعترض أيّ صوت على هذا الزواج، لا من السياسيين ولا من القادة العسكريين، ولا حتّى من رجال الدين عندما تقدّموا لتأدية يمين الإخلاص والولاء للإمبراطور ثيودورا، وأغرب من هذا كلّ أنّ هتافات الجماهير لها تعالت وعدّوا أنفسهم عبيداً لها^[4]. وسرعان ما تقمّصت ثيودورا دور العظيمة والأبّهة والمجدد، وغيّرت اسمها من ثيودورا إلى أيوفيميا، ومعناه صاحبة الكلمة الرقيقة، لتمحو عن كاهلها

١- سامية محمّد عامر، دور المرأة في الحياة السياسيّة في أوروبا العصور الوسطى (ثيودورا وجان دارك دراسة حالة)، مجلّة بحوث كليميّة الآداب، مج ٢٩، العدد ١١٣، د.ت. ص ٣٤٠٥.

٢- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٦.

٣- مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥١.

٤- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٦.

تلك السمعة الرديئة، ووقفت قويّة أمام الرياح العاتية التي كادت أن تعصف باسم زوجها الإمبراطور، وقرّرت أن تفتك بقسوة بكلّ مَنْ تصدّى لها أو أهانها، مستغلّة في ذلك شخصيّة جستنيان المتقلّبة الضعيفة أمام إغراءاتها حتّى سلكت أسلوباً دموياً في تصفية خصومها كافّة وكلّ مَنْ وجّه لها إهانة أو شتيمة حول ماضيها المخزي، بل فتحت المجال أمام الكثيرين للزواج بعاهرات قدوةً بها وبالإمبراطور جستنيان^[1].

يصف لنا المؤرّخون هذه المرأة بأنّها كانت تحبّ المال والسلطان حبّاً جمّاً، وتثور في بعض الأحيان ثورة جامحة، وتدبّر المؤامرات لتصل إلى أغراضها التي لا تتفق مع أغراض جستنيان. وكانت نؤوماً، تكثر من الطعام والشراب، وتحبّ الترف، والحلي، والمظاهر، وتقضي عدداً كبيراً من أشهر السنة في قصورها القائمة على شاطئ البحر^[2]. ولعلّه ممّا زاد من صنوف الظلم الذي مارسه ثيودورا، هو ضعف شخصيّة زوجها وتردّد الدائم وسماعه للوشايات بالآخرين^[3]. لقد ظلّ جستنيان يحبّها طيلة حياته رغم جميع تلك الصفات، ويصبر على تدخلها في خططه وأعماله صبر الفلاسفة. لقد خلع عليها، وهو كلف بها، حلّة من السيادة لا تقلّ من الوجهة النظريّة عن سيادته هو، ولم يكن في مقدوره أن يشكو إذا مارست هذه السيادة^[4]، فمنذ أن تزوّجته وحتّى وفاتها في سنة ٥٤٨م، وهي تمارس عليه نفوذاً واسعاً، حتّى يمكن القول إنّ الإمبراطوريّة في تلك الفترة كان يحكمها جستنيان وثيودورا معاً^[5]، إذ إنّها اشتركت اشتراكاً فعليّاً في السياسة الخارجيّة وفي الشؤون الكنسيّة؛ فكانت تنصّب البابوات والبطارقة وتخلعهم، وتعزل أعداءها من مناصبهم، وكانت في بعض الأحيان تصدر من الأوامر ما يتعارض وأوامر زوجها. ويتّهمها المؤرّخ فبروكيوس بقسوتها على معارضيها، وبأنّها ألقت بعضهم في الجبّ وقتلت عدداً قليلاً منهم، وكان الذين يسيئون إليها إساءات شديدة يخنفون دون أن يقف لهم أحد على أثر^[6].

١ - سامية محمّد عامر، دور المرأة في الحياة السياسيّة، م.س، ص ٣٤٠٦.

٢ - ول. ديورانت، الدولة البيزنطيّة في أوج مجدها، ج ٣، مج ٣، م.س، ص ٢١٤.

٣ - سامية محمّد عامر، دور المرأة في الحياة السياسيّة، م.س، ص ٣٤٠٨.

٤ - ول. ديورانت، الدولة البيزنطيّة في أوج مجدها، ج ٣، مج ٣، م.س، ص ٢١٤.

٥ - إسمنت غنيم، إمبراطوريّة جستنيان، م.س، ص ١٧.

٦ - ول. ديورانت، الدولة البيزنطيّة في أوج مجدها، ج ٣، مج ٣، م.س، ص ٢١٥.

لقد ظلت ثيودورا متسلطة على جستنيان في تسير دفة الحكم، ومتدخلة في جميع الأمور السياسية والاجتماعية حتى وفاتها. بعد موت ثيودورا انكشفت نقائص جستنيان؛ ومنها التردد والهوس في علم اللاهوت؛ ففي السنوات الأخيرة من حكمه، أهمل واجباته الإدارية وكرّس معظم ليلاته للجدل الديني حتى مات في سنة ٥٦٥ م^[١]، وقد بلغ الشطط معه في علم اللاهوت حدًا جعله في أيامه الأخيرة يصرح بآراء لاهوتية اعتبرتها الكنيسة مرفوضة جملة وتفصيلاً؛ فقد أعلن الإمبراطور جستنيان أنّ جسد السيد المسيح عليه السلام غير قابل للدنس، وأنّ طبيعة السيد المسيح البشرية لم تتعرض في يوم من الأيام لحاجة من حاجات الجسد الفاني ولا لشيء من مساوئه. لكنّ رجال الدين رفضوا هذه التصريحات، وأنذروه أنّه إذا مات قبل أن يرجع عن هذه الخطيئة، فسيلقى في نار جهنم ويبقى فيها إلى أبد الأبد. ومات الرجل قبل أن يرجع عن رأيه في سنة ٥٦٥ م، بعد حياة دامت ٨٣ سنة، جلس فيها ٣٨ سنة على كرسي العرش^[٢].

خامساً: حروب جستنيان على الجبهة الشرقية (٥٢٧-٥٣٢م)

لقد كانت أولى المشكلات الخارجية التي واجهت الإمبراطور جستنيان وأكثرها خطراً، هي الجبهة الشرقية وتهديدات الفرس المستمرة؛ إذ يُعدّ الخطر الفارسي امتداداً للصراع التقليدي القديم بين الفرس والإغريق ثمّ الفرس والرومان، وأخيراً الفرس والبيزنطيين. هذا ناهيك عن الصراع الاقتصادي بين الإمبراطوريتين؛ إذ قام الفرس بالسيطرة على طريق التجارة الدولية القادم من الصين والهند. لكنّ السبب المباشر لصدام جستنيان بالإمبراطورية الفارسية في هذه المرحلة؛ كان يرجع إلى أنّ الملك الفارسي Khobad (٤٨٨-٥٣١م) كان قد بلغ الثمانين من عمره، وأراد أن يضمن العرش لابنه الأصغر كسرى أنو شروان، فلجأ إلى الإمبراطور جستنيان لكي يتبنّى ابنه ويحمي عرشه. في الوقت الذي كان الأمر يتطلب تسوية جذرية لمشكلة الحدود بين الإمبراطوريتين عند مدينة لازيكا Lazica، الواقعة شرق البحر الأسود، والواضح أنّ الشروط التي وضعها جستنيان لم ترض قباً، فتوتر الوضع بين

١ - نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٦.

٢ - نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله التشريعية الدينية والإدارية والقضائية والتجارية، كلية التربية للبنات، جامعة الأنبار، د.ت، ص ١٤.

الدولتين، ولا سيّما بعدما شرع جستنيان في تقوية حصون وقلاع مدينة دارا Dara قرب مدينة نصيبين Nisibis الفارسيّة في شمال سورية^[1].

أمر الملك الفارسي قباد قوّاته بالهجوم على منطقة بلاد الرافدين، فألحقت الهزيمة بالفرقة العسكريّة البيزنطيّة المرباطة في حصن مدينة دارا بقيادة القائد العسكري بليزاريوس، فأمر الإمبراطور البيزنطي جستنيان بجمع قوّات عسكريّة كبيرة وتوجيهها بقيادة بليزاريوس لمنع القوّات الفارسيّة من اختراق الحدود. هذا ولم تستعر الحرب بعنف بين الطرفين، إنّما اقتصر على مناوشات متبادلة على الحدود؛ وذلك لانشغال السلطات الفارسيّة بمقاومة الحركة المزدكيّة التي تفشّت في إيران^[2]. بينما كانت السياسة الخارجيّة البيزنطيّة تتمحور -منذ أوائل عهد جستنيان- حول إعادة أملاك الإمبراطوريّة الرومانيّة في الغرب. ومن أجل ذلك المشروع، عقد الإمبراطور جستنيان صلحاً مع كسرى أنو شروان ملك الفرس الجديد في سنة ٥٣٢م، بعد ثلاث سنوات من المناوشات المحدودة بين الدولتين^[3]. وكان سلاماً مهيناً لبيزنطة؛ إذ تعهّد جستنيان بدفع إحدى عشرة ألف قطعة ذهبيّة ثمناً له^[4]. وإن لم تمثل هذه الاتفاقية أهميّة كبيرة للبيزنطيين، إلّا أنّها أمنت الحدود الشرقيّة لفترة من الزمن (ثمانى سنوات)، أتاح لجستنيان التفرّغ لمشاريعه في الغرب، والسعي لتحقيق حلم وحدة الإمبراطوريّة الرومانيّة القديمة^[5]. وهكذا سجّل جستنيان أوّل نقطة سلبية في تاريخ سياسته الخارجيّة، عندما قرّر أن يشتري السلام بالإذعان ودفع الإتاوات.

لم يكن الفرس وحدهم من يناوئ جستنيان في الشرق، فليس بعيداً عنه كان اليهود في فلسطين يكيّدون له، ولا سيّما بعد اضطهادهم وإرغامهم على اعتناق الديانة المسيحيّة طوال سنتي (٥٢٧-٥٢٩م). فعندما اندلعت الحرب بين الفرس والبيزنطيين، وجد اليهود أنّ الفرصة أصبحت سانحة للثورة على جستنيان، وربّما لعبت الدبلوماسية الفارسيّة دوراً في تحريض اليهود على الثورة، فراح اليهود يضطهدون المسيحيين في مدينتي بيسان

١ - مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٣.

٢ - نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ١٠٨.

٣ - فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٤٨.

٤ - محمّد الشيخ، تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، م.س، ص ٤٤.

٥ - مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٤.

ونابلس، وأخذوا ينكّلون بساكنيها، واختاروا جوليان ملكاً عليهم. وانتظر اليهود الدعم من الإمبراطورة الفارسية، إلا أن الفرس لم يقدموا لهم أيّ مساعدة تذكر؛ لأنّ اتفاقية السلام الدائم بين البيزنطيين والفرس كانت قد بدأت ترسم أطرها، فوجد اليهود أنفسهم بلا معين، بينما أسندت الدولة البيزنطية مهمة تأديب اليهود إلى ملك الغساسنة في حوران؛ الحارث بن أبي شمّر الغساني الذي تكفل بالقضاء على ثورتهم في السامرة، وقد تسبّى له ذلك بالفعل، حتّى أنّه باع أطفالهم في أسواق النخاسة في الحبشة وبلاد فارس^[1].

سادساً: ثورة نيقا Nika (النصر) والمجزرة الدموية

لقد تزامنت الأخطار الخارجية التي أهدقت بالإمبراطورية البيزنطية مع اضطرابات داخلية عنيفة كاختلال الأمن وانتشار الفقر وزيادة الضرائب، إضافة إلى تعقّد الموقف بتنازع الأحزاب الدينية فيما بينها. أمّا أكبر الأخطار الداخلية التي هددت أمن الدولة وحياة الإمبراطور جستنيان ونفوذه عقب الانتهاء من الحروب الفارسية وشراء السلام معها، كان الثورة الشعبية الداخلية في سنة ٥٣٢م^[2]، أو كما يطلق عليها المؤرخون اسم «ثورة نيقا»؛ (أي النصر في اللغة اليونانية). لقد قامت هذه الثورة بعد تولّي جستنيان العرش بخمس سنوات، وكادت هذه الثورة أن تقوِّض أركان عرشه. وحتّى يتسبّى لنا تتبّع أحداث هذه الثورة، يجدر بنا إلقاء الضوء على نشأة الأحزاب التي قامت بهذه الثورة، إذ يرجع منشأ هذه الأحزاب إلى سباق الخيل الذي كان يجري يوماً في الميدان أو الهبودروم Hippodrome، وهو المكان نفسه الذي كان يتوجّج فيه الإمبراطور حتّى نهاية القرن السادس الميلادي^[3]. لقد افترق جمهور عاصمة الروم البيزنطيين دائماً إلى حزبين يلقّبان بالزرق والأخضر؛ بسبب تعلق مشاهدي المسارح ببعض الممثلين أو الرياضيين من دون غيرهم، فأثناء مسابقات عربات الخيل التي تقام في الميدان (الهبودروم)، كان الحوذي يرتدي إمّا اللون الأزرق وإمّا اللون الأخضر، فينتصر هذا الفريق أو ذلك بحماية تصل إلى حدّ الجنون. عمّ هذا التحزّب جميع مدن الإمبراطورية، وكلّما اتسعت مساحة إحداها وانتشرت فيها البطالة، اشتدّ تعصّب أهلها. وإذا كان الانقسام ضرورياً في كلّ حكومة جمهورية؛ إذ إنّ عمادها وضمّان

١- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١١.

٢- مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٥.

٣- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٤٧.

استمراره، إلا أنه كان مضرراً وقاتلاً لا محالة للحكومة الإمبراطورية وللدولة الشمولية؛ إذ لا يترتب عنه سوى إبدال أمير بآخر، من دون العودة إلى سلطة القانون ومن دون محو مساوئ الظلم والجور^[1]. ومع مرور الوقت، انقلب التضامن الرياضي في عاصمة الروم البيزنطيين إلى تضامن اجتماعي، ومن ثم ديني؛ حيث اعتنق الزرق المذهب الأرثوذكسي، بينما اعتنق الخضر المذهب المونوفيزيقي Monophysitism القائل بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح عليه السلام^[2].

باعتلاء جستينوس ومن بعده جستنيان العرش حظي حزب الزرق بمكانة عالية في الإمبراطورية، في حين وقف حزب الخضر في صف المعارضة، إذ كانوا من أنصار الإمبراطور أنسطاسيوس، وحظوا بدعمه وتأييده. ومع وصول جستنيان للعرش، تعرضوا لكل صنوف التضيق عليهم، فكانت ردة فعلهم أن أيّدوا أبناء أخ الإمبراطور أنسطاسيوس الذين حرموا من العرش، رغم أنهم كانوا أحقّ به، إذ رفضوا الاعتراف بشرعية حكم جستنيان، واعتبروه وخاله جستينوس مغتصبين لحقهم في الحكم^[3]. لقد شجّع تحيّر جستنيان للزرق حقد كلا الحزبين على الآخر، في هذا الوضع ضاعت سلطة الدولة، فالزرق لا يخشون القانون؛ إذ إنّ الإمبراطور يحميهم من أية متابعة، والخضر لا يحترمون إذ لا يجدون فيه حامياً لحقوقهم. كلّ من يخطّط لسوء كان يناصر الزرق، وكلّ متضرّر في نفسه أو أملاكه كان يوالي الخضر. بسبب هذا التحزّب، لم تعد للصداقة أو القرابة حرمة، ولم يعد للدولة هيبة، ولم يعد أحد يعبأ بواجب أو يقر بمعروف أو يحترم قانون^[4].

لقد ازدادت المشكلة تعقيداً، وتأزّم الموقف أكثر كون الخضر من طبقات الشعب الدنيا والزرق من الطبقات العليا؛ وكأن الصراع أصبح طبقيّاً، وأمسى الحال يهدّد بالانفجار^[5]. ونظراً لقصر نظر جستنيان، والطريق المظلم الذي رسمته ثيودورا؛ وتظاهر الزوجان بأنّ كلّ منهما يناصر حزباً ضد الآخر، ما أسهم في احتقان الأمور أكثر، وأدّى إلى احتدام الصراع.

١- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩١.

٢- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٤٧.

٣- مفتاح محمد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٥.

٤- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩١.

٥- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٤٨.

وقد أتقنت ثيودورا اللعبة وأوهمت الجميع هي وزوجها أنَّهما مختلفان في موقفيهما تجاه الحزبين، إلى أن تحوّل الصدام بين الحزبين إلى ما يشبه الحرب الأهلية، وعمّت الفوضى أرجاء البلاد، فاهتزت هيبة الدولة، واختلّ سلطان القانون، واختلّ موقف جستنيان، وشعر أنَّ الأمور ستفعل من يده، وأنَّه كان يلعب بالنار حين وافق زوجته على ذلك المسلك الملتوي تجاه الحزبين.^[1]

لقد بدأ جستنيان مسعى نشيطاً للتخلّص نهائياً من كلا الحزبين، فحطّم المنظّمات الشعبية التي تمثّلها أحزاب الملعب، واتّخذ إجراءات صارمة ضدّ الفئات الشعبية الحاضنة لهذا الحزب أو ذلك، بما يتماشى مع مصالحه الاقتصادية والسياسية^[2]، كما أنقص من نفوذ أعضاء مجلس الشيوخ، وحجم صلاحيّاتهم، وجمع بيده جميع السلطات، فأدّى ذلك إلى اتّحاد الجميع ضده^[3]. وبناء على هذا يتبيّن لنا أنَّ أسباب ثورة نيقا كانت متعدّدة ومتشابكة، فمنها ما هو ديني، ومنها ما هو طبقي، يضاف إلى ذلك الأسباب السياسية والاقتصادية المتمثّلة في سوء تقديرات الإمبراطور جستنيان لسير الأمور في الدولة البيزنطية^[4].

أمّا السبب المباشر لثورة نيقا، فكان اعتماد الإمبراطور جستنيان في بداية عهده على شخصيّات في إدارة شؤون الحكم وتسيير أمور الدولة اتّسمت بالفساد والرشوة، وتجاوزت حدودها في ابتزاز الأموال وفرض الضرائب الباهظة على الشعب، ومن هؤلاء يوحنا الكبادوكي John of Cappadocia في الإدارة والخزانة^[5]، إذ عيّنه جستنيان وزيراً أوّل، رغم أنَّ يوحنا لم ينل تعليماً متقدّماً؛ إذ كان يجيد القراءة والكتابة فقط، إلّا أنَّه كان متعسّفاً وداهية مكار، كما كان المسؤول الأوّل عن زيادة الضرائب ليوفّر لخزينة الدولة السيولة النقدية اللازمة لدفع النفقات الباهظة لمشاريع الإمبراطور الطموحة^[6]. بينما اعتمد جستنيان على تريونيان Tribonian في القضاء. وقد طغى الاثنان وتجاوزا حديهما على كلّ صعيد، ويبدو أنَّ

١ - سامية محمّد عامر، دور المرأة في الحياة السياسية، م.س، ص ٣٤٠٧.

٢ - مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٦.

٣ - نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٢.

٤ - محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٤٨.

٥ - مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٥-٥٦.

٦ - وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٦٤.

الإمبراطور جستنيان -على ما اتَّسم به من قصر نظر- كان سعيداً بهذا الابتزاز وتلك الضرائب والمصادرات؛ لأنَّها جعلت خزائن الدولة عامرة، حتَّى في أقصى أيام حربها مع الفرس أو في المجاعة، ووقَّرت الأموال التي تتطلَّبها عمليَّة إدارة أمور الدولة^[١]. كما لم يكثرث الإمبراطور لتردِّي الأوضاع؛ إذ انعدم الأمن في العاصمة؛ فأُمسَّت شوارعها غير مأمونة، واضطر أكثر الأغنياء إلى أن يرتدوا ملابس الفقراء المساكين لينجوا بها من طعنات الخناجر في الليل^[٢].

لقد تهيأت كلُّ الأسباب للثورة، إذ لم يعد بوسع شعب القسطنطينيَّة أن يستحمل أكثر من ذلك، فهبَّ الزرق والخضر معاً واتَّجهوا إلى الهيبيدروم Hippodrome واندفعوا منه يدمرون ويخربون ويضرمون النار في مباني الدولة العامَّة، في الوقت الذي لم يتوقَّف الخطر الفارسي الجاثم على البلاد. وممَّا زاد الطين بلَّة، تمكَّن الثَّوار من اقتحام المصالح الحكوميَّة والاعتداء على أملاك الدولة وهم يهتفون بكلمة نيكا (النصر)؛ فسمَّيت الثورة بهذا الاسم. ولم تمض بضعة أيَّام حتَّى تطوَّرت الحركة واتَّخذت شكلاً بالغ الخطورة، إذ انضمَّ سكَّان الريف للثورة، بعدما أُرهِقَتهم الضرائب الفادحة؛ التي كانت تفرض عليهم دون رحمة، وأصبحت الثورة ثورة شعبيَّة عامرة، وطالب الثَّوار بعزل الوزراء المستبدِّين، وجزع جستنيان لما حدث من اضطراب، فلجأ إلى مفاوضة الثَّوار في بداية الأمر، وظهر بشخصه وأقسم أمامهم على رفع الظلم وعزل الفاسدين، ووعد بمحاسبتهم، لكنَّ ذلك كان بعد فوات الأوان، فقد زاد من غليان الثَّوار انضمام بعض النبلاء الذين يكرهون آل جستينوس إلى الثورة، وبلغت الثورة ذروتها عندما قام المتظاهرون بتتويج هيباتيوس Hypatius (ابن أخ الامبراطور أنسطاسيوس) إمبراطوراً، رغم إرادته في اليوم السادس من بدء الأحداث. أمَّا الإمبراطور جستنيان فصار محاصراً في القصر الإمبراطوري، وأضحى مركزه في غاية الحرج والسوء. وزاد من حرج الموقف أنَّ العاصمة البيزنطيَّة كانت خالية من الجند؛ لأنَّ حاميتها كانت قد أرسلت إلى الجبهة الشرقيَّة للاشتراك في الحرب الفارسيَّة، ولم يعد تحت إمرة الإمبراطور سوى ثلاثة آلاف جندي من الحرس الإمبراطوري فقط، وحوالي خمسمائة من الخيالة، وقليل من المرتزقة الجرمان. وعندما أراد الإمبراطور معالجة الموقف بالشدَّة،

١- مفتاح محمَّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٥-٥٦.

٢- ول. ديورانت، الدولة البيزنطيَّة في أوج مجدها، ج ٣، مج ٣، م.س، ص ٢١١.

وكلف قائده بليزاريوس على رأس القوّات الموجودة في العاصمة بالقضاء على الثورة، أبدى الثوّار مقاومة شديدة، ودار القتال حول الميدان الكبير، واشتعلت النار في مبنى مجلس الشيوخ وامتدّت حتّى قضت على كنيسة آيا صوفيا وكنيست سانت إيرين^[1].

أمام هذا الوضع الحرج جمع الإمبراطور جستنيان مستشاريه ووزرائه، واستشارهم في الإجراءات الواجب اتخاذها وتدارك الموقف، وخيّم الفرع على القصر الإمبراطوري، وربما وصل الإمبراطور إلى قناعة مفادها أنّ ترك العرش أهون عليه من فقدان حياته، وكان يشاطره هذا الرأي بعض من مستشاريه وضباطه، الذين سارعوا لشحن السفن للفرار مباشرة عن طريق البحر^[2]. لكن زوجته ثيودورا رفضت هذا الإذعان، وحرّضته بصورة قمع الثورة الشعبيّة بقوة السلاح، وكان لكلماتها أثر كبير في نفس الإمبراطور، فتحوّل إلى الثبات بدلاً من الفرار، وقرّر خوض غمار الحرب بدلاً من المفاوضة، وأمر بشنّ هجوم كبير على الثوّار^[3]. وقبل الهجوم العام على الثوّار قام نارسيس (الخصي الأرمني) بالتفاوض مع حزب الزرق وأغراهم ببعض الوعود المعسولة، مفرّقاً بذلك وحدة الثوّار، في حين باغت القائد العسكري بليزاريوس مع قوّاته ميدان السباق، وقضى على الساخطين دون رحمة في مذبحه كبيرة سقط خلالها آلاف منهم صرعى بسيوف الإمبراطوريّة؛ فدفعت العاصمة نحو أربعين ألف ضحيّة من أبنائها ثمن تشبّث هذه المرأة بكرسي السلطة، كما تمّ إعدام أقارب الإمبراطور أنسطاسيوس. وبذلك تمكّن الإمبراطور جستنيان من القضاء على الثورة بقوة الحديد والنار، ووطّد دعائم حكمه من دون الاكتراث للنتائج الكارثيّة والكبيرة والخسائر الفادحة الماديّة والبشريّة، فهو لم يُعر اهتمامه إلّا للبقاء في السلطة، ولو على حساب دماء أبناء بلده. وسعيّاً منه لصرف أنظار الشعب البيزنطي عن مشكلات هذه المذبحة وغيرها الكثير من المشاكل الداخليّة، سارع إلى تنفيذ مشاريعه العسكريّة في الغرب الأوروبي، ولا سيّما بعد تأمين الجبهة الشرقيّة باتفاقية سلام طويل الأمد مع الفرس^[4].

١ - محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، م.س، ص ٤٨، ٤٩.

٢ - مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٧.

٣ - محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، م.س، ص ٤٩.

٤ - مفتاح محمّد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٧.

سابعاً: سياسة جستنيان الخارجية

لقد كانت طموحات جستنيان لا محدودة، فاقت طموحات من قبله من الأباطرة، لكنّها كلّها كانت في جهة الغرب؛ إذ إنّ سياسته الخارجية انحصرت في محاولة استعادة أملاك الإمبراطورية الرومانية في الغرب، إذ أكدّ بصدق أنّه كان رومانياً متحمساً لاستعادتها، وإمبراطوراً لاتينياً في عواطفه وتوجّهاته، طامحاً لإعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية. لذلك شنّ جستنيان سلسلة من الحملات العسكرية على الوندال شمال أفريقيا، وعلى القوط الشرقيين في إيطاليا، وعلى القوط الغربيين في إسبانيا، وأجبر الأقاليم التي استعادها على الخضوع للتاج الإمبراطوري البيزنطي في القسطنطينية، وصار اسمه يرد في المراسيم أنّه إمبراطور الفرنجة والجرمان واللان والأفريقيين^[1].

لقد تعرّض الإمبراطور جستنيان إلى كثير من النقد في سياسته الخارجية وفي كلّ ما يتعلق بأفكاره السياسية باستعادة السيادة الرومانية على الأقاليم الغربية التي استولى عليها البرابرة الجرمان، فقد اعتُبر كثير من المؤرّخين سياسته هذه وهماً عسير التحقق، باهظ التكاليف، وأنّ ضررها كان أكثر من نفعها، وأنّ جهوده العسكرية في الغرب من أجل تحقيق أطماعه الشخصية لم تكن إلّا فانتازيا طفولية، إذ تناول الواقع السياسي في رؤية غير مألوفة^[2]، فهذا الإمبراطور الذي رسم لنفسه هذه السياسة الخارجية، لم يخطر في باله قطّ أن يتساءل فيما إذا كانت هذه الحرب المزمع شنها لاسترداد الغرب في صالح شعبه ورفاهيته أم لا، طبعاً لأنّ هذه لم تكن طريقة الأباطرة البيزنطيين في التفكير. لا بل إنّ جستنيان لم يفكر حتّى فيما إذا كانت الدولة البيزنطية أصلاً تملك من الموارد وطاقات وإمكانات ما يكفي لشنّ هذه الحرب الباهظة التكاليف لاسترداد الغرب، مع تجاهل تهديد الجرمان والمغول والسلاف لجهة البلقان، وتجاهل تهديد الفرس لأمن الإمبراطورية على الجبهة الشرقية^[3]. وهكذا ضعفت قوة الدفاع البيزنطي على الجبهتين الشرقية والشمالية بسبب الانشغال بالجبهة الغربية، ففشلت

١ - محمد الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٤٢.

٢ - إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ١٣.

٣ - نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، القرن الثالث - القرن التاسع الميلادي، ترجمة: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢٢٠.

القوات البيزنطية في حربها مع السلاف والفرس^[١]، لا بل إنَّ جستنيان قبل أن يوقع صلحاً مهيناً مع الفرس -كما أسلفنا- حتَّى يتسنى له أن ينفذ هذه السياسات الطموحة في الغرب^[٢].

لقد تحمّلت إيطاليا في أثناء حروب جستنيان المريعة ألواناً من الخراب الذي ليس بعده خراب؛ لأنَّ جيوش بيلزاريوس ونارسييس لم تك رومانية إلاَّ أسماً فقط، بل اعتبرها الإيطاليون (وهم رومانيون أصليون) أكثر أجنبية عنهم من جند القوط الذين استقروا في إيطاليا. لقد عانت إيطاليا من مشاريع جستنيان؛ الكثير من الولايات ولدينا صور تدلّ -على الرغم ممّا فيها من مبالغة- على نزول بؤس شنيع ببقاع إيطاليا لم يماثله بؤس، كما تدلّ على زوال أعداد هائلة من السكّان، واضطرار الفلاحين إلى العيش على ثمار القسطل والحشائش، فضلاً عن أكل لحم البشر في بعض الأحوال. أمّا روما التي تحمّلت آلام الحصار خمس مرات في تلك الحقبة، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك النضال، إذ اختفت العاصمة الصاخبة، واندثرت الحمامات العامة الفخمة، وذهبت مراكز توزيع الأغذية بالمجان، وصمت الملاهي الشعبية، وحلّ محلّ ذلك كلّ مدينة حزينه كئيبة، ليس بها من أهلها سوى فئات، معظمها من رجال الدين، تعلوها غبرة من شدة ما نزل بها من الفقر. وصارت مدينة روما مدينة تحيطها أرض سبخة خربة، تغشاها المياه الأسنة والمalaria، ولم يعد لمجلس الشيوخ الروماني وجود، ولم يبق من ملعب السباق إلاَّ آثاره من العمد والحجارة، وانتهت أيام المواكب والاحتفالات، وباتت التجارة معدومة، وخيّمَت الوحامة على روما^[٣]. وزاد من تعاسة أهل إيطاليا أنَّ جستنيان قام بإرسال لجنة لإعادة تنظيم الإدارة المالية في إيطاليا سنة ٥٤٠م، كان على رأسها إسكندر الذي استعمل كلّ وسائل العنف والقسوة في تقدير وجباية الضرائب بأثر رجعي منذ سقوط إيطاليا في يد البرابرة الجرمان، لقد أدّت هذه القسوة إلى تحوّل مشاعر الكثير من سكّان البلاد الأصليين (الرومان) بعيداً عن الإمبراطورية البيزنطية^[٤]. وأمام هذا الواقع المرير كان «إمبراطورنا العظيم» يفخر بمنجزاته، كان يتحدث منفصلاً عن واقعه وما يحيط به من أحداث، ومصدق ذلك قوله: «إنَّ الله هيأ لأن نعاهد الفرس على الصلح، وأنَّ

١- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ١٠٥.

٢- محمد الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٤٤.

٣- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٠-٥١.

٤- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٧٨.

نخضع الوندال والمغاربة، وأن نستردّ جميع إيطاليا وصقلية، وليس لنا إلا أن نستعين بالله ليهبنا بقيّة الإمبراطورية التي مدّها الرومان في سالف العصور إلى أطراف البحار، ولم يذهبها عنهم سوى البلادة والخمول»^[1].

لقد بدأت الحرب وانتهت، وكانت هذه هي لحظة «المجد والعظمة» التي شعر بها جستنيان، ولكن سرعان ما تبدّد الوهم^[2]؛ فتحقيق تلك الأطماع الواسعة ظهر جلياً أنه لم يكن في طاقة جستنيان، أو في طاقة الدولة البيزنطية وما تملكه من موارد وقدرات، وبدا أن الاحتفاظ بإيطاليا وأفريقيا وبعض موانئ إسبانيا، كان أمراً مستحيلاً، فضلاً عن صعوبة استرداد غالة وبريطانيا^[3]. كل ذلك جرّ على الناس في الدولة البيزنطية وإيطاليا وأفريقيا مصائب كارثية في ظلّ توسّعات عسكرية عقيمة ومجد زائل. إن هذه الانتصارات الناتجة عن ظروف عابرة، وليس عن قوّة ثابتة تسبّبت هي نفسها في إتلاف كلّ شيء. فبينما كانت الجيوش البيزنطية مشغولة بها، اجتازت الدانوب أقوام لم يسمع اسمها من قبل. دمّرت إيليرا ومقدونيا واليونان^[4]. وما إن وضعت الحرب أوزارها في إيطاليا حتّى نقض كسرى فارس اتفاقية السلام مع الإمبراطورية البيزنطية، ثمّ قام بغزو سوريا في السنة ذاتها (٥٤٠م) ملحقاً بها خسائر فادحة، حتّى إنّه استولى على عدد كبير من مدنها ونهب مدينة انطاكية دون أن يعترضه أحد. وفي السنة التالية هاجم الفرس الجزء الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى؛ إقليم لازيكا Lazica واستولوا على قلعة بترّا Petra، وفي السنة ذاتها أيضاً قام القوط الشرقيون الذين كانوا فيما يبدو على اتصال بالفرس، باستئناف القتال ضدّ البيزنطيين في إيطاليا بقيادة قائدهم القدير توتيلّا^[5] Totila. وبعد انهيار معاهدة السلام الدائم مع الفرس خشي جستنيان من تمرّد اليهود، فأصدر مرسوم نوفلا (في سنة ٥٤٢م) ليأمن جانبهم، إذ خفّف القيود المفروضة عليهم وأعطاهم الحرية في التصرف بثرواتهم، وأعطاهم حقّ كتابة الوصية، ومنح التبرّعات، والتصرف في العبيد، وإبرام العقود المتبادلة^[6].

١- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥١.

٢- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١١.

٣- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥١.

٤- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٠.

٥- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٧٥.

٦- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١١.

لقد بدأ جستنيان سعيه الدؤوب إلى تهدئة الوضع على الجبهة الشرقية، إذ إنه لم يكن راغباً في أن يفسد عليه الفرس مشاريعه وسياسته الخارجية، التي جعلها سياسة غربية بحته، وسرعان ما نجح في إقناع الملك الفارسي في سنة ٥٤٥م بعقد هدنة لمدة خمس سنوات، مقابل أن تدفع الحكومة البيزنطية مبلغ خمسة آلاف رطل من الذهب. واضطر إلى تجديد الهدنة مع الفرس مرة ثانية في سنة ٥٥١م، ومرة ثالثة في سنة ٥٥٧م، وأخيراً عقد جستنيان مع الملك الفارسي في سنة ٥٦٢م اتفاقية سلام لمدة خمسين عاماً، وفيها تخلى كسرى عن كل ما كان قد استولى عليه من قلاع في إقليم لازيكا، وتعهّد جستنيان في مقابل هذا بدفع مبلغ ٣٠ ألف صلدى كل سنة كجزية للفرس^[1].

وإذا كان قد تمّ احتواء الخطر الفارسي على الجبهة الشرقية من قبل جستنيان بدفع الجزية صاغراً، فالتدهور على الجبهة الإيطالية كان مستمراً، فبقدر ما كانت فتوحات جستنيان سهلة كان الحفاظ على مكاسبها أمراً شاقاً. فما إن تمّ غزو إيطاليا وأفريقيا حتى اضطرّ البيزنطيون إلى غزوها مجدداً^[2]، ولا سيّما بعد الانتصارات التي أحرزها توتيل، إذ أدرك جستنيان خطورة الموقف، وبالتالي كان لا بدّ من تركيز كلّ الإمكانيات والموارد من أجل استرداد إيطاليا من جديد، ولكنّ استرداد إيطاليا كان هذه المرة مهمة أصعب، وتطلّب كثيراً من الجهد وسفك الدماء، ولم يستطع بليزاريوس تحقيق الكثير بسبب نقص العدة والعتاد. فاضطرّ الإمبراطور إلى حشد كامل إمكانات الدولة في جيش جرّار أسند قيادته إلى الخصي الأرمني نارسيس، الذي تولّى القيادة العليا في إيطاليا، وفي ربيع سنة ٥٥٢م التقى نارسيس بجيش القوط على رأسه توتيل الذي سقط قتيلاً في ساحة القتال، كما أحرز نصراً ثانياً في شهر أكتوبر من العام ذاته. ومع حلول سنة ٥٥٥م، تمّ القضاء على آخر معاقل المقاومة القوطية في الشمال^[3].

إذاً، لقد تمّ إنهاء حكم القوط لإيطاليا وصقلية بعد حرب أهلية استمرت نحو ٣٠ سنة، لم يتمكنّ قبلها البيزنطيون من القضاء نهائياً على مقاومة القوط الشرقيين، وقد عرفت هذه الحرب باسم «الحرب القوطية»؛ عانت خلالها إيطاليا من ضربات قاسمة لم تقف منها حتى

١- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٧٦.

٢- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٠.

٣- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٧٧.

القرن العاشر^[1]، فسكّان إيطاليا الرومان الذين عاشوا في ظلّ الحكم القوطي، سرعان ما وجدوا هذا الحكم ينتهي بعد أهوال حرب تحرير مريّة على ترابهم، دفعوا فاتورتها قبل غيرهم من دون أن يكون لهم مصلحة بها، فقد حلّ في بلادهم الخراب والدمار وأحاطت بهم الفوضى؛ فمنذ منتصف القرن السادس حدث انهيار ملحوظ في الحياة الحضريّة، فالتجارة توقّفت، وهجر الفلاحون حقولهم وتركوها بلا زراعة، وبدأت روما لبضع الوقت مدينة محطّمة ليس لها أي قيمة سياسيّة^[2]، وأخذت كبريات المدن الإيطاليّة مثل روما و نابولي وميلانو تعاني من نقص مخيف في السكّان، وتحوّلت مدن البحر المتوسط إلى مدن خاملة، وهكذا فقدت إيطاليا مكائنها كزعيمة لأوروبا على الصعيد الثقافي الاقتصادي، ولم تبدأ باسترداد هذه المكانة إلّا في أواخر القرن الحادي عشر^[3].

لقد كان من أخطر كوارث السياسة الخارجية البيزنطيّة في عهد جستنيان قضاءه على القوط الشرقيين في إيطاليا، فلو استعان بهم وثبّت ملكهم على إيطاليا، لكان خير له ولأوروبا من القضاء عليهم، فمن المعروف أنّ القوط الشرقيين هم من كان يحمي إيطاليا من غزوات القبائل الهمجيّة الضاربة فيما وراء الألب، وأنّهم احترمو القواعد والقوانين الرومانيّة، وعملوا على مراعاتها في إخلاص لا يقلّ عن إخلاص الأباطرة الرومان أنفسهم، فلم يصدر الملك ثيودوريك أو أحد ممّن جاء بعده من ملوك القوط الشرقيين قانوناً جديداً. كما احترمو المعتقدات الدينيّة للجميع في إيطاليا، فلم يحملوا إيطاليا على اعتناق المذهب الأريوسي، ولم يطلبوا من قوطي اعتنق المذهب الكاثوليكي أن يرجع إلى الأريوسيّة. وحافظوا على الوظائف المدنيّة للإيطاليين. وهنا تتّضح جسامّة الخطأ الذي انتهت له سياسة جستنيان الخارجية بالقضاء على دولة القوط الشرقيين، فلو أنّهم تركوا وشأنهم لما فتحت أبواب إيطاليا الشماليّة على مصراعها للغزاة اللومبارديون، ولمّا قامت دولة البابويّة في روما، وما أحييت الإمبراطوريّة الرومانيّة في الغرب، بل ربّما تحقّقت على أيديهم الوحدة السياسيّة لإيطاليا منذ القرن الثامن^[4].

١- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٤.

٢- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة، م.س، ص ٨٠.

٣- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٤.

٤- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٢.

وبينما كان جستنيان مشغولاً بالقتال على الجبهة الغربية وعقد الهدن على الجبهة الشرقية، وجد اليهود فرصة سانحة للثورة على جستنيان، فاضرموا نار الفتنة للمرة الثانية سنة ٥٥٦ م وسارع الذين كانوا في الأمس يظهرون اعتناق الديانة المسيحية بذبح الكثير من المسيحيين في فلسطين، وأحرقوا الكثير من الكنائس، ولا سيما في مدينة قيصرية في فلسطين، غير أن الإمبراطور جستنيان اتبع معهم هذه المرة حرب إبادة لا هوادة فيها وألحق بهم أشد أنواع العذاب، وأعدم زعماء الثورة على الفور وصادر كل ممتلكاتهم، وأصدر الإمبراطور قراراً حرمهم فيه من حق الميراث، ومن اقتناء العبيد وحذرهم بالنفي مدى الحياة في حالة التظاهر باعتناق المسيحية على سبيل الخداع^[1].

أما الإمبراطورية البيزنطية التي أوقفت جميع جهودها لتحقيق أطماع جستنيان في الغرب، فلم تكن بمنجاة من مختلف الأخطار والإهانات في ميادين القتال، ففي عهد جستنيان بالذات كاد الهون أن يستولوا على القسطنطينية، واستولى الصقالبة على أدرنة فعلاً، كما نهب الفرس مدينة أنطاكية، وبدأت الإمبراطورية عاجزة عن حماية قرية واحدة من قرى شبه جزيرة البلقان من عبث البرابرة، مع استعدادها لإرسال جيش بعدته وعتاده إلى إسبانيا في أقصى الغرب الأوروبي، وتفكير الإمبراطور في مشروعات ضخمة لغزو غاليا وبريطانيا^[2]. لا بل إن الإمبراطور فعلاً سحب الفرق العسكرية المرابطة في البلقان، وزوج بها في القتال في إيطاليا، فاستطاع السلاف عندها أن يجتازوا اليونان إلى منطقة البيلوبونيز على دفعات متعددة، واستقروا بكثرة عند مدينة تسالونيكي، المدينة التي تركتها الدولة البيزنطية وشأنها لحماية نفسها من هجمات هؤلاء السلاف المتكررة عليها^[3]. إن قصر نظر السياسة الخارجية في عهد جستنيان، تجلّت في سوء تقدير الأولويات؛ فحين تطلّب الوضع السياسي تركيز الاهتمام على حماية الأطراف القريبة من ناحية الشرق وشبه جزيرة البلقان، والعناية بأحوالها الأمنية والاقتصادية، عمّد الإمبراطور جستنيان إلى صرف الأموال الطائلة لتحقيق مشروعاته البعيدة في الغرب؛ التي أخسرت الدولة عشرة ملايين إنسان في إيطاليا وإفريقيا، وفق تقديرات أحد المؤرّخين المعاصرين له^[4].

١- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١٢.

٢- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٣.

٣- جان كلود شينية، تاريخ بيزنطة، ترجمة: جورج زيتاني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي ٢٠٠٦ م، ص ٥١.

٤- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٣.

وهكذا رغم أنَّ حروب جستنيان في الغرب، كلفت الإمبراطورية البيزنطية الكثير من المال والرجال، إلاَّ أنَّ نتائجها لم تكن دائمة، بل زائفة وآتية، فتوسَّعاته انهارت بعد وفاته سنة ٥٦٥م، لا بل تسبَّبت في إرهاب خزينة الدولة وهدر مواردها^[١]. لقد توارى جستنيان تاركاً لخلفائه إمبراطورية منهوكة القوى مضطربة الأوضاع متصدعة الأركان على الصعيدين الداخلي والخارجي، حدًّا وصل بخلفاء هذا الإمبراطور أنَّهم لم يجدوا بعده من الرجال والأموال ما يكفي للحفاظ على الحدود الشرقية؛ ففي الشرق تجدد الصراع بين الفرس والبيزنطيين من أجل السيطرة على أرمينيا وأعالي بلاد الرافدين. وفي البلقان أخذت القبائل السلافية والآفارية تحتل الأراضي البيزنطية وتتوطَّن فيها في تحدٍّ سافر للإمبراطورية^[٢].

لقد كانت نتائج حكم جستنيان الكارثة في الغرب (وتحديداً في إيطاليا) أسرع منها في الشرق، فما أنَّ دخلت إيطاليا تحت الحكم البيزنطي، حتَّى اندفع شعب جرمانى جديد عبر الدانوب ليغزو شمال إيطاليا في سنة ٥٦٨م، وهو شعب اللونجبارديين Logobardi أو اللومبارديين Lombardi، وهم أكثر الأقوام الجرمانية بدائية وهمجية^[٣]. ورغم أنَّ اللومبارديون كانوا جزءاً من الجيش البيزنطي الذي غزا إيطاليا لحساب جستنيان، إلاَّ أنَّهم انقلبوا على التاج البيزنطي بعد أنَّ أحسَّوا بالضعف الذي اعتراه، فمنذ سنة ٥٦٨م اجتاحتها شبه الجزيرة الإيطالية التي كان يعرفها الكثيرون منهم، واستقرَّوا سريعاً في سهل بو Po في شمال إيطاليا، ثمَّ نجحوا في خلق إمارة لأنفسهم، محطمين بذلك وحدة إيطاليا البيزنطية^[٤]، فما إنَّ مضت ثلاث سنوات على موت جستنيان، حتَّى كان هؤلاء الغزاة اللومبارديون قد تمكَّنوا من إقامة دولة لهم في إيطاليا، إلاَّ أنَّها لم تكن شبيهة بدولة القوط الشرقيين، كما أنَّهم لم يحكموا كامل إيطاليا وإنَّمَا شمالها فقط. بينما بقي البيزنطيون مسيطرين على قلعة رافنا، وقبض الله للعرب المسلمين فتح جزيرة صقلية في الجنوب، وكذا تنازع إيطاليا منذ وفاة جستنيان أربع قوى هم المسلمون والبيزنطيون اللومبارديون والبابا، ولم تعرف إيطاليا

١- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ١٣.

٢- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٢.

٣- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكرة، م.س، ص ٢٢٧.

٤- جان كلود شينية، تاريخ بيزنطة، م.س، ص ٥٠.

الوحدة مرة ثانية إلا في فترة متأخرة من القرن التاسع عشر^[1].

وأما في شمال أفريقيا التي أخضعها جستنيان في مطلع حكمه، فقد استمرت ثورات السكّان الأصليين ضدّ الحكم البيزنطي حتّى الفتح العربي الإسلامي^[2]. وقد دأب البربر على الخروج من حصونهم الجبلية في غارات للسلب والنهب ضدّ البيزنطيين، واستمرت هذه الغارات لفترة طويلة، ومما ساعد على إنزال الخسائر بقوّات جستنيان أنّ خطط القتال لدى البيزنطيين الذين كانوا يحاربون وفق قواعد عسكرية منظّمة، لم تكن صالحة للبربر راكبي الأبل، يضاف إلى ذلك أنّ طول القتال أدّى إلى تدمر القوّات البيزنطية، ولولا العداوات القبليّة، ولولا الشقاق الذي وقع بين شيوخ البربر، لتمكّن هؤلاء من القضاء على القوّات البيزنطية^[3]. بينما في إسبانيا، شرع القوط الغربيّون يشنّون هجمات معاكسة على القوّات البيزنطية، فاستطاعوا استعادة الأراضي الإسبانيّة التي احتلّها البيزنطيّون في عهد جستنيان^[4].

وهكذا يبدو أنّ ثيودورا زوجة الإمبراطور اليونانية، فهِمت عن الوضع السياسي ومقتضياته أفضل ممّا استطاع زوجها اللاتيني أن يفهم عنه، إذ إنّها أدركت أنّ قوّة الإمبراطوريّة الشرقيّة - في وضعها الجغرافي - تتركز إلى مقدار ما تستطيع أن يكون لها من السيطرة على موارد آسيا الصغرى وسوريا ومصر، وأنّه مهما اتّفق لها من انتصارات وتوسّع عسكري في الغرب، فلن تعوّض تلك الانتصارات عن فقدان الأناضول وأهله، ومصر ومحاصيلها الزراعيّة، وسورية وثروتها من المال والرجال^[5].

ثامناً: جستنيان والاستبداد القيصري البابوي

لقد أظهرت الكنيسة في الغرب العداء للملوك والأمراء الجرمان لاعتقادهم بالمذهب الآريوسوسي (قبل أن يتحوّلوا إلى المذهب الكاثوليكي فيما بعد)، وانتقصت من شأنهم لما كانوا عليه من وضاعة الثقافة، وتخلف في الحضارة، وعجز في الإدارة، ولذا نفرت من

١ - نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٨.

٢ - نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٢.

٣ - محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٥٧.

٤ - نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٢.

٥ - فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٣.

وصايتهم ولم ترَضَ منهم أيّ رعاية. بينما كان وضع مختلفاً في الشرق، فالدولة هي تجسيم لإدارة حكومة قسطاسها الدين، والكنيسة تنعم برعاية الدولة؛ التي لا تقلّ عن الكنيسة نفسها مسيحيّةً. وهذه الكنيسة تلقت من أبنائها المؤمنين ومن الدولة نفسها ما أفاء عليها من الغنى والسلطان، وبتاركتها ولا سيّما بطريك القسطنطينيّة هم أقطاب جذب ووزن، والكلمة الأخيرة فيما بينهم للإمبراطور، حتّى في أمور الدين، مهما كان رأي البابا القابع بعيداً في روما^[1]. وفي هذا يقوم ما اصطُح مؤرّخو العصور الوسطى على تسميته بـ«القيصريّة البابويّة» Cesaropapismo؛ ذلك الشكل السلطوي الذي جسّد علاقة الدولة بالكنيسة، وعبرَ عن اتحاد السلطتين الزمنيّة والروحيّة في شخص الملك، ما حوّل الكنيسة إلى مؤسّسة خاضعة للدولة وأداة للتعبير عن إرادتها^[2].

لقد زادت المسيحيّة من سلطة الإمبراطور وسطوة الدولة بصورة واضحة بعد التحوّل التدريجي للمسيحيّة، بينما كان الإمبراطور الروماني في ظلّ الديانة الوثنيّة الكاهن الأعلى أو الحبر الأعظم، صار في ظلّ الديانة المسيحيّة الأسقف الأعلى، لكنّ سلطاته أصبحت تفوق ما كان له في الوثنيّة، فقد خاطب الإمبراطور قسطنطين يوماً جمعاً من الأساقفة بقوله: «حقاً إنكم أساقفة، لكنّ سلطانكم داخل الكنيسة، أمّا أنا فقد رسمني الله أسقفاً لأرعى أولئك الموجودين خارج الكنيسة»، ومن خلال كلمات قسطنطين هذه يتّضح أنّ صلاحيات الإمبراطور في زمن المسيحيّة فاقت صلاحياته في زمن الوثنيّة، فبينما كان لقب الكاهن الأعظم مجرد لقب شرفي تقليدي لا تصل صلاحياته إلى الممارسة العمليّة في العقيدة الوثنيّة، كانت صلاحيات الإمبراطور الروماني المسيحي تفوق صلاحياته عملياً رئيس الأساقفة في القسطنطينيّة، بل والبابا نفسه في روما، وأصبح الإمبراطور يتدخّل في كلّ أمور العقيدة بالحذف والإضافة، وغدت الكنيسة دائرة من دوائر الدولة تتبع الإمبراطور مباشرة، وأسقفها موظّف عنده؛ يعينه ويعزله متى شاء، وإذا كان التيار الروماني الوثني قد رفض أن تحصل الكنيسة على أيّ كيان داخل الإمبراطوريّة، أو بتعبير أدقّ دولة داخل دولة، فإنّ التيار الروماني المسيحي كان أشدّ إصراراً على رفض هذا التعبير، ورفض أيّ استقلال للكنيسة عن

١- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٨.

٢- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى ومسألة فصل الدولة عن الكنيسة، مجلّة التفاهم، د.ت، ص ٣٧.

سلطة الدولة، رغبةً منه في السيطرة على الدولة بكاملها^[1].

وإذا استعرضنا تاريخ العلاقات بين الكنيسة والدولة في العصور الوسطى سنجد أنَّ عصر جستنيان يمثل ذروة تدخل النفوذ الإمبراطوري في شؤون الكنيسة^[2]؛ فقد سار جستنيان على خطا قسطنطين حين اعتبر شؤون الكنيسة والدولة أمرين يعتمد كلٌّ منهما على الآخر، تحت حكمه المطلق^[3]، فالإمبراطور جستنيان كان رأي في انتظام أحوال الكنيسة؛ دعامة صُلبه للملك، لذلك ضمَّ الكنيسة داخل إطار عمل الدولة، والمقصود هو أن تصبح كنيسة الدولة State Church؛ ليس تحت الحماية الخاصة للدولة فقط، بل تخضع لإدارتها؛ وذلك لأنَّ أهداف كلٍّ منهما مماثلة؛ فكلاهما تستميل العالم من أجل المسيح، فالعالم المسيحي Oikoumene بالنسبة له مثل إحياء السيادة الرومانية Imperium Romanum، إذ إنَّ جستنيان كان حريصاً على إقرار الوفاق بين السلطتين. وليس هناك إمبراطور من الذين سبقوه أو جاؤوا بعده، كان له مثل سلطته على الكنيسة، فقد كان جستنيان الحاكم المسيحي المشبع بالإحساس بالمصدر الإلهي لسلطته الإمبراطورية، فهو الرجل المنتخب بفضل العناية الإلهية ليحكم المجتمع المسيحي. وهكذا أصبح جستنيان رئيساً للدولة ورئيساً للكنيسة في آن واحد، وهو ما يطلق عليه اسم الاستبداد القيصري البابوي، أو ما يعرف اصطلاحاً بـ«القيصرية البابوية»، التي جسدها جستنيان خير تجسيد، عندما جمع في شخصه السلطتين الزمنية والروحية، وقام بدور الإمبراطور وبدور البابا في الوقت نفسه^[4].

لقد كان حلم جستنيان أن يكون حاكماً على المدينة الخالدة (روما)، وعلى كنيستها، وأن ينال ما ناله البابا من سلطة روحية، لذلك لم تهدأ عواطفه حتّى احتلَّ كامل إيطاليا، مدفوعاً بتقاليد الحكم الأوتوقراطي، وبجوّ البلاط المحموم، الذي كان يقدّس الإمبراطور ويرفعه إلى مرتبة نائب الجلالة السماوية^[5]. كما أنَّ جستنيان كان شديد الإيمان بكنيسة

١- عبد العالي علي الفيتوري، الإمبراطور قسطنطين والمسيحية، بحث معدّ لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، ليبيا، جامعة المرقب ٢٠٠٨م، ص ١٧٣-١٧٤.

٢- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٦١.

٣- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٩٠.

٤- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٦١، ٦٢.

٥- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكورة، م.س، ص ٢٢٠.

جامعة، لذلك كان في بداية (...يوجد نقص) حريصاً على أن يوطّد علاقته بكنيسة روما بالوسائل الدبلوماسية؛ فاعترف صراحة بما لكرسي روما من سُلطة عليا على باقي الكنائس في إمبراطوريّته، وفي كتابه للبابا نيقولا الثاني خاطبه: «برأس كلّ الكنائس المقدّسة»، ووصف روما بأنّها «بلا شكّ هي مقرّ البابا الأسمى .. ومنبع اللاهوت». وإنّ «البابا المقدّس لأبرشيّة روما يجب أن يكون له أولويّة على كلّ رجال الدين»، كما أوضح «إنّ الأباطرة يجب أن يخاطبوا أسقف روما كما لو كان أباهم الروحي»، وكان هو يخاطب أسقف روما على أنّه «البابا» و«البابا البطريك» و«الأب الرسولي»، وقد قصر لقب «البابا» على أسقف روما فقط. في الواقع لم يكن كلّ هذا الغزل والكلام اللطيف الذي كاله جستنيان للبابا، إلّا محاولة منه للسيطرة على البابويّة، وجعلها مؤسّسة ملحقّة بالدولة البيزنطيّة أو تحت سلطتها، أي إنّ جستنيان لم يكن لديه أيّ نيّة للإضرار بحقوق الإمبراطور في حكم المجتمع المسيحي^[1].

إذ إنّ الإمبراطور جستنيان لم يكتف بالسيطرة على كنيسة القسطنطينيّة، بل قام بمحاولة جادّة للسيطرة على البابويّة في روما، وهي خطوة لم يقيم بها من قبله أو بعده أحد من الأباطرة الشرقيين، وذلك عندما دعا إلى عقد مجلس عام يضمّ أساقفة الغرب، ووافق المجلس على المبادئ التي وضعها الإمبراطور جستنيان، الذي نصّب من نفسه ملكاً وكاهناً أعلى، حدّاً وصل معه الحال إلى التسلّط على مؤسّسة الكنيسة، بإصداره الكثير من القرارات والأوامر الإداريّة، فضلاً عن تدخّله في المسائل اللاهوتيّة، كما فرض آراءه على المجمع المسكوني الخامس، وهي سابقة خطيرة ما درج عليها أحد من أباطرة بيزنطة منذ أن انعقد مجمع نيقيا الأوّل، وبهذا الأسلوب أصبح المتسلّط والدكتاتوري في المجال الديني، مجسّداً «القيصريّة البابويّة» مرّة ثانية، إذ كان جستنيان لا يقبل بأقلّ من خضوع السلطة الكهنوتيّة للسلطة الإمبراطوريّة^[2]، وهكذا جمع جستنيان ما بين الاستبداد الروماني والجبروت الكنسي^[3].

أمّا الكنيسة فقد أظهرت موافقتها لمقرّرات الإمبراطور؛ لأنّه السند الأقوى والأعلى الذي حرّرها من الاضطهاد وجعل كلمتها العليا على كلّ الديانات الأخرى، ومن هنا تشكّلت الولادة

١- إسمت غنيم، إمبراطوريّة جستنيان، م.س، ص ٦٣-٦٤.

٢- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١٧.

٣- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٨.

الحقيقية لـ «القيصرية البابوية»، حدًا وصل إلى حقّ أصدر جستنيان لعدد من القرارات فيما يخصّ الأمور الدينية؛ منها انتخاب الأسقف من بين ثلاثة مرشحين لهذا المنصب. وضرورة إصدار القرارات للمجامع الكنسية بقوة القانون الإمبراطوري، شرط عدم معارضتها لقرارات المجامع الكنسية السابقة، مع الالتزام بالثالوث المقدّس. ومن خلال ذلك أعلن البطريك ميناس سنة (٥٣٦م) بأحقية جستنيان في الهيمنة على الكنيسة، وذكر أمام المجتمعين أنّه لا يصحّ أن يحدث شيء بالكنيسة على غير أوامر وإرادة الإمبراطور^[1]. وهكذا يجد المتابع أنّ جستنيان بقي هو السيّد الأعلى للكنيسة، الأمر الذي منحه العديد من الامتيازات الدينية، فهو الذي يعقد المجامع، ويرأسها بشخصه أو عن طريق أحد نوابه، ويشترك فيما ويشارك بما يدور فيها من مناقشات لاهوتية، وهو الذي يجيز القرارات وينشرها في شكل مرسوم رسمي، ولديه نفوذ قويّ لاختيار البطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة. وهو الذي يؤلّف تراثيل الكنيسة، وينشئ الأبرشيات، ويعين فيها المطارنة. ولكن في الأمور الدينية البحتة (العقيدة) يترك الكلمة الأخيرة فيها لأسف روما^[2]. ويبدو ممّا تقدّم أنّ سلطة الدولة الشوقراطية ووصلت ذروتها في عهد جستنيان فأصبحت الكنيسة إحدى مؤسسات الدولة، التي تجسّدت في شخصيّة جستنيان؛ الذي كان إمبراطورًا وكاهنًا أعلى في الوقت نفسه^[3].

على أنّ تحقيق وحدة الكنيسة بين الغرب والشرق، بين روما والإسكندرية وأنطاكية كان يعتبر أمراً مستحيلاً. كما أنّ الخلاف حول تفسير طبيعة السيّد المسيح عليه السلام، زاد من اتساع الهوة بين الكنائس الشرقية والغربية. ولمّا كانت الأقاليم الشرقية تشتمل على عدد كبير من أصحاب الطبيعة الواحدة وكان إرضائهم يغضب روما، في حين كان إرضاء روما يغضبهم^[4]. أمّا ثيودورا التي كانت من أنصار الطبيعة الواحدة في السيّد المسيح عليه السلام، فإنّها تأمرت مع شماس روماني يدعى فيجيلوس وعرضت عليه أن تنصبه بابا إذا قبل ببعض مطالب اليعاقبة، وأثمرت هذه المؤامرة عن عزل البابا سلفريوس من روما سنة ٥٣٧م على يد القائد العسكري بليزاريوس، وتمّ نفيه إلى جزيرة بلماريا وهناك لقي حتفه ممّا لقيه من

١- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١٧.

٢- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٦٤.

٣- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١٧.

٤- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٥٩.

قسوة، ونصب فيجيليوس بابا في مكانه بأمر الإمبراطور، وقبل الإمبراطور جستنيان آخر الأمر برأي ثيودورا القائل بأن «مذهب اليعاقبة لا يمكن القضاء عليه»، وهكذا وجد جستنيان نفسه بين شرين^[١]؛ شر الابتعاد عن روما وعن الكنيسة الأرثوذكسية في القسطنطينية من جهة، وشر مناوئة الولايات الشرقية (سورية ومصر) واستعدادها للانفصال عنه من جهة ثانية. ورغم محاولات جستنيان وتوجيه من زوجته ثيودورا؛ كسب ولاء وود الولايات الشرقية، إلا أنه فشل في ذلك، وظلّ ولاؤهم لحكومة القسطنطينية يضعف تدريجياً، ولا سيما في سيكون ذلك عاملاً مساعداً على الفتوحات الإسلامية فيما بعد^[٢].

وأخيراً أمر الإمبراطور جستنيان البابا فيجيليوس بالمجيء إلى القسطنطينية والعمل على نشر مذهب الطبيعة الواحدة، فوصلها في ٥ يناير ٥٤٧م، وعندما سمع الأساقفة بهذا الأمر انتفضوا عليه، وحددوا للبابا فيجيليوس مهلةً للتراجع عما عقد العزم عليه، وإعلان الندم والرجوع إلى جادة الصواب، فتراجع فيجيليوس فوراً عما أمره به جستنيان، وأعلن عن ندمه، فأرغمه جستنيان على البقاء في القسطنطينية، عقوبة له على عدم امتثاله لأوامر الإمبراطور، فطرح البابا على الإمبراطور أن يعقد مجمعاً مسكونياً في صقلية أو في إيطاليا، ويبدو واضحاً قصد البابا، بينما أصرّ الإمبراطور على عقد المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية، فتدهورت العلاقات بين البابا والإمبراطور. وبهدف تخفيف حدة النزاع الجديد دعا إلى انعقاد المجمع المسكوني كل من بطريك القسطنطينية وبطريك أنطاكية وبطريك الإسكندرية، ونائبين عن بطريق القدس، وكان الحضور ١٦٥ أسقفًا، وكان البابا فيجيليوس ما يزال في القسطنطينية فرفض حضور المجمع أو ترأس جلساته، فحلّ محله بطريك القسطنطينية، أما المدير الفعلي للمجمع فكان جستنيان، والذي أقرّ كل ما يريده من قضايا، لا بل إنه صاغ مقررات المجمع بنفسه، واستمرّ انعقاد الجلسات حتى ٥ مايو ٥٥٣م، وبعدها قرّر الإمبراطور الانتقام من البابا، الذي احتفى بالكنيسة وربط نفسه بعمود المائدة، إلا أن جنود الإمبراطور لم يكثرثوا بالأمر، وعندما سحبوه انسحب العمود معه وسقطت المائدة. ونفى الإمبراطور البابا إلى إحدى الجزر في بحر مرمرة في ٢٠ فبراير ٥٥٤م، إلا أن

١ - نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ٧.

٢ - إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٩٦.

البابا أصابه مرض الحنين إلى وطنه إيطاليا، فوافق البابا على مقررات المجمع المسكوني الخامس، مقابل أن يعيده جستنيان إلى إيطاليا، لكن الإمبراطور رفض العرض، ولم يوافق عليه إلا بعد أن مرغ أنف البابا بالتراب^[1].

تاسعاً: الأحوال الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية في عهد جستنيان

لقد اعتاد المؤرخون على أن يصوروا عهد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥ م) على أنه العصر الذهبي للمدينة البيزنطية، وهذا خطأ في الرأي ووهم لا سند له ولا دليل عليه. يجب رده أصلاً إلى الأثر الذي تركته توسعته العسكرية الزائفة، وإلى غنى المباني التي شيدها، وما كانت عليه من فخامة وأبهة، وطائفة واسعة من الشعراء عمر بهم بلاطه الإمبراطوري. ومع ذلك فلم تحل هذه الاعتبارات كلها دون تحرج الوضع وتأزمه بحيث كاد يستحيل إلى كارثة، لما حف به من ضعف وأخطار، وعلينا أن نعترف هنا أن ما تم له من إدارة حازمة شابها شهوة جارفة للبدخ والإسراف؛ هي التي مكنته من حشد الطاقات في سبيل ما تم في عهده من عمران، أقامت له الشهرة العالمية التي تمتع بها وحفظها له التاريخ^[2].

أما الأحوال الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية، خلال عهد جستنيان، فكانت في وضع يرثى له، إذ كانت الدولة تعاني الأمرين من معضلات معقدة يصعب حلها، فالخزانة تقريباً فارغة، ومواردها باتت شحيحة إثر تحطم الاقتصاد الناجم عن الاضطرابات السياسية^[3]. بينما كان جباة الحكومة وعمالها الماليون زمرة من المختلسين، فلم يصل من أموال الضرائب التي ابتزها أولئك الغشاشون من الرعية إلا ثلثها فقط^[4]. أما أخطر أعداء الدولة في الداخل، فكانوا هم طبقة كبار الملاك؛ الذين ظهروا في ولايات الإمبراطورية، ولا سيما الشرقية منها؛ مثل آسيا الصغرى ومصر، والذين استغلوا الظروف التي تمر بها الإمبراطورية، واغتصبوا جانباً من أراضي الدولة، وسيطروا على أهاليها، وتمكنوا من احتواء جباة الضرائب بالرشوة، وأسكتوا كل من ساء لهم ببذل الأموال. وكان المالك يستولي على القرية بعد الأخرى، ويقوم

١ - نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١٤-١٥-١٦.

٢ - إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٧.

٣ - نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٣.

٤ - فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٤.

رجاله يجمع الضرائب لحسابه، دون أي اعتبار للسلطة المركزية^[1]، وانصرف هؤلاء الملاك لما يخصّ شؤون ضياعهم فقط، وأغفلوا شأن الحكومة المركزية، فأحاطوا أنفسهم بحرس خاص، وعاشوا في قراهم عيشة الأمراء، وقد تبعهم عددٌ كبير من الرعايا؛ الذين لم يتورّعوا عن اختلاس كلّ ما تصل إليه أيديهم. وكان أشهر أسر هؤلاء الملاك الكبار، أسرة أبيون Apion؛ وهي أسرة مصرية حازت قرى بأكملها في جهات مصر المختلفة، وقد انخرط في خدمة سيّد هذه الأسرة عدد كبير من الكتاب ونظار الضياع، وحشود من الفلاحين، وعدد غفير من الموظفين؛ الذين كانوا يقومون بتقدير الضرائب وجبايتها. كما كان له جيش خاص به، وكان له شرطة خاصة به كذلك؛ تتبع له وتأتمر بأمره، وكان له بريده وسجونه؛ يلقي بها من يجترئ على سلطانه^[2].

وأمام كلّ هذه التطوّرات الخطيرة، وقفت الإمبراطورية البيزنطية موقف الذي يعالج الخطأ بخطأ أكبر، فبدل الإصلاح والمساواة بما يضمن حقوق الرعية، والعدالة في توزيع الثروة، تمت مصادرة الأملاك لصالح خزانة الدولة، وتدخلت الدولة في حق الإرث أحياناً، وأجبرت بعض كبار الملاك على وقف أملاكهم على الإمبراطورية، كما لجأت أيضاً إلى مصادرة بعض الأملاك لعدم ثبوت ملكيتها. وإذا كان هذا ما يتعلّق بالأملاك الخاصة بالملاك الدنيويين، فكان الأمر صعباً في تطبيق هذا التصرف على أملاك الكنائس والأديرة، التي تضخّمت ممتلكاتها هي الأخرى، لذلك سلكت الدولة سبيلاً آخر للمصادرة أملاك الكنيسة؛ وهو اتهام هذا الدير أو ذلك بالزندقة، وتحويل موارده إلى خزانة الدولة. ورغم الجهود الكبيرة التي قامت بها الدولة للقضاء على نفوذ الملاك الكبار، إلّا أنّ الإمبراطور جستنيان لم يتمكن من القضاء على هذه الطبقة^[3].

أمّا وضع الفلاحين، فكان يندى له الجبين، إذ يتوجّب عليهم أن يعطوا الدولة البيزنطية ما بين ربع محصولهم وثلاثة كضرائب، وهذه النسبة تغيّرت خلال العصور، لكنّها لم تخرج عن المعدّل الوسطي. ولمّا كان العمل في الزراعة يتطلّب وجود سواعد عديدة، كان هذا متوقفاً

١- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطة، م.س، ص ٥٠.

٢- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٥١.

٣- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٥٠.

إلى حين عهد جستنيان، الذي جند الشباب لجبهات القتال، وفرض الضرائب الباهظة^[1]؛ فلما اشتدت حاجة الإمبراطور إلى المال، لمواجهة نفقات الدولة وحماية حدودها من هجمات البرابرة، لجأ إلى استحداث ضرائب جديدة، هذا ناهيك عما صاحب جباية هذه الضرائب من إجراءات تعسفية وأخرى شديدة صرامة، ترتب عليها أن أصاب القرى الخراب، فهجرها فلاحوها، وفقدت الأرض خصوبتها، ونشبت الاضطرابات في كل مكان، ما تسبب في تدمير الزراعة في الريف البيزنطي^[2].

في الواقع لقد جرت عدّة محاولات لإحياء نظام العبوديّة (الذي كان سائداً في عصر الإمبراطوريّة الرومانيّة القديمة) في العلاقات الاقتصاديّة-الاجتماعيّة، لكنّ هذه المحاولة لم تنجح ولم تستطع إيقاف تطوّر العلاقات الاقتصاديّة-الاجتماعيّة باتجاه النظام الاقطاعي. إضافة إلى ذلك دفع البيزنطيّون ثمن انتصارات جيوش جستنيان في الغرب غالباً، إذ فرضت ضرائب باهظة عليهم، ممّا أدّى إلى استيائهم وتذمّرهم^[3]، ويبدو أنّ ذلك الشر لم يُرج منه شفاء، فانهى عهد جستنيان في جوٍّ من اللؤم القادح والسخط الشديد على هذا الإمبراطور^[4].

أمّا تجار القسطنطينيّة، فقد تدهورت أحوالهم؛ بعد سلسلة المغامرات الفاشلة التي خاضها جستنيان في الغرب الأوروبي؛ لأنّ تلك الحروب عرقلت حركة التجارة، فلم تكن طبقة التجار مكثرته باسترجاع أراضي طالما تعرّضت للغزو، وتألّمت ممّا وقع عليها من نهب وسلب، وذلك طمعاً منهم في استثمار هذه الحروب والاستفادة من التوسّعات العسكريّة. فإذا ما اتّفق وأعرض الإمبراطور جستنيان عن هذه الحقيقة، وضرب بها عرض الحائط، وقام بعجلاته العسكريّة المعروفة بالسيطرة على سواحل المتوسط في الشمال والغرب والجنوب، نزولاً منه وامثالاً لدوافع ونوازع ملّحة لا ترحم. فكم مرّة توجّب فرض رسوم وضرائب جديدة وتنظيم احتكارات جديدة، رغم معارضة كبار الملاكين وأرباب الأعمال والتجارة، الذين لم يكونوا ليجنوا شيئاً من هذه المشاريع الحكوميّة، التي كانت تشمل مقتضيات الدفاع، وما تحتاجه من وسائل الإغراء لاصطناع الأنصار، وقطع الألسنة، وإثارة البرابرة

١- جان كلود شينية، تاريخ بيزنطة، م.س، ص ٣٨.

٢- إسمت غنيم، إمبراطوريّة جستنيان، م.س، ص ٨٦.

٣- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ١٠٥.

٤- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٤.

وتأليب بعضهم على بعض، وتوفير أسباب البذخ للبلاط وحاشيته، وتأمين ودّ الغوغاء في العاصمة وعدم تهيجهم بشيء^[1]. لقد ازدادت الضرائب والاستغلال الطبقي في عهد هذا الإمبراطور، ممّا أدّى إلى تدمر شعبي واستياء عام من سياسته. وناءت موارد الإمبراطورية البيزنطية بأعباء المهمة التي اتخذها جستنيان على عاتقه، فظهرت النتائج السلبية في عهد خلفائه اللاحقين^[2].

لقد كانت إمبراطورية جستنيان في طريقها إلى الانحلال، ويرجع بعض تلك الأسباب -إضافة إلى ما تقدّم- إلى أسباب طبيعية بحتة؛ فممّا زاد في سوء الأحوال الداخلية وفاقم انتشار الأوبئة؛ خاصّة مرض الطاعون الذي انتشر في الجانب الشرقي من الإمبراطورية، وجزء من الجانب الغربي، وامتدّ إلى العاصمة^[3]، فقد ظهر في مصر أولاً سنة ٥٤٢م، ثمّ انتقل إلى سوريا وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين، ثمّ انتقل إلى صقلية وإيطاليا، وعاد بشكل مفاجئ ليضرب القسطنطينية، وعمّ الخراب في القرى والمدن، وانتشرت المجاعات في طول البلاد وعرضها واضطربت الدولة بأسرها، وقد زاد ذلك من نقص الإيرادات^[4]. وإنّ صدقنا عدد من المؤرخين المعاصرين، فإنّه أثناء فترة اشتداد هذا الطاعون، كان هناك آلاف الضحايا كلّ يوم. ولمّا كان عدد سكّان الإمبراطورية قبل حكم جستنيان ينوف عن العشرين مليون نسمة، فقد نقص بشكل ملحوظ بعد حكمه، حتّى قيل إنّ ذلك الطاعون أفنى ثلث عدد السكّان، وقد أسهم هذا الهبوط الكبير في عدد السكّان سلباً على عدد الشبان المؤهلين للخدمة العسكرية وحمل السلاح والتطوّع في الجيش، وعلى إعمار المدن، وعلى حدّة التبادلات التجارية^[5]، وأدّى ذلك كلّهُ إلى هجرة السكّان وإهمال الزراعة فانتشرت المجاعة^[6].

هذا ناهيك عن الزلازل المدمّرة التي ضربت الدولة في عهد هذا الإمبراطور وتسبّبت في مقتل العشرات وتشريد العشرات وهدم عدد من المدن، وكان من بين تلك الزلازل؛ الزلزال

١- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٦.

٢- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٢.

٣- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٥١.

٤- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٨٨.

٥- جان كلود شينية، تاريخ بيزنطة، م.س، ص ٣٨.

٦- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٥١.

الذي ضرب الساحل السوري سنة ٥٥١م؛ من صور حتّى أرواد، وترافق مع حركات مدّ وجزر وارتفاع أمواج؛ ما تسبّب في إغراق عشرات السفن وقتل آلاف الناس، حتّى وصفت مدينة بيروت بأنّها مدينة منكوبة، ولا سيّما أنّ الموت تخطّف في هذا الزلزال نخبة من شبان الأشراف الذين وفدوا إليها لدراسة القانون فيها^[1]. وأمام كلّ هذه الكوارث؛ ظهر الوضع في صورة بالغة التعقيد، فقد بدأ زمن التفهقر الديمغرافي حتّى إنّ مدناً كبرى مثل أنطاكية بدأت في التراجع. أمّا النخبة المحليّة التقليديّة فألّت إلى الهبوط. في حين وصل الغزو البربري إلى البلقان، وصار التوسّع في أراضي الدولة يعلن عن صعوبة الدفاع عن إمبراطوريّة تمتدّ بشكل مبالغ فيه^[2].

لقد كان الجهاز الإداري في الدولة البيزنطيّة بيروقراطيّاً متفسّخاً نهماً، والمصلحة الخاصّة هي كلّ شيء فيه ليس إلّا^[3]، وما زاد الطين بلّة أنّ جستنيان أشاع جواً من الإرهاب، وقبض على إدارة الدولة بيدٍ من حديد، وفرض سلطة استبداديّة مطلقة على الحكم، وهيمن على المجتمع^[4]. وأخذ يجربّ حلولاً مستقبليّة على الصعيد الإداري؛ معطياً لبعض الحكّام سلطات مدنيّة وعسكريّة، مخالفاً التقاليد التي كانت يحرص فيها الجميع على إقامة فصل واضح ما بين الصلاحيات، ولن ننسى الفشل الذريع الذي آل إليه تلك الحلول^[5]. لقد كانت جميع القرارات التي اتّخذها جستنيان، ويهدف منها إلى إصلاح الإدارة، هي بإجماع المؤرّخين قرارات ارتجاليّة، اتّخذها الإمبراطور دون أن يدرس جدواها وملاءمتها للظروف المحيطة والراهنّة، فالهدف الأساسي كان منها هو إحكام قبضته على الدولة، غير أنّه كان مخطئاً؛ كما أنّ قراراته كانت متأخّرة، وبالتالي استمرّ الابتزاز والخراب، ممّا دفعه إلى إصدار مراسيم جديدة في بعض الأقاليم اقتضت في بعض الأحوال فرض الأحكام العرفيّة^[6].

لقد كانت حروب جستنيان الطويلة كارثة كبرى على الدولة الإمبراطوريّة، فقد اضطرّ في

١- إسمت غنيم، إمبراطوريّة جستنيان، م.س، ص ٨٨.

٢- جان كلود شنيّة، تاريخ بيزنطة، م.س، ص ٣٧.

٣- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٣.

٤- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٧.

٥- جان كلود شنيّة، تاريخ بيزنطة، م.س، ص ٣٧.

٦- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ٢١.

سبيل تنفيذ سياسته الخارجية، والحروب المتصلة على الجبهة الغربية التي ورط نفسه بها، والجزية الباهظة التي كان يدفعها صاغراً للفرس؛ في مقابل استمرار الهدوء على الجبهة الشرقية، أن يستنفد موارد الدولة ويهرق خزانها، وفي سبيل حل هذه المعضلة فرض على مواطنيه ضرائب باهظة؛ ضرائب التي كانت تفرضها الإمبراطورية الرومانية فيما مضى، ولكن جستنيان فرضها في صورة أسوأ، مما أدى إلى إرهاب وإفقار الناس^[١]. لا بل وصلت به الأمور -بمقتضى الحاجة الملحة إلى توفير الأموال- إلى تجاوز الأعراف والقوانين والمراسيم، واستخدام عدة إجراءات، منها بيع وظائف الدولة بأثمان عالية والإنعام على شاغريها بلقب (جستنياني)، ذلك اللقب الذي كان يزيد هؤلاء الموظفين للصوص سطوة وإرهاباً. استحدثت ضرائب جديدة على الرغم من إدراكه بأن ليس في استطاعة الشعب دفعها، فضلاً عن تلك الإجراءات التي صاحبت جباية الضرائب من الصرامة والشدة، مما أدى إلى خراب القرى وهجرة سكانها وفقدان خصوبتها، ومن ثم أدت الحالة إلى نشوب الثورات في مواضع كثيرة. اتخذ الإمبراطور وسيلة خطيرة، وهي تخفيض عدد أفراد الجيش، وتوقف أحياناً عن دفع مرتبات الجنود، وما دفع الجنود ولا سيّما المأجورين منهم (المرتزقة) للقيام بالتمردات العسكرية، وسهل للأعداء أن يعيشوا فساداً في أملاك الإمبراطورية، ولما فشل في مواجهة البرابرة من الأقوام الهندو-أوروبية التي كانت تغير على أراضي الإمبراطورية من الشرق والشمال^[٢]، ولما كان عاجزاً عن إعداد الجيوش لمواجهةهم، كونها بحاجة إلى كثير من التكاليف والأموال، في وقت غدت فيه الأموال عسيرة المنال، لجأ جستنيان إلى الحيل، فبدأ بدفع الجزية لأعدائه، أو ببذل الهدايا الغالية لهم، أو قبل التحالف معهم، أو عمل على تفريقهم بإثارتهم ضد بعضهم البعض، وكلها حيل العاجزين^[٣].

عندما تكون الدولة في حالة وهن عام، وحدودها مشرّعة للغزو من أعدائها، فإن أربابها لا تعمّر إلا إذا جاورتها حصون والقلاع، لذلك تُشيد الحصون في كل الأنحاء، تماماً كحال فرنسا عندما تعرّضت لغارات النورمان، فطوال تاريخها لم تكن أكثرها وهناً وتفكّكاً عندما

١- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٤.

٢- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ٢١-٢٢.

٣- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٤.

كانت كلُّ قُراها مطوّقة بالأسوار^[1]. الظرف ذاته عاشته بيزنطة، فقد لجأ الإمبراطور جستنيان إلى تشييد الحصون والقلاع على طول أطراف ممتلكات الإمبراطورية في آسيا وأوروبا^[2]. إنّ مَنْ يقرأ الجداول الطويلة التي تُحصي الحصون والقلاع التي شيّدها جستنيان في سائر الجهات، يتوهّم أنّ هذا الإمبراطور كان على رأس دولة مزدهرة، قويّة، مرهوبة الجانب. لكنّ الواقع كان عكس ذلك، فهذه اللوائح الطويلة بأسماء الحصون والقلاع التي شيّدها جستنيان، والتي سوّد بها المؤرّخون صفحات كتبهم، ليست سوى معالم تشهد على ترهل الإمبراطورية، وحالتها المأساوية^[3].

فأولاً: على الصعيد المالي كان من الواضح أنّ الجهود الكبيرة والنفقات الضخمة التي أنفقها جستنيان على تحصين ١٥٠ مدينة قد أثارت استياء واضحاً في أوساط الشعب^[4]؛ فبناء هذه الحصون تطلّب أموالاً طائلة في وقت كانت فيه الدولة أصلاً تعاني من ضائقة مالية، ألجأته إلى أساليب تعسفيّة مع مواطنيه، الذين وقع على كاهلهم دفع تكاليف تلك التحصينات، وهكذا أصبح جستنيان يدور في حلقة مفرغة^[5]. ثانياً: على الصعيد العسكري لم تكن لقدماء الرومان حصون، إذ كانوا يعتمدون أساساً على بسالة جنودهم يوزعونهم على طول الأنهار، حيث يشيدون على مسافات معلومة أبراجاً يشحنونها بالمقاتلين^[6]. لكنّ بعد أن أمسى الجيش قليل العدد والعدد، وأكثره من عناصر مرتزقة مختلفة الجنسيّات والعقائد، كما أنّه غير راض عن مرتباته التي يقبضها منقوصة، في وقت متأخّر عن الموعد المحدّد في أكثر الأوقات^[7]، كانت النتيجة أنّ ضعف الجيش وأحياناً تبدّد، بل تبخّر تماماً، عندها لم تعد الحدود تحمي الداخل، فلزم تحصين هذا الداخل، وكلّما اضمحلت الجيوش تضاعف عدد الحصون، وكما تكاثرت الملاجئ قلّ الأمن^[8]. وفي النتيجة كان إنشاء هذه الحصون والقلاع عديم الجدوى، فلم يتهياً

١- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٥.

٢- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٤.

٣- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٤، ١٩٥.

٤- مفتاح محمد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا، م.س، ص ٥٦.

٥- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٨٧.

٦- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٤.

٧- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٣.

٨- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٤.

لها الجنود المدافعون عنها، لا بل إنَّها كانت خاوة خالية لا يسمع فيها حتَّى نباح الكلاب^[1]. إنَّ حكومة خرقاء إلى هذه الدرجة لا تتورَّع عن طرق جميع أبواب الشطط. إذ إنَّ جستنيان لم يقنع بفرض ضرائب باهظة على الكل، بل علاوة على ذلك، خصَّ كلَّ فرد بحيف يمسَّ حياته اليوميَّة، ذلك الذي جعل كثيرًا من المؤرِّخين يصفونه بأنَّه أكبر طاغية عرفه التاريخ والأكثر بلادةً وقسوةً، وإنَّما يدفعنا إلى تصديقهم هما سبيان: الأوَّل أنَّ طرحهم يتماشى مع حالة الوهن المريية التي صار تعانيها الإمبراطوريَّة قبيل وبعد وفاة جستنيان. والثاني شاهد ما يزال قائمًا إلى اليوم؛ وهو مجلَّة القوانين التي وقَّعها الإمبراطور المذكور، والتي تكشف أنَّ قوانين الروم البيزنطيين تغيَّرت في ظروف سنين قليلة، أكثر ممَّا تغيَّرت قوانين المملكة الفرنسيَّة طيلة ثلاثة قرون، إنَّ هذه التغيَّرات تمسَّ أشياء تافهة لا مسوِّغَ لاهتمام المشروع بها، اللهم إذا صدَّقنا ما جاء في التاريخ السيء من أنَّ الامبراطور كان يتاجر بالقوانين والأحكام^[2]. بينما أكَّد آخرون أنَّ قوانين وتشريعات جستنيان، إنَّما وضعت لتساير رغبات شريكته في الحكم ثيودورا؛ إذ إنَّه كان يلغي بعض القوانين الجائرة ضدَّ بعض الشخصيات، إذا طلبت هي ذلك، وكان هذا يتم دائمًا بعد دفع رشاوى ماليَّة كبيرة لها، بل يقال إنَّها لم تترك أحدًا يهنأ بثروة أو أملاك، فقد صادرت ثروة القائد بليزاريوس الذي كان الذراع الأيمن لزوجها، بعد أن شكَّكت فيه واتَّهمته أنَّه اختلس تلك الأموال من خزانة الدول، حتَّى أمست هي المالك الوحيد لكلِّ ثروات البلاد دون منازع^[3].

لقد جمعت القوانين الرومانيَّة القديمة في عهد جستنيان، كما أدخلت عليها بعض التعديلات والتجديدات^[4] اعتقادًا منه أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي وهب الأباطرة الحقَّ في إصدار القوانين وتفسيرها، فالإمبراطور يجب أن يسنَّ القوانين ويضعها بالحقَّ الذي استمدَّه من السماء، ويبد أو فكرة إصدار مجموعة قانونيَّة كانت فكرة تراود جستنيان قبل اعتلائه العرش؛ لأنَّه ما إنَّ مضت شهور قليلة حتَّى شرَّعَ بعمله؛ فأصدر مرسومًا بتشكيل لجنة من عشرة رجال

١ - إسمت غنيم، إمبراطوريَّة جستنيان، م.س، ص ٨٧.

٢ - مونتيكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٢.

٣ - سامية محمَّد عامر، دور المرأة في الحياة السياسيَّة، م.س، ص ٣٤٠٨.

٤ - نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٢.

في مجال القانون الروماني^[1]. والدارس لمدونة جستنيان القانونية سيجد أنها تتماشى أنظمة الحكم الشمولية المطلقة إلى حد بعيد، فالإمبراطور يعتبر بمثابة القانون الحي، كما أن لإرادته قوة القانون التي لا تقبل التحدي، فالإمبراطور وحده هو الذي يستطيع أن يضع القوانين، ولا يجوز لغيره أن يفسرها. وتتناقض مجموعة جستنيان القانونية تناقضاً جذرياً مع قانون الشعب الجرمانى من حيث أن هذه المجموعة تركز السلطة الأوتوقراطية، ومن حيث ما تسم به من تنظيم، وإبراز سلطة القاضي كممثل للإمبراطور. ولم تكن مجموعة جستنيان تدرس في الغرب في العصور الوسطى الباكورة، ولكنها صارت أساساً لجميع النظم الشرعية في البلاد الأوروبية، باستثناء إنجلترا، بعد منتصف القرن الحادي عشر. حقيقة إن قبول الغرب للقانون الروماني على هذا النحو قد جلب نتائج سياسية سيئة؛ لأنه وضع الأساس القانوني للحكم المطلق الذي عرفته العصور الوسطى المتأخرة أوائل العصر الحديث^[2].

لكن يبدو أن أعظم ما أوهم الدولة -أكثر من أي شيء آخر- هو عدم احترام حرية المعتقد، وإصرار الإمبراطور على أن يعتنق الجميع العقيدة نفسها، وذلك في ظرف جعل من هذا التعتنق تعدياً سافراً على حرية الآخرين الروحية. في الواقع لقد تعززت سلطة الرومان عندما رحبوا بكل أنواع المناسك الدينية، بينما تضعضعت تلك السلطة -فيما بعد- كلما أقدم المسؤولون عهداً بعهد على محق أية نحلة لم تسيطر على باقي النحل الأخرى. والأخطر من ذلك أن كل نحلة دينية -في ظروف ذلك الزمن- كانت تتماهى مع قومية بعينها، سواء كانت هذه النحلة موجودة قبل الغزو الروماني؛ كما هو الحال مع اليهودية والسامرية، أم ظهرت بعد الغزو الروماني؛ كما هو الحال مع الآريوسية والثناوية والسباتية. علاوة على أن غالبية السكان كانوا متشبثين بعقائدهم الوثنية المناسبة لعقولهم الساذجة^[3].

وإذا كان الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير قد استطاع أن يقضي على المذهب الآريوسي في الشرق، إلا أن مذاهب جديدة استطاعت أن تستحوذ على تأييد شعبي كبير في مصر وسوريا خلال القرنين الخامس والسادس، وكانت هذه المذاهب مستوحاة من الفلسفة الأفلاطونية من

١- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٨٢.

٢- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكورة، م.س، ص ٢١٩، ٢٢٠.

٣- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٣.

جهة، ومن الشعور الوطني الذي وجد متنقّساً في العقيدة من جهة ثانية. فقد تخلّت جموع كبيرة من أبناء سوريا ومصر عن المذهب التقليدي في التجسيد، وأخذوا بمذهب الطبيعة الواحدة في السيّد المسيح، وكان هذا الرأي ملعوناً من الكنيسة اللاتينية في الغرب؛ لأنّها كانت تؤمن بوجود طبيعتين في السيّد المسيح؛ طبيعة إلهية والثانية بشرية. إنّ هذا النزاع بين الكنائس الغربية من جهة وكنائس سوريا ومصر من جهة ثانية، وضع الإمبراطور البيزنطي في موقف لا يحسد عليه، فإذا كان يريد أن يحوز على رضا وولاء البابا، الذي بدوره يتضاءل أمله في استعادة سلطانه على إيطاليا، فإنّه لا يستطيع موافقة كنائس سورية ومصر على رأيهم، والعكس بالعكس. وأخيراً وجد الإمبراطور البيزنطي أنّ من الأفضل أن يوالي البابا وأن يقول بقوله منذ سنة ٤٥١ م، وقد تعزّز ذلك الرأي في عهد جستينوس الأوّل عندما كان يعدّ العدّة لغزو إيطاليا، إذ إنّ كان يسعى لضمان وقوف البابا إلى جانبه ضدّ القوط الشرقيين. وقد واصل الإمبراطور جستنيان المسير على خطا خاله، لكنّ ليس من منطلقات سياسية اقتضتها الظروف، لكنّ إيمانه منه بصحة رأي الطبيعتين في السيّد المسيح، وبخطأ رأي المينوفيزقيين (أصحاب القول بالطبيعة الواحدة)، كون جستنيان كان يعدّ نفسه رجل لاهوت^[1].

وكون جستنيان لا يعرف الاعتدال، فقد أصلى المينوفيزقيين حرباً حامية لا هوادة فيها أصاب رذاذها جميع الطوائف المسيحية الأخرى، شملت جميع الخارجين على الأرثوذكسية^[2]، إذ نال أبناء هذه النحل قدراً كبيراً من الأذى والاضطهاد، إذ حارب أكثرها بحدّ السيف، أو حرّم اعتناقها بموجب القانون، فألجأ أنصارها إلى الثورة عليه، وألزم نفسه بمحقهم بالقوّة، وهكذا حوّل أقاليم شاسعة إلى صحارى قاحلة، ظنّ أنّه يزيد من عدد المؤمنين الأتقياء، فإذا به يقلّص عدد السكّان^[3]. لقد كان الإمبراطور مُصرّاً على أن يعتنق الجميع العقيدة نفسها، مهما كانت الوسيلة؛ ففي سنة ٥٢٩ م أصدر قانوناً ينصّ بضرورة اعتناق الشعب بكامله المسيحية التي تؤمن بطبيعتين في السيّد المسيح خلال مدّة أقصاها ثلاثة أشهر، وأظهر حقه البغيض تجاه باقي الطوائف الأخرى التي لا تدين بمذهب الدولة بقوله «إنّهم لا يستحقّون إلّا الازدراء». كما أنّه حرّمهم من حقّ المواطنة، عندما منعهم من

١- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٢.

٢- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٥٣.

٣- مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، م.س، ص ١٩٣.

المشاركة في المجالس العامة بالمدن، ووضع جهازاً حكومياً يدور في فلكه لتحقيق سياسة الدولة الدينية. وأصدر قرار عدم الأخذ بالوصية التي يتركها أصحاب الطوائف الأخرى، وأنّ أملاكهم تصدر للدولة وللكنيسة الرسمية. وحرّمهم من الاشتغال في مهنة التدريس. وحصر جميع وظائف الدولة في أتباع المذهب الرسمي للدولة، وللتحقّق منهم وضع شرط ثلاثة شهود أمام الأسقف وأيديهم على الكتاب المقدّس. واضطهد سكان المغرب العربي، حتّى أن أحد المؤرخين أشار إلى أن جستنيان قتل خمسة ملايين إنسان من سكان المغرب العربي، ورغم ما في هذا الرقم من مبالغة، إلّا أنّه يشير إلى حجم الحقد الأسود والكرهية التي ملأت نفس جستنيان وجعلته متعصباً غير متسامح في حرية المعتقد الديني عند الآخرين^[1].

وكانت نتيجة هذا الاضطهاد أن ساد السخط في المدن الكبرى في سوريا ومصر اللتين كانتا أهم أجزاء الإمبراطورية، وأكثرهما قيمة بعد القسطنطينية^[2]. وكردّة فعل طبيعية أخذ الجميع ينظّمون جبهتهم بصورة نهائية عن طريق إنشاء كنائس مستقلة لهم، فظهرت الكنيسة القبطية في مصر والنسطورية واليعقوبية في سورية؛ نسبة إلى مؤسسها يعقوب البرادعي، ومن ثمّ الأرمنية^[3]. لا بل إنّ جميع المسيحيين في الشرق من أنصار الطبيعة الواحدة في السيّد المسيح، كانوا قد تخلّوا عن ولائهم للإمبراطورية البيزنطية وفي أواخر عهد جستنيان، إذ إنّهم لم يجدوا فيها منذ عهده الدولة المسيحية الحامية لهم. وهكذا كانت الآثار البعيدة لمجادات جستنيان اللاهوتية في غير صالح بيزنطة، بل كانت كارثة عليها^[4]. ورغم أنّ ثيودورا زوجة جستنيان ترى أنّ الشطر الشرقي من الإمبراطورية ولا سيّما أقاليم آسيا الصغرى وسوريا، هو الأقوى اقتصادياً وسياسياً، على عكس الجزء الغرب، الذي أنهكته المحن والحروب، لذلك أخذت موقف الكنيسة الشرقية، بل وشجّعت على إنشاء كنيسة اليعاقبة المستقلة في الشرق عن الغرب، ولم تأبه أبداً لا بمعارضة زوجها جستنيان، ولا بسطوة البابوية الكاثوليكية وقوتها في هذه الأثناء^[5].

١ - نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ٨، ٩.

٢ - نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٢.

٣ - إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٥٣.

٤ - نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٢.

٥ - سامية محمّد عامر، دور المرأة في الحياة السياسية، م.س، ص ٣٤٠٨.

وإذا كان جستنيان حريصاً على قمع واضطهاد أبناء الطوائف المسيحية الأخرى، المخالفة لطائفته، فإنه كان أشدّ قسوة مع أصحاب الديانات الأخرى، إذ تعرّضوا أثناء حكمه لعمليات اضطهاد عنيفة، سواء أكانوا وثنيين أم يهوداً^[1]، فقد أجبر الإمبراطور جستنيان اليهود على عدم التمسك بالمعنى الحرفي للعهد القديم، وحدّد لهم الترجمة السبعينية؛ لأنّها ترجمة تتفق مع الترجمة التي وضعها الإمبراطور جستنيان للعهد القديم باللغة اللاتينية، ولوجود إشارات بهذه الترجمة عن السيّد المسيح. وحذّر رجال الدين اليهود من مخالفة تشريعاته، ومن يخالف هذه التشريعات، جعل عقوبته الضرب المبرح، وحرّمهم من الاحتفال بعيد الفصح قبل المسيحيين، وحرّمهم من تقديم الذبائح في الأعياد^[2].

ورغم أنّ اليهود كانوا في نظر الدولة البيزنطية عنصراً مقيتاً وبغيضاً، إلّا أنّ الدولة عاملتهم بتسامح أكبر من الوثنيين^[3]، حتّى يتخلّص جستنيان من بقايا الوثنية في إمبراطوريته قام بإغلاق جامعة أثينا في سنة ٥٢٨ م، ونفى عدداً كبيراً من أساتذتها وصادر ممتلكاتهم^[4]، فحمد صوت الفلسفة في العالم الإغريقي^[5]. فما كان من هؤلاء الأساتذة والفلاسفة والعلماء إلّا أن فروا إلى فارس، فاستقبلهم كسرى أنو شروان، وبنى لهم مدرسة جنديسابور (في إقليم عربستان)، وحثّهم على التأليف والترجمة في الطب وغيره من العلوم، وقد انكبّ الكثير من هؤلاء الأطباء مثل زملائهم في المقاطعات البيزنطية القديمة خلال ثلاثة قرون على ترجمة الكتب الإغريقية القديمة إلى لغتهم الأصلية (السريانية)؛ حتّى يتسنى لتلامذتهم فهم لغة أبقراط وديوسكوريدس وجالينوس بسهولة، وقد حظيت هذه المدرسة بالكثير من الشهرة في الأوساط العلمية^[6].

ورغم الاضطهاد القاسي لاتباع الديانات الوثنية، إلّا أنّ الدولة البيزنطية اعترفت في أكثر من مناسبة بأنّها بحاجة إلى بعضهم، ولا سيّما النوابغ منهم، فكان هناك استثناءات تصدر من أجل أولئك الذين امتلكوا مواهب وكفاءات لا غنى عنها، فمثلاً رجل القانون الشهير

١- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٩٦.

٢- نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله، م.س، ص ١١.

٣- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، م.س، ص ٩٢.

٤- إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، م.س، ص ٩٦.

٥- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.سط، ص ٥٧.

٦- جان شار سورينا، تاريخ الطب، من فنّ المداواة إلى علم التشخيص، ترجمة إبراهيم البجلاتي، عالم المعرفة، العدد ٢٨١، الكويت ١٩٨٥ م، ص ٨٦.

تريونيان، كان له معتقداته الشخصية. أمّا يوحنا الكبادوكي، فإنّه كان يذهب إلى الكنيسة برفقة الإمبراطور في المناسبات الرسميّة، إلّا أنّه كان يتمتم بكلمات الكفر والوثنيّة طوال مراسم الطقس الديني. كما كان هناك آخرون آمنوا بديانة الدولة الرسميّة باللسان فقط دون القلب، إذ كان هذا أسهل الطرق للترقيّ في سلّم الوظائف الرسميّة. ويمكن القول إنّ عدداً كبيراً من سكّان المدن والقرى في أقاليم الإمبراطوريّة الشرقيّة، مع أنّهم كانوا غير قادرين على فهم وإدراك العقيدة المسيحيّة، إلّا أنّهم كانوا يطلقون على أنفسهم مجازاً مسمّى مسيحيين؛ ليكونوا في الجانب الصحيح مع الدولة والقانون^[1].

والحاصل أنّ جستنيان حين توفيّ سنة ٥٦٥م بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وثمانين سنة، ترك الإمبراطوريّة أفقر حالاً، وأضعف نفراً، وأقلّ رومانيّة ممّا كانت عليه حين اعتلى عرشها قبل ثمانية وثلاثين سنة^[2]؛ فقد ظهر الإمبراطور الذي بنى كنيسة آيا صوفيا، وجمع القوانين الرومانيّة، في صورة رجل غشّاش منحرف مزيف مولع بسفك الدماء والسلب والنهب، مخادع، جبّار، لا أمان له، وعدو متآمر يرتجّ عقله بالقتل والتخريب^[3]. فالدولة عاجزة عن القيام بالتزاماتها، وجهاز إدارتها بيروقراطي فاسد، والجيش من المرتزقة لا تصله رواتبه، ما استدعى تخفيض القوّات المسلّحة، والخزينة خاوية على عروشها، والضرائب أثقلت كاهل الأهالي، فعادت الأحزاب السياسيّة إلى الظهور مرّة أخرى وقاموا بالإضرابات داخل العاصمة^[4]. والسلطات الدينيّة في تطاحن عقائدي دائم. والصراع الاجتماعي بين الطبقات مستعرة أواره؛ وبرز ذلك بالعصيان والتمرد والثورات المسلّحة على الحكومة المركزيّة في العاصمة، أو على الحكّام في مدن المقطعات البيزنطيّة، وهكذا كانت الفترة الواقعة ما بين سنة (٥٦٥-٦١٠م) من أسوأ فترات التاريخ البيزنطي؛ حيث بدت فيها الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وكأنّها أمست على شفير الهاوية^[5]. ويبدو أنّ شعبه المدمّر المنهك بويلات الحروب والضرائب قد صبّ اللعنات على إمبراطوره الكبير الذي قاده إلى هذه الكوارث^[6].

١- وسام عبد العزيز فرج، تاريخ وحضارة الإمبراطوريّة البيزنطيّة، م.س، ص ٩١.

٢- فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٥٣.

٣- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٤.

٤- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، م.س، ص ٦٢.

٥- نعيم فرج، تاريخ بيزنطة السياسي، م.س، ص ٨٣.

٦- نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، م.س، ص ٢٢٤.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة الطويلة لعهد جستنيان أشهر أباطرة بيزنطة تبين لنا، أولاً أن جستنيان فشل في صون كرامة دولته عندما اشترى السلام صاغراً من البيزنطيين. ثانياً جميع مشروعاته الطموحة في استعادة وحدة الإمبراطورية الرومانية على كامل التراب الأوروبي مضافاً لها حوض البحر الأبيض المتوسط، كانت حلمًا قد عفا عليه الدهر مع تدفق عشرات الشعوب الجرمانية التي اجتاحت القارة الأوروبية، وأما عجز دماغ جستنيان عن إدراك هذه الحقيقة زجَّ بالإمبراطورية البيزنطية في حروب كارثية لا على إيطاليا التي دمرتها جيوشه وحولتها إلى خرائب، بل كانت كارثة أكبر على بيزنطة التي أفقرها ودمر بنيتها التحتية، فانتشر فيها الفقر واجتاحتها المجاعات والأوبئة. ثالثاً أثبتت سياسة جستنيان على الصعيد الديني، والتي كان يرمي منها إلى تكريس وحدة الكنيسة تحت تاج الإمبراطور، أنها سياسة فاشلة، بل كارثية أيضاً، حيث عمقت الخلافات بين الكنائس الشرقية والكنائس الغربية، وكان تدخل الإمبراطور في كل شاردة وواردة لاهوتية. إنه أدخل الكنيسة وأدخل نفسه في ورطة دينية، دفعت أساقفة الكنيسة إلى تكفيره، وأجمعوا أنه مات على الكفر رغم تحذيراتهم المستمرة. رابعاً أثبتت سياسة جستنيان أنها فاشلة على الصعيد الإداري، فبدل أن ينهض بيزنطة وبنيتها التحتية، تسبب في تدميرها، فتعطلت التجارة وتراجعت الزراعة وتوقفت الصناعة، وكان على الناس أن يتحملوا أحياناً ويثوروا أحياناً أخرى على تعسف الجباة وابتزاز الموظفين وسرقة أموالهم. في حين كان الإمبراطور يراقب هذه الممارسات التعسفية بصمت مطبق، لا بل إنه كان مهتماً فقط بكميات الذهب التي تصب في خزانة الدولة من دون أن يكثر بعرق الفلاحين وصرخات أطفالهم الجياع. تلك الأموال التي كان ينفقها على شراء السلام على الجبهة الشرقية، وعلى تمويل تدفق الجيوش على الجبهة الغربية لتدمير إيطاليا. خامساً وعلى المستوى الشخصي كان هذا الإمبراطور متقلب الأهواء، ارتضى لنفسه زوجة من أخط طبقات المجتمع، توجها إمبراطورة في كنيسة آيا صوفيا، كما تتوج بنات الملوك. وصفه أحد المؤرخين المعاصرين له (بروكيوس) وصفاً لن نجود بأفضل منه، إذ قال فيه: «عديم الإخلاص، مخادع، منافق، يخفي عن الناس غضبه، يظهر غير ما يبطن، حاذق، قادر كل المقدرة على التظاهر بالرأي الذي يدعي أنه يعتنقه، بل إنه يستطيع في كثير من الأحيان أن يذرف الدمع من عينيه... إذا اقتضت الظروف ذلك. لقد كان صديقاً متقلباً في صداقته، عدواً إذا عقد هدنة لا يحافظ على عهده، حريصاً كل الحرص على الاغتيال والنهب».

لائحة المصادر والمراجع

١. إدوار بروي، موسوعة تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ج ٣، ط ٢، نقله إلى العربية: يوسف داغر و فريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٦ م.
٢. إسمت غنيم، إمبراطورية جستنيان، منشورات دار المجمع العلمي بجدّة، جدّة ١٩٧٧ م.
٣. سامية محمّد عامر، دور المرأة في الحياة السياسيّة في أوروبا العصور الوسطى (ثيودورا وجان دارك دراسة حالة)، مجلّة بحوث كليّة الآداب، مج ٢٩، العدد ١١٣، د.ت.
٤. جان شار سورينا، تاريخ الطبّ، من فنّ المداواة إلى علم التشخيص، ترجمة: إبراهيم البجلاتي، عالم المعرفة العدد ٢٨١، الكويت ١٩٨٥ م.
٥. جان كلود شينية، تاريخ بيزنطة، ترجمة: جورج زيتاتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بنغازي ٢٠٠٦ م.
٦. عبد العالي علي الفيتوري، الإمبراطور قسطنطين والمسيحيّة، بحث معدّ لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، ليبيا، جامعة المرقب ٢٠٠٨ م.
٧. عزّ الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى ومسألة فصل الدولة عن الكنيسة، مجلّة التفاهم، د.ت.
٨. فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ط ٦، ترجمة: السيّد الباز العريني ومحمّد مصطفى زيادة، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٦ م.
٩. نورمان كانتور، العصور الوسطى الباكّة، القرن الثالث - القرن التاسع الميلادي، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، القاهرة ١٩٩٣ م.
١٠. محمّد محمّد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، ١٩٩٤ م.

١١. محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي، دار المعرفة الجامعية، بيروت ٢٠٠٠م.
١٢. مفتاح محمد التاجوري، التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا أثناء حكم الإمبراطور جستنيان، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم، جامعة المرقب، ليبيا ٢٠٠٧م.
١٣. مونتسكيو، تأملات في تاريخ الرومان، أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١١م.
١٤. نادية محمود فرحان، جستنيان وأعماله التشريعية الدينية والإدارية والقضائية والتجارية، كلية التربية للبنات، جامعة الأنبار، د.ت.
١٥. نعيم فرح، تاريخ بيزنطة السياسي، ط٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.
١٦. وسام عبد العزيز فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، ج ١، جامعة المنصورة ١٩٨٢م.
١٧. ول. ديورانت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح، الدولة البيزنطية في أوج مجدها ج ٣، مج ٣، ترجمة: محمد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

أسطورة شارلمان

٧٦٨-٨١٤م

أحمد حسين المشعل^[١]

مقدمة

بعد اعتلاء شارلمان عرش الفرنجة شنَّ كثيراً من الحروب على الدول المجاورة له، من أقطان ولومبارد وسكسون وعرب وغيرهم، كان الهدف منها احتلال مناطق جديدة وتوسيع حدود مملكته ونشر الديانة المسيحية الكاثوليكية. وقد ارتكب مجازر كثيرة في طريق حملاته ودمر كثيراً من المدن بعد التكنيل بسكانها. وكانت أشد الحروب شراسة تلك التي خاضها شارلمان مع السكسون، الذين فرض عليهم اعتناق الديانة المسيحية الكاثوليكية، وقد ارتدوا عنها أكثر من مرة، وقد قتل منهم كل من لم يؤمن بها.

وشنَّ شارلمان حملة ضدَّ العرب المسلمين في الأندلس انتهت بنكبة كبيرة أصابت جيشه. وعندما فتح المسلمون جزيرة كورسيكا واستقرُّوا فيها، تدخل شارلمان لإخراج المسلمين منها، إذ اصطدم مع المسلمين في أكثر من معركة.

وفي عام (٨٠٠ م) تُوجَّ شارلمان إمبراطوراً على مملكة الفرنجة من قبل البابا ليو الثالث، في كنيسة بطرس في مدينة روما. فكانت ضربة قوية ضدَّ الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تعدُّ نفسها الوريثة الوحيدة للإمبراطورية الرومانية القديمة.

أمَّا بالنسبة لسياسة شارلمان الخارجية، فقد حاول كسب أصدقاء له من خلال عقد الأحلاف مع ملوك الدول المجاورة، كما تبادل السفارات والهدايا مع بعض الدول والملوك المعاصرين له، وأهمُّهما كانت مع الخليفة العباسي هارون الرشيد.

وأمَّا فيما يتعلَّق بحياته الخاصة وأسرته، فقد تزوج شارلمان العديد من النساء، أنجب له

ثلاثة أولاد وخمس بنات، ولم يبق من أولاده على قيد الحياة قبل وفاته إلا واحد هو لويس التقي، الذي ورث عرش الإمبراطورية الفرنجية، أمّا بناته فلم يسمح لهنّ بالزواج مدّعياً أنّه لا يطيق فراقهنّ.

وقد حاول شارلمان النهوض بالحياة الفكرية والاهتمام بالثقافة، فحاول تعلّم الكتابة والقراءة هو ورجال بلاطه، ولكنه لم يجن ثمارها لأنّها جاءت متأخرة، فقد كان عمره قد تجاوز الستين.

وفي أواخر حياته أصيب بمرض شديد، فعين ابنه لويس التقي إمبراطوراً على الفرنجة عام (٨١٣ م)، وفي العام التالي (٨١٤ م) مات شارلمان تاركاً وراءه أسطورة ذاعت وانتشرت في أوروبا.

أولاً: وصول شارلمان إلى العرش عام ٧٦٨ م

أسست ممالك عدّة في أوروبا الغربية على يد العناصر السكانية التي وفدت إلى المجتمع الأوروبي على شكل هجرات أو غزوات، وهي ما يعرف بالتاريخ الوسيط باسم الغزوات الجرمانية^[1]، ومن أهمّ تلك الممالك مملكة الفرنجة التي حكمتها في البداية الأسرة الميروفنجية^[2]. فعندما جلس كلوتير الثاني على عرش الفرنجة بدا أنّ مركز الأسرة الميروفنجية وطيء، لكنّ كلوتير الثاني كان مديناً بقوّته إلى إشرافه على مقاطعتي أوسترازا وبرجنديا، وقد كافأهم على تأييدهم له بأنّ زاد من استقلالهم ووسّع أملاكهم واختار واحداً منهم هو بيبين الأوّل ليكون المشرف على القصر الملكي، وازدادت مهامه حين اضطربت الأوضاع وعكف ملوك الميروفنجيين على الدسائس، وأخذ يشرف شيئاً فشيئاً على شؤون الحكم والجيش والمال.

ولم يقتصر تدهور الأوضاع في مملكة الفرنجة على ذلك، بل نشب صراع بين حجاب

١- في الواقع لم تستطع أوروبا إحراز أيّ تطوّر في عصر الغزوات الجرمانية، حتّى إنّ بعض المؤرّخين أطلق على القرون الأولى من العصور الوسطى اسم العصور المظلمة، التي تمتدّ من القرن الخامس الميلادي حتّى أواخر القرن الثامن الميلادي، فقد تعطلّت خلالها عجلة الحياة الثقافية والفكرية في الغرب، وانطفأت شعلة الحضارة الرومانية القديمة. انظر: إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمه وقدم له وعلّق عليه: د. عادل زيتون، ط١، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٩م، ص ١٥.

٢- جوني، وفاء، ووتوس، عامر، الصراعات السياسية وتقسيم الإمبراطورية الكارولنجية (٢١٤-٢٢٩ هـ / ٨٢٩-٨٤٣ م)، مجلّة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية - المجلد ٣٩ - العدد ٦ - اللاذقية ٢٠١٧م، ص ٣٣٣.

القصر أنفسهم على السُّلطة والنفوذ، ودارت الحرب بين مملكتي نيستريا وأوستراريا فأصبح بين الثاني (هريستال) حاجب قصر أوستراريا السيّد الوحيد والحاكم الفعليّ في الممالك الثلاث (أوستراريا، نيستريا، برجنديا) ثمّ ما لبث أن خلف بين الثاني ابنه شارل مارتل (المطرقة) في حجابة قصر أوستراريا تحت سلطان كلوتير الرابع، إذ تخلّص من خصومه ومنافسيه بغية تدعيم وحدة البلاد الداخليّة، وقام بسلسلة من الحملات العسكريّة على الممالك المجاورة له، وبعد موته اقتسم ولداه كارلومان وبين القصر حجابة القصر في مملكة الفرنجة، في حين تنازل كارلومان لأخيه بين كي يحكم البلاد وحده، وصار الحاجب بين القصر الحاكم الفعلي في مملكة الفرنجة^[1].

وفي عام (١٣٤هـ / ٧٥١ م) أعلن بين القصر نفسه ملكاً على الفرنجة في اجتماع حضره أنصاره من كبار النبلاء ورجال الدين، ولكي يضفي الشرعيّة على منصبه أرسل إلى البابا زكريّا ليعلنه ملكاً على الفرنجة بشكل رسميٍّ. وقد وافق البابا على ذلك؛ لأنّ البابويّة كانت في تلك الأثناء بحاجة إلى تأييد الفرنجة ضدّ مطامع اللومباردين، فعزل شيلديريك الثالث آخر ملوك الأسرة الميروفنجيّة عن العرش، واعتلى بين القصر عرش المملكة الفرنجيّة لينهي بذلك حكم الأسرة الميروفنجيّة^[2]، وحلّت محلّها الأسرة الكارولنجيّة بدلاً من كونهم أمراء البلاط، وجاء تعيينهم من أكبر سلطة كهنوتيّة في العالم المسيحيّ، وهكذا أصبحوا يتمتّعون بمركز فريد بين حكام الغرب قاطبة. ولعلّ هذه الظروف السياسيّة هي التي مهّدت لظهور شخصيّة شارلمان^[3]. بعد ذلك توفي بين القصر بعد أن أوصى بملكه لولديه كارلومان الثاني وشارلمان على أن يحكما البلاد معاً عام (٧٦٨ م)^[4]. إذ استطاع شارلمان أن يوحد مملكة الفرنجة ويوسّعها على حساب الدّول المجاورة، وبموت كارلومان انفرد شارلمان في الحكم عام (٧٧١م)، واستطاع أن يفرض الديانة المسيحيّة الكاثوليكيّة الرومانيّة التي آمن بها، وأصبح شارلمان القوّة المهيمنة في أوروبا^[5].

١ - حسن، غادة، وعبّود، هبة، النهضة الكارولنجيّة زمن شارلمان (١٥١-١٩٩هـ / ٧٦٨-٨١٤م)، مجلّة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلميّة - مجلّد ٣٨، العدد ٥، اللاذقيّة ٢٠١٦م، ص ٣٣٢.

٢ - بيشوب، موريس، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيّد علي، المشروع القومي للترجمة، ط ١، العدد ٥٦٦، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠٥م، ص ٣٠.

٣ - جوني، وفاء، وونوس، عامر، المرجع السابق، ص ٣٣٣.

٤ - حسن، غادة، وعبّود، هبة، المرجع السابق، ص ٣٣٣.

٥ - بيشوب، موريس، المرجع السابق، ص ٣١.

ثانيًا: أعمال شارلمان العسكرية

بعد اعتلاء شارلمان عرش مملكة الفرنجة شنَّ حروبًا ضدَّ جميع القوى المعاصرة المحيطة بمملكته: من لومبارديين وسكسون وعرب وآفار...، وكانت دوافعه في حروبه هذه تنبع من رغبته في توسيع رقعة مملكته من جهة، ونشر الديانة المسيحية الكاثوليكية من جهة ثانية، وحماية حدود بلاده من جهة ثالثة. ويبدو أنَّ المشاريع التوسعية التي قام بها شارلمان في الجهات الشرقية من مملكته فرضت عليه نقل عاصمته من باريس إلى مدينة إكس لاشابيل^[1]. وقد حكم شارلمان وهو في ذروة قوّته جميع الغرب الأوربي ما عدا الجزر البريطانية وإيطاليا الجنوبية وصقلية. وحمل لقب (ملك الفرنجة واللومبارديين) ثمَّ لقب الإمبراطور^[2]. ومن أهم الحروب التي خاضها شارلمان:

أ - الحرب الأقطانية^[3]: كان المشروع الأوّل الذي بدأه شارلمان على الصّعيد العسكريّ هو الحرب الأقطانية عام (٧٦٨م)، التي كان قد بدأها والده بين القصير، ولكنها لم تُحسم في عهده. فتابعها شارلمان، وقاد الحملة بنفسه، وأجبر هونولد على التخلّي عن أقطانية والهرب، فلحقه وعبر نهر الجارون، واعتقل هونولد، وبذلك تنتهي الثورة الأقطانية. فعين ولده لويس التقي ملكًا عليها، وبقي فيها حتّى وفاة والده شارلمان عام (٨١٤م).

ب - الحرب اللومباردية^[4]: بعد قضاء شارلمان على الثورة الأقطانية، شنَّ حربًا ضدَّ اللومبارديين بطلب وتوسُّل من هادريان أسقف مدينة رومة. فقد شارلمان الحملة بنفسه إلى إيطاليا عام (٧٧٣م)، وبعد أن حاصر العاصمة اللومباردية بافية لمدة طويلة دامت تسعة

١ - مدينة إكس لاشابيل: هي مدينة آخن في ألمانية الاتحادية حاليًا، وتقع على بعد نحو ٦٤ كم إلى الغرب والجنوب الغربي من مدينة كولن قرب الحدود البلجيكية الألمانية. انظر:

Moore. W.G, The penguin encyclopedia of places, Great Britain 1978. p.9.

٢ - إينهارد، المصدر السابق، ص ١٤.

٣ - أقطانية: هي مقاطعة في جنوب غربي فرنسا، تقع بين نهر اللوار شمالًا والجارون جنوبًا والرون شرقًا وخليج بسكاي غربًا. وأهم مدنها بواتيه وبوردو وطولوز. انظر: Moore. W. G, op. cit, p.44.

٤ - اللومبارديون: هم من الشعوب الجرمانية، تدفّقوا عبر جبال الألب إلى الشمال الإيطالي، تحت قيادة ملكهم ألبوين عام (٥٦٨م)، وأسّسوا مملكة لهم على حساب الممتلكات البيزنطية في شمالي إيطاليا، واتخذوا من مدينة بافية الحصينة عاصمة لهم، وهي مدينة إيطالية تقع على نهر تشيشينو، وعلى بعد ٣٢ كم جنوب مدينة ميلانو. انظر

Eck. W, The emperor and his advisers, Cambridge medieval history, vol 11, Cambridge 1936 - 1948. Pp.201- 202.

أشهر حتَّى أنهك الملك ديسيدريوس، ومن ثمَّ استسلمت الحامية خوفاً من الموت جوعاً دون قيد أو شرط، وطرد ابنه أداالجيس من جميع إيطاليا، وهو آخر أمل للومبارديين، وسقطت المدينة في العام التالي عام (٧٧٤م) وبذلك انتهت المملكة اللومباردية على يد شارلمان، وعيّن ابنه بين ملكاً عليهم.

ت - الحرب السكسونية: السكسون هم مجموعة من القبائل الجرمانية التي كانت تعيش في المنطقة الممتدة من الضفة الشرقية لنهر الراين حتَّى نهر الإلبة عبر سهول وسط ألمانيا المكسوة بالغابات، ويُعدُّ السكسون من أكثر الشعوب الجرمانية عنفاً وتمسكاً بقوميّتهم ووثنيّتهم وعداء للديانة المسيحية. فبعد أن انتهى شارلمان من اللومبارديين في إيطاليا استأنف الحرب السكسونية، هذه الحرب التي بدت وكأنّها أهملت لفترة من الزمن. وهي من أكثر الحروب التي خاضها الفرنجة عنفاً واستمراراً، وقد كلّفت الفرنجة كثيراً من الوقت والجهد والمال والرجال. وكانت الحرب ضدَّ السكسون طويلة دامت ثلاثة وثلاثين عاماً (٧٧٢-٨٠٤م)، لكنّها لم تكن متواصلة، وإنّما كانت تتجدّد بين فترة وأخرى. ويعود السبب في استمرار هذه الحروب إلى عناد السكسون وشدة تمسُّكهم باستقلالهم وعقائدهم وارتدادهم عن المسيحية أكثر من مرة، ونقضهم للمعاهدات التي كانوا يوقّعونها مع الفرنجة، وثقل وطأة الضرائب التي كان يفرضها الفرنجة عليهم^[١].

لقد حاول إينهارد أن يُضفي على الحروب السكسونية الصبغة الدينية المقدّسة (حروب صليبيّة)، لكنَّ عدداً من الباحثين ينظر إلى صمود السكسون في وجه شارلمان على أنّه يعود إلى تمسُّكهم بترائهم وعقائدهم الدينية القوميّة، وتمسُّكهم باستقلال بلادهم والدفاع عنها ضدَّ الاحتلال الفرنجي.

ثار السكسون ضدَّ الفرنجة مرّة أخرى في عام (٧٧٨م)؛ أي في الوقت الذي كان فيه شارلمان يحارب في الأندلس، وكانت ثورتهم بقيادة فيدوكند، وعلى الرغم من أن شارلمان تمكّن من القضاء على هذه الثورة، إلّا أنّ فيدوكند تمكّن من الفرار من قبضة شارلمان ليثور مرّة أخرى عام (٧٨٢م) ويلحق بالجيش الفرنجيّة هزيمة ساحقة على نهر الويزر، حيث قُتل فيها مبعوثان إمبراطوريّان وخمسة من الكونتات، بالإضافة إلى عشرين رجلاً نبيلًا من أعرق

الأسر الفرنجية، هذا الأمر أغضب شارلمان فقاد جيشاً بنفسه للقضاء عليهم^[١].

نلاحظ أنَّ المؤرِّخ إينهارد يتجاهل ذكر الجريمة التي ارتكبتها شارلمان أثناء صراعه مع السكسون، ألا وهي (مذبحة فردان) التي وقعت عام (٧٨٢م)، والتي أعدم فيها شارلمان (٤٥٠٠) سكسوني شتقاً في يوم واحد. ويرى فريق من الباحثين أنَّ السبب في إعدام هؤلاء هو رفضهم اعتناق المسيحية^[٢].

وقد كانت آخر ثورات السكسون ضدَّ شارلمان في عام (٨٠٤م)، إذ قمع الثورة وقام بتهجير (١٠) آلاف منهم إلى قسم آخر من مملكة الفرنجة بعد أن صادر أملاكهم ووزعها على أقصاله وقادته ورجال الدين ورؤساء الأديرة^[٣].

ث - الحملة ضدَّ الأندلس: في خضم هذا الصراع العنيف الذي دار بين السكسون وشارلمان، قام شارلمان بنشر حاميات في المواقع الحدودية الحساسة، وزحف فوق جبال البرانس/ البيرينة^[٤]، إلى الأندلس على رأس جميع القوَّات التي استطاع تجنيدها^[٥].

ومن أهمِّ الأسباب التي تكمن وراء حملة شارلمان ضدَّ العرب المسلمين في الأندلس عام (٧٧٨م/ ١٦١هـ) هي: رغبة شارلمان في التوسُّع فيما وراء جبال البرانس وتحقيق حلمه في تكوين إمبراطورية تعيد ذكرى الإمبراطورية الرومانية القديمة. وقد أدَّى ملوك اشتورياس دوراً كبيراً في تحريض شارلمان على غزو الأندلس وإثارة الشعور العدائي ضدَّ العرب المسلمين. ويبدو أنَّ البابوية بالإضافة إلى أساقفة طليطلة شجَّعت شارلمان، فقد بارك البابا هادريان الحملة واعتبرها حملة مقدَّسة^[٦].

- ١- رينهاردت، دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ج ١، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م، ص ٢٢٩-٢٣٠.
- ٢- دوسن، كرسوفر، تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة: د. محمد مصطفى زيادة، ود. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٢٦٦.
- ٣- موس، سانت، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة وتحقيق: عبد العزيز جاويد، دار الاتحاد، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٣٥٣.
- ٤- جبال البرانس/ البيرينة: هي سلسلة من الجبال تمتدُّ على مسافة (٤٤٠ كم) من خليج بسكاي في الغرب إلى البحر المتوسط في الشرق، ويبلغ ارتفاعها في أعلى قممها (٣٤٠٤ كم) وسفوحها الشمالية تقع في فرنسا بينما تقع سفوحها الجنوبية في إسبانيا. انظر: رينو، جوزيف، الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٤م، ص ١٠١.
- ٥- إينهارد، المصدر السابق، ص ٧٤.
- ٦- برونسال، ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص ٤٢.

خرج شارلمان على رأس جيوشه في ربيع عام (٧٧٨م / ١٦١هـ) متّجهاً إلى الأندلس، فاجتاز جبال البرانس واخترق بلاد الباسك (البشكنس)، وهي قبائل مسيحية، وحاصر مدينتهم بامبلونة واحتلّها ووضع حامية فرنجية فيها، ثمّ اتّجه شارلمان نحو مدينة سرقسطة وهي الهدف الرئيس للحملة، لكنّها أغلقت أبوابها في وجهه، وبعد أن يئس من احتلالها رفع الحصار عنها واتّجه شمالاً عائداً إلى بلاده. وفي طريق عودته وصل إلى مدينة بامبلونة فسحب حاميته منها ودمّرها لعجزه عن الاحتفاظ بها. وقد فشل شارلمان في حملته هذه فشلاً ذريعاً، بعكس ما يذكر إينهارد من أنّه انتصر^[1].

فقد حلّت كارثة بالفرنجة عند ممرّ رونسفاله (رنسفاله، وهو يقع في الطرف الغربي من جبال البرانس شمال شرق بامبلونة على بعد ٢٠ كم منها). وملخص ما حلّ بجيش شارلمان: هو أنّه في أثناء عودته إلى بلاده، عبر ذلك الممرّ في (١٥ آب من عام ٧٧٨م)، فقامت قبائل الباسك بمهاجمة مؤخّرة جيشه وأمطرتهم وابلاً من السهام وكتل الحجارة الضخمة حتّى قضوا على هذه المؤخّرة قضاء تامّاً. وسبب هجوم هذه القبائل ليس الغدر كما وصفه إينهارد بل انتقام لما حلّ بمدينتهم بامبلونة على يد شارلمان. وقد كانت هذه الحادثة كارثة حقيقية بالنسبة لشارلمان وجيشه، فقد اهتزّت مكانة شارلمان في الغرب الأوروبي. ولمّا كانت تحتوي المؤخّرة على المؤن والذخائر، فإنّ حجم الخسارة الماديّة كانت كبيرة جدّاً. هذا بالإضافة إلى مقتل عدد من أعظم قادة شارلمان^[2]. ونتيجة لذلك تبدّد حلم شارلمان في إزالة السيادة العربيّة الإسلاميّة من الأندلس وتكوين إمبراطوريّة على النسق الروماني^[3].

ج - حروب شارلمان في جزيرة كورسيكا^[4]

تمكّن المسلمون من فتح جزيرة كورسيكا والاستقرار فيها عام (٨٠٦م). وبناء على ذلك

١ - طرخان، إبراهيم علي، المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الكتب، القاهرة ١٩٦٦م، ص ١٣١.

[2]- Stephenson, C, Medieval history, Washington 1944. Pp.273- 278.

[3]- Read, J, The moors in Spain and Portugal, London, 1974. P.52.

٤ - جزيرة كورسيكا: تقع مقابل مدينة روما في البحر المتوسط يبلغ طول الجزيرة (٢٤٠ كم) وعرضها (٩٠ كم). أطلق عليها قديماً اسم جزيرة ثيرينة، وعرفت عند اليونانيين باسم جزيرة كيرونوس إلا أنّهم لقّبوها بكالستي أي جزيرة الجمال. وتحيط بها العديد من الجزر التابعة لها. وتقطع الجزيرة من الشمال إلى الجنوب سلسلة من الجبال العالية أكثرها ارتفاعاً جبل سنتو (٢٧١٠م). ومن أهم أنهارها ليامون وتافينيأتو وجولو. انظر: إسكندر، فايز نجيب، شارلمان والفتوحات الإسلامية لجزيرة كورسيكا في ضوء حوليات ملوك الفرنجة، المكتبة العلميّة، المنصورة ١٩٩٩م، ص ١١.

جَهَّزَ بينَ الَّذِي كانَ قد عهدَ إليه والده شارلمان بحكم إيطاليا وعيَّنه ملكاً عليها في عام (٨٠٦م) ووجَّهَ أسطولاً أبخرَ من الشواطئ الإيطالية لمواجهة المسلمين. وقد حدثت عدَّة معارك بينهم كانت بين كرٍّ وفرٍّ من الطرفين استمرَّت حتَّى عام (٨١٣م)، وقد حقَّق المسلمون عدَّة انتصارات وغنموا وأسروا الكثير.

يبدو أنَّ غاية المسلمين من فتح جزيرة كورسيكا لتحويلها إلى جسر متقدِّم لتسهيل الحملات التي كان يقوم بها الأسطول الإسلامي على ضفاف خليج الأسد وخليج جنوة، وكذلك على ساحل تسكانيا واللاسيوم. ونتيجة لهذه الحملات استنجد أهالي هذه الجزيرة بشارلمان، ووضعوا أنفسهم تحت حمايته، بسبب كثرة نشاط المسلمين من أندلسيين وأفارقة. فتوجَّه شارلمان لمواجهة المسلمين إذ تقاتل معهم في أكثر من معركة. وفي عام (٨١٣م) ترك المسلمون جزيرة كورسيكا بسبب الحروب المتكرِّرة من قبل شارلمان لاستعادتها، ولذلك سئم المسلمون من هذه الحروب وخسارتهم لعدد من الجنود، فعادوا إلى الأندلس محمَّلين بالغنائم والأسرى.

وقد علَّقَ بعض المؤرِّخين الغربيين على هذه الحروب التي بالغوا فيها وتجنَّوا على الإسلام والمسلمين، واعتبروا أنَّ مصائب كورسيكا خلال هذه الحروب كانت عظيمة لا يتخيَّلها عقل بشر، ومنهم بتروسرينو المؤرِّخ الكورسيكي من القرن الخامس عشر، الَّذِي كان بعيداً عن تلك الأحداث بسبِّة قرون، ولم يتوخَّ الإنصاف في كتاباته، ولم يتحرَّ الحقيقة بعيداً عن الأهواء والميول والتعصُّب الأعمى، وابتعد كلياً عن الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها كلُّ مؤرِّخ منصف أمين.

فلقد ترك المسلمون أثراً عميقاً في اللغة الكورسيكية، إذ نجد فيها الكثير من الألفاظ العربية، وحملت العديد من المدن والمواضع في كورسيكا أسماء عربية لا مجال لذكرها هنا، وكان هذا التأثير بطريق الحضارة لا بطريق الاستعمار كما كتب هذا المؤرِّخ^[1].

لقد تغلَّب المسلمون الفاتحون على الكورسيكيين بروحهم ولغتهم وعقيدتهم حتَّى اعتنق كثير منهم الإسلام، وتقمَّصوا الشخصية العربية الإسلامية، وأصبحوا يدينون بمبادئ

العرب المسلمين وتقاليدهم. وقد اعترف بذلك المؤرّخ الكورسيكي المحدث بيير أنتونتي في كتابه تاريخ كورسيكا، إذ قال: إنَّ دماء المسلمين اختلطت بدماء الكورسيكيين حتّى إنَّ جموعاً غفيرة منهم اعتنقت الدين الإسلامي بسبب مزاياه التي لا تعدُّ ولا تحصى. خاصّة على حدِّ قوله إعفاء معتقيه من دفع الجزية. وفي كتاباتهم الكثير من الإجحاف والحقّد والبعد عن الحقيقة والواقع، إذ يتّهمون المسلمين بأنَّهم غلاظ القلوب ومتعطّشون لسفك الدماء واحتقار المرأة ويفرّقون بين الكائنات البشريّة، وبحسب ادّعائهم أنّ الكورسيكيين ورثوا منهم هذه التقاليد، وقد ذهبوا بعيداً بظلمهم للإسلام، فالإسلام قائم على الرّحمة والعدل والمساواة بين كالبشر كافّة، وفي آياته البيّنات ما ينفي ويفنّد هذه المزاعم الظالمة^[1].

وقام شارلمان بعدّة حملات أخرى على المناطق المجاورة، ففي عام (٧٨٧م) شنّ حملة على البافار، وهم من الشعوب الجرمانية. فقد كانت سلطة الفرنجة في بافاريا اسميّة، وقد حاول دوقها تاسيلو (٧٤٨-٧٨٨م) أكثر من مرّة التخلّص من هذه التبعيّة الاسميّة لملك الفرنجة. ولكنّ محاولاته باءت بالفشل، إذ تمّ اعتقاله وإنهاء تمرّده في العام التالي (٧٨٨م)^[2].

تبع ذلك نشوب الحرب ضد الآفار، وهم شعوب آسيويّة، كان قدومهم في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، إذ استقرّوا في وادي الدانوب (السهل الهنغاري) وأسّسوا مملكة لهم امتدّت على طول الأراضي التي تكوّن في عصرنا الحديث الجزء الشرقيّ للمجر (هنغاريا)، ومن موقعهم هذا شنّ الآفار خلال القرنين السّادس والسّابع الميلاديين الغارات على الإمبراطوريّة البيزنطيّة وبلغاريا، حتّى اضطرّ أباطرة بيزنطة إلى أن يشتروا سكوت الآفار بدفع كمّيات كبيرة من الأموال^[3].

كانت الحملة الأولى ضدّ الآفار عام (٧٩١م) تحت قيادة شارلمان نفسه ويؤازره جيش آخر من اللومبارديين بقيادة ابنه بينن، واضطرّ الآفار - الذين استبدّ بهم الخوف إلى التخلّي عن الخطّ الأوّل من حصونهم في غابات فيينا، ولجأ بعضهم إلى الفرار وبعضهم الآخر وقع في الأسر، في حين لقي عدد كبير منهم مصرعهم، (خلال السنوات السبع من الحرب أريقّت

١- إسكندر، فايز نجيب، م.س، ص ٣١-٣٢.

[2]- Painter, H, A history of Europe (eng. Trans), London, 1961, P.78.

[3]- Keen, M, The pelican history of medieval Europe, London 1968, Pp.31- 32.

دماء غزيرة من الآفار، ونهب الفرنجة كمّيات كبيرة من الذهب والفضّة والأسلاب الأخرى) وقد انتهت هذه الحرب بانتصار الفرنجة وتدمير مملكة الآفار تدميراً كاملاً عام (٧٩٦م)^[١]. ولكن انتصارات شارلمان ومواجهه العسكرية جرى المبالغة فيها كثيراً من قبل مؤرخه إينهارد.

ثالثاً: تتويج شارلمان إمبراطوراً عام ٨٠٠م

كان ليو الثالث مشهوراً بدهائه السياسي، فقد تمكّن من كسب أهل روما إلى جانبه وانتخابه للبابوية في اليوم نفسه من دفن البابا هادريان في ٢٦ ديسمبر عام ٧٩٥م. ولمّا علم شارلمان بانتخاب ليو الثالث ساورته الشكوك في مستقبل الكنيسة، إذ اعتبر البابا ليو الثالث خصماً خطيراً له، وارتاب أيضاً من أخلاقه السيئة. لكنّه أرسل إليه رسالة تهنئة تنمّ عن التحية والمجاملة. وهناك نصيحة لها أهميّة خاصّة جاءت على لسان أنجيلبرت كبير قساوسة الملك، وهي: إنّ كلّ بابا جرى الاحتفاء به تشجيعاً له على العمل الصالح، أمّا البابا ليو الثالث فجرى تحذيره من السيمونية^[٢] والاهتمام بقوانين الكنيسة وعدم الاستهتار في الحياة. ولذلك كان للبابا ليو أعداء بين رجال الدين في روما. وقد سعى أعداؤه لطرده من منصبه بشتّى الوسائل، ومنها إشاعة ما عرف عنه من أخلاقه السيئة وممارسته الزنا والتزوير. ونتيجة لذلك تطوّرت الأوضاع سوءاً في روما تجاه البابا الذي بقي سجيناً في داره، وأخذ الناس في إيطالية وشمال جبال الألب يتساءلون في قلق ولهفة عن النتيجة.

لكنّ الأمر المثير للتساؤل هل يستطيع الملك شارلمان شرعاً أن يدين البابا ويعزله من منصبه؟ في الواقع سواء تمّ تبرئة البابا أو لم تتم، أصبح معروفاً أنّ نائب بطرس ليس إلّا ذنباً في جلد حمل. وبعد ذلك إلى مَنْ سيتوجّه المسيحيون ليهديهم؟ ولذا حصل في العالم المسيحي فوضى وانحلال في الدين، وخصوصاً بعد فقدان الإمبراطورية الشرقية في بيزنطة

1- Obolensky, D, The Byzantine commonwealth, London, 1971, Pp.95- 113.

٢- السيمونية: لفظ كنسي في مصطلح العصور الوسطى، ومعناه تعيين رجال الدين في الوظائف الكنسية بطريقة بيع الوظائف لمن يدفعون ثمناً أعلى. وهنا اللفظ مشتق من اسم سيمون الساحر الذي أراد الحصول على بركة الروح القدس من أحد الرسل أتباع السيد المسيح عليه السلام، ليقوم هو على بيع هذه البركة بثمن معلوم للراغبين في اعتناق المسيحية. انظر: فيشر. هـ تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: محمّد مصطفى زيادة والسيد الباز العربي، ج ١، القاهرة ١٩٥٤م.

مكانتها على يد إيرين؛ فقد انهارت البابوية في الغرب بعد طرد ليو الثالث وتلطّخت سمعة البابوية في العار، وفي الوقت نفسه انهارت الإمبراطورية في الشرق، وكان لوقوعهما معاً أثر كبير؛ فقد خشي رعايا المسيحيين من دخول المسيحيين إلى الإسلام^[1].

وفي عام (١٨٣هـ / ٧٩٩م) توجّه البابا ليو الثالث (٧٩٥-٨١٦ م) إلى شارلمان شاكياً إليه متمرّدين من سكّان روما قاموا بإهانته في (٢٥ نيسان عام ٧٩٩م) وأوسعوه ضرباً وانقضّوا عليه أثناء احتفال ديني عام، حين كان يسير في شوارع روما، وحاولوا سمل عينيه وقطع لسانه. فطلب ليو الثالث من شارلمان أن ينتقم له^[2].

وقد أراد شارلمان أن يقطع دابر الفضيحة وأن يبذل كلّ ما بوسعه لحفظ شرف البابوية، وفوق كل ذلك أراد أن يتجنّب إجراء محاكمة علنية، فقال: إنّ البابا ليس إلّا قاضياً لا ينبغي محاكمته. فسار شارلمان إلى روما لإعادة الهدوء والأمان إليها. ورأى أن من مصلحته تبرئة البابا الذي وعده بتتويجه إمبراطوراً على الفرنجة، وبالفعل تمّ تبرئة البابا ومعاقبة المتمرّدين^[3].

وبعد يومين من تبرئة البابا ليو الثالث، كان يوم عيد الميلاد فازدحم في كنيسة القديس بطرس حشد كبير من الفرنجة والرومان، حيث كان البابا يتلو القدّاس، فقام الملك وولدها بين وشارل بالركوع مع جماعة من البارزين أمام مذبح مشهد الرسل. وبينما كان شارلمان ينهض من ركوعه في ختام القداس، أخرج البابا تاجاً ووضع على رأسه، فهتفت الجموع المحتشدة: (إلى شارل أغسطس، المتوّج من قبل الله، الإمبراطور العظيم، المحبّ للسلام، اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر). كان ذلك في (٢٥ كانون الأوّل عام ٨٠٠م). على أنّ مظاهر التتويج بلغت من الدقّة والتنظيم من الصعب أن تحدث دون أن يكون هناك اتفاق مسبق. ولم يبدُ على شارلمان أنّه أخذ على غرّة؛ لأنّه قبل التاج والعباءة الإمبراطورية بهدوء ورضا تام. ويروي لنا مؤرّخ بيزنطي ماكر أنّه جرى مسح شارلمان بالزيت من قمّة رأسه إلى

١- ديفز، هنري كارلس، شارلمان، نقله إلى العربية: الدكتور السيد الباز العريني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩م، ص ١٦٩-١٧١.

2- Levick . B, Greece and Asia Minor, Cambridge medieval history, vol 11, Cambridge 1936 – 1948, Pp.619– 621.

٣- ديفز، هنري كارلس، المرجع السابق، ص ١٧٢-١٧٤.

أخمص قدميه. على أنَّ هذه الطقوس كانت مألوفة في تنويع الأباطرة^[١].

ويشير دليل آخر على أنَّ كلَّ الصور التقليديَّة جرت مراعاتها، وفي الوقت نفسه تمَّ تنويع الابن الأكبر للإمبراطور على أنَّه المرشَّح لأنَّ يتولَّى بعده مملكة الفرنجة.

من الواضح أنَّ التنويع قام به جماعة. ولا بدَّ أنَّ البابا ليو الثالث كان متأكِّدًا من حضور هذا الجمع وأنَّ البطريك سيكون حاضرًا أيضًا. على أنَّ واحدًا من المؤلِّفين ويُعتبر من المصادر الموثوقة أشار بإنصاف إلى سبب مقبول عن ثقته، فحوليات لورش افترقت عن الرواية الرسميَّة للقصة فذكر أنَّ البابا ليو سبق أنَّ استشار رجال الدين وأعيان الفرنجة والرومان وقرروا: بما أنَّ شارلمان امتلك روما أمَّ الإمبراطوريَّة ومدنًا كبيرة أخرى، فلا بدَّ أنَّ يتَّخذ اللقب الإمبراطوري، بالإضافة إلى أنَّه لم يعد في القسطنطينيَّة إمبراطورًا، وسيسخر المتبرِّرون بالعالم المسيحي إذا بقي دون زعيم^[٢].

على أنَّنا نفترض أنَّ ما حدث تمَّ بسرعة كبيرة أكثر ممَّا أَرادها الملك. ومن الواضح أنَّه كان من مصلحة البابا ليو الثالث أن يتَّوجَّ شارلمان بيديه حامي الكرسي الرسولي الذي منحه البراءة المزيَّفة أمام الجميع. ما فعله ليو الثالث إنَّمَا يدلُّ على أنَّ هناك ترتيبًا مسبقًا لمنح شارلمان اللقب الإمبراطوري، على عكس ما ذكره إينهارد من أنَّ سيِّده شارلمان قال: (لولا أنَّ هذا اليوم هو يوم ميلاد المسيح، ولو علم مسبقًا ما سيفعله البابا، ما وطئت قدماء أرض الكنيسة في ذلك اليوم)^[٣].

تعدُّ رواية إينهارد هذه محيرة للغاية وتدعو إلى الشكِّ والريبة. هل فعلاً شارلمان لم يكن يرغب في التاج الإمبراطوري؟ معظم الباحثين المحدثين يؤكِّدون أنَّ التنويع كان تلبية لرغبة شارلمان وطموحاته في التاج الإمبراطوري. وربما تبرَّم شارلمان من الطريقة التي تمَّ فيها التنويع، وفي رأي مؤرِّخين آخرين أنَّ عدم اغتباط شارلمان بهذا الحدث ربَّما يرجع إلى أنَّه كان يرى أنَّه من الأجدر به الحصول على اللقب بنفسه دون تقليد مباشر من البابويَّة حتَّى

١- ديفز، هنري كارلس، المرجع السابق، ص ١٧٩.

٢- المرجع نفسه، ص ١٨٠.

٣- رستم، أسد، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج ٢، دار النور بيروت، ١٩٥٥-١٩٥٦م، ص ٣١٣.

لا يجعل للبابا سلطاناً عليه، فمن المحتمل أنه كان يرغب في إعداد حفل خاص يليق بهذه المناسبة، ومن ثم لا يليق بشارلمان أن يأخذ التاج من يد أحد رجال الكنيسة، ولو كان البابا نفسه^[1].

وفي المقابل لو كان شارلمان قادراً على الحصول على اللقب الإمبراطوري بنفسه وبدون مساعدة البابا ليو الثالث لكان فعل، حتى لا يبقى مديناً للبابا وخاضعاً لسلطانه.

كان لتتويج شارلمان إمبراطوراً نتائج بالغة الأهمية، إذ جاء ضربة قاصمة لبيزنطة التي ظلت تعدّ نفسها حتى ذلك الحين الإمبراطورية الوحيدة الوريثة الفعلية للإمبراطورية الرومانية القديمة، وعلى هذا الأساس لم تعترف بيزنطة بتولية شارلمان إمبراطوراً بل عدّته مغتصباً، ولكن البابوية عدّت عرش الإمبراطورية البيزنطية شاغراً بعد عزل الإمبراطور الشرعي قسطنطين السادس عام (١٨١هـ / ٧٩٧م)، في الوقت الذي جرى فيه اعتبار تولية امرأة في الحكم (إيرين) مخالفاً للتقاليد الرومانية^[2].

وهكذا نجد أن فحوى حادث عام (١٨٤هـ / ٨٠٠م) ومغزاه لا يزال محيراً في نظر المؤرخين، ولكن لا شك أن هذا التتويج كان يشكّل الخطوة النهائية لجهود البابوات في سبيل ربط أنفسهم بالكارولنجيين^[3].

رابعاً: علاقات شارلمان الخارجية

عقد شارلمان عدّة أحلاف مع بعض الملوك والأمم المعاصرة له، فقد تحالف مع ألفونسو ملك جيليفية واشتورياس في منطقة إسبانيا. وكسب صداقة الملوك الاسكوتلانديين (الإيرلنديين)، وخاطبوه بلقب سيدهم. وما يهّمنا من تلك العلاقات هي التي كانت بين شارلمان والخليفة هارون الرشيد، الذي حكم معظم بلاد الشرق باستثناء الهند، فقد أثر هذا الأمير مودة شارلمان على كل ملوك الأرض وحكامها. فقد بنى شارلمان علاقته مع هارون الرشيد، وعندما أرسل شارلمان سفراءه لزيارة القبر المقدس، مثلوا بين يدي الرشيد ومعهم

1- Cantor, N. F, The Medieval history, London, 1969, P.200.

٢- حسن، عادة، وعبود، هبة، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

3- Ostrogorsky, G, History of the Byzantine state, Oxford 1956, Pp.176- 177.

الهدايا ونقلوا له رغبات سيدهم شارلمان، فمنحهم الرشيد كل ما طلبوه، وأعطاهم حق امتلاك القبر المقدس، تلك البقعة المقدسة المباركة^[1].

ففي عام (٧٩٧م) أرسل شارلمان إلى هارون الرشيد سفراء، وعندما عاد السفراء إلى بلادهم بعث الرشيد سفراء معهم إلى شارلمان يحملون الهدايا الفاخرة إضافة إلى مواد وعطور ومنتجات قيمة أخرى من البلاد الشرقية. وقبل ذلك بسنوات قليلة كان شارلمان قد طلب من هارون الرشيد فيلاً، فبعث إليه بالفيل الوحيد الذي كان يملكه، وكان هذا الفيل مجهزاً بأفخر جهاز (من المعروف أن أوروبا كانت تجهل الفيل حتى ذلك الوقت، بل إنه منذ أيام هانيبال لم ير الأوروبيون في بلادهم فيلاً). وقد ظل هذا الفيل يعتبر مدة تسع سنوات أجمل ما يتصف به الثقل الحربي لشارلمان من أبهة وعظمة. وقد جرى استخدام هذا الفيل في الحرب بين شارلمان والدانمركيين^[2].

وفي عام (٨٠٧م) أرسل شارلمان سفارة مرة أخرى، وفي هذه السفارة أرسل هارون الرشيد إلى شارلمان ساعة مائية تحدد الوقت من خلال الكرات البلورية المتساقطة بطريقة ميكانيكية تخرج على هيئة فرسان، كل واحد منهم يدل على ساعة معينة، عندما يخرجون من خلال الأبواب التي تغلق خلفهم، ثم تفتح من جديد لكي يعودوا. وقد أذهلت هذه الساعة شارلمان وحاشيته، بالإضافة إلى هدايا أخرى من الحرير والشمعدانات النحاسية، هذه الهدايا ربما كان لها تأثيرها في الفن الكارولنجي^[3].

ويبدو أن شارلمان كانت له مصالح سياسية وتجارية كبيرة رغب في تحقيقها من وراء علاقته الدبلوماسية مع الرشيد، منها: تسهيل وصول زوار وحجاج وتجار الغرب الأوروبي إلى الأماكن المقدسة، والضغط على البيزنطيين - أعداء العباسيين - ليعترفوا به إمبراطوراً على الغرب. أمّا هارون الرشيد فربما رغب بتجنّب قيام تحالف هجومي بين بيزنطة والفرنجة ضدّ بلاده. وربما يصحّ ما تُردده بعض المراجع الأوروبية من أن الرشيد رغب في غرس شوكة في جنب الأمويين في الأندلس. أمّا بالنسبة إلى ما ذكره إينهارد أنّ الرشيد منح شارلمان

١- إينهارد، المصدر السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

٢- لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعير، مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة، القاهرة ٢٠١٢ م، ص ٢١٥.

٣- بيشوب، موريس، المرجع السابق، ص ٣٢.

حقّ امتلاك القبر المقدّس، فإنّ ذلك موضع شكّ؛ وذلك للاعتبارات الآتية: إنّ هذه الرواية لم تصل إلينا إلّا من خلال ثلاثة مصادر لاتينية، ومنها رواية إينهارد الغامضة هذه. ولم تذكر المصادر العربيّة والبيزنطيّة واللاتينيّة الأخرى أيّة إشارة إلى هذه المسألة.

وقد كانت الأراضي المقدّسة في فلسطين، وخاصّة مدينة القدس، ذات أهميّة دينيّة وسياسيّة بالغة بالنسبة إلى العرب والمسلمين جميعاً، واهتمّ بها الخلفاء العبّاسيون الأوائل اهتماماً متميّزاً، إذ زاروها ورّمّموا مساجدها، ومن ثمّ فإنّه من المستبعد أن يمنح الرشيد امتيازات مهمّة في فلسطين لعاهل أجنبي، إلّا إذا اعتبرنا أنّ سياسة الرشيد قامت على تنازل شكلي مقابل أهداف أخرى أكثر أهميّة بالنسبة إليه. خاصّة أنّ السيادة على القبر ستبقى منقوصة ولا تعطي لشارلمان امتيازات الوصول إلى هذا القبر.

ويذكر إينهارد أنّ شارلمان كان شديد الرغبة في مساعدة الفقراء وفي تقديم الهبات للفقراء. ولم يقتصر عطاؤه للفقراء على أبناء بلده أو مملكته فحسب، وإنّما اعتاد أن يبعث الأموال إلى ما وراء البحار، إلى سورية ومصر وإفريقية وبيت المقدس والإسكندريّة وقرطاجة، لمساعدة الفقراء المسيحيين الذين سمع بسوء أحوالهم في تلك البلاد^[1].

يقع المؤرّخ إينهارد في هذه المسألة في أخطاء تاريخيّة، ويطلق أحكاماً غير دقيقة؛ ذلك أنّ أحوال المسيحيين العرب الاقتصاديّة في ظلّ الخلافة العبّاسيّة كانت هي نفسها أحوال العرب المسلمين، بل ربّما كانت أفضل في بعض المجالات، فيقول أرنولد في هذا الصدد: إنّ المسيحيين كانوا في العصر العبّاسي يجمعون أموالاً وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة، حتّى إنّ هذه الثروة أثارت طمع الدهماء بهم. كما أنّ الطبيب الخاصّ للخليفة هارون الرشيد، وهو طبيب مسيحيّ نسطوري اسمه جبريل، قد بلغ إيراده السنوي (٨٠٠,٠٠٠) درهم من أملاكه الخاصّة، فضلاً عن راتب قدره (٢٨٠,٠٠٠) درهم في السنة، مقابل عنايته بمعالجة الخليفة^[2].

١- إينهارد، المصدر السابق، ص ١٤٠.

٢- توماس، أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصريّة، ط ٣، القاهرة ١٩٧١م، ص ٨٣.

خامسًا: أسرة شارلمان وحياته الخاصة

تزوج شارلمان من إحدى بنات ديسيدريوس ملك اللومباردين عام (٧٧١م) استجابة لرغبة والدته برترادة، غير أنه طلقها في نهاية العام نفسه لسبب غير معروف. بعد ذلك تزوج شارلمان من هلد جارد عام (٧٧١م) وبقيت زوجته حتى وفاتها عام (٧٨٣م)، ورزق منها بثلاثة أولاد، هم شارل وبينين ولويس، كما أنجبت له ثلاث بنات، وتزوج شارلمان زوجة ثالثة فاسترادة، وهي من منشأ فرنجي شرقي، وأنجبت له بنتين. وعند موت فاسترادة تزوج شارلمان من ليوتجارد، وهي امرأة ألمانية لم تنجب له أولادًا. واتخذ بعد موتها ثلاث خليلات^[١].

خضع شارلمان في كل مراحل حياته لتأثير النساء، وكان شارلمان زوجًا متيمًا بزوجاته، ووالدًا شديد التهاون مع أبنائه. وكانت نساء القصر يصحبنه في جميع أسفاره، ويقمن إلى جانبه، سواء أقام حفلة عيد الميلاد في المعسكر في بافية أو بين مستنقعات وغابات سكسونية. وكانت زوجاته يعتبرن وزراء الدولة، وكان لكلمتهنَّ عنده من الوزن ما ليس لكلمة حاشيته من الرجال. ومن نساء القصر التي اشتهرن بنفوذهنَّ ليوتجارد وهلدجارد، أما فيما يتعلق بـ فاسترادة، فقد نقلت إلى البلاط كل ما اشتهر به مسقط رأسها من العداوات المريبة والكراهية العنيفة. وقد أشبع زوجها تعطشها للانتقام، إلا أنه دفع في ذلك ثمنًا غاليًا^[٢]. أما بناته، فلم يكنَّ في درجة الملكات من النفوذ، غير أنَّهنَّ شاركن أيضًا فيما جرى بالبلاط من التآمر. ووجد الطامحون من الرجال في مصاحبتهنَّ فائدة لهم. فكان كل شخصٍ مقربٍ من أميرة يحصل على وظيفة عن طريقهنَّ^[٣].

ومن أشدَّ الأمور غرابة، أنَّ بنات شارلمان كنَّ في غاية الجمال، وأنَّ شارلمان أحبَّهن كثيرًا، غير أنه لم يسمح لهنَّ بالزواج إطلاقًا من أي شخص تقدَّم لخطبتهنَّ، سواء من بني قومهم أو من أجنبي، وبلغ من شدة تعلقه ببناته أنه استبقاهنَّ جميعًا في البيت حتى موته مدَّعيًا بأنَّه لا يطيق فراقهنَّ^[٤].

١- إينهارد، المصدر السابق، ص ١١٥-١١٨.

٢- ديفز، هنري كارلس، المرجع السابق، ص ٢١١-٢١٣.

٣- المرجع نفسه، ص ٢١٢.

٤- إينهارد، المصدر السابق، ص ١٢٢.

يبدو أنَّ عدم سماح شارلمان لبناته بالزواج له علاقة بالسياسة؛ لأنَّ مشروعات الزواج التي وافق عليها، أملت لها ظروف سياسيَّة معيَّنة، وعندما لم تتحقَّق أو لم يكن بالإمكان تحقيق النتائج السياسيَّة لمشروعات المصاهرة كان ينهار مشروع الزواج برمَّته. ومن ناحية أخرى بسبب خوفه من أن يفرد الصهر بالمملكة مع مرور الزَّمن، ويتنقل الحكم إلى أسرة أخرى. هذا بخلاف ما يذهب إليه إينهارد أنَّه لا يطيق فراق بناته لذلك لم يسمح لهنَّ بالزَّواج، وفرض عليهنَّ أن يلتزمن بالقصر ولا يخرجن. وقد تحمَّل شارلمان وتغاضى عن جميع الشَّائعات الدَّائرة حولهنَّ، ولم يلتفت إلى الشكوك والشبهات التي أحاطت بشرفهنَّ^[1].

من المعروف أنَّ بنات شارلمان قد وجدن متنقِّساً في قصره المليء بالوجهاء من الرِّجال بأنَّ أقمن علاقات حبٍّ مع بعضهم، الأمر الذي فاحت رائحته وكان سبباً في بعض المتاعب التي كان على شارلمان أن يعالجها بسرِّيَّة تامَّة حرصاً على سمعة البيت الكارلوني المالك. بالإضافة إلى أنَّ حياته الخاصَّة وحياة أصدقائه المقربين شابها قدر كبير من الخشونة الاستراتيجيَّة والاستهتار النوستيري. ولا يستطيع إينهارد أن ينكر هذا العيب، مهما ازداد حماسه لحماية سمعة سيِّده. واشتهرت دار شارلمان باستهتار كبار أفرادها، وحفلت الطرق الواقعة بأطراف القصر بشخصيَّات ذوي سمعة سيِّئة. ومن الطبيعي أن تنحطَّ الحفلات والمآدب وتحوَّل إلى عريضة وسكر. وقد ينكر سيِّد البيت مرح أتباعه إلَّا أنَّه لا يجرؤ على منعهم. وقد وجد لويس التقيُّ صعوبة لا حدَّ لها في استئصال الرذائل البالغة السوء. وما حدث من تمجيده للقوانين الأوَّلية للأخلاق، يقابله كثرة ما قيل عن إهمال هذه القوانين في زمن حياة أبيه^[2].

لم يسلم سلوك شارلمان من الشوائب والتعرُّض للوم، فبعد أن طلق زوجته اللومبارديَّة عقد ثلاث زيجات سريعة متتالية، إذ تزوج هلدجارد وفاستراده وليوتجارد، وهذا يدلُّ على

١ - عبيد، إسحق، الإمبراطوريَّة الرومانيَّة بين الدين والبربريَّة، مع دراسة في كتاب مدينة الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٢٢٤.

2- Fichtenau, H., The Carolingian empire, (Eng. Trans), oxford classical dictionary, Oxford 1970, P.42.

أنَّه رجل خشن الملمس جامد الشعور. وقد عقد عدَّة زيجات أخرى ثانويَّة في أواخر حياته بعد أن تجاوز السَّتين من عمره. وقد التزمت الكنيسة الصَّمت في أثناء حياته، إذ لا يصحُّ أن تنكر متعة تافهة على حاميتها الأمين. وعندما مات شارلمان بادر أهل التقوى إلى الأخذ بالثأر الذي طال تأجيله، فأمعنوا في تجريح ذكره كيفما شاؤوا، فالإمبراطور أضحى موضوع أسطورة لقيت ذيوغاً وانتشاراً^[١].

سادساً: الحياة الثقافيَّة في عهد شارلمان

رعى شارلمان بحماسة بالغة الفنون الحرَّة (النَّحو والبلاغة والمنطق والهندسة والفلك والموسيقا)، فخصَّ أولئك الذين يعلِّمونها بقدر كبير من الاحترام، وأنعم عليهم بكثير من التَّقدير. ومن أشهر العلماء ألبين البريطاني الملقَّب باسم ألكوين، وهو رجل منحدر من أصل سكسوني^[٢]. قام ألكوين في المرحلة الأولى من حياته بتنظيم مدرسة القصر وسائر المدارس التي من هذا النوع، وفي المرحلة الثَّانية حارب الأيقونيَّة وانتصر عليها. أمَّا في المرحلة الثَّالثة، فقد أنشأ في مدينة تور^[٣] مدرسة ديريَّة أصبحت نواة لمدارس أخرى كثيرة. ومدرسة القصر هذه لم تكن وليدة عصر شارلمان، بل إنَّ جذورها تمتدُّ إلى العصر الميروفنجي، إلَّا أنَّه كان ينقصها النظام والتبلور والعلم الحقيقي.

والجدير بالذكر أنَّه كان من أهمِّ تلاميذ ألكوين شارلمان نفسه وزوجته ليوتجارد وأولاده وابنته جيزلا وكثيرون غيرهم من رجال قصره ونبلائه^[٤]، الذين كانوا يحاولون تعلُّم الكتابة في هذا الزمن، ولهذا الغرض اعتاد شارلمان أن يحتفظ بألواح الكتابة والقراطيس في السرير تحت وسادته، وذلك لكي يدرِّب يده في أوقات الفراغ على رسم الحروف. غير أنَّ شارلمان

١- ديفز، هنري كارلس، المرجع السابق، ص ٢١٤.

٢- إينهارد، المصدر السابق، ص ١٣٤-١٣٥.

٣- مدينة تور: مدينة فرنسيَّة تقع على بعد نحو (٢٠٦ كم) إلى الجنوب الغربي من باريس، وقد أطلق الجغرافيون العرب على مدينة تور اسم (طرنش). انظر: الحميري، محمَّد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط ٢، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤م، ص ٣٩١.

٤- حسن، غادة، وعبود، هبة، المرجع السابق، ص ٣٣٩.

بدأ بالتعلُّم في سنٍّ متقدِّمة من حياته، ولهذا فلم يجنِ ثمارها^[١].

إنَّ حديث إينهارد هذا يعتبر دليلاً قاطعاً على الفروق الحضاريَّة بين الغرب والشرق في العصور الوسطى. ففي الوقت الَّذي كانت فيه بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها من المدن العربيَّة، تشكِّل مراكز ثقافيَّة عالميَّة في شتَّى مناحي المعرفة الإنسانيَّة، وفي الوقت الَّذي توافد فيه إلى بغداد، في رجال الفنِّ والأدب من جميع الملل والنحل، كان شارلمان ورجال بلاطه ونبلاء مملكته، كما يشهد المؤرِّخ إينهارد نفسه بذلك، يحاولون أن يتعلَّموا كيف يكتبون أسماءهم^[٢].

إنَّ سياسة شارلمان في المجالات الثقافيَّة وما أدَّت إليه من نشاط أدبيٍّ وغيره جعلت بعض المؤرِّخين فيما بعد يطلقون على هذا النشاط اسم النهضة الكارولنجيَّة. غير أنَّ هذه النهضة تميَّزت بأنَّها كانت نهضة مصطنعة ولم تنبع من عوامل حضاريَّة كامنة، وإنَّما ولدت في بلاط شارلمان وخمدت جذوتها بالسرعة الَّتِي ظهرت بها. كما أنَّ هذه النهضة كانت ضيِّقة الأفق قصيرة العمر؛ لأنَّها ارتبطت في مولدها ونشأتها برجل واحد يتعهَّدها ويرعاها وزالت مع زواله وزوال أقطابها. كما كانت النهضة الكارولنجيَّة حركة إحياء أكثر منها حركة ابتكار وتجديد؛ وذلك لأنَّها خلت من الإبداع والأصالة وطغى عليها النقل والتقليد؛ فلقد كان البعث المدرسيُّ أشبه بيقظة الأطفال منه بالنضوج الثقافيِّ الَّذي كان قائماً وقتئذٍ في القسطنطينيَّة وبغداد وقرطبة وغيرها، فلم يثمر هذا البعث كتاباً كبيراً من أيِّ نوع كان كالذين أنتجتهم الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة^[٣].

١ - إينهارد، المصدر السابق، ص ١٣٧.

٢ - لوبون، غوستاف، المرجع السابق، ص ٢١٤.

3- Pirenne, H., A history of Europe, (Eng. Trans), London, 1961, Pp.278- 281

سابعًا: وفاة شارلمان

في أواخر حياة شارلمان اعتلّت صحته بسبب المرض والشيخوخة، فاستدعى ابنه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة، لويس التقي ملك أقطانية، ثمّ جمع كلّ زعماء مملكة الفرنجة في اجتماع كبير. وفي هذا الاجتماع عين شارلمان ابنه لويس التقي بموافقتهم الإجماعية، ليحكم بنفسه المملكة كلّها، ونصّب به وريثًا للقب الإمبراطوري، وذلك في عام (٨١٣م). وفي أواخر عام (٨١٣م) مرض شارلمان إذ أصابته حمى شديدة ألزمته في الفراش، وبقي يصارع المرض حتّى توفّي في بداية العام التالي في شهر كانون الثاني عام (٨١٤م)، وكان في الثانية والسبعين من عمره، قضى منها (٤٧) عامًا في الحكم^[١]. وبذلك انهارت هذه الإمبراطورية التي شيدها شارلمان، إذ سرعان ما سقطت فريسة الصراعات والاضطرابات الداخلية والهجوم عليها من الخارج^[٢].

ولكن على أيّ حال، فإنّ شارلمان طبع في أذهان الغرب الأوروبي إنجازاً عظيماً ومثالاً لحاكم عظيم، وترك لهم أسطورة واسماً له سحره ووزنه في ميدان البطولة.

١ - إينهارد، المصدر السابق، ص ١٤٨-١٤٩.

٢ - بيشوب، موريس، المرجع السابق، ص ٣٦.

خاتمة

إنَّ أسطورة شارلمان التي ذاعت وانتشرت في العصور الوسطى ما هي إلَّا وهمٌ ومحض خيال، قام بتعظيمها وتفخيمها أمين سرّه ومؤرّخه إينهارد، الذي عاش في بلاط شارلمان وحظي بالكثير من الهبات والأعطيات والمناصب، ورغب في أن يكون وفيّاً لسيّده ولو على حساب الحقيقة التاريخية. فقد ألّف كتابه (سيرة شارلمان)، الذي أخذنا منه في هذا البحث، ويعدُّ المصدر الرئيس عن شخصيّة شارلمان وأعماله الداخليّة والخارجيّة، ولكن من خلال ما ورد في هذا الكتاب نجد أنَّ إينهارد يتعد عن الموضوعيّة، إذ إنّه بالغ في بعض المسائل أشدَّ المبالغة لرفع شأن سيّده في حين أهمل بعضها، وتحاشى عن ذكر كلِّ ما يمكن أن يؤثّر في سمعة سيّده. فقد تجاهل إينهارد الجرائم التي ارتكبتها سيّده، مثل مذبحه فردان التي أعدم فيها (٤٥٠٠) سكسوني في يوم واحد، لأنّهم كانوا يدافعون عن حرّيتهم واستقلال بلادهم، بالإضافة إلى رفضهم اعتناق الديانة المسيحيّة الكاثوليكيّة، وارتكب بحقّهم سياسة التهجير القسريّ إلى مناطق أخرى من الإمبراطوريّة الفرنجيّة لإضعاف الروح الوطنيّة والثوريّة لديهم. وقد بالغ إينهارد في الانتصارات التي حقّقها سيّده في حروبه الخارجيّة في حين أغفل أحياناً الهزائم التي مني بها. وبرّر لشارلمان الإجراءات التي كان يتّخذها حرصاً منه على ألاّ يُطعن من الأجيال القادمة. بالإضافة إلى ذلك فقد نسب إينهارد إلى شارلمان من الصّفات والخصال والجاذبيّة ما لم يرد له ذكر في المصادر الأخرى وما لا يكاد يتّفق مع الواقع التاريخيّ.

كان شارلمان مولعاً بالنساء فقد عقد عدّة زيجات ثانويّة بعد أن تجاوز عمره السّتين عاماً، والتزمت الكنيسة الصمت ولم تجرؤ على الاعتراض على تصرّفاته المشينة إلَّا بعد وفاته. وقد خضع شارلمان في كلّ مراحل حياته للنساء، وكانت نساء القصر يصحبنه في جميع رحلاته ويقمن إلى جانبه، ويشاركنه في اتّخاذ القرارات، وكان لكلمتهنّ مكانة عالية عنده أفضل من كلمة رجال بلاطه.

ولم يسمح شارلمان لبناته بالزّواج مدّعياً أنّه لا يطيق فراقهنّ، ولكن ذلك غير واقعيّ، فقد عقد عدّة مصاهرات لتحقيق مكاسب سياسيّة، ولكنّها فشلت بفشل تلك المصالح. كما تجاوز إينهارد عن أخلاقيّات بنات شارلمان، اللواتي كانت سمعتهنّ سيّئة، فقد كانت لهنّ

علاقات مشبوهة مع بعض رجال البلاط، حرصاً منه على ألا يلحق الإساءة بسمعة أبيهنّ شارلمان، الذي حاول حلّ المسائل المتعلقة بشرفهنّ بسريّة تامّة.

ويبتعد إينهارد في كتابه كلّ البعد عن الحقيقة التاريخية في الإشارة إلى العلاقات الوديّة التي قامت بين شارلمان والخليفة العبّاسي هارون الرشيد ومراميها وأهدافها، إذ امتزجت في روايته الأساطير والأوهام والمغالطات، وأثار مسائل بالغة الأهميّة والخطورة، إلّا أنّه كشف وربّما دون أن يدري مطامع القوى السياسيّة الاستعماريّة الغربيّة في المشرق العربي عامّة وفلسطين خاصّة، منذ تلك الفترة المبكّرة من تاريخ العصور الوسطى.

وعلى الرغم من أنّ شارلمان كان أميّاً ولم يكن عالماً أو متعلّماً، فقد وجّه عناية خاصّة إلى الحركة العلميّة، واهتمّ بجمع الكتب القديمة، وخاصّة مؤلّفات اللاتين القدامى في إيطاليا وغيرها من دول الغرب الأوروبي، وقد استدعى إلى عاصمته إكس لاشايل جمعاً كبيراً من كبار علماء عصره ومثقّفيه، من الأدباء والفلاسفة والمفكرّين وعلماء اللاهوت وضمّهم إلى بلاطه، واستدعى من إنكلترا ألكوين للاشتغال في أمور العلم والتعليم في مدرسة القصر المشهورة التي أسّسها في عاصمته لتعليم أبنائه وأبناء كبار رجال حاشيته. ولكنّ هذه النهضة الكارولنجيّة كانت نهضة مصطنعة، فقد ولدت في قصر شارلمان وخمدت جذوتها بالسرعة التي ظهرت فيها، فقد ارتبطت بشخصيّة رجل واحد وزالت بموته، إذ خلت من روح الإبداع والأصالة وطغى عليها النقل والتقليد.

ويعترف إينهارد نفسه بالفروق الحضاريّة الهائلة بين المشرق العربيّ الإسلاميّ من جهة، والغرب الأوروبي في عصر شارلمان من جهة أخرى. ففي الوقت الذي كان فيه شارلمان نفسه ورجال بلاطه يحاولون أن يتعلموا القراءة والكتابة دون نجاح ملموس، كانت فيه بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها من المدن العربيّة تشكّل مراكز ثقافيّة عالميّة في شتّى مناحي المعرفة الإنسانيّة. بالإضافة إلى الهدايا التي أرسلها الخليفة هارون الرشيد إلى شارلمان والتي كان لها تأثير في الفنّ الكارولنجي فيما بعد، وقد أذهلت الساعة المائيّة شارلمان ورجال بلاطه. وفي هذا دليل أيضاً على تقدّم المشرق العربيّ الإسلاميّ على الغرب من الناحية العلميّة في ذلك الزّمن.

يعدُّ تنويع شارلمان إمبراطوراً أهمَّ أحجية مثيرة للجدل في تاريخ العصور الوسطى، وعلى الرغم من كلِّ ما قيل وتعدُّد وجهات النَّظر بهذه المسألة حول دوافع وظروف وملابسات ونتائج هذا التَّويع الَّتِي تَرَتَّبَ عليه على صعيد الفكر السِّياسيِّ والواقع التَّاريخي، إلَّا أنَّه تجدر الإشارة إلى أنَّ منح لقب (الإمبراطور الروماني) لملك من ملوك الجرمان البرابرة، على يد البابا أمر ليس له سابقة تاريخيَّة، وترتَّب عليه صراعات خطيرة شغلت حيِّزاً كبيراً في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، هذا بالإضافة إلى أنَّ تنويع شارلمان أدَّى إلى إحياء الإمبراطوريَّة في القسم الغربي الأوروبي، وبذلك أصبح في العالم الرومانيِّ إمبراطوريتان: البيزنطية في الشَّرْق وعاصمتها القسطنطينية، والفرنجية في الغرب وعاصمتها إكس لاشابيل (آخن)، غير أنَّ عوامل الانحلال والتَّدهور أخذت تدبُّ في أوصال إمبراطورية شارلمان بعد وفاته، حتَّى كأنَّ هذه الإمبراطورية ذهبت مع مؤسَّسها إلى القبر. ويعدُّ شارلمان نفسه مسؤولاً عن تحطيم إمبراطوريَّته، ذلك أنَّه قام بتقسيمها بين أبنائه الثلاثة عام (٨٠٦ م)، ليحول دون وقوع حرب وراثيَّة فيما بينهم، وبطبيعة الحال فقد تَرَتَّب على سياسة التَّقسيم الَّتِي اتَّبَعها شارلمان وابنه وخليفته لويس التَّقِيَّ اندلاع الحرب الأهليَّة بين أبناء الأسرة المالكة.

لائحة المصادر والمراجع

١. إسكندر، فايز نجيب، شارلمان والفتوحات الإسلامية لجزيرة كورسيكا في ضوء حوليات ملوك الفرنجة، المكتبة العلمية، المنصورة ١٩٩٩ م.
٢. إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمه وقدّم له وعلّق عليه: د. عادل زيتون، الطبعة الأولى، دار حسن للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٩ م.
٣. بروفنسال، ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرموط، دار مكتبة الحياة، بيروت. د. ت.
٤. بيشوب، موريس، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيّد علي، المشروع القومي للترجمة، الطبعة الأولى، العدد ٥٦٦، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥ م.
٥. توماس، أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٧١ م.
٦. جوني، وفاء، وونوس، عامر، الصراعات السياسية وتقسيم الإمبراطورية الكارولنجية (٢١٤-٢٢٩ هـ/ ٨٢٩-٨٤٣ م)، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية- المجلد ٣٩ - العدد ٦ - اللاذقية ٢٠١٧ م.
٧. حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، العصر العباسي الأوّل في الشرق ومصر والمغرب الأندلس، الجزء الثاني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٧ م.
٨. حسن، غادة، وعبود، هبة، النهضة الكارولنجية زمن شارلمان (١٥١-١٩٩ هـ/ ٧٦٨-٨١٤ م)، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية- مجلد ٣٨، العدد ٥، اللاذقية ٢٠١٦ م.
٩. حميري، محمّد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، الطبعة الثانية، تحقيق: إحسان عبّاس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤ م.
١٠. دوسن، كرستوفر، تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة: د. محمّد مصطفى زيادة، و د. سعيد عبد الفتّاح عاشور، القاهرة ١٩٦٧ م.

١١. ديفز، هنري كارلس، شارلمان، نقله إلى العربيّة: الدكتور السيّد الباز العريني، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٩ م.
١٢. رستم، أسد، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، الجزء الثاني، دار النور، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٦ م.
١٣. رينهارت، دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة: حسن حبشي، الجزء الأوّل، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣ م.
١٤. رينو، جوزيف، الفتوحات الإسلاميّة في فرنسا وإيطاليا وسويسرا، تعريب وتعليق وتقديم: إسماعيل العربي، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٤ م.
١٥. طرخان، إبراهيم علي، المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الكتب، القاهرة ١٩٦٦ م.
١٦. عبيد، إسحق، الإمبراطوريّة الرومانيّة بين الدين والبربريّة، مع دراسة في كتاب مدينة الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢ م.
١٧. فيشر. هـ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: محمّد مصطفى زيادة والسيّد الباز العريني، ج١، القاهرة ١٩٥٤ م.
١٨. لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسّسة هنداوي للنشر والثقافة، القاهرة ٢٠١٢ م.
١٩. موس، سانت، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة وتحقيق: عبد العزيز جاويد، دار الاتحاد، القاهرة ١٩٦٧ م.

المصادر والمراجع الأجنبية

1. Cantor, N. F., The Medieval history, London, 1969.
2. Eck. W., The emperor and his advisers, Cambridge medieval history, vol 11, Cambridge 1936– 1948.
3. Fichtenau, H., The Carolingian empire, (Eng. Trans), oxford classical dictionary, Oxford 1970.
4. Keen, M., The pelican history of medieval Europe, London 1968.
5. Levick . B., Greece and Asia Minor, Cambridge medieval history, vol 11, Cambridge 1936 – 1948.
6. Moore.W.G., The penguin encyclopedia of places, Great Britain 1978.
7. Obolensky, D., The Byzantine commonwealth, London 1971.
8. Ostrogorsky, G., History of the Byzantine state, Oxford 1956.
9. Painter, H., A history of Europe, (eng. Trans), London 1961.
10. Pirenne, H., A history of Europe, (Eng. Trans), London 1961.
11. Read, J., The moors in Spain and Portugal, London 1974.
12. Stephenson, C., Medieval history, Washington 1944.

نظرية الدولة في القرون الوسطى

إياد فرحان بدرية^[١]

مقدمة

لم تعرف أوروبا في عصورها الوسطى نظرية حكم واحدة في الدولة، وإنما تنوعت نظرياتها بحسب المعطيات التي عاشت بها، ولم تسر نظرياتها السياسية في الدولة في خطٍّ واحد، وإنما تقلّبت حسب الظروف والمعطيات الاقتصادية والسياسية والعنصر السكاني المتدفق عليها، والأخطار المحدقة بها، فنظرية الدولة المركزية في الحكم؛ وهي موروث مشترك من الإمبراطورية الرومانية القديمة، ومن القبائل البربرية الجرمانية، سرعان ما فشلت أمام التبدلات الاقتصادية العميقة التي أصابت أوروبا في مطلع عصورها الوسطى؛ من حيث سيادة النظام الإقطاعي، وما تبعه من توزيع أراضي المملكة على شكل مقاطعات، ووضع كلّ مقاطعة تحت سلطة بارون سيزحف فيما بعد على كامل صلاحيات الملك ولن يدع منها شيئاً سوى السيادة الاسمية.

لكن منذ مطلع القرن التاسع الميلادي وتبجح شارلمان إمبراطوراً على الغرب الأوروبي في سنة ٨٠٠م من البابا في كنيسة القديس بطرس في روما، تبدّل المشهد السياسي بدلاً عميقاً في أوروبا؛ إذ ظهرت نظرية جديدة في الدولة قائمة على شعار «دولة واحدة، وكنيسة واحدة»، فالدولة الإمبراطورية هي صاحبة السيادة السياسية على العالم المسيحي كاملاً، والكنيسة هي صاحبة السيادة الروحية على هذا العالم. لكن هذا الشعار الذي أثمر عن تحالف شارلمان مع البابا، تسبّب في معضلة أكبر في أوروبا؛ فمنذ أن سقطت الإمبراطورية الرومانية القديمة بيد البرابرة الجرمان سنة ٤٧٦م، أصبحت الإمبراطورية البيزنطية هي صاحبة الحق الشرعي الوحيد في حكم العالم المسيحي من الناحية السياسية، فالبيزنطيون

لم يسمّوا أنفسهم بيزنطيين، بل كانوا يسمّون أنفسهم الرومان، بينما كان البابا في روما، في كنيسة القديس بطرس تحديداً، لا يمثل السلطة الروحية العليا في العالم المسيحي بحكم اختلاف المذاهب المسيحية. وبالتالي، دفعت تطوّرات الأحداث أباطرة بيزنطة ليرفضوا سلطة البابا الروحية، ولا سيّما أنّهم من قبل قد أخضعوا سلطة الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لسلطانهم. ولكن الظروف السيئة التي كانت تمرّ بها بيزنطة، جعلتها تنكفئ على شرقي أوروبا، لبدأ الغرب الأوروبي يعيش أحداث جديدة مختلفة، نتجت عن تناقض نظريتين في سيادة الدولة، أولهما النظرية الثيوقراطية التي دعمت حق البابا في سلطة زمنية إلى جانب سلطته الروحية، ونظرية الدولة العلمانية التي طالب أنصارها بفصل السياسة عن الدين، والدولة عن الكنيسة، لا بل إخضاع الكنيسة للدولة بمنح الملك حق تعيين القساوسة في كنائسهم. ولمّا كانت الأمور في بادئ الأمر تسير لصالح الملوك وعلى هذا المنوال، تمرّد بعض البابوات ولم يكتفوا بسلطاتهم الدينية بل سعوا إلى سلطات سياسية فاقت سلطات الملوك والأباطرة، بعد أن أتى ملوك أوروبا إلى البابا يلتمسون الشرعية منه. لذلك ستجلى نظرية الدولة في العصور الوسطى بمفهومها الديني الثيوقراطي، ما جعل المؤرخين يطلقون على تلك العصور مسمّى عصور الإيمان، عصور اختلط فيها الدين بالسياسة والسياسة بالدين، وفشلت نظرية «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متى: ٢٢: ٢١)؛ لأنّ البابوات سعوا لاستحواذ الأمرين معاً، وبالتالي لم يكن تاريخ المسيحية تاريخ هجران أو انفصال عن السياسي كما يروّج له، ألم تكن الحروب الصليبية -وهي أبرز ثمار هذا المفهوم المختلط للدولة- قد دعا لها ونظّمها البابوات؟ ألم يكن ملوك وأباطرة أوروبا يتوجّون على عروشهم من قبل البابوات بحكم أنّهم من يجلس على الكرسي الرسولي، وبحكم أنّهم من سيضفي الشرعية على سلطانهم، وبحكم أنّ بمقدورهم إصدار قرارات الحرمان بحقهم إذا ما خرجوا عن قراراتهم «المقدّسة»؟. وستعكس هذه العلاقة بين البابا والملك على مختلف تفاصيل الدولة ومؤسساتها وعلاقاتها السياسية والتنظيم العقائدي للجيش وعلاقات الراعي بالرعية كذلك؛ وهكذا يتّضح مفهوم أو نظرية الدولة في العصور الوسطى. والواقع أنّ الموضوع يندرج في فلسفة السياسة والحكم خلال فترة وصفت بأنّها زمن الحكم الثيوقراطي، أكثر ممّا هو بحث تاريخي يسرد تطوّرات الأحداث السياسية التي مرّت بها أوروبا خلال العصور الوسطى.

أولاً: مفهوم دولة الاستبداد الأبويّ في أوروبا العصور الوسطى

في أعقاب سقوط روما أو حتّى قبل سقوطها بقرن أو قرنين، انتشرت عشرات الممالك البربريّة الجرمانيّة في الغرب الأوروبي، والتي أُسّست على يد العناصر السكانيّة الجرمانيّة التي تسرّبت إلى المجتمع الأوروبي على شكل هجرات أو غزوات، وهي ما يُعرف في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى باسم الغزوات الجرمانيّة^[1]. والكثير من الشعوب الجرمانيّة كانت ما تزال وثنيّة، فسعت البابويّة إلى تنصيرها، بينما كان بعضها الآخر يعتنق الديانة المسيحيّة على المذهب الآريوسي (الذي ينكر ألوهيّة المسيح عليه السلام، ويرى فيه طبيعة بشريّة)^[2]. أمّا من الناحية السياسيّة، فالدول التي نشأت في أوروبا في مطلع العصور الوسطى اعتمدت النظام الملكي، الذي لم يختلف في جوهره عن مبدأ القبيلة ونظامها الجماعي. والراجح أنّه لم يكن ثمة فارق سياسي ملحوظ بين قبيلة يتولّى أمرها ملك، وبين قبيلة ليس لها ملك؛ لأنّ الملك كان ممثلاً للمجتمع الذي يحكمه لا سيّدًا عليه، كما أنّ السلطة الملكيّة في مراحلها الأولى كانت غير محدّدة الاختصاصات، فظلّ الملك قاضيًا وقائدًا وحاكمًا ورئيسًا دينيًا. ويمكن القول إنّ الملك كان ربّ أسرة وسيّد دولة في آن^[3].

وبالتالي، كان مفهوم الدولة أو النظام السياسي في مطلع العصور الوسطى يقوم على مبدأ الاستبداد الأبويّ، فالقبائل الجرمانيّة قد جلبت معها كثيرًا من مفاهيم التنظيم القبلي؛ بما فيها مبدأ تقديس رابطة الدم، والبعد عن الديمقراطية، ليس بسبب مبدأ احترام سلطة رئيس القبيلة احترامًا مطلقًا فحسب، بل لأنّ الفرد ذا العصبيّة القبليّة الأقوى يسود دائمًا ويتغلّب على ضعاف العصبيّة. كما أنّ السلطة جميعها تتركّز في يد رئيس القبيلة، فله حقّ التصرف في قطعانها وثروتها وعنصرها السكاني وفق ما يرتئيه مصلحة لها^[4]. وإنّ كُنّا نستطيع أن نلاحظ مع تقدّم الوقت في العصور الوسطى جنوحًا تدريجيًا نحو تحديد السلطات الملكيّة واختصاصاتها، فضلًا عن محاولات متعاقبة لتقييدها، ولمّا كان المجال متّسعًا لتأثير الصفات

١- إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دار حسّان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٩م، ص ١٥.

٢- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع الدينيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتّى القرن الحادي عشر، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلاميّة، غزة ٢٠١١م، ص ١٥.

٣- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية ١٩٩٨م، ص ٣٥.

٤- سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، النظم والحضارة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٤٣.

الفردية، أسهمت المؤهلات الفردية الملكية الشخصية في العصور الوسطى بنصيب أكبر منه في العصور اللاحقة^[1].

ثانياً: نظرية الدولة في إطار النظام الملكي في أوروبا العصور الوسطى

لقد كانت المملكة الفرنجية^[2] هي أول دولة في الغرب الأوروبي سعت إلى تقديم تصوّر واضح عن مفهوم الدولة حتّى وقتها، فبعد سقوط روما بخمس سنوات فقط (أي في سنة ٤٨١م)، تولّى كلوفس الملك في فرنسا. ومنذ ذلك الوقت، أخذت السلطات الملكية في النمو والازدياد، وأصبح النظام الحاكم في الدولة هو «النظام الملكي»^[3]. وبالمجمل، إنّ أهمّ ما يميّز «النظام الملكي» في أوروبا العصور الوسطى خلال هذه الحقبة بالذات أنّه كان نظاماً تعاقدياً، والملك طرف في هذا العقد؛ لأنّه كان يتعهّد، خلال المراسيم التي تنظّم عند المناداة به ملكاً وحمله للتاج، بأن يلتزم أمام الله وأمام الكنيسة وأمام الشعب. وما من شكّ في أنّ هذا التعهّد هيأ الطريق لتبلور نظام رقابة السلطة من قبل «الشعب» أو من قبل هيئات تمثله على الملك، و«الشعب» المعني بالالتزام الملكي لم يكن المقصود به عامّة الناس، بل الطبقة الأرستقراطية هي وحدها التي كانت معنيّة بهذا الالتزام، فالملك لم يكن فوق القانون، (والدليل على ذلك أنّ الملك شاربورت أخذ على عاتقه يوم اعتلاء العرش ألاّ يسنّ قوانين أو تشريعات جديدة)، بل عدّ الملك الأرستقراطي الأوّل ونيل النبلاء فقط؛ بحكم انتمائه لأسرة نبيلة أباً عن جد، وبالتالي كان الملك أنّ يتعهّد بمقتضى العقد الوارد ذكره بإقامة العدالة كوظيفة له، ويتعهّد بإقرار النظام وإشاعة الأمن في ربوع المملكة^[4].

وما إنّ يتسلّم الملك السلطة حتّى كان يمثل أعلى سلطة سياسية وعسكرية وقضائية في جهاز الدولة، إذ كان حرّ التصرف بأموال الدولة، ودخل الخزينة، ويمنح الأراضي والأموال

١- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٦.

٢- الفرنجة هم قبائل بربرية جرمانية، وتعني كلمة فرنجة باللغة اللاتينية «حرّاً»، وقد أطلق الرومان على الأقوام التي كانت تستقل عن روما وتحرّر عن السلطة الرومانية، وفيما بعد اشتق اسم فرنسا من كلمة فرنجة، التي كانت تسمّى غالبية، نسبة إلى سكّانها الكلّ الذين أطلق عليهم الرومان اسم الغال. انظر: نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط ٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص ٣٥.

٣- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٦.

٤- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم محمّد حناوي، ويوسف نكادي، ط ١، مطبعة مفكر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م، ص ٨١.

لمنَّ يشاء من المقرَّبين، وكان صاحب السلطة المطلقة في منح الأفراد والجماعات من الحماية الخاصَّة، ما جعل لهم مكانة ممتازة^[1]. لذلك أضحي الملك حائزاً كلِّ المؤهَّلات التي كانت للإمبراطور الروماني في العصور الوثنيَّة، وتملَّك أراضي شاسعة تصرَّف فيها كيفما شاء، بالإضافة إلى ما جرت العادة بفرضه على الأقاليم الرومانيَّة من ضريبة الرؤوس، ورسوم النقل، ومقرَّرات التجارة، وأرباح العملة. وغدا الملك أيضاً الملاذ الرسمي، ولم يعد بينه وبين الملك الروماني القديم إلاَّ مسافة قصيرة^[2].

كما كان الملك يحيط نفسه بمجموعة من المحاربين، الذين يكوِّنون حرسه الخاصَّ ويسمَّون «المخلَّصين»؛ لأنَّهم كانوا يقسمون أمامه يمين الاخلاص. كما انتقى الملك لنفسه نفراً من كبار الملاكين الأغنياء وعدداً من النبلاء، يكوِّنون حاشيته وليدخلوا في خدمته، وكانوا يسمَّون بـ«الخاصَّة الملكيَّة»، فكان يعيِّن منهم مستشاريه ومعاونيه وحكَّام الوحدات الإداريَّة (الكونت)، وقادة الحملات العسكريَّة (الدوق) والأساقفة وغيرهم^[3]. كما جعل للذين يعمدون إلى معارضة الملك عقوبات مشدَّدة، ونقذت أوامر الملك -خشية عقوبات خاصَّة- بمسمَّى الإرادة الملكيَّة السامية، على حين ظلَّت أشكال الملوك لا تختلف عن سائر رعاياهم، إلاَّ بشعورهم المرخاة على أكتافهم. كما كانوا موضع احترام ومهابة بين رعيَّتهم يجلسون على العرش، ويستقبلون سفراء الدول الأخرى، ويجيبون عن أسئلتهم، ويناقشون مقترحاتهم بما يلقَّنه لهم حجَّاب القصر من إجابات^[4]. وقد أضافت المسيحيَّة للملوك منذ مطلع العصور الوسطى خاصيَّة «الجلالة» التي انبثق عنها حقُّ الملك، وحده دون غيره، في إصدار العفو على الجناة. كما أتاحَت خاصيَّة «الجلالة» للملك الحقَّ في ألاَّ يقدح أحد في شخصه^[5].

لقد كانت السلطة الملكيَّة في مرحلة دولة الفرنجة ما تزال -من الناحية النظرية- محدودة بما للمجلس العام من سلطان، غير أنَّ هذه الدولة الملكيَّة امتازت عن الملكيَّة ذات النظام

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص ٤٩.

٢- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٧.

٣- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص ٤٩.

٤- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٦-٣٧.

٥- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٨٠.

الأبوي الاستبدادي، والتي سادت في مطلع العصور الوسطى بعاملين خطيرين هما: أولاً: إنّ ملوك هذه الدولة استولوا على أقاليم يدين أهلها بالمسيحية، ومصطبغون بالصبغة الرومانية، كما كان لهذه الأقاليم نُظم رومانية خاصة بكلّ إقليم على حدة، وهي أقاليم تقبّلت اعتناق المسيحية، وعلى رأسها أبناء البيت الملكي. ثانياً: لقد اكتسبت الملكية في العصور الوسطى وخلال هذه الحقبة تحديداً؛ مرحلة دولة الفرنجة (٤٨١-٧٥٢م)، طابعاً مقدّساً جديداً، إذ ارتبطت علاقة الملك بالرعية بما جرى من يمين الولاء واستدعاء الملك المجالس الكنسية للانعقاد. ثمّ إنّ الملك اختصّ بالتصديق على انتخاب الأساقفة، وتولّى أحياناً تعيينهم في أسقفياتهم بحجة حقّ الإشراف عليهم. ومن ذلك يتّضح أنّ سلطات الملك الفرنجي خلال هذه الحقبة لم تكن ذات حدود معيّنة^[1].

واتّخذ الملوك الفرنجة لأنفسهم عدداً من الموظفين في القصر؛ لمساعدتهم على إدارة أمور الدولة، أهمّهم الخازن: وهو الذي يشرف على أعمال ديوان الملك وحراسة خزائنه والمحافظة على الوثائق الرسمية. ويأتي الكاتب في المرتبة الثانية، ومهمّته هي تدوين القرارات والمراسيم الملكية، ويحتفظ رئيس الكتاب بالخاتم الملكي، ويشرف رئيس خدم القصر على الخدم فيه. أمّا كونت القصر، فكان يشرف على نظام القصر، ويرأس محكمة الملك. ويشرف كونت الإصطبلات على خيول الملك والحيوانات الأخرى وإصطبلات القصر. ويكون هؤلاء جميعاً ما يعرف بالقصر الملكي أو البلاط. ويرأس البلاط حاجب القصر: وهو وكيل أعمال الملك، ويشرف على تأمين جميع احتياجات القصر الملكي، وقد ارتفعت مكانة حاجب القصر حتّى صار القائد العام للجيش وعندما ضعفت السلطة الملكية (في عهد الملوك الكسالي)، غدا حاجب القصر الحاكم الفعلي في المملكة، كما غدت وظيفته وراثية^[2] حدّاً وصل إلى أنّ حجاب القصر صاروا يتصرّفون في تولية الملوك وعزلهم كيفما أرادوا، حتّى تضاءلت سلطات الملوك وصارت في حكم المعدومة^[3].

لقد أصبحت الملكية وظيفه وراثية مع شيوع مبدأ التقسيم؛ إذ كان الفرنجة (في عهد

١ - محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٧.

٢ - نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص ٤٩-٥٠.

٣ - محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٧.

الأسرة الميروفنجية) أكثر تمسكاً بغيرهم من جرمان غرب أوروبا بعادة تقسيم المملكة - كما لو كانت مزرعة تخصّ الأسرة الحاكمة - بالتساوي بين أبناء الملك المتوفى. وعادة الوراثة هذه لو أنّها اتبعت منطقياً لأدّت إلى انحلال المملكة التام، كما حدث في ألمانيا في القرن الرابع عشر. وكان من الطبيعي أن يؤدي التقسيم بين أمراء الفرنجة إلى تطاحن الأخوة، ثمّ تعود المملكة للاتحاد مرة أخرى على يد من بقي منهم. ولكن، وإن كان الأمر كذلك، فقد أرهقت الحرب الأهلية الدولة، وكانت تستنفد نشاطها وطاقتها^[1]. أمّا في بلدان أوروبا الأخرى، فرغم سيادة مبدأ الوراثة، مع عدم الالتزام بانتقال الحكم من الأب إلى الابن، حدث أحياناً أن انتقل الملك إلى الأخ أو العم. فقد ظلّ عدم تحديد الوراثة زمناً طويلاً مبدأ قائماً في بلدان كثيرة أخرى في أوروبا، لا بل غدت الملكية انتخابية محضّة في بعض الدول. ومع أن مبدأ ولاية الابن بعد أبيه أصبح هو القاعدة تدريجياً، فإنّ قاعدة وراثة الابن الأكبر للحكم، - وهو نقيض قاعدة تقسيم الإرث الملكي التي كانت سائدة عن الفرنجة - لم تصبح القاعدة العامّة في أوروبا إلّا في أواخر العصور الوسطى^[2].

أمّا من الناحية الإدارية، فقد قسّمت مملكة الفرنجة (في عهد الأسرة الميروفنجية) إلى وحدات إدارية تضمّ كلّ منها عدّة مدن، وتتبع كلّ مدينة عدّة قرى، ويعيّن الملك على رأس كلّ وحدة إدارية حاكماً يلقّب بـ«الكونت»، مهمّته الإشراف على تحصيل الضرائب، وتجميع الأحرار للالتحاق بالجيش، وتنفيذ قرارات المحاكم. وفي المدن تشكّلت مجالس تسمّى مالوس Mallus؛ بمعنى المجالس الشعبية، التي كانت تضمّ جميع أحرار المدينة. ويرأس كلّ مجلس شخص ينتخب انتخاباً يسمّى توغين. ولكن سرعان ما زادت الفروق بين الطبقات، وتركزت السلطة بيد مجموعة من الأغنياء، استولت على السلطة والنفوذ داخل هذه المجالس، وقد أطلق على هذه المجموعات اسم «المصطفون»^[3] Bonihomines.

وكان الفرنجة (في البدء) يتحاكمون فيما بينهم بموجب التقاليد والأعراف السائدة لديهم، ولكن عندما نشأت الدولة الفرنجية، أمر ملكها كلوفس بتسجيل التقاليد والأعراف

١ - هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد المجيد محمود، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٥٨ م، ص ٤٤.

٢ - محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٧.

٣ - نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٨.

الفرنجية وإدخال بعض التعديلات والإضافات والمراسيم الملكية عليها، فصدرت مجموعة من القوانين عرفت باسم «الحقيقة السالية». وتنص مواد هذا القانون على فرض عقوبات مادية كبيرة على كل من يسرق العبيد أو القطيع أو المحاصيل أو يحرق مستودعات الحبوب، و«الحقيقة السالية» تؤكد عدم المساواة الاجتماعية؛ لأنها تنص في بعض موادها على: «أن من يقتل شخصاً حرّاً عادياً يعاقب بدفع غرامة مالية كبيرة، قدرها ٢٠٠ سوليدوس (عملة ذهبية رومانية)، أما الذي يقتل جندياً من جنود الملك أو موظفاً من موظفيه، فإنه يعاقب بدفع غرامة مالية قدرها ٦٠٠ سوليدوس»^[1].

لقد عانى هذا النظام السياسي الحاكم في المملكة الفرنجية من جميع أمراض الأنظمة التي دبّ الضعف والفساد فيها^[2]، وقد تحالف ملوك الفرنجة مع الكنيسة الكاثوليكية، فدعمتهم الكنيسة بسلطانها، وحاولت بتعاليمها الدينية إقناع الجماهير الشعبية الكادحة بوجوب تحمّل الفقر والصبر على التفاوت الاجتماعي والفساد الذي نخر جسد الدولة. كما نالت الكنيسة حماية ورعاية ملوك الفرنجة، فأغدقوا عليها الأتيان والأموال الوافرة^[3]. وقد ظلّت الأمور على ذلك الحال حتى سنة ٧٥٢م حين جرى عزل شيلدريك Childreic آخر ملوك الفرنجة (من أسرة الميروفنجيين)، وانتقال لقب الملك إلى حاجب القصر، الذي كان من الأسرة الكارولنجية، وصار الحاجب بيبان Pepin القصير (٧١٥-٧٦٨م) ابن الحاجب شارل مارتل Charles Martel؛ هو صاحب السلطة الملكية الفعلية. ومع هذا لم يتم ذلك الإجراء إلا بعد مشورة البابا زكريّا Zacharias (٧٤١-٧٥٢م) بابا روما^[4].

ثالثاً: نظرية الدولة في ضوء التحالف ما بين الكنيسة والملكية في أوروبا

العصور الوسطى

منذ أن قبلت الكنيسة الكاثوليكية التحالف مع ملوك الفرنجة، بدأت الكنيسة تلج عالم السياسة وتبحث لنفسها عن السلطة الزمنية. إن ذلك التحوّل الذي أصاب هوية الكنيسة

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٠.

٢- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٧.

٣- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٠.

٤- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٧.

ودورها وبحثها عن السلطة الزمنية، تسبب في سلسلة من التناقضات بين البابوية في روما والإمبراطورية البيزنطية، التي لم ترض بحيداد السلطة الروحية عن نظيرتها السياسية، وعدت بابا روما بمثابة بطريك خاضع لسلطة الإمبراطور البيزنطي. بينما أُمست السلطة الزمنية في نظر البابا سلطة تاريخية لا غنى عنها لمنصبه. وبالتالي، كان لا بد من اتخاذ خطوات فعالة لدعم استقلالية البابوية عن أباطرة الشرق البيزنطيين، واتقاء آثار التوسع اللومباردي الساعي إلى توحيد إيطاليا كاملة، إيطاليا التي كانت في نظر الكنيسة الحاضن لما يُعرف بـ«ميراث القديس بطرس»، لذلك وجدت البابوية ألا مناص لها من تحالف سياسي في الغرب المسيحي مع بيان ملك الفرنجة^[1].

قام البابا ستيفن الثاني بزيارة مثمرة للبلاط الفرنجي، ليستحث الملك ببيان على تأكيد دور البابوية الديني في الغرب الأوروبي، ويحميه من الخطر الداهم المتمثل بالتوسع اللومباردي^[2]، فقام ببيان القصير بهزيمة اللومبارديين أعداء البابوية في سنة ٧٥٦م، كما قدم أيضاً هدية للبابا؛ وكانت عبارة عن منطقة زراعية تقع في وسط إيطاليا، لكي تصبح معروفة لحوالي ألف سنة باسم «الممتلكات البابوية». هذه الهدية وسّعت سلطات البابوية الزمنية، التي مارسها خلفاء ستيفن فترة طويلة في روما، إلا أن هذه الهدية في الواقع لم تجلب للبابوات سوى القليل من الراحة مع الكثير من الويلات، فكانت الصخرة التي تحطمت عليها المثل العليا التي تدّعيها البابوية لنفسها. وفي النهاية تمّ تقليصها إلى المساحة التي تشغلها اليوم دولة الفاتيكان، ومهما يكن من أمر، كانت هذه الخطوة سبباً لنشأة دولة أو سلطة زمنية لهيئة روحية لأول مرة في أوروبا^[3]. وقد تمثلت سياسة «دولة بابوية» وأهدافها منذ نشأتها، بأنها تنبع من الرغبة في دفع المخاطر التي قد تهدد أركان ووظائف الهياكل الكنسية والدينية. واعتمدت «دولة بابوية» على مركز ثقل ديني يتمثل في الهيئة السلطوية للكرسي الرسولي، تدعمه بيروقراطية لها مكاتب وأعوان أخذت في التوسع والتخصّص، مدعومة بالقانون الكنسي: فالقانون الكنسي والكرسي الرسولي؛ الأول ذو طابع نظري،

١- عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى ومسألة فصل الدولة عن الكنيسة، مجلة التفاهم، ص ٣٦.

٢- هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٩.

٣- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٢٩.

والثاني ذو مهام عملية، هما الأداتان اللتان تُمارَس بوساطتهما البابوية صلاحياتها في تسيير شؤون أتباعها وفي الحكم^[١].

وحَتَّى تؤكد البابوية وجودها، وتبرّر خطوة بيان القصير في تأسيس دولة لها؛ اعتمدت على وثيقة مزورة هي: «هبة قسطنطين»، والتي من المفترض أنَّها كتبت من قبل قسطنطين الكبير نفسه نحو سنة ٣١٢م، وفيها يعلن الإمبراطور قسطنطين أنَّه ابتلى بمرض الجذام؛ لاَّبَّاعه نصيحة رجال الدين الوثنيين، بتسجيله نقشاً عند معبد جوبيتر فوق تلّ الكابيتول في روما، فما كان منه إلا أن لجأ إلى سيلفستر أسقف روما، الذي قام بتعميده ثلاث مرات، فقام معافى من مرضه، وعرفاناً منه بالجميل، فإنَّه منح كلَّ إيطاليا كممتلكات للبابا. وتعدّ هذه الوثيقة أكبر عملية تزوير في التاريخ السياسي في العالم؛ لأنَّه على أساسها اكتسبت «دولة البابوية» شرعية وجودها، واستمرت وثيقة مصدقة حتَّى القرن الخامس عشر، عندما قام العالم لورنسو فالّا Lorenzo Valla أحد أشهر المختصين بالعلوم الإنسانية، بدراسة الوثيقة وإثبات أنَّها مزورة استناداً إلى المعطيات اللغوية والتاريخية الواردة في الوثيقة، إذ تبين أنَّها كتبت قبل أحد رجال الدين المسيحيين المتعصّبين للبابوية في وقت لاحق جداً^[٢].

لوحة جصية من القرن ١٣م تصوّر الإمبراطور قسطنطين الكبير وأسقف روما سيلفستر والهبّة المزعومة.



١- عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٦.

٢- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٩.

رابعاً: مفهوم دولة الاستبداد الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى

عندما سقطت روما في أيدي القبائل الجرمانية الشمالية، ودخلها القائد الجرمني منتصراً، اتّسعت الإمبراطورية بإضافة الأقاليم الشمالية والشمالية الشرقية^[1]. وقد بات من شبه المؤكّد أمام الناس في أوروبا نحو سنة ٥٠٠ م أنّ المستقبل سيكون مع إمبراطورية القوط في روما في حكم أوروبا كاملة، فقد أراد إمبراطورهم ثيودوريك، الذي تربّع على عرش روما، إحياء الدولة والنظام السياسي المركزي الروماني القديم تحت صولجانه^[2]. لكنّ هذه الرغبة وتلك الأمنيات، بقيت أحلاماً غير قابلة للتطبيق، إذ حدثت تطوّرات عميقة في أسلوب إدارة الدولة؛ فالإمبراطور الجديد بدلاً من السير على خطا نظام الحكم الروماني السابق؛ أي الاستمرار على أسلوب المركزية الشديدة، سلك مسلكاً مغايراً يقوم على مبدأ اللامركزية الواسعة، بعد أن وجد أنّ رغبته غير قابلة للتطبيق، فقسّم الإمبراطورية إلى أجزاء وأقاليم كبيرة جدّاً؛ أقطعها لكبار القادة وبعض رجال الدين وترك لهم صلاحيات واسعة لإدارة هذه الأقاليم، بما في ذلك الاحتفاظ بقوّاتهم العسكرية، وكأنّه أقطعهم هذه الأقاليم بحيث يكون الولاء للإمبراطور باعتباره المالك لجميع أراضي الإمبراطورية، لكنّ الأمر انتهى باستقلال هذه الأقاليم عن الإمبراطورية من الناحية الفعلية، وأصبحوا ملوكاً في إقطاعاتهم^[3].

وأمام تعرّض أوروبا للخطر من ثلاث جهات؛ المسلمون من الجنوب، والمجر من الشرق، والشماليون من جهة الشمال، حاول شارل مارتل (٦٨٨-٧٤١ م) الذي وقع على عاتقه مواجهة هذه الأخطار؛ أن يتوسّع في نظام الخيالة؛ ليجعل جيشه قوّة فعّالة في ميدان الحرب، فاكشف في حينها أنّ هذا الأمر يتطلّب منه نفقات ضخمة لتجهيز الفارس؛ بما يحتاج له من حصان وردع وسلاح، فضلاً عن أنّ هذا النوع من الفرسان، يجب أن يتوقّر لهم مورد يعيشون عليه، حتّى يتسنى لهم أن يتفرّغوا لشؤون الحرب والقتال. ولمّا كانت موارد دولة الفرنجة في القرن الثامن محدودة بحيث أنّها لا تفي بالغرض، فإنّ شارل مارتل لجأ إلى

١- عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، تحوّل أوروبا من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالي باستخدام نظرية كوفاليف، جامعة الملك سعود، الرياض د.ت، ص ١٣.

٢- كاننور، العصور الوسطى الباكّة، القرن الثالث - القرن التاسع الميلادي، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٣ م، ص ١٩٣.

٣- عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، م.س، ص ١٣.

حلَّ يتَّفَق وتقاليد ذلك العصر، فسجَّل أسماء المحاربين وجعلهم يقسمون له يمين الولاء، ثمَّ أعطى كلاً منهم إقطاعاً يكفي لسدِّ مطالب معيشته، على أن يبقى هذا الإقطاع بيده ما دام يقوم بالخدمة العسكريَّة، وهكذا ظهرت الأسس الإقطاعيَّة العسكريَّة لجيشه^[١]. ونظراً لاهتمام الكنيسة بالأرض، فقد سعت للسيطرة على مساحات كبيرة منها، وقد حصلت من الملوك على إقطاعات مشابهة تماماً للإقطاعات التي كان يحصل عليها السادة الإقطاعيون، وقد سعت الكنيسة لاستثمار هذه الإقطاعات بما يخدم مصلحتها العامَّة، ولم يرَ رجال الكنيسة حرجاً في استثمار هذه الإقطاعات بما يخدم ويعزِّز قوَّة الملك، في مقابل تقلدِّهم لبعض المناصب العليا في الدولة^[٢].

لقد أخذ الناس الذين شعروا في أوروبا بالخطر يننون بيوتهم قرب قصر البارون المنيح أو الدير الحصين، ولم يتردّدوا في تقديم ولائهم وخدماتهم إلى سيّد ييسط عليهم حمايته القانونيَّة، أو دوق يستطيع قيادتهم والحفاظ على أرواحهم. لكن! كان لهذه التصرفات غير المدروسة والمرتجلة، نتيجة الرعب الذي سيطر عليهم، كان لها نتائج وخيمة عليهم؛ فهؤلاء الرجال الأحرار لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم، يعرضون أرضهم وجهودهم على رجل قويّ، يطلبون إليه في نظير ذلك أن يحميهم ويطعمهم؛ وكان من عادة البارون في هذه الأحوال أن يقطع «رَجْلَه» مساحةً من الأرض يحتفظ بها، ويستطع واهبها أن يلغيه في أيّ وقت شاء، وقد أضحى هذا التملُّك المبهم الغريب، الصورة المألوفة ليتحوَّل سكّان أوروبا في العصور الوسطى إلى رقيق الأرض لا (...يوجد كلمة ناقصة) لهم ولا طول، فخضعوا من الناحيتين الاقتصاديَّة والعسكريَّة إلى رجل أسمى منهم منزلة في مقابل تنظيم اقتصادي وحماية عسكريَّة^[٣].

وفضلاً عن الواجبات والخدمات التي التزم بها الفلاحون تجاه السيّد الإقطاعي، ترتّب عليهم أيضاً واجبات سياسيَّة كانت بمثابة الحقِّ المكتسب للسيّد الإقطاعي^[٤]؛ ذلك أنَّه

١ - سعيد عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٤٥.

٢ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١٦٢.

٣ - ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، عصر الإيمان، العصور المظلمة، ج ٣، مج ٤، ترجمة: محمَّد بدران، بيروت ١٩٨٨ م، ص ٤٠٦.

٤ - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبيَّة، مجلَّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ١٤٩، مايو ١٩٩٠ م، ص ٥٤.

نتيجة تدهور سلطة الدولة المركزية، أصبح كل صاحب إقطاعية يعمل على تقوية نفسه أمام أصحاب الإقطاعيات الأخرى، ولاحقاً أمام سلطة الإمبراطور. وقد ارتكبت أكثر الإقطاعيات الخطأ نفسه الذي ارتكبه الإمبراطور، فقسّمت إقطاعاتها إلى أقاليم فرعية عيّنت عليها أمراء. وفي بعض المناطق والأقاليم الفرعية، قسّمت إلى ضيع وإقطاعيات صغيرة، فانهى الأمر بالإمبراطورية إلى أن تحوّلت إلى كيانات صغيرة شبة مستقلة سياسياً، ومستقلة اقتصادياً من الناحية الواقعية. وأصبح المشهد العام لما كان يدعى الإمبراطورية الرومانية القديمة منقسماً إلى قسمين: القسم الشرقي، وهو المسمى بالإمبراطورية البيزنطية، وقد بقي متماسكاً كوحدة سياسية واحدة؛ والقسم الغربي تمزّق إلى عدد كبير جداً من الكيانات شبة المستقلة عسكرياً وسياسياً. وقد كان المزاج الثقافي الديني العام يدفع إلى التفوق والانكفاء على الذات في ظلّ نظام اقتصادي إقطاعي مقيت^[1].

وكلّما كان الملك يتعرّض لأخطار أكبر، كان يختار بعضاً من ذوي النفوذ والبأس لينعم عليهم بحقوق وامتيازات في منطقة معينة مقابل شروط خاصة، وهكذا كانت عملية سيادة النظام الإقطاعي تعني تنازل الدولة عن جزء كبير من سلطتها المركزية، وعن كم هائل من حقوقها السيادية وواجباتها المالية والأمنية بسبب ضعفها وعجزها عن مواجهة الأخطار الخارجية المحدقة بها^[2]، حدّاً وصل إلى أن الملك في ذروة سيادة النظام الإقطاعي فقد ما له من قوّة للتدخل في الإقطاعيات الواقعة في مملكته، أو لنقل تحت سيادته من الناحية النظرية؛ ففي الجرائم الكبرى كان على الأمراء الإقطاعيين تسليم المتهمين للملك، أمّا فيما عدا ذلك، فإنّ محاكم خاصة نشأت في كل مقاطعة إقطاعية، وكانت تتبع لها أقسام شرطة. كما امتلك الأمراء الإقطاعيون دوراً في ضرب النقود، إذ كانت تسك العملة باسمهم. وقد تجلّى مظهر تنازل الدولة عن حقوقها السيادية، في عجز الملك عن إيقاف الحروب التي كانت تنشب بين هؤلاء الأمراء الإقطاعيين، أو التدخل في المعاهدات التي عقدها فيما بينهم من تلقاء أنفسهم، وازداد عجز الملك حتّى إنّه لم يعد بوسعه أن يحصل ضرائب الدولة من الإقطاعيات الواقعة ضمن حدود مملكته^[3].

١ - عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، م.س، ص ٣٢.

٢ - سعيد عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٤٧.

٣ - محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٧٦، ٧٧.

لقد كان الإقطاع يقف حائلاً دون ظهور عامل الانتماء إلى الوطن أو الأمة، فلم يكن أفراد ذلك النظام يدينون بالولاء لشيء إلا للسيد الإقطاعي، والذي بدوره كان يتبع للملك؛ أي إنَّ الناس كانوا يدينون بالولاء للرجل الذي يعيشون في كنفه وحماه؛ وهو السيد الإقطاعي^[١]. ورغم أنَّ الناس كانوا قد أقسموا يمين الولاء للملك، الذي يُعدُّ أهمَّ رمز لسيادة الدولة في النظام الملكي، إلا أنَّ نموَّ النظام الإقطاعي أضعف من هذا الرابط بين الملك والرعية، وإنَّ ظلَّ في عقول المواطنين زمناً طويلاً. ويدلُّ التفسير المتواتر ليمين الولاء دلالة واضحة على مدى الاعتقاد بحقيقة الدولة أو بحقيقة السلطة الملكية، على أنَّه من المحتمل أن تصبح هذه الحقيقة خيالاً هزياً، بدليل ما هو مأثور عن أحد رجال القانون الإقطاعيين في فرنسا في القرن الثالث عشر؛ إذ يقول بوضوح إنَّه من المحتمَّ على الذين أقسموا يمين الولاء للبارون أنَّ يحاربوا في جيشه ضدَّ الملك. ومن البدهي أنَّ تاريخ التغيير في هذا الاعتقاد، فضلاً عما جرى بالتدريج من رجوع إلى الفكرة الملكية القديمة في مختلف البلاد؛ هو تاريخ قيام النظام الإقطاعي وانهاره^[٢]. ولذا، فإنَّه مع بداية عصر النهضة، وبداية تدهور النظام الإقطاعي، بدأ الشعور القومي في النموِّ مقترباً مع تحرُّر هؤلاء من ذلِّ الإقطاع، ما أسهم في التمهيد لقيام دولة قومية موحَّدة ذات نظام حكم واضح^[٣]. وهكذا استمرَّت أوروبا حتَّى القرن الحادي عشر الميلادي منطقة ريفيّة متفوّقة على ذاتها، لم تتشكَّل على المستوى السياسي، كما أنَّها كانت مجرد منطقة مُتخلّفة بالقياس إلى كلِّ من العالم البيزنطي، وعالم الحضارة العربيّة-الإسلاميّة^[٤].

خامساً: نظرية الدولة في إطار النظام الإمبراطوري في أوروبا العصور

الوسطى

منذ قاد بيبان القصير انقلابه داخل مملكة الفرنجة، ونقل السلطة من الأسرة الميروفنجيّة إلى الأسرة الكارولنجيّة، كان واضحاً أنَّ هناك تطوُّرات مهمّة سوف تحدث في بنية النظام

١- محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتَّى نهاية الحرب العالميّة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٩م، ص ٣٣.

٢- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٤١.

٣- محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٣٣.

٤- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبيّة، م.س، ص ٤٨.

السياسي الحاكم في الدولة الفرنجيّة؛ ففي سنة ٧٥١م أعلن بيان القصير نفسه ملكاً على الفرنجة في اجتماع خطّط له من قبل، عُقد في مدينة سواسون، وحضره أنصاره من كبار النبلاء ورجال الدين. ولكي يصبغ انقلابه بصبغة شرعيّة، بعث برسالة إلى بابا روما يطلب فيها منه الموافقة رسمياً على تنصيبه ملكاً على عرش مملكة الفرنجة، شارحاً له أنّ من حقّه ذلك ما دامت السلطة الفعلية بيده، لأنّه حاجب الملك وقائد جيشه، ويده السلطة الفعلية. ولمّا كانت البابويّة في حاجة ماسّة إلى مساعدة بيان العسكريّة للتصدي لأطماع اللومباردين التوسعيّة في إيطاليا، ولمّا كان خيراً لها أن تتحالف مع صاحب السلطة الفعلية في مملكة الفرنجة، فإنّها لم تجد حرجاً من دعم هذا الانقلاب، وبالتالي من الطبيعي أن يكون ردّ البابا إيجابياً. وفي سنة ٧٥٢م عزل الملك شيلديريك الثالث آخر ملوك الأسرة الميروفنجيّة عن العرش، ونفي إلى أحد الأديرة ليقضي فيه بقية حياته، في حين تبوأ بيان القصير عرش مملكة الفرنجة، بدعم كامل من بابا روما^[1].

لقد شرحت هذه الحركة التي قام بها البابا مطامع الكنيسة في سلطة زمنيّة تستظلّ بها، لكنّ بحث الكنيسة عن ملاذ في السلطة، وتحت السلطة، غالباً ما شكّل لها، وبوجه عام، ورطةً وتفريطاً في استقلاليتها، ودفعها باتّجاه مغامرة دنيويّة، سرعان ما ستنزلق إليها؛ فحين واجه البابا ليون الثالث انتفاضة شعبيّة أجبرته على الفرار من إيطاليا^[2] بعد أن قامت جماعة من نبلاء روما في سنة ٧٩٩م بالاعتداء عليه، وكان شخصاً ضعيفاً، فقاموا بضربه وإيدائه، وحاولوا قلع عينيه بأصابعهم، كما أنّهم جرحوا عينه بسكين كنوع من التشفي فيه، وإنّ كان قد استردّ بصره فيما بعد، فقد بقيت آثار الجروح ظاهرة في جفنيه، فلجأ هذا البابا إلى الملك شارلمان، الذي ذاع صيته بعد أن سيطر على معظم الغرب الأوروبي^[3]، وأعدم في يوم واحد أربعة آلاف وخمسمائة أسير من الساكسون (سنة ٧٨٣م)، مجسّداً إرهاب الدولة، لا بل إنّهُ لم يترك وسيلة من وسائل البطش والقمع والقسوة والإرهاب إلّا واستعملها ضدهم^[4]؛ فلما مثل البابا بين يديه؛ التمس منه أن يعيد الأمن إلى إيطاليا، فما كان من شارلمان إلّا أن خفّ

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٦.

٢- عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٦.

٣- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣١.

٤- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٥.

زحفًا بجيشه إلى إيطاليا في حينها، وقضى على أعداء البابوية^[1]، فكان له الفضل في إعادة البابا إلى عرشه. حينها لم يجد البابا ليون الثالث من سبيل إلى شكره سوى تتويجه إمبراطورًا للرومان في أثناء مشاركته في قدّاس أعياد الميلاد في كاتدرائية القديس بطرس في روما في الخامس والعشرين من شهر ديسمبر^[2].

لقد تساءل كثير من المؤرخين عن سبب قبول شارلمان لهذا التتويج، ما دام هو في موقع الأقوى، لا بل إنه هو من حمى الكرسي الرسولي، فلماذا قبل هذه الخطوة التي أظهرته بمظهر التابع لسلطة كنيسة روما؟ علمًا أنّ جميع كنائس مملكة الفرنجة تحت سلطته، فهو الذي كان يعيّن قساوستها ويمنحها الهبات والأموال والأراضي ويشرف على سير أمور العبادة فيها. في الواقع نعم إنّ جميع ما تقدّم من استفسارات صحيح، لكنّ شارلمان كان يهدف إلى تمتين سلطته داخل مملكته في وجه العائلات الأرستقراطية الأخرى، كما كان يسعى إلى كسب الشرعية الدولية لمملكه وحكمه، ما استوجب الإذعان لضغوط الإقطاعيين الفرنسيين، وبناء علاقات مع أعدائه العرب -المسلمين (الخليفة هارون الرشيد). والأهمّ الخضوع لشروط الكنيسة الرومانية ممثلة بقبوله التاج الإمبراطوري من البابا، وارتدائه ثوبها عند تتويجه إمبراطورًا أشبه برداء أسقف، وقبوله ما استلزم التتويج من وسامة الإمبراطور بدهن رأسه بالزيت المقدّس^[3]. ولعلّ أهمّ حقيقة يمكن استخلاصها في هذا المجال، هي أنّ عملية التتويج التي وضعت البابوية خططها، وقام شارلمان في تنفيذها بكلّ طوعية وتلقائية، كانت في جوهرها عبارة عن عودة إلى الماضي. كما كانت عبارة عن سعي حثيث لإحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة، أكثر من كونها مشروع مستقبل يتمّ توجيه مصير أوروبا على هداه^[4].

فهل يا ترى جنى شارلمان من حصوله على اللقب الإمبراطوري ما كان يتمنّى؟ أولاً على صعيد النظام السياسي الداخلي نعم؛ فقد ارتقت سلطته فعلاً داخل مملكته وقويت معنوياً بتأثير اللقب الإمبراطوري، كما رأى شارلمان أنّه ارتقى إلى مرتبة أعلى، ولذا فرض على رعيّته وعلى الذين أقسموا له يمين الولاء والإخلاص وهو ملك؛ أن يحلفوا له يمين

١ - موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣١.

٢ - عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٦.

٣ - محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٤١.

٤ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٣٩.

الولاء وهو إمبراطور (سنة ٨٠٢م)، وانسحب ذلك القسم من وقت لآخر على أولئك الذين كانوا يبلغون سن الرشد، وقد استعار صيغة هذه اليمين من صيغة التعهدات التي كان يقوم بها التابع حيال أميره في النظام الإقطاعي^[1]. ويمكننا القول إنَّ إمبراطورية شارلمان جمعت في نظامها السياسي بين النظام الجرمانى المتمثل في الرؤساء أو النبلاء شبه المستقلين، والمسؤولين فقط أو الرئيس الأعلى، وبين النظام الرومانى التقليدي القائم على المركزية، والذي تمثّل بشكل أكبر في النظام الكنسي في العصور الوسطى. فابتكار نظام المفتشين الملكيين الذين سافروا من باريس إلى أنحاء الدولة المختلفة لمراقبة سير الأمور، وهم يحملون المراسيم ويكتبون التقارير للملك؛ يوحي بذلك. والأهم أنَّ الإمبراطور كان يعقد مؤتمراً سنوياً يحضره النبلاء وكبار رجال الكنيسة، الذين لم يكن لديهم الكثير مما يفعلونه، سوى أن يستمعوا ويصفقوا استحساناً لرأيه. وبذلك تحكّم في الكنيسة وفي الدولة وحتى في حياة أتباعه الخاصة^[2].

بينما كان الناس في هذه الدولة الإمبراطورية الواسعة يخضعون لمؤسّسات سياسية واحدة، وقوانين واحدة، ومنظمة كنسية واحدة، وثقافة قديمة اتباعية واحدة، آخذة بالتجدد في قالب مسيحي كاثوليكي متزمت^[3]. واعتبر شارلمان نفسه أباً مسؤولاً عن رعيته وبلاده، كما آمن أن من واجبه أن يوفر لأتباعه من أمور الحياة الدنيوية والروحانية، وكان هذا نمطاً جديداً فيما يجب على الملك المسيحي أن يؤديه، وباعتباره إمبراطوراً فقد قام بتعيين أساقفته وقام بمؤازرتهم جنباً إلى جنب مؤازرة صغار رجال الدين^[4]. علماً أنَّ اللقب الإمبراطوري شارلمان قد خوله سلطة أعظم ممّا كانت عليه سلطته من قبل في روما ودولة البابوية، فبعد أن كان حامياً لها صار يُعدّ سيّداً عليها، وأصبح سكّان هذه المدينة، بما فيهم البابا نفسه، رعايا الإمبراطور الفرنجي^[5]. وشارلمان كان مسيحياً متعصباً في أمور الدين الرسمي للدولة، إذ فرض عقوبة الإعدام على من يمتنع عن الصيام أيام الصوم الكبير، أو من يتناول اللحوم

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٦٢.

٢- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٢.

٣- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج ١، من أواخر العصر الرومانى إلى القرن الثاني عشر، الموسوعة التاريخية الحديثة، دار الفكر، دمشق ١٩٨٢م، ص ١٨٢.

٤- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٣.

٥- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٦٢.

أيام الجمع، أو مَنْ يرفض التعميد، كما قام برعاية جماعات الرهبان، ممّا كان سبباً في ازدهارها وتضخم أعدادها^[1].

وإنّ آخر ما يمكن التحدّث عنه على الصعيد الداخلي أنّ المرأة لم تكن بعيدة عن المشاركة في رسم سياسة الدولة في عهد شارلمان، حتّى أنّ زوجاته كنّ يعتبرن وزراء دولة، وكان لهنّ كلمتهنّ عنده، ما لا يعادلها كلمة أحد من حاشيته من الرجال. واشتهرت ليوتجاردهلديجار من بين نساء القصر بنفوذهنّ. أمّا السيّد فاستراة، فقد نقلت إلى البلاط الملكي كلّ ما اشتهر به مسقط رأسها من عداوات مريّة وأحقاد مقبّية وكراهية بغیضة، حتّى أشبعت زوجها تعطّشها للانتقام، إلّا أنّه دفع في ذلك ثمناً غالياً. وكانت نساء القصر يصحبهن في حلّه وترحالهن، ويقمن إلى جانبه، سواء أقام حفلة عيد الميلاد في المعسكر في بافية أم بين مستنقعات أم غابات سكسونيّة. أمّا بناته، فلم يكنّ في درجة الملكات من النفوذ، غير أنّهنّ شاركن أيضاً فيما جرى بالبلاط من التأمّر. ووجد الطامحون من الرجال في مصاحبتهنّ فائدة لهم. فكان كلّ شخصٍ مقربٍ من أميرة يحصل على وظيفة عن طريقهنّ^[2].

أمّا على صعيد السياسة الدوليّة، فإنّ تتويج شارلمان إمبراطوراً في روما، كان يعني أنّ أوروبا جديدة أخذت في التكوّن^[3]. كما جرّ المؤسّسة البابويّة إلى الانغماس في لعبة تقاسم النفوذ والأدوار، بات معها من الصعب الحديث عن سلطة رويّة مستقلّة^[4]. وبتتويج شارلمان إمبراطوراً على الرومان، صار في العالم المسيحي إمبراطوريتان:

الإمبراطوريّة الفرنجيّة في الغرب، وعاصمتها مدينة إكس لا شابيل^[5] Ai-La-Chappelle.

الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وعاصمتها مدينة القسطنطينيّة الواقعة على البوسفور.

وهاتان الإمبراطوريتان لا رباط بينهما سوى أنّهما مسيحيّتان، أمّا من حيث الثقافة واللغة والعادات والتقاليد والتركيبية البشريّة، فهما مختلفتان كلّ الاختلاف. وكان شارلمان أوّل

١- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٤.

٢- هنري كارلس ديفز، شارلمان، ترجمة: السيّد الباز العريني، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٢١١-٢١٣.

٣- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٢.

٤- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٣١.

٥- وهي مدينة آخن الألمانيّة، والواقعة على الحدود مع بلجيكا.

إمبراطور مسيحي لا يجري في عروقه الدم الروماني أو اليوناني، فهو بربريّ الأصل فرنجي المنبت، لذلك فتنصيبه إمبراطوراً كان يعتبر تجديدًا خطيرًا وخرقًا للمفهوم السائد في العالم المسيحي آنذاك. رغم أنّ شارلمان كان يجمع كلّ الشروط الأخرى التي تخوّله أن يكون إمبراطورًا. عمومًا، لقد تمّ تنويجه حسب الشكليات المتعارف عليها: كالمناداة به إمبراطورًا من قبل الشعب، وإجراء مراسيم تسليمه التاج الإمبراطوري^[1]. ولا شكّ أنّ شارلمان حين قرّر إنشاء أيكس لاشابيل Aix-la-Chapelle كحاضرة جديدة لمملكته في الموطن القديم الذي ينتمي إليه الفرنجة، كان يفكر أنّ يجعل منها «روما القادمة». ويمثّل هذا الإجراء تحديًا لروما الجديدة؛ أي القسطنطينيّة. والأهمّ من ذلك، هو أنّ هذا الإجراء كان عبارة عن رؤية إلى الخلف نحو روما التي لم تكن قاعدة لإمبراطوريّة كارولنجيّة أوروپيّة، وإنّما عاصمة لبابا لا يمتلك من القوّة والنفوذ سوى النزر اليسير. لكنّ شاءت الأقدار أنّ تتراجع مكانة أيكس لاشابيل بعد وفاة شارلمان، ولم تعد عاصمة للغرب، رغم ما نسج حولها في مؤلّفات العصر الوسيط^[2].

لقد كان العرف السائد قبل تنويج شارلمان إمبراطورًا هو أنّ تكون هناك «إمبراطوريّة واحدة، وكنيسة واحدة» في العالم المسيحي. ولذا، فإنّ نشوء الإمبراطوريّة الفرنجيّة في الغرب إلى جانب الإمبراطوريّة البيزنطيّة في الشرق، يُعدّ خرقًا للتقاليد السائدة آنذاك في العالم اليوناني - الروماني - الأوروبي؛ إذ كانت بيزنطة تعدّ نفسها الإمبراطوريّة الوحيدة التي ورثت الإمبراطوريّة الرومانيّة القديمة، بل إنّها استمرار لها، فالبيزنطيّون لم يسمّوا أنفسهم بيزنطيين، بل كانوا يسمّون أنفسهم الرومان، وعرفهم العرب باسم الروم. وعلى هذا يُعدّ قيام الإمبراطوريّة الفرنجيّة اغتصابًا لحقوق بيزنطة وضربة لنفوذها في الغرب الأوروبي تحرمها من كلّ سلطة تدعمها البابويّة والعالم الروماني الغربي. وتنويج شارلمان على يد بابا روما «خليفة المسيح في الأرض»؛ لم يجعل منه إمبراطورًا فحسب، بل الإمبراطور الأساسي صاحب الكفّة الراجحة في العالم الروماني؛ لأنّه الإمبراطور الذي توجّهت كنيسة روما البابويّة، التي تدّعي لنفسها الزعامة على جميع كنائس العالم، بما في ذلك الكنيسة البيزنطيّة^[3].

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٦١.

٢- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٣٩.

٣- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٦١، ٦٢.

ولعلّ عرش القسطنطينية الذي كانت تحتله الإمبراطورة إيرين (Irene ٧٩٧-٨٠٢م)، بعدما خلعت ابنها قسطنطين السادس وقبضت وحدها على مقاليد الحكم، كان في نظر شارلمان شاغراً، وإنّ اللقب الإمبراطوري الذي اتخذته لنفسه انطوى على أحقيته في أن يكون خليفة أغسطس. غير أنّه لم يحاول أن يحصل على أملاك وأراضي الإمبراطورية الشرقية، بل قنع بما جرى عليه من الاعتراف به إمبراطوراً في الغرب، ورفض الدخول في أيّ مهاترة مع الدولة أو الكنيسة البيزنطية^[1].

أمّا البابا، فكان يؤمن بفكرة الإمبراطورية الواحدة، ويبدو أنّ البابوية وجدت في الأسرة الكارولنجية مناصراً قوياً يمكن أن تعتمد عليه في تحقيق مشروع ذي صبغة «أوروبية» كانت بصدد التفكير في إنجازه، وهو إعادة إرساء دعائم الغرب الأوروبي كإمبراطورية تحت سلطة الكارولنجيين^[2]. بمعنى أنّ الكنيسة كانت تقصد بتتويج شارلمان إمبراطوراً؛ استبدال الإمبراطورية البيزنطية بإمبراطورية فرنجية، كما كانت هي الأخرى تعدّ عرش القسطنطينية شاغراً، حيث تعتليه امرأة هي إيرين. ومن جهة أخرى، كانت تشعر روما بفراغ سياسي كبير منذ أن سقط عرشها بأيدي البرابرة سنة ٧٤٦م، كما كانت تنظر إلى أباطرة بيزنطة نظرة ملؤها الاستياء والكراهية؛ بسبب سياستها المعادية للبابوية وعدم اعترافهم بأولوية كنيستها، إضافة إلى معارضتهم تقديس الأيقونات (طيلة القرن الثامن تقريباً)، وفرض سيادتهم على كنائس دلماسيا وصقلية وجنوب إيطاليا^[3].

ولا يمكن الإنكار بأنّ نصوصاً كثيرة تعود للقرن التاسع للميلاد تنعت شارلمان بلقب «رأس أوروبا»؛ والواقع أنّ اللقب كان مجردّ تشريف، ومجردّ تعبير خيالي، أكثر من كونه صورة حقيقية للواقع التاريخي، على اعتبار أنّ أوروبا «الشارلمانية» كانت أوروبا محدودة من الناحية الجغرافية؛ لأنّ رقعتها المكانية لم تكن تشمل الجزر البريطانية التي كانت مستقلة يحكمها الأنجلوسكسونيون والإيرلنديون، كما لم تكن تشمل شبه جزيرة إيبيريا التي كان يحكم معظم مناطقها العرب المسلمون. وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن تشمل مناطق إيطاليا

١- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٨-٣٩.

٢- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٣٨.

٣- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٦٢.

الجنوبيّة وجزيرة صقلية، فضلاً عن مناطق العالم الإسكندنافي التي ظلّت مجالاً وثنيّاً ينطلق منه الفايكنغ النورمانيون للسلب، أو لفرض مبادلات تجارية تكون لصالحهم^[1].

لكنّ المشكلة الأبرز التي كانت واجهت دولة شارلمان هي اعتراف الإمبراطوريّة البيزنطيّة به، إذ لم تعترف بشرعيّته ولا بشرعيّة هذه الإمبراطوريّة الجديدة، بل ظلّ البيزنطيّون متعتّين رافضين مدّة اثنتي عشرة سنة حتّى اضطروا أن يعترفوا بالأمر الواقع وهم صاغرون بحكم الأمر الواقع. لقد كان شارلمان يعلّق أهميّة كبرى على اعتراف بيزنطة بلقبه الإمبراطوري، إذ دون هذا الاعتراف سيقى لقبه منقوصاً من الناحية الشرعيّة. ولما كان شارلمان في موقف الأضعف، فإنّه لم يرغب أن يدخل في مهاترة مع بيزنطة، فالتزم الصمت حتّى تحين الفرصة المناسبة، حتّى إنّّه تجنّب أن يتّخذ لنفسه اللقب الذي اشتهر فيه الأباطرة البيزنطيّون، وهو لقب: «إمبراطور الرومان»، بل اتّخذ لقب: «حاكم الإمبراطوريّة الرومانيّة». كما اتّخذ مواقف وديّة تجاه بيزنطة، وأخذ يسعى بشتّى الطرق ليحصل على اعترافها به إمبراطوراً في الغرب. ففي سنة ٨٠٢م، أرسل مندوباً عنه وعن البابا يقترح على الإمبراطورة إيرين الزواج منه، وبذلك يتمّ توحيد شقّي الإمبراطوريّة الشرقي والغربي، وإن كانت إيرين قد نظرت بعين الرضا إلى هذا العرض، إلّا أنّها غلبت على أمرها، فما كاد الوفد الفرنجي يصل إلى بيزنطة حتّى نشبت فيها ثورة أطاحت بالمكلة عن العرش. وقد تولّى العرش بعدها نففور الذي كان يعاني كثيراً من الصعاب بسبب فتوحات العرب وتقّدّم البلغار، فما كان من شارلمان إلّا أن احتلّ البندقيّة التي كانت في حينها أهمّ ميناء للبيزنطيين على البحر المتوسط، فاضطرّ نففور في صفقة سياسيّة الاعتراف بشارلمان إمبراطوراً مقابل انسحاب الأخير من البندقيّة سنة ٨١٠م^[2].

لقد كانت قضيّة وراثة العرش من أهمّ القضايا التي واجهتها الدولة الإمبراطوريّة في عهد شارلمان؛ فالملكيّة كانت وراثيّة دون منع تجزئتها، وللملك أن ينظّم وراثة الحكم في المملكة، وعلى هذا قسّم شارلمان، وهو في صحّته وقوّته (سنة ٨٠٦م) ممتلكاته بين أولاده الثلاثة^[3]. فأذاع مقرّراته في شهر شباط من العام نفسه، وحمل نصّها إلى البابا،

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٣٨.

٢- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٦٣.

٣- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٠.

ويظهر من هذا النظام الذي وضعه شارلمان أنه يعبر عن قصور في النظر، وأنَّ فهمه لفكرة الدولة الإمبراطورية المجردة كان فهمًا ضعيفًا؛ لأنَّ ممارسة السلطة الإمبراطورية مجردة عن الشخص المنسوبة إليه، وكان يجب أن يكون منها الحفاظ على وحدة الأراضي التي تمارس فيها هذه السلطة^[1]. ومهما يكن من أمر، فعندما اعتلَّت صحته بسبب المرض والشيخوخة، لم يكن هناك من الأبناء الثلاثة إلا ابن واحد، فاستدعى شارلمان هذا الابن الوحيد الذي ما زال على قيد الحياة، وهو لويس التقي، ثمَّ جمع كلَّ نبلاء مملكة الفرنجة في اجتماع كبير. وفي هذا الاجتماع عين شارلمان ابنه لويس التقي بموافقتهم بالإجماع؛ ليحكم بنفسه المملكة كلَّها، ونصبه وريثًا للقب الإمبراطوري، وذلك في سنة (٨١٣م). وفي أواخر سنة (٨١٣م)، ألمَّ بشارلمان مرض عضال إذ أصابته حمى شديدة ألزمته الفراش، وبقي يصارع المرض حتَّى توفِّي في مطلع السنة التالي (٨١٤م)، وكان في الثانية والسبعين من عمره، قضى منها (٤٧) سنة في الحكم^[2].

ولكنَّ مشكلة وراثة العرش كانت مشكلة متجددة؛ فكما أنَّ ابنه الأصغر لويس التقي الذي عاش بعد إخوته جميعًا، أصبح الوارث الوحيد للملكة وانفرد بحكم إمبراطورية أبيه كلَّها، لم يلبث أن سار على نهج أبيه بأن قسَّم مملكته بين أولاده الثلاثة، وهم لوثر وبيان ولويس، وقد أشرك الملك لويس التقي ابنه لوثر معه في حكم الإمبراطورية^[3]. وقد هدف لويس التقي من تقسيم الإمبراطورية بين أبنائه إلى تفادي نشوب الخلافات بينهم بعد مماته، إلا أنَّ هذا التقسيم هو الذي أفضى إلى نشوب تلك الخلافات بين الأبناء فيما بينهم من جهة، وبين الأبناء وأبيهم من جهة ثانية، وما إن توفِّي الأب حتَّى دارت حرب شعواء بينهم أسفرت عن اتفاقية فردان سنة ٨٤٠م التي بموجبها قسَّمت الإمبراطورية بين الأبناء الثلاثة^[4]. ويعتبر كثير من المؤرِّخين المختصين أنَّ تاريخ الدولة الفرنسية؛ كدولة ذات كيان سياسي، يبدأ من معاهدة فردان، ففي هذه المعاهدة تبلورت الشخصيتان الفرنسية والألمانية، وإنَّ كانت فرنسا

١- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، م.س، ص ١٨٤.

٢- إينهارد، سيرة شارلمان، م.س، ص ١٤٨، ١٤٩.

٣- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٠.

٤- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٧٥.

ما تزال مجموعة إقطاعيّات^[1]. ومهما يكن من أمر، فقد ظلّ مبدأ التقسيم سائداً طيلة زمن خلفاء شارلمان، دون أن يدلّ ذلك على انقسام الإمبراطوريّة من الناحية النظريّة على الأقلّ. أمّا مبدأ عدم قابليّة المملكة للتقسيم، فلم يظهر إلّا في زمن متأخّر، ويرتبط ظهوره بالوعي القومي، والذي كان في القرن التاسع الميلادي ما زال طيفاً ضعيفاً هزياً^[2].

أمّا بالنسبة لألمانيا، فحالها كحال -كما أسلفنا قبل قليل- إذ إنّ الشخصية الألمانيّة بدأت تتبلور بعد معاهدة فردان، حيث نجد أنّ لويس الألماني يقسم في هذه المعاهدة أمام جنوده باللغة الألمانيّة. وإنّ ما يميّز ألمانيا أنّها كانت تحكم بطريق لا مركزي، ولكن بالرغم من ذلك فإنّ عوامل الوحدة وقيام حكومة مركزيّة قويّة في ألمانيا كانت موجودة، وهذه العوامل هي:

١- مجلس الديت **Diet**: أو المجلس الإمبراطوري؛ وهو مجلس يمثل الإمارات، ويتكوّن من ثلاث طبقات؛ الطبقة الأولى، وهم طبقة الناخبين السبعة Electors: الذين من حقّهم انتخاب الإمبراطور، والطبقة الثانية: وهي طبقة الأمراء العلمانيين ورجال الدين. والطبقة الثالثة: وهي طبقة مدن الإمبراطور، وهي المدن التي تخضع بصورة مباشرة للإمبراطور. ولمّا كان رجال الدين والأمراء يرغبون في الاستقلال بعيداً عن الإمبراطور؛ فقد كان هناك صراع دائم بين مجلس الديت والإمبراطور. ٢- الإمبراطور: فرغم أنّ الإمبراطور كان مجرد حاكم لبعض المدن، إلّا أنّه كان يتمتّع بقدر من المكانة الرفيعة عن بقية الأمراء، واتّجه الكثير من الأباطرة للحدّ من سلطة الأمراء، وتوحيد أطراف الإمبراطوريّة المترامية، وإنشاء حكومة مركزيّة. ومن أجل هذا ظلّ الإمبراطور والأمراء في نزاع مستمرّ، وبسبب النزاع المستمرّ بين الإمبراطور والأمراء، فقد أصبح كلّ طرف يتحيّن الفرصة التي تقوّي جانبه ضدّ الطرف الآخر، حدّاً وصل في نهاية المطاف أن يستعين النبلاء بالبابا ضدّ الإمبراطور^[3].

وهكذا نجد أنّ الانحلال الذي أصاب الإمبراطوريّة الفرنجيّة في عهد خلفاء شارلمان قد أسهم إلى تبدّل عميق في مفهوم الدولة الإمبراطوريّة في الغرب الأوروبي، في البدء كانت الدولة أو السلطة السياسيّة مسيطرة على الدين، والكنيسة تتبع لها، لكنّ تبدّل الأمر، فبينما

١- محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٤٠.

٢- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٠.

٣- محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٤٣.

كان البابا في عهد شارلمان منقذاً لأوامره، إذ به الآن يمنحه التاج الإمبراطوري، ويطلب إلى مَنْ يمنحه هذا التاج حماية الكرسي الرسولي المقدس. لقد تبدّل هذان الدوران؛ دور البابا ودور الإمبراطور، في عهد خلفاء شارلمان، إذ ما كان منه أن أضعف بالتدرّج قيمة اللقب الإمبراطوري، وهيبة الدولة الإمبراطورية. فبعد أن كان الإمبراطور سيّد غرب أوروبا، أصبح في أواخر القرن التاسع مساعداً للحبر الأعظم في حماية الدين، حتّى إنّ الإخفاق الذي مني به أباطرة العهد الأخير من أمثال شارل الأصيل وشار السمين؛ أفقد وظيفة الإمبراطور كثيراً من اعتبارها، وظلّ الأمر كذلك حتّى أوتو الأوّل (الإمبراطور الألماني) الذي بنى «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» على أنقاض الإمبراطورية الفرنجية^[1].

كما أنّ فشل خلفاء شارلمان في المحافظة على سلطة الدولة المركزية التي اتّبعها هو في حكمه للدولة الإمبراطورية؛ أسهم في اختفاء هذه الرئاسة القومية، حيث أخذت الإدارة في التفكك السريع، ونزل الملك عن حكمه المباشر لمجموعة من كبار الإقطاعيين، وبات موظّفوه يتوارثون وظائفهم حتّى استقلّوا بها^[2]. ورغم أنّ ابنه لويس التقي كان يروم السير على سياسة والده؛ فمنذ أن تسلّم عرش الإمبراطورية حاول أن يضرب على أيدي الموظفين الذين يسيئون استعمال وظائفهم، إلّا أنّ جهوده على ما يظهر لم تكمل بالنجاح^[3]. إنّ التدهور المستمرّ في سلطة الدولة المركزية في عصر الإمبراطورية الفرنجية، وعدم قدرتها على السيطرة على الدوقات والكونتات، واغتصاب هؤلاء النبلاء للسلطة الملكية في مقاطعاتهم، وتحويلها إلى إقطاعات وراثية، هذا مع ما تضمّنه ذلك من سيطرة سياسية على الفلاحين في الإقطاعيات، وتمكّنهم في القرن التاسع من انتزاع حقّ جمع الضرائب أيضاً، وعقد المحاكمات في القضايا المهمة، وعلى الرغم من أنّ الأمراء الإقطاعيين ظلّوا يمارسون هذه الصلاحيات باعتبارهم ممثّلين للملك؛ إلّا أنّ الطبيعة الوراثية للإقطاع الأوروبي جعلت النبلاء الأوروبيين يعتقدون بعد مرور فترة من الزمن، أنّ هذه الصلاحيات السياسية لهم دون سواهم، في حين أمسى الفلاحون (المواطنون) فريسة للخوف الدائم، والاضطراب المستمرّ، والافتقار إلى الأمن. لقد كانت أيّامهم تمضي كتيبة في انتظار مستقبل لا يجيء،

١- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، م.س، ص ٢٤٨.

٢- محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٤١.

٣- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، م.س، ص ١٨٨.

بعد أن وقعوا تحت رحمة كوارث الطبيعة، والأوبئة، والمجاعات، وتحت وطأة سادتهم الإقطاعيين الذين ساموهم سوء العذاب، كما جعلوهم وقوداً لحروبهم الإقطاعية^[1]. وفي ضوء ما تقدّم من معطيات، يمكن الحكم على التجربة الكارولنجية بكونها كانت تجربة فاشلة، إذا ما وضعت في المدى الطويل، ونُظر إليها كتجربة أوروبية وحدوية^[2].

سادساً: الدولة الدينية في أوروبا العصور الوسطى:

لم تنشأ الدولة الدينية في أوروبا العصور الوسطى من عدم، فالخطوة الأولى كانت من اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية، بينما تمثلت الخطوة الثانية بطروحات لاهوتية وفكرية مهّدت لها؛ فقد وجد المسار السياسي الكنسي سنداً له في أطروحات كتاب «مدينة الله» للقديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م)، إذ يقدّم هذا الأسقف رؤيته للتاريخ بمثابة التجلي للمراد الإلهي، سطرّت مصيره العناية الربانية منذ الخلق الأول، ليفضي ذلك المسار إلى عودة المسيح عليه السلام وإقامة الحساب الكوني. فالنظرة خطيّة للزمن، وهي تقف على نقیض النظرة المستوحاة من الثقافة الإغريقية التي ترى فيه مساراً دائرياً لتاريخ العالم. وضمن ذلك الإدراك التاريخي الأوغسطيني تشكّل وقائع المدينتين: الأرضية، التي تمثلها الدول والإمبراطوريات، والتي مآلها الزوال وإن بدت خالدة؛ وتلك الإلهية التي كُتب لها الخلود. وبالخلاصة، تجد المدينة الأولى مجدها في ذاتها، بينما تجد نظيرتها مجدها في الامتثال لتعاليم الرب. لقد خيّم آراء أوغسطين بظلالها على القرون الوسطى، وامتدّ إلى عصر القديس توما الأكويني، ما مهّد إلى الفصل بين الكنيسة والعالم. لكنّ دعوة أوغسطين بقيت منحاذاة لخضوع السلطة الروحية للسلطة الزمنية، وبقي أوغسطين وفياً لولائه السياسي لروما، الداعي لوحدة المذبح والعرش. فالإنسان وفق وجهة نظره؛ بطبعه علويّ، والشيء الأساسي للمرء هو خلاص روحه. وأمّا المؤسسات السياسية فهي شرّ لا مناص منه، على المسيحي الحذر منها؛ لأنّها مصدر الخطيئة والفساد، وينبغي بما تيسّر توجيهها إلى قدرها الأزلي^[3].

١ - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، م.س، ص ٥٥.

٢ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٣٩.

٣ - عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٣١-٣٢.

أمّا على أرض الواقع، فقد شكّلت الديانة المسيحية البوتقة التي انصهرت فيها مختلف فئات المجتمع الأوروبي خلال القرون الأولى من العصور الوسطى، كما أعطت في الوقت نفسه لجميع الأقاليم نوعاً من الوحدة والتجانس. ومن هنا نفهم الدور المتميز الذي قام به الأساقفة في إدارة الشأن العام وملء الفراغ السياسي، خاصة في الحواضر القليلة التي ظلّت تقاوم الأحداث والتطورات في أقاليم غرب أوروبا. وكان هؤلاء الأساقفة يمارسون سلطتهم في نطاق دوائر تتطابق عموماً مع الدوائر التي كانت معروفة زمن سيادة روما. وقد ألّف الأساقفة جانباً من هيئة رجال الدين التي أصبحت تضمّ، بالموازاة مع انتشار الديانة المسيحية، فئات كثيرة، من بينها فئة الكهنة وفئة الرهبان؛ الذين لم يكونوا إلاّ رهباناً في اسمهم، إذ كانت تجمعهم تنظيمات تدير أمورهم^[1].

دولة الفرنجة

لقد حدثت تطورات مهمّة منذ عهد دولة الفرنجة؛ أدّت إلى تغاضيهم عن مساعي الكنيسة لتشكيل «دولة» قائمة بذاتها. وما كان ذلك هيئاً لولا حدوث تحوّل اجتماعي عميق في القرون الوسطى، ألّم بالشأن الديني، حتّى غدا قوة فاعلة استخدمتها أطراف اجتماعية متنافرة، ولم يبق في حدود الميراث الرمزي أو الروحي المستبطّن فحسب. فمنذ حقبة بيبان القصير ووريثه شارلمان، بدأ التنازل عن مساحات واسعة من الأراضي للأسقفيات، وهو ما تطوّر بشكل ملحوظ مع الإقطاعيين؛ بغرض إيجاد حاضنة لاحتواء القوة أو الفاعلية الدينية. واللافت في تنازل الإقطاعيين أنّه ما كان سخاءً طوعياً بل كان مقصوداً، فغالباً ما جرى تحضير أبناء الإقطاعيين لتولي المهمّات الأسقفية ورئاسة شؤون الأديرة؛ وذلك بغرض متابعة تلك الأسر إمساكها بملكية الأراضي الممنوحة، ومن ثمّ التحكم بالقوة المادية التي تستند إليها المؤسسة الدينية. الأمر الذي حول الكنيسة إلى ملكية متحوّلة قابلة للبيع والشراء، جزئياً أو كلياً؛ كما أنّ بعض رؤساء الأديرة والأساقفة شغلوا مناصب مزدوجة في الكنيسة وفي الدولة، وهو ما جعل الدور الديني ثانوياً أمام النفوذ الإقطاعي، كما أسهم كذلك في بثّ نوع من الفوضى في الحياة الدينية. فمن ناحية، كانت الحقبة الإقطاعية فرصة مناسبة للكنيسة

لتكديس ثروات طائلة؛ لكنّ من الناحية الأخرى، كان يتمّ تقليص كبير لاستقلاليّة الكنيسة^[1].

إنّ إضفاء قداسة على ملك (شارلمان) من قبل الكنيسة، كان يعني أنّ تدخل السياسي بالديني قد بلغ شأواً بعيداً؛ فقد أدرك حكامّ العصور الوسطى ما لإضفاء القداسة على السياسة من دور وأثر. فبعدما كان شارلمان يرغب في تنويعه من قبل الكنيسة، حتّى ينال حكمه شرعيّة أكبر على الساحتين المحليّة والدوليّة، وجد نفسه سيّداً للكنيسة، حتّى أصبح شريكاً فاعلاً في الأمور والقضايا المصيريّة التي تواجه الكنيسة، وهو ما بدا جليّاً في إلحاحه على عقد مجمع كنسي؛ بقصد إصلاح أنشطة الأساقفة ومراجعة مهمّات رجال الدين، بعدما لمس ما حلّ بهم من انخرام وتشردم على حدّ زعمه. وهو في الحقيقة إدراك من الإمبراطور للدور الفاعل لإصلاح النظام الكنسي، لما له من أثر حاسم في إحكام قبضته على السلطة^[2].

لذلك لم يتورّع دقيقة واحدة عن القبض على زمام الكنيسة، وجعل سلطتها تحت سلطة الدولة، وربطها به ربطاً وثيقاً، حتّى إنّه كان يتدخل في قضايا العقيدة، ولا يتوانى عن فرض رأيه الخاصّ، ويجبر البابا نفسه على طاعته دون نقاش^[3]، وكرّس تلك القبضة بمزاولة حقّ الإشراف على انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة، مزاولة بلغت في كثير من الأحيان أنّ الإمبراطور صار صاحب حق في اختيار مرشحي هذا المنصب. كما عين الإمبراطور موظّفاً خاصّاً للنظر في أمور الكنيسة، وكان من أهمّ موظّفي البلاط، وهذا الموظّف هو المعروف باسم رئيس القساوسة الإمبراطوريين، وكانت وظيفته تقابل من بعض الوجوه وظيفة رئيس البلاط، كما كان هذا الموظّف كبير القضاة في المسائل العلمانيّة. ثمّ إنّ صفة القداسة التي لصقت بملوك الفرنجة الأوائل (الميروفنجيين) ظلّت لصيقة بخلفائهم (الكارولنجيين). وزادهم على مرّ السنين أنّ اعتقد فيهم الناس أنّهم أصحاب صفات مقدّسة طاهرة لا سبيل إلى زوالها. ومن ذلك كلّ يتّضح أنّه ثمة علاقة مرتبطة بين ما جرى من استنجاد ببيان البابا زكريّا، وتنويع شارلمان بيد البابا ليون الثالث سنة ٨٠٠م، وبين نظريّة الحقّ الإلهي فيما بعد، وما جرى من تحالف طويل الأمد بين الكنيسة والملك. وفضلاً عن ذلك امتدّت

١- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٠.

٢- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٧.

٣- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، م.س، ص ١٨٤.

ولاية الملك زمن الكارولنجيين حتّى شملت قضايا معيّنة سمّيت في القانون الإنجليزي باسم القضايا العامّة، وهي جرائم انتهاك حرمة المعابد، وإيذاء الأرامل واليتامى والمساكين والعاجزين عن حماية أنفسهم وذويهم^[1].

لقد صار من الواضح أنّ المزج المستوحى من اللاهوت ومن «القانون الكنسي»، الذي يرتقي أنّ الكنيسة والمجتمع المسيحي هما وحدة منصهرة يعتليها المسيح، قد انزاح من المجال اللاهوتي إلى مجال الدولة التي يقودها الملك بدفع من فقهاء القانون. وكشأن الكنيسة التي هي بمثابة زوج السيّد المسيح، تغدو الدولة قرينة الملك أيضًا. لقد باتت استعارة القرآن شائعة في القرون الوسطى؛ فالملك يتلقّى أثناء تنويجه خاتماً رمزياً تعبيراً عن هذا التلاحم^[2]، لدرجة أنّه لم يكن مناصاً بالإمبراطور واجب أهم من واجب العمل على مدّ أطراف مملكة المسيح. ومن الدليل على ذلك مبلغ اعتقاد شارلمان في وظيفة الإمبراطورية؛ إذ شنّ حرباً شعواء في سبيل نشر المسيحية الكاثوليكية^[3]، وقد ارتكب مجازر عدّة في طريق حملاته، ودمّر كثيراً من المدن بعد التّنكيل بسكّانها. وكانت أشدّ حروبه شراسة تلك التي خاضها ضدّ السكسون، وما قام به بعد ذلك من حملهم جميعاً على اعتناق المسيحية، وقد ارتدّوا عنها أكثر من مرّة، فقتل منهم كلّ من لم يؤمن بها^[4].

الإمبراطورية الرومانية المقدسة

لقد اتخذ التأويل السياسي لدور الكنيسة أشكالاً مختلفة عبر القرون الوسطى، ما ترتّب عنه سعي جاد لترجمته عبر نفوذ فعلي؛ من إضفاء الشرعية على الملكيات القائمة في الغرب الأوروبي من قبل الكنيسة أولاً، ما قاد إلى إعلان الإمبراطوريات المقدسة، المستندة إلى الأسس الشيوقراطية، المحكومة بالنظام الهيروقراطي؛ أي الخاضعة لسلطة رجال الدين ثانياً. وهو مسعى لإرساء دعائم هذه الدولة الشيوقراطية، وحشر السيفين في غمد واحد ثالثاً. ولعلّ الدولة المستندة إلى الأسس الشيوقراطية أكثر ما تجلّت في الإمبراطورية الرومانية المقدسة^[5].

١ - محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٩-٤٠.

٢ - عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٥.

٣ - محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٩.

٤ - اينهارد، سيرة شارلمان، م.س، ص ٥٧-٦٧.

٥ - عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٣.

لقد كان حكام ألمانيا من سلالة رؤساء القبائل الذين قدّر لأقويائهم وأكثرهم قسوة وجشعاً أن يصبحوا ملوكاً. وفي القرن العاشر، ظهرت واحدة من الإمبراطوريات القبليّة شمالي ألمانيا، التي انبثقت من الفرع الساكسوني كأقوى الأقوياء على الساحة الألمانيّة، ومنها جاء الدوق أوتو الساكسوني الذي تمّ اختياره ملكاً على ألمانيا بوساطة رفاقه الدوقات سنة ٩٣٦م، والذي استغلّ لقبه بشكل حازم. وهكذا وبشكل مثير للغضب، فإنّه أصدر مجموعة من التعليمات المثيرة للنبلاء الذين اختاروه، كما أنّه شنّ عدّة حملات حربيّة على السلاف والبوهيميين، وأحرز نصراً كبيراً على الشعوب المجرية سنة ٩٥٥م منهياً وإلى الأبد تهديدهم لغربي أوروبا^[١]. ولمّا كانت كنيسة روما تمرّ خلال القرن العاشر في حالة من الضعف والتبعية، تحوّلت بموجبها إلى ما يشبه الوكالة، تسير وفق ما تمليه عليها السلطات القائمة، ولم تشهد أيام الكنيسة فساداً مثلما شهدته إبان الحقبة المعروفة بـ«حقبة الفجورقراطية»؛ أي «حكومة الفاجرات»، حين باتت تتدخل في تعيين البابوات نساءً هنّ أسوأ في سلوكهنّ من الفاجرات. وقد ساد هذا التأثير المشين طيلة فترة اعتلاء اثني عشر باباً سدة البابويّة، من البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤-٩١١م) إلى البابا يوحنا الثاني عشر (٩٠٤-٩٥٥م)؛ فقد شكّلت التحوّلات الاجتماعيّة العميقة التي نقلت الإكليروس من حيّز الكنيسة (المعبد) إلى حيّز الفضاء الزمني اختباراً عسيراً، لم يتيسّر التحكّم أثناءه بمجريات الواقع الجديد الذي لم تقنع فيه الكنيسة بمجالها وسلطانها، بل سعت إلى توظيف سلاح القداسة في عالم السياسة. غير أنّ تلك المجازفة جعلت الدين غير الدين، والكنيسة غير الكنيسة، وانفتحت جرائه أبواب واقع جديد لا عهد لرجل الدين به^[٢].

والأحقّ منْ لم يتعظّ بتجارب غيره، وهذا المثل كان ينطبق تماماً على البابا يوحنا الثاني عشر عندما طلب مساعدة حربيّة من الملك الألماني أوتو الأوّل ضدّ ملك اللومبارديين، فما كان منْ أوتو إلّا أن عبّر جبال الألب، واستولى على التاج اللومباردي لنفسه. وفي سنة ٩٦٢م، تمّ تنويجه إمبراطوراً على يد البابا الذي لم يتعلّم من دروس التاريخ، وهو أنّه لا يجب ألاّ تطلب المساعدة من رجل قويّ ضدّ أحد منافسيك. وهكذا أصبح أوتو الأوّل

١- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٢.

٢- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٨.

«الإمبراطور أوتو» الذي كرّر العمل الخيالي نفسه الذي قام به شارلمان، وهو استعادة الإمبراطورية الرومانية في الغرب، والتي عرفت الآن باسم «الإمبراطورية الرومانية المقدسة»، المقدسة؛ لأنّ التتويج تمّ على يد البابا، والرومانية لاستعادة الزمن الذي كانت فيه أوروبا تنعم بالوحدة^[1].

لقد جاء تتويج الملوك من قبل البابوية حدثاً نتج عن مسار من التحوّلات، باتت المؤسسة الدينية فيها شريكاً في السلطة وجزءاً منها. مع أنّ هناك فرقاً جوهرياً بين الإمبراطورية الفرنجية المقدسة التي توجّ شارلمان على عرشها، ومثيلتها الرومانية المقدسة التي توجّ أوتو الأوّل بساكسونيا على عرشه؛ إذ انطلق الأوّل من موقع الضعف، بحثاً عن إضفاء شرعية على ملكه وحكمه على الصعيد الدولي أمام البيزنطيين والعرب المسلمين الذين كانوا على حدوده في جنوب فرنسا، وفي الغرب الأوروبي أمام الأمراء الإقطاعيين والممالك الجرمانية الأخرى، ما استوجب عليه الإذعان لشروط الكنيسة الرومانية، ولضغوط مختلف الإقطاعيين الفرنسيين. في حين انطلق الثاني الذي استهلّ حكمه في سنة ٩٣٦م بقوة لا تضاهيها قوة شارلمان، عقب سلسلة من الانتصارات العسكرية والسياسية، وتدعم ذلك بإذعان البابا لمشيئته سنة ٩٦٢م وتنصيبه على رأس «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» ما قاده إلى إقرار مبدأ «القيصرية البابوية» Cesaropapismo؛ ذلك الشكل السلطوي الذي جسّد علاقة الدولة بالكنيسة، وعبر عن اتحاد السلطين الزمنية والروحية في شخص الملك، ما حوّل الكنيسة إلى مؤسسة خاضعة للدولة وأداة للتعبير عن إرادتها، وهكذا انطلقت الإمبراطورية الرومانية المقدسة^[2].

واستناداً إلى ما تقدّم، كان الإمبراطور الألماني، أو الحاكم الديني، هو الذي يُقلّد بعض المرشّحين للمناصب الكنسية بمقاليد المنصب (كالخاتم والعصا)، ويتلقّى منهم ما اعتاده من آيات التبجيل قبل تنصيبهم، وكان ذلك يعبر بطبيعة الحال عن علاقة السيّد بالمرؤوس^[3]. ولمّا كان الملوك الألمان -القلب الحقيقي للإمبراطورية الرومانية المقدسة- يعتمدون على الدعم الأسقفي لدولتهم، لذلك كانوا حريصين على استمرار وضع رجال الدين تحت

١ - موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٣.

٢ - عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٧.

٣ - توبي أ. هف، فجر العلم الحديث (الإسلام، الصين، الغرب)، ترجمة: محمّد عصفور، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٦٠، أغسطس ٢٠٠٢م، ص ١٤٠.

سلطتهم؛ لأنّه إن لم يستطع الملوك الألمان توظيف القساوسة حسب إرادتهم، والتأكّد من ولائهم، واستعمالهم كمعلاء مخلصين لهم؛ فإنّ النظام السياسي الملكي سيصاب بالضعف والوهن. لكنّ في ذلك الظرف، كان لرجال الإصلاح الديني موقفهم الخاصّ بهم، فهم آمنوا بأنّ الكنيسة لم تنشأ لخدمة الدولة، ولا يمكن لرجال الدين أن يكونوا تحت أيّ سلطة، إلّا السلطة الدينيّة التابعين لها (الكنيسة)؛ لذلك كان من الصعب إيجاد طريقة لتطبيق مشروع تسوية بين البابا والإمبراطور^[1].

وفي سعي الكنيسة الحثيث لترسيخ سطوتها السياسيّة، تسلّحت بعدد من السندات اللاهوتيّة، أبرزها مبدأ العصمة، الذي ألهمها عدم التسامح مع أيّ شكل من أشكال المعارضة، وسوط الحرمان المسلط على كلّ من تحدّثه نفسه بشقّ عصا الطاعة، فضلاً عن مساعٍ جادّة للإمساك بأسباب القوّة الماديّة لتأديب العصاة وتوسيع رقعة النفوذ. هذا الفوران المستجدّ الذي استبدّ بورثة عرش بطرس، وهذا التطلّع للإمساك بالسيفين، أدخلوا الكنيسة في طور جديد وتجربة عسيرة، تحوّل معها دين المسيحيّة إلى دين الكاتدرائيّة المتحالفة مع القصور طوراً، والمناطق لها طوراً آخر^[2]. وهكذا بعد طول تحالف ما بين الكنيسة والملكيّات في أوروبا الغربيّة، ثارت الكنيسة على حلفائها التقليديين، ورفضت بشدّة التقاليد العلمانيّة القاضية بتعيين الملوك للقساوسة في الكنائس القائمة فوق تراب ممالكهم، وانتهى الأمر بتحريمها على يد البابا غريغوري السابع (١٠١٥-١٠٨٥ م). وإن كان مراده من وراء ذلك، التصديّ لرغبة الإمبراطور الجرمانى في احتواء البابويّة^[3]. وحتى نكون منصفين أكثر؛ يمكننا القول: إنّ كلا الطرفين (الدولة والكنيسة)، كانا في سعي دؤوب للفوز بما لدى الطرف الآخر من كاريزما وسلطة ونفوذ، وهي مرحلة تميّزت بالغزل المتبادل، والتي استمرّت حتّى سنة ١٠٥٣ م تاريخ وفاة الإمبراطور أوتو الثالث، ثمّ تطوّرت العلاقة إلى السعي للاحتواء؛ إذ كان كلّ واحد منهما يتطلّع لابتلاع الطرف الآخر^[4]. إلّا أنّ هذا الصراع (الذي احتدم بين الكنيسة والدولة حول مسألة التنصيب أو الترسيم، أو منح المراتب الكنسيّة)، قد أسهم في تبدّل

١- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٣٥.

٢- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٤١-٤٢.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٧١.

٤- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٣.

المشهد السياسي في غرب أوروبا، وحوّل أوروبا إلى ساحة صراع بين البابا والإمبراطور خلال السنوات الممتدة بين سنتي (١٠٥٠-١١٢٢ م). ورغم حدة الصراع، فقد استمرّ مبدأ التوازن بين القوتين زمنًا؛ قبل أن تتمكن البابوية من أن تكسب لصالحها ذلك الصراع الطويل بين الكنيسة والدولة^[1].

لقد كان لملوك وأباطرة أوروبا جيوشهم، أمّا البابوات فلم يكن لديهم شيء سوى السلطة الدينيّة والأسلحة الروحيّة، وهي قرارات الحرمان، والمنع، واللعنة. ونتيجة لذلك، فإنّ القوى المتصارعة كانت تقريبًا متوازنة فيما بينها^[2]؛ لذلك نرى كفة الميزان تميل تارة نحو الكنيسة وتارة أخرى نحو الدولة، دون أن يتمكن طرف من إقصاء الآخر نهائيًا. وقد خيم الجدل بشأن العلاقة بين السلطة الزمنية والسلطة الروحيّة بظلاله على معظم تاريخ العصور الوسطى، مع كثير من الشبه بين السلطة الروحيّة والزمنيّة؛ في سعي كلّ منهما للتحكّم بمصائر الناس - وإنّ تبدّلت السبل واختلفت الوسائل - فالكنيسة (كهنة دينيّة) تتمثّل دورها في قيادة الجماعة المسيحيّة في مجال الإيمان، أو بالأحرى في المسائل المتعلّقة بخلاص الروح، وعلاقة الإنسان بربه، وشرح الأسفار المقدّسة، وإشاعة مكارم الأخلاق؛، التي يفترض أن تقود المؤمنين إلى الحياة الأبدية^[3]، والإشراف والتوجيه لسلوكيات كلّ البشر بمن فيهم الأباطرة، كل هذا يدخل ضمن سلطانها الروحي. أمّا الكهنة ورجال الدين الذين تمّ تعيينهم في الكنيسة بوساطة الملوك والأباطرة، فقد نادوا بأنّ الملك يستمدّ قوّته من الربّ، وهو مسؤول فقط أمامه، وأنّ اختصاص الكنيسة يجب أن يكون منصبًا على الشؤون الدينيّة لا الدنيويّة^[4]، فالمسائل الدنيويّة من حيث الإدارة السياسيّة، ورعاية شؤون الناس، والتشريع القانوني هي من مشمولات الدائرة الزمنيّة الأرضيّة، وتعدّ من المهمّات الرئيسة لجهاز الدولة، ضمن الأشكال التي تتخذها كافّة^[5].

لقد كان الصدام أمرًا لا مفرّ منه في ضوء المعطيات السابقة؛ وقد حانت فرصته بعد

١- توبي أ. هف، فجر العلم الحديث، م.س، ص ١٤١.

٢- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٢.

٣- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٣-٣٤.

٤- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٢.

٥- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٤.

وفاة الإمبراطور أوتو الثالث سنة ١٠٥٣م؛ إذ اختار الأمراء الألمان هنري الرابع (١٠٥٦-١١٠٥م) ملكاً عليهم كوريث من الفرع الساكسوني، فاعتلى هنري الرابع العرش وهو في سن الخامسة من عمره؛ أي تحت الوصاية، فشرع أقطاب المملكة بنيل الاستقلالية عن الملك وعن الدولة، وتفرّد رجال الدين المتمزّتون بالقيام على رعاية شؤون الكنيسة، ولم يأذنوا لأحد من العلمانيين أن يشاركهم مهامهم^[١]. وهكذا برزت في الغرب اللاتيني سلطتان، إحداهما موالية للبابا، والأخرى مناصرة للإمبراطور، لم تتفقاً لا على وظيفة الكنيسة في المجتمع، ولا على ما كان يسمّى السيادة على العالم *Dominium Mundi*، وذلك على خلاف الشرق المسيحي، الذي رضي بهيمنة السلطة السياسية على الروحية. فقد أخرجت هذه المستجدات سلطان الكنيسة من حيّزه الضيق ومن لاهوته التقليدي، وهو خروجٌ ما كان إرادياً؛ بل فرضته أوضاع اجتماعية واقتصادية مستجدة، خيّم بظلالها على أوروبا طيلة الفترة الممتدة بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر، وهي الفترة التي انزاح فيها مركز المسيحية، وبشكل تدريجي، من الدّير إلى الكاتدرائية، ومن الكاتدرائية إلى القصر^[٢].

وقد أسهمت شخصية جدلية في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى في صبّ الزيت على النار في الصراع المحتدم ما بين الدولة والكنيسة، تلك الشخصية هي هيلدبراند؛ ذلك الذي كان مشمولاً برعاية وعطف البابا ليو التاسع رئيس الشمامسة في روما منذ سنة ١٠٥٦م، ليصبح منذ ذلك الوقت المحرك الروحي الأوّل لحملة الإصلاح الكنسي ضدّ المظاهر العلمانية فيها. ويعتبر هيلدبراند من الشخصيات التي اكتنفها الغموض، إذ اشتدّ الجدل حوله فيما إذا كانت أسرته يهودية اعتنقت المسيحية؛ إذ قيل: إنّه من أسرة يهودية اسمها (البرليون)، تمكّنت من السيطرة على العرش البابوي أكثر من مرة في القرن الحادي عشر، وكان آخر من قدّمته تلك الأسرة هو البابا أوربان الثاني الذي دعا للحروب الصليبية^[٣].

لقد ظهر هيلدبراند في الوقت الذي تمكّن فيه بعض رجال الدين الأقوياء من زيادة سلطة البابا السيادية على الكنيسة الكاثوليكية بأسرها من خلال عدّة وسائل، أهمّها «المندوبون

١- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٣٦.

٢- عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٩.

٣- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٣٦.

البابويون» الذين كان البابا يرسلهم في مهمّات متعدّدة في شتّى أنحاء العالم الكاثوليكي لتأكيد سلطته^[١]. عندها ظهر هيلدبراند بمظهر المصلح الديني الذي نادى بتحقيق الإصلاح الكنسي، وإيصاله لكل أطراف الكرة الأرضيّة. وكانت الوسائل التي اقترح أنّها تحقّقه، هي أن يلتزم الجميع بأوامر الكنيسة ووجوب طاعتها في كلّ كبيرة وصغيرة، ويدعن الجميع للبابا بصفته صوت الربّ في الأرض، والبابا ذاته يجب عليه أن يتحمّل المسؤولية المخيفة التي ألّقاها على عاتقه الربّ، ويذل كلّ ما بوسعه للفصل بين الحقّ والباطل، عندها احتقن الموقف بين البابويّة الإمبراطوريّة، وكاد أن ينفجر الصراع على السلطة بينهما^[٢].

لقد تفجّر الصراع علناً عندما تسلّم هيلدبراند البابويّة باسم البابا «غريغوري السابع» في سنة ١٠٧٣م، أو كما سمّاه معاصروه بـ «الشیطان المقدّس»، حتّى ارتبطت هذه الفترة كلّها باسمه، وقد اهتمّ هذا البابا الجديد بتدعيم سلطة البابويّة على الإمبراطوريّة، التي كان يتربّع على عرشها الإمبراطور هنري الرابع الذي كان قد أبدى نزعة سياديّة لم يذانيها أحد من قبل. ومع هذا، فإنّ البابا «غريغوري السابع» الذي كان قد انطلق في سبيل تدعيم السلطة البابويّة، لم يتورّع من أن يطلب من الإمبراطور الألماني أن يوقف فوراً نظام التقليد العلماني الذي كان يتيح له وللحكّام العلمانيين التحكّم في تعيين كبار رجال الكنيسة من كهنة وأساقفة في وظائفهم^[٣]؛ إذ إنّ اعتبر أنّ وصاية الدولة على الكنيسة مرفوضة، مقدّراً أنّ بلوغ الاستقلاليّة مرهون بخوض إصلاح جريء، سعى إليه بشكل حازم حين صاغ ما عُرف بـ «الإعلان البابوي» Dictatus Papae في سنة ١٠٧٥م، مع ما تضمّنه من مبادئ تحضّ على تركيز السلطتين الدينيّة والسياسيّة في قبضة البابا، منها: أن يكون تنصيب الأساقفة وعزلهم رهن قراره، ومن دون رجوع في ذلك إلى عقد المجمع، وأنّ البابا وحده من يتوجّب على الأمراء تقبيل قدميه، وأنّه وحده المخوّل بعزل الأباطرة، وأنّ من صلاحيّاته إعفاء الرعيّة من لزوم الخضوع للأمراء. وهكذا حصل البابا لأوّل مرّة على فرصة إرساء دعائم الدولة الثيوقراطيّة المستقبليّة، التي لن تقبل بأيّ نوع من أنواع الإذعان للإمبراطور الجرمانى، ومنذ هذه الفترة

١ - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبيّة، م.س، ص ٦٧.

٢ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٣٦.

٣ - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبيّة، م.س، ص ٦٧.

بدأ التلويح بتسليط سوط الحرمان كسلاح سياسي، بما يجرد الحاكم من ولاء رعاياه^[١].

لقد جعل هذا المرسوم الذي أصدره غريغوري الخاتم والصولجان في يد البابا دون غيره، أو بعبارة أخرى فرض هيمنة البابا على رجال الدين أينما كانوا. كما أن هذا المرسوم كان لطمة قاسية بالنسبة لهنري الرابع شخصياً؛ ذلك لأن البابوية كان يتبع لها من الناحية الروحية أكثر من ثلثي الكنائس المنتشرة على رقعة الأراضي في ألمانيا، وإذا كان كبار رجال الدين في هذه الكنائس من أتباع هنري الرابع المخلصين والخاضعين له، ويعملون مديرين في مؤسسته السياسية والمالية والإدارية، ويمدّهم بمعظم دخله، وكانوا له حصناً قوياً ضد أعدائه الدائمين من البارونات الثائرين؛ فإنّ تبديلهم استناداً إلى مرسوم البابا، وتعيين هذا العدد الكبير من رجال الدين في جهاز الدولة من قبل البابوية، كان معناه ضياع الحكومة أو الفوضى السياسية والاجتماعية. واعتقد هنري الرابع أنّ البابا قد اختلّ عقله، إلّا أنّه لم يتخذ أيّ إجراء ضدّ مرسوم البابا؛ لأنّه كان مشغولاً في إخماد الثورة في إقليم سكسونيا^[٢].

وأمام رفض الإمبراطور تطبيق مرسوم البابا، فإنّ البابا هدّد الإمبراطور بتوقيع الحرمان عليه إذا لم يمثل للمرسوم الذي أصدره. وقرّر هنري أن يتصدّى بقوة لطموحات البابا، وعقب مجمع ديني أيّده فيه القساوسة الألمان الذين أزعجتهم سياسة البابا، وأرسل المجتمعون في وورمس إلى البابا سنة ١٠٧٦م رسالة حادة الكلمات تقول: «قرّنا بالإجماع ... أنّه لن يكون بمقدورك أن تتولّى رئاسة الكرسي الرسولي بعد الآن...». وتمضي الوثيقة لتصف البابا بالخطرة والشرّ، وبأنّه راهب مزيف يعاشر امرأة في الحرم، «... وأنّ الكنيسة كلّها تحكمها هذه المرأة...». وكان الردّ الفوري من البابا بخلع الإمبراطور، وأصدر ضده قراراً بحرمانه، ما أعطى الذريعة للأمرء في الأقاليم لإشعال نار التمرد من جديد ضدّ الإمبراطور، مع التهديد بانتخاب غيره إذا لم يحصل على الغفران البابوي. ثمّ حدث أن استعدّ البابا للرحيل إلى ألمانيا لحضور انتخاب النبلاء الألمان لإمبراطور جديد^[٣].

لقد كان البابا غريغوري السابع يعمل على إعادة نظرية «سموّ البابوية في علاقتها مع

١- عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٩، ٤٠.

٢- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٤.

٣- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، م.س، ص ٦٧.

الأباطرة» التي تعود إلى أيام غريغوري الأول (٥٩٠-٦٠٤م)، وغيره كثير من البابوات كانوا قد حاولوا تطبيق تلك النظرية. وإذا كانت نظرية السمو البابوي في ذاتها ليست وليدة أفكار غريغوري السابع، إلا أنه كان أول من طبّقها في إصرار وعناد من خلال اعتقاده بضخامة مهمة البابوية وعظم رسالتها، وقد قال في ذلك: «إنني لا أقبل البقاء في روما يوماً واحداً إذا أدركت أنني عديم الفائدة في الكنيسة»^[1]. ومن اللافت في الإصلاح الذي دشّنه البابا غريغوري السابع، إقراره مبادئ داخل الكنيسة بقيت جارية إلى يومنا هذا على غرار: أولاً: وجوب انتخاب البابا من قبل الكرادلة، ومن دون تدخل من الإمبراطور أو من الأساقفة (الذين كان يتم تعيين عدد وافر منهم من قبل الأباطرة)؛ فقد كانت قرارات «مجمع الكرادلة» تُتخذ بين قلة من الأساقفة يحوزون ثقة البابا، وممن يتولّى تعيينهم بنفسه. ثانياً يقع اختيار جميع عناصر الإكليروس من قبل كبار رجال الدين، ومن دون وفاق كنسي مع أحد من خارج الكنيسة. ثالثاً: إلزام جميع عناصر الإكليروس بالعزوبة، وفي حال موت رجل دين (مهما كانت مرتبته الدينية) تحوّل ثروته إلى خزينة الكنيسة^[2]. وبغض النظر عن حجم إصلاحات هذا البابا، إلا أنه الآن أمسى يشكل خطراً حقيقياً على أقوى إمبراطورية في الغرب الأوروبي.

لقد أدرك الأمراء الألمان في بلاط هنري الرابع خطورة الموقف، واستطاعوا إقناع ملكهم بأنّ الحلّ الوحيد هو أن يطلب الغفران البابوي حتّى ينقذ عرشه، فالحكمة أن تقضي أن ينحني الملك حتّى تمرّ العاصفة بسلام. وبالفعل سافر هنري إلى إيطاليا، وعلى قمة جبلية قرب بارنا، كانت قلعة كانوسا التي تمتلكها ماتيلدا صديقة البابا، وتحت ثلوج يناير تقابل البابا مع هنري، وقد تحوّل الأمر إلى نصر سياسي للبابا، لكنّه مؤقت، فما إن عاد الإمبراطور إلى ألمانيا، حتّى تمكّن من تصفية حساباته مع الأمراء المتمردّين، ثم التفت للبابا يريد الثأر منه، فقام بتعيين بابا مضادّ. وما إن طلب البابا غريغوري السابع من ملك النورمان روبرت جويسكارد في جنوب إيطاليا المساعدة العسكرية، حتّى جاءت جيوشه ونهبت روما، واسترقت الآلاف من رجالها ونسائها الذين بيعوا في أسواق النخاسة. ولم يستطع غريغوري أن يبقى في المدينة المنهوبة، فغادرها مع جيش النورمان ليموت في منفاه داخل الحذاء

١- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٣٨.

٢- عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٠.

الإيطالي بعد وقت قصير. وعلى الرغم من موت البابا غريغوري السابع سنة ١٠٨٥م، إلا أنَّ النزاع العلماني-الديني ظلَّ مستمرًّا، ذلك الصراع على النفوذ والسيادة بين الدولة والكنيسة^[1].

لقد ازدادت طموحات البابوية السياسية قوَّة في القرن الحادي عشر بمجيء هؤلاء البابوات الأقوياء من أمثال غريغوري السابع، فالإصلاحات التي قام بها البابوات داخل الكنيسة، أسهمت في تقويتها، فنافست الإمبراطورية في الهيمنة على شؤون الغرب الأوروبي، حدًّا وصل معها إلى حشد الجيوش لحرب المسلمين، ممَّا مهَّد الطريق أمام البابا أوربان الثاني ليوجِّه جهوده البابوية المؤثِّرة نحو الحروب الصليبية^[2]. ولمَّا كانت الحروب الصليبية في التحليل الأخير، إفرازًا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع، فإنَّها كانت تسعى إلى تحقيق الأهداف الكنسية التي كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية؛ وهي أهداف كانت تتركز حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي. كما أنَّ الحركة الصليبية كانت من ناحية أخرى، محاولة لتحقيق أهداف الناس العلمانيين الذين خضعوا للتنظيم الإقطاعي، سواء كانوا من النبلاء وفرسانهم، أو من الفلاحين. لقد كان الفرسان يتوقون إلى توسيع سلطانهم وأملاكهم، ولم يكن هذا ممكنًا دون الصدام مع الملكية التقليدية في أوروبا. وبينما كانت البابوية تحارب ضدَّ هذه الملكيات من أجل السيادة والسمو، كان النبلاء الإقطاعيون يتطلَّعون إلى بناء سلطتهم الإقليمية على حساب الملكية التقليدية، ولعلَّ هذا هو ما جعل البابا أوربان الثاني يوجِّه خطابه إلى الفرسان الفرنسيين بالذات؛ لأنَّ فرنسا كانت ما تزال الدولة الإقطاعية الوحيدة آنذاك. أمَّا البرجوازية الناشئة، ممثلة في القوى التجارية الإيطالية على وجه الخصوص، فقد رأت في المشروع الصليبي فرصة للسيطرة على تجارة البحر المتوسط وتجارة العالم^[3].

لقد واصل تحصين الدولة الشيوقراطية لنفسها تطوُّره؛ فقد أصرَّ البابا إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦م) على استئناف البرنامج الذي دشَّنه البابا غريغوري السابع، على اعتبار أنَّ السلطة السياسية للحكَّام الكاثوليك مستمدة من الربِّ ومنوطة بعهدة رجال

١- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، م.س، ص ٦٨.

٢- سمير صالح العمر، الحروب الصليبية تطوُّر المصطلح والمفهوم، جامعة الكوفة، كلية الآداب، د.ت، ص ١١٤.

٣- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، م.س، ص ٤٨.

الكنيسة؛ أي لا شرعية لأي سلطة دنيوية ما لم تُفرض برضا المؤسسة الموكلة بأمر الله فوق الأرض^[1]. وقد ازدادت سلطة البابوية قوة وتماسكاً خلال هذه الحقبة التاريخية بالذات، بل وفق وجهة نظر كثير من المؤرخين كانت البابوية أقوى الكيانات السياسية على الإطلاق في الغرب الأوروبي، وخاصة في عهد إنوسنت الثالث، الذي بفضل حنكته ودهائه أصبح نفوذ البابوية يشمل معظم مناطق العالم المسيحي^[2]؛ إذ صاغ إنوسنت الثالث في ذلك تصوراً مفاده أن «الإمبراطورية القمر» تستمد نورها من «الكنيسة الشمس»، واستهمل تطبيق ما ذهب إليه في روما، من أن السلطة السياسية بيد رئيس المقاطعة، ممثلاً للإمبراطور، والتي يكون فيها مجلس الشيوخ أداة حكم الولاية. واشترط لذلك أداء رئيس المقاطعة القسم على يديه، في حين تقبل المقاطعة بدستور يمنح البابا سلطة تعيين العضو في مجلس الشيوخ الذي توكل إليه مهمات تصريف شؤون المدينة. ولم تقتصر تلك الوصاية على مؤسسة القرار في مدينة روما، بل اتسعت دائرتها لتشمل مقاطعات أخرى في أومبريا وماركي وإقليم رومانيا، وهو ما ساعد على تدمير بناء أركان دولة الكنيسة^[3]. نعم لقد قامت البابوية على مؤسسات كانت تساعد في تدبير الشؤون العامة، فضلاً عن توفرها على مداخل مهمة وقادرة كانت تسمح لها بتنفيذ مشاريع مختلفة. وكان من الممكن أن تمارس البابوية السيادة الفعلية على الممالك الأخرى المعاصرة لها لولا أن الإصلاحات الغريغورية، التي سبق الحديث عنها، كانت تقضي بوجود الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية. ورغم ذلك، كان للبابوية نوع من التأثير في سياسة بعض الملوك^[4].

ومنذ أن توفي الإمبراطور فريديريك الثاني (١١٩٤-١٢٥٠م)، الذي خاض صراعاً عنيفاً ضد البابوية، في مسعى نشيط منه لإثبات حق الإمبراطورية الرومانية المقدسة في قيادة العالم المسيحي، ذلك الإمبراطور الذي تمسك بفكرة سمو الإمبراطورية وطابعها العالمي، خلت الساحة تماماً للبابوية؛ فطيلة عشرين عاماً تلت وفاته، أصبحت فيها ألمانيا ساحة للمنازعات والحروب الأهلية، ما جعل هذه الفترة تعرف بعصر الشغور Interregnum في

١- عز الدين غناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٠.

٢- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٧٩.

٣- عز الدين غناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٤١.

٤- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٧٩.

التاريخ الألماني^[1]. لقد كان هذا الفراغ في عالم السياسة الغربيّة قد فتح الباب على مصراعيه لتحكم البابويّة العالم المسيحي منفردة، لكنّ العبء كان أكبر من طاقاتها، فهذا الفراغ قد ألقى على البابويّة وحدها عبء إدارة شؤون العالم المسيحي الزمنيّة؛ فكان هذا العبء أثقل من أن تنهض به وسائلها الراهنة، وأخطر تهديداً أيضاً من أن لا يثير ردود فعل السلطة العلمانيّة، التي سارع قانونيّو الملك (فيليب له بيل) ملك فرنسا إلى مساعدتها واحتجّوا بالحقّ الروماني؛ إلى ما يؤيّد مطالبة سيّدهم بالإمبراطوريّة الرومانيّة الشاملة^[2]. لقد ظلّ الحكم الثيوقراطي سائداً زهاء ثلاثة قرون، وكان البابا بونيفاس الثامن (١٢٣٥-١٣٠٣ م) آخر البابوات الذين رعوا ذلك التمشي؛ إذ أصدر في الثامن عشر من نوفمبر سنة ١٣٠٢ م «نظريّة السيفين» Unam Sanctum التي تقتضي أن يذعن أحدهما إلى الآخر، وأن تخضع السلطة الزمنيّة لنظيرتها الروحيّة. فمن منظور بونيفاس الثامن، تستدعي الكنيسة الموحّدة أن يكون لها جسد جامع ورأس أوحّد، لا رأسين كالوحش الغريب. وهكذا أزمع على تحدّي ملك فرنسا فيليب الرابع (١٢٦٨-١٣١٤ م) الملقّب بالوسيم أو الملك الحديدي؛ لكنّ هذا الأخير لم يمهل طويلاً وهاجم قصره في روما ومقرّ إقامته في بلدة أناني الواقعة في أحواز روما أيضاً، وبذلك وضع حدّاً لما عرف بحقبة السلطة الثيوقراطيّة^[3].

إنّ وجود بابا قويّ على رأس السلطة الروحيّة، وعلى رأس كيان قويّ في أوروبا، كان يمنع من الحديث عن تجزئة مطلقة، كما أنّ استمرار وجود حاكم يحمل اسم الإمبراطور، كان يمنع ذلك أيضاً؛ لأنّ الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة استمرت في الوجود خلال مرحلة استفحلت فيها التجزئة السياسيّة في أوروبا فيما بعد. والحقيقة أنّ سلطة أباطرة ما بعد القرن الثاني عشر أضحت ضعيفة مقارنة بما كان عليه الأمر زمن حكم الأتونيين الأوائل. ورغم ذلك، ظلّ بعض ملوك الممالك الفيوداليّة الناشئة les monarchies féodales يدينون بالولاء، ولو نظريّاً، لشخص الإمبراطور، بينما لم يتردّد آخرون في اعتبار أنفسهم أباطرة في

١- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص ١٤٠.

٢- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ج ٣، ط ٢، نقله إلى العربيّة: يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٦ م، ص ٤٥٧.

٣- عز الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى، م. س، ص ٤١.

الممالك التي كانوا يحكمونها دون أن يتجرؤوا على حمل لقب إمبراطور^[1].

انهيار نظرية الدولة الدينية المقدسة

لقد كان للسلطة الروحية دور مهم في توحيد القارة الأوروبية، ولا سيما إبان الحروب الصليبية. لكن منذ القرن الرابع عشر، قرن الانشقاقات، الذي نقل مضاداته وتناقضاته إلى صعيد الفكر نفسه، فقد أهملت مؤلفات القرون السابقة الجزئية بسبب سخافتها، وفتحت آفاقاً بلغ من بعدها أن الناس توغلوا آنذاك في مسالكها المتباعدة، فسلكوا طريق الفلسفة التي كانت تهدف إلى الاستقلال عن اللاهوت، وتستطيع أن تذهب بسالكها بعيداً في مجاهل الارتياحية والشك، أو روحاً علمية تخطو بسلطة المنطق خطواتها الأولى نحو التدقيق والوضوح، أو إيماناً يتعثر أحياناً أمام الظلم الاجتماعي والكوارث المتعددة، ويختلط غالباً بالمحبة الإلهية والخوف الكبير من الموت، ويفضي إلى تفتح شتى أنواع الصوفية وتحريك العواطف. وهكذا، فإننا نلاحظ في كل مكان، وحتى في قصر الحياة الذي يقرب بين الفضيلة والرذيلة ولا يميز بينهما، تلك التناقضات والاختلاف عينه في السلوك والتصرف. ولم يكن من العسير فضح التباسات القرن وغباواته وإفراطه وانحرافاته، ولم يتأخر مهذبو الأخلاق عن ذلك في حينه^[2].

لقد ساهم حدث آخر، لا يقل أهمية عن الطاعون وعن الانتفاضات، في خلق البلبلة والاضطراب في أوروبا المسيحية، تمثل هذا الحدث في التطورات التي شهدتها البابوية^[3]؛ إذ أمسى البابا في وقتها حاكماً دنيوياً، فبالإضافة إلى صفته الدينية كرأس للكنيسة المسيحية الكاثوليكية الغربية، كان لا يختلف عن الملوك والأمراء وغيرهم من الحكام الدنيويين المعاصرين؛ إذ كان له أقاليم يحكمها بوساطة أجهزة حكومية دب فيها الفساد، وله بلاط يعج بالأتباع والموظفين الذين تفوح منهم رائحة المجون والفسق، ولم يخلُ بلاطه من المفاسد والمخازي التي ليس لها نظير في بلاط بقية الملوك والأمراء العلمانيين في أوروبا في حينها، في الوقت الذي أخذ المسيحيون في شمال القارة يستقبحون هذا الوضع الذي أمست فيه البابوية

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٧٩.

٢- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٥٦.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٨٥.

وبلاطها، ويستنكرون القبائح التي تتردّى فيها البابويّة^[1]، حدّاً وصلت إلى انتقاد شخص البابا بالذات، والذي غالباً ما صار ينعت بـ«المسيح الدجال»، وإنّ هذا النقد وصلت حدّته لدرجة أنّها لن تختلف في المستقبل أيّاً كانت سيّئات البابوات أو حسناتهم. وما إنّ حظيت الخطوة الأولى بالنجاح، حتّى تناول القوم انتقاد حاشية البابا وشخصه وسلطته، ولم يحظ باحترام العام بين بابوات القرن الرابع عشر جميعهم سوى أوربانوس الخامس وحده، ذلك الرجل القدّيس الذي انحنى أمام بترارك. أمّا الآخرون، فإنّ الأحكام التي أصدرها معاصروهم عليهم كثيراً ما تحوّلت إلى الثرثرة، كروايات فيلاني الخبيثة أو أحقاد بترارك الجائرة، وكان هذا الأخير أو مَنْ يستفيد من النعامات البابويّة أوّل مَنْ ينتقدها إذا منحت سواه^[2].

لقد تجسّدت مقدّمات تلك التطوّرات الخطيرة في اضطرابات هزّت سكّان مدينة روما بعد الحفل الديني الذي نظّمته البابويّة سنة ١٣٠٠م، إذ كانت الشعرة التي قسمت ظهر البعير^[3]. أقيمت الدعوى على البابا بونيفاسيوس الثامن عشية يوبيل تلك السنة (١٣٠٠م)، الذي بدا وكأنّه أرغم جمهور المؤمنين المسيحيين على أن يخروا سجّداً على أقدام الشوقراطية الظافرة، وقد تبعها مستشارو الملك (فيليب له بيل) بكلّ عناد طيلة عشر سنوات تقريباً، فكانت الظاهرة الأولى من ظواهر مأساة الضمائر المسيحيّة أمام زوال نفوذ أعلى سلطة مسؤولة عن مصائرهم^[4]. وتفادياً لاندلاع موجة جديدة من هذه الاضطرابات، تقرّر إجراء عمليّة انتخاب البابا سنة ١٣٠٥م بمدينة ليون. كما وضع التاج البابوي على رأس البابا المنتخب الفرنسي كليمون الخامس Clément V في المدينة نفسها، ومكث بها حتّى سنة ١٣٠٩م، ثمّ انتقل إلى مدينة أفنيون Avignon. وظلّ البابوات، الذين تعاقبوا على كرسي البابويّة بعد كليمون الخامس، مستقرّين بالمدينة ذاتها التي شيّد بها قصر فخّم، ومرافق دينيّة وإداريّة أنفقت فيها أموال طائلة من حصيلة الضرائب المستخلصة^[5]. لقد فقدت البابويّة رمزيّتها منذ أن وضعت نفسها تحت سلطة التاج الفرنسي، ما دفع الملك الورع شارل الخامس (١٣٣٨-١٣٨٠م)

١- سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج٢، م.س، ص ٢٩١.

٢- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج٣، م.س، ص ٤٥٦، ٤٥٧.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٨٥.

٤- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج٣، م.س، ص ٤٥٦، ٤٥٧.

٥- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٨٥-١٨٦.

بالشعور بالحاجة إلى استشهاد الله على حسن نيّته في مناصرة البابا الأفينيوني، في منتصف الطريق التي سلكها منذ الهبوط السريع^[1].

لقد تكاثرت النداءات لعودة المقرّ البابوي إلى روما، وقد استجاب أوربان الخامس Urbain V لهذه النداءات، فغادر أفينيون إلى روما في سنة ١٣٦٧م، ولكنّه سرعان ما عاد إلى أفينيون، بعد أقلّ من ثلاث سنوات؛ نظراً لعدم استتباب الوضع في روما. وفي سنة ١٣٧٨م، قرّر البابا غريغوري الحادي عشر العودة نهائياً إلى روما. ومن المفيد التذكير بأنّ الصراع كان على أشده بين الأسر الأرستقراطية في روما خلال فترة وجود مقرّ البابوية بمدينة أفينيون، وكان سكّان المدينة منقسمين بدورهم بين فريق مؤيّد لهذه الأسرة وفريق مؤيّد لتلك الأسرة؛ ممّا خلق المناخ الملائم لظهور بعض الزعامات، فحالف الحظ المدعو كولا دي رينزو Colla di Rienzo، الذي استطاع بفضل حنكته وفصاحته وكراهيته للأسر الأرستقراطية وللبابوية، استقطاب جمهور غفير من سكّان المدينة، فقادهم سنة ١٣٤٧م للسيطرة على مقرّ البلدية، وإعلان نفسه حاكماً للمدينة. وردّ عليه البابا إينوسنت السابع بأنّ أرسل إليه فيلقاً من المحاربين تحت إمرة الكاردينال ألبرنوز Albornoze، فاضطرّ كولا إلى اختيار المنفى. ثم سرعان ما عاد إلى المدينة التي ثار فيها ضده بعض أنصار الأمس، فانقضّوا عليه وأردوه قتيلاً. لقد هزّ هذا الحدث مشاعر كثير من مسيحيي روما ومسيحيي أوروبا، وخاصّة منهم أولئك الذين ظلّوا يحنّون لأيّام مجد روما زمن الأباطرة الرومان. ولم تُفصّل عودة البابا غريغوري الحادي عشر إلى روما إلى تهدئة الخواطر، بل زادت من تفاقم الوضع. وحدث أنّ توفيّ هذا البابا فجأة، فعقد كبار الكرادلة مجعماً تحوّل إلى فوضى عارمة^[2].

لقد كان الانشقاق العظيم (١٣٧٨-١٤١٧م) مستهلاً منعطف فاصل في تاريخ الكنيسة، ستعمّق ضراوته مع حركة المحتجّين البروتستانت التي ستفرز ما سيعرف في التاريخ الديني الغربي بـ(حركة الإصلاح) و(الإصلاح المضاد)، وهو ما سيدشّن طوراً جديداً سيعيد تشكيل دور الكنيسة وحجمها في المجتمع. فمع اختيار البابا أوربان السادس Urbain VI المدعوم من قبل فرنسا سنة ١٣٧٨م، اعترض مجمع الكرادلة، الذي يتشكّل معظم أعضائه من

١ - إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج٣، م.س، ص٤٥٦-٤٥٧.

٢ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص١٨٥.

رجال دين فرنسيين، واعتبر عملية الانتخاب زائفة جرّاء وقوعها في أجواء من التهديد، بعد إصرار حشود واسعة أن يكون البابا من روما أو على الأقل من إيطاليا. وهو ما دفع بالكرادلة المعارضين لاختيار البابا كليمان السابع Clément VII المدعوم من قبل إنكلترا ومجمل أمراء ألمانيا وإيطاليا وممالك أوروبا الشرقية والشمالية^[1]. لكنّ أوربان ظلّ متمسكاً بأحقّيته في تولّي المنصب، مدعوماً من مسيحيي فرنسا، وقشتالة، وأرغونة، وإيكوسيا. وهكذا انقسمت الكاثوليكية إلى معسكرين؛ إذ أضحى على رأس البابوية رجلاّن: الإيطالي أوربان في روما، والسويسري كليمون في أفنيون. كانت هذه الحادثة انطلاقة الأزمة التي عرفت بالانشقاق العظيم. والجدير بالملاحظة، أنّ أمراً حدث خلال هذه الفترة وسيتأكد خلال القرن السادس عشر في سياق الإصلاح الديني، وهو أنّ الكنائس الوطنية أصبحت تأتمر بأمر الملوك والساسة المحليين (الوطنيين)، وقد أثارت هذه المسألة حفيظة كثير من المسيحيين المنتمين لتلك الكنائس والمسيحيين من عامة المجتمع^[2].

وفي مسعى لتطويق تلك الأوضاع، اتفق جمع من الكرادلة من كلا الجانبين في مجمع بيزا سنة ١٤٠٩م على عزل البابوين واختيار ثالث، اتخذ من مدينة بولونيا الإيطالية مقراً له، وهو البابا إسكندر الخامس. لكنّ البابوين الآخرين رفضا الاعتراف بشرعية المجمع، الذي يُفترض أن يدعو له حبر الكنيسة الأعظم تبعاً للقوانين المعمول بها ويتولّى رئاسته. لم يتيسّر إخماد الفتنة سوى بانعقاد مجمع كونستانس (١٤١٤-١٤١٨م)، الذي دعا إليه الإمبراطور سيغمونود وبموافقة البابوات الثلاثة، حينها تقرر عزل الجميع وانتخاب مارتن الخامس على رأس الكنيسة^[3].

سابعاً: التحوّل نحو نظرية الدولة القومية في أوروبا العصور الوسطى

لقد كان القرن الحادي عشر بالنسبة للغرب الأوروبي قرن تحول مهمّ، فالمؤسّسات التي أخذت تتشكّل منذ القرن السادس الميلادي، قد ترسّخت في القرن الحادي عشر، وهذا ما جعل بعض المؤرّخين المختصّين في تاريخ العصور الوسطى، أن يطلقوا على تلك الفترة اسم العصور الوسطى الناضجة. لقد شهد القرن الحادي عشر جملة من القادة

١- عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٢.

٢- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٨٦.

٣- عز الدين عناية، الدولة الدينية المسيحية في العصور الوسطى، م.س، ص ٤٢-٤٣.

الطموحين، من أمثال وليم الفاتح ملك إنكلترا، والإمبراطور هنري الثالث وابنه هنري الرابع، وروجر الأول النورماني حاكم صقلية، وروبرت جويسكارد الذي كان ابنه بوهيموند من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى، وألفونسو السادس ملك قشتالة. وكان أولئك جميعاً من الحكّام الجنود الذين كانوا يبحثون عن السلطة والملك والكفاءة، ويمثّلون الغدر والطموح والتعصّب. وبينما كان الغرب الأوروبي يميل إلى مبدأ الدول القومية، كان نموذج الإمبراطورية المسيحية الأوحده ممثلاً ببيزنطة في تراجع، فمنذ هذا القرن أخذت بيزنطة تعاني مظاهر التآكل البطيء والضعف الناجم عن الصراع الداخلي، والهزيمة الخارجية الفادحة على يد جيوش المسلمين في معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م، وهكذا بدأ ينهار مفهوم الدولة الإمبراطورية لصالح الدولة القومية^[1].

لكنّ هذه الدولة القومية كانت تحتاج إلى الكثير حتّى تتبلور مفاهيمها، فالشعوب الأوروبية كانت لتوها قد خرجت من مرحلة الحضارة البدائية، ولم تكن بعد قد انقسمت إلى معسكرات عديدة مسلّحة (على اعتبار أنّ الجيش الوطني من أهمّ دعائم الدولة)، فالجموع الإقطاعية كان من العسير تعبئتها في جيش وطني، بل كان أشدّ عُسرًا إبقاؤها في الميدان، وإذا ما نظرنا إليها في أفضل صورها وجدناها سلاحاً صعب المراس. كما استمرّ المفهوم السائد في أوروبا العصور الوسطى أنّ جيشاً عاملاً من الجنود المأجورين، كان يتطلّب عبئاً من الضرائب أثقل وأكثر انتظاماً من أن يجرؤ على فرضه أيّ حاكم أو أن يستطيع تلبّيته أيّ شعب. ومن أجل ذلك، كان لحروب العصور الوسطى - باستثناء بعضها - طابع العقم والتفاهة. وأمّا المشرّعات التي كان مبعثها الطموح إلى السلطة، فقد كان مقدراً لها الفشل، والقوى التي قضى عليها في الظاهر جيش غاز، قد استجمعت قواها بمجرد ابتعاد ذلك الجيش. وموجز القول: إنّ السياسة في العصور الوسطى كانت على كلا المسرحين الأوروبي والمحليّ، تعني تكرار حدوث المشكلات والخلافات نفسها، وتعني تكرار وسائل التهذئة والحلّ نفسها^[2].

لا ريب في أنّ فاعلية النزعات التي أدّت إلى تجزئة العالم المسيحي إلى وحدات ملكية قومية، قد اختلفت باختلاف درجة تطوّر تلك الدول والشعوب على الصعيد السياسي

١ - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، م.س، ص ٤٩.

٢ - هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥٤-١٥٥.

أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الفكري. ولكنّها قد صادفت في كلّ مكان حقلاً خصباً بفضل فقدان السلطة المنظّمة. ومنذ أن تزعزعت القوى الثلاث التي كان الأمل معقوداً عليها بتهدئة العالم الغربي وتنظيمه وإدارته، بات الانقسام أمراً لا مفرّ منه^[1]؛ فالإمبراطوريّة قد تحطّمت منذ وفاة فريدريك الثاني ولم تستعد قطّ، لا بل تنازل الإمبراطور رودولف هابسبورغ (١٢٧٣-١٢٩١م) للبابويّة عن كلّ حقوق الإمبراطوريّة في إيطاليا، بينما ورّط أودولف هابسبورغ (١٢٩١-١٢٩٨م) الإمبراطوريّة في حرب خاسرة مع فرنسا، كانت نتيجتها تفكّك الإمبراطوريّة وضعفها^[2]. ولم تفلح محاولات هنري الرابع ولويس دي بافير في استعادة مجد الإمبراطوريّة الذي أمسى سراباً؛ فالنفوذ والقوّة اللذان كان من شأنهما دعم مطالبتها بإدارة الأمراء الألمان، لم يُجدّيا بعد أن بات التاج يباع بالمزاد العلني. كما أنّ مفهوم الإمبراطوريّة بروحه الجغرافيّة، منذ أن سلّخت عنها الأقاليم الفرنسيّة والإيطاليّة، وجاورتها الممالك السلافيّة وعمّتها الفوضى الداخليّة، وبالتالي لم تعد الإمبراطوريّة سوى حلم لا طائل فيه^[3].

أمّا البابويّة التي غدت على الصعيد الزمني أقوى ملكيّة مركزيّة منظّمة، ولم ينازعها أحد قط في رسالتها الدينيّة ودورها العقائدي، لكنّ كان لها مزاعمها الشيوقراطيّة البالية حين تبدو في ملجئها الأفينيوني وكأنّها خاضعة لرغبات ملك فرنسا، في حين كانت تتنازعها الانشقاقات وتمزّقها المصالح القوميّة المتباينة؛ لم تفقد دورها في إدارة السياسة فحسب، بل أخذت تفقد دورها التحكّمي أيضاً؛ إذ إنّ محاولاتها الكثيرة في سبيل التوفيق بين فرنسا وإنكلترا قد ذهبت أدراج الرياح. بينما كانت مملكة فرنسا، وهي الحاضرة بنفوذها التاريخي، المؤهّلة الوحيدة في نظر رجال القانون المحيطين بالملك فيليب له بيل لإدارة سياسة العالم المسيحي والحلول محلّ الإمبراطوريّة والبابويّة اللتين برهنتا عن عجزهما. لكنّ مملكة فرنسا كانت تستند في أحلامها إلى الذكرى فقط؛ ففي الوقت الذي شغرت فيه الساحة الغربيّة من أوروبا، كان نفوذ فرنسا مادياً وروحياً قد مال إلى الهبوط، ثمّ جاءت الحرب واستعجلت هذا الهبوط، فكذّبت الوقائع أقوال المنظرين. لذلك فإنّ كثيراً من المفكرين اعتصموا بالصمت والانتظار بعد أن أعياهم إدراك مصير تجزئة العالم المسيحي وخلافاته.

١- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٥٥.

٢- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ص ١٤٠-١٤١.

٣- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٥٥.

وقد اتخذ موقف الانتظار هذا في النقاط الحساسة من النزاع الفرنسي الإنكليزي؛ أي في بريطانيا ومنطقة الباسك ولا سيما في هولندا؛ شكل الحياد. ولما عجزت الممالك الإسبانية عن تحديد نفسها وموقفها على الصعيد الديني، فإنها اعتصمت طيلة السنوات التي أعقبت قيام الانشقاق الديني، باللامبالاة بالوضع السياسي الذي تبلور في أوروبا الغربية. وهكذا، لم يكن هناك بصيص أمل في وحدة الغرب الأوروبي مرة ثانية في دول إمبراطورية واحدة، سواء زمنية أم ثيوقراطية^[1].

لذلك بدأ نزوع بعض بلدان أوروبا نحو القومية ينمو تدريجياً وبسرعة متزايدة، لقد بدأ ذلك النزوع منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر كما أسلفنا، وقد اعتمدت تلك النزعة على الطبقة الوسطى التي اقتحمت مجال التجارة والصناعة على حد سواء، ولم تعد الأرض وملكيّتها مصدر الاقتصاد الوحيد؛ ممّا أدّى إلى زوال النظام الإقطاعي وبداية تبلور الدولة الوطنية الحديثة Nation State. وهكذا كان لهذه الطبقة دور مهم في ميلاد الدولة الحديثة الوطنية، وقد تعزّز الشعور القومي مع تحوّل اللهجات الأوروبية المحلية إلى لغات قومية، واتّفاقها إلى حدّ ما في الجنس وفي الدين. فنشأ الشعور القومي Nationalism، ومن ثمّ انقسمت دول أوروبا إلى مجموعة من الأمم Nations^[2]. وكانت فرنسا سباقة في هذا التوجّه، حتّى إنّها أتت على رأس هذه البلدان؛ فنحو نهاية القرن الثاني عشر كان يتمّ التحدّث باللغة الفرنسية في كلّ بلاطات أمرائها، كما كانت اللغة الرسمية في الإمارات التي أسّسها الصليبيّون شرقي البحر المتوسط. وكانت حياة النبلاء الفرنسيين الرسمية نموذجاً يحتذى، ويتمّ تقليدها في كلّ مكان في الغرب الأوروبي^[3].

كما أنّ التحوّل الأهمّ كان في انتقال زمام المبادرة في المجال السياسي مع نهاية العصور الوسطى من أرسقراطية النبلاء إلى فئة من الأفراد، على اعتبار أنّ الفردية كانت من أهمّ ركائز النهضة الأوروبية؛ فقادة المرتزقة والأمراء والملوك هم من قاد أوروبا خلال هذه الحقبة، وهم من تصرفوا في شؤون الرعية والعدالة والحروب المأجورة، فكانوا يعقدون الأحلاف والمعاهدات، وينظّمون أمور التجارة والانتاج؛ أي قاموا بتصريف كلّ المهام التي كانت

١ - إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٥٥-٤٥٦.

٢ - محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٣٦.

٣ - موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٥١.

تعهد فيما مضى للروابط والنقابات واتحادات الحرفيين أو مجالس المدن التي كان يسيطر عليها الأرستقراطيون فيما مضى^[١]. وهكذا نجد أنَّ النهضة الأوروبية قد أسهمت في الجانب الأول من الناحية السياسية في ميلاد الدولة الحديثة؛ ومنها إنكلترا وفرنسا وإسبانيا، وقد استغلَّت هذه الدولة القومية الحديثة الطبقة الوسطى (البرجوازية) التي نشأت معها، وهي تلك الطبقة التي نمت مع التجارة في تدعيم حكومات هذه الأمم^[٢].

لقد كان للطبقة الوسطى دور كبير في نشوء الدول القومية في أوروبا، ودور فعال في إخراج هذه الدول الحديثة إلى الوجود، فهي أمدَّتْها بالأموال لدعم حكوماتها والقيام بمشروعاتها، وتشكيل أجهزتها التنفيذية والتشريعية والقضائية، وتمويل وتسليح جيوشها وأجهزة الشرطة فيها، بالإضافة إلى أجهزتها الأخرى كافة. وفي المقابل، كانت حكومات تلك الدول الحديثة، وخاصة المركزية منها، تسعى إلى إيجاد الموارد الكافية للإنفاق على متطلباتها المتزايدة^[٣]. فبطبيعة الحال كانت الطبقة الوسطى هي الطبقة صاحبة المال في المجتمع نتيجة عملها بالتجارة التي درَّتْ عليها أرباحًا طائلة، فكان من الطبيعي أن تموِّل تلك الحكومات. وكذلك فقد نشأت منافسة بين أبناء هذه الطبقة في كلِّ أمة أو في كلِّ دولة أوروبية؛ لتحصل على أكبر قدر من المال عن طريق الاستحواذ على التجارة، وللحفاظ على هذا الهدف الذي تسعى إليه الطبقة الصاعدة؛ فكَّرت في المحافظة على مصالحها بطريقة شرعية بين الطبقات المماثلة لها في الأمم الأخرى، وذلك عن طريق إقامة حكومة قوية تعتمد في مواردها المالية على هذه الطبقة، وتعمل على الحفاظ على مصالح هذه الطبقة. لقد كانت هذه الطبقة ترغب في إقامة نظام حكومي جمهوري، إلَّا أنَّها لم تنجح في تحقيق هدفها السامي لنظام الحكم؛ وذلك لأنَّ أبناء هذه الطبقة كانوا يرون أنَّهم سلبوا النبلاء حقوقًا، وهم ما يزالون في موضع قوَّة يريدون بها التأثير على أبناء الطبقة المتوسطة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان أبناء هذه الطبقة الوسطى يرون أنَّهم لم يصلوا إلى المرتبة العليا التي تمكَّنهم من فرض نظام حكومي معين، فلمَّا نشأت الدولة التي تعتمد على النظام الملكي المطلق، فإنَّهم لم يروا حرجًا من أن يخضع الجميع لها، ما دام الملك يرضى

١ - ماريا لويز برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، مراجعة عبد الغفار مكاي، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد ٢٢٥، سبتمبر ١٩٩٧م، ص ٨٢.

٢ - محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٠.

٣ - محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٥٣.

مصالحهم التجارية ويحافظ عليها، وقد نشأ هذا النظام في البداية معتمداً على دعم من هذه الطبقة الوسطى، إلا أن الملوك بعد ذلك تنكروا لهذه الطبقة ولم يعملوا في سبيل الحفاظ على مصالحها التجارية، حتى إنهم كانوا يرون أنهم ظلّ الله في الأرض؛ فيما يعرف في ذلك الوقت باسم «حقّ الملك المقدّس» The Divine Right of Kings؛ لهذا فإنّ «النظام الملكي المطلق» هو الذي ساد في أوروبا عند بداية عصر النهضة^[1].

كما أننا نجد أن النهضة الأوروبية قد أسهمت في الجانب الثاني من الناحية السياسيّة في ظهور النزعة الفرديّة والتعصّب القومي بين أبناء القارة الأوروبيّة الواحدة على أساس الشعور القومي الذي يربط بين أبناء الأمة الواحدة، فالأُمم الحديثة كالأمة الإسبانيّة أو الإنكليزيّة أو الإيطاليّة، لم يتمّ تكوينها على أساس التماسك بين أبنائها والشعور بالفارق بينهم وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى، إلا في عصر النهضة. بينما ظلّ المفكّرون السياسيّون في العصور الوسطى متأثرين بتقاليد الإمبراطوريّة الرومانيّة العالميّة، وفكرة الكنيسة العالميّة أيضاً، ومن ثمّ اعتبروا العالم المسيحي بأكمله يمثل دولة واحدة على رأسها زعيما هما البابا والإمبراطور، ليعبر الأول عن السلطة الدينيّة، ويعبر الثاني عن السلطة الدينيّة. وهكذا أسهمت النهضة في إنكار وهدم كلّ هذه المبادئ، فأولاً نادى بالفرديّة، وثانياً نادى بأنّ لكلّ دولة كيان سياسي مستقلّ يعتمد على الشعور القومي الذي يربط بين أبنائها الذين ينعمون بالفرديّة والحرية والاستقلال، ما جعلهم يتعصّبون لبعضهم بعضاً، فضلاً عن تعصّبهم لأوطانهم الجديدة^[2]. وهكذا أمست أوروبا في نهاية المطاف منقسمة إلى عدد من الدول، لكلّ منها مصالحها المختلفة عن الأخرى، ونظامها السياسي الحاكم فيها، وغالباً ما يفصل الدول عن الأخرى منطقة عريضة من الأرض المتنازع عليها^[3]، فكانت سبباً في إشعال حروب دمويّة وعنيفة بين هذه الدول الأوروبيّة القوميّة الحديثة على قضيّة ترسيم الحدود، في إثر طمع كلّ دولة بمقدّرات الدول الأخرى^[4].

لقد جاء مفهوم الأمة في الوقت المعين ليساند مبدأ السلطة المركزيّة أو السيادة الرومانيّة التي حاول الملوك والأمراء الغربيّون إرساء سلطتهم عليها، وقد أرسى أركانها تقليد قبول

١ - محمود جمال الدين وعبد العزيز نوّار، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ٣٦.

٢ - سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٢٨٦.

٣ - هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥٧.

٤ - سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٢٨٦.

أعضاء المجلس الأعلى في فرنسا، و«وحدة المملكة» في إنكلترا، فغدا هنا «السيادة والقوة»، وهناك «السلطة المطلقة» التي تحدّد كلّها السلطة الملكية. واعترف الملك في إقسامه اليمين للرب، وللرعية أمام الرب، بأنّه لن يكون سوى حارس شعبه. وفي فرنسا نفسها كتب مؤلّف «حلم الروضة» بإيعاز من الملك شارل الخامس: «إنّ الملك يُقام .. بإرادة الشعب وحكمه». وبحث الملوك في كلّ مكان عن نقطة يركزون إليها في الاستشارات القومية: جمعيات مجالس الطبقات، البرلمانات، المجامع، ومجلس المندوبين، التي كانوا يطلبون إليها إبرام أو رفض المعاهدات ويعتصمون بآرائها، وكأنّها آراء رجال قانون؛ لتبرير أخطر القرارات التي يتخذونها في حقل السياسة الداخلية أو الدولية. وباستطاعتنا القول في هذا الصدد إنّ الأمة التي يرمز إليها اتفاق الأمير وممثلي الجماعات، كانت مدعوة طبعاً لأن تصبح مرتكزة السيادة بالذات. وإذا ما نظرنا من هذه الزاوية إلى الصراع الفرنسي الإنكليزي الطويل، الإقطاعي في ظواهره، والسلالي في أسبابه المعلنة، لرأينا أنّه ملكي قومي في جوهره في آن؛ لأنّه استعجل انهيار الأنظمة الإقطاعية، وبرهن في الوقت نفسه على أنّه محاولة لتحديد النطاق الإقليمي والبشري، إذ يستطيع كلّ أمير بل يتوجّب عليه ممارسة سيادته كاملة^[1].

لقد أنهى نشوء الدول الأوروبية القومية الحديثة الأنظمة الإمبراطورية والثيوقراطية، تلك الأنظمة التي استمرت طيلة العصور الوسطى وكانت سمة بارزة لها. فالدولة الإمبراطورية والكنيسة ظلّتا تتلاعبان بخيوط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أوروبا العصور الوسطى إلى أن ضعفتا فأفسحتا المجال لظهور نظام سياسي جديد. وهكذا اندثرت بعض النظريات السياسية التي كانت سائدة في العصور الوسطى، ومنها النظرية القائلة بأنّ الكنيسة لها الهيمنة على الحياة الروحية، في حين يحكم الإمبراطور في الأرض بتفويض من الله عز وجل، وليس لأيّ شخص أن يحاسب الإمبراطور؛ إذ إنّهُ يستمدّ سلطات من الله تعالى. لقد بدأت تظهر نظريات سياسية جديدة تتناغم أكثر مع مصالح الطبقة الوسطى والنظام السياسي الذي ارتضت أن تحالف معه (النظام الملكي المطلق)، ومنها النظرية التي تؤمن بأنّ للملك الحقّ في استخدام الوسائل كافّة التي يراها مناسبة لنموّ ورقيّ الأمة، وكذلك

النظرية الأخرى القائلة بأنَّ الحكومة إنَّما أنشئت لأهداف واضحة، وهي تحقيق مصلحة المواطنين أو المحكومين^[١].

وفي الوقت الذي كانت فيه الطبقة الوسطى تزداد قوَّة، كانت طبقة الأرستقراطيين في انهيار متَّصل، إذ أضعف انهيار النظام الإقطاعي في القرن الرابع عشر النبلاء الإقطاعيين إلى حدٍّ بعيد، وتسبَّب في ثراء الملوك المتحالفين مع أفراد الطبقة الوسطى من التجار، وبأموال التجار تمكَّن الملوك من استئجار جيوش، ولاؤها للملك الذي يصدق عليها، وبمساعدة هذه الجيوش المستأجرة (المرتزقة) فرض الملوك سلطانهم على النبلاء. وقد أسهم تسليح المشاة في جيوش الملوك بأقواس طويلة وبرماح جديدة (بايكس) وبالمدافع، في هزيمة جيوش الأمراء الإقطاعيين. وقد زاد الملوك من قوتهم بتحالفهم مع أفراد الطبقة الوسطى من سكَّان المدن، الذين ارتضوا دفع الضرائب للملك مقابل الحصول على حكومة جيِّدة توفِّر لهم الأمن والأمان^[٢].

وسرعان ما بدأ يظهر لهذه الدول القوميَّة الأوروبيَّة الحديثة نوع من السياسة الخارجيّة، وإنَّ كانت في إطارها العام تافهة أو قاصرة عن المفهوم العلمي للكلمة، إلَّا أنَّها تعبر عن واقع الحال؛ فالأحلاف السياسيَّة الواسعة - وإنَّ كانت تنسَّق باستمرار - فإنَّها نادرًا ما وجدت وفي الأحوال النادرة التي وجدت فيها، لم تؤدِّ إلى أيِّ نتيجة ملحوظة. على أنَّ بعض المصالح المشتركة كان مسلَّمًا به، فلم تنظر أيُّ قوَّة نظرة عدم الاكتراث إلى أيِّ حركة تهدد وجود البابويَّة التي كانت تمثِّل الوحدة الدينيَّة. ومع أنَّ مبدأ توازن القوى لم يكن قد تبلور بعد، فقد كان مفهومًا حتَّى ذلك الوقت أنَّ نموَّ أيِّ قوَّة نموًّا متطرِّفًا يزعج القوى الأخرى حتَّى ولو لم تكن في خطر من الغزو الوشيك. ولذلك فكلَّما اكتسبت الإمبراطوريَّة اليد العليا على الكنيسة أو كلَّما ظهر حشد من الآسيويين في الأفق يهدد أوروبا بالغزو، أو كلَّما بدت فرنسا على وشك أن تصبح ولاية لإنكلترا، أو إيطاليا ولاية لفرنسا، دقَّ ناقوس المنذرين أجراس الخطر، وتبع ذلك تبادل الآراء بين الحكَّام، فتعقد المعاهدة تلو الأخرى، ويكون التحالف في مقابل الآخر. غير أنَّ الشعوب نادرًا ما كانت تتحرَّك، وينتهي اضطراب الطبقات الحاكمة في فورة الكلام^[٣].

١ - محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث، م.س، ص ١٠.

٢ - أشرف صالح سيد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، لبنان ٢٠٠٨م، ص ٢١.

٣ - هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥٦.

الخاتمة

إنَّ البحث في تاريخ تكوّن نظرية الدولة في أوروبا، يشير إلى أنَّها لم تعرف خطأً تطوريّاً تصاعديّاً واحداً، وإنّما تمحورت هذه النظرية في مطلع العصور الوسطى نحو مركزية شديدة، في محاولة لتقليد الإمبراطورية الرومانية القديمة، مع تطعيم نظام الحكم في روما العصور الوسطى بنكهة من أنظمة القوط، إلّا أنَّ هذا النظام المركزي في الحكم سرعان ما زال وتلاشى. ورغم أنَّ القبائل الجرمانية، التي استوطنت الغرب الأوروبي في مطلع العصور الوسطى، اعتمدت لنفسها أنظمة ملكية استبدادية مستلهمة إياها من إرثها القبلي، يكون الملك وفقاً لها صاحب صلاحيات مطلقة، فله حقّ التصرف في أرضها و ثروتها وعناصرها وفق ما يريته مصلحة لها، إلّا أنَّ هذا النظام المركزي في الحكم سرعان ما زال وتلاشى أيضاً. وأخذت أوروبا تتجه نحو التفرقة والتجزئة في ظلّ نظام إقطاعي فرض نفسه على الحالة الاقتصادية والسياسية العامة في أوروبا. فأمام عجز الأنظمة المركزية عن الاستمرار في سياستها الإدارية نتيجة الأخطار التي كانت تهدّد أوروبا، لجأ الملوك إلى توزيع أراضي مملكتهم على شكل مقاطعات لشخصيات متنفّذة لقّبت بالكونت، وسرعان ما أصبح هذا الكونت هو صاحب السلطة السياسية والإقطاعية في مملكته، وهكذا استمرّت أوروبا حتّى القرن الحادي عشر الميلادي منطقة ريفية متوقّعة على ذاتها، لم تتشكّل على المستوى السياسي، كما أنَّها كانت مجرد منطقة مُتخلّفة بالقياس إلى كلّ من العلمين البيزنطي والحضارة العربية - الإسلامية. وبعد التلاقح مع الحضارة العربية عبر ثلاث جسور، هي الأندلس وصقلية وبلاد الشام في عصر الحروب الصليبية وبدايات عصر النهضة، بدأت أوروبا تميل نحو الدولة الوطنية، وبدأت تتشكّل ملامح نزعة قومية تعصبية بين سكّان أوروبا، قد اختلفت حدّة هذه النزعة باختلاف درجة تطوّر تلك البلدان والشعوب على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري. إلّا أنَّ فرنسا كانت سبّاقة في هذا التوجّه، حتّى إنّها تأتي على رأس هذه البلدان. وفي نهاية القرن الثاني عشر للميلاد تقريباً، كانت اللغة الفرنسية يتمّ التحدّث بها في كلّ بلاطات أمرائها، وإنّ مَنْ دعم هذه النزعة القومية وتبنّاها هم أفراد الطبقة الوسطى في جميع أرجاء أوروبا، والنظام السياسي الذي ارتضت أن تتحالف معه هو (النظام الملكي المطلق)، وأمّنت بالنظرية التي ترى أنَّ للملك الحقّ في استخدام الوسائل كافّة، التي يراها مناسبة لنموّ ورفيّي الأُمّة.

ذلك على صعيد نظرية الدولة السياسية البحتة، أمّا على صعد نظرية الدولة الشوقراطية، فالمتابع لتاريخ أوروبا في العصور الوسطى، سيجد أنّ تسميتها بعصور الإيمان، هو خير وصف لها، إلا أنّ الصراعات بين البابوية والملوك الذين استقلّوا بقراراتهم السياسية عنها، من ملوك القرن الحادي عشر، وكانوا جملة من القادة الطموحين من أمثال وليم الفاتح ملك إنكلترا، والإمبراطور هنري الثالث وابنه هنري الرابع، وروجر الأوّل النورماني حاكم صقلية، وروبرت جويسكارد الذي كان ابنه بوهيموند من أبرز زعماء الحملة الصليبية الأولى، وألفونسو السادس ملك قشتالة. سيجد سلطة البابا الروحية المطلقة على أوروبا، والزمنية خلال بعض الفترات بدأت تترنّح، لكنّ الضربة الموجهة لها كانت في الصراع الطويل مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذي احتدم بين الكنيسة والدولة حول مسألة التنصيب أو الترسيم، أو منح المراتب الكنسية، ما أسهم في تبدّل المشهد السياسي في أوروبا، وحوّل أوروبا إلى ساحة صراع بين البابا والإمبراطور خلال السنوات الممتدة بين عامي (١٠٥٠-١١٢٢م). ورغم حدة الصراع، فقد استمرّ مبدأ التوازن بين القوتين زمنًا، قبل أنْ تتمكن البابوية من أنْ تكسب لصالحها ذلك الصراع الطويل بين الكنيسة والدولة.

لائحة المصادر والمراجع

١. إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ج ٣، ط ٢، نقله إلى العربيّة: يوسف داغر و فريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٦ م.
٢. أشرف صالح سيّد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، لبنان ٢٠٠٨ م.
٣. إينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٩ م.
٤. توبي أ. هف، فجر العلم الحديث (الإسلام، الصين، الغرب)، ترجمة محمّد عصفور، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٦٠، أغسطس ٢٠٠٢ م.
٥. جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم محمّد حناوي، ويوسف نكادي، ط ١، مطبعة مفكر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥ م.
٦. سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، النظم والحضارة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٩ م.
٧. سمير صالح العمر، الحروب الصليبيّة تطوّر المصطلح والمفهوم، جامعة الكوفة، كليّة الآداب، د.ت.
٨. عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصاديّة، تحوّل أوروبا من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالي باستخدام نظريّة كوفاليف، جامعة الملك سعود، الرياض د.ت.
٩. عزّ الدين عناية، الدولة الدينيّة المسيحيّة في العصور الوسطى ومسألة فصل الدولة عن الكنيسة، مجلة التفاهم، د.ت.
١٠. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبيّة، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ١٤٩، مايو ١٩٩٠ م.

١١. كانتور، العصور الوسطى الباكرة، القرن الثالث - القرن التاسع الميلادي، ترجمة: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٣ م.
١٢. ماريا لويز برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، مراجعة عبد الغفار مكاوي، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٢٥، سبتمبر ١٩٩٧ م.
١٣. محمود عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٨ م.
١٤. محمود جمال الدين وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٩ م.
١٥. موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤ م.
١٦. نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط ٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥ م.
١٧. نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج ١، من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر، الموسوعة التاريخية الحديثة، دار الفكر، دمشق ١٩٨٢ م.
١٨. نيفين ظافر الكردي، الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلامية، غزة ٢٠١١ م.
١٩. هنري كارلس ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عبد المجيد محمود، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٥٨ م.
٢٠. هنري كارلس ديفز، شارلمان، ترجمة: السيد الباز العريني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩ م.
٢١. ول. ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، العصور المظلمة، ج ٣، مج ٤، ترجمة: محمد بدران، بيروت ١٩٨٨ م.

الحياة الاجتماعية في المجتمع الأوروبي خلال العصور الوسطى

رفاه البوشي الدباغ^[1]

مقدمة

الجمود هو العدو الأكبر للمجتمعات البشرية والآفة الخطيرة التي تمتصّ ماء حياتها وتذهب بنضارتها ونشاطها، وقد تفشّى هذا المرض الفتاك في المجتمع الأوروبي فترة العصور الوسطى، ويُعزى ذلك إلى فقدانه للمرونة والقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة.

وإذا كان هناك مَنْ يرى أنّ تاريخ أوروبا في تلك الفترة هو تاريخ العصور المظلمة إذا ما قورنت بالحضارة الإسلامية، فإنّ ذلك صواب؛ إذ وقع المجتمع الأوروبي بين صراع فكيّ الصراع الكنيسة والإمبراطور من جهة، ومن جهة أخرى كان المجتمع الأوروبي في العصر الوسيط هو مجتمع طبقات، فالمرء يحيا حياته فارسًا كان أو تاجرًا أو صانعًا أو فلاحًا بروح الولاء الطبقي والطاعة العمياء لما رسخ في مجتمعه من عادات وتوطّد من تقاليد.

أولاً: طبقات المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى

تبدّلت أحوال المجتمع الأوروبي بداية العصور الوسطى بسبب توقّف التوسّع الحربي، وبدأ الجمود يصيب سائر طبقات هذا المجتمع؛ إذ اعتقد هؤلاء أنّ الهناء وقّف على الانغماس في الملذّات، وركنوا إلى حياة الدعة والنعيم، وانصرفوا عن القيام بالواجبات التي تطلّبتها منهم مناصبهم الاجتماعية، وذلك اعتماداً على ما تجمع لديهم من مال. غير أنّ تلك المظاهر سلبت من المجتمع الأوروبي في تلك الفترة قدرته على التطوّر والتكيف مع الأوضاع الجديدة، وألقت به دون أن يدري في مهاوٍ خطيرة؛ إذ اختلّ التوازن بين الطبقات،

وصارت كلّ واحدة منها تعمل جهد طاقتها للاحتفاظ بالمستوى الذي وصلت إليه، ولا تسمح لغيرها بالانضمام إليها حتّى لا تفقد امتيازاتها وما تبقى لها من مجد وسلطان.

فالمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى مقسّم إلى ثلاث طبقات اجتماعيّة على شكل هرم، وكانت الحقوق والواجبات مختلفة بين أفراد الطبقات، وهذه الطبقات هي: طبقة رجال الدين، طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، طبقة الفلاحين.

الطبقة الأولى والثانية تمثّلان الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسيّة، والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعيّة، والفئة الثريّة من وجهة النظر الاقتصاديّة، فرجال الدين كان عليهم أن يتعبّدوا الله ويشبعوا حاجة الناس الروحيّة، كما كانوا معفيين من الضرائب وذوي مستوى تعليمي عال في المجتمع. أمّا طبقة النبلاء، فكانت غاليّتهم يملكون أوقاتهم في التركيز على إدارة أعمالهم وممتلكاتهم وأراضيهم. في حين كانت طبقة الفلاحين تمثّل جموع الكادحين المغلوب على أمرهم المحرومين من النفوذ والثروة، كان عليهم أن يعملوا ليسدّوا الحاجات الماديّة للطبقتين السابقتين. وهكذا كان لكلّ طبقة من الطبقات الاجتماعيّة مكانتها ووظيفتها المعروفة في المجتمع.

وفيما يلي سنتحدث عن وضع تلك الطبقات في تلك الفترة^[١].

١. طبقة رجال الدين

كان رجال الدين الأعلى مرتبة بين طبقات المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، وهم يشكّلون من الوجهة العمليّة فرعاً من النبلاء، وكان الملك يعيّن كلّ الأساقفة بناء على ترشيح السادة الإقطاعيين المحليّين على شرط موافقة البابا، ورغبة من الأسر ذات الألقاب في عدم تفتيت ممتلكاتهم بالتوريث، فكفلت لصغار أبنائها المناصب الأسقفية ومناصب رؤساء الأديرة. وقد أدخل أبناء الأسر العريقة هؤلاء معهم إلى الكنيسة عاداتهم التي درجوا عليها في التمتع بترف الحياة الدنيا وزخرفها، كما كان للأساقفة ورؤساء الأديرة حقوق السادة الإقطاعيين وواجباتهم.

١ - سعيد عبد الفتّاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ٢، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط ١٠، ١٩٨٦م، ص ٢٧٤. انظر أيضاً:

تكوّنت هذه الطبقة من فئتين:

أ- الفئة الأولى: تضمّ رجال الدين الدنيويين أو العصريين، وهم الذين يعيشون في القرى والمدن بين المؤمنين، ويقومون بالصلوات والواجبات الدينية الأخرى في الكنائس. ويأتي على رأس هذه الفئة البابا، ويُعدّ المسؤول عن كلّ ما يتعلّق بالكنيسة من الناحية الإدارية والروحية. وللبابا سلطة دينية ودنيوية، وحكمه قضائي مطلق، ثمّ يليه الكرادلة والأساقفة، وفي أسفل السلم الكهنوتي يقف القسيس الذي يخدم في كنيسة القرية.

ب- الفئة الثانية: وهي التي تضمّ رجال الدين النظاميين (الديرين أو الرهبان) ويتبعون نظاماً معيّناً في الصلاة والعمل، ويعيشون في الأديرة. ويرأس الرهبان الديرين في كلّ دير مقدّم الدير أو رئيسه. وقد حصلت الكنائس والأديرة على إقطاعات كبيرة جعلت من رجال الدين طبقة ثرية^[1].

٢. طبقة النبلاء والفرسان

أطلق النبلاء الإقطاعيون الذين استمدّوا ألقابهم من الأرض التي امتلكوها، فأطلقوا على أنفسهم مثلاً لقب نبلاء السيف، وكانت مهمّتهم الرئيسة أن ينظّموا أو يتولّوا قيادة الدفاع عن سيادتهم وعن ممتلكاتهم.

من جهة أخرى، كانت طبقة الفرسان ثمرة لنظام اجتماعي قديم، كما كانت تتمتع بامتيازات كبيرة وتوكل إليها مسؤوليات خطيرة، فالفراس هو الذي ينحدر من أصل عريق، ويحارب من فوق ظهور الخيل، وكانت تعتبر شجاعته نوعاً من المغامرة الهوجاء^[2]. والأصل في كون الفرسان من طبقة عريقة، هو ارتفاع تكلفة الخيول التي لا يستطيع شخص من طبقة بسيطة أن يحصل عليها^[3].

١- ول ديورانت: قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة: محمّد بدران، ج٥، مج٤، بيروت، ١٩٨٨م، ص٥٠.

نسيم فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٥٤.

٢- ل. م. هارتمان: ج. باركلاف: الدولة الإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ١٩٨٤م، ص١٣٢.

3- John, France; Western Warfare in the crusades (1000- 1300) university of wales, Swansea, p.53.

فكانت طبقة النبلاء والفرسان عبارة عن سَلَم اجتماعي مؤلف من السادة والأتباع^[1]، فالسيد الذي حاز إقطاعاً من الأرض يكون تابعاً لمالك كبير، وهذا المالك الكبير يكون تابعاً لمالك أكبر ربّما كان كونتاً، وقد يكون الكونت تابعاً لمالك أكبر ربّما يكون دوقاً، والدوق ربّما كان تابعاً للملك الذي كان أكبر الملاك في الدولة^[2].

ويقوم بالخدمة العسكرية على الفرس ويأتي في أدنى درجات التسلسل الإقطاعي، ويتبع سيداً يرتبط به بيمين الولاء وبمختلف التزامات التبعية، وقد ارتبط نظام الفروسية ارتباطاً وثيقاً بالنظام الإقطاعي.

يقول فينو جرادوف: «إنَّ أركان العقد الإقطاعي هو يمين الولاء والتقليد»^[3].

فالنظام الإقطاعي هو نظام سياسي واجتماعي واقتصادي، أوجدته الحاجة وفرضته الظروف في غرب أوروبا، وكان هذا النظام يتناسب وحاجات الناس في تلك العصور^[4].

من جهة أخرى، نرى أنَّ أبناء النبلاء كانوا أمام خيارين لا ثالث لهما، إمّا أن يدخلوا في سلك رجال الدين العصريين أو الديرين، وإمّا أن يصبحوا فرساناً محاربين. وفي بداية مرحلة الشباب يمكن أن يرتقي الفتى إلى مرتبة مساعد فارس، وعندئذ يسمح له بالاشتراك في المعارك مع الفرسان الذين يكبرونه سنّاً ليتعلّم منهم فنّ الحرب، فإذا أثبت كفايته وصلاحيته، احتفل في سنّ الواحد والعشرين بتدشينه فارساً، فيتمّ ذلك بحفل كبير بمثابة تعميد آخر للفارس يكتسب به مكانته في المجتمع. وقد شكّل هؤلاء طبقة اجتماعية لها خصائصها وقوانينها المحددة^[5].

ونلاحظ وجود ثلاثة أنواع من الفروسية، وهي:

الفروسية الإقطاعية: من الطبيعي أن تنمو الأفكار الأساسية في أسلوب الحياة التي

١- عادل زيتون: العصور الوسطى الأوروبية: مطبعة الروضة، دمشق ١٩٨٢م، ص ٤١٩.

٢- نعيم فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص ٥٦.

٣- كوبلاند، ج، فينو جرادوف، ب: الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا، ترجمة: محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م، ص ٦٤.

٤- أحمد إبراهيم الشعراوي: الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ١٢.

5- Augustin Fliche, L' Europe occidentale de 888 à 1125 par Augustin; les presses universitaires de France; 1930, p325.

يعيشها النبيل الإقطاعي؛ إذ ارتبطت حياة أبناء الطبقة الإقطاعية بالإعداد للقتال وممارسة مهنة الحرب. ونظراً للاعتقاد بأنّ والدي النبيل الصغير يسرفان في تدليله، فقد جرت العادة أن يؤخذ أبناء تلك الطبقة في سنّ السابعة أو الثامنة إلى دار الأمير الإقطاعي، الذي هو في الغالب السيّد الإقطاعي لوالد الطفل، ينشأ الصبي نشأة حربية خاصّة، فيتعلّم استعمال الأسلحة ويحيا حياة خشنة، وعندما يثبت أنّه غدا مستعداً لمباشرة الحرب، يجري تدشينه في احتفال مهيب^[1].

الفروسية الدينية: تمثّل مفهوم الكنيسة عن الفارس المثالي. ونشأ هذا النوع من الفروسية بسبب الأموال الطائلة التي حصلت عليها الكنيسة؛ إذ لجأ رجال الدين بإحاطة أنفسهم بجنود وعساكر للدفاع عنهم وحماية أملاكهم أو تعزيز كرامتهم كسادة إقطاعيين من الدرجة الأولى.

الفروسية الاجتماعية: كان للمرأة الدور الأساسي في قيامها، وساهم الرجل في نموّها وتطورها^[2].

وكان على الفارس أن يتمتع ببعض المزايا، فالرجل الذي جعل القتال مهنته الأولى لا بدّ أن يكون شجاعاً شديد البأس في المعركة^[3].

والجدير بالذكر أنّ المجتمع الأوروبي في تلك الفترة احتكّ بالحضارة الإسلامية، ونتيجة لذلك نشأ العرف الذي يُعدّ الفارس الأسير ضيقاً، وهذه كانت من شيم المسلمين، وممّا يؤكّد التأثير الإسلامي على الفروسية في المجتمع الأوروبي، قول المؤرّخ جورج جوردون كولتون:

«عزّز الأفكار عن الفروسية والتشبّه بالعرب في إسبانيا الذين اعتنقوا المثل الأعلى نفسه، وبقدر ما أمكن معرفته كان العرب متفوّقين عليهم بلا شكّ، وكانت حضارتهم أرقى من حضارة الشعراء المتجولّين في جنوب فرنسا. وبدافع من زهو النفس والشجاعة، وبدافع من

١- نيفين ظافر الكردي: الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع عشر حتّى القرن الحادي عشر، قسم التاريخ والآثار، الجامعة الإسلامية بغزة، فلسطين ٢٠١١م، ص ٢٢٦.

٢- أحمد إبراهيم الشعراوي: الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، ص ٤٩.

٣- محمّد الخطيب: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار علاء الدين، دمشق، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ١٣٨.

موسيقا الحبّ والحرب، بل وبدافع من حسن الاحتفاء بالسيّدات - بدافع من كلّ هذا وذاك، يبدو أنّ هؤلاء المغاربة «العرب المسلمين» قد أعطوا المجتمع الإسباني أكثر ممّا أخذوا منه»^[1].

٣. طبقة الفلاحين

شكّلت طبقة الفلاحين القاعدة التي قام عليها هرم المجتمع الاقطاعي، كما كانت مصدر الرزق الأساسي لذلك المجتمع، فمن الفلاح استمدّ البابا ورجال الدين والملوك وجميع السادة الإقطاعيين المقومات الأساسية للحياة، إذ اعتمد هؤلاء كليّاً على الفلاح في الحصول على المأكل والمشرب والملبس.

وكانت طبقة الفلاحين التي صنعت الخبز للعالم الأوروبي في العصور الوسطى موضع احتقار النبلاء وازدراءهم. وتفاوت الفلاحون أنفسهم ما بين عبيد وأحرار، على الرغم من أنّ الغالبية العظمى منهم شغلوا حالة متوسطة بين أولئك وأولئك. وبناء على ذلك، تألّفت طبقة الفلاحين من ثلاث فئات، وهي:

أ- فئة العبيد ب- فئة الفلاحين الأحرار ج- فئة الأفتان أو رقيق الأرض.

أ- فئة العبيد: كانت فئة العبيد في أوروبا الغربية في العصور الوسطى أقلّ عدداً من فئة الفلاحين الأحرار وفئة الأفتان، وقد اقتصر عمل العبيد على الخدمة المنزلية والعمل الزراعي في أراضي بعض الأسياد، وكان السادة يقبلون على مضض أن يتزوّج العبيد، ولكنهم يصرون على تسمية عائلاتهم بالأفراخ، وهذا يدلّ على دنوّ منزلة العبيد^[2]. وكانت العبوديّة في الدويلات البابويّة أقرب إلى الزيادة منها إلى الزوال في نهاية العصور الوسطى؛ إذ شرّع أكثر من بابا العبوديّة كعقوبة لأعدائهم في ميدان السياسة، بالإضافة إلى السماح بتجارة العبيد^[3].

ب- فئة الفلاحين الأحرار: كانت فئة الفلاحين الأحرار أقلّ عدداً داخل طبقة الفلاحين،

١- جورج جوردون كولتون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧م، ص ١٣٤-١٣٥.

٢- نيفين ظافر الكردي: الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع عشر حتّى القرن الحادي عشر، ص ١٨٥.

٣- نعيم فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص ٧٢.

فقد وجد في القرى الأوروبية بعض الفلاحين الأحرار الذين يملكون مساحات محدودة من الأراضي الزراعية، ولهم حرية بيعها أو شراء أرض أخرى. وكان لهؤلاء الفلاحين الأحرار الحق في حمل السلاح وفي تزويج بناتهم أو إلحاق البنات بسلك الكهنوت دون التقيّد بموافقة الإقطاعي، زيادة على حرّيتهم في بيع مواشيهم ومحاصيلهم وفق ما تتطلبه مصالحهم الخاصة. وكان معظم الفلاحين الأحرار أتباعاً يدفعون لسادتهم الإقطاعيين خراج الأرض نقدًا أو عينًا، ويلتزمون في أحوال كثيرة بأن يؤدّوا لهم خدمات متنوّعة (ما عدا الخدمة العسكرية).

وقد عاشت فئة الفلاحين الأحرار في ظلّ ظروف اقتصادية واجتماعية قاسية، ممّا أدّى إلى تحوّل معظم هؤلاء إلى طبقة الأفتنان^[1].

ج- فئة الأفتنان: (رقيق الأرض): ترجع طبقة الأفتنان في غالبيتها إلى أصل حرّ، لكنّ الظروف المحيطة بهم أجبرتهم على التضحية بحرّيتهم الشخصية في سبيل السلامة. وقد كانت هناك طرق مختلفة أصبح بها الفلاح الحرّ عبدًا، منها: ١- رفض طلب الخدمة في الحرب، ٢- أن يهب نفسه للكنيسة أو الدير، ٣- التنازل عن حرّيته لسيد قوي يحميه من الأخطار، ٤- بيعه لنفسه لسيد غني مقابل مبلغ من المال عند الافتقار^[2]. وهكذا نجد أنّ القرن هو الفلاح الذي يعيش على قطعة من الأرض يمنحه إياها سيد إقطاعي يمتلك الأرض، وقد شكّل هؤلاء القسم الأكبر من طبقة الفلاحين في تلك الفترة، وعاشوا دون حماية القانون، فالقنّ مرتبط بالأرض ولا يستطيع تركها إلّا بالهرب أو شراء حرّيته بالمال إذا وافق سيّده، فللسيد الحق في أن يفعل بالقنّ ما يشاء، عدا أن يقتله أو يشوّهه. ويمكن القول إنّ علاقة السيد الإقطاعي بالقنّ ذات شقين، فهي تبعيّة اقتصادية من جهة، وعبوديّة شخصيّة من جهة أخرى^[3]. وما لبثت هذه الفئة من الأفتنان أن اختلطت بفئة العبيد لظروفها الصعبة.

١- نعيم فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص ٧٣؛ انظر أيضًا عادل زيتون: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨٢م، ص ٣٢٩-٣٣٠.

٢- نيفين ظافر الكردي: الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع عشر حتّى القرن الحادي عشر، ص ١٨٦.

٣- محمود سعيد عمران: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص ٦٣؛ للمزيد عن طبقة الأفتنان انظر موريس كين: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: قاسم عبد قاسم، عين للدراسات والأبحاث، ط ١، ١٩٩٤م، ص ٥٣-٥٤.

وهكذا نجد أنَّ المجتمع الأوروبي في العصر الوسيط هو مجتمع طبقات، فالمرء يحيا حياته فارساً كان أو تاجراً أو صانعاً أو فلاحاً بروح الولاء الطبقي والطاعة العمياء لما رسخ في مجتمعه من عادات وتوطّد من تقاليد. وقد كان نظاماً قاسياً عاتياً إلى درجة أمسى معها الفرد خاضعاً في كلّ أمر مهمٍّ من أمر الحياة لمجموعة ضخمة من القوانين الصارمة^[1].

ثانياً: الأسرة ودورها في المجتمع

١. الزواج (طقوسه-عاداته)

الأسرة أهمّ خلية في المجتمع، فإذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت فسد. كانت الأسرة الأوروبية في العصور الوسطى تخضع لسلطان ربّ الأسرة الذي يحوز طاعة أفراد الأسرة له، بينما المرأة لم يكن لها أيّ دور، وليس لها أيّ حق. فالقانون كان خاصاً بالرجال وحدهم، فالرجل هو صاحب السلطة الوحيدة في العائلة والمجتمع والدولة.

وإذا رجعنا إلى تاريخ تكوين الأسرة حسب العرف السائد في المجتمع الأوروبي، تبين أنّه تركّز في العصور الوسطى على الاتفاق المعقود بين الخاطب ووالد المخطوبة بتأييد أقارب الطرفين، وأنّ ذلك الاتفاق يتّخذ شكل الشراء؛ أي إنّ الزوج يشتري السلطة على زوجته. وكان تسليم المخطوبة يقع في مقابل الهدايا المختلفة، وهي مبلغ يحصل عليه الوالد أو الوصي وأهله، بالإضافة إلى التعهّد بدفع المهر في حال الترمّل. أمّا من جانب أهل المخطوبة، فكانت تقدّم هدايا مقابلة إلى أقارب الخاطب، وبعد ذلك تنتقل المخطوبة إلى منزل الخاطب، وهو ما يسمّى موكب الخطبة، ومن هذه العادة توجد بقايا دالة على ما كان يقع في الزواج من عمليّة الخطف؛ إذ احتفظت التقاليد بما كان يجري من مظاهر في هذا الزواج. وقد ظهر أثر الكنيسة المسيحية بوجه خاصّ في طلب رضا المخطوبة صراحة، ممّا أدّى إلى تحوّل العقد إلى تبادل الوعود ما بين الزوجين نفسيهما. أمّا البركة التي تمنحها الكنيسة، فقد اعتبرت في العصر الحديث عنصراً أساسياً في المراسم الدينية للزواج^[2].

١- فرديناند شيفل: الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢م، ص ٩٣.

٢- ج. كرامب، أ. جاكوب: تراث العصور الوسطى، ج ٢، ترجمة: محمّد مصطفى زيادة ومجموعة من الأساتذة المصريين، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٤٢١.

كان الزواج عبارة عن تحالف أسري، ويعبر عن وحدة للممتلكات الإقطاعية. وورثات الإقطاع كنّ يتميّن عن غيرهن من النساء، وغالبًا ما نسمع أنّ وريثة الإقطاع كانت تتمّ خطوبتها بل وربما تتزوّج وهي ما تزال طفلة لطمع والدي العريس، وغالبًا ما تستسلم لقدرها ومصيرها.

من جهة أخرى يمكن القول إنّ الحياة الزوجية في العصور الوسطى حققت شيئًا من الألفة والزمالة بين الزوجين، على الرغم من تعارض هذا ظاهريًا مع صورة العبودية التي كان يحلو للكنيسة أن ترسمها للمرأة، كما تعارض أيضًا صور المرأة التي تخيلها نظام الفروسيّة. ومن طقوس الزواج في تلك الفترة، أن يقام قدّاس ويتناول العروس والعريس قطعة من الخبز وبعض النبيذ، وأحيانًا تأخذ العروس فيما بعد مغزلًا وتبرهن على مهارتها في الغزل، ثم ينثر على العروسين الكثير من الحبوب كرمز للخصب، منها الأرز، ويأخذون في الرقص إلى أن يأتي القسّ ومعه الماء المقدّس والمعطر ويبارك الزواج^[1].

٢. علاقة الأبناء بالآباء

لم يكن الغرض من الزواج في العرف السائد اتباع العاطفة الشخصية، بل كان الغرض من الزواج إنجاب الأولاد الشرعيين جريًا في ذلك على سنن الرومان، فإذا لم تنجب الزوجة ولدًا، لم يعتبر ذلك في نظر العرف سوء حظّ فحسب، بل كان يعتبر سببًا من أسباب الطلاق، فكان المطلوب من المرأة بعد الزواج أن تضع مولودًا ذكرًا، فإذا أخفقت في تلك المهمة كان من السهل على زوجها أن يغري الأسقف من أجل فسخ الزواج. وفي الأحوال العادية كان للأب سلطة مطلقة على أولاده، وأنّ جميع الأولاد المولودين من الزوجة، طالما هي في عصمة زوجها، يفترض فيهم أنّهم أولاد شرعيّون للزوج، وكانوا من ناحية أخرى يترفقون في معاملة الأولاد غير الشرعيين. صحيح أنّهم كانوا لا يتمتعون بحقوق متساوية في الملكية مع حقوق إخوانهم وأخواتهم الشرعيين، إلّا أنّ مركزهم في الأسرة كان في العادة مركزًا محتملًا، واستطاع البعض منهم أن يصل إلى أعلى المراتب^[2].

١- موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيّد علي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م، ص ١٣٠.

٢- ج. كرامب، أ. جاكوب: تراث العصور الوسطى، ج ٢، ص ٤٢٤.

وكان هناك عناية مخصّصة للأبناء في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، فهناك عادة عمليّة التعميد التي تحدث في سنّ مبكّرة جداً وبأسرع ما يمكن؛ خشية أن يؤدي الشيطان ذلك الطفل الصغير وروحه التي لا تجيد الدفاع عن نفسها. وفي جرن المعموديّة كان رجل الدين المختصّ بالمعموديّة يحمل الطفل، بينما يقوم شخصان آخران كلّ منهما بالإمساك بإحدى رجليه، ويقوم القسّ بتغطيس الطفل كليّة في الماء ليحميه من الشيطان، ويأخذ هؤلاء الرجال المختصّون بالمعموديّة عهداً على أنفسهم بحماية الطفل لمدة سبع سنوات من الماء ومن النار، ومن ركلة أيّ فرس ومن عضّة أيّ كلب.

وقد قامت نساء الطبقة النبيلة بإرضاع أطفالهن بأنفسهن؛ ذلك أنّه كان هناك اعتقاد بأنّ لبن المرضعة سيفسد الدماء النبيلة.

وبالنسبة لحياة الأطفال بشكل عام وعلاقتهم بأبنائهم، كان الوالدان يقومان برعاية أبنائهما ورعايتهم بلطف، ويؤبّبانهم على الأخطاء ويعلمّانهم ويرعّانهم. وكانت لهم وسائلهم الخاصّة في التسليّة، مثل لعبة المطاردة والمبارزة وغيرها من الألعاب. وخوفاً من أن يشبّ الأطفال مدلّين نظراً للرعاية الأثويّة التي كانوا يحصلون عليها، فقد كان يتمّ إرسالهم في سنّ الثامنة من عمرهم إلى قلاع أخرى لاكتساب الفضائل والاندماج في الحياة الاجتماعيّة، ويبدأ بعدها تدريبهم الحربي.

وبالمثل، فإنّ البنات كان يتمّ إرسالهنّ إلى قلعة أخرى، وهي تعتبر بمثابة مدرسة لتلقّي آخر دروسهنّ، فهناك تتعلّمن التطريز والغزل والموسيقا. وإذا كانت تميل الفتاة إلى تعلّم الشؤون المنزليّة، فإنّها تتدرّب على الطهي والحياكة، كما يتمّ إعدادها لتكون مسؤولة عن النواحي الماليّة في القلعة، واختيار الخدم والإشراف عليهم، والإشراف على الطهي ونظافة المسكن، وعمل صيانة الملابس. وكان عليها أن تتعلّم بعض المبادئ الصحيّة العامّة وإسعاف المرضى، واستخدام بعض أنواع العلاج المنزلي، ومن جهة أخرى كانت تتعلّم القراءة والكتابة^[1].

وقد حرص الأب على زواج ابنته وهي في سنّ الرابعة عشر من عمرها. وقد قصر الزواج

١ - موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣٢-١٣٣.

المبكر مدّة الصبا بالنسبة للفتاة في العصور الوسطى، وذلك من خلال اختيار الزوج المناسب لها، ومن خلال توفير المهر الخاص بزواجها؛ إذ تتعرض الفتاة التي لا تملك مهرًا كافيًا إلى إدبار الرجال عن زواجها، وكانت الأسرة تتخذ جميع الاحتياطات لتلافي هذه المشكلة^[1].

٣. دور المرأة في الأسرة والمجتمع

اصطلح الباحثون على اعتبار مركز المرأة مقياس الحكم الذي نحكم به على حضارة دولة من الدول أو عصر من العصور. ومع أنّ هذا صحيح من أوجه عدّة، إلّا أنّ القياس يظلّ عسير التطبيق؛ نظرًا لصعوبة تحديد مركز المرأة؛ إذ إنّ مركزها من الناحية النظرية والقانونية شيء، ومركزها العملي في الحياة شيء آخر. وكلا المركزين يتجاوب أحدهما مع الآخر، ولكنهما لم يتّفقا تمام الاتفاق.

عاشت المرأة في العصور الوسطى وضعًا لا تحسد عليه؛ إذ عانت من ضغوطات كبيرة، كان وراءها رجال الكنيسة من جهة، والطبقة الأرستقراطية من جهة أخرى، لذلك كان عليها أن تواجه تلك الضغوطات بإرادة قويّة. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ حياة المرأة مرّت بعدّة مراحل، فتارة تكون فيها عنصر قوّة لبيتها ومجتمعها، وتارة أخرى تكون في حالة من الضعف تحمّلت فيها كلّ أعباء المجتمع.

فنظرية العصور الوسطى في المرأة جاءت وليدة قوتين وهما: الكنيسة، والطبقة الأرستقراطية. وهذه النظرية جمعت النقاخص كلّها؛ لأنّ هاتين القوتين لم تكن الواحدة منها تناوئ الأخرى فحسب، بل كانت في عراك مع نفسها. ومن هنا وجدت النساء أنفسهن يتأرجحن بين رأيين: الأوّل يضعهن في الحضيض، والآخر يرفعهن إلى أسمى المراتب^[2].

فعلى سبيل المثال كان لزوجة السيّد النبيل دور في المجتمع، فقد اهتمّت بممارسة الغزل والنسيج والحياكة والإشراف التام على المنزل^[3]، ولها بعض الحقوق الإقطاعية على الأرض

١ - مواهب عدنان محمّد، عمار شاكر الدوري: المرأة الأوروبية في العصور الوسطى - نساء الطبقة العامة أنموذجًا - مجلّة الملوية للدراسات الآثارية والتاريخية، مج ٦، العدد ١٧، السنة السادسة، ٢٠١٩م، ص ١٥٨.

٢ - ج كرامب، أ. جاكوب: تراث العصور الوسطى، ج ٢، ص ٥٦٦.

3- Charles George Crump, Ernest Jacob, The legacy of the Middle Ages, Oxford, 1951, p.428.

التي تحصل عليها من إرث زوجها^[1]. وكان في مقدورها أن تمارس كل سلطاتها، أو أن ترأس أحد الأديرة. وكانت عند غياب زوجها اللورد تعتبر سيّدة القلعة، تقوم بالدفاع عنها عند الحاجة، وتخرج على فرسها في مواكب السيّد بصحبة الرجال. أمّا زوجات الفلاحين والأقنان، فقد عشن حياة بالغة القسوة، وشاركن أزواجهنّ في العمل والكفاح من أجل لقمة العيش.

بشكل عام لم تأخذ المرأة الأوروبية في العصور الوسطى دورها بشكل كامل وصحيح، ولم تكن لها تلك المكانة المرموقة في ذاك المجتمع، فهي تعتبر قاصراً وتخضع لوصاية زوجها عليها، وكان مسموحاً له بأن يضربها مادام يعتبر ذلك في نظره لصالحها، ليس هذا فحسب بل كان بإمكانه أن يكون له بعض الخطايا، وأن يحضر أبناءه غير الشرعيين إلى القلعة لتعليمهم^[2].

والمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ذكوريّ بالأساس، وهذا يعني أنه يتميّز بتبعية شاملة من حيث إقصاء للنساء في الثروة والمكانة والسلطة، لذلك فإنّ مركز المرأة الاجتماعيّ تميّز بالتدنيّ مقارنة بالرجل في الطبقة ذاتها من خلال الإرث والملكية الخاصة وبلوغ درجات التعليم، فضلاً عن الحقوق القانونية والسلطة السياسية الرسمية^[3]. فكان الزوج في عرف المجتمع الأوروبي في تلك الفترة، يتولّى إدارة الأموال التي جاءت بها الزوجة عند الزواج، وكذلك الأموال التي حصلت عليها بعد الزواج، وللزوج أن يتصرّف بها كما لو كانت ملكه دون أيّ اعتراض من الزوجة^[4].

وخلاصة القول نجد أنّ خضوع المرأة جانب من جوانب نظرية العصور الوسطى، وقد قبلت الكنيسة والطبقة الأرستقراطية هذا الجانب على السواء. غير أنّه من ناحية أخرى، كانت الكنيسة والأرستقراطية مسؤولتين عن تطوّر النظرية المضادة التي تنادي بسموّ المرأة، وهذا التطوّر ظاهر التناقض من جانبهما^[5].

١- أحمد إبراهيم الشعراوي: الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، ص ٤٩.

٢- موريس بيشوب: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣١.

٣- مواهب عدنان محمّد، عمّار شاكر الدوري: المرأة الأوروبية في العصور الوسطى -نساء الطبقة العامة أنموذجاً - مجلة الملوية للدراسات الآثارية والتاريخية، مج ٦، العدد ١٧، السنة السادسة، ٢٠١٩م، ص ٨.

٤- ج كرامب، أ. جاكوب: تراث العصور الوسطى، ج ٢، ص ٤٢٢.

5- G. Coulton, life in the middle, ages, vol 4, Cambridge press, 1967. p.23.

ثالثًا: الأخلاق في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى

أصاب المجتمع الأوروبي كلّ الأمراض التي تلازم جمود الطبقات والفقر المادي، وفاقت تلك الأمراض في خطورتها العلل الأساسية التي هدّت من قوى المجتمعات البشرية؛ لأنّها هاجمت التقاليد التي تتولّى حراسة تلك المجتمعات وتحمي مقدّساتها، فبدأ المستوى الخلقي في الانحطاط عند سائر طبقات المجتمع، واختفت النماذج العالية التي تدعو إلى الإعجاب والفخر^[1].

ومما ساعد على الفساد، ظهور جماعات ثرية من الحكّام الذين دفعت بهم الأحداث إلى الصفوف الأمامية؛ إذ اختلفت تلك الأسر الثرية الجديدة عن الأسر العريقة في احترامها للأصل العريق وما يتطلّبه ذلك من التمسك بالتقاليد الرفيعة والخصال الحميدة، وصارت المقاييس الشائعة بين أولئك الرجال الجدد هو المحافظة على مركزهم، دون التقيّد بأيّ وسائل شريفة، ومراعاة مصالحهم الشخصية أولاً وقبل كلّ شيء.

ومن ناحية أخرى ظهر الفساد حتّى بين موظفي الحكومة نفسها، ولا سيّما الهيئات المتّصلة منها مباشرة بالمجتمع ورعاية مصالحه^[2].

وازدادت حدّة السرقة بسبب فئات الجند التي فرّت من الجيش، أو التي تمّ تسريحها دون أن تجد ما يسدّ رمقها، فاحترفت تلك الفئات السرقة دفعاً للموت جوعاً، وصارت مصدر فزع شديد للمجتمع في تلك الفترة وعبئاً جديداً على موارده.

رابعًا: الألعاب والتسلية

كان أفراد الطبقة النبيلة يقومون بتسلية أنفسهم، فقد وجد لديهم العديد من ألعاب التسلية، منها البلياردو ولعبة الشطرنج. لكن لا يوجد معلومات عن أبطال هذه اللعبة، كذلك كانوا يقامرون بالنرد، ويطلقون عليها لعبة الربّ، ويقامرون فيها حتّى على ملابسهم. وفي إيطاليا رخصت القومونات بفتح محلات خاصّة للمقامرة بالنرد، وهذه اللعبة أثارت الكثيرين، ممّا ساعد على انتشار العنف، وعمليّات الانتحار، ومخالفة الشيطان.

١- إبراهيم العدوي: المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٧.

٢- هيربرت فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: محمّد مصطفى زيادة، السيّد الباز العرييني، دار المعارف، ١٩٥٠م، ص ١١٤.

كما كان الصيد من أهم أنواع رياضات طبقة النبلاء، ففي الفترة البكرة من العصور الوسطى كان الصيد ضرورياً كمورد للطعام، ولم يكن وفقاً على طبقة بعينها، وشيئاً فشيئاً أصبح وفقاً على طبقة النبلاء. وكانت الغزلان من أهم الفرائس التي يسعى إليها النبلاء، ففي كل سنة كان يتم ذبح ثمانية ذكور من الطباء وتوضع فوق مذبح الكنيسة. وشاركت نساء الطبقة النبيلة الرجال بالخروج معهم، حيث كنّ يمتطين الجياد بمفردهنّ، ويمشين بجوارهم. كذلك كان القنص من أهم مباحج طبقة النبلاء، فمدرّبو الصقور كانوا على درجة كبيرة من الخبرة في رعايتهم لتلك الصقور، وفي تغذيتهم لها وتدريبهم إيّاها.

وحيث أنّ عمل الفارس الأساسي هو القتال، فإنّه كان يمارس عمله هذا، سواء في الرياضة أو في ألعابه، فقد كان كثيراً ما يتدرّب على أعمال الفروسية والدفاع؛ إذ كان يمتطي فرسه ومعه رمح، موجّهاً ضرباته على عمود أو هدف أو تمثال، يرتدي بدلة الزرد ويحمل درعاً. وكانت المبارزة من أفضل أنواع الألعاب لديهم، وفيها يؤدّون حركات تقليدية متّفق عليها مسبقاً، وكأنّهم في شبه معركة. ولقد عارضت الكنيسة حلقات المبارزة، ولم تكتف بالظن في التدريبات الخاصّة بها، بل قدّمت بديلاً عنها، وهو الحروب الصليبيّة. ومع هذا، لم تكن تعاليم البابويّة والملكيّة التي تحرمها مؤثّرة، وكلّ ما استطاعت أن تفعله هو أنّها خفّفت من معاركها الدامية وجعلتها نوعاً من استعراض القوّة، ممّا ساعد فيما بعد على تقليل أعداد المتبارزين، بل إنّهم غدوا يتبارزون بسيف ورمح غير حادّة، وأصبح كلّ هدفهم هو الاستيلاء على رايات وشارات خصومهم. وكانت السيّدات يحضرن هذه المباريات، ويشجّعن فرسانهن ذوي البسالة، ويغدقن عليهن الكثير من الجوائز^[1].

خامساً: أثر الكنيسة على الحياة الاجتماعيّة

استطاعت الكنيسة في ظلّ العلاقات الإقطاعيّة أن تصوغ الدين في شكل يتّفق مع الظروف الاقتصاديّة لذلك العصر الذي كانت فيه الأرض الأساس الأوحد للنظام الاجتماعي، فعملت على تمجيد حياة الزهد والتّقشّف، والنهي عن التمتع بجمال الحياة بالنسبة للشعب فقط دون رجالها. وكان هدف العامل بنظرهم، ليس أن ينمي ثروته ويغتني، ولكن ليبقى في الوضع

الذي ولد عليه، حتّى تنتهي هذه الحياة الفانية ويعود إلى الحياة الأبدية^[1]. كما دعت أولئك الناس إلى تعذيب النفس وحرمانها استعداداً لنعيم الآخرة؛ وذلك بغرض حمل الشعب على قبول الاستغلال الإقطاعي في إذعان واستسلام. وكانت ثروة الكنيسة الهائلة تستمد من اعتمادها على قطع الأراضي التابعة لها التي حصلت عليها بالهبّة أو الوصية، أو بالبيع أو إغلاق الرهن، أو بإصلاح الأراضي البور بأيدي جماعات الرهبان أو غيرها من الجماعات الدينية^[2]. وكانت الكنيسة إلى جانب امتلاكها إقطاعيات واسعة معفاة من الضرائب، كما كان يحق لها جمع نوع من الضرائب على شكل العشور، وأرست الاستغلال المادي للجماهير أشد مما كانت تمارسه طبقة النبلاء والإقطاعيين. وبوقوع الكنيسة في شرك الإقطاع، وجدت نفسها مؤسسة سياسية وعسكرية واقتصادية، إضافة إلى أنها مؤسسة دينية^[3]. وبذلك ابتعدت الكنيسة في العصور الوسطى كثيراً عن مثلها العليا، وكان وجود رجال الكنيسة المنحرفين أمراً جلياً طيلة العصر، ووجد بعض المؤرخين متعة في تقديم الأمثلة والشواهد لأساقفة مالوا إلى السرقة، وقساوسة اتسموا بالشهرة، وراهبات فاسقات^[4].

أثرت الكنيسة في أوروبا فترة العصور الوسطى على الحياة الاجتماعية، وكان لها سلطانها ونفوذها، فقد تحكّمت بشكل رئيس وأساسي في سير الأحداث، وتركزت إدارتها تحت زعامة البابوية، فقد أصبح البابا في نظر الأوروبيين رأس الكنيسة، والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها^[5].

كان يمكن للبابوات أن يقوموا بدور فعّال في تقدّم الشعوب الأوروبية، حيث توافرت لهم كلّ السبل والوسائل للقيام بهذا الدور، فهم أصحاب نفوذ وسيادة وسلطة دينية ودنيوية، ولكنهم أسأؤوا استعمال هذا السلطان، فاستغلّوه لأنفسهم، وسيطر عليهم حب المال

١- هنري بيرين: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة عطية القوصي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦م، ص ٢١.

٢- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٥، مج ٤، ص ٦٩.

٣- نيفين ظافر الكردي: الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع عشر حتّى القرن الحادي عشر، ص ٢٦.

٤- س. ورن هيلستر: أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: محمّد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨م، ص ٢٢٧.

5- F.M.Powicke, the legacy of the midale Age, Oxford ,the clarendon press, 1932, p.48.

والجاء، واستخدموا كلَّ أساليب التنكيل والاضطهاد للحفاظ على نفوذهم^[1].

ومن مظاهر تدخّل الكنيسة أيضًا، احتضانها للفروسية بحكم مطالبتها ببسط حمايتها على وجوه النشاط الإنساني كافة. وعلى هذا شجع رجال الدين استخدام الطقوس الدينية في تكريس «تنصيب» الشاب فارسًا، وأقاموا لهذا الغرض شعائر وطقوسًا خاصّة، ومن تلك الطقوس قيام الفارس في ليلة العيد بصلاة خاصّة أمام الهيكل ثمّ التطهر بالاغتسال بالماء المقدّس في صباح يوم العيد. وهكذا أصبح حفل تقليد رتبة الفروسية بمثابة «تعميد» آخر للفروسية بعد تعميد الكنيسة له عندما كان طفلًا. وقد طالبت الكنيسة الفارس بأن يكون مسيحيًا تقيًا، غرضه حماية الكنيسة والدفاع عن عقيدتها، وأنّ يتعد عن ارتكاب الجرائم، وأن يراعي الضعفاء والعجزة^[2].

وقد صوّر بعضهم حالة الفساد التي تردّى إليها رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى: «إنّ القلب ليفعم بالأسى، وتقطر النفس مرارة عندما نتعرّض للحياة الدينية في العصور الوسطى، فقد عمّ الانحطاط والفساد، ودبّ الفساد في الحياة»^[3].

ويقول ول ديورانت: «كانت ممارسات الكنيسة الإقطاعية عارًا وفضيحة بالنسبة للدين المسيحي في كلِّ أوروبا»^[4].

١- أحمد علي عجيبة: البابوية وسيطرتها على الفكر الأوروبي في العصور الوسطى، مكتبة المهتدين، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص ٣٣.

٢- نعيم فرح: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ص ٦٠-٦١.

٣- جاد المنفلوطي: المسيحية في العصور الوسطى، ج٢، سلسلة تاريخ المسيحية، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، ١٩٧٧م، ص ٣٩.

٤- ول ديورانت، قصّة الحضارة، ج٥، مج ٤، ص ٧٢.

خاتمة

إنَّ المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى بشكل عام، نجد أنَّه كان ينادي بقيم ومبادئ أخلاقية عالية، لكنَّ في الوقت نفسه نرى العكس؛ فعلى سبيل المثال وجدنا من خلال ما سبق أنَّ الفارس يجب أن يتحلَّى بالقيم الأخلاقية؛ كالشجاعة والحكمة والرزانة وحسن معاملته للأسرى، لكنَّ الفرسان لم يمارسوا تطبيق فضائل الأخلاق إلَّا فيما بينهم، فقد عاملوا الطبقات الدنيا في المجتمع؛ كطبقة الأبقان والعبيد باحتقار وازدراء، فلم يتوان الفارس أحياناً عن رمي خادمه بالحربة إذا تأخَّر في تقديم الشراب له، ولم يتردَّد أحياناً في استخدام القسوة لتأديب زوجته.

ولا أدلَّ على وحشيَّتهم وقسوتهم إلَّا الأعمال اللاأخلاقية والجرائم البشعة التي ارتكبوها عند حملاتهم الهمجية على البلاد العربية، فالفرسان الصليبيون ارتكبوا أبشع الجرائم في حملاتهم، وهذا إنَّ دلَّ على شيء، فإنَّما يدلُّ على تدنيَّ المستوى الأخلاقي الذي اتَّصف به الفرسان بشكل عام، والمجتمع الأوروبي بشكل خاصَّ في تلك الفترة^[١].

خلاصة القول: نجد أنَّ الفوضى التي اتَّسم بها المجتمع الأوروبي خلال العصور الوسطى أدَّت إلى الضعف العام في المجتمع، وقد بدأت طبقات المجتمع تتخبَّط تتخبَّطاً عشوائياً، دون أنْ تقدِّر موقفها وحاجاتها أو تعرف الطريق القويم لتحقيق مصالحها، وغدا طابع المجتمع أنْ يفترس القوي الضعيف. كما ضاقت آفاق الناس وانحصرت في تلمَّس أيسر السبل لحماية أنفسهم دون التفكير في المستقبل أو وضع علاج شامل للمآسي المحيطة بهم، ولا أدلَّ على تردِّي المجتمع الأوروبي في تلك الفترة إلَّا انتشار الجهل الذي خيَّم على العقول، وانصراف الناس إلى الخرافات والترهات حتَّى في أخطر الأمور التي تعترض حياتهم، إضافة إلى انتشار الأوبئة بين سائر طبقات المجتمع.

لذلك غدت الكآبة تملأ المجتمع الأوروبي، وفقد الناس طموحهم وحيويَّتهم، وضعف إيمان الناس بالعمل، وجنحوا إلى الركود والكسل، وهذه كانت أبرز صفات المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى.

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد، مواهب: الدوري، عمّار: المرأة الأوروبية في العصور الوسطى - نساء الطبقة العاملة أنموذجاً - مجلة الملوّية للدراسات الآثارية والتاريخية، مج ٦، العدد ١٧، ٢٠١٩ م.
٢. الخطيب، محمّد: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار علاء الدين، دمشق، ط ١، ٢٠٠٦ م.
٣. زيتون، عادل: العصور الوسطى الأوروبية: مطبعة الروضة، دمشق ١٩٨٢ م.
٤. الشعراوي، أحمد إبراهيم: الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٧٠ م.
٥. عاشور، سعيد عبد الفتّاح: أوروبا العصور الوسطى، ج ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط ١٠، ١٩٨٦ م.
٦. عجينة، أحمد علي: البابوية وسيطرتها على الفكر الأوروبي في العصور الوسطى، مكتبة المهتدين، القاهرة، ط ١، ١٩٩١ م.
٧. العدوي، إبراهيم: المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ١٩٦١ م.
٨. عمران، محمود سعيد: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨ م.
٩. فرح، نعيم: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، منشورات جامعة دمشق، ط ٢، ٢٠٠٠ م.
١٠. الكردي: نيفين ظافر: الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠١١ م.
١١. المنفلوطي، جاد: المسيحية في العصور الوسطى، ج ٢، سلسلة تاريخ المسيحية، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، ١٩٧٧ م.

- المراجع المعرّبة

١. بيرين، هنري: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عطية القوصي، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦م.
٢. بيشوب، موريس: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيّد علي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤م.
٣. جاكوب. أ، كرامب ج.: تراث العصور الوسطى، ج ٢، ترجمة: محمّد مصطفى زيادة ومجموعة من الأساتذة المصريين، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧م.
٤. ول ديورانت: قصّة الحضارة، ترجمة محمّد بدران، ج ٥، مج ٤، بيروت ١٩٨٨م.
٥. شيفل، فرديناند: الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى وعصر النهضة، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٢م.
٦. فشر، هربرت: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: محمّد مصطفى زيادة، السيّد الباز العرييني، دار المعارف، ١٩٥٠م.
٧. كوبلاند، ج. فينو جرادوف، ب: الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا، ترجمة: محمّد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨م.
٨. كولتون، جورج جوردون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧م.
٩. كين، موريس: حضارة أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبد قاسم، عين للدراسات والأبحاث، ط ١، ١٩٩٤م.
١٠. هارتمان، ل.م، باركلاف، ج: الدولة الإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ١٩٨٤م.
١١. هلستر، س. ورن: أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: محمّد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨م.

المراجع باللغة الإنكليزية

1. Coulton, G: life in the middle, ages, vol 4. Cambridge press, 1967.
2. Crump, Charles George: Jacob. Ernest, The legacy of the Middle Ages, Oxford, 1951.
3. Fliche, Augustin: L' Europe occidentale de 888 à 1125; les presses universitaires de France; 1930.
4. France; John, Western Warfare in the crusades (1000- 1300) university of wales, Swansea.
5. Powicke, F.M: the legacy of the middle Age, Oxford, the clarendon press, 1932.
6. Thompson, Edward: An introduction to Greek and Latin Palaeography, vol 2, Cambridge, University press, 2002 .

المرأة والأسرة في أوروبا العصور الوسطى

هبة شباط^[1]

مقدمة

تشكّل الدراسات التي تتناول المرأة ودورها في الأسرة والمجتمع، أكثر الدراسات مصداقيةً للتعرف على مستوى المجتمعات وما وصلت إليه من رقيّ وحضارة، وبما أنّنا مدعوون لدراسة أصول الحضارة الغربيّة ونقدها في ظلّ ظروف معقّدة يستمرّ الغرب فيها بنقد الشرق عامّةً، والعرب المسلمین بصورة خاصّة فيما يتعلّق بحقوق المرأة؛ تأتي هذه الدراسة لكشف النقاب عن المستوى المتدنّي الذي كانت تعيش فيه المرأة الأوروبيّة طيلة ألف عام، إذ عاشتها أوروبا في ظلام دامس اصطلاح المؤرّخون على تسمية هذه القرون بالعصور الوسطى. إنّنا نهدف من خلال هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أهمّ الجوانب التي يمكن أن نستشف من خلالها أهميّة ومركز المرأة في المجتمع الأوروبي خلال العصور الوسطى، فالتعرف على كينونتها في الأسرة، وما يرتبط به من خطوبتها وزواجها، وعملها، وتربية أطفالها، يعطي صورة صادقة عن الحالة الاجتماعيّة للنسبة العظمى من فتيات أوروبا ونسائها خلال العصور الوسطى، بينما يعبر موقعها أمام القانون، وموقف الكنيسة منها (على اعتبار أنّ أوروبا كلّها كانت تدار من قبل الكنيسة في ذلك الزمن)، عن مدى العقليّة المسيطرة على ذلك المجتمع.

أولاً: الأسرة والعقليّة الاجتماعيّة في أوروبا العصور الوسطى

لقد كان المجتمع في أوروبا العصور الوسطى مجتمعاً متخلّفاً، إذ كانت الحزازات العائليّة الإقطاعية شيئاً لا يمكن السيطرة عليه، فعملية الأخذ بالتأثير كان ينظر إليها باعتبارها

نوعاً من العدالة الخاصة أكثر من كونها جريمة، كما أن جمع أبناء العشيرة من أدناهم إلى أقصاهم كانوا مطالبين بتنفيذ عملية الثأر هذه، وكانت إيطاليا بوجه خاص من أهم المناطق التي توطنت فيها هذه الظاهرة، فتاريخها كله في العصور الوسطى كان عامراً بالحزازات العائلية الإقطاعية، التي عبرت عن نفسها في شكل كثير من الحروب، تلك الحروب عادة ما كانت تؤدي إلى فناء أحد الفريقين المتنازعين، أو بتدخل الإمبراطور لفرض السلام إذعان أحد الأطراف المتصارعة لقبول تعويض عن الخسائر^[1].

ومع هذه العقلية الاجتماعية المتخلفة، سيسهل على القارئ فهم كثير من القضايا التي سنتطرق فيها عن تخلف المجتمع وتراجع دور الأسرة، وانعدام أي مشاركة فعالة للمرأة في حياة تلك القرون المظلمة؛ إذ عاشت المرأة في العصور الوسطى الأوروبية في وضع لا تحسد عليه، وعانت من ضغوطات كبيرة كان وراءها رجال الكنيسة من جهة، وأبناء الطبقة الأرستقراطية من جهة أخرى، وهكذا كانت حياة تلك المرأة أغلبها في حالة يرثى لها من الضعف والهوان، إذ تحملت فيها كل أعباء المجتمع والفكر السوداوي والعقلية المتخلفة السائدة في أوروبا خلال العصور الوسطى^[2].

وقبل الاستطرد في دور المرأة في الأسرة خلال العصور الوسطى، تجدر الإشارة إلى أن حياة النبلاء قد اعتمدت على الأسرة وارتبطت بها أشد الارتباط. فكان الفرد منهم يدور في نطاقات اهتمام الأسرة، إذ نسمع أن كثيراً من الأسر الكبيرة خاضت العديد من الحروب الخاصة بها، بينما كانت الأسر الصغيرة تنضوي تحت ظل الأسر الكبيرة الإقطاعية^[3]، التي سعت أن تكون المهنة الحقيقية للمرأة هي الزواج والأمومة، لذلك عملت على تعزيز الحياة الزوجية، وشجعت عليها وحاربت العزوبة، وهذا ما أدى إلى زيادة الاهتمام بالأسرة الكبيرة^[4]، إذ جرت العادة بأن كل عروسين حديثي الزواج، كان عليهما أن يعيشا في منزلي والدي العريس. إن مجموعة الأقارب كانوا يلتقون حول رئيس العشيرة، وإن الزواج كان عبارة

١- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ١٣٩.

٢- مواهب أحمد، عمار الدوري، المرأة الأوروبية في العصور الوسطى - نساء الطبقة العاملة أنموذجاً، مجلة الملوية للدراسات الأثرية والتاريخية، مج ٦، عدد ١٧، السنة السادسة آب ٢٠١٩م، ص ١٥١.

٣- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣٠.

٤- مواهب أحمد، عمار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٥٤.

عن تحالف أسري، وإنَّ الرغبات الشخصية لم يكن لها تأثير في ظلَّ هذا النظام، فقد كان هذا التحالف أو التعاون الأسري عبارة عن وحدة للممتلكات الإقطاعية، وورثات الإقطاع كن يتميَّز على غيرهن من النساء. وغالبًا ما نسمع أنَّ وريثة الإقطاع هي طفلة^[١]، وهكذا لم يكن هذا الاهتمام المنصبَّ على الأسرة صحيحًا وصحيًّا، إذ كان الهدف منه تحويل الأسرة إلى عنصر أمان وحماية ومصدر للدخل. وشاهدنا على ذلك، هو أنَّ من بين مختلف الجوانب الثقافية للمجتمع في أوروبا العصور الوسطى؛ كان الاهتمام بالمرأة قليلًا جدًّا؛ إذ كان لظروف القمع والقيود المفروضة على أنشطة النساء بصفة عامة؛ السبب الرئيس لذلك الاهتمام المتدنِّي أو حتَّى المعدوم^[٢]، يضاف إليه سيطرة الرجل على المجتمع الأوروبي حتَّى عصر النهضة الإيطالية، ولكنَّ الذين يدركون ذلك هم قلة قليلة، ففي سنة ١٣٩٥م كتب تاجر يدعى فرانثيسكو داتيني من مدينته الصغيرة براتو، إلى شريكه في جنوة: «الرجاء أن تشتري لي جارية صغيرة، عمرها بين الثامنة والعاشر، على أن تكون من سلالة قويَّة»، كما لو كان يشتري حصانًا. إنَّ من يقرأ هذا عن عصر النهضة الإيطالية، سيسهل عليه تصوُّر عبوديَّة المرأة في العصور الوسطى^[٣]، هذا فضلًا عن الخبرة المجتمعيَّة المتراكمة؛ التي كانت نتيجة حتميَّة للواقع الذي فرضته ظروف المجتمع خلال تلك الفترة، إذ مكَّنت موقع الرجل في المجتمع، هذا بالإضافة إلى أنَّ تعامل المرأة مع الرجل جاء من خلال التركيز على ضرورة العقَّة وصون زوجها والدفاع عن شرف العائلة. ومع ذلك يبدو من الصعب تجنُّب الفجوة الحقيقيَّة في تاريخ المرأة من حيث المحتوى الفعلي للحياة اليوميَّة الناجمة عن تغيُّر الظروف الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة خلال العصور الوسطى^[٤].

ثانيًا: الزواج وتكوين الأسرة في العصور الوسطى

لقد شهدت العلاقة بين الرجل والمرأة تطوُّرات كبرى في سياق تحوُّلات السلوك والطبائع وآداب المعاملة، ومن المفيد التوقُّف عند الزواج وتكوين الأسرة بحكم أنَّه يمثل

١- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣٠.

٢- مواهب أحمد، عمَّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٥٥.

٣- ماكس بيروتى، ضرورة العلم، دراسات في العلم والعلماء، ترجمة وائل أناسي وبسام معصراني، مراجعة عدنان الحموي، مجلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٤٥، مايو ١٩٩٩م، ص ١٠.

٤- مواهب أحمد، عمَّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٥٥.

أهم تجليات تلك العلاقة. فقد كان في البدء في العصور الوسطى في أوروبا عبارة عن قران ذي صبغة مدنيّة، ثمّ شرعت الكنيسة -منذ ظهور المسيحيّة وانتشارها في أوروبا- في تنظيمه وفق قوانين حدّتها هي، فقد قضت الكنيسة بأنّ يقوم الزواج على قران غير قابل للفسخ. ولا يحقّ للرجل الزواج بأكثر من امرأة، وإنّ كان ذلك مخالفاً للفطرة الإنسانيّة، وبالتالي لم يتقيّد به الرجال المنتمون للطبقة الأرستقراطيّة، إذ كانوا يعقدون قرانهم على أكثر من امرأة واحدة. كما صعبت الكنيسة من حقّ الطلاق الذي لم يعد يتمّ إلاّ بإذن منها^[1]. لقد عرفت أوروبا العصور الوسطى مرحلة الخطوبة قبل الزواج، حيث كان يتمّ الاختيار من خلال مقابلة في بيت الفتاة بحضور أشقائها، وتكون في العادة حافية القدمين حاسرة الرأس، وبعد التفاوض بين العائلتين تتم الخطوبة^[2]. وكانت هذه الخطوبة عبارة عن تبادل عهد وميثاق، وكان العرس نفسه ميثاقاً، واسمه بالإنجليزي Wedding مشتقّ من اللفظ الأنجلوساكسوني Weddian ومعناه (الوعد)، وكان القرين spouse هو الشخص الذي يجيب «إنّي أريد» Responded. وكانت الدولة والكنيسة معاً تعدّان الزواج صحيحاً إذا تمّ بناء على تبادل عهد شفوي بين الطرفين، ولو لم يصحبه أيّ احتفال قانوني أو كنسي. وكانت الكنيسة تريد أن تحمي النساء بذلك من أن يهجرهنّ من يغوينهنّ، وتفضّل هذا الاتحاد عن الفسق أو التسري^[3].

لقد كان الزواج في أوروبا العصور الوسطى يتمّ في سنّ مبكّرة جداً، وقد يرجع هذا الزواج المبكر إلى عمليّة انتقال الملكيّة الإقطاعيّة^[4]، إذ كان في وسع الطفل وهو في السابعة من عمره أن يوافق على خطبته، فقد تزوّجت جراس صليبي Grace de Saleby في الرابعة من عمرها بأحد النبلاء الذي يستطيع حماية ضيعتها الغنيّة، ثمّ مات هذا النبيل ميتة سريعة، فتزوجت وهي في السادسة من عمرها بنيل آخر، إلاّ أنّها قد تزوّجت وهي في الثالثة عشرة بنيل ثالث. وكان بالإمكان حلّ أو فسخ هذا الرباط في أيّ وقت من الأوقات قبل بلوغ سنّ

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم: محمّد حناوي، ويوسف نكادي، ط١، مطبعة مفكّر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م، ص ٦٦.

٢- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٦٨.

٣- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، المسيحيّة في عقوانها ج ٥، مج ٤، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص ١٨٣.

٤- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية ١٩٩٨م، ص ٢٨٦.

البلوغ، وكان يفترض أن تكون هذه السن هي الثانية عشرة للبنات، والرابعة عشرة للولد^[1]. على أن الزواج المبكر بالنسبة للمرأة في أوروبا العصور الوسطى كان له نتائج سلبية عليها وعلى المجتمع من خلال تقصير سنوات الصبا، وتحميل الفتيات القاصرات المسؤولية في وقت مبكر. وكان الأب في أوروبا العصور الوسطى حريصاً على اختيار الزوج المناسب لابنته، وعلى توفير مهرها، فالفتاة التي لا مهر لها كان الرجال يحجمون عن التقدم لخطبتها، وهذا ما كان يخشاه أهل الفتاة على ابنتهم، لذلك كانت الأسرة تتخذ جميع التدابير لتلافي هذه المشكلة، ففي جميع طبقات المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى كان يطلب من العروس أن تحضر شيئاً معها عندما تدخل بيت زوجها^[2]. لذلك لا يجوز للتابع أن يزوج ابنته إلا بعد موافقة السيد، فإذا تزوجت البنت نقلت معها جانباً من إقطاع أبيها على أنه بائعة زواجها، وبما أنه من المعروف أن الزوج سوف يسيطر على الأرض التي حازها التابع من السيد، فللتابع الحق في أن يتأكد من أن الزوج ليس من أعداء السيد^[3].

لقد كانت الكنيسة ترى أن رضا الوالدين أو الأوصياء ضروري لزواج القاصر، لكنه غير ضروري للزواج الصحيح إذا بلغ الزوجان سن الرشد. وفي مراحل متقدمة، تدخلت الكنيسة وجعلت سن زواج البنات سن الخامسة عشرة حتى إنها حرمتها قبل هذه السن، ولكنها تسامحت في كثير من الاستثناءات؛ لأن حقوق الملكية في هذه المسألة كانت تغطي على نزوات الحب، ولم يكن الزواج إلا حادثاً من حوادث أعمال المالية^[4]. وعموماً، فإن آثار تدخل الكنيسة في عملية الزواج كانت واضحة المعالم، وتأكدت تلك الآثار أكثر فأكثر منذ القرن الثاني عشر، إذ لم يعد بإمكان ذكر وأنثى القيام بعقد قران إلا بحضور أحد الكهنة لهذا التعاقد (حفل الزواج). فعقد الزواج لم يعد شرعياً، ما لم تصادق الكنيسة عليه. وظل حفل الزواج يتم في طقوس خاصة قبالة بناية الكنيسة، حتى مطلع القرن السادس عشر، إذ ستفتح الكنائس أبوابها أمام المتزوجين ليتم الحفل داخل أبنائها^[5].

١- ول. ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٢.

٢- مواهب أحمد، عمارة الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٦٧.

٣- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلامية بغزة ٢٠١١م، ص ٢١٣.

٤- ول. ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٢.

٥- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٦٦.

وكان القانون الزمني يرحّب بتنظيم الكنيسة لشؤون الزواج، فكان براكتن Bracton (المتوفى سنة ١٢٦٨م) يرى أنّه لا بدّ من إقامة احتفال ديني لكي يصبح الزواج صحيحاً. ورفعت الكنيسة شأن الزواج إلى مقام القداسة، وجعلته ميثاقاً مقدّساً بين الرجل والمرأة والله، ثمّ بسطت سلطانها القانوني تدريجياً على كلّ خطوة من خطوات الزواج، من حفل الزواج إلى وصيّة الزوج الأخيرة قبل الوفاة. وقد تعدّدت بنود قانون الزواج، ومن هذه البنود موانع الزواج، فكان يجب أن يكون كلا الطرفين غير مقيدّ برباط زواج سابق، أو بنذر أنذره أن يظلّ بغير زواج، وكان الزواج بمن لم يعمّد محرّماً، غير أنّه وجدت مع ذلك حالات من الزواج بين المسيحيين واليهود. وكان الزواج بين الأرقاء بعضهم وبعض، وبين الأرقاء والأحرار، المتمسّكين بالدين الصحيح والضالّين، وحتّى بين المؤمنين والمحرومين، كان الزواج بين هؤلاء يُعدّ صحيحاً. كما كان من شروط الزواج ألا يكون بين الطرفين صلة قرابة تصل إلى الدرجة الرابعة - أي أنّه يجب ألا يكون لهما جدّ مشترك في خلال أربعة أجيال، وفي هذه المسألة كانت الكنيسة ترفض القانون الروماني وتقبل القانون البدائي قانون الزواج من خارج العشيرة؛ خشية أن يؤدّي زواج الأقارب إلى ضعف النسل داخل الأسرة، أو لأنّ الكنيسة كانت تعمل على عدم السماح بتكديس الثروة داخل العائلة الواحدة نتيجة للروابط الأسريّة الضيّقة، ولكنّ الكنيسة تغاضت كثيراً عن هذا الشرط، خاصّة داخل الأسرة الريفية. كما كانت تتغاضى عن كثير من الثغرات الأخرى بين الحقيقة والقانون^[١].

يبدأ احتفال أسرتي العريس والعروس بأن يرسل العريس خاتماً للعروس، وعادة ما يقوم المدعوون بالارتطام ببعضهم البعض للتعبير عن ابتهاجهم بهذه المناسبة وحتّى لا يتمّ نسيانهم، وذلك لعدم معرفتهم بوسائل تسجيل مثل هذه المناسبات، وربّما تمّ استدعاء بعضهم كشهود على العرس، ويتمّ تغطية العروسين بكرة تسمّى كرة الزواج، وإذا صدف أنّ أيّاً من الفريقين كان قد رزق ببعض الأطفال، فإنّه يتمّ جمعهم تحت هذه الكرة ويتمّ الاعتراف بهم كأبناء شرعيين. وفي آناء القدّاس الذي يقام بهذه المناسبة، فإنّ العريس والعروس يشتركان في تناول قطعة من الخبز وبعض النبيذ، وبعدها ربّما تأخذ العروس المغزل وتبرهن على مهارتها في الغزل. وبعد برهة يصيح الأصدقاء بصوت عال قائلين

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٣.

بالرفاه والبنين. وينثرون على الزوجين كثيراً من الحبوب، كرمز للخصب، ومنها الأرز، أو بعض قصاصات من الورق الملون غير الضار. ويأخذون في الرقص إلى أن يأتي القس ومعه الماء المقدس والمعطر وبارك أريكة الزواج، وكذلك فراش الزوجية^[1]. ويأتي بعد حفلة الزواج موكب العرس -بموسيقاه المدوية وثيابه الحريريّة الفاخرة- يسير من الكنيسة إلى منزل العريس، وتعبقه الحفلات في هذا البيت طيلة النهار كله ونصف الليل، وموكب العرس أمسى عادة شائعة في الشرق والغرب حتى يومنا هذا. ولا يصبح الزواج صحيحاً حتى يتم اتصال الزوجين^[2]. وعندما تدخل الزوجة في فراش زوجها، فإن أجراس كنيسة القرية تدق بشكل صاحب كنوع من طلب العون والمساعدة من القديسين^[3].

لقد كان على العريس أن يقدم لوالدي الفتاة هدايا أو مالاً، ويعطيها «هدية الصباح» ويضمن لها حقاً بائنة في مزرعته. وكان هذا الحق في إنجلترا، هو أن يكون للأرملة استحقاق مدى الحياة في ثلث ما يتركه الرجل من الأرض. وكانت أسرة الزوجة تقدم الهدايا للزوج، وتخصص لها بائنة تتكون من الثياب، والأثاث الثمين، والأواني والأثاث، والأملاك في بعض الأحيان^[4]. أما إذا رغب أي فلاح في الزواج من إحدى النساء الأقنان في ضيعة محدّدة، فيجب عليه أن يقدم للسيد تعويضاً عبارة عن قدر كبير من النحاس، ذلك القدر يجب أن يكون ذا سعة كبيرة؛ بحيث تستطيع العروس أن تجلس فيه دون أن تضطرّ للانحناء^[5].

ويعيش العروسان في جوّ صاحب يتعارض تماماً مع ما نعيشه في أيامنا الحالية من هدوء مقبول في أسرنا، فالحال ضيق وقليل من أبناء الطبقة النبيلة من كان لديه حجرتان أو ثلاث، وعادة ما تكون مكتظة بأفراد أسرته أو ضيوفه، لدرجة أن الملك الانكليزي كان مشهوراً عنه أنه كان يعقد جلسات بلاطه الملكي في غرفة نومه، وزوجته الملكة جالسة على السرير بسبب ضيق المكان، وغالباً ما يتناول الجميع طعامهم في الصالة. وتحت السلالم كان يعيش بعض الأشخاص والحيوانات الضالّة، وعند وقت الغداء يقفون في صفوف كالشحاذين يناضلون

١- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣٠.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٤.

٣- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣١.

٤- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٢.

٥- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١٨٩.

من أجل الحصول على الكفاف الذي تتنافس فيه الكلاب، وكان الأطفال ينامون مع والديهم أو على الأرض في الصالة^[١].

لقد كانت الواجبات المنزلية تقع على عاتق الأم في الأسرة، وعلى الرغم من ذلك فقد سكتت مصادر العصور الوسطى عن ذكر الواجبات التي تقع على عاتق الأم في العصور الوسطى، سوى الإشارة إلى بعض الواجبات بصورة عامة من خلال رعاية الأبناء والبنات وإرضاعهم -على الرغم من انتشار ظاهرة إرسال أو جلب المرضعات إلى البيت لإرضاع الأبناء- والسبب في ذلك حسب اعتقاد الكثير، هو عدم صعوبة إدارة الشؤون المنزلية أو الواجبات الأخرى في العصور الوسطى لسهولة طرق العيش داخل المنزل الواحد^[٢].

ثالثاً: الأطفال

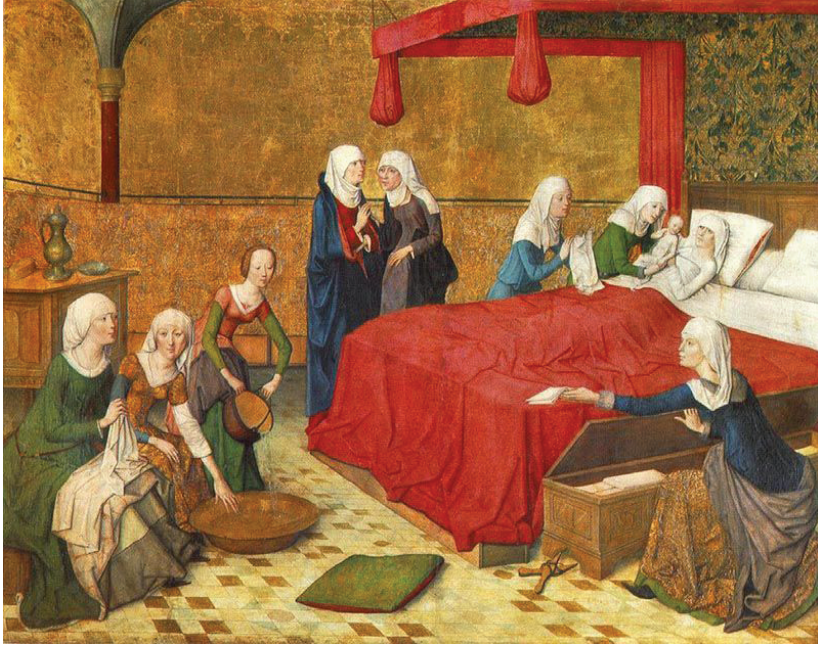
عندما تلد المرأة فإنها كانت تقطّر في فم ابنها بعض قطرات الخمر، وبعدها تحدث عملية التعميد في سن مبكرة جداً من حياة الطفل، وبأسرع ما يمكن؛ خشية أن يؤدي الشيطان ذلك الطفل الصغير، وفق معتقد سكان أوروبا العصور الوسطى، لا سيما أن روحه لا تجيد الدفاع عن نفسها. وفي جرن المعمودية، يقوم القسّ بتغطيس الطفل كلية في الماء ليحميه من الشيطان، ويأخذ هؤلاء الرجال، الذين يعاونون القسّ في تعميده، عهداً على أنفسهم بحماية الطفل لمدة سبع سنوات من الماء، ومن النار، ومن ركلة أيّ فرس، ومن عضّة أيّ كلب. لقد قامت نساء الطبقة النبيلة بإرضاع أطفالهن بأنفسهن؛ ذلك أنه كان هناك اعتقاد بأن لبن المرضعة سيفسد الدماء النبيلة، وفي ذلك نسمع أن أم القديس لويس، وهي بلانش القشتالية، وجدت امرأة في البلاط تعطي أحد أطفال الأسرة الملكية رضاعة، فأمسكت الطفل من قدميه وهزته إلى أن أفرغ كل ما في بطنه من لبن^[٣].

١- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣٠.

٢- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٦٩.

٣- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣٢.

تمثل هذه اللوحة ولادة المرأة من الطبقة الأرستقراطية



لقد كان الأطفال محبوبين، كما هم محبوبون الآن، ولكنهم كانوا يُضربون، وكانوا كثيري العدد بالرغم من كثرة من يموتون منهم في سن الطفولة وسن المراهقة^[١]، لقد كانت الحياة قصيرة وكريهة، فمعظم الأطفال لا يعمرون طويلاً، كما أن كثيراً من الهياكل العظمية التي تم الكشف عنها، تشير إلى أن سوء التغذية كان شائعاً بين الأطفال. وأمام ارتفاع معدل وفيات الأطفال، كان على النساء الزواج بمجرد وصولهن سن البلوغ، أن يلدن من الأطفال على الأقل ثلاثة. كما أن التأثيرات الناجمة عن الزواج المبكر في سن الثانية عشرة، يمكن تخمينها أو الوقوف عليها عند إلقاء نظرة على المياه الملوثة، والطعام الفاسد، والرطوبة الناجمة عن استخدام الحجارة في بناء جدران الغرف، وسوء معالجة الجروح، والأوبئة الناجمة عن التيفود والدوسنتريا، والجذري، والأنفلونزا، والطاعون كلها أمراض فاتكة^[٢].

١- ول. ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٨.

٢- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م. س، ص ٤٣.

وكانت الكنيسة ترى أنَّ حقَّ الحياة للأطفال مقدّس، لذلك كان منع الحمل محرّمًا، ويرى أكويناس أنَّه جريمة لا تزيد عنها شناعة إلاَّ جريمة القتل العمد، بيد أنَّ وسائل مختلفة بعضها آليّة، وبعضها كيميائيّة، وبعضها سحريّة، كانت تستخدم لهذا المنع، وكان أكثر ما يعتمد عليه هو وقف الجماع. وكانت العقاقير المجهضة، أو المؤدّية إلى العقم، أو إلى العجز الجنسي، أو إلى الشبق، تباع مع الباعة المتنقّلين. وكانت العقوبات التي وضعها ربناس مورش Rabanus Maurus للتكفير عن الآثام تقضي على «مَن تخلط مني زوجها بطعامها حتّى تحسن قبول حبّه، بالندم على فعلتها ثلاثة أعوام». ورغم تشجيع الكنيسة والدولة على الزواج، إلّا أنَّ عدد اللقطاء كان كثيرًا، بينما كان وأد الأطفال نادرًا، إذ أنشأت الكنيسة من أموال الصدقات في القرن السادس وما بعده الثامن النساء اللاتي ولدن أطفالًا في السرّ أن يودّعنهم عند باب الكنيسة، وأعلنت أنَّها ستكفلهن، وكان أولئك الأيتام يربّون ليكونوا أرقاء أرض يعملون في أملاك الكنيسة. وقرّر قانون أصدره شارلمان أنَّ الأطفال الذين يعرّضون للجو في الخلاء يصبحون عبيدًا لمن ينقذونهم ويربّونهم. وأنشأ راهب من مونبلييه نحو سنة ١١٩٠م جماعة إخوان الروح القدس التي تخصّصت في حماية اليتامى وتعليمهم^[1].

لقد كانت حياة أطفال أوروبا في العصور الوسطى مثل حياة باقي الأطفال منذ بدء الخليقة، حيث كان يقوم الوالدان بمعاملتهم معاملة لطيفة، وكانت لهم وسائل في التسلية مثل لعبة المطاردة، والاستغماء، والمبارزة، كما كانت لديهم بعض العرائس والدمى، والعساكر الخشبيّة، والطواحين الهوائيّة المصنوعة من الخشب، والدمى الوثابّة، وعندما يكبرون قليلًا، فقد كانت لديهم أقواس صغيرة يصطادون بها الطيور والفئران، كذلك كانوا يقضون بعض الوقت في اللعب مع الحيوانات الأليفة، وكذلك طائر العقعق أو الببغاء، أمّا القطط فكان ينظر لها شذرًا على أنَّها من عشيقه الجنّ^[2].

لقد امتاز أطفال أوروبا؛ لأنَّهم تقدّموا تقدّمًا سريعًا في معارفهم وخبثهم؛ وفي ذلك يقول تومس من أهل سيلانو Celano في القرن الثالث عشر: «لا يكاد الأولاد ينطقون حتّى

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج٥، مج٤، ص١٨٤.

٢- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص١٣٢.

يتعلّموا الخبث، وكلّما تقدّموا في السنّ، زادوا سوءًا على سوء حتّى يصبحوا مسيحيين بالاسم لا أكثر»^[1]. وبسبب الخشية من أن يشب الأطفال مدلّين نظرًا للرعاية الأنثويّة التي يحصلون عليها، فقد كان يتمّ إرسالهم في سنّ الثامنة من عمرهم إلى قلاع أخرى، ربّما تكون قلاع بعض اللوردات، أو قلاع أقاربهم مثل أعمامهم، وهناك يتدربون على ممارسة الحياة الاجتماعيّة والأعراف السائدة في أوروبا العصور الوسطى، كمعرفة تقطيع اللحوم، والانحناء عند تقديم كؤوس النبيذ، والرقص، ولعب الشطرنج، والنرد. وبعدها يبدأ تدريبهم الحربي، فيتدربون على المبارزة بسيوف غير حادّة، وطعن الهياكل الخشبيّة بالرماح، والصيد باستخدام الجوارح، والخروج للصيد على ظهور الخيل ومهاجمة الحيوانات وقتلها^[2]. أمّا سنّ العمل، فقد كان الأولاد يبلغونه وهم في الثانية عشرة من عمرهم. ويبلغون سنّ الرشد القانوني في السادسة عشرة. وكانت مبادئ الأخلاق المسيحيّة تتبّع مع المراهقين سياسة صامته إزاء الأمور الجنسيّة، فقد كان النضج المالي؛ أي القدرة على كفالة الأسرة، يأتي بعد النضج الجنسي؛ أي القدرة على الخلف، وكان الاعتقاد السائد أنّ التربية الجنسيّة قد تزيد آلام العقّة في تلك الفترة من العمر^[3].

وبالمثل كان يتمّ إرسال الفتيات إلى قلعة أخرى تعتبر بمثابة مدرسة لتلقّي آخر دروسهنّ. وهناك يلتحقن بجماعة العذارى الجميلات اللاتي يظهر على شكل الكور في الاحتفالات الخاصّة بالفروسيّة. وتتعلّم البنت كلّ الأعمال الأنثويّة، مثل التطريز والغزل والموسيقا، فإذا كانت تميل إلى تعلّم الشؤون المنزليّة، فإنّها ربّما تتدرب على الطهي والحيّاكة. كما يتمّ إعدادها لكي تكون مسؤولة عن النواحي في البيت، بما فيها بعض نواحي الصحّة العامّة أو إسعاف المرضى واستخدام بعض أنواع العلاج المنزلي^[4].

رابعًا: العنوسة

كانت مشكلة الفتيات العانسات من أكبر المشكلات التي واجهها المجتمع والكنيسة في

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٨.

٢- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م. س، ص ١٣٣.

٣- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٨.

٤- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م. س، ص ١٣٣.

أوروبا خلال العصور الوسطى. وتجدر الإشارة إلى أنَّ مشكلة الفتيات غير المتزوجات من بنات الطبقة العليا، كانت أشدَّ تعقيداً من مشكلة الفتيات غير المتزوجات من الطبقة الدنيا؛ وذلك لأنَّه لم يكن في المجتمع الإقطاعي مكان للعانسات واللائي لم يتزوجن وهنَّ صغيرات، على اعتبار أنَّهن من الطبقة العليا، ولا بدَّ من الزواج المبكر، الأمر الذي دفع الكنيسة إلى تقديم المساعدة بأنَّ أضفت عليهن لقب «عرانس المسيح عليه السلام»، ممَّا هدأ من نفوسهن الساخطة نوعاً ما، وأشعرهن زوراً وبهتاناً أنَّهنَّ أكثر وقاراً من الفتيات المتزوجات، فدير الراهبات كان نظاماً طبقياً يقبل النساء المنتميات إلى طبقة النبلاء والأعيان فقط، إذ إنَّ بعض النساء أقبلن على حياة الرهبنة في الأديرة^[1]، وانخرطن في سلوكها لإشباع الناحية الدينيَّة في نفوسهن، فضلاً عن أنَّ هذه الحياة هيأت لهنَّ قسطاً من الثقافة والعمل المنتج^[2].

لقد أخذت بعض النساء في القرن الرابع عشر ينافسن الرهبان فتركن أنفسهن للفقر والطاعة، إذ أخذت الأديرة النسائيَّة تنتشر حتَّى كان عدد الراهبات في أوروبا لا يقلُّ عن عدد الرهبان، ولا يتوهم أحد أنَّ المسيحيَّة بإسرافها في الرهبانيَّة والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع، قد استطاعت أن تصلح أخلاق الناس وتعلّمهم الفضيلة؛ لأنَّ هذا لم يحدث؛ ذلك أنَّ الكبت العنيف الذي فرضته التعاليم المتزمّنة والمخالفة للفطرة الإنسانيَّة لا يمكن تنفيذه، بل لا بدَّ من أن يؤدِّي في النهاية إلى نتيجة عكسيَّة، والتاريخ خير شاهد على ذلك^[3].

خامساً: الطلاق

كانت الكنيسة تجيز انفصال الزوجين بسبب الخيانة الزوجيَّة، أو الارتداد عن الدين، أو القسوة الشديدة في معاملة الزوج لزوجته، وكان هذا الانفصال يسمَّى *divortium*، ولكنَّ معناه لم يكن إبطال الزواج. أمَّا هذا الإبطال، فلم يكن يمنح إلَّا إذا ثبت أنَّ الزوج قد خالف أحد الموانع الشرعيَّة التي نصَّ عليها قانون الكنيسة. وبعده أن تكون هذه الموانع قد ضوعف عددها عن قصد لكي يستعين على الطلاق مَنْ يستطيعون أداء الرسوم والنفقات الضخمة التي يتطلبها إبطال

١- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٦٤.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، النظم والحضارة، مكتبة النهضة المصريَّة، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٩١.

٣- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٦١.

الزواج، بل إنَّ الكنيسة كانت تستخدم هذه الموانع استخدامًا حكيماً مرناً في الظروف الاستثنائية التي يرجى أن يؤدي الطلاق فيها إلى وجود وارث إلى ملك لم ينجب أبناء، أو يكون من ورائه فائدة أخرى للسلم أو السياسة. وكان القانون الألماني يجيز الطلاق في حالة الزنا، بل كان يجيزه في بعض الأحيان إذا اتفق عليه الطرفان. وكان الملوك يفضلون قانون أسلافهم على قانون الكنيسة الصارم، وكان سادة الإقطاع وسيداته يعودون إلى القوانين القديمة، فطلّق بعضهم بعضاً من غير إذن الكنيسة، ولم تبلغ الكنيسة في سلطاتها واستمساكها بمقتضيات الدِّمة والضمير درجة من القوة تمكّنها من تنفيذ قراراتها إلا بعد أن رفض إنوسنت الثالث أن يوافق على طلب الطلاق الذي تقدّم به إليه فيليب أغسطس ملك فرنسا القوي^[١].

سادساً: الكنيسة وزواج رجال الدين

بما أن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى هو تاريخ الكنيسة في إدارتها لمختلف تفاصيل الحياة، نود التطرّق إلى قضية مهمّة وحساسة خلال هذه الحقبة من الزمن؛ وهي أن الكنيسة التي حثّت رعاياها على الزواج، قد حرّمت على رجال الدين، ولا شك أن هذا تناقض فاضح وواضح قد أثر بصورة سلبية على المرأة والأسرة والمجتمع والكنيسة والديانة المسيحية، فما هي ملاسبات القضية؟ لقد تباينت الآراء حول تطبيق مبدأ العزوبة على رجال الدين، ومدى إمكان تطبيق هذا المبدأ بصورة عمليّة. لقد كان معظم رجال الكنيسة الأوائل متزوّجين بما فيهم القديس بطرس، كما جاء على لسان القديس بولس (الإصحاح السابع ١-٩) نصّ يفهم منه الإذن لرجال الدين بالزواج، إذ يقول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثة: «وأما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها، فحسن للرجل أن لا يمسّ امرأة. ولكنّ لسبب الزنا، ليكن لكل واحد امرأته، وليكن لكل واحد رجلها ... ولكنّ أقول هذا على سبيل الإذن، لا على سبيل الأمر، لأنّي لا أريد أن يكون الناس جميعاً، ولكنّ أقول لغير المتزوّجين وللأرامل أنّه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا...». ومن هذا النصّ يفهم أن بولس لم يمنع زواج رجال، وإن كان قد حبّد أن يظلّ الجميع مثله عازباً؛ لأنّ الزواج ومعاشره المرأة مرتبطان بالخطيئة الكبرى

١- ول. ديوران، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٥.

الأولى التي هوت بآدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض^[١].

ولمّا كانت الكنيسة لم تحرّم على رجال الدين الزواج، وإنّما فضلت لهم العزوبية، فإنّ الكثير من الرجال لم يأخذوا بهذا المبدأ، فصاروا يتزوّجون ويكوّنون عائلات مثل العلمانيين. وأمام هذا الواقع الجديد، خشيت الكنيسة من انصراف رجال الدين لمشاغل الأسرة والأولاد والبيت وأمور المعيشة والحياة، فأصدرت تشريعات تنصّ على عدم زواج رجال الدين، أمّا الذين كانوا قد تزوّجوا قبل رسامتهم قساوسة، فقد سمحت لهم الكنيسة بالاحتفاظ بزوجاتهم، بشرط أن يعاملوهن كأخوات، ولا يعاشروهنّ كزوجات^[٢]. لقد كانت الكنيسة تريد لرجال الدين التفرّغ الكامل للشؤون الدينيّة والروحيّة، وإهمال كامل الشؤون الدنيويّة، كما كانت الكنيسة لا تريد انتقال المناصب الدينيّة إلى أبناء رجال الدين وتصبح وراثيّة، وحتى لا تتحوّل الأوقاف والممتلكات الكنسيّة إلى ممتلكات وراثيّة بين أبناء رجال الدين. ولكنّ على الرغم من كلّ هذا وذلك، فإنّ انهيار إمبراطورية شارلمان بعد توقيع معاهدة فردان سنة ٨٤٣م، وتسلّط العلمانيين على الكنيسة، أدّى إلى التخلّي عن مبدأ العزوبية عند رجال الدين منذ أواخر القرن التاسع الميلادي، إذ أقبل عدد كبير من رجال الدين على الزواج وتكوين أسر وعائلات، مثلهم مثل بقية أفراد المجتمع، وانصرفوا إلى الاهتمام بشؤون أسرهم ورعايتها وأمور البيت والأولاد والمعيشة والحياة، في مقابل إهمال واجباتهم الكهنوتيّة في الكنيسة، لا بل إنهم أخذوا يتصرّفون بالممتلكات الكنسيّة بصورة لا أخلاقيّة^[٣].

لقد بدت قضيّة زواج رجال الدين في القرن الحادي عشر وكأنّها مسألة شائنة ومزعجة وحسّاسة، أكثر ممّا تبدو للكثيرين في عالم اليوم، ذلك أنّ الفلاحين كانوا يفضّلون رجل الدين المتزوّج على الأعزب الشهواني الطليق، الذي يستطيع أن يتجوّل في كلّ القرية بينما هم في عملهم في الحقول. هذا على المستوى الاجتماعي، أمّا على المستوى الديني فكانت المشكلة في إصرار آباء الكنيسة على توريث مناصبهم الدينيّة لأبنائهم، فغدّت المناصب الكنسيّة وكأنّها ممتلكات خاصّة. وعلى الرغم من أنّ أيسلندا كان لها نظامها في توريث

١- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص ١٩٦-١٩٧.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٩٧.

٣- أشرف صالح سيّد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، لبنان ٢٠٠٨م، ص ٥٠.

المناصب الدينية، فإنَّ زوجات القساوسة والمحظيات غالبًا ما تسبَّبن في إثارة مشكلات لا حصر لها، حدًّا وصل معهنَّ إلى قتل أسقف روين Rouen في سنة ١٠٧٢ م؛ لأنَّه ألقى موعظة دينيةً ضدَّهنَّ^[١]. وبعد هذه الحادثة بستين (١٠٧٤ م) عقد البابا غريغوري مجمعا دينيًّا في روما، وأصدر قرارًا يقضي بتحريم زواج رجال الدين تحريمًا تامًّا، وإرغام رجال الدين على طرد زوجاتهم فورًا، وقد قُوبل ذلك القرار بالمعارضة وعدم الرضا في مختلف أنحاء أوروبا الغربية، حيث كان الكثير من رجال الدين والعلمانيين يخشون عاقبة تفشي الزنا بين القساوسة. ومع ذلك لم تهتمَّ البابوية بتلك المعارضة، ولم تكثر بنذير تفشي الزنا بين القساوسة، بل اتخذت خطوة أخرى في مجمع روما (مجمع اللاتيران الثاني) سنة ١١٣٩ م قرَّرت فيها جعل العزوبة أمرًا حتميًّا، حيث لا يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يعاشر امرأة، وأنَّ زواج أيِّ واحد منهم يُعد أمرًا غير شرعي، وستعدَّ ذريته أبناء سفاح^[٢].

وعلى الرغم من أنَّ هذا قرار البابوية بعدم زواج رجال الدين قد ساعد الكنيسة على التخلص من الكثير من أمراضها ومفاسدها المالية^[٣]، إلَّا أنَّ هذا القرار ظلَّ يلقي مقاومة جيلًا بعد جيل، فلم يطبق بصورة مطلقة في الغرب الأوروبي^[٤]، وإنَّ الكثيرين من رجال الدين كبارًا وصغارًا استعاضوا عن الزواج بإقامة علاقات غير مشروعة، وهكذا تكرَّست آفة اجتماعية جديدة تسببت الكنيسة في ميلادها، أضرت ببنية الأسرة في مجتمع أوروبا العصور الوسطى، وصلت إلى ذروتها في القرن الثالث عشر، لدرجة أنَّه كان لدى هنري أسقف مدينة لياج Liege واحد وستون طفلًا، أربعون منهم أنجبهم خلال اثنين وعشرين شهرًا، مسجلًا بذلك رقمًا قياسيًا لحبِّ رجال الدين في النسوة والإنجاب^[٥]. ولم يكن هذا الانهيار الأخلاقي قاصرًا على رجال الدين، فيما أنَّ ميل الرجل للمرأة فطري، وأنَّ الإنسان ينزع بفطرته إلى تعدد الزوجات، ولا شيء يستطيع أن يقنعه بزوجة واحدة إلَّا أقسى العقوبات، ودرجة كافية من الفقر والعمل الشاق، فإنَّه استعاض عن تعدد الزوجات بالخيانة الزوجية

١- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٢٩.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٩٧-١٩٨.

٣- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٢٩.

٤- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٩٨.

٥- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٢٩.

في سبيل إرضاء شهواته، حتّى إنّ ديورانت قال: «ولسنا واثقين من أنّ الزنا كان في العصور الوسطى أقلّ انتشاراً ممّا كان في عصر النهضة»^[1].

لكنّ اللافت للانتباه هو أنّ يهود أوروبا في العصور الوسطى تأثّروا بالأمر والبيئة المحيطة بهم، فجميعنا يعلم أنّ الديانة اليهوديّة تبيح للرجل الزواج بأربع نساء، وأنّ تعدّد الزوجات حائز شرعاً عند اليهود، ولم يرد نصّ في تحريمه، ولكنّ ظهر في العصور الوسطى من يحرمه، إذ ظهر عالم اسمه جرشوم بن يهوذا (٩٦٠-١٠٤٠م) المولود في مدينة فتس (إقليم اللورين في شمال فرنسا)، وقد أفتى هذا العالم بتحريم تعدّد الزوجات عند اليهود، وكان الهدف من هذه الفتوى إزالة الفوارق بين مسيحيي أوروبا ويهودها، ولا سيّما بعد أن حرّمت الكنيسة اليهوديّة هذا الأمر تحريماً قاطعاً، وجعلت تعدّد الزوجات جريمة تجمع بين الكفر والزنا. إلّا أنّ اجتهاد هذا الحاخام اليهودي لم يحظ بالتطبيق القانوني المتّفق عليه في المجالس المليّة ومحاكم الأحوال الشخصية لليهود في أوروبا إلّا منذ سنة ١٢٤٠م، إذ اتّفقت كلمة اليهود وقضاتهم على تحريم ما أحلّه الله لهم، وإنّ كان عدد كبير من عوامهم لم يقبل بهذا الحكم، فاستمرّ تعدّد الزوجات سرّاً وعلناً بين اليهود في أوروبا العصور الوسطى^[2].

والأهمّ من هذا وذلك، أنّ ظاهرة غريبة تفسّشت في مجتمع أوروبا العصور الوسطى، إذ تغاضى الجميع نوعاً ما عن ظاهرة «المثليّة الجنسيّة»، التي كانت متفشّية نسبياً في أوساط بعض رجال الدين. ولكنّ ابتداء من مطلع القرن الثاني عشر عمّت «رياح الإصلاح» هذه الظاهرة بالموازاة مع تبنّي الدلالات الجديدة لمفهوم الطبيعية. فغدا «الشذوذ الجنسي» في أعين الكنيسة خطيئة؛ لأنّه سلوك مناف للطبيعة. والملاحظ أنّ موقف الكنيسة من هذا السلوك، شابه نوع من الغموض والاضطراب في الوقت ذاته. فتراوح بين الصرامة أحياناً، والصمت وغمض الطرف في أحيان أخرى؛ فقد أغفلت الكنيسة ظاهرة السحاق بين النساء، بينما عاقبت فئات من الرجال بعينهم، كما حدث مثلاً في حقّ المدعو جاك دي مولاي Jacques de Molay زعيم طائفة «الرهبان المحاربين باسم معبد سليمان»، الذي اتهم بارتكاب هذه الخطيئة، فصدر في حقّه حكم بالإعدام حرقاً، وبالمقابل غضّت الكنيسة

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، النهضة، ج ٤، ص ٥، ص ٨٩.

٢- محمّد مصطفى عاشور، مركز المرأة في الشريعة اليهوديّة، مكتبة الإيمان، المنصورة د.ت، ص ١٤.

الطرف عن عدد من الرجال المنتمين للطبقة الأرستقراطية الذين كانوا يمارسون الجنس مع أمثالهم^[1].

سابعاً: الكنيسة والمرأة في العصور الوسطى

لم تختلف نظرة الديانة المسيحية للمرأة والأسرة عن غيرها من الديانات السماوية، حتى إنها اعتبرت الزواج سرّاً من أسرارها، ذلك السرّ المقدس الذي يربط بين رجل وامرأة راغبين في الاقتران دون مانع شرعي، فتمنح لهما الكنيسة النعمة الإلهية بصلوات الكاهن، ممّا يعزّز رباط الحياة الزوجية ويقدّسه. ويُعدّ هذا السرّ مقدّساً في تعاليم التوراة، وقد ثبت السيّد المسيح سرّ الزواج تعاليمه^[2]، فعندما سُئل: «أیحلّ للرجل أن يطلق امرأته لأيّ سبب؟ فأجابهم: «أما قرأتم أنّ الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى؟!»، وقال: «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويتبع امرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذ ليس بعد اثنين بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لا يفرقه الإنسان»^[3].

بينما يشبّه القديس بولس اتحاد الرجل بالمرأة باتحاد السيّد المسيح بالكنيسة، ويستنتج من ذلك واجب خضوع النساء لرجالهن، وواجب محبة الرجال لنسائهم، على غرار خضوع الكنيسة للمسيح ومحبة المسيح للكنيسة^[4]، لكنّ بولس كان أوّل من انتحى منحى تهرّبي تقشّفي، ولم يُعر أهمية بالغة لمكانة الأسرة ودور المرأة فيها، ولم يمنح تلك المؤسسة الاجتماعية المزيد من الاهتمام، رغم أنّه لم يستنكر الزواج، ولم يطالب بفصم عراه، ومنذ ذلك الوقت ألغيت السيادة الزوجية، وخفّت بالتدريج السلطة الأبوية حتى ألغيت تماماً^[5]؛ لأنّ الكنيسة رأت أنّ السلطة الأبوية في الأسرة والمجتمع لا خير فيها أمام سلطة الدين، وأنّ السلطة الأبوية ستنتهك في أوّل مواجهة بينها بين الغرائز الشهوانية (البداية) القابعة في نفوس البشر، إلّا إذا كان لها دعامة من العقيدة الدينية تغرس في قلب الطفل. فإذا أريد صلاح

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٩٩.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٧٥.

٣- إنجيل متى (١٩، ٤-٦).

٤- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٧٥.

٥- باسمه كيال، تطوّر المرأة عبر التاريخ، أسباب النهوض والانحطاط، مؤسّسة عبير الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١م، ص ٥٢.

المجتمع ونجاته، فلا بدّ له من دين سماوي له، يقاوم الغرائز البدائية بأوامر ليست من عند البشر، ولا تقبل الجدل مطلقاً، بل هي أوامر من عند الله عز وجل، محدّدة واضحة لا تقبل النزاع^[١].

لقد كان موقف الكنيسة موقفاً متناقضاً من المرأة في العصور الوسطى، فبينما عملت جاهدة على تقوية روابط الأسرة، إذ جعلت الزواج أمراً مقدساً، وسراً من أسرارها، كذلك جعلت روابط الزواج غير قابلة للحلّ أو الانفصام، ومنعت الطلاق، إلّا في حالات استثنائية؛ كالعقم والزنى ومحاولة القتل وما شابه ذلك، وبالتالي كانت الكنيسة تهدف إلى تمثين مؤسّسة الأسرة، ورفع مكانة المرأة (الزوجة)، وتأمين موقعها من خلال ربطها برمزية مريم العذراء^[٢]. والحقيقة أنّ ظاهرة تقديس مريم العذراء، بوصفها «أمّاً لإله»، نشأت وتطوّرت منذ وقت مبكّر في أوساط معتنقي المسيحية الإغريقية الأرثوذكسية، ثم أخذت تتسرّب شيئاً فشيئاً إلى الغرب المسيحي. وقد ظلّ مسيحيو الغرب الأوروبي طيلة العصور الوسطى يكتّون التقدير لمريم العذراء ويؤثّونها مكانة راقية تكاد تضاهي مكانة ابنها «الإله»^[٣].

كما تجدر الإشارة إلى أنّ مسيحيي أوروبا العصور الوسطى نظروا بعين الاجلال والاحترام للملكة العربية بلقيس ملكة سبأ في اليمن، فمنذ القرن السابع فسّر إبيزیدو من إشبيلية وتبعه معاصره الراهب بيد في إنجلترا مكرراً قوله حرفياً، مفسراً الملكة بلقيس بوصفها تمثيلاً أليجورياً للكنيسة نفسها «التي يجتمع الناس فيها من أقصى الأرض ليسمعوا كلمة الله»؛ ومعنى هذا أنّ المرأة تطوّرت لتصبح نموذجاً للمجتمع المسيحي، أكثر من كونها نموذجاً للمتحوّلين من شعوب الأغراب إلى الديانة المسيحية، فقد جاءت ملكة سبأ إلى سليمان على نحو ما جاءت الكنيسة إلى السيّد المسيح، ونجد مثل هذا النوع من تفسير الرموز في أوروبا العصور الوسطى متمثلاً في تمثال سليمان وملكة سبأ الذي يقع في بيت المعمودية في بارما، وفي كاتدرائية شارتر في مدينة أمين في فرنسا، وفي كنيسة التويج في

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٥.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٢٠١.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٦٨.

ريم. كما تمّ إقحام المرأة في شخصيّة الملكة بلقيس في أسطورة «العبور الحقيقي»^[1]، وعلى الرغم من أنّ تلك الأسطورة بدأ يروج لها في الفلكلور البيزنطي، إلّا أنّ الأسقف جاكويس وأفريني أشاعها في الغرب الأوروبي منذ القرن الثالث عشر، فانتشرت فيه بوصفها حكاية من حكايات قصص القديسين^[2]. لكنّ في المقابل كانت الكنيسة تنظر إلى المرأة نظرة اشمئزاز؛ إذ اعتبرتها شريكة آدم عليه السلام التي حرّضته على المعصية والخطيئة الأولى^[3]، وكانت سبب خروجه من الجنّة، وهي بذلك لا تستحقّ إلّا الاحتقار والامتهان، وهكذا تلخّصت النظرة الثانية بأنّ جعلت الكنيسة تطالب رجالها بعدم الزواج؛ على أساس أنّ المرأة عامل من عوامل الغواية^[4].

لم يكن هذا التناقض الوحيد في نظرة الكنيسة للمرأة؛ فرغم الاعتقاد السائد في العصور الوسطى أنّ المرأة تخضع للرجل بحكم ضعفها الجسمي والعقلي، إلّا أنّ القانون الكنسي نادى بوجوب حمايتها، لكنّ يجب عليها أن تخضع للرجل، وكما أنّ الله مبدأ كلّ شيء ومنتهاها، فإنّ الرجل مبدأ المرأة ومنتهاها، ومن هنا كان خضوع المرأة للرجل يرجع إلى قوانين الطبيعة. ومما ساد من أفكار في أوروبا العصور الوسطى حول واقع المرأة في المجتمع؛ «أنّ الله خلق الرجل في صورته»، لا في صورة المرأة. وأنّ خضوع المرأة للرجل أصبح واجباً عليها، بل يجب عليها أن تكون خادمة له، ورغم هذا كلّها فإنّ الكنيسة كانت تمنع الزواج بأكثر من واحدة، ودافعت عن حقوق المرأة في وراثة الممتلكات^[5].

في الواقع إنّ نظرة العصور الوسطى في المرأة جاءت وليدة لقوتين الأولى الكنيسة والثانية الطبقة الأرستقراطية، الأمر الذي كان له نتائج عكسيّة على حياة المرأة، وأسهم في تضارب الآراء عن دورها في المجتمع، حتّى إنّ النساء وجدن أنفسهن يتأرجحن بين هاتين

١- أسطورة من موروث العهد القديم تتعلّق بوفاة سيّدنا آدم عليه السلام، وإنّ الملاك ميخائيل قد أعطى ابنه سيث غصن شجرة مباركة، غرسها الابن على قبر أبيه.

٢- رانيل، الماضي المشترك بين العرب والغرب، أصول الآداب الشعبيّة الغربيّة، ترجمة: نبيل إبراهيم، مراجعة فاطمة موسى، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٤١، يناير ١٩٩٩م، ص ٥٠.

٣- كانت عقيدة الخطيئة الأولى في اللاهوت المسيحي هي التي مثّلت بها النظريّة القائلة إنّ الغرائز البدائيّة تجعل الإنسان غير صالح للحضارة، انظر: ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، م.س، ص ١٧٥.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٨٩.

٥- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

القوّتين^[1]، ولم يكن موقف الكنيسة بأيّ حال أفضل من موقف الطبقة الأرستقراطية، إذ استمرّ عدد من آباء الكنيسة ولا سيّما أولئك المتأثرين بالتعاليم التوراتيّة؛ بالحديث أنّ المرأة ما هي إلّا حوّاء التي تسبّبت بإخراج سيّدنا آدم عليه السلام من الجنّة وهبوطه إلى الأرض^[2]. وهكذا كانت نظرة رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة باعتبارها أصل الخطيئة الأولى، ونظر رجال الدين إليها أنّها شرّ، وإغواء، وكارثة، وخطر، وفتنة. وإذا كانت المرأة هي حوّاء التي خسر بسببها الجنس البشري الجنّة، فلا بدّ أنّها أداة الشيطان التي تقود الرجال إلى الجحيم^[3]؛ إذ أكد تونوليان: (وهو من كبار القساوسة): «إنّها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وإنّها دافعة إلى الشجرة الممنوعة، ناقضة لقانون الله»، ووصل بهم الافتراء على حقّ المرأة بأنّ انعقدت بعض مجاميع لتنظر في حقيقة المرأة وروحها؛ هل هي بشر أم لا؟ كما أنّ نظرة الكنيسة الكاثوليكيّة نحو المرأة جاءت على النحو الآتي: «خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوروبيّة محدودة جدًّا تبعًا لاتجاه المذهب الكاثوليكي الذي كان عدّ المرأة مخلوقًا من المرتبة الثانية». وفي فرنسا عقد اجتماع سنة ٥٨٦م بحث شأن المرأة فيما إذا كانت تُعدّ إنسانًا أم لا؟ وبعد نقاش قرّر المجتمعون: «أنّ المرأة إنسان، ولكنّها مخلوقة لخدمة الرجل»^[4]. وهكذا أصبحت المرأة في أوروبا العصور الوسطى -في نظر الغالبية العظمى- في منزلة أقلّ من منزلة رفيق الأرض، ومن هنا نادى البعض بوجوب حبّ الأبناء لأبائهم أكثر من حبّهم لأُمّاتهم^[5].

والأكثر من ذلك كلّ أنّ آباء الكنيسة القدماء استكثروا أنّ تكون للمرأة روح علويّة فبحثوا في ذلك، وأكّدوا أنّها جزء من الحيوانات التي لا روح لها بعد فناء جسدها، وجاء ذلك عندما أكّدوا في عبارتهم الشهيرة: «إنّ المرأة بوّابة الشيطان وطريق الشرّ ولدغة الأفعى»، تلك النظريّة جعلت الكنيسة تطالب من رجالها بعدم الزواج من المرأة وفق أساس أنّها عامل من عوامل الغواية^[6]. لا بل إنّ الكنيسة رأت أنّ الجنس البشري كلّ على بكرة أبيه قد لوّثته خطيئة

١- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٥٣.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة، م.س، ص ٢٠١.

٣- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٨٩.

٤- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٦٠.

٥- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٨٩.

٦- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٦١.

آدم عليه السلام وحواء، إذ يقول جراتيان Gratian في كتابه الموسوم بـ(القرار) Decretum (نحو سنة ١١٥٠) الذي اتخذته الكنيسة بصفة غير رسمية جزءاً من تعاليمها: «إنَّ كلَّ آدمي ولد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثاً بالخطيئة الأولى؛ معرضاً للعقوب والموت، ولهذا فهو طفل مغضوب عليه، لا ينجيه من الخبث واللعنة إلاَّ رحمة الله وموت المسيح الذي كَفَّرَ عن آثامه، ولا ينقذ الإنسان من العنف، والشهوة، والشره، وينجيه هو والمجتمع الذي يعيش فيه من الهلاك إلاَّ المثل الذي ضربه المسيح الشهيد في الوداعة ودماثة الخلق». وبعثت الدعوة إلى هذه العقيدة، مضافة إلى الكوارث الطبيعية التي لم تستطع العقول فهمها إلاَّ على أنَّها عقاب عن الخطايا، بعثت هذه الدعوة في الكثيرين من أبناء أوروبا العصور الوسطى شعوراً بأنَّهم مفطورون على الدنس، والانحطاط، والإجرام، وهو الشعور الذي غلب على كثير من أدبهم قبل سنة ١٢٠٠ م^[1].

كما غالت بعض قوانين الكنيسة في إخضاع المرأة، إذ لم يسمح لها بأن تتمتع بأيِّ حقٍّ من حقوقها أمام زوجها^[2]، فالمرأة ليست إلاَّ للإنجاب بالدرجة الأولى، إذ حبذت الكنيسة كثرة النسل وباركتها، وحرمت على النساء الإجهاض حتَّى لو كان في ذلك حساب صحتها. كما أساءت الكنيسة إلى روابط الأسرة عندما شجعت على ترك الحياة الزوجية واللجوء إلى العفة وحياة الرهبنة^[3]، لا بل إنَّ قوانين الكنيسة أباحت للزوج ضرب زوجته وإيذاءها إذا خالفته، وكلَّ ما فعلته الكنيسة إزاء هذا الوضع هو تحديد حجم العصا التي يسمح للزوج أن يستخدمها في ضرب زوجته^[4]. وعلى الرغم من الموقف الذي أظهرته الكنيسة تجاه المرأة، إلاَّ أنَّها استمرت في مباركة الزواج منها، ولا سيَّما بعد أن مضى بعض الوقت وأدرك آباء الكنيسة أنَّ لا بقاء لأيِّ مجتمع يعيش على هذه المبادئ العقيمة، أمَّا العوام فقد أهملوا الرأي أو النظرية التي نادى بأنَّ المرأة إنسان ناقص بالضرورة، وشريرة في طبيعتها، إذ لم يأخذ أحد منهم بهذا الرأي على محمل الجدِّ، سوى أولئك الذين جهروا بعداوتهم للمرأة. لقد كان خضوع المرأة هو الذي حاز على رضا الناس واهتمامهم، فضلاً عن طاعتهم العمياء للزوج،

١- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٥.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٩٠.

٣- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٢٠١.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٩٠.

والتي كانت أساساً لفكرة معظم الكتابات الموجهة للنساء في العصور الوسطى، وخلاصة ذلك أنَّ خضوع المرأة وطاعتها العمياء شكّل جانباً من جوانب حياتها السلبية في أوروبا العصور الوسطى^[١].

لقد شهدت الديانة المسيحية تحولاً جذرياً بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر إثر الصحوحة الكبرى التي كرّست ظاهرة تقديس مريم العذراء، ولكن حدث ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر أن أخذت ظاهرة تقديس مريم العذراء تحتلّ موقعاً متميّزاً بين معتقدات مسيحيي الغرب وضمن طقوسهم وشعائهم. واستتبع ذلك أن أضحي هذا التقديس موضوع إصلاحات قامت بها البابوية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وقد ارتبط هذا التقديس بتطور التفاني في حبّ المسيح وتنامي العبادة القربانية. وبما أن العذراء عنصر مهمّ في مسألة التجسّد، وتضطلع بدور مهمّ في العلاقة بين الناس والمسيح، فقد غدت بمثابة محام فوّض الناس له وحده حقّ تمثيلهم أمام ابنها الإلهي. وفي الوقت الذي اختصّ فيه معظم القديسين والقديسات في معالجة المصابين بالأمراض والعلل، فإنّ العذراء أضحت «مختصة» في الكرامات التي تفيد جميع الناس. فهي وحدها المؤهلة لحلّ مشكلات الرجال والنساء. ومن ثمّ غدا لها دور مركزيّ في خلاص الناس من الخطيئة، بمنّ فيهم المجرمون والمذنبون، الذين تلمس لهم الثواب والمغفرة من لدن المسيح. واعتقد الناس بأنّ العذراء ارتقت في ظلّ هذا الوضع، إلى مرتبة رفيعة، فغدت بمثابة الشخصية الرابعة في الثالوث المقدس (الأب، الابن، الروح القدس). وتجسّدت هذه المرتبة في كون مسيحيي غرب أوروبا كانوا يخصّونها بثلاثة أعياد ذات قيمة كبرى في الديانة المسيحية هي: عيد التطهير، وعيد البشارة، وعيد الصعود (أو الارتقاء). ومهما يكن من أمر، لقد شكّل موضوع تقديس مريم العذراء جدلاً واسعاً في أوساط رجال الدين وبين عموم المسيحيين فترة طويلة من الزمن، تمحورت حول علاقة مريم العذراء بالخطيئة، وتمتّ صياغته على النحو الآتي: بما أنّ مريم أنثى حملت ووضعت مولوداً، ألا يمكن أن تكون قد وقعت في الخطيئة الكبرى؟ ولم تنتصر الفكرة التي مفادها أنّ مريم كانت عذراء عندما وضعت مولوداً إلاّ منذ مطلع

القرن التاسع عشر^[1].

ثامناً: المرأة والعفة في أوروبا خلال العصور الوسطى

لمّا كانت الوثنيّة في أوروبا قد أجازت الدعارة على أنّها وسيلة لتخفيف مشقّة وحدة الزواج، فجاءت الكنيسة لتشنّ عليها حملة شعواء لا هوادة فيها، وطالبت الزوج وزوجته أن يلتزما العفة وألاً يقربا الزنا^[2]. وسهرت الكنيسة على التصديّ بصرامة للخيانة الزوجيّة، ولمختلف أشكال الزنا بشكل عام^[3]، إذ كانت الكنيسة تطالب رعاياها بالعفة قبل الزواج، لتساعد بذلك على الاحتفاظ بالوفاء بعده، وعلى النظام الاجتماعي والصحة العامّة. وإن لم تمنع تلك الإجراءات الزجرية من تفشي تلك الظاهرة؛ فالشباب في العصور الوسطى كان في أكبر الظنّ قد ذاق أنواعاً من الصلات الجنسيّة قبيل بلوغه السادسة عشرة من عمره، كما عاد اللواط إلى الظهور في أثناء الحروب الصليبيّة، وفي إثر عزلة الرهبان والراهبات. وفي كتب التوبة الدينيّة التي تصف وسائل التكفير عن الذنوب ذكرٌ لضروب الفحش، من بينها العلاقات الجنسيّة مع البهائم، إذ كانت طائفة كثيرة التنوّع من البهائم موضع صلات جنسيّة بالآدميين. وكانت الصلات الجنسيّة من هذا النوع إذا كشفت؛ عاقبت الكنيسة الطرفان المشتركين فيها بالإعدام، وفي سجلّات البرلمان الإنكليزي ذكرٌ لطائفة من الكلاب، والماعز، والبقر، والخنازير، والإوز، قد أحرقت حيّة؛ هي ومن ارتكب معها الفحشاء من الآدميين. كذلك كثرت مضاجعة المحارم في تلك الأيام^[4]. وعلى الرغم من أنّ الكنيسة لم تنجح النجاح كلّ في القضاء على البغاء، رغم أنّها غالت في طلب العفة، فجعلت الزواج أقلّ مرتبة من العزوبيّة، ورفعت البكوريّة إلى مقام المثل العليا، إلّا أنّها حافظت نوعاً ما على المستوى الأخلاقي داخل الأسرة، وإن كان بصورة نسبيّة^[5].

إذ يبدو أنّ العلاقات الجنسيّة قبل الزواج، وفي خارج نطاق الزواج، كانت منتشرة انتشارها في أيّ وقت بين أقدم الأزمنة والقرن الثاني عشر، إذ كانت غريزة الإنسان الشهوانيّة في أوروبا

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٦٨.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة، م.س، ص ٢٠٢.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٦٦.

٤- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٨.

٥- نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة، م.س، ص ٢٠٢.

العصور الوسطى تتخطى الحدود التي رسمتها الشرائع الزمنية والكنسية^[1]، حدًا ضاهت فيه ما كانت عليه في المسرح الروماني من فساد خلقي طليق، أو كما كانت في بعض الهياكل الوثنية اليونانية والرومانية من بغاء شنيع، أو كما كان عليه الأمر من انتشار واسع لردائل الشذوذ الجنسي في بلاد اليونان والرومان في العصور الكلاسيكية، أو كما كان عليه الأمر من إفراط في الشهوانية الذي كان شائعًا بين الحكّام والطبقات الثرية في المجتمع الأوروبي^[2]. حتّى إنّ بعض النساء كن يعتقدن أنّ ورعهن في آخر الأسبوع يكفّر عن مرحهن وبطنتهن. وكان الاغتصاب شائعًا رغم ما يتعرّض له المغتصب من أشدّ ضروب العقاب، لا بل إنّ بعض رجال الطبقة النبلاء كانوا يفسقون في الكنائس بل «على المذبح» نفسه؛ حدًا وصل مع ملكتين استمتعتا بهجتهنّ الآثمة وبلدتهن داخل الكنيسة في أثناء الصلاة المقدّسة في يوم خميس الصعود أثناء الصيام^[3].

ولم تكن الطبقة الأرستقراطية بأفضل خلقًا من غيرها في أوروبا العصور الوسطى؛ إذ فرض السيّد الإقطاعي ضريبة كبيرة على النساء غير الأحرار؛ لممارستهنّ الفجور والفسق في ضيعته، حيث كان يعتبر هذه الفاجرة ملكًا له، وبالتالي كلّ من يمارس الفسق معها عليه أن يدفع له مبلغًا من المال نظير ذلك. ولنا هنا أن نتصوّر مدى الانحطاط الأخلاقي والديني الذي وصلت إليه أوروبا في العصور الوسطى، ومنها: أنّ الضريبة فرضت فقط على النساء غير الأحرار بسبب الملكية، يعني ذلك: أنّ النساء الأحرار لا علاقة للسيّد بهنّ يفعلن ما يرغبن به. ثانيًا كانت العقوبة التي فرضت هي دفع المال من أجل المال، وليس البعد عن تلك الفاحشة، لذلك من الطبيعي أن تتمّ ممارسة ذلك مع من لديه مال، ومن الممكن أن السيّد كان يقصد الحصول على المال من وراء تلك الفريضة^[4].

لقد تماشى العهر في ذلك الوقت مع مطالب العصر، فقد كان بعض النساء المذاهبات إلى الحجّ يكسبن نفقة الطريق ببيع أجسادهن في المدن القائمة في طريقهم. وكان كلّ جيش يتعقبه آخر من العاهرات لا يقلّ خطرًا عن جيش أعدائه، حتّى إنّ الصليبيين كان بين

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٩.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م. س، ص ٢٠٢.

٣- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٩.

٤- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م. س، ص ١٨٩.

صفوفهم جمع حاشد من النساء في ثياب الرجال، يسافرون معهم دون أن يميّزون عنهم، ويغتنمن الفرصة التي تتاح لهم مع الرجال. حتى إن الأمر وصل في حصار عكا أن حضرت ثلاثمائة من الفتيات الفرنسيات الحسان ليروحن عن الجنود الفرنسيين... لأن هؤلاء أبوا أن يخرجوا للقتال إذا حرموا لذّة النساء. بينما أقام الأشراف الذين كانوا مع القديس لويس في حربه الصليبيّة مواخيرهم حول خيمة الملك. وكان طلبة الجامعات، وبخاصّة في باريس، ممّن استبدّت بهم الحاجة إلى هذا الترفيه أو رغبوا في محاكاة غيرهم فيه، ولهذا أنشأت الفتيات مراكز لسدّ هذه الحاجة^[١].

لقد أباحَت بعض المدن أمثال تولوز (طلوشة)، وأفينون، ومونبلييه، ونورمبرج الدعارة قانوناً، حتّى إنّها وضعتها تحت إشراف البلديات بحجّة أنّه بغير هذا الدنس لا تستطيع النساء الصالحات أن يخرجن إلى الشوارع وهنّ آمناات على أنفسهن. وكتب القديس أوغسطين يقول: «إذا منعت العاهرات والمواخير، اضطربت الدنيا من شدّة الشبق»، ووافقه على ذلك القديس تومس أكويناس. وكان في لندن في القرن الثاني عشر صف من «المواخير» بالقرب من جسر لندن، وقد أجاز أسقف ونشستر في بادئ الأمر قيامها، ثم صدّق البرلمان على قيامها فيما بعد. وقد حرّم القانون الذي أصدره البرلمان سنة ١١٦١م على صاحبات بيوت الدعارة أن يأوين فيها نساء قابلات للاحتراف، وهذا أول ما عرف من التشريع ضدّ انتشار الأمراض السارية. وقرّر لويس التاسع في سنة ١٢٥٤م نفي جميع العاهرات من فرنسا، ونفّذ هذا القرار فعلاً، ولكنّ الدعارة السريّة لم تلبث أن حلّت محلّ التجارة العلنيّة، حتّى إنّ أهل الطبقات الوسطى فشلوا في حماية الفضيلة لدى زوجاتهم ونسائهم من إلحاح الجنود والطلاب. وعن انتقاد هذا القرار في آخر الأمر حتّى ألغي بعد سنتين فقط في سنة ١٢٥٦م. وحدّد المرسوم الجديد الأماكن التي تستطيع فيها العاهرات أن يسكنن ويمارسن مهنتهن في باريس، وحدّد أيضاً ملابسهنّ وزينتهنّ، وأخضعهن لرقابة رئيس من رؤساء الشرطة يسمّى ملك القوادين أو المتسولين أو الأقاقين. ونصح لويس التاسع وهو يحضر ولده أن يعيد المرسوم الذي قضى بنفي العاهرات، ونفّذ فليب وصيّته، وكانت النتيجة هي النتيجة السابقة نفسها، وبقي القانون مدوّناً في سجل الشرائع الفرنسيّة ولكنّه لم ينفّذ. وكان في روما، كما يقول الأسقف دوران الثاني المندى في سنة ١٣١١م، مواخير بالقرب من الفاتيكان، وقد

أجاز رجال البابا إقامتها نظير ما يتقاضون من الأجور، وكانت الكنيسة تظهر العطف على العاهرات، وأقامت ملاجئ للتائبات من النساء ووزعت على الفقيرات الصدقات التي كانت تتلقاها من العاشقات التائبات^[١].

تاسعاً: المرأة والفروسيّة في العصور الوسطى

بحلول منتصف القرن الثالث عشر أصبح الفرسان الأساس الذي قام عليه نظام الفروسيّة، أي أنه كان الأساس لأخلاقيات سلوك الفروسيّة، وقد تضمّنت هذه الأخلاقيات التزامات نحو النظام الاجتماعي الذي يدعمها، ونعني بذلك الأرستقراطية الملكية والكنسيّة، كما تضمّنت أن يكون منبث الفرسان اختباراً للنبيل، ومن ثمّ فقد كرّست فكرة أن وضاعة الميلاد تعني وضاعة البواعث والأفعال. وقد ترتّب على هذين البندين التحيز ضدّ كلّ من يتزوّج من طبقة دون طبقته، وبالتالي على الفارس أن يكون محارباً صليبيّاً، وأن يكون عاشقاً يحيا لأجل الحبّ الرقيق، وهذا الموضوع سنتوقّف عنده قليلاً بما يخدم بحثنا^[٢].

لقد انبثقت عن العلاقة بين الذكور والإناث في بلاط العصور الوسطى أشكال جديدة من الحبّ، إلّا أنّها كانت خارج نطاق مؤسّسة الأسرة، وعوّضت المرأة عن قسوة الزواج، وعن حاجتها للحب والحنان الشرعيين، كما عبّرت عن وجودها؛ وإن كان بصورة مبتذلة وزائفة، فالعاشق وهو بالتحديد لم يكن زوجها، يخاطبها بنفس عبارات التقديس والتبجيل التي يخاطب بها القديسين، كما كان يأمل -بالطبع- في علاقة أفضل معها^[٣]. وقد عرف هذا الحب بأسماء مختلفة، منها حب اللباقة (l'amour courtois) أو الحب الرقيق (fin'amor)، وكان الهدف من هذه الأسماء توصيف حالة العشق والتعبير عن الشعور بالهيام والوله الشديدين من قبل الرجل تجاه المرأة من وسط أرستقراطي، حتّى إنّ العاشق الولهان كان يتذلّل للمرأة ويبيدي خضوعاً تامّاً لها، كخضوعه بين يدي سيّده السنيور. وتجدر الإشارة إلى أنّ الباحثين اختلفوا حول نشأة هذا النوع من الحبّ وحول مغزاه الحقيقي رغم إجماعهم بأنّ تروبادور (les troubadours) منطقة أوكسيتانيا (l'Occitanie) بجنوب غالة (فرنسا)، كانوا أوّل من

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨١.

٢- رانيل، الماضي المشترك بين العرب والغرب، م.س، ص ٢٠١-٢٠٢.

٣- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣٥.

أشاعه، وقد كانت مدينة بواتييه هي موطن ومدرسة ذلك الحب، بما يفيد تأثرهم بنوع مماثل لهذا الحبّ شاع بين العرب^[1].

لكنّ هذا افتراء خطير بحقّ العرب، فالعرب عرفوا الحبّ العذري، أمّا هذا الحب الذي عرفته أوروبا العصور الوسطى، فإنّه شكل من أشكال الدعارة المبطّنة، لقد كان هدف الحب العذري عند العرب هو الزواج وتأسيس أسرة كريمة، ويمكن أن نقدّم كمثال على ذلك قيس وليلى، عنترة وعبلة، جميل وبثينة، أمّا الحب الرقيق الذي عرفته أوروبا العصور الوسطى، فقد نشأ وتطوّر خارج مؤسّسة الزواج، ويمكن أن نقدّم كمثال على ذلك الفارس الإفرنجي تريستان Tristan وعلاقته بالشقراء الإيرلندية إيزوت Iseut، زوجة ملك كورنواوي Cornouailles، ومثل هذا الحب كان يتنافى تمامًا مع مبادئ الحبّ والزواج التي كانت الكنيسة تروم إلى ترسيخها^[2]، بل كان سببًا في انتشار الفسق بين بعض الشبّان من أبناء الطبقة الأرستقراطية، إذ كان الفرسان يخدمون النساء أو الفتيات الثريّات بنات الطبقة الأرستقراطية، نظير قبلة أو لمسة من أيديهن، كما كانوا يسألون أنفسهم بخادماهم وبخادمات هؤلاء السيّدات والفتيات الأرستقراطيّات، ومن أولئك السيّدات من لم يكن يستطعن النوم مرتاحات الضمائر إلّا إذا هيأت بأنفسهن هذه التسلية^[3]. لقد كان الفارس النبيل في أوروبا العصور الوسطى ينظر إلى خدمه من النساء على أنّهن ملك له، يفعل معهنّ ما يطيّب له، وغالبًا وبلا شكّ فإنّ ما يرغب فيه كان نفس ما ترغب الواحد منهنّ فيه، ولكنّ إذا حدث ودافعت إحداهنّ عن شرفها؛ لأنّه اغتصبها؛ فلم يكن بوسعها أو وسع أسرتها أن تصلح شيئًا ممّا أفسده سيّدها^[4].

ويصف وليم المالمزبري (Wiliam of Malsbury) أشراف الطبقة الأرستقراطية من النورمان بأنّهم منهمكون في البطنة والدعارة، وأنّهم يتبادلون العاشقات بعضهم مع بعض خشية أن يضعف الوفاء حدّة الشهوة. وكان الأطفال غير الشرعيين منتشرين في جميع أنحاء العالم المسيحي، وكانت سيرتهم موضوعاً لآلاف القصص، وكان أولاد الزنا أبطال عدد من

١ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٦٧.

٢ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٦٧.

٣ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٧٩.

٤ - موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٤٠.

هذه القصص، فمنهم كوشولان Cuchulain، وآرثر Arthur، وجاوين Gawain ورولان Roland، ووليم الفاتح، وكثيرون من الفرسان المذكورين في تواريخ فرواسار Froissart^[1]. وإننا لا نشك أن هذه المخازي كانت سمة لأوروبا الغربية كلها، وإنما ذكر هو جانب من مثالب الطبقة الأرستقراطية من خلال صلاتها مع المرأة، فقد كان النبيل في أوروبا العصور الوسطى عبارة عن مجموعة من المتناقضات؛ فهو محب رومانسي، وفي الوقت نفسه إنسان خليع، وفارس مغوار متعطش للدماء، وشهواني، ومسيحي مخلص، وفي الوقت نفسه هازئ بكل القيم الروحية^[2]. وما كان الحب عنده إلا وسيلة لاستعباد المرأة بوساطة الكلمات والتسلي بها، واللعب بمشاعرها بلعبة ظلّ يتحكم فيها؛ لأنّ الحب الرقيق لم يقدم للنساء الأوروبيات المنتميات للطبقة الأرستقراطية سوى علاقة وهمية وفضائح جنسية وأبناء غير شرعيين وأسر مفككة وأخلاق منحلة^[3].

وكان من الطبيعي أن يكشف علماء النفس المحدثون ما لم تراه عيون المؤرخين، فمن المفترض أن المحبّ فيه نزعة أنثوية صريحة منذ طفولته تدفعه إلى اختلاس النظر إلى المرأة، هذه النزعة تزداد معه بتقدم سنوات العمر، وتظهر حسبما يقول أحد علماء النفس لدرجة أن ملامح المرأة المثالية تكون في صورة الأم، بينما يكون هو كطفل صغير ناشئ، يحتاج إلى الحب والحنان والرفقة والعطف، وبحيث تكون علاقة المحبّ بمحبوبته بدرجة علاقته بأمّه نفسها وهو في سنّ الطفولة، مع نوع من التخيلات الجامحة^[4].

عاشراً: حقوق المرأة في العصور الوسطى

لقد كان مركز المرأة في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ثانوياً بحثاً في ظلّ النظام الإقطاعي؛ وذلك بسبب أن هذا النظام قام في المرتبة الأولى على الحروب والقتال، وهذا من اختصاص الرجال، لذلك كان دوراً ثانوياً^[5]، بما في ذلك زوجة النبيل، إذ كان مسموحاً له بأن يضربها ما دام ذلك في صالحها، كما كان لهذا النبيل أن يتخذ لنفسه بعض

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، ص ٤، ص ١٨٠.

٢- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٤٠.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٦٧.

٤- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣٥.

٥- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٦١.

المحظيات، وأن يأتي بأطفال غير شرعيين إلى القلعة لتعليمهم، ووفقاً للعرف السائد كانت الزوجة النبيلة مضطرة لأن تقوم بتوزيع بعض الهدايا على رفاقها وغيرهن ممن هن دونها مستوى^[1]. وتوضح لنا أناشيد المآثر أن أزواج عهد الإقطاع كانوا يضربون زوجاتهم بوحشية دون أن يخالجهن أي إحساس بتأنيب الضمير^[2]. ولما قضت قوانين بوفيه في القرن الثالث عشر ألا يضرب الرجل زوجته إلا لسبب، كان ذلك خطوة كبرى إلى الأمام^[3].

إن هذا الواقع المزري لحقوق المرأة في العصور الوسطى يشرحه النظام الإقطاعي المسيطر على معظم المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، إذ يبدو أن المصالح العائلية أو المالية هي التي حكمت دائماً في اختيار الزوجة، إذ كان يراعى فيها بقدر الإمكان أن تكون وريثة إقطاعية أو على الأقل وريثة جزء كبير من الأرض^[4]. وقد أدرك مؤرخو العصور الوسطى تلك المساوئ من خلال الزيجات الإقطاعية؛ وهي زيجات تكافؤ بعيداً عن الحب العذري، وهذه العقيدة هي أنه مهما كان من الاحترام والود بين الزوجين، فعاطفة الحب لا يمكن أن توجد بينهما؛ لأنها في جوهرها عاطفة تنشدها القلوب الطليقة من كل قيد، وتناولها بحرية تامة، وكان يندر أن تعبر المرأة عن وجهة نظرها في زواجها في مجتمع إقطاعي رجعي متخلف لا يقيم وزناً لرأي المرأة أصلاً^[5]. وبعد الزواج يصبح مطلوباً منها أن تضع مولوداً ذكراً، فإن أخفقت في هذه المهمة، كان من السهل على زوجها غالباً أن يغري الأسقف بفسخ الزواج^[6].

لقد كان المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى أبوياً في الأساس، وهذا يعني أنه يتميز بتبعية شاملة من حيث إقصاء نسبي للنساء من الثروة والمكانة والسلطة. وعلى هذا الأساس، فإن النساء تمتعن بنفوذ وقوة أقل مما كان يتمتع بهما الرجل، لذلك فإن مركزهن الاجتماعي تميز بالتدني مقارنة بالرجل من الطبقة ذاتها، من خلال الإرث، والملكية الخاصة، والفرص

١- موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣١.

٢- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٢١٤.

٣- ول. ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٨.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٨٩.

٥- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٦٧.

٦- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٨٩.

الاقتصادية، وبلوغ درجات التعليم، فضلاً عن الحقوق القانونية والسلطة السياسية الرسمية، إذ إنّ النساء الفلاحات نظراً إليهنّ بحالات قصور أساسية بحكم التمييز العنصري الموجود في المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ضدّ المرأة، إذ إنّ المحن المشتركة والاضطرابات الحاصلة في المجتمع خلال تلك الحقبة؛ هي التي جعلت من غير الممكن حدوث تحوّل في مكانة المرأة، وحتىّ نساء الطبقات الأخرى المختلفة قد عانين من تلك التبعية بأساليب مختلفة، وإنّ تلك النظرة والتمييز جاءت على حدّ سواء بالنسبة لنساء الفلاحين وملّك الأراضي أو حتىّ نساء رجال الدين^[١]. يشير الدكتور نور الدين حاطوم إلى أنّ نظام التبعية الإقطاعية قد نفذ إلى حرم العلاقات الأسرية، فالزوجة والأولاد يعتبرون أتباعاً لربّ الأسرة، ويعتبر هو أميرهم أو بارونهم، وفي الأسرة الملكية والطبقة النبيلة كانت الصلات بين الأبوين تخضع لطقوس ومراسيم تبعية. ودامت هذه الطقوس عشرة قرون أخرى كان فيها ابن النبيل يدعو أباه (سيدي) وأمه (سيديتي)^[٢].

لقد فرض النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى على المرأة أن تكون دائماً تحت وصاية رجل، أبوها في أوّل الأمر ثمّ زوجها بعد ذلك، أمّا الأرملة فتكون تحت وصاية سيدها أو أكبر أبنائها. حقيقة إنّها كان من حقّ المرأة أن ترث إقطاعاً، ولكنها لا تستطيع أن تباشر حقّها في حكمه إلّا عن طريق زوجها. ولعلّه من الواضح تفسير هذه الظاهرة في عجز المرأة عن القيام بأعباء الوظيفة الأساسية لطبقة الإقطاعيين؛ وهي الحرب^[٣]. حتىّ النساء اللواتي كان لهنّ نصيب في المعترك الإقطاعي، كان عليهنّ طاعة الأب أو طاعة الزوج، معتمداً ذلك على كونها متفرّغة للعبادة أو مرتبطة كزوجة، لكنّ المرأة بسبب خصوصيتها كامرأة، كان يصعب تحديد نظام لها داخل القلب الإقطاعي، فلم يكن بوسع المرأة أن تشترك في البيعة أو امتلاك إقطاعية على الرغم من أنّها تستطيع أن تنقل إقطاعية إلى زوجها؛ وذلك بسبب عجز المرأة عن القيام بأعباء الوظيفة الأساسية لطبقة الإقطاعيين؛ وهي الحرب. ويبدو أنّ المصالح العائلية أو المالية هي التي تحكّمت دائماً في اختيار الزوجة، إذ كان يراعى فيها أن

١- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٥٤.

٢- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج ١، من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر، الموسوعة التاريخية الحديثة، دار الفكر، دمشق ١٩٨٢م، ص ٣٧٨.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٨٩.

تكون وريثة إقطاع أو على الأقل وريثة قدر كبير من الأرض^[1].

رغم تضارب وضع المرأة داخل الكنيسة بين حواء ومريم العذراء، كان القانون المدني أشد قسوة على المرأة من القانون الكنسي؛ فقد أباح القانون المدني للزوج أن يضرب زوجته، كما رفض سماع أقوالها أمام المحكمة كشاهد لدى المحاكم^[2]، فمن الناحية القانونية لم تكن شهادتها مقبولة في المحكمة إلا في حالة اغتصابها، أو مقتل زوجها في حضورها، ويعاقب على الإساءة للمرأة بغرامة تعادل نصف ما يفرضه على الرجل نظير هذه الإساءة نفسها^[3]، وكانت عقوبة المرأة الزانية في القانون المدني عقوبة قاسية، مثال ذلك أن أقل ما كان يحكم به القانون الساكسوني على الزوجة التي تخون زوجها، هو جلع أنفها وصلم أذنيها، وأجاز لزوجها أن يقتلها، لكن كتب التاريخ لم تتحدث عن عقوبة وحشية للرجل الزاني، إذ كان سادة الإقطاع يغوون رقيقات الأرض، ولا يحكم عليهم إلا بغرامة قليلة: «فمن وطئ بنتاً من غير شكرها - أي رغم إرادتها - أدى للمحكمة ثلاث شلنات^[4]. فالقانون كان خاصاً بالرجال وحدهم، والرجل هو صاحب السلطة الوحيدة في العائلة والمجتمع والدولة، حتى أن إحدى القواعد الثابتة في العصور الوسطى، تدور حول العبارة الآتية: «لا يجب سماع صوت المرأة علانية»^[5].

ولم يكن للمرأة من حقوق إزاء زوجها، فبوسعها أن يتصرف في أملاكها، وأن يضربها إذا ضايقته^[6]، إذ نصّت المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون الفرنسي: «المرأة المتزوجة - حتى وإن كان زوجها قائماً على أساس الفصل بين ملكيتها وملكيتها زوجها- لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض من دون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية». وفي إنكلترا حرّم الملك هنري الثامن Henry VII على المرأة الإنجليزية قراءة الكتاب المقدس، وتجدر الإشارة إلى أن هذا التحريم استمر حتى سنة ١٥٤٣ م. واستمرت النساء خلال مدة طويلة غير معدودات من المواطنين أو ليس لهن

١- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٢١٣.

٢- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٩٠.

٣- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٢١٤.

٤- ول. ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٥.

٥- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٥٨.

٦- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٢١٤.

حقوق شخصية^[1]؛ فقد حرّم القانون النساء في أوروبا العصور الوسطى، حتّى أرقاهنّ مولداً، من أن يمثّلن ضياعهن في برلمان إنجلترا، أو في الجمعية العامة للطبقات بفرنسا^[2]. إنّ تدني مكانة المرأة جاءت من خلال المعاملة القاسية التي عوملت بها؛ وذلك لأنّها كانت تُعدّ كائنًا أدنى، وليس له أيّ حقوق شخصية أو قدرات فكرية، وإنّ محور الحياة في أوروبا العصور الوسطى يدور حول مسألتين؛ أولهما العبوديّة، والثانية الدونيّة أو التقليل من شأن المرأة، وهذا ما يؤكّد المقولة الشائعة في أوروبا العصور الوسطى: «إنّ على المرأة أن تصمت في هذا العالم»^[3].

الحادي عشر: عمل المرأة في العصور الوسطى

لقد كانت أهمّ الواجبات الملقاة على عاتق المرأة في العصور الوسطى هي القيام بالواجبات المنزليّة من الطهي وصنع الصابون والشمع والزبد وعصر الجعة وغسل الصوف والكتّان ونسجه وغير ذلك ممّا يعتبر من الكفاية الذاتيّة للأسرة. كما كان عليها أن تُزَيّن بيتها على قدر مستوى الأسرة وأنّ تجعله نظيفاً، وأنّ تربي أطفالها وتعتني بهم، وأنّ تهتمّ بشؤون زواجها، سواء أكان من السادة أم من الفلاحين^[4]. وكانت زوجة السيّد النبيل من الطبقة الأرستقراطية لها أهميّة في كلّ شيء؛ لأنّه كان لها بعض الحقوق الإقطاعيّة على الأرض التي تحصل عليها من إرث زوجها، وكان في مقدورها أن تمارس كلّ سلطاته، أو أن ترأس أحد الأديرة. وتُعتبر زوجة السيّد، سيّدة القلعة عند غياب زوجها، فيتحتّم على أتباعه وموظّفيه وخدامه أن يطيعوها. كما كانت تخرج على فرسها في مواكب الصيد بصحبة الرجال، وكانت الواجبات الملقاة عليها معروفة إذ يتمّ التخطيط لكلّ شيء مسبقاً، ولم تكن في حاجة لأن تخرج للتسوّق في عجالة، ومع هذا فقد كانت تعتبر قاصراً وتخضع لوصاية زوجها عليها. وفي غالب الأحوال، كانت امرأة سليطة اللسان أو مشاكسة، وأحياناً كانت تحبّ زوجها، ومحبوبة لديه^[5]. وتجدر الإشارة إلى النساء وفق النظام الإقطاعي الذي ساد في أوروبا خلال العصور الوسطى، كنّ معفيّات من الخدمة العسكريّة، لكنهنّ إذا حصلن على

١- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٦١.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٨.

٣- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٥٩.

٤- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٩٠.

٥- مورييس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٣١.

إقطاعات وورثت أتباعاً؛ كان ينبغي عليهنّ إمداد السيّد بفرسان يقومون بالخدمة العسكريّة نيابة عنهنّ^[1]. وكان على زوجة السيّد أن تتزيّن له في أوقات فراغها وترتدي الثياب الحريريّة وتغطي رأسها بغطاء جميل؛ كي تشيع البهجة داخل المنزل^[2].

أمّا في المدن، فقد اشتغلت المرأة بصناعة الجعة والنبذ بالإضافة إلى غزل الأصواف، ويبدو أنّ هذه الحرف فتحت باباً للعمل أمام غير المتزوّجات من الأرامل والعانسات، على الرغم من حرص بعض النقابات على تحريم اشتغال النساء بأعمال معيّنة حتّى لا ينافسن الرجال بسبب رخص أجورهن^[3]. وشاركت المرأة من سكّان المدن بجهدّها في المحيط الذي تحيا فيه، فعلى سبيل المال كانت تقوم بغزل النسيج وما يلزم للنقابات حتّى أصبح عدد النساء مساوياً لعدد الرجال في شركات الحرير وإن كان أجرهن أقل من أجور الرجال^[4]. أما فيما يتعلق بعانسات الطبقة العاملة فقد تم استيعابهن في دور الصناعة وفلاحة الأرض، على أن عانسات الطبقة العليا تم تنظيمهن في جماعات، وفي إدارة الضيع، الأمر الذي هيء لهن نوعاً من التعليم كان أرقى من التعليم الذي كان الرجال والنساء يتلقونه على حد سواء خارج نطاق الدير^[5].

وإذا كانت سيّدات الطبقة الأرستقراطيّة والطبقة البرجوازيّة قد تتمنّعن بقسط من الراحة والتسلية، فإنّ الفلاحات وزوجات الأقنان حُرمن من هذه النعمة؛ لأنّ قسوة الحياة كثيراً ما أجبرتهن على مشاركة أزواجهنّ في الكفاح والعمل من أجل لقمة العيش. لذلك أسهمت الفلاحة بسهم وافر في الحياة الأوروبيّة في العصور الوسطى، كما قامت المرأة في داخل المنزل بكلّ ما احتاجت إليه الأسرة من طعام وشراب ولباس، فعملت في جزّ الصوف وغزله ونسجه وتربية الدواجن، إذ كانت تقوم بتغذية الدجاج وجمع بيضه، وتقوم بصناعة مستحضرات الألبان، وترعى قطعان الخنازير، هذا كلّ زيادة على تربية أولادها. أمّا خارج المنزل، فقد أسهمت في بناء الأكواخ وقطع الأعشاب وجمع المحصول وتخزينه، كما كانت تعتني بأشجار الكروم، وتغزل وتنسج، وتخيّط الملابس وتصبغها وتفصل العباءات وأغطية

١- نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة، م.س، ص ٤٨.

٢- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٢١٤.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٩١.

٤- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٩٠.

٥- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٦٤.

الرأس لبيعها للناس ثم لأهل بيتها. ومع ذلك، إنَّ العرف الإقطاعي شمل زوجة القن بشيء من الرعاية، إذ جرت العادة على إعفائها -وهي في حالة الولادة- من ضريبة الدجاج التي عليها أن تقدّمها سنويًا بل الصوم الكبير، فضلًا عن حصولها في هذه الحالة على بعض المساعدات الماليّة^[1].

إنَّ تحوّل المرأة من البيت إلى أماكن العمل الرئيسة، قد أدّى إلى حدوث تغيير اجتماعي حادّ نسبيًا، والواقع أنَّ الملامح البارزة للتجربة الاقتصادية والاجتماعية للنساء اللاتي اجتذبن أساسًا للخدمة المنزلية وصناعة الملابس وحياسة المنسوجات، قد كشفت في نقلهن مظاهر من التقاليد الريفية من قيم وممارسات وتراكيب اجتماعية إلى تقاليد المدينة الجديدة؛ إذ إنَّ اقتصاديات الأسرة هي أهمّ مجال مارست فيه المرأة نشاطها قبل هجرتها إلى المدينة، وكثيرًا ما اضطلعت المرأة بمسؤولية إدارة المسائل المالية للمنزل، وقد نقلت النساء بعض تلك المهام إلى المدينة. لقد كانت البنات المشتغلات بالخدمة المنزلية وحياسة الثياب والمنسوجات، صغيرات في السنّ. وكانت الفتيات اللواتي يكلّفن بأعمال من هذا القبيل يوفرن جزءًا من أجورهن للمساعدة في أعباء البيت؛ لكي يضاف إلى دخل الأسرة، بينما كان الجزء الباقي يدّخر استعدادًا للزواج. وعندما تتزوَّج الفتاة، فإنّها تتخلّى عن العمل، ولكنها لا تتوقّف عنه نهائيًا^[2].

لقد شهدت أوروبا في مرحلة ما بعد الطاعون الأسود، الذي أودى بحياة ربع سكان أوروبا تقريبًا خلال ثلاث سنوات (١٣٤٧-١٣٥٠ م)^[3]، تطورًا كبيرًا لدور المرأة، وتمتعت باستقلالية اقتصادية متزايدة، وفق اعتبار قيامهنّ بأعمال كانت مخصّصة للرجال، ولا سيّما بعد ارتفاع نسبة وفيات الرجال، إذ ازدادت نسبة حصولهنّ على الأراضي، سواء كونهن وريثات أم أرامل. إنَّ النساء باعتبارهنّ عاملات، شاركن مع الرجل في ارتفاع الأجور، ومارسن أنواعًا مختلفة من الأعمال، لذلك استطاعت النساء أن يجدن مهنة كانت مقتصرة فيما مضى على الرجال كـ(الحدادة، الدباغة، التجارة). وعلى الرغم من أنَّ النساء تمّ جلبهن إلى المدن للعمل كخادمات أو عاملات في معامل النسيج في مدّة كانت فيها الأجور والغذاء رخيص،

١- سعيد عبد الفتّاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، م.س، ص ٩١.

٢- مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبية، م.س، ص ١٥٦.

٣- أشرف صالح سيد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، م.س، ص ٢١.

إذ تمّ استخدام الشابات غير المتزوجات كخدم في تلك المعامل، وهذا الشيء، وإن زاد من الفرص الاقتصادية، إلا أنه أضرّ سنّ الزواج، لذلك أُلقت الكوارث الطبيعيّة التي حدثت في أوروبا العصور الوسطى بظلالها على المرأة من خلال تدنيّ مكانتها في المجتمع. وفي المقابل، إنّما عزّز فرصة زيادة المرأة لحظوظها في المجتمع، هو أنّ الحروب المستمرّة في أوروبا خلال العصور الوسطى، قد حصّدت أرواح عدد كبير من الرجال^[1].

إلا أنّ المكاسب التي حقّقتها المرأة في المرحلة التي جاءت بعد حقبة الطاعون الأسود، لم تسعفها في الاحتفاظ بتلك المكاسب لمُدّة طويلة من الزمن. والمشكلة الرئيسيّة في ذلك تكمن في أنّ وضع المرأة أصبح تحت سطوة التهديد من خلال الركود الاقتصادي الذي خلفه ذلك الطاعون، أو انحدار في الطلب على العمالة، أو من خلال نموّ السكان زيادة؛ ما أسهم في توفّر العمال في فترة ما بعد حقبة الطاعون الأسود، وهكذا لم تجلب المكاسب التي حقّقتها المرأة لنفسها خلال هذه الفترة من الزمن؛ أيّ تحسن؛ لأنّ المرأة كانت عاجزة عن أن تحتفظ لنفسها بتلك المكاسب. على أنّ السبب الرئيس في ذلك يعود إلى النظرة المتدنيّة للمرأة من خلال دورها في المجتمع، والذي اقتصر على الحياة المنزليّة^[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ عدد النساء في معظم نقابات الحرف الإنجليزيّة، كان مساوياً لعدد الرجال فيها، ويرجع معظم السبب في ذلك إلى أنّ الصنّاع كان يسمح لهم أن يستخدموا زوجاتهم وبناتهم، ويسجلوا أسماءهنّ في النقابات. وكانت بعض النقابات الطائفيّة المخصّصة للصائغات من النساء تتألّف من النساء وحدهنّ. وكان في باريس في آخر القرن الثالث عشر خمس، عشر نقابات طائفيّة من هذا النوع. على أنّ النساء قلّما كنّ رئيسات في نقابات الحرف المكوّنة من الذكور والإناث، وكنّ يتقاضين أجوراً أقلّ من أجور الرجال نظير الأعمال المتساوية^[3]. وعلى الرغم من المكاسب الاقتصادية التي حقّقتها المرأة، إلا أنّها لم تصاحب بمكاسب قانونيّة أو سلطة سياسيّة، وهذا جعلهنّ غير قادرات على الدفاع عن أنفسهنّ، وبالتالي أصبحت مكانة المرأة وثروتها متذبذبة طوال العصور الوسطى. وعلى العموم، فإنّ الكيفيّة التي اتّجهت فيها المرأة إلى العمل في أعمال تتطلّب قوّة ومهارة، فضلاً

١ - مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٥٤.

٢ - مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة، م.س، ص ١٥٦.

٣ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، ج ٥، مج ٤، ص ١٨٩.

عن أجور منخفضة تحسب لها؛ لذلك بدأت بالقفز من عمل إلى آخر، أو أداء أكثر من عمل في وقت واحد، إذ أخذت النساء بالتدرّب على المهن بشكل رسمي ودائم، فإنّ هذه الشيء كان دائماً ما يقابل بردّ سيّء؛ لأنّه غير قانوني، إذ إنّ العمل في إنتاج الألبان في إقطاعيّات السيّد، كان محفوظاً للنساء، إلّا أنّ إدارة ذلك كان مخصّصاً للرجال، والسبب يرجع إلى نظرة المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى للنساء. إنّ عمل المرأة يجب أن ينحصر في إدارة شؤون منزلها^[١].

الخاتمة

لم تعرف أوروبا العصور الوسطى النظام الأسري بالمعنى الصحيح للكلمة؛ فبدل نظام الأسرة الكبيرة التي يعمل أفرادها معاً ويحاربون معاً، ظهرت الأسر الصغيرة التابعة لسيد إقطاعي وفق نظام الأفتان، وكانت هذه الأسر تعاني الأمرين؛ من ارتفاع نسبة وفيات الأطفال نتيجة سوء التغذية، كما كانت تعاني هذه الأسر من انتشار الأوبئة التي حصدها ربيع سكّان القارة في ثلاث سنوات فقط. كما كانت تعاني من الأسر الأمراض السارية وقلة الدواء، والغلاء، واستغلال النبلاء، ومن سنوات القحط، يضاف إلى هذا الآفات والأمراض الاجتماعية والدينية، بما فيها آفات وأمراض الكنيسة، التي كانت محور حياة الناس في العصور الوسطى، فمنع رجال الدين من الزواج -على سبيل المثال- أسهم إسهاماً عميقاً في انهيار الأسرة في أوروبا العصور الوسطى، وكان سبباً في آلاف الأطفال غير الشرعيين.

أمّا بخصوص المرأة، فقد كان دورها في أوروبا العصور الوسطى دوراً ثانوياً، إذ لم تعرف إلاّ زواج القاصرات، وكانت المرأة (سواء أمّا أم زوجة أم ابنة) تعاني من الاضطهاد من قبل الطبقة الأرستقراطية والكنيسة على حدّ سواء، فلم تكن الكنيسة عادلة في نظرتها إلى المرأة، عندما فضّلت الرجل عليها، ووضعتها في مرتبة أدنى منه، وفرضت عليها الوصاية. كما لم يكن القانون المدني في أوروبا العصور الوسطى أفضل من القانون الكنسي، إذ سلب المرأة أبسط حقوقها، وهو حقّ الدفاع عن نفسها أمام المحكمة. كما لم يكن للمرأة الأوروبية في العصور الوسطى أيّ حقّ في أيّ شيء من نتاج عملها. وفي المقابل أباح المجتمع الأوروبي جميع الموبقات الأخلاقية التي كانت سبباً في انهيار الأسرة، وتراجع دور المرأة، وانتشار الشذوذ الجنسي والدعارة والزنا. حقاً لقد كان مجتمع العصور الوسطى مجتمعاً فاسد الأخلاق فاجراً.

لائحة المصادر والمراجع

١. أشرف صالح سيّد، تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، شركة الكتاب العربي الإلكتروني، لبنان ٢٠٠٨م.
٢. باسمه كيال، تطوّر المرأة عبر التاريخ، أسباب النهوض والانحطاط، مؤسّسة عبير الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١م.
٣. جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم: محمّد حناوي، ويوسف نكادي، ط١، مطبعة مفكّر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م.
٤. رانيلا، الماضي المشترك بين العرب والغرب، أصول الآداب الشعبيّة الغربيّة، ترجمة: نبيل إبراهيم، مراجعة فاطمة موسى، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٤١، يناير ١٩٩٩م.
٥. سعيد عبد الفتّاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج٢، النظم والحضارة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ١٩٥٩م.
٦. ماكس بيروتي، ضرورة العلم، دراسات في العلم والعلماء، ترجمة: وائل أتاسي وبسام معصراني، مراجعة عدنان الحموي، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٤٥، مايو ١٩٩٩م.
٧. محمد مصطفى عاشور، مركز المرأة في الشريعة اليهوديّة، مكتبة الإيمان، المنصورة د.ت.
٨. محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ١٩٩٨م.
٩. مواهب أحمد، عمّار الدوري، المرأة الأوروبيّة في العصور الوسطى - نساء الطبقة العاملة أنموذجاً، مجلّة الملوّية للدراسات الآثارية والتاريخيّة، مج٦، عدد ١٧، السنة السادسة آب ٢٠١٩م.
١٠. موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة علي السيّد علي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.
١١. نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة في العصور الوسطى، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م.
١٢. نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج١، من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر، الموسوعة التاريخيّة الحديثّة، دار الفكر، دمشق ١٩٨٢م.
١٣. نيفين ظافر الكردي، الأوضاع الدينيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتّى القرن الحادي عشر، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلاميّة بغزة ٢٠١١م.
١٤. ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، المسيحيّة في عتفوانها، ج٥، مج٤، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م.

النظام الاقتصادي في أوروبا العصور الوسطى

قراءة نقدية في تاريخ النظامين: الإقطاعي والرأسمالي، الأصول والممارسة

عبد الله السليمان^[1]

مقدمة

لم تعرف أوروبا في العصور الوسطى نظاماً اقتصادياً واحداً، وإنما عرفت نظامين؛ نظام إقطاعي زراعي ريفي، سيطر على المشهد الاقتصادي والمعيشي في أوروبا الغربية منذ سقوط روما في سنة ٤٧٦م، وربما قبل ذلك بقرن، واستمرّ مسيطرًا حتى القرن الثاني عشر. وفي ظلّ هذا النظام الاقتصادي تراجعت جميع مظاهر التقدّم والإنتاج والابتكار في الأفكار الاقتصادية، وساد التخلف وتدهورت جميع الأحوال الاقتصادية، وحلّت المقايضة محلّ التجارة، وانغلقت على نفسها، واكتفت بوارداتها، وغدت السيادة للأقوى، وخنع سكّان أوروبا للإقطاعيين الكبار بعد أن تحوّل معظم فلاحيها إلى أقنان (عبيد أرض) مرتبطين بسيدّهم الإقطاعي.

أمّا النظام الاقتصادي الثاني الذي سيطر على أوروبا من القرن الثاني عشر حتّى عصر النهضة؛ فهو النظام الرأسمالي الذي ارتبطت نشأته بإعادة إحياء المدن والتجارة، وتنظيم العمل بالاقتصاد بوساطة النقابات، مع الاحتفاظ بمظهر سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان. وبالتالي، سنجد أن الديمقراطية الشعبية لم تتحقّق في المدن التي انتصرت فيها النقابات والصنّاع الأغنياء على الأرستقراطيات القديمة، فصغار الصنّاع وغيرهم من الكادحين الفقراء منعوا من الوصول إلى مجلس المدينة بغية الحصول على حقوقهم. لقد كان النظام الرأسمالي في أوروبا العصور الوسطى نظاماً استغلاليّاً قائماً على الاحتكار والغشّ والكسب بوساطة الفائدة والربا والاحتيال، وقد أسهم تجار اليهود إسهاماً مهماً في تدعيم أركان هذا النظام.

وسيتطوّر هذا النظام الاقتصادي بعد النهضة الأوروبيّة ليمسي نظاماً رأسماليّاً عالميّاً، تسيطر فيه الدول القويّة على اقتصاد وحياة الشعوب والدول النامية الضعيفة، ولم تلبث الكنيسة في أوروبا الغربيّة، التي كانت تقدّم النصّح والإرشاد والوعظ لأتباعها، أن ولجت في باب العمل الاقتصادي، ولم تترك نشاطاً في هذا الباب إلّا وقامت به، حتّى أمست مؤسّسة رأسماليّة بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى.

ونسعى في هذا البحث للإحاطة بالأفكار الرئيسة التي رسمت المشهد الاقتصادي في أوروبا خلال هذه العصور، التي اصطلح المؤرّخون على تسميتها بالعصور الوسطى، والتي تبدأ من سقوط روما في سنة ٤٧٦ م، وتنتهي مع نهاية القرن الخامس عشر ميلاديّة.

أولاً: النظام الاقتصادي الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى

لقد أطلق الباحثون اسم «النظام الإقطاعي» على النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي ساد في أوروبا خلال العصور الوسطى، وكانت أصول هذا النظام الإقطاعي في أوروبا الغربيّة ومنابعه رومانيّة-جرمانيّة مختلطة، ويمكن أن نحدّد فجره بالقرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وظهيرته بالقرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر، أمّا عصر انهياره، فقد امتدّ من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادي^[١]. وإن كانت انطلاقته في إيطاليا وألمانيا، فإنّ التطوّرات الأهمّ التي شهدتها حدثت في فرنسا، ولعلّه بدأ في بريطانيا بتحويل البريطانيين الأصليين إلى أرقّاء أرض على أيدي المستعمرين الجدد الأنجلو-سكسون^[٢]. وفي النظام الإقطاعي تقوم على الأرض الواحدة أنواع مختلفة من الحقوق، حتّى إنّ فكرة الملكية تزول عنها أو تفقد معناها القانوني، فيعمل التابع على الأرض -التي كانت له- بعد أن يتنازل عنها لسيّد قوي، ويعلن تبعيّة له بحلف اليمين والتعهد بالولاء والطاعة له (التبعية)، وتقديم الخدمة الحربيّة^[٣].

١- نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة في العصور الوسطى، ط٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص ١٧.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، العصور المظلمة، الإقطاع والفروسية، ج٣، ص٤، ترجمة: محمّد بدران، بيروت ١٩٨٨م، ص ٤٠٦.

٣- نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة، م.س، ص ١٨-١٩.

١. العوامل التي أسهمت في نشوء النظام الإقطاعي

لقد أسهمت في نشوء النظام الإقطاعي بعض الظروف التي اجتمعت مع بعضها؛ كانهدام الأمن وعموم الفوضى وانتشار الحركة الديريّة المسيحيّة، فمهّدت السبيل إلى نشوء هذا النظام؛ ذلك أنّه لمّا أصبحت مدن إيطاليا وغالة (فرنسا) غير آمنة على نفسها من الغارات الجرمانية، وعجزت الحكومات الفقيرة عن حماية الحياة والأموال والتجارة والاحتفاظ بهيئة الدولة، ولا سيّما بعد أن نقصت إيرادات الدولة وكسدت التجارة واضمحلت الصناعة، انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفيّة، وأحاطوا أنفسهم بأسر من «الموالي»، وجمعوا حولهم أعواناً عسكريين من الزّراع الذين خافوا على حياتهم وأموالهم^[١]؛ إذ كان الزّراع الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، يعرضون ممتلكاتهم إلى جانب خدماتهم على أحد النبلاء، مقابل الحماية والإيواء. لكنّ فهم أولئك السادة للرعيّة كان مغايراً؛ إذ كان النبيل يمنح أولئك المزارعين قطعة صغيرة من الأرض بجواره قابلة للإلغاء الملكيّة في أيّ وقت^[٢]. وبالتالي، استفحلت مظاهر التشرذم في المشهد العام على مستوى أوروبا، وتكرّست ظاهرة التكتّل في على نطاق ضيق حول أمير أو سيّد^[٣].

أمّا العامل الثاني، الذي مهّد لظهور النظام الإقطاعي وأسهم في ذلك التوجّه، هو ظهور الأديرة المسيحيّة؛ ففي تلك الأثناء ظهرت الصوامع بهدف الخلاص الفردي، وقد دأب رهبانها على حرق الأرض والاشتغال بالمهن الحرفيّة، إذ بدأت الكنيسة تمثّل الحركة المركزيّة المتّجهة إلى اقتصاد شبه منعزل في الريف. ولم يدرك الناس تلك التطوّرات، ففي ظروف الفوضى، وجوّ القتال والحرب، والاحتمال الوشيك لأيّ هجوم من الجرمان، كان الناس يدأبون على الالتحاق بالتشكيلات الأمنيّة التي شكّلها السادة والأساقفة، إذ كانوا يبنون بيوتهم بجانب بيت نبيل أو سيّد من السادة، أو بجانب صومعة ما طلباً للحماية؛ أي بجانب أيّ شخص أو مؤسّسة لها القدرة على القيادة^[٤].

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٣، مج٤، م.س، ص٤٠٤.

٢- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع الدينيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتّى القرن الحادي عشر، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلاميّة بغزة ٢٠١١م، ص١٦٢.

٣- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٣، مج٤، م.س، ص٤٠٤.

٤- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص١٦٢.

وبعد أن تكثرت الناس حول قصور السادة والنبلاء والصوامع والأديرة المسيحية في الريف الأوروبي، وبعد أن تعطلت السبل وتوقفت التجارة وصارت الطرق غير صالحة للنقل؛ لما أصابها من تخريب نتيجة الحروب والإهمال من جراء الفقر، اضطرت قصور الأعيان والأديرة المسيحية في الريف الأوروبي للعمل على الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية، فتم السعي إلى تكوين وحدات اقتصادية شبه مستقلة في الريف الأوروبي على مستوى القرية، فبدأ الزراع بحراثة الأرض وزراعتها تحت أمره سيدهم النبيل، كما أضحي الحرفيون يصنعون الكثير من الأدوات التي كانت تشتري من المدن، حيث صارت تصنع في الضياع الكبيرة منذ بداية العصور الوسطى. ومنذ القرن الخامس للميلاد بدأت تتكون أرستقراطية إقطاعية ذات نفوذ وأملاك واسعة، لها محاكمها الخاصة، وجيوشها المستقلة^[١].

٢. جذور النظام الإقطاعي

إنَّ البحث عن جذور النظام الإقطاعي، الذي تكوّن في مطلع العصور الوسطى في أوروبا، يعيدنا أولاً إلى نظام الإحسان الروماني، وثانياً إلى طبيعة حياة القبائل الجرمانية الشمالية، فنظام الإحسان الروماني، الذي كانت المجانية صورية فيه غالباً، والذي كان يؤدّي إلى وضع المحسن إليه تحت رحمة المحسن، أسهم في رسم الإطار العام للنظام الإقطاعي. وحتى نوضح الصورة أكثر، بوسعنا أن نشرح نظام الإحسان الروماني، ونحدّد حجم الأثر الذي تركه في النظام الإقطاعي في العصور الوسطى.

لقد كان الإحسان القالب الذي تصاغ فيه أكثر الاتفاقيات، التي لا تجد مكاناً لها في النطاق الضيق والمحدود للعقود المعترف بها في القانون الروماني، وكان الاتفاق الذي يُطبّق في الإحسان دوماً هو الانتفاع. وهكذا لم يكن الإحسان كرماءً إلا في اسمه فقط، وإنما كان شكلاً من أشكال الاستغلال، وهو يغطّي ثلاث عمليّات اقتصادية هي: أولاً: الآجار المقنّع: وهو أن يضع الفلاح المنتفع من الأرض تحت رحمة الملاك؛ لأنّ المالك يستطيع أن يجرد الفلاح من الأرض في أيّ وقت دون إقامة دعوى. ثانياً: القرض بكفالة عقارية: فقد يضطرّ فلاح حرّ من صغار الملاكين إلى أن يقترض مبلغاً من المال من مالك كبير غني،

فيقدّم أرضه الصغيرة للدائن ويستلمها منه بصفة منتفع، ولا ترجع ملكيتها إليه إلا بعد وفاء كامل دينه. وإذا مات الفلاح من دون أن يسدّد دينه، طُرد أولاده من الأرض. ثالثاً: اتساع الملكية وتملّص كبار الملاكين من دفع الضرائب للخزّانة: لقد أفاد الإحسان كبار الملاك في توسيع أراضيهم؛ وذلك من خلال حمايتهم غير القانونية للفلاحين الصغار الأحرار مقابل أن يأخذوا منهم أراضيهم، ثمّ يعيدونها إليهم بصفة إحسان ليعملوا بها مقابل تقديم حصّة من إنتاجها، عينية أو نقدية، وإذا ضمت تلك الأراضي الصغيرة إلى أراضي كبار الملاك، خرجت من نطاق عمل رجال العدل ومستخدمي الضرائب. وعلى هذا، فمجانبة الإحسان الروماني كذب حقوقي^[١]. وباختصار، فإننا سنجد هذه العمليّات الاقتصادية الثلاث موجودة في النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى.

أمّا الجذر الثاني، فقد أتى من طبيعة حياة القبائل الجرمانية الشمالية؛ فعندما سقطت روما على أيديهم سنة ٤٧٦م، حدث تطوّر في أسلوب إدارة الدولة؛ إذ إنّ الإمبراطور الجديد بدلاً من السير على خطا الحكم السابق؛ أي الاستمرار بأسلوب الإدارة المركزية الصارم، سلك مسلكاً مغايراً يقوم على اللامركزية الواسعة، فقسم الإمبراطورية إلى أجزاء وأقاليم كبيرة جداً، اقتطعها لكبار القادة وبعض رجال الدين وأعطاهم صلاحيات واسعة، بما في ذلك الاحتفاظ بقوّاتهم العسكرية، الأمر الذي انتهى باستقلال هذه الأقاليم عن الدولة من الناحية الفعلية، وأصبحوا ملوكاً في إقطاعاتهم. ونظراً لكونهم ارتكبوا الخطأ نفسه الذي ارتكبه الإمبراطور؛ بحيث قسموا إقطاعاتهم إلى أقاليم فرعية، والأقاليم إلى إقطاعات صغيرة، انتهى الأمر إلى تشظّي معظم الإمبراطورية وتشرذمها إلى مئات الإقطاعات الصغيرة والضيع شبه المستقلة اقتصادياً، مكتفية ذاتياً اكتفاءً متدنيّ المستوى، معتمدة على الزراعة، والنشاط الاقتصادي الطبيعي غير السلعي (غير التبادلي)، مع شبه انعدام لدور النقود في هذا النشاط، ليس هذا فحسب، بل إنّ كلّ إقطاعي لديه قوّة عسكرية، كان له الحقّ في سنّ القوانين والتنظيمات، وإقامة المحاكم وفرض الرسوم داخل إقطاعيته ... إلخ^[٢].

١ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٢٣-٢٤.

٢ - عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، تحوّل أوروبا من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالي باستخدام نظرية كوفاليف، جامعة الملك سعود، الرياض د.ت، ص ١٣.

٣. تكريس النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى

إذا كنّا قد تحدّثنا عن العوامل التي مهّدت لنشوء النظام الإقطاعي خلال القرون الممتدة من سقوط روما حتّى قيام دولة الفرنجة، تجدر الإشارة إلى أنّ هذا النظام تكرّس مع دولة الفرنجة، فقد وجدت هذه الدولة أنّ هذه الوسيلة؛ أي إقطاع كبار القادة، خير ما يمكن الاعتماد عليه لإنقاذ نفسها من الزوال في ظلّ الظروف المحيطة بها، فأخذ ملوكها يمنحون قادة من جيشهم وعدداً من موظفيهم الإداريين، مساحات من الأرض تحت عنوان تأجيرها لهم^[١]. فعندما حاول شارل مارتل Charles Martel (٦٨٨-٧٤١م) أن يتوسّع في نظام الخيالة لجعل جيشه قوة فعّالة في ميدان الحرب، اكتشف في حينه أنّ هذا الأمر يتطلب منه نفقات ضخمة لتجهيز الفارس بما يحتاج إليه من حصان ودرع وسلاح، فضلاً عن أنّ هذا النوع من الفرسان يجب أن يتوفّر لهم مورد يعيشون عليه حتّى يتسنى لهم أن يفرغوا لشؤون الحرب والقتال. ولمّا كانت موارد دولة الفرنجة في القرن الثامن محدودة بحيث أنّها لا تفي بالغرض، فإنّ شارل مارتل لجأ إلى حلّ يتفق وتقاليد ذلك العصر، فسجّل أسماء المحاربين وجعلهم يقسمون له يمين الولاء، ثمّ أعطى كلّاً منهم إقطاعاً يكفي لسدّ مطالب معيشته، على أن يبقى هذا الإقطاع بيده ما دام يقوم بالخدمة العسكرية، وهكذا ظهرت الأسس الإقطاعية العسكرية لجيشه^[٢].

ويبدو أنّ شارل مارتل وخلفاءه قد اقتبسوا العمل بهذا المبدأ عن القبائل الجرمانية الشمالية؛ فعندما أغارت هذه القبائل على الأقاليم الغربية من الإمبراطورية الرومانية، أقاموا لهم ممالك في تلك الأقاليم^[٣]، وجلبوا معهم كثيراً من مفاهيم التنظيم القبلي، بما فيها مبدأ تقديس رابطة الدم، والبعد عن الديمقراطية «لا لأنّه يقوم على مبدأ احترام سلطة رئيس القبيلة احتراماً مطلقاً فحسب، بل لأنّ الفرد ذا العصبية القبلية الأقوى يسود دائماً ويتغلب على ضعاف العصبية». كما أنّ الملكية جميعاً تتركّز في يد رئيس القبيلة، فله حقّ التصرف في قطعانها وثروتها وفق ما يريته مصلحة لها، هذا بالإضافة إلى اعتماد القبائل الجرمانية

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، مع ٤، م.س، ص ٤٠٥.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، النظم والحضارة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٤٥.

٣- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٢٦.

على العبيد، وجميع هذه العناصر لها أهميتها، وستظهر في بنية النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى^[١]. وهكذا كانت العوامل التي مهدت السبيل إلى قيام النظام الإقطاع بين القرنين الثالث والسادس، هي بعينها التي رفعت دعائمه بين القرنين السادس والتاسع الميلاديين^[٢].

وإذا كانت بذور النظام الإقطاعي قد ظهرت في دولة الفرنجة في القرن الثامن، فإن الظروف التي تعرّضت لها هذه المملكة بوجه خاص، وغرب أوروبا بوجه عام في القرن التاسع، ساعدت على نموّ هذا النظام وتفرّعه؛ إذ أصبحت هذه الإقطاعات في القرن التاسع وراثيّة وشبه مستقلة، بسبب ما طرأ من ضغط على ملوك دولة الفرنجة؛ ذلك أنّ الحروب العنيفة التي قامت بين لويس التقي وأبنائه، واستمرت بين الأبناء بعد وفاة أبيهم، كانت في حدّ ذاتها كافية لأن تثير جواً من الفوضى؛ أصبحت فيه الكلمة الأولى والأخيرة لقوة السلاح وحدها^[٣].

ثمّ جاءت الأخطار الخارجيّة؛ إذ تعرّض غرب أوروبا للهجوم من جميع الجهات، فقد أعادت غارات الشماليين، والمجر على القارة الأوروبيّة في القرن الثامن والتاسع والعاشر، نتائج الغارات الجرمانية التي حدثت قبلها بستّة قرون وزادتها قوّة، فقد عجزت الحكومات المركزيّة عن حماية الأجزاء النائية عن عواصمها، وأقام الأسقف أو البارون المحلي نظاماً في مقاطعته وهيئة للدفاع عنها، وظلّ محتفظاً بقوّته ومحاكمه الخاصّة. وإذا كان معظم المغيرين فرساناً، فقد كان الطلب يكثر على المدافعين الذين يملك كلّ منهم حصاناً، ولهذا السبب أضحى الفرسان أهمّ من المشاة. وهكذا نشأ في فرنسا، وإنجلترا في عهد النورمان، وفي إسبانيا المسيحيّة، طبقة من الفرسان بين الدوق والبارون من جهة، والفلاحين من جهة أخرى، كما نشأت في روما القديمة طبقة من الفرسان بين الأشراف والعوام. ونظراً لغياب السلطة المركزيّة، لم يرَ الشعب حرجاً في هذه التبدّلات؛ إذ كانوا يتطلّعون إلى وجود نظام عسكري يتولّى حمايتهم بما يحيط بهم من الرعب، ومن الهجمات التي قد تنقضّ عليهم في أيّ وقت^[٤].

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٤٣.

٢ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، مع ٤، م.س، ص ٤٠٥.

٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٤٦.

٤ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، مع ٤، م.س، ص ٤٠٥.

حدًا وصل الأمر بكثير من الفلاحين الأحرار، الذين كانوا ما يزالون يملكون مزارعهم ملكية صريحة، أن يلجؤوا إلى بعض الإقطاعيين طالبين ضمّهم إلى تبعيتهم طلباً للحماية^[١].

لذلك لا ينبغي أن يقتصر تفسيرنا لهذه العملية على جانبها الاقتصادي؛ لأنها تمسّ في الواقع جميع أركان النظام السياسي في المجتمع والدولة، فمن الواضح أن عملية التطور الإقطاعي كانت تعني تنازل السلطة المركزية في الدولة عن حقوقها السيادية وواجباتها المالية والأمنية بسبب ضعفها وعجزها عن مواجهة الأخطار الخارجية المحيطة بها، ما دفع الملك إلى اختيار بعض ذوي النفوذ والبأس لينعم عليهم بحقوق وامتيازات في منطقة معينة مقابل شروط خاصة^[٢]، حتى وصل الأمر في ذروة النظام الإقطاعي أنه لم يكن لدى الملك من القوة للتدخل في الإقطاعيات الواقعة تحت سيادته من الناحية النظرية، فلهؤلاء السادة الإقطاعيين محاكم خاصة بهم وأقسام شرطة، ودور لصكّ النقود كانت تصدر العملة باسمهم. وقد تجلّى مظهر تنازل الدولة عن حقوقها السيادية في عجز الملك عن إيقاف الحروب، التي كانت نشبت بين هؤلاء السادة الإقطاعيين أو التدخل في المعاهدات التي عقدها من تلقاء أنفسهم فيما بينهم، وازداد عجز الملك حتى أنه لم يعد يوسع أن يحصل ضرائب الدولة من الإقطاعيات الواقعة تحت سيادته من الناحية النظرية^[٣]، فإذا أعلن الملك مثلاً تنازله عن حقّ جباية الضرائب في منطقة معينة لسيد معين، فليس معنى ذلك أن الفلاحين في هذه المنطقة استراحوا من عبء هذه الضرائب؛ لأنّ الذي حدث فعلاً، هو أنهم استمروا يدفعون الضرائب المقررة نفسها، ولكنّ للسيد الذي عينه الملك. وبالتالي، أصبح هذا السيد صاحب السيادة المباشرة وصاحب الحقّ في الحصول على الالتزامات المفروضة على هؤلاء الفلاحين، إلا أن هذه الضرائب لن يصل منها شيء إلى خزينة الملك^[٤]. وهكذا تجلّت العلاقة العكسية بين الملوك والسادة الإقطاعيين؛ فكلّما زاد عجز الملوك وضعفت سلطاتهم، زاد الإقطاعيون قوّة^[٥].

١- عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، م.س، ص ١٤.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٤٧.

٣- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٨م، ص ٧٦-٧٧.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٤٧-٤٨.

٥- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٧٧.

٤. القرية هي الوحدة الاقتصادية الأولى في النظام الإقطاعي

لقد شهدت أوروبا في العصور الوسطى جملة من التحوّلات الجذريّة، لا سيّما في جهاتها الغربيّة، كان أبرزها التحوّل في مجال الحياة الاقتصادية. لقد تمثّل هذا التحوّل في توجّه عام، كان بأكمله نحو حياة الريف، بعد أن كان يطغى عليه الطابع المدني خلال العصر الروماني^[١]. فنتيجة للتدهور الاقتصادي الذي ظلّ مستمراً لمُدّة خمسمائة سنة؛ من القرن الخامس إلى القرن العاشر، لم تعد التجارة مصدراً مهماً للثروة في معظم أنحاء الغرب الأوروبي، وسيطرت الزراعة على المشهد العام^[٢]، وبانتهاء التجارة انتهت مدن بأكملها، بينما شهدت باقي مدن أوروبا الغربيّة تدهوراً متسارعاً في مستوى عدد السكّان؛ لدرجة أنه حتّى سنة ١١٠٠م، كان عدد المدن الأوروبيّة الواقعة شمال جبال الألب، التي زاد تعداد سكّانها عن ثلاثة آلاف نسمة، قليلاً جدّاً^[٣]. بينما تحوّلت معظم المستعمرات الرومانيّة إلى مجرد قرى يقطنها عمّال زراعيّون، ممّا تسبّب في شبه انتهاء للصناعة المدنيّة لغرب أوروبا بعد أن انخفضت بشكل مريع، عدا عدّة مدن في إيطاليا، وقد اعتمدت أوروبا في تلك الفترة فيما يخصّ المنتجات الحرفيّة - بشكل كليّ - على الاكتفاء الذاتي بالنتائج المحليّة، فلم يعد هناك طلب على المواد المصنّعة^[٤].

من الثابت أنّ المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى كان في جوهره مجتمعاً زراعياً^[٥]، وأنّ الاقتصاد الأوروبي كان كذلك منذ نهاية القرن الثامن، فأصبحت الأرض المصدر الرئيس للثروة، واعتمدت جميع طبقات المجتمع على ما تدرّه الأرض من خيرات، وبذلك انعدمت التجارة أو كادت تنعدم، وصارت الأرض وحدها هي الأساس الذي قام عليه بناء الحياتين الاقتصاديّة والاجتماعيّة في أوروبا العصور الوسطى^[٦]، وهذا ما مهّد السبيل لأنّ تصبح

١ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم محمّد حناوي، ويوسف نكادي، ط١، مطبعة مفكر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م، ص ٣٣.

٢ - كارل ستيفنس، الإقطاع في العصور الوسطى، ترجمة: محمّد فتحي الشاعر، دار المعارف، القاهرة د.ت، ص ٥.

٣ - عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصاديّة، م.س، ص ١٦.

٤ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١٦٢.

٥ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة)، ترجمة عطية القوسي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٦٤.

٦ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٣.

القرية في أوروبا العصور الوسطى وحدة اقتصادية قائمة بذاتها، لا تربطها بالمدن أو غيرها من القرى الأوروبية الأخرى روابط تجارية، فهي تكفي نفسها بنفسها، وتنتج المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك أهلها، ما عدا بعض الكماليات (كالتوابل وأدوات الزينة والألبسة الفاخرة)، التي يستوردها الإقطاعي صاحب القرية لنفسه ولأهل بيته^[١].

بينما كان أهل القرية يجتمعون في أحد أيام الأسبوع أو في فترات معينة ليتبادلوا السلع، وكان هذا التبادل هو البقية الباقية من التجارة. أمّا حوانيت البيع، فلم يكن لها وجود في القرية على الإطلاق. وفي هذه القرية المغلقة على نفسها والمكتفية بذاتها من الناحية الاقتصادية، كان البيت الريفي ينتج ما يلزمه من خضروات وبعض ما يلزمه من لحوم، ويغزل صوفه أو كتّانه، وتنسج النسوة معظم ما يحتاجه أفراد البيت من الثياب. وكان في كل قرية حدّاد، ودبّاغ جلود، ونجّار، وصانع عربات، بالإضافة إلى القصّابين، والصّبّاغين، والبناّين، وصانعي السروج، والحدّائين... وكان كلّ هؤلاء الحرفيين يعيشون في القرية أو يأتون إليها ليقموا فيها بعض الوقت ليصنعوا ما يطلب إليهم صنعه^[٢].

إذاً، كانت جميع العلاقات الإنتاجية قائمة على مبدأ الاكتفاء الذاتي في واقع اقتصادي متخلف، ممّا أسهم في خلق تغيّرات (سلبية) كبيرة في قوى الإنتاج؛ فبعد السنين تمّ التخلّي عن بعض الأدوات والمعدّات، وبعض أساليب الإنتاج والحيوانات، والطرق البرية، ووسائل النقل البحري، والبرّي، وأدواتها، وبعض المنتجات الزراعية، فالاكتفاء الذاتي يجعل من الممكن الاستغناء عن كثير من هذه العناصر الإنتاجية والمنتجات. وهكذا تمّ هجر كثير من الأساليب الإنتاجية في الزراعة والتجارة والصناعة، وكذلك تمّ هجر كثير من الطرق ووسائل النقل البرّي بسبب الانغلاق على الذات، كما أنّ كثيراً من الإقطاعيّات لا يحتاجه. يضاف إلى ذلك، حدوث تدهور كبير في عدد السكّان. وبعد أجيال قليلة، أصبح الكثير من أدوات وطرق ووسائل الإنتاج التي كانت معروفة لدى الرومان؛ منسيةً ولا يعرفها أحد، شأنها شأن كثير من العلوم والآداب والفنون والعادات التي تعرّضت إلى تحقير وتسفيه وحرب شرسة من قبل الكنيسة بإتلافها بالحرق أو برميها في الأنهار؛ باعتبارها من التراث الوثني الضارّ

١ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م. س، ص ٧٨.

٢ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، ص ٤، ص ١٧٤.

الذي يجب على المؤمنين الابتعاد عنه ومحاربته طلباً للخلاص^[١].

وهكذا، رغم أنَّ الزراعة كانت عصب الاقتصاد في أوروبا العصور الوسطى، إلا أنَّها ظلَّت متخلّفة في ظلِّ هذا النظام الإقطاعي الجائر، وبالتالي، لم يتسنَّ لها أن تضارع نظيرتها عند العرب المسلمين في العراق أو الأندلس؛ إذ كانت أعقاب النبات وغيرها من النفايات تحرق في الحقول لإخصاب التربة وتطهيرها من الحشرات والأعشاب الضارة، وكان يتخذ من الطين الغضار أو غيره من التراب والجير نوعاً من السماد البسيط، إذ لم يكن يوجد في ذلك الوقت مخصّبات صناعيّة، وإنَّ ما كان يعترض النقل من صعب، كان يقلل من استخدام روث الحيوانات في الزراعة، ولهذا كان رئيس أساقفة مدينة رون Rouen الفرنسيّة يلقي أقدار إسبلاته في نهر السين، بدلاً من أن ينقلها إلى حقوله القريبة منها في دُفيل^[٢]. Deville.

إنَّ معظم النشاط الاقتصادي في الزراعة خلال هذه الحقبة كان معيشيّاً، ولا يهدف إلى نموٍّ أو تطوير أو توسّع^[٣]؛ إذ كان على أبناء القرية جمع حيوانات القرية داخل حظيرة واحدة للتعقيم، ورعي هذه القطعان على بقايا الزرع بعد حصاد الحقول وجمع محصولها، كما كان على جميع أبناء القرية الواحدة التضامن فيما بينهم في حراثة الأرض، وبذرها، وحصادها في كلّ سنة^[٤]. وفي بعض الأحيان، كان على الفلاحين أن يشتركوا في جمع دراهمهم القليلة لشراء محراث أو زحّافة يستعملونها جميعاً. ولم يحدث أيّ تطور في تقنيّات الزراعة، لا بل شهدت جموداً واضحاً؛ فقد ظلَّ الثور هو حيوان الجرّ عندهم حتّى القرن الحادي عشر. ودخلت السواقي أوروبا الغربيّة في أواخر القرن الحادي عشر، بينما كانت مستخدمة قبل ذلك بزمان طويل في بلاد المشرق العربي^[٥].

إنَّ هذا المستوى المتدنّي من قوى الإنتاج الماديّة والبشريّة يلائم نوع العلاقة الإنتاجيّة الإقطاعيّة (التبعية)، فهي تكفي لإنتاج الحاجات المحليّة للإقطاعيّة في ظلّ غياب أيّ دافع

١- عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصاديّة، م.س، ص ٣٢.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، مع ٤، ص ٤١٨.

٣- عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصاديّة، م.س، ص ١٥.

٤- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٦٩.

٥- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، مع ٤، م.س، ص ٤١٨.

أو حافز لإنتاج فوائض بهدف مبادلتها^[١]. وزيادة على ذلك، فإنَّ كلَّ الأفكار عن الربح -ومنها بالطبع إمكانيّة تنمية الثروة- كانت متناقضة مع الوضع الذي فرضه ملاك الأراضي الكبار في العصور الوسطى، فحين يكون المالك الإقطاعي غير قادر على بيع فائض إنتاجه في السوق بسبب شيوع مبدأ الاكتفاء الذاتي، لم يعد هذا المالك الإقطاعي بحاجة لأنَّ يقدح ذهنه من أجل أنَّ ينتزع من عمّاله وأرضه فائضاً من الممكن أنَّ يكون عبئاً عليهم ليس إلّا، وكما هو قانع بأنَّ يستهلك إنتاجه ويتخلّص منه، فهو أيضاً قانع بأنَّ يخزّن الفائض منه لوقت الحاجة والضرورة.

وقبل منتصف القرن الثاني عشر، كانت المساحات الأكبر من التربة في الإقطاعات الكبيرة قد قطع الرجاء منها بعد أنَّ صارت تغطّيها الأعشاب والغابات والأحراش. وهكذا، فإنّنا بأقلَّ مجهود ندرك دورة النظام القديم الزراعيّة، ونعرف المحاصيل الزراعيّة، التي كان يزرعها ملاك الأرض أو دورهم في تحسين الأدوات الزراعيّة الرئيسة التي كانت تحت أمره النبلاء والكنيسة؛ لا توحى للذهن بأكثر من عائد طفيف^[٢].

٥. موقف الكنيسة من النظام الإقطاعي

لقد كانت الكنيسة داعمة لهذا النظام الإقطاعي بمواقفها وأموالها، فبينما ظلّت تنظر إلى الكسب التجاري على أنّه غير حلال، نظرت إلى الأراضي الزراعيّة على أنّها وحدها هي المورد الطيّب الذي يمكن أنَّ يعيش عليه الإنسان^[٣]. ونظراً لاهتمام الكنيسة بالأرض، فقد سعت للسيطرة على مساحات كبيرة منها، وقد حصلت من الملوك على إقطاعات مشابهة تماماً للإقطاعات التي كان يحصل عليها السادة الإقطاعيون، وقد سعت الكنيسة لاستثمار هذه الإقطاعات بما يخدم مصلحتها العامّة، ولم يرى رجال الكنيسة حرجاً في استثمار هذه الإقطاعات بما يخدم ويعزّز قوّة الملك، في مقابل تقلّدهم لبعض المناصب العليا في الدولة^[٤].

١ - عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصاديّة، م.س، ص ٣٣.

٢ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٦٤.

٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٣.

٤ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١٦٢.

أما على الصعيد المالي، فقد أقرضت الكنيسة من أموالها للأفراد والهيئات في أوقات الشدة، وكان أكثر من يقترضون المال هم القرويون الذين يرغبون في إصلاح قراهم، وكانت الكنائس والأديرة بمثابة مصارف عقارية. ومنذ سنة ١٠٧٠م، كانت الكنيسة تقرض المال للملاك المجاورين لها نظير حصة من ريع أملاكهم^[١]، حتى وصف أحد المؤرخين الكنيسة في أوروبا الغربية بقوله: «الكنيسة الكاثوليكية كانت المركز الدولي العظيم للإقطاع، وهي التي وحدت أوروبا الغربية الإقطاعية، وجعلت فيها -برغم كل الحروب الداخلية- نظاماً سياسياً موحداً ضد الكنيسة المنشقة عليها، والممالك الإسلامية على حد سواء، فقد أحاطت الأنظمة الإقطاعية بهالة من القداسة، ونظمت طبقاتها، وبذلك أصبحت الكنيسة أقوى سيد إقطاعي، حتى إنها تملك ثلث أرض العالم الكاثوليكي». في الواقع، لقد كانت ممارسات الكنيسة للعمل الإقطاعي عاراً وفضيحة بالنسبة للدين المسيحي في كل أوروبا^[٢].

٦. عبودية النظام الإقطاعي

لقد كرّس النظام الإقطاعي مبدأ استعباد الإنسان لأخيه الإنسان وفق معايير ومصطلحات وأنظمة جديدة، فالقوى العاملة الأساسية التي اعتمد عليها هذا النظام الاقتصادي، هم الأبقان. والأصل في الأبقان (أو عبيد الأرض)؛ أن رجلاً يفلح مساحة من الأرض يمتلكها سيد أو بارون، يؤجرها له طول حياته ويبسط عليه حمايته العسكرية ما دام يؤدي له أجراً سنوياً من الغلات أو العمل أو المال، وكان في وسع هذا المالك أن يطرده منها متى شاء، وإذا مات الفلاح (القن) لا تنتقل الأرض إلى أبنائه إلا بموافقة المالك ورضائه. وكان من حق هذا المالك في فرنسا مثلاً أن يبيع رقيق أرضه بصورة مستقلة عن أرضه، وكان من حقه أن يؤجر عماله (أي إنه يبيع عملهم) لمالك آخر.

لقد كان النظام الإقطاعي نظاماً عبودياً بكل معنى الكلمة، فليس في وسع هذا الرقيق في فرنسا أن يحل العقد الإقطاعي، إلا إذا سلّم الأرض وكل ما يملك إلى سيده؛ أي أن يمسي بلا مصدر رزق. أما في إنجلترا، فكان الوضع أشد وطأة؛ فقد حُرّم الأبقان من هذا الحق (حق مغادرة الأرض)، أما الأبقان، الذين كانوا يفرّون من أرض أسيادهم في العصور

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٤، مج٤، م.س، ص٩٧.

٢- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص١٦٢.

الوسطى، كان يعاد القبض عليهم بالصرامة نفسها التي يعاد بها القبض على العبيد في أيام الإمبراطورية الرومانية^[١]. ومن أشهر ما عاناه الأَقنان، هو حرب الوراثة التي تقع على الأرض إذا مات صاحبها دون ابن أو ابنه، لذلك كان الأَقنان يلحون على سيدهم بالزواج إذا ماتت زوجته حتى لا يتعرضوا لمثل هذه الحروب^[٢].

ولم تتجَلَّ حالة العبودية للنظام الإقطاعي في مبدأ الملكية فقط، بل في مبدأ التبعية بصورة أوضح، حيث فرضت تبعية الأَقنان للسيد الإقطاعي مجموعة من الواجبات، تُقسم إلى أربعة أقسام: أولاً: الخدمات: وهي أعمال السخرة التي يفرضها السيد على أَقنانه، وتُقسم إلى ثلاثة أنواع: ١- السخرة الأسبوعية: إذ كان يفرض على القن أن يعمل ثلاثة أيام في أرض السيد الخاصة، كما يعمل ثلاثة أيام في أرضه التي استلمها من السيد الإقطاعي. أما يوم الأحد، فقد كان العمل فيه محرماً بأمر من السلطات الدينية العليا. ٢- السخرة الفصلية: ومنها حصاد زرع السيد وجمع محصوله. ٣- السخرة العامة: ومنها شق الطرق وحفر الخنادق وإنشاء الجسور. ثانياً: المقررات: وهي الضرائب المالية المتنوعة: ضريبة الرأس: إذ ترتب على كل قن أن يدفع سنوياً للسيد صاحب الأرض ضريبة بسيطة نقدية، أو ضريبة عينية، الغرض منها أن تكون رمزاً للعبودية أو التبعية. ثالثاً: ضريبة العشر: لقد ترتب على القن أيضاً أن يدفع عشر إنتاج الأرض من الحبوب والخضار والثمار، وعشر إنتاج الماشية والطيور والأسماك المصطادة. رابعاً: الاحتكارات: احتكر السيد الإقطاعي لنفسه بعض المؤسسات، وفرض على أَقنانه التعامل معها، ومن أهم هذه المؤسسات الاقتصادية: (الطاحونة، والفرن، والمعصرة، وبئر الماء) حيث كان عليه أن يطحن قمحه في طاحونة السيد، وأن يخبز عجينه في فرن السيد، وكان عليه أن يعصر زيتونه وعنبه في معصرة السيد، وذلك مقابل أجر معين نقدي أو عيني^[٣].

هذا بخلاف الالتزامات الأخرى المتنوعة، فعلى سبيل المثال كان على القن في كثير من الأحيان أن يتتاع قدراً معيناً من خمر سيده الإقطاعي كل سنة، فإذا لم يتتاعها في الوقت

١- ول. ديورانت، قصة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، مج ٤، م.س، ص ٤١٠.

٢- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٦٦.

٣- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٧٥.

المناسب، صبَّ المالك قدرًا من الخمر يعادل أربعة جالونات فوق سطح منزل الرقيق، فإذا جرى الخمر إلى أسفل كان على الرقيق أن يؤدِّي ثمنه، وإذا جرى إلى أعلى لم يكن يلزم بأداء شيء ما. وكان عليه أن يؤدِّي غرامة للمالك إذا ما أرسل هو ابنًا له ليتعلَّم تعليمًا عاليًا، أو وهبه للكنيسة؛ لأنَّ الضيعة بذلك تخسر يداً عاملة. وكان يؤدِّي ضريبة، ويحصل على إذن من السيّد الإقطاعي إذا تزوّج هو أو أحد أبنائه من شخص خارج عن نطاق الضيعة؛ لأنَّ المالك يخسر بهذا العمل بعض أبناء الزوج أو الزوجة أو يخسرهم كلّهم، وكان لا بدّ من الحصول على الإذن، وهذه الضريبة في بعض المزارع في كلّ زوج أياً كان. ونستمع في حالات فردية عن «حقّ الليلة الأولى»؛ أي حقّ السيّد في أن يقضي مع عروس رقيق الأرض الليلة الأولى من زواجها، ولكن الرقيق كان يُسمح له أحياناً أن «يفتدي» عروسه بأجر يؤدّيه للسيّد، وقد بقي حقّ الليلة الأولى بصورته هذه في بافاريا حتّى القرن الثامن عشر. وكان المالك في بعض الضياع الإنجليزيّة يفرض غرامة على الفلاح الذي تأثم ابنته، وفي بعض الضياع الإسبانيّة، كانت زوجة الفلاح التي يحكم عليها في جريمة الزنا، تؤوّل أملكها كلّها أو بعضها لصاحب الأرض، وأمّا عند موت القنّ، يتسلّم السيّد كلّ ميراثه ويؤوّل إليه^[١].

٧. تدهور التجارة في ظلّ النظام الإقطاعي

لقد واجهت التجارة في أوروبا في بداية العصور الوسطى الكثير من المعوّقات الداخليّة والخارجيّة؛ إذ قلّ عدد التّجار، وتراجع دور التجارة البحريّة في الاقتصاد الأوروبي^[٢]، وانطوت القرى على نفسها، وتراجع الاقتصاد القائم على النقد، واختفت المبادلات التجاريّة البعيدة المدى^[٣]، باستثناء بعض العلاقات التجاريّة بين بعض المدن الإيطاليّة من جهة، والدولة البيزنطيّة من جهة ثانية، وقد استمرّ هذا الوضع حتّى عصر المملكة الفرنسيّة^[٤]. وتجدر الإشارة إلى جملة الأسباب التي أسهمت في انهيار التجارة خلال هذه الفترة من الزمن:

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٣، مج٤، م.س، ص٤١٢.

٢- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص١٦١.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص٣٣.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص٩٣.

أولاً: إنَّ جميع أسباب الحياة من طعام وشراب وكساء متوافرة داخل الضيعة؛ فالثمار والحبوب والخضروات تنتجها الأرض، والملابس تصنعها نساء الضيعة من صوف الأغنام، أمَّا الجلود والنعال والسروج فيصنعها الرجال. وهكذا ظلَّت الضيعة الأوروبية حتَّى القرن الثاني عشر الميلادي تتبع نظام الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية، ولم تكن بحاجة ملحة إلى التبادل التجاري مع العالم الخارجي الذي يقع وراء حدودها، ولكنَّ هذا الأمر لا ينفي وجود بعض التبادلات التجاريَّة الخارجيّة مع الضيع المجاورة عن طريق المقايضة، كأنَّ تجري مقايضة الخنازير مع الدجاج، والحبوب بالثمار، وما شابه ذلك. وهكذا لم توجد أسواق كبيرة لتصريف إنتاج الضياع الزراعي^[١]، وبالتالي، لم يكن للأسواق في العصور الوسطى إلَّا جزء صغير من بنية الحياة اليوميَّة، واقتصرت عمليَّات البيع والشراء على حاجيَّات تَمَسُّ الزراعة مباشرة، لا سيَّما الماشية والثيران والخيول، في أغلبها عمليَّات مقايضة، وكانت تتم من شخص لآخر^[٢].

ثانياً: لقد واجهت حركة التجارة البسيطة هذه معوقات منعت تطوُّرها؛ إذ لم يعد هناك ما هو مغر للمغامرة في تجارة بعيدة، ويمكننا أن نعزو ذلك إلى ارتفاع تكاليف النقل البحري مقابل أرباح قليلة^[٣]، هذا ناهيك عن ضعف وسائل المواصلات، وصعوبة الانتقال ونقل البضائع من مكان إلى آخر؛ ذلك أنَّ الطرق العظيمة المرصوفة بالحجارة، التي كانت تربط المدن الرومانيَّة ببعضها، لم تلبث أن اختفت وعفا عليها الزمن، كما انهارت الجسور المقامة على الأنهار نتيجة للإهمال الذي تعرَّضت له المرافق العامَّة كافَّة عند انحطاط أحوال الإمبراطوريَّة الرومانيَّة. ولم تكن الطرق التي عرفتها أوروبا العصور الوسطى أكثر من سبل بدائيَّة غير ممهَّدة تكسوها الأتربة الكثيفة، التي سرعان ما تتحوَّل إلى أوحال عند هطول الأمطار، زيادة على ما يعترضها من حفر جعلت المشي فيها ليلاً أمراً محفوفاً بالمخاطر. أمَّا الجسور، فغدت قليلة ونادرة، الأمر الذي تطلَّب من المسافرين في كثير من الحالات أن يخوض في الماء بنفسه، أو يبحث عن وسيلة يعبرُ بها النهر. وفي هذه الظروف، لم يجد تجار العصور الوسطى وسيلة لنقل بضائعهم

١- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ٧٨.

٢- جون كينيث جالبرت، جوزيف كولنز، تاريخ الفكر الاقتصادي، الماضي صورة الحاضر، ترجمة: أحمد فؤاد بليغ، مراجعة: إسماعيل صبري عبد الله، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٢٦١، سبتمبر ٢٠٠٠م، ص ٣٨.

٣- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١٦١.

سوى استخدام الخيل والبغال، في حين اضطر صغار التجار إلى حمل بضائعهم على ظهورهم والتنقل بها سيراً على الأقدام من مكان إلى آخر^[١].

ثالثاً: لقد تعرّضت أوروبا لتهديدات أتت عبر البحار الشماليّة، وهي هجمات (الفايكنغ)، التي بدأت في مطلع القرن الثامن الميلادي أيضاً، واستمرت حتى القرن الحادي عشر. وقد وصف السجل التاريخي الفرنسي الدمار الذي لحق بفرنسا بشيء من الأسى، حيث وصف أعداد السفن التي كانت تهاجمها عبر البحر، وتزداد في تعدادها باستمرار، والتدقق غير المنقطع للفايكنغ والنتائج الكارثيّة لغزوهم؛ الذي خلف آلاف القتلى من السكّان جرّاء المذابح التي كانت تُرتكب بحقهم من قبل الفايكنغ، إلى جانب عمليّات الإحراق والنهب والسرقة، ووصف السجل التاريخي ذلك بالقول: «بأنّ تلك المذابح والهجمات ستظلّ وصمة عار في جبين التاريخ، ما بقي العالم والناس»^[٢]. وتابع المجر هجماتهم على أوروبا الغربيّة، فسبّبوا ما حلّ فيها من الخراب والاضطراب أيام خلفاء شارلمان، فانقطعت سبل التجارة فيها، وقد كان هذا كلّ سبباً في انحطاط الحياة الأوروبيّة الاقتصاديّة والعقليّة في القرنين التاسع والعاشر^[٣].

ورغم جميع ما تقدّم، تجدر الإشارة إلى أنّ التجارة الدوليّة لم تتوقّف تماماً، فقد كانت هناك دائماً قلة من التجار الذين اقتفوا أثر الطرق الرومانيّة القديمة، وغامروا بحياتهم وبضائعهم في تلك الطرق التي أمست غير آمنة ووعرة بعد إهمالها^[٤]، وكان هؤلاء التجار من التجار المحترفين، الذين يستهونون البيع والشراء، ومن اليهود والإيطاليين، الذين تاجروا بالتوابل والمنسوجات الحريريّة وغيرها من منتجات الشرق ومصنوعاته^[٥]، ومواد الرفاهية، والمواد اللازمة لثياب البلاط، وملابس رجال الكنيسة، حيث أنّها كانت بضائع لا تواجه مشكلات كثيرة في الشحن، فكلّ ما خفّ حمله غلا ثمنه^[٦].

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١١١.

٢ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١٦١.

٣ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٧٠.

٤ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١٦١.

٥ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة، م.س، ص ١١٦.

٦ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١٦١.

٨. انهيار النظام الإقطاعي

لقد تداعى النظام الإقطاعي في أوروبا كنتيجة للثورة الاقتصادية التي جرت في أوروبا في الفترة الواقعة بين القرن الحادي عشر والثالث عشر^[١]، وإن كان علينا أن ننتظر حتى القرن الخامس عشر؛ إذ ستحوّل أوروبا بشكل كليّ من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي^[٢]. لقد سيطر النظام الإقطاعي على تفاصيل المشهد الإقطاعي طوال العصر المظلم، إذ لم يكن يوجد قبل نهاية القرن الحادي عشر سوقاً لتصرف المنتجات الزراعية؛ لأنّ السيّد صاحب القرية وأهل داره استهلكوا منتجات القرية، وما تبقى منها استنفده الفلاحون. لكنّ منذ أن بدأت تتطوّر المدن الأسقفية ومدن الحصون بعد أن استوطنتها التجار والصنّاع، ظهر من الإنتاج ما يصحّ أن يفيض عن الحاجة إليه^[٣]، وصار الفائض عن الاستهلاك من المنتجات الزراعية يباع من قبل الفلاحين في أسواق المدن الأسقفية، ومدن الحصون، وهذا البيع أدّى إلى ظهور عمليّات تجارية ضئيلة الحجم^[٤]، ورغم أنّها ضئيلة، إلّا أنّها مهّدت لظهور سوق للإنتاج الزراعي في تلك المدن^[٥]، فصار يوسع الفلاح إرسال إنتاجه إلى سوق أقرب مدينة لبيع فيها، بدلاً من إرساله إلى مقرّ المالك الإقطاعي.

في الواقع، إنّ نشوء المدن في القرن الحادي عشر جاء انقلاباً اقتصادياً شاملاً، حيث تحوّلت المدينة نفسها إلى سوق مركزية للمقاطعة أو الإقليم المحلي المحيط بها، الأمر الذي كان يتعارض مع الفكرة التي قامت عليها التكتلات الإقطاعية للقرى، ممّا أسهم في انهيار نظام الاكتفاء الذاتي للقرية، وقيام العلاقات المتبادلة مع المدينة^[٦].

لقد كان الانتقال من الاقتصاد العيني إلى الاقتصاد النقدي، قد زاد من نفقات السادة الإقطاعيين؛ ذلك أنّ إيجار أرضهم والأموال التي كانوا يحصلون عليها من الزرع نظير الرسوم المفروضة عليهم، قد أصبح لها من الثبات في العصور الوسطى ما للعادات المألوفة،

١- أحمد إبراهيم الشعراوي، الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٧٠م، ص ٥٣.

٢- عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، م.س، ص ٤.

٣- أحمد إبراهيم الشعراوي، الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٣.

٤- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٦.

٥- أحمد إبراهيم الشعراوي، الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٥٣.

٦- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٠٤.

ولم يكن في مقدورهم أن يزيدوها بالسرعة نفسها التي تنخفض فيها قيمة النقد. ولمّا كان النقد في أوروبا العصور الوسطى، قد ظلّ يعاني من جرّاء تقلّب قيمته^[١]، فقد نتج عن ذلك ارتفاع في الأسعار، وتماشى ارتفاع الأسعار ذلك الوقت مع طريقة الحياة التي أصبحت مطالبها أكثر تكلفة^[٢]. وبالتالي، ألحق التطوّر الاقتصادي الضرر بالأشراف التقليديين، فبعد أن تعدّدت مناسبات الإنفاق أمام الفارس الذي لا يأتي عملاً، والذي يعتبر أن التبذير فضيلة كبرى، ولم يعد الفارس في القرن الثالث عشر ليرتضي بمعيشة أجداده الريفيّة القانعة، بل ثابر على التردّد على الجمعيات والبلاطات، ولم يكن جائزاً له من باب اللياقة الظهور فيها إذا لم يرتدّ ملابس شريفة الألوان يبتاعها من التجار^[٣]، لا بل ولدت الرغبة عند هؤلاء النبلاء -مع كلّ اتجاه سلكته التجارة- في اقتناء السلع الاستهلاكية الجديدة التي جلبتها معها. وكما كان يحدث دائماً، رغب الأرستقراطيون في أن يحيطوا أنفسهم بالترف، أو على الأقلّ بالراحة، وبالفعل فقد عجز ملاك الأراضي عن مقاومة احتياجاتهم الجديدة، وإيجاد المال الكافي والضروري الذي يرضيهم ويشبع رغباتهم^[٤].

وعلى الرغم من أنّه تمّ استبدال الإتاوات وأعمال السخرة بضرائب نقدية واتساع الحقوق الأميرية للسيد الإقطاعي؛ فجميع الأشراف طالبوا أتباعهم آنذاك بالمساعدة الماليّة، وخضع الفدّادون الجدد في فرنسا للإقطاع التعسّفي، الذي زاد من موارد النبلاء النقدية، إلّا أنّ هذه الموارد باتت غير كافية، وقد اختلّ باستمرار -خلال السنوات الأولى من القرن الثالث عشر- ميزان حسابات الفارس، فلجأ النبلاء في سبيل المحافظة على مستواهم المعيشي إلى الاستدانة، لكنّهم في هذه المرّة لم يستدينوا من أقربائهم وأصدقائهم كما فعلوا فيما مضى، فاليوم الكلّ يتخبّط بالضائقة النقدية، وبالتالي، اتّجهوا إلى المؤسسات الدينية المزدهرة، وإلى البرجوازيين في المدن^[٥]. لذلك اضطرّ كثيرون من الأشراف بعد استنزاف المال المستدان إلى بيع أرضهم في سبيل سداد الديون التي ترّبت عليهم، وباعوها عادة إلى رجال

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مع ٤، م.س، ص ٣٦.

٢- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٨١، ٨٢.

٣- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ج ٣، ط ٢، نقله إلى العربيّة: يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٦ م، ص ٤٠٦.

٤- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٨١، ٨٢.

٥- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٠٧.

الطبقة الوسطى الناشئة، الذين كانوا يبحثون عن توظيف مضمون لأموالهم النقدية. وحسبنا دليلاً على هذا، أنَّ بعض النبلاء قد ماتوا من زمن بعيد؛ أي نحو سنة ١٢٥٠، وهم لا يملكون أرضاً، ومنهم مَنْ مات فقيراً معدماً^[١].

كما اتّصلت بالنقد حركة أخرى بالغة الأهمية؛ وهي تحرير الأتقان (عبيد الأرض)، فمن المعروف أنَّه تمّ في بعض الأحيان تحرير أفراد وأسر من رقيق الأرض، مقابل مبالغ مالية كبيرة التزم الأتقان بدفعها على فترات معينة بعد إعتاقهم، كان الهدف منها الحصول على مبالغ مالية. ويبدو أنَّ الأمر كان خسارة للفلاحين، فالضرائب التي كانوا يدفعونها للسيد، هي أقلّ بقليل من ثمن الحرية التي حصلوا عليها، وإنّ ما أحرزه الفلاحون من حقوق قانونية بعد أن أصبحوا أحراراً، لم يكن من اليسير الاستمتاع به، فمثلاً يستطيع الفلاح مغادرة أرض سيّده، غير أنَّه لا يحمل معه متاعه الخاص، ولا يخرج إلا بثوبه. على تحرير الرقيق أنهي ما للسيد من سلطة تحكمية اقتصادية، والحق أنَّ السادة لم يهتموا كثيراً في نهاية القرن الثالث عشر بالزراعة، فلم يكونوا سوى سادة يعملون على جباية الخراج، لذلك لم يجدوا حرجاً في إعتاق أتقانهم مقابل مبالغ مالية كبيرة^[٢]. وسرعان ما فقدت محاكم القرى الإقطاعية ما كان لها من سلطان على الفلاحين منذ القرن الثالث عشر، ولم يعد هؤلاء الفلاحين يقسمون يمين الولاء للسيد الإقطاعي المالك لأرضهم، بل للملك نفسه. ولم يقتصر إعتاق الرقيق على السادة الإقطاعيين، بل تعدّاه إلى الدولة، إذ أعتق فيليب الجميل ملك فرنسا جميع أرقاء الأراضي الملكية في أوائل القرن الرابع عشر، وأمر ابنه لويس العاشر في سنة ١٣١٥م بتحرير جميع أرقاء الأرض «بشروط عادلة». وهكذا، أخذ نظام رقيق الأرض يتلاشى شيئاً فشيئاً في أوروبا الغربية، وذلك في أوقات مختلفة من بداية القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر، وفقدت الضيعة بذلك أهميتها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وحلّت محلّها ملكية الفلاحين لأرضهم، وتقسّمت ضياع الإقطاع الكبرى إلى مزارع صغيرة^[٣].

وهكذا، منذ أن تحرّكت المياه الراكدة في أوروبا في القرن الحادي عشر، وبعد سبات

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مع ٤، م.س، ص ٣٦.

٢- أحمد إبراهيم الشعراوي، الإقطاع وأوروبا، م.س، ص ٥٣، ٥٤.

٣- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مع ٤، م.س، ص ٣٦.

طويل استمر نحو ستّة قرون، حدثت تطوّرات كبيرة في قوى الإنتاج بشقيها الماديّ والبشري، وحسب قانون الانسجام، فإنّه لا بدّ من أن تتطوّر العلاقات الإنتاجيّة الإقطاعيّة (التبعية) إلى علاقات جديدة تتوافق مع التطوّرات الكبيرة التي حدثت في قوى الإنتاج. ولذلك تطوّرت العلاقات الإنتاجيّة بين المنتج الفعلي (العامل) من جهة، والمالك للمؤسسة، أو المصنع، أو الشركة، أو المزرعة ... إلخ من جهة أخرى، فأصبحت العلاقة الإنتاجيّة علاقة تعاقدية بين العامل أو الموظف، وبين المالك صاحب رأس المال. وفي القرن الخامس عشر، بات واضحاً أنّ النسبة الكبرى من النشاط الاقتصادي (الناتج الإجمالي) في دول غرب أوروبا يدار بالأسلوب الرأسمالي؛ أي وجود شركات أفراد، أو جماعات، أو شركات مساهمة صناعيّة، تجاريّة، زراعيّة، وشركات خدمات متنوّعة، تهدف إلى تنمية رؤوس أموالها بصورة مستمرة، ويتمّ الإنتاج فيها عن طريق توظيف عناصر الإنتاج بتملكها أو استئجارها. ولكنّ فيما يتعلّق بالعنصر البشري من عمّال وفنيين وإداريين ... إلخ، فهم أجراء، يعملون بعقود ورواتب، وهم ليسوا عبيداً، وليسوا أتباعاً، وليسوا شركاء^[١].

ثانياً: النظام الاقتصادي الرأسمالي في أوروبا العصور الوسطى

١. بداية تبلور نظام اقتصادي جديد

إذاً، كانت الفترة الواقعة بين سقوط روما سنة ٤٧٦ م وسنة ١٠٠٠ م تقريباً، تمثّل عهداً مظلماً في تاريخ المدن الأوروبيّة، حيث اختفت الحياة المدنيّة، وصحب ذلك ذبول للصناعة والتجارة، تبدّل الحال وصارت المدن بمثابة المكان المختار الذي أخذ الأقنان ينزحون إليه عندما انحلّ النظام الزراعي القائم على أكتافهم. والواقع أنّ إحياء المدن في العصور الوسطى جاءت ثورة بالغة الخطورة، لا في الميدانين السياسي والاقتصادي فحسب، بل في الميدان الاجتماعي أيضاً^[٢]. ففي القرن العاشر، تخلّى الإسكندنافيون الشماليون عن أعمال الغزو والنهب، واهتمّوا بأعمال التجارة، فتمّ عن طريقهم اتصال شمال أوروبا بالإمبراطوريّة البيزنطيّة^[٣]. أمّا في جنوب أوروبا، أخذت مدن مثل جنوة، وبيزا، والبندقية تهيمن على تجارة

١ - عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصاديّة، م.س، ص ٣٧.

٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٢.

٣ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبيّة، م.س، ص ١١٦.

البحر المتوسط، وبدأت عظمة البندقية حوالي سنة ١٠٠٠ م بتوسيع مجالها على امتداد الساحل الأدرياتيكي، بعد أن تابعت نشاطها التجاري في الموانئ البيزنطية والعربية الواقعة على شواطئ البحر المتوسط، حتى أصبحت المدن البحرية الإيطالية في القرن الحادي عشر في حالة تمكّنها من القيام باستيراد وتصدير السلع والبضائع بين الشرق والغرب^[١].

وبذلك نهض في شمال أوروبا وجنوبها مركزان تجاريان بفضل جهود الإسكندنافيين والإيطاليين، وغلبت على التجارة في تلك الفترة صفة الانتقال والحركة، فالتجار كانوا يلتقون في جماعات ويرتحلون برّاً وبحراً لنقل البضائع المتنوعة؛ كالقمح والنيذ والصوف والقماش وغير ذلك، وبفضل اجتماع هؤلاء التجار، استطاعوا أن يقوموا بعمليات تجارية كبيرة. وقد جرت الإشارة إلى اتحاد هؤلاء التجار باسم النقابة، وفي القرنين العاشر والحادي عشر، ظهر هؤلاء التجار كمحترفين يحصلون على معاشهم من طريق العمل التجاري فحسب^[٢]، فمن أين جاء هؤلاء التجار؟

في الواقع، إن معظم تجار أوروبا العصور الوسطى انبثقوا من حثالة المجتمع^[٣]، فمنذ القرن العاشر أخذت تظهر داخل القارة الأوروبية طبقة من التجار المحترفين، الذين جرى انتزاعهم من العناصر الفائضة في الحياة الزراعية، هذه العناصر دفعها حرمانها من الأرض إلى أن يؤجّروا أنفسهم في أعمال مختلفة، فاشتغلوا بحارة أو حمّالين أو عملوا في المراكب التجارية^[٤]، وما إن انتعشت التجارة -بعد فترة من السلام والهدوء- حتى سارعوا إليها من دون أن يكون في حوزتهم ممتلكات سوى نشاطهم، وطمعهم في الثروة، وحبهم للمغامرة، وخبراتهم المتنوعة، ومعرفتهم باللغات الأجنبية من خلال عملهم في الموانئ. وبمساعدة الحظ، كوّن الكثير منهم ثروات وجمعها، كما فعل المستعمرون وقطّاع الطرق، فلم يكن هناك في الأسواق المحلية أكثر من هؤلاء المغامرين البائعين بالتجزئة، الذين لم يكن لهم هدف سوى الربح مهما كانت الوسائل^[٥]. وبالتالي، لم يكن شحّ الغذاء والمجاعات الكبرى

١- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١١٨.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٦.

٣- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥٥.

٤- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٧.

٥- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥٥.

في العصور الوسطى، قد حدثت خلال فترات كانت فيها المواد الغذائية شحيحة، بل كانت في الحقيقة متوفرة، ويتم إنتاجها بكميات كبيرة، إلا أنّ هذه المواد بدأت تحتكر وتصدّر إلى الأماكن التي قد يحصل فيها هؤلاء المغامرين البائعين بالتجزئة على أرباح أكبر؛ أي إنّ النظام والبنية الاجتماعيين كانا مسؤولين بدرجة كبيرة عن أوجه الشحّ والنقص هذه^[١].

لقد كان هؤلاء المغامرون البائعون بالتجزئة يأخذون السلع من البلاد التي تنتج سلع التصدير الرخيصة، ثمّ يأخذون هذه السلع لبيعها في أماكن البيع ومناطق المجاعات، التي كانت تتيح لهم تحقيق أرباح كبيرة من بضائع قليلة، فالناس الذين يموتون من الجوع لا يسامون على جوال من القمح، والتجار الذين يتاجرون بأمسّ حاجات الإنسان، لا يضعون أثناء هذه الكوارث خسارتهم في الحسبان، ومنذ بداية القرن الثاني عشر لا تترك المصادر شكاً لنشاط هؤلاء البائعين بالتجزئة في جمع الحبوب في أوقات الشدّة^[٢]، لا بل إنّ طبقة من هؤلاء التجار، لم يكن معها في الأصل رأسمال، بل تولّوا المتاجرة ببضائع لم يدفعوا ثمنها، واقتسموا الأرباح مع أصحاب السلعة، ولم يمضِ إلّا زمن قصير حتّى ظهرت من بين هؤلاء المغامرين الجائلين فئة من التجار الأغنياء محدثي النعمة^[٣]. وبالتالي، علينا الكفّ عن التفكير والاعتقاد بأنّ مؤسسي النظام الرأسمالي الأوروبي الأوائل كانوا ملاك أراضٍ خاطروا بمدخراتهم في التجارة، أو باعوا أراضيهم من أجل أن يكونوا رأسمالهم الأوّل^[٤].

لقد تباينت ردود الأفعال على هذا النظام الجديد، إذ كره النبلاء الإقطاعيون هؤلاء التجار المحدثين، وأنكروا عليهم ما أصابوه من أرباح كبيرة فاقت ثروتهم. وكانت فكرة احتقار الاشتغال بالتجارة قد تأصّلت عندهم، باستثناء ما حدث في إيطاليا من إقبال الأسر الأرستقراطية على استثمار ثروتها في العمليات التجارية. أمّا القانون الإقطاعي الذي جعل الإنسان حرّاً ما لم يكن تابعاً لسيّد، فقد عدّ التجار أحراراً، على الرغم من أنّهم كانوا في معظمهم من أبناء الأرقاء. لكنّ هؤلاء التجار انتزعوا أنفسهم من الأرض التي نشؤوا عليها،

١ - فرانسيس مور لاييه، جوزيف كولينز، صناعة الجوع، خرافة الندرة، ترجمة: أحمد حسان، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد ٦٤، أبريل ١٩٨٣م، ص ٧٣.

٢ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥٥.

٣ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٧.

٤ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥٦.

وأخذوا يطوفون في أنحاء البلاد من دون أن يطالب أحد بتبعيتهم له. ولم يطالب هؤلاء التجار بالحرية، بل جاءتهم الحرية عفواً؛ إذ حصلوا عليها بحكم العادة والمدة والقانونية «إنَّ الذي يغادر القرية إلى المدينة ويعيش فيها مدة سنة ويوم واحد دون أن يطالب سيد برجوعه، يصبح حراً»، وصار التاجر يخضع لسلطان القانون العام بدلاً من الخضوع لسلطان السيد الإقطاعي أو قضاء الكنيسة^[١].

٢. تطوّر المدن إلى مدن برجوازية

لقد كان تطوّر التجارة يسير جنباً إلى جنب مع انتعاش المدن الأسقفية ومدن الحصون، وكان كلّ منها يعتبر سبباً ونتيجة للآخر في الوقت نفسه؛ أي إنه يصعب فصل نموّ التجارة ونموّ المدن أحدهما عن الآخر^[٢]، إذ حتمّ نظام التجارة الناشئة على التجار أن يستقروا في مواضع معينة في الفترات الواقعة بين رحلاتهم التجارية بحكم الحاجة الماسّة إلى مستودعات يقضي فيها التجار أشهر فصل الأمطار القاسية لانتظار فصل القوافل والأسواق الموسمية، ومن الطبيعي أن يتخذوا لإقامتهم الأماكن التي اشتهرت بسهولة المواصلات، والتي يطمئنون فيها على أموالهم وسلعهم، وعلى هذا لجأ التجار إلى المدن الأسقفية ومدن الحصون التي تسدّ حاجاتهم. وفي أوّل الأمر، أقام التجار في ساحات تلك المدن وبساتينها داخل الأسوار، ولما ضاقت بهم البقاع داخل الأسوار، أقاموا خارجها؛ إذ أقام القادمون الجدد لأنفسهم ربضاً خارج سور المدن، وشيّدوا حوله سوراً جديداً من الخشب، وفيما بعد سوراً من الحجارة يحيط به خندق^[٣].

ولم يلبث الأمراء المحليون أن شجّعوا هؤلاء التجار على الإقامة بجوار حصونهم؛ نظراً للفائدة التي تعود عليهم من وراء فرض ضرائب متنوّعة على تجارتهم من ناحية، وبثّ نوع من النشاط والحركة في مناطقهم من ناحية أخرى. وهكذا، بدأت تظهر منذ القرن الحادي عشر شبه حظائر مسوّرة متاخمة لحصن الأمراء، تمتّع التجار فيها بقسط من الحرية الشخصية، التي لم تتوفّر للأقنان في الضيع المجاورة، كما تطوّرت الحقوق المحدودة التي

١- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٧-١١٨.

٢- عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، م.س، ص ٣٦.

٣- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٩.

حصل عليها تجّار هذه التجمّعات من الأسقف أو مقدّم الدير أو السيّد الإقطاعي لتصبح نواة للعهود والبراءات الإعفائية التي تمتعت بها المدن فيما بعد^[١].

وكلمّا ازداد النشاط التجاري اجتذبت الأرباض (الضواحي) إليها أعداداً كبيرة من السكّان الجدد، الذين أخذت مساكنهم بالاتساع والامتداد^[٢]. وهكذا أخذت هذه التجمّعات التجاريّة تتطوّر، سواء أكانت مرتبطة بإحدى المدن الأسقفية، أو خارج سور دير من الأديرة، أو بالقرب من بعض الحصون الإقطاعية، لتنشأ منها مدن العصور الوسطى البرجوازية^[٣]، والتي صارت في مستهل القرن الثاني عشر تحيط بالحصون القديمة من كلّ الجهات، وصار الحصن مجرد حيّ قديم في وسط المساكن الجديدة. وتدرجياً، تحوّل الرض إلى مدينة جديدة تقابل الحصن (المدينة القديمة) أو تحيط به، وأخذت الضواحي (الرض) تتجاوز في الأهمية المدينة الحصن (البرج Bourg)، كما اغتصب اسمها، فأصبح سكّانها البرجوازيون Bourghers، سكّان المدن (البرج)، وكانت هذه المدينة نفسها محاطة بسور يحمي ثروتها من العدوان الخارجي، ولها كنيستها وسوقها. وباختصار، أصبحت مركزاً حقيقياً للحياة المدنية^[٤].

كما أنّ تجمّعات الأتقان التي اختارت العيش بجوار القصور والحصون والأديرة المسيحية احتماء بها، أدّت كثافتها وتمتعها بالسلم والحماية إلى تمكينها من القيام بنشاط صناعي محدود، حتّى إنّ الأتقان الذين كانوا يعملون صيفاً في فلاحه الأرض، أخذوا يشغلون وقتهم في الشتاء بالنجارة وصناعة الجلود أو الأواني الفخارية لبيعوا إنتاجهم في أقرب سوق محليّ. وهكذا بدأت هذه المجتمعات الجديدة تعتمد شيئاً فشيئاً على القرى والمناطق الريفية المجاورة في الحصول على قوتها وفي تصريف إنتاجها الصناعي البسيط^[٥]. وبتعاظم التجارة وحركة الأموال والنمو السكاني والعمراني، أصبحت هذه المدن الجديدة مراكز اقتصادية مهمّة تساهم بنسبة كبيرة في النشاط الاقتصادي، كما أصبحت بيئة جاذبة للعمالة؛

١- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٤.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٩.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٤.

٤- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٩.

٥- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٣.

ففي المدينة، بالإضافة إلى التجارة والتخزين والنقل والتمويل... إلخ، هناك قطاعات خدمية وصناعية وأنشطة مساعدة أخرى تفتح فرص عمل كثيرة ومتنوعة تدرّ دخلاً مجزية للعمال^[١].

ومن المفيد التذكير في هذا الباب بأنّ مدينة العصور الوسطى كانت متعدّدة المراكز، ولكنّ السوق كان أهمّها. ويعدّ هذا الأمر تحوّلاً جديداً يضاف إليه تحوّل آخر لا يقلّ أهميّة؛ وهو أنّ المدينة أضحت مركز إنتاج بفضل الورشات الحرفيّة التي أصبحت تحتضنها بعد أن كانت تحتضنها فيما مضى دومينات أفراد الأرستقراطية العقاريّة. والدليل على ذلك، هو كون كثير من أزقة المدن المعاصرة ما زالت تحمل أسماء بعض الحرف والحرفيين من قبيل: «زقاق الدباغين» أو «زقاق النساجين». وتحيل هذه الأسماء طبعاً على الحرف التي كانت منتشرة في مدن العصور الوسطى^[٢].

لكن إذا ما وضعنا في اعتبارنا السلع التي غدّدت التجارة الدوليّة في العصور الوسطى، نلاحظ أنّ المنتجات الصناعيّة كانت قليلة بشكل كبير مقارنة بالمنتجات الزراعيّة والإمدادات الغذائيّة. فقط الملابس المصنّعة في الأراضي المنخفضة، ومؤخراً في فلورنسا، كان لها نصيب كبير في التصدير التجاري. وقد كان استيراد المنسوجات الحريريّة والمواد الكماليّة في إيطاليا محدوداً بالنسبة لكلّ فروع الصناعة (الأواني، الأثاث، الأحذية، الملابس، الآلات، والأدوات بمختلف أنواعها)، وظلّ داخل حدود هذه المدن، وكان احتكاراً لصانعيهم، ولا يغذي إلّا السوق المحليّ^[٣].

ويلاحظ عدد من المؤرّخين أنّ المنشآت الإنتاجيّة الرأسماليّة بدأت تنمو وتتكاثر في القرن الثالث عشر، حتّى أصبح العاملون في هذه المنشآت، ملاكاً أو أجراء... إلخ؛ يشكّلون شريحة لا يستهان بها من المواطنين، (خاصّة في المدن)، فلم يشرف القرن الثالث عشر على الانتهاء، إلّا وقد بدأت سمات الاقتصاد الرأسمالي واضحة وشائعة، مثل الشركات الكبرى، والمضاربة بالأسهم، وأسواق السلع، ورؤوس الأموال الضخمة... إلخ. هذه الطبقة من

١ - عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصاديّة، م.س، ص ٣٦.

٢ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١١١.

٣ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥١.

المواطنين المرتبطة بالأنشطة الاقتصادية الرأسمالية، هي التي سمّاها المؤرخون بالبرجوازية الجديدة، والتي بدأت تدافع عن مصالحها الاقتصادية المباشرة، وعاداتها، وتقاليدها، وقيمها الخاصة الناشئة عن طبيعة نشاطها الاقتصادي الجديد^[١].

٣. العقبات التي اعترضت سبيل البرجوازيين الجدد

لقد واجه البرجوازيون في مدنهم الجديدة عدداً من العقبات والمشكلات، فإذا كان المناخ الاقتصادي والاجتماعي مناخاً خاصاً جداً في هذه المدن، فإنّ تنظيم السلطة فيها مماثل في الأصل لتنظيم السلطة في الريف، فالفلّاحون الذين هربوا من الريف إلى المدينة حتّى يتملّصوا من الضرائب المفروضة عليهم في الريف؛ أخذوا يتذمرون من الخدمات والوجبات المفروضة عليهم تجاه معلّمهم في المهنة التي بدؤوا يحترفونها في المدينة. أمّا المشكلة الثانية، هي أنّ هذه المدن الجديدة قامت على أراضٍ إقطاعية ريفية قديمة، حيث بنيت المساكن على أراضٍ زراعية، وبالتالي، كان لزاماً على سكّان المدن الجديدة أن يلتمسوا رضا ملاك البقعة التي تقع بها مدنهم؛ من الأساقفة والكونتات أو السادة الإقطاعيين، وهكذا صار أسياد الأرض يطالبون شاغلي هذه الأراضي بالإتاوات السابقة نفسها، وبالمواد الزراعية، وحتّى خدمة الحراثة. وازداد من تعقيد الوضع تعدّد أنظمة القضاء؛ إذ كان لكل من الملاك الذين يشتركون في ملكيّة الأرض محكمته الخاصة، وبالتالي، خضعت المدينة كلّها إلى حكم سيّد أو عدّة أسياد، وفرض أسقف المدينة ورئيس الدير وحاكم الحصن، الذي استوفى الرسوم نفسها المستوفاة في الأحياء الريفية من ممتلكاتهم؛ الخدمة العسكرية أثناء تنظيم الأسواق، وكان سكّان المدينة يعطونه قسماً من مصنوعاتهم كضريبة إقطاعية. كما فرض السادة الإقطاعيون الضرائب المتنوّعة، حتّى إنهم كادوا أن يتزعوا من التجار رؤوس أموالهم، ومارسوا أخيراً بعض الحقوق التي عرقلت أعمال المقايضة؛ كامتياز الشراء بالدين، وحقّ إرهاب التجار الغرباء، وحقّ فرض الرسوم على الصفقات وانتقال البضائع^[٢].

والأسوأ من كلّ ما تقدّم أنّه كلّما تطوّرت المدن وازداد دخلها الاقتصادي، كان سادتها الإقطاعيون يهاجمونها بفرقهم العسكرية وينهبون المحلّلات الصناعية - التجارية فيها، حتّى

١ - عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، م.س، ص ٢٢.

٢ - إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، ط ٢، م.س، ص ٣٠٦.

إنَّ أحدَ كتابِ الحوَلِيَّاتِ الفرنسيَّةِ يتحدَّثُ عن أنَّ أسقفَ مدينةِ لان (في شمالِ شرقِ فرنسا) فرضَ على هذه المدينةِ ضرائبَ باهظة، ففاوضه سكاَّنُها على شراءِ استقلالهم مقابلَ مبلغٍ كبيرٍ من المالِ فقبل، لكنَّه بعدَ ثلاثِ سنواتٍ عاد ليطالِبهم بالضرائبِ من جديد، ما تسبَّبَ في انتفاضةٍ شعبيَّةٍ، ولم تكن هذه الانتفاضة الوحيدة من نوعها في مدنِ أوروبا الغربيَّة^[١]. وهكذا، فإنَّ النظامَ السياسي في المدن لم يناسب دورها الاقتصادي^[٢].

بينما كانت المشكلة الثالثة التي واجهتها الطبقة البرجوازيَّة، هي أنَّها عندما تشكَّلت من التجار والصنَّاع في هذه المدن، لم يكن لهذه الطبقة مكانها في التنظيم الاجتماعي المنبثق عن التنظيم الإقطاعي، فتجار القرن الحادي عشر الغرباء عن المجتمع الإقطاعي والآتون من الخارج، وجدوا أنفسهم على هامش المجتمع، وليس لهم شرط قانوني، ولا يعيشون إلا بفضل واقع الحال، وإذا احترَم الأمراء الإقطاعيون بصورة نسبيَّة ومتفاوتة حريَّة التجارة الشخصية، فهم لا يعترفون بها حقًّا، وكانوا دائماً يحاولون أن يثقلوا معاملاتهم برسومٍ جائرة؛ كفرض رسم على مرور البضائع، وفرض ضريبة على السوق، وتشريع غرامات وإتاوات متنوعة باهظة أسهمت في شلِّ نشاطهم التجاري، ومن هنا أخذت العداوات الطبقيَّة والأحقاد تنمو وتزداد^[٣].

وإذا كان التجار الذين حلُّوا بالمدن أحراراً، فإنَّ هذا الوضع لم يكن ينطبق على عدد كبير من العمَّال والصنَّاع الذين هرعوا من القرى المجاورة إلى المدينة ليعملوا فيها، فلقد احتفظ معظم الصنَّاع في المدينة بحالة الاسترقاق التي نشؤوا عليها في القرية. ولمَّا كان التجار الأحرار قد اتخذوا معظم زوجاتهم من طبقة رقيق الأرض، كان من الطبيعي أن يلحق الرقُّ أبناء التجار من زوجاتهم؛ نظراً لأنَّ قوانين العصور الوسطى تلحق الأطفال بأمهاتهم، وقد ترتَّب على هذا المبدأ نتائج سيئة؛ إذ ظهر الرقُّ من جديد في المدن، ونجمت عن هذا الوضع الشاذ مشكلات كثيرة^[٤]، بينما تجلَّت أبشع صور الرقِّ تتمثل في صناعة استخراج المعادن في التيرول وبوهيميا وكارنيشيا؛ إذ كان عمَّال المناجم عبارة عن عمَّال ملتصقين بجبل، عليهم

١ - نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٥م، ص ٢٤٦.

٢ - إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٣٠٦.

٣ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٢٥.

٤ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٢٣.

أن يعملوا هم وأولادهم، ومن بعدهم أحفادهم، بأكثر الطرق بدائية قروناً طويلة. ولم تبدل الصورة إلا في مطلع القرن الخامس عشر، عندما فرض رأسماليو المدن المجاورة سيطرتهم على تلك المناجم وطوّروا آلية العمل فيها؛ إذ كان إنتاجها حتى ذلك الوقت لا يقدم إلا كمّيات قليلة القيمة^[١].

وبما أننا ما زلنا في إطار استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، تجدر الإشارة إلى أن الارتقاء الاقتصادي، وإن كان أكثر تقدماً في المدن؛ حيث يمكن كسب المال واستثماره بسهولة، إلا أن هذا المبدأ لم يكن شاملاً هنا أيضاً، لا بل أدى التطور إلى إخضاع شطر من سكّان المدينة للشطر الآخر، ولدينا أمثلة كثيرة من القرن الثاني عشر عن تجار جمعوا ثروات طائلة، وأخذ الكثيرون منهم منذ ذلك الوقت أموالهم المنقولة إلى ممتلكات غير منقولة، فأعادوا بناء مسكنهم بالحجر، واسترهنوا العقارات واشتروا الأعشار والدخول والسيادات في ضواحي المدن. ومن ثمّ استقرت الثروات، وتكوّنت شيئاً فشيئاً في المدن كافة طبقة محدودة مسيطرة استمر أفرادها في جمع الثروات عن طريق مزاوله الأعمال، متسلّحين ضدّ تقلّبات التجارة بثروتهم العقارية. ولما كانوا يتعاطون الصيرفة، فقد احتفظوا لأنفسهم بفضل أموالهم النقدية بأوفر النشاطات كسباً، وبتجارة المسافات الطويلة، والاتجار بالنقد، وسيطرت شركاتهم المالية سيطرة تامّة على حرف الصناعيين والسماسرة الصغيرة^[٢].

وهكذا، ظلّت مدينة العصور الوسطى أرسقراطية في جوهرها وحكومتها، على الرغم من أنها بدت ديمقراطية عند الموازنة بينها وبين الهيئات الإقطاعية التقليدية، ولعلّ هذا الانقسام السياسي الاقتصادي والاجتماعي بين سكّان المدينة الواحدة، هو السرّ في اضطراب تاريخ المدن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر؛ إذ ظلّ الصراع مستمراً بين البرجوازية والطبقات الدنيا، وبين أصحاب العمل والطبقات الكادحة. والأهمّ من ذلك، أن نقابات التجار والصناع التي بدأت في شكل اتحادات بين أفراد أحرار متكافلين، لم تلبث أن تحوّلت إلى هيئات احتكارية تتحكّم في رؤوس الأموال، وفي الأسعار، وفي تنظيم

١- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥١.

٢- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٠٥.

الأجور وساعات العمل^[١]. وهكذا، لم تتحقق الديمقراطية الشعبية في المدن التي انتصرت فيها النقابات والصناعات الأغنياء الأرستقراطيات القديمة، فمنعت صغار الصناع وغيرهم من الكادحين الفقراء من الوصول إلى مجلس المدينة بغية الحصول على حقوقهم^[٢].

وأخيراً، لم تكن هذه المدن الجديدة بالنسبة للتجارة الفردوس الموعود، فإذا كانت مداخل المدينة متسعة ليسمح بمرور العربات المحملة بالمواد التجارية، وبخيرات المناطق الريفية، فإن شوارعها الداخلية نفسها كانت ضيقة، يبلغ عرضها عشرة أقدام أحياناً، كما امتازت بالقذارة نتيجة إلقاء القمامة والفضلات من نوافذ المنازل دون الاكتراث بمن في الطريق من المارة. ولما كانت هذه المدن تعتمد في الغالب على مياه الآبار والأنهار، فإن الأمراض كانت كثيرة الانتشار فيها، ونسبة الوفيات عالية بين سكانها؛ نظراً لسهولة تلوث مياه الآبار من جهة، وإهمال قواعد الصحة العامة من جهة ثانية، فإذا عمّ الليل، فإن الظلام الدامس يخيم على شوارع المدينة، وعندئذ يكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق، بحيث يصبح الخروج إلى الطريق العام ليلاً أمراً محفوفاً بالمخاطر^[٣].

٤. تنظيم البرجوازيين للعمل في الاقتصاد

في نظام المدن البرجوازية الجديدة، كان الصبي يدفع مالا حتى يُقبل في الحرفة، ويتعهد بطاعة أستاذه وتنفيذ تعاليمه والحرص على مصالحه ورعاية أمواله وأسراره. وفي مقابل ذلك، يمدّه الأسطة أو الأستاذ بالسكن والملبس والمأكل، ولا يستطيع الصبي أن يبيت خارج منزل أستاذه الذي يحق له الإشراف على سلوكه وتصرفاته زيادة على الإشراف المهني. وبعد أن يقضي الصبي في الحرفة مدة تتراوح بين سنتين وسبعة، يصبح عاملاً يستطيع أن يشتغل مقابل أجر يومي زهيد. أما العامل، فمن الممكن أن يصبح أستاذاً أو أسطة عندما يثبت إجادته لصنعتة وتفوقه فيها، كأن ينتج قطعة فنية تشهد على براعته، وعندئذ يستطيع أن يشتغل لحسابه الخاص إذا توافر لديه رأس المال اللازم لذلك. على أن الرغبة في الاحتكار والاستثمار بأرباح المهنة، لم تلبث أن جعلت أعضاء النقابة الواحدة يحرصون على عدم

١- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٠٠.

٢- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٤٧.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٠١.

إشراك منافس جديد معهم، حتّى جاء وقت أصبح من الصعب على العامل أن يصبح أسطة إلا إذا كان ابناً لأسطة أو زوجاً لابنته. وهنا نلاحظ أن جميع الإنتاج الصناعي كان منزلياً، بمعنى أن الصبي والعامل والمعلّم (الأسطة) كانا يعملان في منزل الأخير، أو في دكان ملحق به، ويبيع الأسطة إنتاجه من نافذة منزله أو في سوق المدينة^[١].

أمّا التجّار، فقد صاغوا لأنفسهم في القرن الحادي عشر قانوناً للنظر في القضايا التجّارية، وكان ذلك القانون عبارة عن مجموعة من العادات والتقاليد التي نجمت عن ممارسة العمل في التجّارة، وانتقلت من مكان إلى آخر عبر البضائع. وقامت في الأسواق الإقليمية الكبيرة محاكم خاصّة يتولّى فيها كبار التجّار النظر في القضايا الطارئة^[٢]، كما خضعت هذه الأسواق لضوابط وضعها بائعو منتجات الطوائف (النقابات)، فهذه الأخيرة؛ أي طوائف الحرفيين، كانت من السمات المميّزة للحياة الاقتصادية في العصور الوسطى، وقد وجدت لأغراض كثيرة، منها ضمان جودة الصناعة، والطقوس التي تلقى قبولاً اجتماعياً واسعاً، والنفوذ السياسي، وبصفة خاصّة - وإن لم يكن بنجاح دائماً - ضبط الأسعار وأجور العمال. وكان تحديد سعر السوق بطريقة تنافسية أو غير شخصية أمراً استثنائياً، كما لم يكن أمراً معتاداً عليه طوال العصور الوسطى، وفي أفضل الحالات عدّ أندرها. كما كانت هناك شواهد على قدر متفاوت من القوّة الاحتكارية، التي تزيد أو تنقص حسب الحالة، وبسبب ذلك نشأت مسألة مشروعية السعر أو عدالته^[٣].

ولم تلبث النقابات أن تكاثرت في كلّ مدينة وتفرّعت، حتّى شملت جميع الصناعات والحرف، فوجدت نقابات لكلّ من القمّاشين والسيّارة والأطبّاء والقصّابين وصنّاع الأحذية والسروجيّة، فضلاً عن الخبّازين والزبّاتين والنجّارين والحدّادين وأصحاب الفنادق وغيرهم. وبازدياد التخصّص في الصناعة أو التجارة، ازداد عدد هذه النقابات، ممّا أدّى إلى كثير من الخلافات بين بعضها البعض حول حدود كلّ منها وتخصّصها. ومن الأمثلة المعروفة جيّداً عن ذلك في العصور الوسطى، أنّه حرّم على صانع الأحذية أن يصلّح حذاء مستعملاً، كما

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٠٩.

٢ - نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١١٩.

٣ - جون كينيث جالبرت، جوزيف كولنيز، تاريخ الفكر الاقتصادي، م.س، ص ٣٨.

حرّم على الإسكافي أن يصنع حذاءً جديداً؛ وذلك من باب احترام التخصص^[١].

لكن يبدو أن ازدياد نفوذ النقابات وسلطانها سرعان ما أدّى إلى التعسف في استخدام ذلك النفوذ والسلطان؛ ذلك أن النقابات لجأت إلى حماية أعضائها من المنافسة عن طريق مطالبة السلطة الحاكمة في المدينة بفرض ضرائب على البضائع الأجنبية المستوردة من الخارج من جهة أخرى، ولم يلبث أن ازداد تعسف النقابات حتى غدا من الصعب على العامل العادي أن يدخل دوائرها. وهكذا، بعد أن كان الصبي يعمل في منزل معلّمه الأسطة، صار يتسلّم المواد الخام من رئيس النقابة ليصنعها في منزله. وفي هذه الحالة، صار العامل أكثر تعرضاً للبطالة، فأنشأ يكدح حتى لا يتعرّض لقطع أجره أو لكي يحصل على أجر أعلى، ممّا جعل العمّال في نهاية العصور الوسطى مجرد مجموعة من الأفراد لا يفرق بينهم نوع العمل. إذا كان نظام النقابات قد حرص على الاحتفاظ للحرفة بمستوى عال، فإنّ هذا النظام كان له من جهة أخرى أثر واضح في عرقلة التقدّم الصناعي وتأخّر تطوّره؛ لأنّ كلّ نقابة اشترطت على المشتغلين بالصناعة عدم استعمال آلة أو وسيلة جديدة لا تقرّها النقابة، ممّا قتل روح الابتكار والتجديد^[٢].

ولمّا كانت الأسواق الموسميّة العامّة قد بدأت بالنموّ منذ القرن الثالث عشر، وتشكّلت طبقة من التجّار تشتري وتبيع بالجملة، ولمّا كانت هذه المواسم مصدراً كبيراً للشراء والسلطان لفرنسا -على سبيل المثال- في القرن الثاني عشر^[٣]، كان لا بدّ من العمل على تنظيم العمل في الأسواق الموسميّة، فتمّ استبدال فريق التجّار، الذي كان ينظّم العمل بها ويشرف على عمليّة تأمين السوق ومراقبة عمليّات البيع والشراء منذ سنة ١٢٨٤ م، بفريق من الموظفين المختصّين التابعين للدولة التي عقد السوق في إحدى المدن التابعة لها، فغدّت تلك المعارض بحقّ مركزاً للمبادلات التجاريّة الدوليّة. ويفيد هذا الأمر بأنّ الاقتصاد القائم على المبادلات التجاريّة، لا يمكن أن يزدهر إلّا في ظلّ استقرار أمني، وبدعم ورعاية من السلطة السياسيّة الحاكمة وتحت مراقبة وإشراف الدولة. وهكذا انتظم النشاط التجاري

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٠٩.

٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١١١.

٣ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مع ٤، م.س، ص ٧٢.

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وتمحور حول العقود والجمعيات التجارية، ولكن صلاحية هذه الأخيرة ارتبطت بسلسلة محدودة من العقود، ولمدة محدودة أيضاً، وكان علينا أن ننتظر حتى نهاية القرن الثالث عشر لتظهر مؤسسات تجارية رسمية بمعنى الكلمة^[١].

إلا أن أبرز مظاهر تنظيم العمل في الاقتصاد، كانت في تكوين اتحادات تجارية دولية، فمنذ أن بدأ يتشكل في أوروبا عالمان تجاريان، هما عالم بحر البلطيق والشمال من جهة، وعالم البحر المتوسط من جهة ثانية، ارتبط العالمان ببعضهما برّاً وبحراً عن طريق ممرات جبال الألب ومضيق جبل طارق؛ إذ أدّى النشاط التجاري إلى ازدهار مدن شمال أوروبا وغربها، فبرزت مدن صناعية وتجارية في الفلاندر وبرابانت Brabant مثل أراس Arras و ليل Lille، وفي إنكلترا مثل مدينة بروتستول، وفي فرنسا باريس وليون، وفي أعالي الراين كوبلنز Coblenz وفورمز Vorms، وفي ألمانيا ميونخ ولوبيك التي كانت مركزاً أساسياً للتجارة مع الشمال. وقد امتازت مدن العصور الوسطى بنوع من التخصص في تجارة البضائع، أملت العوامل الجغرافية، إلا أن سكان هذه المدن التجارية والصناعية عاشوا دائماً تحت الاضطرابات السياسية، ممّا أدّى إلى إقامة اتحادات أو عصابات فيما بينها خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر، ومن أهم هذه الاتحادات «عصبة وادي الراين» و«العصبة الهانزية»^[٢].

لقد كان الموقع الجغرافي هو العامل الأساسي الذي مهّد السبل لازدهار مدن العصبة الهانزية في الشمال، إذ عُرفت هذه المدن بتجارة الجلود والفراء والشمع والقمح، وهي المنتجات الواردة من روسيا، وبالحديد والنحاس والأخشاب والأسماك واللحم المقدد، وهي من واردات إسكندناوة؛ إذ كانت صلة الوصل بين هذين الإقليمين المختلفين^[٣]. إلا أن القيود التي فرضتها العصبة الهانزية على أعضائها، أمست مع مرّ الزمن عاملاً من عوامل الاستبداد؛ إذ أرغمت المدن المنافسة لها على قبول شروطها، ولم تتورّع عن استئجار القراصنة للإضرار بتجارة أولئك المنافسين، وبلغ من أمرها أن نظمت لها جيوشاً خاصة،

١ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٢٦.

٢ - راغب العلي وطلبة الصياح وعبد الكافي الصطوف، دراسات في تاريخ أوربة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦ م، ص ٥٨.

٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٠٤.

وأقامت من نفسها دولة داخل كثير من الدول، وبذلت كل ما في وسعها للضغط على طبقة الصناع التي تستمد منها بضائعها، وترتب على ذلك أن أصبح الكثيرون من العمال وغيرهم من الناس يخشونها ويحدون عليها، ويرون أنها أقوى وسيلة من وسائل الاحتكار قيدت بها التجارة في أي وقت من الأوقات، ولذلك ثار العمال في إنكلترا في سنة ١٣٨١م، وطاردوا كل المنظمين إلى هذه العصبة، واقتفوا أثر أعضائها، وقتلوهم حتى داخل الكنائس التي احتموا بها^[١].

أما المدن الإيطالية، فكان نشاطها الأساسي مركزاً في حاصلات الشرق؛ إذ قامت باستيراد التوابل والعاج والحريز والبخور والعطورات والمصنوعات الزجاجية وغيرها لتصديرها إلى مختلف البلدان الأوروبية^[٢]. ولا يوضح التقدم الذي أحرزه التجار الإيطاليون في مجال التجارة الدولية في أوروبا وعالم البحر المتوسط سوى مجهود فردي، ونشاط تجار بعينهم، نتيجة ما تعلّمه هؤلاء التجار -دون شك- من العرب المسلمين الذين كانوا أرقى حضارة منهم^[٣]. فبعد أن نسي الأوروبيون الحرية الاقتصادية التي تمتّعوا بها زمن انتصارات الجيش الروماني، وغرقوا في مواعظ الكنيسة في الزهد والرضا بأقل القليل والانصراف عن الدنيا؛ بعد كل هذا، جاء العرب المسلمون بروح منفتحة على التجارة والربح والكسب بضوابط شرعية لم تشكل عوائق للنشاط الاقتصادي، حيث استطاع فقهاء المسلمين إيجاد حلول إبداعية لكل ما يستجد من أشكال المعاملات، فقدّموا كمّاً هائلاً من فقه المعاملات في مختلف أشكال الأنشطة الاقتصادية والمالية. وبالتالي، أشار كثير من المؤرخين الغربيين المنصفين صراحة لرفضهم لنظرية (بيرمن) العنصرية، التي يخلص فيها إلى أن فتوحات الدولة العربية الإسلامية كان لها تأثير حاسم في انغلاق أوروبا وتدهورها اقتصادياً؛ إذ يرى هؤلاء المؤرخون أن العكس هو الصحيح، وأن تدهور أوروبا كان لأسباب داخلية لا علاقة للعرب المسلمين فيها، وأن بدايات النهضة لا تخفي أثر البصمات العربية الإسلامية عليها في مختلف المجالات العلمية والمعرفية والأدبية والاقتصادية^[٤].

١- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٧٠.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٠٤.

٣- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٥٢.

٤- عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، م.س، ص ٢٣.

وإذا كان لمدينة البندقية الإيطالية دور كبير في المبادرة في إقامة علاقات تجارية منذ زمن مبكر مع الموانئ العربية الإسلامية على البحر المتوسط، فقد نتج عن ذلك آثار إيجابية كبيرة عليها، سواء على المستوى الثقافي أو على المستوى المادي؛ إذ أضعفت من حدة التعصب المسيحي فيها وفي عدد من المدن الإيطالية الأخرى التي نهجت نهجها، فكانت هي الوسيط التجاري بين أوروبا والعرب المسلمين^[١]، حدّاً وصل فيه الأمر إلى أن كثيراً من هذه المدن الإيطالية (ولا سيما جنوة والبندقية) كانت تباع السلاح للمسلمين في أيام الحروب الصليبية، ممّا أثار موجة استياء عارمة عند البابوات المتعصبين أمثال إنوسنت الثالث Innocent III، إذ أخذوا يندّدون بالتجارة، أيّاً كانت، مع المسلمين، ولكنّ الذهب كان أقوى أثراً من الدين أو الدم المراق، ولهذا ظلّت «التجارة المحرّمة» تجري في مجراها العادي^[٢].

وأخيراً، يمكننا القول في تنظيم العمل في الاقتصاد من قبل البرجوازيين، إنّ المفاهيم الحقيقية للتجارة في أوروبا خلال العصور الوسطى لم تكن قد تبلورت بعد، فرغم أنّ التجارة في القرن الثالث عشر أمست تجارة دولية، إلّا أنّ العلاقات السياسية في أوروبا كانت تلقي بظلالها الثقيلة عليها، ففي وقت الحرب، يتمّ أسر تجار الأعداء ومصادرة بضائعهم وحجز مراكبهم والاستيلاء عليها، لا بل إنّ الحظر التجاري كان أداة شائعة الاستعمال دلالة على القسر والاعتصاب. وباختصار، فإنّ أمراء العصور الوسطى ظلّوا من دون روح تجارية، باستثناء فريدريك الثاني في مملكة نابولي، الذي احتفظ لنفسه باحتكار تجارة القمح، وأقام إدارة منتظمة للجمارك في الثغور، وفي هذا المقام بالطبع نستطيع أن نلاحظ أنّ تلك الروح التجارية قد استقاها هذا الإمبراطور من العرب المسلمين في صقلية والمغرب العربي، حيث كانت أوّل مرّة تدرك فيها أوروبا دور الدولة كوسيط تجاري^[٣].

٥. النقد الأوروبي في العصور الوسطى

لم يكن في مقدور التجارة في أوروبا العصور الوسطى أن تتقدّم ما دامت قائمة على

١- نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ١١٨.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٧٦.

٣- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٩٣-٩٤.

المقايضة، بل أضحت تتطلب مستوى ثابتاً للقيم، ووساطة للتبادل سهلة، ووسيلة ميسرة مفتوحة لاستثمار الأموال. وكان من حق سادة الإقطاع وكبار رجال الدين في القارة الأوروبية في عهد الإقطاع أن يصكّوا النقود باسمهم^[١]، وبالتالي استعمل الأوروبيون العملة على نطاق محدود في بداية العصور الوسطى، وكان من الممكن أن يتّسع نطاق تداولها منذ عهد شارلمان (٧٤٢-٨١٤م)، الذي حاول حمل المتعاملين في سائر ربوع الإمبراطورية على استعمال عملة موحدة، أو على الأقل عدد معين من القطع النقدية، غير أنه لم يفلح في ذلك، ويفيد هذا الفشل بعدم قدرته على إقامة قضاء اقتصادي موحد. ومن المفيد هنا التذكير بأنّ عمليّات صكّ العملة بدأت في مناطق شرق نهر الراين بعد سنة ٩٠٠م بقليل، وبعد مضيّ فترة شرعت دوقيات بوهيميا بدور مهمّ في القيام بالمثل. ومنذ سنة ٩٠٠م أخذ الأمراء البولنديّون هم الآخرون في ضرب العملة، ثم تلاهم الهنغاريّون نحو سنة ١٠٠٠م. ومن هذا المنطلق، يمكننا القول إنّ سنة ألف ميلاديّة شهدت شيوع عملات جديدة انتشرت من ضفاف نهر الدانوب حتّى سواحل بحر البلطيق وبحر الشمال^[٢].

وكان من نتيجة هذه الفوضى النقدية، أن عانى الاقتصاد الأوروبي الأمرين، وإنّ ما زاد الطين بلة هو فعل مزيّفي العملة وقارضيه، حدّاً وصل مع الملوك أنّهم أمروا بأنّ تُقَطَّع أطراف من يرتكبون هذه الأعمال، أو أعضاءهم التناسليّة، أو أن تُقلى أجسامهم بالزيت وهم أحياء. لكنّ الملوك أنفسهم كثيراً ما كانوا يتلاعبون بالنقد، إذ كانوا يخفّضون قيمته، ولمّا كان الذهب قد قلّ نتيجة فتح العرب المسلمين لبلاد الشرق، كان النقد بأجمعه في أوروبا في القرن الثاني عشر يُصنع من الفضّة أو المعادن الرخيصة؛ ذلك أنّ الذهب والحضارة يتلازمان كثرة وقلة^[٣]. وأمّا هذه الحالة التي يرثي لها للنقد الأوروبي في العصور الوسطى، فكان لا بدّ من إيجاد حلّ لهذه المعضلة رغبة من الأوروبيين في المحافظة على وجودهم في ساحة التجارة الدوليّة، فلجّؤوا لاستعمال وحدة النقد البيزنطيّة حتّى حدود القرن الثاني عشر لتحقيق هذا الهدف. ويبدو أنّ تنامي المبادلات التجاريّة تجاوز الإمكانات التي كان يتيحها استعمال النقد البيزنطي، فعاد الأوروبيون لمشروع فكّر فيه شارلمان ثم تخلّى عنه؛ وهو

١- ول. ديورات، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٩٤.

٢- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٧٥.

٣- ول. ديورات، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٩٤.

استعمال الذهب في صكّ العملة^[١]. فلماً رأى فريدريك الثاني (١٢١٥-١٢٥٠ م) ما للعملة الذهبية المستقرة في بلاد المشرق الإسلامي من أثر طيّب في اقتصاد تلك البلاد، صكّ في إيطاليا أولى العملات الذهبية، فكانت الأولى من نوعها في أوروبا الغربية، وسمّيت هذه العملة أوغسطالس Augustales مقلّداً بها نقد الإمبراطور الروماني أغسطس ومكانته^[٢].

ثمّ تزعمت مدينة جنوة هذه المجازفة منذ سنة ١٢٥٢ م، ثمّ تلتها فرنسا ابتداء من سنة ١٢٦٦ م، وانخرطت باقي المدن الإيطالية تبعاً في العملية ذاتها، ورغم الإقبال الذي حظيت به هذه العملات من قبل المتعاملين، فإنّ تعددها كان في حدّ ذاته مشكلة حدّت من تنامي المبادلات التجاريّة، فالنظام الفئودالي^[٣] تميّز بالتجزئة، كما هو معروف، وقد انعكست هذه التجزئة سلباً على عملية التداول النقدي التي لم يكن ممكناً أن تتحقّق إلّا بوجود عملة موحّدة، أو بوجود عدد محدود من العملات على الأقلّ^[٤].

٦. أهمّ المعوقات التي واجهت التجارة في أوروبا العصور الوسطى

رغم أنّ أوروبا انفتحت خلال القرن الثالث عشر على التجارة الدوليّة، إلّا أنّ تجارتها واجهت الكثير من المعوّقات، وفي ظروف التداول والتوزيع ووسائل النقل غير الوافية للغرض، وعدم الأمان العام وعدم كفاية نظام التداول النقدي. ويمكننا القول إنّ أهمّ العوامل إسهاماً في عرقلة نشاط التجارة والعمل بها هي: سوء الطرق، وارتفاع المكوس، وعدم عدالة التشريعات، وانعدام الأمن، وهذه العناصر من أهمّ الأمور التي تضرّ بالتاجر. فإذا بدأنا بالطرق والمواصلات، لم يكن هناك أسوأ حالاً منها في أوروبا العصور الوسطى، ولا سيّما بعد أن اختفى نهائياً ما تبقى من شبكة الطرق الرومانيّة^[٥]، فكانت معظم الطرق الرئيسة في العصور الوسطى مليئة بالأتربة، والأقذار، والأوحال، ولم تكن هناك قنوات أو مصارف

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٢٦.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٩٥.

٣- الفئوداليّة: نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي عرفته أوروبا خلال العصور الوسطى، وامتدّ من سنة ٣٩٥ م إلى سنة ١٤٥٣ م، وتميّز هذا النظام باختفاء مفهوم الدولة والمواطنة وسيادة التراتبيّة الطبقيّة، ويرجع أصل التسمية إلى كلمة الفئودوم، وتعني قطعة الأرض.

٤- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٢٦.

٥- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٨٩.

تنقل الماء من الطرق، ولهذا كثرت فيها الحُفَر والبرك، وكانت المخاضات كثيرة، والقناطر قليلة^[١].

ولم تكن الحكومات الأوروبية في العصور الوسطى بإصلاح هذه الطرق أو صيانتها، وقد تركت العناية بها لأولئك الذين يمرّون إلى أرضهم منها، أو من لهم مصلحة أو فائدة من أمر صيانتها^[٢]، وهكذا ظلت العناية بالطرق حتى القرن الثاني عشر موكلةً إلى أصحاب الأملاك المجاورة لها، ولم يكن هؤلاء الملاك يدركون كيف يُطلب إليهم أن ينفقوا المال على إصلاح الطرق التي ينتفع المارة بها أكثر ممّا ينتفع بها سواهم^[٣]. وبالتالي، كان ملاك الأراضي الذين تقع الطرق العامة في أراضيهم، غير مكترئين لأمر إصلاحها، رغم أنّه من المفترض أن يتحمّلوا واجبهم في صيانتها، أو على الأقل أن يخصّصوا جزءاً من الضريبة التي يجمعونها من هؤلاء التجّار المارّين بها لهذا الغرض، إلّا أنّهم لم يكثرثوا إلّا بجمع الضرائب من العابرين بحصونهم وأراضيهم من دون أن يكون لهذه الضرائب ثمرة سوى مضاعفة تكاليف السفر والنقل. ورغم أنّ التاجر كان يضيف ضريبة الطرق هذه إلى أثمان بضاعته، إلّا أنّها عادت عليه بالغرامة؛ لأنّ ارتفاع ثمن البضائع من شأنه أن يقلّل من فرص البيع^[٤].

وهكذا تأخّرت التجارة وأعيقت بسبب هذه الإهمال الحكومي للطرق، فعلى سبيل المثال لم تُجرِ السلطات العامة في لمبارديا أيّة محاولة لإصلاح الممرّات عبر الألب؛ هذا الطريق الحيويّ الذي يربط إيطاليا بشمال أوروبا، وأيّ تقدّم تمّ في هذا الخصوص، يبدو أنّه كان جهداً فردياً من جانب الرخالة والحجاج والتجّار. كذلك الأمر في فرنسا، حيث تركت السلطة الحكومية مهمّة إصلاح الطرق التجاريّة الرئيسة لمستخدميها، حتّى في أطراف العاصمة باريس، فقد قام أهل جينت Ghent في سنة ١٣٣٢ م بإصلاح الطريق من سنليس Senlis على نفقتهم، ليتسنى لهم إيصال بضائعهم ويسهّلوا عمليّة وصولها إلى باريس^[٥].

لقد كانت وسائل المواصلات موافقة لحالة الطرق السيّئة آنذاك؛ إذ تمّ استخدام العربات

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٨٥.

٢- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٩٠.

٣- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٨٥.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١١٣.

٥- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٩٠.

أول الأمر في إيطاليا، حيث حرصت المدن على تحسين الطرق والاحتفاظ بها في مستوى مناسب، ثم لم يلبث أن بدأ استخدام نوع من العربات البدائية في فرنسا وألمانيا^[١]. وكانت العربة الخفيفة ذات العجلتين في العادة هي المستخدمة لنقل البضائع إلى الأسواق المحلية، لكن البضائع ذات الأهمية البالغة كانت تحمل على ظهور البغال أو الخيل^[٢]، ولا تنقل في العربات؛ لأن العربات يصعب عليها تجنب الحفر كما تتجنبها دواب الحمل^[٣]. أما العربات الثقيلة ذات الأربعة عجلات، فكانت مستخدمة، لكن استعمالها اقتصر على الطرق غير الممهدة، ولم يؤت استخدام الخيول في جر العربات في القرن العاشر بالنتائج المرجوة، مادام أن وسائل النقل ظلت قليلة^[٤]. وكانت عربات الركوب كبيرة سمجة، عجالاتها ذات إطار من حديد، ليست مرنة، لذلك لم تكن مريحة مهما بلغت زيتها، ومن أجل ذلك فإن الناس، رجالاً كانوا أم نساء، فضّلوا ركوب الخيل في أسفارهم^[٥].

إنّ هذا القصور والعجز في النقل البري للتجارة جعل النقل النهري مفضلاً عنه، إلا أن النقل النهري لم يسلم هو الآخر من مجموعة من المعوقات، أهمها التحريق في الصيف، والصقيع وتجمّد مياه الأنهار في فصل الشتاء، والفيضانات في فصلي الربيع والخريف، فكلّها معوقات كانت تمنع الملاحة في الأنهار. ورغم جميع ما تقدّم، كانت الأنهار الأداة الكبرى للتبادل التجاري والتصدير في أوروبا العصور الوسطى، ولا سيّما الأنهار الكبرى فيها الراين والدانوب، ورغم ذلك لم تبذل أيّ جهود لتقدّم هذه الملاحة النهرية^[٦].

ولم يقتصر الأمر على الحالة الفنية السيئة للطرق والمواصلات في أوروبا العصور الوسطى، بل تعدّاه الأمر إلى القوانين واختلاف الشرائع وتعدّد جهات التقاضي، فإذا سافر التاجر براً، كان عليه أن يخضع إلى قضاء محاكم مختلفة، وربما خضع إلى قوانين مختلفة في أملاك كلّ سيّد إقطاعي، وكان من حقّ كلّ سيّد إقطاعي أن يستولي على بضائعه التي

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١١١.

٢ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٩٠، ٩١.

٣ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٨٥.

٤ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٩٠، ٩١.

٥ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٨٥.

٦ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٩٠، ٩١.

سقطت على الأرض في الطريق، وإذا جنحت سفينة أصبحت بمقتضى «قانون التحطّم» من حق السيّد الإقطاعي الذي جنحت عند ساحل أرضه، وكان ممّا يفتخر به أحد السادة البريطانيين، أنّ صخرة خطيرة في ساحل بلاده أثمن من درة في تاجه^[١].

ولم تكن الأوضاع الأمنية العامة بأفضل حال، إذ انعدم الأمن وانتشر اللصوص وقطاع الطرق، ولمّا كان التجّار يتعرّضون لأشدّ الأخطار في الطرق البرية والمسالك المائية الموبوءة بالحروب الإقطاعية، والجنود غير النظاميين، وقطاع الطرق، وتعرّضت بضائعهم للنهب من قبل الأمراء والجنود والمجرمين العاديين، وجدوا أنّه لا بدّ لهم من الاعتماد على أنفسهم في حماية أرواحهم وبضائعهم واستمرار تجارتهم، لذلك كان التاجر الكبير يستأجر في بعض الأحيان عدداً من الرجال المسلّحين لحماية متاجره عند نقلها من مكان إلى آخر، وإنّ كان الغالب هو تجمع التجّار عند سفرهم على هيئة قوافل لصدّ أيّ عدوان مشترك. هذا في الوقت الذي أخذت المدن ذات المصالح المشتركة ترتبط ببعضها البعض في هيئة أحلاف لحماية تجّارها وبضائعها، كما فعلت مدن العصبة الهانزية. أمّا الفنادق، فكانت أوّل الأمر نادرة وغير مأمونة، ممّا جعل الكنيسة تؤدّي خدمة مهمّة عن طريق إقامة مؤسسات لها في المناطق المعزولة، وبناتعاش التجارة وكثرة الأسفار ازداد عدد الفنادق والحانات، واعتاد التجّار أن ينزلوا فيها في أثناء أسفارهم^[٢].

كما أسهم طمع وشجع أمراء الأقاليم الأوروبية، الذين كانت تمرّ في بلدانهم طرق التجارة الدولية، في عرقلة النشاط التجاري بفرض ضرائب كبيرة على حركة البضائع التجارية، وكانت تلك الضرائب في ازدياد مستمرّ، وقد عُرفت جميعها باسم مكوس السوق، ومثّلت هذه المكوس استمراراً لضرائب لا لزوم لتحصيلها، بعد أن تحوّلت تماماً عن الغرض الرئيس العام الذي فرضت من أجله، حتّى أمست مكوس العصور الوسطى التي فرضها أمراء الأقاليم، من أكثر الموانع التي اعترضت طريق تجارة المرور^[٣]، فمن غير المعقول أن يصل عدد محطات جباية المكوس على طول ممرّات الألب إلى اثنتين وستين محطة، وسبع

١ - محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ١٧١-١٧٢.

٢ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١١٤.

٣ - هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٨٩.

وسبعين على نهر الدانوب.. ومن غير المعقول أيضاً أن يؤدي التاجر ستين في المائة من بضاعته نظير نقلها في نهر الراين أو على ضفتيه^[١].

لقد أثقلت هذه المكوس كاهل التجار؛ إذ كان التاجر يدفعها ويعتبرها مجرد اغتصاب وعادة سيئة وجبائية جائرة على بضائعه، وقصارى القول يعتبرها تعسفاً لا أكثر، والأسوأ من هذا كله أنه لم يكن يدخر أي شيء من هذه الضريبة جانباً لإصلاح الطرق أو لتجديد بناء الجسور^[٢]، لا بل إن هذه المكوس كانت سبباً في زوال مدن من على الخريطة التجارية كما حدث مع مدينة تراوي، التي اضمحل شأنها بعد أن انتزع فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤ م) شمبانيا من أمرائها المستنيرين، ففرض عليها من المكوس والنظم ما أفقرها، فلما كان القرن الثالث عشر، حلت محلها الثغور والتجارة البحرية^[٣]. ورغم كل محاولات التحرر من هذه المكوس، كان عند نهاية القرن الخامس عشر يوجد على نهر الراين أربعة وستون مكساً، وخمسة وثلاثون على الألب، وسبعة وسبعون على نهر الدانوب في مجراه الأدنى في النمسا فقط^[٤].

ولم تكن التجارة عبر البحار بأفضل حال من التجارة في القارة الأوروبية عبر الطرقات البرية والنهرية، إذ ظلت الأسفار البحرية بطيئة كما كانت في الزمن القديم، فكان اجتياز المسافة من مرسيليا إلى عكا يتطلب خمسة عشر يوماً، كما كانت البحار موبوءة بالقرصان، وكثيراً ما كانت السفن تتحطم أثناء سفرها، ولم يكن أكبر التجار لا يخشى على بضاعته في عرض البحر^[٥]. وكانت معظم السفن التجارية تخرج في مجموعات لرحلات قصيرة، وكثيراً ما كانت تحرسها سفن حربية تحسباً لخطر القراصنة في البحار، في وقت شاعت فيه القرصنة، لدرجة أن التجار أنفسهم لم يتوانوا عن قتالهم، أو المشاركة في أعمالها^[٦]. وتجدر الإشارة إلى أن معظم المجذفين كانوا رجالاً أحراراً متطوعين؛ لأن البحارة العبيد كانوا

١- ول. ديورانت، قصة الحضارة، العصور المظلمة، ج٤، مج٤، م.س، ص٧١.

٢- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص٨٩.

٣- ول. ديورانت، قصة الحضارة، العصور المظلمة، ج٤، مج٤، م.س، ص٧٢.

٤- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص٩٠.

٥- ول. ديورانت، قصة الحضارة، العصور المظلمة، ج٤، مج٤، م.س، ص٧٤.

٦- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص٩٢.

قليلي العدد في العصور الوسطى. وتقدّم فنّ إدارة الشراع إلى الريح، الذي كان معروفاً في القرن السادس، تقدّماً بطيئاً حتّى القرن الثاني عشر، حين أضيفت إلى الشراع المربّع القديم أشرعة أماميّة وخلفيّة، ولكنّ القوّة المحرّكة الرئيسة ظلّت هي المجاذيف كما كانت قبل. وظهرت البوصلة البحريّة، التي لا تُعرف بدايتها على وجه التحقيق، في سفن المسيحيين نحو سنة ١٢٠٠م، وجعل الملاحون الصقليّون استعمالها مستطاعاً في المياه الهائجة بثبتت الإبرة الممغنطة فوق قطب متحرّك، ومع هذا فقد مرّت مائة سنة بعد هذا الاختراع قبل أن يجرؤ الملاحون -عدا أهل الشمال- على الابتعاد عن اليابسة، وتسيير السفن وسط البحار الواسعة^[١]. وفي القرن الثالث عشر، تحسّنت نوعيّات السفن، لكنّ هذه السفن لم تخاطر أبداً في الإبحار في رياح الشتاء، وحتّى بداية القرن الرابع عشر حدث هناك استثناء وحيد، وهو أن عبرت السفن الايطاليّة مضيق جبل طارق^[٢].

٧. الصيرفة والربا في أوروبا العصور الوسطى

لمّا كان الكثير من الأمراء الإقطاعيين يتمتّعون بحقّ صكّ النقود الخاصّة بهم، فإنّ الأسواق الأوروبيّة وجدت نفسها في حاجة إلى صيرافة يبدّلون النقود للتجار، كلّ بالعملة التي يطلبها، والتي يستطيع أن يتعامل بها في بلده. ويعتبر عمل هؤلاء الصيرافة النواة الأولى للنظام المصرفي الرأسمالي في أوروبا؛ وذلك لأنّ الصرّاف في العصور الوسطى كان يحتفظ عادة بصندوق قوي متين يضع فيه نقوده، ممّا جعل بقيّة الأفراد يلجؤون إليه لإيداع أموالهم في مأمن عنده. ولم تلبث أن استخدمت في إيطاليا الحوالات والكمبيالات الماليّة كوسيلة لتجنّب نقل المعادن النفيسة من ذهب وفضّة، ثم أخذ موظّفو البابويّة ينشرون هذا النظام في مختلف أنحاء أوروبا، وعندما اكتشف الصرّاف أنّ الودائع التي لديه أكثر من حاجة عمله اليومي^[٣]، بدأ يفكر في استغلال ماله ومال غيره في المشروعات التجاريّة، أو في إقراضها إلى الكنائس، أو الأديرة، أو الأشراف، أو الملوك بفائدة^[٤]، ممّا جعل الصيرافة يقومون بوظيفة أخرى من وظائف البنوك.

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٧٣.

٢- هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٩٢.

٣- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٢٠.

٤- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٩٨.

وهنا نلاحظ قاعدة عامّة، وهي أنّ الصيرافة في العصور الوسطى جمعوا بين مهنتي إقراض الأموال والتجارة، ولمّا كان ملوك أوروبا وأمراؤها يعانون في القرن الثاني عشر ضيقاً مالياً شديداً بسبب كثرة النفقات والمطالب، أخذت ثروة هؤلاء التجّار تزداد ازدیاداً يسترعي الانتباه نتيجة لازدياد النشاط التجاري، لذلك لم يجد أفراد الطبقة الارستقراطية وسيلة لسدّ مطالبهم سوى الاقتراض بفائدة من هؤلاء التجّار، الذين لم يكن بوسعهم رفض مطالب الحاكم ورغباتهم، ما شجّع مبدأ القروض ذات الفائدة^[١].

وإذا كان اليهود قد اضطلعوا في هذا الجانب في إسبانيا، وكانوا ذوي حول وطول فيها، فإنّ الصيرافة المسيحيين سيطروا على النشاط المصرفي في ألمانيا، كما تفوّق الماليّون المسيحيّون في إيطاليا وفرنسا^[٢]، فكيف كان ذلك؟ من المعروف أنّ اليهود قد انفردوا أوّل الأمر في العصور الوسطى بإقراض الأموال بفوائد، ممّا مكّنهم من السيطرة على الحياة الماليّة في أوروبا؛ لأنّ الكنيسة حاربت الربا الذي نهى عنه الإنجيل والسيد المسيح، وهكذا شاءت الظروف ألاّ ينافس اليهود فئة أخرى في ميدان النشاط المالي أوّل الأمر^[٣]. وبالتالي، استحكم اليهود بالأمر وأخذوا يقرضون بعضهم بعضاً المال عن طريق وسيط مسيحي، أو عن طريق جعل صاحب المال شريكاً موصياً في المشروع وأرباحه، وهي وسيلة أجازها أبحار اليهود وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين. وإذا كانت الكنيسة تحرّم الربا؛ وإذا كان المقرضون المسيحيّون -لهذا السبب- نادري الوجود قبل القرن الثالث عشر، فإنّ المسيحيين المحتاجين لقروض -ومنهم رجال الدين، والكنائس والأديرة- كانوا يلجؤون إلى اليهود ليقرضوهم ما يحتاجونه من مال، حدّاً وصل مع اليهودي هارون اللنكلني Aaron of Lincoln بإقراض ما يلزم من المال لبناء تسعة أديرة مسيحيّة، كان أشهرها دير سانت أولبنز St. Albans. ولم يجد ملوك أوروبا حرجاً في أن يتقاضى المرابون رباً فاحشاً في ممالكهم، إذ إنهم كانوا يلجؤون من حين إلى آخر إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال. وكان المرابون يتحمّلون نفقات كبيرة في سبيل الحصول على أموالهم، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشاوى للموظّفين لكي يسمحوا له بالحصول على ما له من أموال، وحدث

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٢١.

٢ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٩٨.

٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٢١.

أنَّه في سنة ١١٩٨ م حين كانت أوروبا تستعدُّ للحملة الصليبيَّة الرابعة، أمر البابا إنوسنت الثالث جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التي يطالب بها اليهود مدينيهم المسيحيين^[١].

ولمَّا كانت الكنيسة المسيحيَّة تحرِّم التعامل بالربا، فإنَّ اتساع نطاق النشاط التجاري وتعدّد مغريات الأرباح الماليَّة جعل من الممكن التهرّب من تعاليم الكنيسة الخاصَّة بتحريم الفوائد الماليَّة؛ كأنَّ يتعهّد المقرض بدفع ألف فلورين في وقت محدود بدون فائدة، ولكنَّه لا يتسلَّم من المقرض فعلاً إلاَّ تسعمائة فلورين، وبذلك تكون فائدة القرض مائة فلورين لم تدوّن في العقد. وعلى هذه الطريقة، استطاع الإيطاليّون أن يعملوا بالصرافة ليحلّوا محلَّ اليهود، لا سيَّما بعد أن أخذ الناس يفرّقون بين نسبة الفائدة المعتدلة والربا الفاحش، وبعد أن أتت الحروب الصليبيَّة بكثير من التشريعات والقوانين التي تستهدف الحد من نشاط اليهود، ذلك أنَّه لم يتيسَّر للأوروبيين المسيحيين أن يحلّوا محلَّ اليهود، إلاَّ بعد أن أخذت الدول الأوروبيَّة، مثل إيطاليا وإنكلترا وفرنسا ثمَّ إسبانيا، تضيق عليهم وتطردهم من بلادها^[٢]. وسرعان ما غزا رجال المصارف المسيحيّون هذا الميدان في القرن الثالث عشر، واستعانوا بالوسائل التي أوجدها اليهود وساروا عليها، وما لبثوا أن تفوَّقوا عليهم في الشراء واتساع نطاق الأعمال. ولم يكن المرابي المسيحي أقلَّ صرامة من زميله اليهودي، وإن لم يكن أولهما في حاجة إلى حماية نفسه بالقدر الذي يحتاجه الثاني من خطر القتل والسلب والنهب، فكان كلاهما يشدّد النكير على المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة^[٣]. كما تجدر الإشارة إلى أنَّ التجار الإيطاليين في أوائل القرن الثالث عشر، وجدوا وسيلة تحايلوا فيها عند إقراض الحكومة مبلغاً من المال، عندما طلبوا منها أن تسدّد قيمته بالأصواف، وهنا حرصوا في العقد أن تكون قيمة الأصواف التي تسلَّم للتاجر أكبر من قيمة المبلغ الذي دفعته للحكومة، وبذلك حصل التاجر على فائدة القرض^[٤].

لقد أخذ عدد التجار المتجولِّين، الذين سبق الحديث عنهم، يتراجع لفائدة التجار

١- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٣، مج٤، م.س، ص٦٣-٦٤.

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص١٢١-١٢٢.

٣- ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٣، مج٤، م.س، ص٦٣.

٤- سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص١٢٢.

المستقرين في المدن البرجوازية الجديدة، ولمّا كان العالم الذي احتضن أنشطة التجّار، هو عالم المدن بصفة خاصّة^[١]، فقد أخذ أغنى البرجوازيين ثروةً يراقبون بوساطة أقوى الشركات المهنية، إدارة الشؤون البلديّة في مدنهم، وجمعوا مراكز القضاء الرئيسة في المدن الداخليّة في نطاق تكتّلهم، وهكذا فقد فرضت طبقة كبار تجّار الجوخ -وهي الطبقة الأقوى في مدن فلاندر الصناعيّة- الأنظمة على المهن الدنيا بما يتّفق مع مصلحتها، وكانت المهن الدنيا يتمّ من خلالها مزاوله عمّال الصوف لحرفتهم، وهكذا أيضاً أديرت شؤون التكتّل الرأسمالي في فلورنسا؛ إذ احتلّ المركز الأوّل بينها كبار رجال الأعمال، فتمكّنت فئة البرجوازيين الأثرياء بقبضتها على زمام المؤسّسات المدنيّة من تنظيم حياة المدينة الاقتصاديّة لمصلحتها وإدارة أموالها العامّة، وإلى ترسيخ تفوّقها ترسيخاً نهائياً، فاتّسعت الهوة التي تفصل الطبقة الثريّة عن الطبقة الوسطى^[٢].

وهكذا تمكّن البرجوازيون الأثرياء من تكوين شركات تجاريّة عابرة للحدود؛ إذ صار الواحد من هؤلاء التجّار يمارس نشاطه بوساطة مجموعة من المحاسبين والوكلاء والممثّلين، وعدد من الأعوان، يمكن تسميتهم بالسّعاة. كانوا مقيمين خارج منطقة إقامة التاجر المستقرّ، ويتلقّون منه التعليمات، ثمّ يقومون بتنفيذ تلك التعليمات. ومن هذا المنطلق، تنوّعت طبقة التجّار الذين يمكن التمييز منهم: فئة المقرضين المعروفين في أوساط التجّار باسم: (الومبارديين) و(الكاهورسيين) على اعتبار أنّ الإيطاليين وأثرياء مدينة كاهور Cahors عرفوا في أوساط العموم بكونهم أشهر المانحين للقروض مقابل فائدة، وكانوا يقدّمون قروضاً مقابل ضمانات أعلى قيمة من تلك التي يشترطها اليهود المانحين لقروض الاستهلاك. وإلى جانب المقرضين، هناك فئة الصيارفة الذين كانوا يقومون بالعملية الماليّة الأكثر شيوعاً في العصر الوسيط؛ نظراً لتعدد العملات المتداولة. وهناك فئة المشتغلين بالكمبيالات، الذين كانوا بمثابة تجّار بنكيين، وكانوا في الأصل صيارفة، فأضافوا إلى الاشتغال في صرف العملات، الاشتغال في الاستئمان على الودائع والاستثمار في القروض. وبفضل نشاطهم، أخذت تنبثق في أوروبا البنوك^[٣]؛ إذ ظهرت عدّة بيوت ماليّة كبيرة في إيطاليا، أهمّها بنك

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٢٧.

٢- إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ج ٣، م.س، ص ٤٠٦.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٢٧.

«القديس جورج» في جنوة، الذي ربّما كان أشهر البنوك الأوروبية في العصور الوسطى. على أنّ البابوية فضّلت دائماً أن تتعامل مع بنوك فلورنسا التي ظهر معظمها في القرن الثالث عشر، والتي تعتبر أولى نماذج البنوك الدولية؛ إذ كان لبعضها فروع امتدّت من إنجلترا وفلاندرز غرباً حتّى أطراف البحر المتوسط شرقاً، كما قامت بتقديم استشارات مالية للملوك والبابوات^[١].

٨. المسيحية واقتصاد أوروبا في العصور الوسطى

يمكننا أن نتحدّث عن ثلاثة جوانب في المسيحية لعبت دوراً مهماً في اقتصاد أوروبا في العصور الوسطى؛ وهي الكنيسة والدير والحروب الصليبية. لقد نظرت الكنيسة المسيحية في بادئ الأمر إلى العمل التجاري كمصدر خطر على سلامة الروح، وعدّت التجارة شكلاً من أشكال الربا المرفوضة في الدين، إذ كان ينظر إلى كلّ تاجر في بداية الأمر كشخص يمارس الربا بشكل أو بآخر، ومثل هذا النشاط كانت ترفضه الكنيسة وتدينه. وظلّ تشريع الحكومات زمناً طويلاً يؤيّد موقف الكنيسة في هذه الناحية، وكانت المحاكم المدنية نفسها تحرّم الربا، ولكنّ تبين أنّ حاجات التجارة أقوى أثراً من خشية السجن أو الجحيم؛ ذلك أنّ اتساع نطاق التجارة والصناعة تطلّب استخدام المال المتعطّل في المشروعات النشيطة، ووجدت الدول في أثناء الحرب أو الأزمات الطارئة أنّ الاقتراض أيسر من فرض الضرائب، وكانت النقابات تقرض المال بالربا^[٢].

لكنّ حين انحصر العمل الربوي في أوساط اليهود، وتقوّت سلطة التجّار، أخذت الكنيسة تبرّر شيئاً فشيئاً الأرباح التي كان يجنيها التجّار، ولكنّها لم تضع حدّاً واضحاً بين الأرباح المشروعة والأرباح غير المشروعة. وتتضمّن المبررات التي قدّمتها الكنيسة، عناصر ذات صلة بتقنيّات التجارة نفسها؛ فمثلاً أجازت الكنيسة للتاجر الذي لحقه ضرر من جرّاء تأخير في استلام بضاعته أو ما شابه ذلك، الحقّ في المطالبة بتعويض. لقد أدخلت تلك المبررات في أذهان التجّار الأوروبيين وأخلاقهم مبادئ جديدة، مثل الصدفة، والمخاطر، وعدم اليقين، كما أدخلت مبدأ مهماً هو تبرير، أو شرعنة الربح الذي يجنيه التاجر؛ إذ أصبح ينظر

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ١٢٢.

٢ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مع ٤، م.س، ص ١٠٦.

إلى هذا الربح كأجر أو راتب يتقاضاه التاجر مقابل عمل يقوم به^[١].

لا أحد يستطيع أن ينكر أن طبقة رجال الدين قد استفادت مادياً من زيادة ثراء تجار المدن، حيث أجروا أو باعوا أملاك الكنائس لهم، ومن جهة ثانية ازداد دخل رجال الدين من الرسوم التي كان يدفعها لهم سكان المدن عند قيامهم بمراسيم التعميد وعقود الزواج والصلاة على الموتى. كذلك استهوت المدن رهبان الأديرة فشيّدوا فيها أديرتهم، وشاركوا سكانها في أتراحهم وأفراحهم، ثم أصبحوا قادتهم الروحيين^[٢]. ولا أحد يستطيع أن ينكر أن أقطاب الفكر المدرسي «السكولاتي» ساهموا بدورهم في الترويج لفكرة مفادها أن أعمال التجار تروم تحقيق المنفعة العامة، واندرج في هذا السياق تصريحات بعض علماء اللاهوت، أمثال بوركهارد الستراسبورغي Burchard de Strasbourg، وتوماس الشوبهامي Thomas de Chobham، فقد صرّح الأوّل بالقول: «إنّ التجار يعملون من أجل منفعة عموم الناس لما فيه خير الجميع بحملهم البضائع إلى الأسواق والمعارض»، بينما أكّد الثاني: «بأنّ الفاقة ستكون عظيمة في عدّة دول إن لم ينقل التجار ما يزيد عن الحاجة من بضائع إحدى الجهات إلى جهة أخرى تحتاج إليها، وعلى هذا الأساس فهم يستحقّون الحصول على راتب مقابل عملهم». وفي ضوء هذه المواقف، يتضح بأنّ التجارة الدوليّة أضحت ضرورة يريدها الله وتنسجم تماماً مع قدرته، وذلك وفق الدعاية التي قال بها رجال الكنيسة^[٣].

وبالتالي، لم يتورّع رجال الكنيسة عن خوض غمار العمل التجاري، حدّاً حول الكنيسة إلى مؤسسة اقتصادية تهدف إلى الربح، وبحكم مواردها المتنوّعة تمكّنت الكنيسة من أن تصبح المصدر الأهمّ لتمويل التجارة بالسيول النقديّة وتوسيع نطاقها؛ إذ كانت الكنيسة أهمّ مصدر منفرد للتمويل، وذلك بفضل ما كان لها في جمع المال من نظام لا يدانيه نظام سواه، وكان لديها على الدوام رأسمال سائل تستطيع توجيهه في جميع الأوقات لأيّ غرض تشاء، حتّى إنّها كانت أعظم قوّة ماليّة في العالم المسيحي، ويضاف إلى هذا أن كثيرين من

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٢٧.

٢- نعيم فرح، الحضارة الأوروبية، م.س، ص ١٢٤.

٣- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٢٩.

الأفراد كانوا يودعون أموالهم أمانات في الكنائس والأديرة^[١]، حتّى التجار دعموا الكنيسة وتعاونوا معها، فأنفقوا جانباً من ثرواتهم النقدية في أعمال البرّ والإحسان؛ كتقديم الصدقات والأعطيات، وبناء مراكز صحيّة في الحواضر، وكانوا يبتغون من وراء تلك الأعمال، التكفير عن ذنوبهم؛ أملاً في الحصول على الخلاص الذي ظلت الكنيسة حتّى حدود القرن الثالث عشر ترفض منحه للمشتبه في مزاولتهم لأعمال الربا^[٢].

أمّا فيما يخصّ الأديرة المسيحيّة، تجدر الإشارة إلى أنّ أعمال الأديرة قامت على أساس اقتصادي زراعي بقدر كبير إلى جانب النشاط الديني، لا بل إنّ نشاط الرهبان الاقتصادي طغى في كثير من الأحيان على نشاطهم الديني، حتّى أهمل الرهبان تفرّغهم للعبادة وانشغلوا في تجفيف المستنقعات وإقامة الوحدات الزراعية في الأماكن التي كانت بوراً بهدف تحقيق المزيد من الربح. وإلى جانب الزراعة أصبحت الأديرة أيضاً مركزاً تجارياً، فقامت مؤسّسة الدير -التي من المفترض أن يكون رعاياها معتكفين على العبادة- بصكّ النقود، وإقامة الأسواق، ووضع الأنظمة الماليّة لعمل الصيرفة، بل مارست هي بحدّ ذاتها عمل الصيرفة، حيث أقرضت المال نظير عطايا تنالها سرّاً أو مقابل بيع صورية^[٣].

وقد اشتكى البابوات المتزمتون من هذا السلوك الذي اعتبروه مشيناً بحقّ الأديرة؛ فالبابا ألكسندر الثالث اشتكى في سنة ١١٦٣م من أنّ «كثيرين من رجال الدين، وبخاصّة في الأديرة، يقرضون المال لمن هم بحاجة إليه، ويرتهنون أملاكهم ضماناً له، ثمّ يحصلون على ثمار هذه الأملاك المرتهنة مضافة إلى رأس المال المقرض، وإن كانوا يحجمون عن الربا المألوف لأنّه محرّم تحريماً صريحاً». وكان بعض المدينين يتعهّدون بدفع «تعويضات» تزيد زيادة مطّردة عن كلّ يوم أو شهر يتأخّرون فيه عن أداء الدين، وكان يوم السداد يحدّد عمداً في أجل قريب حتّى تصبح هذه الفائدة الخفية محقّقة لا مفرّ من أدائها. وكان الكهوريّون يقرضون بعض الأديرة المال على هذا الأساس^[٤]. وإنّ ما ساعد الأديرة المسيحيّة على النشاط في هذا الجانب، أنّها كانت مراكز ماليّة تدفّقت عليها الأموال والهبات والعطايا،

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٤، مج٤، م.س، ص٩٧.

٢- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص١٢٩.

٣- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص٣٠.

٤- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج٤، مج٤، م.س، ص١٠٧.

حتّى إنّ بعض ملاك الأراضي كانوا يقومون بأعمال خاصّة للأديرة مقابل مبالغ معيّنة^[١]. وهكذا، أصبحت الأديرة بالقروض التي كانت تقدّمها للتجار والمضمونة برهن، أولى هيئات الإقراض في العصور الوسطى، فمثلاً كان دير سانت أندريه St. Andre في فرنسا يقوم بعمل مصرفي بلغ من اتساع نطاقه أنّ كان يستأجر المرابين اليهود ليؤدّوا للملوك، والأمراء، والأشراف، والفرسان، والكنائس، والمطارنة؛ وربّما كانت أعمال الرهن التي يقوم بها هؤلاء الفرسان أوسع الأعمال الماليّة التي من هذا النوع في القرن الثالث عشر^[٢].

بينما كانت الحروب الصليبيّة الشعواء التي شتّتها أوروبا المسيحيّة على ديار الإسلام، العامل الثالث الذي أثر في الاقتصاد الأوروبي، حيث وضعت هذه الحروب حدّاً لسيطرة العرب المسلمين على الحوض الشرقي للبحر المتوسّط، فتحوّلت هذه السيطرة إلى مدن إيطاليا (جنوة والبندقية)، واستمرّت إلى ما بعد طرد الصليبيين من الشرق، وقد مكّنت العلاقات التجاريّة ما بين أوروبا والمشرق العربي -خلال هذه الحروب- الأوروبيين من الاطّلاع على النتاج الفكري للحضارة العربيّة -الإسلاميّة على كلّ صعيد، بما في ذلك الاقتصاد المتقدّم، واقتباس الكثير من مظاهر هذا الاقتصاد، فمن المعروف أنّ القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة عالجا مسائل اقتصاديّة متنوّعة، كما أخذ الأوروبيون بعض المزروعات الجديدة (كالقمح الأسود، والرز، والسّمسم، والمشمش، والبطيخ، والليمون، والفستق) من الشرق، واقتبسوا صناعة السكر، واستخدام الطواحين الهوائية من سوريا. واستفاد الأوروبيون من التقدّم الصناعي في المشرق لتطوير الصناعات النسيجيّة والمعدنيّة في أوروبا، فأصبح الكثير من المنسوجات الأوروبيّة يحمل اسماً عربيّاً كالدامسكو نسبة إلى دمشق، والموصلين نسبة إلى الموصل. وهكذا قامت بعض الصناعات في أوروبا على استيراد المواد الخام من الشرق؛ كالحرير والقطن والأصبغة وغيرها. وبالتالي، كانت الحروب الصليبيّة نافذة أطلّ منها الأوروبيون على العالم الخارجي، فأدركوا حجم تخلفهم، ومدى ما وصل إليه التقدّم العلمي عند العرب المسلمين، كما كانت طريقاً عبرت من خلاله كثير من ثمار الحضارة العربيّة-الإسلاميّة الفكريّة إلى أوروبا في أحلك سنوات تخلفها^[٣].

١- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، م.س، ص ٣٠.

٢- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٩٧.

٣- نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، م.س، ص ٢٣٢.

أما على صعيد الداخل الأوروبي، فقد أسهمت الحروب الصليبية في تحطّم نظام الضياع في أوروبا الغربية، وعملت على تشجيع التجارة والصناعة، بحيث لم تعد الأرض المصدر الوحيد للثروة^[١]. فبعد أن أسهمت الحروب الصليبية في تدعيم سيطرة الموانئ الإيطالية على خطوط التجارة الدولية في المتوسط، أُمست مدن ميلان، وكومو، وبريشيا، وفيرونا، والبندقية تجمع في جيوبها أرباح التجارة التي تنتقل قوافلها فوق جبال الألب، وتمخر قواربها عبر نهري الدانوب والراين، وسيطرت جنوة على تجارة البحر الترياني. وكان أسطول جنوة التجاري يتألف من مائتي سفينة، عليها عشرون ألفاً من البحّارة، وكانت ثغورها التجارية تمتد من كورسيكا إلى طربزون، وكانت تتاجر بكامل حرّيتها مع بلاد المسلمين في المشرق، كما تتاجر معها البندقية وبيزا، والمسلمين في بلاد الأندلس^[٢]. وعندما تكدّست البضائع المستوردة من الشرق في الموانئ الإيطالية على المتوسط، أخذت القوافل التجارية تشقّ سبيلها نحو وسط أوروبا وغربها عن طريق السهل اللباردي وممرّات جبال الألب وطريق الراين، ممّا أثار نشاطاً كبيراً في المدن الواقعة على هذه الطرق، على أنّ هذا النشاط التجاري في جنوب أوروبا ووسطها صحبه نشاط مماثل في شمالها؛ إذ غدا إقليم فلاندرز في القرن الثاني عشر مركزاً رئيساً لهذا النشاط بفضل أنهاره وموانئه، التي جعلته على اتصال بشمال أوروبا ووسطها وجنوبها، ما أسهم في انتعاش الحياة الاقتصادية والمعيشية في أوروبا.

وهكذا أخذت تزداد قوافل التجار المسافرين بطريق البرّ أو النهر أو البحر، ولم يعد هؤلاء التجار من اليهود وحدهم، وإنّما شاركهم اللبارديون والتسكانيون والبنادقة والجنويون والبروفانساليون، كذلك استتبع هذا النشاط التجاري كثرة المعارض والأسواق الكبيرة في مختلف أنحاء أوروبا بعد أن أضحت الأسواق المحلية الصغيرة لا يمكنها النهوض بمطالب المستهلكين والتجار^[٣]. وفي سبيل التغلّب على هذا، نظّمت الكنيسة في القرن الثاني عشر هيئات أخوية دينية لإصلاح القناطر وتشييدها في سبيل تنشيط حركة التجارة، وعرضت على من يشتركون في هذا العمل الغفران من الذنوب في سبيل المحافظة على استثمار أموالها في تمويل الأعمال التجارية^[٤].

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٦.

٢ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٧٦.

٣ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٧.

٤ - ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، مج ٤، م.س، ص ٨٦.

٩. دور اليهود في تجارة أوروبا العصور الوسطى

لقد كان التجار اليهود الجوالون أول من سعى إلى إحياء النشاط التجاري في أوروبا العصور الوسطى، إذ كانوا يقومون باستيراد البضائع وبيعها للنبلاء وأتباعهم، وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة في أوروبا في ذلك العهد المظلم من العصور الوسطى (٤٧٦م - ١٠٠٠م) أن لفظة يهودي Judaeus أصبحت مرادفاً للفظه تاجر Mercator. وكان هؤلاء التجار أول الأمر متنقلين لا يعرفون حياة الاستقرار في منطقة بعينها^[١]، فكان البائع اليهودي معروفاً في كل مدينة وبلدة، وكان معروفاً في كل سوق ومولد، وكانت التجارة الدولية عملاً تخصصوا فيه، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادي عشر، حيث كانت أحمالهم، وقوافلهم، وسفنهم تجتاز الصحارى، والجبال، والبحار، وكانوا في معظم الحالات يصحبون بضائعهم، وكانوا هم حلقة الاتصال التجاري بين أوروبا المسيحية والعالم الإسلامي، وبين أوروبا وآسيا، وبين الصقالبة والدول الغربية؛ وكانوا هم القائمون بمعظم تجارة الرقيق، وكان يعينهم على النجاح في التجارة مهارتهم في تعلّم اللغات، وقدرة الجماعات اليهودية البعيدة بعضها عن بعض على التنسيق والتعاون فيما بينها^[٢].

واليهود لم يتفوقوا إلا في التجارة في أوروبا؛ وكان ذلك بسبب حالة العداء التي ظهرت بين أوروبا المسيحية والعرب المسلمين الذين تمكّنوا من فتح الأندلس وجنوب فرنسا، وضيقوا الخناق على القسطنطينية. وبالتالي، لم يعد هناك ما يغري للتجارة مع الطرف الآخر، وبقي التجار اليهود هم الوحيدون الذين يستطيعون السفر إلى بلاد النصارى وبلاد المسلمين بحرية تامة ومن دون خوف. وقد أذن المسلمون للتجار اليهود منذ أن فتحوا الأندلس، أن يشاركوا في النشاطات الاقتصادية كافة، ومنعواهم فقط من النشاطات المحرمة، التي تقوم على الربا، وبيع الخمر ولحم الخنزير للمسلمين. ولم يقتصر نشاط التجار اليهود على نقل سلع بلاد المشرق إلى أوروبا عبر الأندلس، بل نقلوا أيضاً المنتجات المصنّعة في الأندلس، والمشهورة في جودتها، والتي كان النبلاء الأوروبيون يحرسون على اقتنائها؛ كالملابس

١ - سعيد عبد الفتاح عاشور، النظم والحضارة، م.س، ص ٩٤.

٢ - ول. ديورانت، قصة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٤، م.س، ص ٦١.

والمنسوجات الحريرية والقطنية والمنتجات الجلدية، والزئبق، والزعفران، والحلي^[١].

لما وجد اليهود أنَّ خروج عوام أوروبا في الحروب الصليبية سيؤدِّي إلى إهمال الزراعة وشؤونها في أوروبا، وإلى نقص في الأيدي العاملة فيها، وبالتالي، نقص كبير في المواد الغذائية، سعوا إلى احتكار المواد الغذائية وتجارتها في أوروبا، ما عاد عليهم بفوائد كبيرة^[٢]. لكنَّ نجاح الحملات الصليبية في الاستيلاء على بيت المقدس، وتحقيق بعض النجاحات العسكرية في المشرق الإسلامي، قلب الأوضاع رأساً على عقب بالنسبة لليهود؛ فقد أحييت معاناة الصليبيين والحجاج لبيت المقدس عن كثب شعوراً دفيناً لديهم بالحقْد على اليهود، الذين كانوا في نظرهم وراء المصير الذي انتهت إليه حياة المسيح، فأخذ هذا الشعور ينمو بوتيرة سريعة^[٣]، وقد أدَّى استيلاء أساطيل البندقية وجنوة على بلاد البحر المتوسط، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود. وكانت مدينة البندقية قد حرَّمت حتَّى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها، ولم يمض بعد ذلك إلَّا قليلاً من الوقت حتَّى أغلقت عصبة المدن الهلسية The Hansatic League موانئها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطي في وجه التجارة اليهودية، وقبل أن يحلَّ القرن الثاني عشر أضْحى الجزء الأكبر من التجارة اليهودية تجارة محلية، وكانت هذه التجارة حتَّى في هذا المجال الضيق تحددها القوانين التي تحرَّم على اليهود أن يبيعوا عدَّة أنواع من السلع، فلم يكن لهم بدٌّ من العودة إلى شؤون المال، ذلك أنَّهم وجدوا أنفسهم في بيئة معادية لهم، معرضين لأن يتلف عنف الجماهير أملاكهم الثابتة، أو أن يصادروها الملوك الجشعون، فأرغمتهم هذه الظروف على أن يجعلوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك؛ فعمدوا أولاً على ذلك العمل السهل، وهو مبادلة النقد، ثم انتقلوا منه إلى تلقِّي المال لاستثماره في التجارة، ثم إلى إقراض المال بالربا، ما ضاعف شعور الكراهية ضدهم^[٤].

لقد تحوَّل الشعور بكراهية اليهود خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر إلى عمليَّات

١ - خالد يونس الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، غزة ٢٠١١م، ص ٣٦١-٣٦٢.

٢ - نيفين ظافر الكردي، الأوضاع في الغرب الأوروبي، م.س، ص ٤٦.

٣ - جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ٩٨.

٤ - ول. ديورانت، قصَّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، مج ٤، م.س، ص ٦١.

تنكيل وملاحقة لليهود من قبل عامة المسيحيين^K وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تأويلهم لتلك الأحداث، كان أهمها أعمال العنف والشغب المعروفة باسم البوكروو Les pogroms، والتي انطلقت في سنة ١٣٢٠م، واشتدّ أجيحها بعد سنة ١٣٤٨م، وقد استهدفت بعض فصولها اليهود الذين اتّهموا بتسميم الآبار، وقد فسّر العديد من المؤرخين تلك الأحداث الدموية؛ أنّها اندلعت في سياق الأزمة البنيوية التي كان يتخبّط فيها الاقتصاد الأوروبي، والتي أثّرت سلباً في أوضاع فئات اجتماعية عريضة، فأجّجت الصراع بين الفلاحين والأرستقراطية، وبين الحرفيين والتجار، وفضلاً عن ذلك اندلعت تلك الأعمال في ظرفية تميّزت فيها الممالك بضعف في التدبير وانغماس في صراعات عقيمة^[١].

لكنّ جميع ما تقدّم لا ينفي قيام صلات تجارية واسعة بين أتباع الديانات الثلاث؛ إذ عمل التجار اليهود والمسيحيون والمسلمون جنباً إلى جنب في تجارة البحر المتوسط، وتعاونوا مراراً على أسس غير رسمية، وكان التعاون جلياً من خلال مرور السلع والمعلومات بين مختلف مجموعات التجار، فعلى سبيل المثال هناك تاجر يهودي يكتب في الأندلس إلى مراكش سنة ١١٣٨م قائلاً إنّهُ تلقى معلومات من تجار مسلمين وصلوا لتوهم إلى الإسكندرية. وبطريقة مماثلة هناك تاجر جنوي، قد أبحر إلى سبتة أو إلى بوجي، وربما توقّف في طريقه في ميناء أندلسي للحصول على أخبار من التجار المحليين عن شروط الاتجار في شمال أفريقيا. بينما كان التجار المسلمون مغيبين تماماً عن أسواق أوروبا اللاتينية؛ إذ كانت هذه الأسواق بالنسبة لهم أقلّ جاذبية من أسواق البلاد الإسلامية، إذ ليس لديها إلاّ القليل ممّا تقدّمه في إطار التصدير، كما كان يمكن الحصول على جميع منتجات أوروبا الشمالية عن طريق التجار المسيحيين الذين سرعان ما احتشدوا في الأسواق والموانئ الإسلامية، كما أنّ التجار المسلمين لم يجدوا في المدن الأوروبية ما يغريهم للسفر إليها والتجارة في أسواقها، ولا سيّما فيما يخصّ المبيت والطعام، فاجتنبوها، على عكس اليهود الذين لم يكثرثوا كثيراً بهذه الاعتبارات، ولا سيّما أنّهم كانوا يعتمدون على وجود جاليات يهودية في معظم المدن الأوروبية^[٢].

١- جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ م.س، ص ١٧٧.

٢- أوليفيا كونستبل، التجارة والتجار في إسبانيا المسلمة، إعادة تنظيم التجارة في شبه الجزيرة الإيبيرية ٩٠٠-١٥٠٠م، ترجمة: الدكتور فيصل عبد الله، جامعة الدول العربية، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٦٨ و ٥٩.

أمّا الصنّاع اليهود، فقد استقدمهم الإمبراطور فريدريك الثاني Friedrich (١٢١٥-١٢٥٠م) إلى بلاده في القرن الثالث عشر؛ ليشرفوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة في جزيرة صقلية، وكان اليهود في تلك الجزيرة وفي غيرها من البلاد يشتغلون في الصناعات المعدنية، وبخاصّة صناعة الحلي، وظلّوا يعملون في مناجم القصدير في كورونول إلى سنة ١٢٩٠م. وقد انتظم الصنّاع اليهود في أوروبا الجنوبيّة في نقابات وطوائف قويّة للحرف، وكانوا ينافسون الصنّاع المسيحيين منافسة شديدة. أمّا في أوروبا الشماليّة، فقد احتكرت طوائف أرباب الحرف المسيحيّة كثيراً من الصناعات، وأخذت الدول المختلفة واحدة في إثر واحدة تحرّم على اليهود الاشتغال كحدّادين، ونجّارين، وخيّاطين، وحدّائين، وطحّانين، وخبّازين، وأطباء، كما حرّمت عليهم بيع الخمر، والدقيق، والزبد، والزيت في الأسواق، وابتاع مساكن لأنفسهم في أيّ مكان خارج عن الأحياء اليهوديّة، وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة^[١].

١- ول. ديورانت، قصّة الحضارة، العصور المظلمة، ج ٣، ص ٤، م.س، ص ٦١.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة نخلص إلى مجموعة من النتائج، أهمّها:

أولاً: العوامل التي أسهمت في نشأت النظام الإقطاعي في أوروبا الغربية مطلع العصور الوسطى تتمثل في انعدام الأمن، وعموم الفوضى، وانتشار الحركة الديريّة المسيحيّة.

ثانياً: تمثّلت الجذور التي نشأ منها نظام الإقطاع في أوروبا الغربية في نظام الإحسان الروماني أولاً، وطبيعة حياة القبائل الجرمانية الشماليّة ثانياً.

ثالثاً: لمّا كان شارل مارتل مضطراً للاعتماد على سلاح الفرسان بعد تراجع دور المشاة في الحروب الجديدة، عمل على إقطاع جنوده إقطاعات زراعيّة ليتسنى لهم التفرّغ للقتال. ولمّا كانت الفوضى وانعدام الأمن الحالة المسيطرة على المشهد العام، لجأ كثير من الفلاحين الأحرار، الذين كانوا ما يزالون يملكون مزارعهم ملكيّة صريحة، إلى بعض الإقطاعيين طالبين ضمّهم إلى تبعيّتهم طلباً للحماية، فكانت هذه الخطوة التي أسهمت في تكريس دعائم النظام الإقطاعي بين القرنين السادس والتاسع الميلاديين.

رابعاً: تدهورت التجارة في ظلّ النظام الإقطاعي بعد أن ساد مبدأ المقايضة، وانغلقت القرى على نفسها، وتدهورت حالة الطرق ووسائل النقل والمواصلات.

خامساً: أمست الضيعة هي الوحدة الاقتصادية الأولى في النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى.

سادساً: ساد مبدأ استعباد الإنسان لأخيه الإنسان في صورة سادة إقطاعيين وعبيد أرض.

سابعاً: دعمت الكنيسة النظام الإقطاعي، لا بل إنّها كانت بحدّ ذاتها مؤسسة إقطاعيّة.

ثامناً: بدأ النظام الرأسمالي يتبلور في أوروبا منذ مطلع القرن العاشر، وارتسمت أطره العامّة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

تاسعاً: كان التجار قد تكوّنوا من شريحة اجتماعيّة عدّها المؤرّخون حثالة أوروبا.

عاشراً: ترافق النشاط التجاري مع إعادة إحياء المدن الأوروبيّة التي خبا معظمها في

عصر الإقطاع، ممّا أسهم في تكوّن طبقة اجتماعيّة جديدة عرفت بالطبقة البرجوازيّة، والتي شكّلت الحامل البشري للنظام الرأسمالي الجديد.

حادي عشر: كانت الحروب الصليبيّة نافذة أطلّ منها الأوروبيّون على العالم الخارجي، فأدركوا حجم تخلفهم ومدى ما وصل إليه التقدّم العلمي عند العرب المسلمين، كما كانت طريقاً عبّرت من خلاله كثير من ثمار الحضارة العربيّة - الإسلاميّة الفكريّة إلى أوروبا في أحلك سنوات تخلفها، ما دفعها للتخلّي عن النظام الإقطاعي والسعي للانفتاح على التجارة الدوليّة، ممّا أسهم في ميلاد النظام الرأسمالي الجديد.

ثاني عشر: لم يغيّر الأوروبيّون في ظلّ النظام الاقتصادي الجديد عقليّتهم التقليديّة؛ إذ استمرّ استغلال الإنسان لأخيه الإنسان في ظلّ النظام الرأسمالي في صورة تجار أثرياء ومستهلكين فقراء، ملاك مصانع وعمّال، هذا ناهيك عن أنّ الطبقة البرجوازيّة الجديدة سيطرت على السلطة من خلال سيطرتها على مجالس المدن.

ثالث عشر: كانت أعمال الصيرفة والائتمان والربا والغشّ والاحتيال وكيفيّة الأسعار، السمة البارزة للنظام الرأسمالي الأوروبي في العصور الوسطى.

رابع عشر: كان اليهود دعامة رئيسة للنظام الرأسمالي الأوروبي الجديد.

خامس عشر: رغم موقف الكنيسة العقائدي في اعتبار الأرض مصدر المال الشريف، والنفور من أعمال التجارة، وتحريم الربا والفائدة، إلّا أنّ رجال الكنيسة في أوروبا الغربيّة لم يتورّعوا عن الخوض في جميع نشاطات التجارة، وممارسة أعمال الصيرفة والائتمان والربا والفائدة، مع إهمال كامل لواجباتهم الدينيّة.

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمد إبراهيم الشعراوي، الإقطاع وأوروبا في العصور الوسطى، المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٧٠م.
٢. إدوار بروي، تاريخ الحضارات العام، القرون الوسطى، ج ٣، ط ٢، نقله إلى العربية: يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت - باريس ١٩٨٦م.
٣. أوليفا كونستبل، التجارة والتجارة في إسبانيا المسلمة، إعادة تنظيم التجارة في شبه الجزيرة الإيبيرية ٩٠٠-١٥٠م، ترجمة الدكتور فيصل عبد الله، جامعة الدول العربية، القاهرة ٢٠٠١م.
٤. جاك لو كوف، هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ تعريب وتقديم: محمد حناوي، ويوسف نكادي، ط ١، مطبعة مفكر زنقة السنغال، الرباط ٢٠١٥م.
٥. جون كينيث جالبرت، جوزيف كولينز، تاريخ الفكر الاقتصادي، الماضي صورة الحاضر، ترجمة: أحمد فؤاد بلبع، مراجعة: إسماعيل صبري عبد الله، مجلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد ٢٦١، سبتمبر ٢٠٠٠م.
٦. خالد يونس الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، مطبعة ومكتبة دار الأرقم، غزة ٢٠١١م.
٧. راغب العلي وطليلة الصياح وعبد الكافي الصطوف، دراسات في تاريخ أوربة في العصر الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٦م.
٨. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج ٢، النظم والحضارة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩م.
٩. عبد العزيز السديس، تطوّر النظم الاقتصادية، تحوّل أوروبا من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالي باستخدام نظرية كوفاليف، جامعة الملك سعود، الرياض د.ت.
١٠. فرانسيس مور لابييه، جوزيف كولينز، صناعة الجوع، خرافة الندرة، ترجمة: أحمد

- حسّان، مجلّة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ٦٤، أبريل ١٩٨٣ م.
١١. كارل ستيفنس، الإقطاع في العصور الوسطى، ترجمة: محمّد فتحي الشاعر، دار المعارف، القاهرة د.ت.
١٢. محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨ م.
١٣. نعيم فرح، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط ٤، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٥ م.
١٤. نعيم فرح، تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى، ط ٦، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ٢٠٠٥ م.
١٥. نيفين ظافر الكردي، الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتّى القرن الحادي عشر، رسالة معدّة لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١١ م.
١٦. هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، ترجمة عطية القوصي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦ م.
١٧. ول. ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الإيمان، المسيحية في عنفوانها، ج ٥، مج ٤، ترجمة: محمّد بدران، بيروت، ١٩٨٨ م.

هذا الكتاب

يهدف هذا المشروع إلى إعادة قراءة التاريخ الحضاري للغرب برؤية موضوعية تعتمد على التحليل والنقد، وذلك من خلال الغوص في أعماق هذه الحضارة والبحث عن أصولها وجذورها الأولى وامتدادها وتجلياتها عبر القرون والعصور المختلفة وتسجيل مآلها وما عليها؛ للاستفادة من الإيجابيات والابتعاد عن الهفوات والسلبيات سيما ونحن نعيش على أبواب تغييرات حضارية عالمية تغير الخارطة الثقافية. إننا لا نهدف من خلال هذا المشروع إلى إعادة كتابة تاريخ الغرب من جديد، إذ هذا أمر تكفله الغرب بجداره، بل إن هدفنا هو إعادة قراءة هذا التاريخ لإعادة رسم حاضرنا بالاعتماد على ثقافتنا وهويتنا الإسلامية .
نتمنى لكم رحلة معرفية ممتعة...



المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

<http://www.iicss.iq>
islamic.css@gmail.com